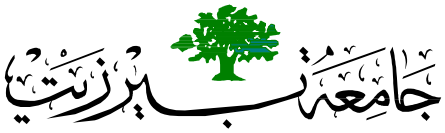

صورة فلسطين في روايات اللاجئين الفلسطينيين
(دراسة مقارنة بين مخيم قلنديا في فلسطين ومخيم اليرموك في سوريا)

The Image of Palestine in the Narratives of Refugees
A Comparative Study of Two Refugee Camps:
Qalandia in Palestine and Al Yarmouk in Syria

لورا فاطمة ابراهيم أحمد عدوان

لجنة المناقشة

المشرف: د. شريف كناعنة

د. زهير الصباغ

د. مجدي المالكي

"قُدِمَت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في برنامج علم الاجتماع من كلية الدراسات العليا في جامعة بيرزيت، فلسطين"

25 آب 2009

صورة فلسطين في روايات اللاجئين الفلسطينيين
(دراسة مقارنة بين مخيم قلنديا في فلسطين ومخيم اليرموك في سوريا)

The Image of Palestine in the Narratives of Refugees
A Comparative Study of Two Refugee Camps: Qalandia in Palestine and Al Yarmouk in Syria

لـــــورا عـــــدوان

لجنة المناقشة

المشرف: د. شريف كناعنة .....

د. زهير الصباغ .....

د. مجدي المالكي .....

25 آب 2009

أهدي هذه الرسالة إلى ذكرى إنسانين مازالت رواياتهم الشعبية حية وتوقظنا حين ننام: ناجي العلي والشيخ إمام

وإلى جميع الرواة الذين سمحوا لي باقتحام ذكرياتهم وأفكارهم ومشاعرهم رغم كل شيء

شكـــــر

أتقدم بالشكر إلى كل من تحمل جدالاتي ونقاشاتي وشاركني بملاحظاته وتعليقاته قبل وأثناء عملي على هذه الرسالة وبعد انجازها: إلى مشرفي د. شريف كناعنة على متابعته وصبره الأيوبي على تأخيري، وإلى الأساتذة أعضاء لجنة النقاش د. زهير الصباغ ود. مجدي المالكي. وإلى جميع الأساتذة في دائرة علم الاجتماع في جامعة بيرزيت والمعلمات والمعلمين الأصدقاء.

وأخص بالشكر الصديقتين: ميساء الحاج أحمد على مساندتها في أثناء الإعداد للبحث وترتيب المقابلات، وعائشة أحمد على وقتها واهتمامها ورعايتها طوال فترة تنفيذ البحث وتفريغ المقابلات والكتابة، شكراً عيوشي.

وأخيراً وليس آخراً،
أشكر والدي على تحمله لجدالاتي وعنادي المستمر معه، والذي بدأ منذ طفولتي حين اختار مخيم اليرموك مكاناً لنشأتنا وحين سألته مرة: "ليش ما استأجرت بيت في المزة قريب من شغلك ومن روضتي؟" أجابني: "لأني بدي إياكم تعيشوا بالقرب من فلسطين ..."
أشكر حبيبي الصغيرين: وليد على دعمه ولينا على وجودها دائماً معي
وأنيتا، حبيبتي، التي ما زالت معلمتي الأكبر في الحياة منذ علمتني معنى "من كل حسب استطاعته ولكل حسب حاجته"

فهـــــرس

ملخص ..... ر
Abstract ..... س
مقدمة ..... ص

أجزاء الدراسة ..... غ

الفصـــــل الأول

الروايات الشفوية كأسلوب للتأريخ الاجتماعي 1
هدف الدراسة 4
منهجية الدراسة 5
توظيف تقنيات النظرية المتجذرة 5
تجربتي مع المبحوثين/الرواة 7
اختيار الرواة 8
لغة الروايات 11
لماذا مخيمي اليرموك وقلنديا؟ 11
البحث في معالم صورة فلسطين في الروايات الشعبية للاجئين 21
فلسطين في الدراسات السابقة بين الاقتلاع واللجوء 25
محددات صورة فلسطين في الدراسة الحالية 31

الفصـــــل الثاني

مقاربات مفاهيمية ونظرية تفيد القراءة التحليلية للروايات 34
السرديات/ الروايات وآليات بناء الذاكرة والمخيال الاجتماعي 35
مداخل نظرية لقراءة صورة فلسطين في روايات اللاجئين بين واقع اللجوء والحلم بالوطن 44
أولاً: مدخل مختصر حول تجارب الحياة في شرط استعماري 46
ثانياً: مدخل لقراءة صورة فلسطين في إطار الهيمنة والسيطرة الإيديولوجية 47
ثالثاً: مدخل لقراءة ملامح الاغتراب في الروايات الفلسطينية 53
مدخل لقراءة صورة فلسطين من الروايات التي جمعتها الدراسة الحالية 57

الفصـــــل الثالث

صورة فلسطين الواقع 61

أولاً: النمط المحبط بين الرفض للواقع والتكيف معه 62
صفات النمط ورواته 62
المحاور العامة ضمن روايات النمط المحبط 63
أولاً: قصة الحياة في البلاد – مزيج من مشاعر الحنين والحزن بأسلوب السخرية السوداء 63
ثانياً: صور المعاناة أثناء التهجير وفترة اللجوء بين جيلين من الرواة 65
ثالثاً: صور من الحياة في شرط استعماري 69
صورة الصدمة والمفاجأة 69
الوجه الآخر للاستعمار 70
صورة اللقاء مع المستعمِر والعمل لديه 71
قصص قصيرة لمقاومة المستعمَر وأخرى طويلة لقمع المستعمِر 73
بعد اقتلاع الآباء، جاء دور الأبناء 75
مقارنة بين قصص المعاناة في المخيمين 78
مولدات الإحباط في المخيمين 82
أولاً: التطورات السياسية بعد أوسلو، وأداء السلطة 82
ثانياً: اليأس والتيئيس من جدوى المقاومة 84
ثالثاً: الانقسام السياسي على الساحة الفلسطينية 85
الرؤية المستقبلية 86
نموذج من روايات النمط المحبط 91

ثانياً: النمط المأسور بالمشهد المحيط 96
صفات النمط ورواته 96
المحاور العامة لروايات النمط المأسور بالمشهد المحيط 98
أولاً: صورة فلسطين مرسومة بتأثير الخطاب الحزبي وعدسة الإعلام وحواجز الاحتلال 98
ثانياً: التركيز على الهم اليومي وغياب الهم التاريخي 102
ثالثاً: سيطرة الواقع بمشهديته وغياب الصوت النقدي 103
الرواية بين المخيمين 104
نموذج من روايات النمط المأسور بالمشهد المحيط 109

ثالثاً: النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي 113
صفات النمط ورواته 113
المحاور العامة لروايات النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي 113
أولاً: الماضي المتجمد 113
ثانياً: الابتعاد عن السياسي باتجاه اليومي 115
الرواية بين المخيمين 116
نموذج من روايات النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي 120

رابعاً: النمط الواقعي السياسي 122
صفات النمط ورواته 122
المحاور العامة لروايات النمط الواقعي السياسي 123
أولاً: قصة الماضي – وصف تاريخي تفصيلي للبلاد 123
ثانياً: قصص الهزائم والانتصارات 125
ثالثاً: الرؤية المستقبلية 129
الرواية بين المخيمين 132
نموذج من روايات النمط الواقعي السياسي 133

الملامح العامة لصورة فلسطين الواقع 139
أبعاد صورة فلسطين الواقع 140

الفصـــل الرابع
صورة فلسطين الأحلام 144

أولاً: النمط الحالم باستعادة الماضي الجميل 145
صفات النمط ورواته 145
المحاور العامة لروايات الحالم باستعادة الماضي الجميل 146
أولاً: صورة الماضي الجميل بين جيلين 146
أ. صورة ماضي البلاد الجميل – الفردوس المفقود 146
ب. صورة ماضي المقاومة الجميل 148
ثانياً: حكاية الاقتلاع من البلاد ورحلة التهجير وأيام اللجوء الأولى 150
ثالثاً: صور من المقاومة 152
رابعاً: قصص الهزائم والانتصارات 154
الرواية بين المخيمين 156

نموذج من روايات النمط الحالم باستعادة الماضي الجميل 158

ثانياً: النمط الحالم الباحث عن فلسطينه 164

صفات النمط ورواته 164

المحاور العامة في روايات النمط الباحث عن فلسطينه 164

أولاً: إعادة تركيب صورة فلسطين بأدوات إبداعية 164

أ. رسم صورة فلسطين بكتابة روايتها مسرحياً 164

ب. رسم صورة لفلسطين يتطلب ثورة فكرية 165

جـ. صورة فلسطين تتشكل من ذاكرة الأجداد 165

د. رسم صورة لفلسطين من خلال إعادة النظر في التجارب الحياتية للفلسطينيين والتفكير بشكل جديد 165

و. رسم صورة فلسطين من خلال التراث 167

ثانياً: نقد الماضي والحاضر والبحث عن مستقبل مختلف 168

الرواية بين المخيمين 170

نموذج من روايات النمط الحالم الباحث عن فلسطينه 170

ثالثاً: النمط الحالم بالغد الأجمل 174

صفات النمط ورواته 174

عرض روايات الحالمين بالغد الأجمل 176

قصة فلسطين هي قصة أمي وصلاح الدين – رواية محمد العطابي – مخيم قلنديا 178

أصل القضية كلها غيرة نساء 179

قصة البلاد – صلاح الدين والأم 179

تجربة زيارة مختلفة للبلاد 181

قصة التهجير– الاقتلاع ليتحول الفلسطيني من ملك في أرضه إلى شحاذ في المخيم 182

مثلما حمل الماضي بأسباب للهزيمة فإن الحاضر يحمل بالأسباب التي ستلد النصر في المستقبل 183

الطريق إلى فلسطين – رواية لينا ترشيحا – مخيم اليرموك 185

الطفولة في المخيم – مرحلة السبعينات 186

قصة ترشيحا: ماضي جدتي الجميل 187

الوجود بين الذاكرة والفعل السياسي 188

مفارقة الهوية 190

رابعاً: النمط الحالم الغاضب 193
صفات النمط ورواته 193
المحاور العامة لروايات النمط الحالم الغاضب 194
روايات ترسم صورة نقدية للواقع السياسي الذي أوصل فلسطين لما هي عليه اليوم 194
أولاً: انتقاد غياب الوعي لدى الفلسطينيين واعتباره سبباً للجوء 195
ثانياً: مرحلة الصحوة والمقاومة في المخيمات 196
ثالثاً: مرحلة الإحباط واليأس من التضحيات العبثية وغياب النقد والنقد الذاتي 198
رابعاً: مرحلة الصمود والاستمرار في المواجهة 202
نموذج من روايات النمط الحالم الغاضب 203

الملامح العامة لصورة فلسطين الأحلام 211
أبعاد صورة فلسطين الأحلام 212

خلاصة واستنتاجات 214

الملحق 1: صور من المخيمين 227

الملحق 2: قائمة الرواة 232

المراجع 244

ملـــــخص

تسعى هذه الدراسة للبحث عن صورة فلسطين كما تعبر عنها روايات مجموعة من اللاجئين من أجيال مختلفة في كل من مخيمي اليرموك وقلنديا سنة 2008. والهدف الأساسي هنا هو الاقتراب من المضامين التي يضفيها الرواة على فهمهم للتاريخ كما تنعكس في رواياتهم، ومحاولة فهم آليات تشكل هذه الروايات، من خلال التحليل المقارن لمضامينها وأشكالها باستخدام عدد من المداخل النظرية والمفاهيمية حول تشكل السرديات الوطنية وآليات بناء الذاكرة الجماعية والمخيال الاجتماعي، وتحول الهويات في شرط استعماري، وديناميات السيطرة ومقاومة الأيديولوجيا المهيمنة، ومفهوم الاغتراب حسب عدد من المنظرين. وذلك من منظور ورؤية 82 رجلاً وامرأةً يتشاركون في صفة اللجوء ويختلفون في شروط حيواتهم باختلاف أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وكذلك بتنوع المسافة التي تفصل بداية حياتهم عن العام 1948 حين تم اقتلاعهم من جذورهم وانتهى بهم المطاف في المخيمين.

أسفرت القراءة التحليلية للمقابلات إلى التوصل إلى ثمانية أنماط من الروايات الفلسطينية تتوزع مضامينها لترسم صورتين لفلسطين: صورة الواقع وصورة الأحلام. ويلاحظ في الفصلين الثالث والرابع، بأنه لا توجد علاقة مباشرة للاختلافات في السرديات بمكان اللجوء بما أن المخيمين _اليرموك وقلنديا_ يسهمان برسم الصورتين، وإن اختلفت نسبة إسهام كل مخيم في رسم صورة الأحلام بالذات حيث يرتفع عدد الحالمين في مخيم اليرموك عنه في قلنديا.

تقترب صورة فلسطين الواقع من الصورة الممكنة والمسموح بوجودها بواقع 47 رواية من المخيمين تميل إلى اختزال فلسطين إلى بعد واحد هو الممكن المكاني أي البعد الجغرافي، وتركز الروايات هنا على **اليومي والحاضر والممكن والسياسي أكثر من تركيزها على الماضي والتاريخي والمأمول في المستقبل** لتثير ردود فعل تزرع في النفس الإحباط، أو الرغبة في الهروب من آثار الاقتلاع المستمرة بتقبل الفاعل الاجتماعي (الرواة هنا) لمبررات حزبية أو فكرية مؤطرة بالواقعية السياسية، أو الانسحاب من التاريخي للانغماس في صراع البقاء اليومي. وعلى هامش صورة الواقع المسيطرة على المشهد يقف بعض الرواة _وعددهم 35 راوياً وراوية من المخيمين_ الذين يحاولون استقراء صورة مختلفة عن الصورة الواقعية التي فرضها الشرط الاستعماري الخارجي تساعدهم عدة عوامل منها اهتمامهم بالقضية الجمعية لتنعكس في مشاريعهم الشخصية فتثير لدى الفاعل الاجتماعي هنا مواقف مختلفة منها الرغبة باستعادة ماضي البلاد الجميل أو الغضب ورفض التخلي عن الحلم والابتعاد عن الوسائل التي تؤجل تحويل الحلم إلى واقع، أو الرغبة التي يرافقها العمل و/ أو الإرادة من أجل خلق إمكانيات وجود فلسطيني جديد. ولا تقتصر هذه الروايات على البعد المكاني فقط وإنما يتداخل فيها بعدي الجغرافيا والتاريخ، حيث يقرأ الرواة أحداث الماضي والحاضر قراءة نقدية ومقارنة مستندين على مخزون من الذاكرة المتقاطعة مع الوعي الفكري والتنظيمي أو الحزبي.
يشير تنوع الروايات إلى تداخل تأثيرات عدة عوامل في حياة الرواة منها مكان اللجوء والجيل، إضافة إلى تجارب الراوي الحياتية وتأثير الأحداث التي يعيشها المجتمع الفلسطيني: السيطرة الاستعمارية–الاستيطانية

المباشرة؛ والهيمنة التي يفرضها عدة أطراف: السلطة الحاكمة، والأحزاب السياسية، أو المؤسسات الأخرى: العائلة، الجهة المشغلة أو المانحة للفلسطيني؛ والتحول في الخطاب الرسمي الفلسطيني بعد أوسلو، إضافة إلى ظروف اللجوء المادية والنفسية؛ والمؤثرات الإعلامية والفكرية والسياسية التي تتعدد منابعها في زمن العولمة. ويظهر تأثير جميع هذه العوامل بدرجات متفاوتة في الروايات، لذا تنتج الرواية عن حصيلة تنازع هذه العوامل المختلفة في ذهن اللاجيء.

تظل النكبة المكان المشترك للذاكرة في أذهان اللاجئين الذين قابلتهم. فقد ظهرت في معظم الروايات كلحظة الاقتلاع العنيف من المكان–الوطن، بينما تحولت في بعض الروايات إلى "مكان للذاكرة"، لتتخذ صيغة شعار ومناسبة يتم إحياؤها، من خلال عمل مُمَأسس. ويطل حدث آخر هو اتفاقيات أوسلو التي يمكن أن توصف كلحظة توتر في الروايات على اعتبار أن أوسلو، شكل لحظة التجسيد المادي للشرخ في صورة فلسطين –بين الواقع والأحلام– كما تتجلى على أرض الواقع وفي الخطاب الفلسطيني الرسمي متمثلاً بانتقال مركز ثقل المنظمة من الخارج إلى الداخل والتغير الذي تطلبه هذا الانتقال في المشروع الفلسطيني من مشروع تحرير الأرض إلى مشروع بناء دولة على أجزاء متناثرة من الأرض. ويبدو واضحاً أن الرفض والغضب سمتان تصبغان معظم الروايات وإن اختلفت شدة الرفض وحدة الغضب بين الأنماط المختلفة. فالصورة التي يقدمها اللاجئون اليوم لفلسطين بجانبها النقدي قد لا تبدو تاريخاً بالمنظور الرسمي النخبوي للتاريخ لكنها تعبر عن الضمير التاريخي للشعب الذي عايش اللحظات التاريخية وما زال يعيش نتائجها.

Abstract

This study presents images of Palestine in 2008 as expressed in the narratives of two groups of refugees who live in Al-Yarmouk (Syria) and Qalandia (Palestine) refugee camps. The study's aim is not restricted to presenting a social and political documentation of the Palestinian history as narrated by 82 refugees varying in age, sex, and in their social, political and cultural backgrounds only, but it also aims at examining the refugees' perceptions and understanding of the Palestinian history through a comparative analysis of their narratives. In its attempt to achieve a thorough understanding of the process of narratives' formations the study makes use of conceptual frameworks on the formation of national narratives, social imaginary and the collective processes in the construction of meaning and the way in which individuals interpret and assign meaning to past events and current experiences and how these affect their future perspectives. The study also makes use of theoretical contributions about identity transformation in colonial conditions and the dynamics of power and resistance of dominant ideologies and the concepts of alienation.

The analysis of the narratives' content led to 8 different patterns of Palestinian narratives that can be grouped to present two main images of Palestine: the reality image and the dream image. It appeared, in chapters 3 and 4 that there is no direct relationship between the location of refugeeness and the narratives' style and content. As both camps contribute to building the two images although the dreamers number in Al-Yarmouk exceeds those in Qalandia.

The reality image that appears in 47 narratives tends to reduce Palestine to one dimension, geography. The content of the narratives constituting this image concentrates on the present and current political possibilities rather than the historical past and future aims. This image is reflected in 4 patterns: the disappointed, the political realist, the imprisoned by external forces imposed by political and media discourses and harsh life under the Israeli occupation and the retreat from the historical to the daily struggle.

While the dream image which appears in 35 narratives adds a historical dimension to the geographical one to create an image of Palestine that is different from the one imposed by external colonial conditions. The narrators' interests in the collective cause are reflected in their personal plans, aims and dreams. These appear in 4 different patterns of narratives: the dreams to restore the old wonderful days, the dreamers who are searching for their Palestine, the dreamers of a better future and the angry dreamers.

Having various types of narratives reveal the different factors that play roles in the refugees lives: the location of refugeeness, generational dimension, social institutions in both Syria and Palestine, in addition to the living experiences of narrators and the effects of the continuous events and happenings on the Palestinian society starting from the direct colonial domination and the hegemony imposed by the ruling authorities, political parties and other institutions like the family, employer or donor

bodies. Another important effect is the u-turn in the official Palestinian discourse after Oslo in addition to the material and psychological conditions of refugeeness and the effects of the different political, cultural and media trends. The effects of these conflicting factors and forces in the minds of refugees appear in different levels in the narratives collected by this research.

Al-Nakba remains the common point of reference in the minds of the refugees I interviewed for this study. It was portrayed as the moment of violent uprootedness from homeland in most of the narratives. However, it turned in some of the narratives to "Lieux de mémoire"- *place of memory* as per Pierre Nora, where Al-Nakba became an emblem or an annual event of commemoration of the disaster in an institutional manner. The other event that appears as a tense and stressful point of reference in the narratives is Oslo Accords. Oslo accords are presented in the informal narratives of the refugees I met here as the material embodiment of the break in the image of Palestine between reality and dreams as it is seen nowadays in the formal Palestinian discourse that transformed its political project from liberation to state building.

The majority of the narratives are characterised by anger and refusal, the level of which vary among the 8 patterns of narratives that appeared in this study. Consequently, the image(s) of Palestine that are created here in their critical perspective might not be viewed as formal History, yet it represents the historical conscience of the people who participated and/ or witnessed the real moments of these historical events that are still shaping their lives and those of their descendents.

"حكايتنا مش مكتوبة .. بالتاريخ .. مضواية بسهرات الناس .. بلا تواريخ .. ما مننطر
كاتب يحبيها ...سيرتنا الناس بتحكيها ... عليها علّي عليها ..."[1]

مقدمة

عندما عدت في المرة الأخيرة إلى المكان الأول الذي تعرفت فيه على فلسطين، مخيم اليرموك، وحين كنت أودع صديقتي، رجتني والدتها، أم محمد –التي هُجّرَت من صفورية أيام النكبة الأولى– بأن لا أنسى في زيارتي القادمة أن أحضر لها بعضاً من تراب قريتهم، ومن أمام بيتهم بالذات، والذي وصَفَته لي بدقة: "فوق على التلة جنب بيت أبو خليل، الكل هناك بيعرفه، اسألي أي حدا بدلّك، وجنب بيتنا في خروبة كبيرة، لا تنسي المرة الجاية، لا تيجي بدون التراب...". كانت تحدثني وصورة بيتها ترتسم في خيالي، بينما يمر شريط صور القرى المُهجّرة التي رأيت بقاياها على التلفاز وفي بعض الكتب والمواقع الالكترونية أمام ناظري.

بقي حديث أم محمد يدور ببالي وأنا في طريقي إلى البيت، حيث أعيش متنقلة بين مدينة رام الله وقرية صوريف. أدركت وقتها أن الصورة التي لدي لفلسطين–أنا التي سمحت لي الصدفة بالعودة من مخيم اللجوء في الخارج إلى ما تبقى من أرض الوطن– تختلف عن تلك التي اختزنتها أم محمد طوال ستين عاماً، حين أُجبِرَت على ترك صفورية ولم تحمل معها إلا صورة بيتها الذي ما زالت تعتقد أنه يقف هناك بانتظارها، هو والجوار الذي شهد ولادتها ببيوته وناسه وأشجاره. ترسم أم محمد صورة مفصلة لفلسطين من خلال روايتها لحياتها في منزل أهلها في قريتها صفورية، على الرغم من أنها لم تتجاوز حينها في العام 1948 السابعة من عمرها. وبعد مرور أكثر من ستين عاماً من الانتظار في مخيم اللجوء، ابتكرت أم محمد طريقتها الخاصة للعودة إلى بيتها في فلسطين، موصيةً بناتها وأبنائها بنثر التراب الذي طلبت مني إحضاره من صفورية على قبرها.

يرتبط اختياري لموضوع البحث بتجربتي مع المخيم كحيز مكاني وثقافي يمثل جانباً من الرواية الفلسطينية؛ فقد كان مخيم اليرموك بالنسبة لي وللكثيرين من حولي بمثابة وطن مؤقت، فهناك فلسطين ولوبية وزكريا والجليل واللد وصفورية واجزم وحيفا ويافا والجرمق والمنصورة وصفد ودير ياسين والقدس والخليل وغزة وبيسان وغيرها الكثير، كلها حولنا في أسماء الشوارع والأزقة والمدارس والدكاكين، وفي أعناق الفتيات اللواتي كن يتزين بخارطة فلسطين المذهبة أو بمفتاح العودة، وأحياناً بالاثنين معاً. هناك تعرفت على الوطن وحاولت أن أرسمه لأول مرة، لم أكن أجيد مسك الريشة، لكن خيالي كان واسعاً يبحث باستمرار عن أجوبة لأسئلة تتكاثر بتكاثر مساحة المخيم الرمادية من حولي، تزينها صور لشهداء سقطوا ويسقطون كل يوم، وشعارات كنا نرددها في المسيرات التي كانت تنطلق كلما هلت ذكرى اقتلاع وتشريد ومجزرة واغتيال. كانت صورة فلسطين تتشكل في خيالي ويُعاد تشكيلها باستمرار من خلال القصص التي نقرأها أنا ورفيقاتي في المدرسة، والحكايات التي نسمعها بين الحين والآخر من نسوة ورجال يعيشون على أمل كبير برؤية البلاد التي يروون حكايتها، أملهم كبير كِبَر المأساة التي يعيشونها وعائلاتهم منذ انتزاعهم من وطنهم.

---

[1] غنتها أميمة ومارسيل.

ومن الطبيعي أن يختلف الواقع الذي وجدته على أرض فلسطين عن الصورة التي رسمتها له في المخيم البعيد، فلم يكن الإعلام في تلك الفترة قد اقتحم حياتنا بالشكل الذي هو عليه الآن، لكن ما لم يبدو طبيعياً بالنسبة لي في البداية، هو وجود المخيم الفلسطيني في فلسطين، وعلق السؤال بلساني لفترة: "هون في مخيمات كمان؟"، وكل مرة يستغرب من حولي سؤالي "الساذج". وحين مررت بمخيم الدهيشة لأول مرة شعرت بالجو الحميم ذاته، فهو يشبه المخيم الذي أعرفه، ثم تكرر الشعور ذاته لدى زيارتي لكل من مخيم العزة والفوار والعروب والأمعري وقلنديا؛ الأزقة نفسها هنا وهناك، حتى أشكال المنازل والأبواب والحيطان المتلاصقة والمرشقة بالبوسترات والشعارات، كلها جعلتني أفكر بالحياة غير الطبيعية التي يعيشها الفلسطيني، كما وصفها أحد الرواة الذين قابلتهم وكان يحدثني عن حوار له عبر الانترنت chat مع سيدة أمريكية:[2]

> "تفاجأتُ برؤيتها حول فلسطين، ما كانت تعرف بوجود بلد اسمها فلسطين على الأطلس، وتناقشنا على قضية كيف بتحتفل أمريكا بعيد الاستقلال وبتروح تحتل بلد ثانية، وبعد نقاش كثير صارت تفكر شوي إنه الواحد بيسوى يتطلع بعينتين. أنا حاكيلها عن فارس عودة وقلتلها إنه هذا قد بنتك عمره 13 سنة، وأكبر أحلامه إنه يموت لما يكبر بالعمر، لما يهرم، هاي أكبر أحلامه، إحنا بالنسبة للفلسطينية العايشين بفلسطين أكبر أحلامهم هو الموت الطبيعي، إنه ناس تموت لأنه الله بده إياها تموت، موت طبيعي، خلص كبر ومات لأنه كبر بالعمر أو مرض! بس المشكلة الأساسية إنه الإسرائيلي بتحكم بطريقة الموت." [3]

إن قصة فلسطين مع السيطرة الاستعمارية/الكولونيالية[4] هي قصة طويلة، فلم تنتهِ معاناة الفلسطينيين من السيطرة الكولونيالية البريطانية، إلا لتبدأ رحلة جديدة من المعاناة من الاستعمار الصهيوني الاستيطاني والذي هو نفسه امتداد لمشروع الاستعمار الأوروبي للمنطقة وبدعم منه،[5] تحت شعار "منح يهود العالم وطناً قومياً في فلسطين". والمشكلة أن فلسطين لم تكن أرضاً خالية كما ادعوا، مما خلق بموازاة "الدولة الإسرائيلية" كارثة إنسانية تمثلت في اقتلاع أكثر من ثلثي شعب فلسطين من أرضهم، ليتحولوا بعد ذلك إلى لاجئين يعيش معظمهم في مخيمات لا تبعد عن أراضيهم الأصلية سوى بضعة كيلومترات. هنا بدأت كارثة الفلسطينيين التي أسموها النكبة، بشكل رسمي، مع إعلان قيام دولة إسرائيل في العام 1948، والذي تُرجم على الأرض برزمة من التفكيكات المستمرة: تفكيك الحيز الجغرافي والسكاني والطبقي والاقتصادي والثقافي والسياسي للمجتمع الفلسطيني مروراً بنكسة العام 1967 التي استكملت فيها إسرائيل سيطرتها العسكرية على الجزء المتبقي من

---

[2] المقصود هنا سيدة أمريكية ذكر الراوي أنه يتحدث معها عبر برنامج الدردشة على الانترنت.

[3] من مقابلة مع شريف الطنطوري، 28 سنة، أجريت في مخيم اليرموك خلال شهر آب 2008.

[4] هنا أود الاشارة إلى أنني أستخدم مفردة استعمار لتحمل معاني مفردات "الكولونيالية التقليدية والامبريالية المتطورة عنها" بما تتضمنه من علاقات يسيطر فيها طرف قوي على ثروات ومقدرات طرف ضعيف ليوسع قاعدة استغلاله الرأسمالي باستخدام كافة أدوات السيطرة العسكرية المباشرة وغير المباشرة. ومن هنا تنطلق قراءتي للواقع الفلسطيني في شرط كولونيالي، ومن هنا أيضاً تحفظي على مصطلح "استعمار" بما يحمله اللفظ من معاني بعيدة عن مضمون الفعل إذا أرجعنا المصطلح إلى جذره "عَمَرَ". وفي غياب مصطلح متفق عليه يعبر عن الحالة الكولونيالية سأستخدم مصطلح استعمار في هذه الدراسة، على الرغم من بروز محاولات فردية، لم يجرِ تعميمها، لإعادة تسمية الشرط الكولونيالي مثل ما قام به زميل دراستي حسين مغامس فأسماه احتجاجاً "الاستخراب" أو ما أطلق عليه علي شريعتي "الاستحمار" في إشارة إلى السيطرة النفسية والروحية غير المباشرة التي يفرضها المستعمِر على المستعمَر لضمان استمراره في "الاستغلال" و"الاضطهاد" و"الاستعباد" وهي كلها صفات تتموضع في صميم الشرط الكولونيالي وتعبر أكثر عن مضمونه من مفردة استعمار التي درج استخدامها.

[5] هناك العديد من الدراسات التي أوضحت الدور الذي يلعبه الكيان الصهيوني كامتداد للمشروع الاستعماري الرأسمالي الغربي الذي قدم إلى المنطقة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع تضاعف القدرة الإنتاجية للبنية الصناعية في البلدان الرأسمالية بما يفوق طاقة السوق المحلي على الاستيعاب بهدف غزو أراض جديدة والسيطرة على المواد الخام (القطن المصري والهندي على سبيل المثال) وإيجاد أسواق لتصريف منتجاتها وذلك بالاعتماد على القدرة العسكرية والتفوق التسليحي. ومن الدراسات التي حللت مفهوم المشروع الكولونيالي الغربي بشكل عام أو الموقع الاستعماري للكيان الصهيوني والدور الذي لعبه الكيان في خدمة مصالح المركز الامبريالي والنظام العالمي الجديد الذي برز لاحقاً: ((Amiya Kumar Bagchi, 1982)، (Alexander Scholch, 1982)، (Richard Stevens, 1971)، (أحمد سعد 1985)، (اسماعيل الناشف 2005، 2006)، (عادل سمارة، 2008).

فلسطين والمتمثل بالضفة الغربية وقطاع غزة ووصولاً إلى اتفاق أوسلو؛ الذي فكّك فلسطين إلى أجزاء متناثرة تحت مسمى الضفة الغربية وقطاع غزة. صاحب هذه التغيرات المادية على أرض الواقع، تغيرات في الوعي الفلسطيني على المستويين الرسمي والشعبي:

> "هدمت النكبة البنية الاجتماعية التقليدية للمجتمع الفلسطيني وفصلت الفلاحين الفلسطينيين عن الأرض -مصدر معيشتهم- وقطعت ولاءهم المباشر لها. بالنتيجة، أصبحت الأرض والعودة إليها رموزاً وطنية هامة" (Nakhleh, 1975: 32).

ظهرت هذه الرموز في سرديات الفلسطينيين السياسية والأدبية على حد سواء، رافق ذلك نشوء حركات مقاومة سياسية تتبنى أيديولوجيا قومية رفعت شعار الثورة والكفاح المسلح، وكان للاجئين في المخيمات دوراً في هذه الحركات بشكل حولهم من ضحايا سلبيين إلى صامدين ومقاتلين وعائدين، أي باختصار إلى أعضاء فاعلين ومشاركين في رفض رواية الماضي المهزوم، وظهر هذا في روايات اللاجئين التي جمعتها بعض الأبحاث الإثنوغرافية التي أُجريت في مخيمات اللجوء في لبنان (Sayigh 1979, 1980, 1998; Peteet 2005). وشكلت قصة استعمار فلسطين، وبالتحديد "نكبة الـــ 48" والقرية والماضي الفلاحي الجميل وحاضر اللجوء ومستقبل العودة، الرموز الرئيسية التي بنى الفلسطينيون حولها هويتهم الجماعية القومية[6] وأهم مكوناتها الذاكرة،[7] كما يورد باحثون ومفكرون فلسطينيون من حقول مختلفة.

إن تردد هذه الرموز في روايات الفلسطينيين الرسمية والشعبية لم يحدث بالصدفة، فالرموز التي يتم اعتمادها لبناء الذاكرة القومية "انتقائية بطبيعتها" (بشارة، 1997: 47). والذاكرة الجماعية "ليست شيئاً خامداً سلبياً، بل هي مجال فاعلية، يتم في إطاره انتقاء أحداث الماضي وإعادة بنائها وصونها وتحويرها ومهرها بالدلالات السياسية" (سعيد، 2002: 101)، هذا ما أجمع عليه باحثون ومفكرون فلسطينيون في حقول الأنثروبولوجيا والأدب والسياسة:

> "تأتي الرموز، التي هي جوهر الهوية الجماعية، عبارة عن تلخيص للصفات المشتركة بين أفراد الجماعة وللتاريخ والتجارب التي مر بها أفراد الجماعة معاً بطبيعة كونهم أفراداً في هذه الجماعة،[...][8] ومع أن الفلسطينيين اشتركوا في تاريخ وتجارب كانت تجمع بينهم وتميزهم عن غيرهم من أبناء الشعب العربي، إلا أنهم كانوا يدركون هذه التجارب بوعي وهوية عربية أكثر مما هي فلسطينية، لأنهم كانوا يرون أنفسهم كعرب يدافعون عن قطعة أو مساحة من العالم العربي اسمها فلسطين، والحقيقة أن الهوية الفلسطينية تبلورت بشكل خاص أثناء تجربة الشتات في العام 1948 وما حل بالفلسطينيين من المصائب والمآسي بعد ذلك مباشرة، فجميع الشعوب تقريباً تلجأ إلى حيلة نفسية أو فكرة في التعامل مع ماضيها، وهي أن تأخذ أيديولوجيتها وأهدافها القومية والسياسية في الحاضر والمستقبل ثم تسقط هذه الأيديولوجية والأهداف والطموحات على الماضي، ثم تعود فتستعمل الماضي لتبرير الحاضر والتحضير للمستقبل"[9] (كناعنة، 2000: 62-64).

---

[6] إن نشوء الهوية الفلسطينية لم يتم بمعزل عن الشرط الاستعماري الذي وحد الفلسطينيون أنفسهم فيه، كما يلخص أحمد أشقر: "إن نشأة الهوية الفلسطينية "المستقلة" هي نشأة مأزومة أصلاً. لأنها لم تنشأ خلال عملية تجمع قبائل وإثنيات مختلفة في إطار سياسي اجتماعي فكري وهوية موحدة، كما حدث في أوروبا في بداية ومنتصف القرن التاسع عشر. بل نتيجة عملية تفكيك استعماري خارجي بدأ مع ضعف الإمبراطورية العثمانية [...] وكانت كبرى الضربات التي تلقتها وحدة الهوية العربية، التي كان هاجسها الانفصال عن الدولة العثمانية وإقامة كيان سياسي عربي، أو عربي-إسلامي، قبل أن تستقر على الإقليمية، هي نتائج هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى وتنفيذ مشروع سايكس – بيكو عام 1916 الذي قسم الوطن العربي إلى كيانات متناحرة تقوم بتأدية وظائف متعددة للاستعمار الخارجي. وهنا يطرح أشقر فكرة الوحدة/ الهوية العربية كحل لتجاوز ما هو تفكيكي كالإقليمي والديني والطائفي (أشقر، 2009: 211). مأخوذ من نشرة أعمال مؤتمر انعاش الأسرة "الهوية الفلسطينية إلى أين؟"

[7] هناك أمثلة كثيرة على استخدام هذه الرموز في أغلب الخطابات السياسية والأعمال الإبداعية من شعر وقصة ونثر في فترات الستينات والسبعينات والثمانينات، وقد أشار العديد من الرواة الذين قابلتهم إلى كتابات غسان كنفاني، وأشعار محمود درويش وسميح القاسم، ورسومات ناجي العلي، وأغاني فرقة العاشقين وأبو عرب والشيخ إمام.

[8] استخدام التنقيط في الاقتباسات من الكتب والمراجع هو للدلالة على حذف بعض الجمل و/ أو الفقرات التي يتوسع فيها الكاتب في شرح الموضوع، ولم أر حاجة لإيرادها في الاقتباس هنا تجنباً للإطالة.

ويقول فيصل دراج في السياق نفسه:

"إن الهوية الفلسطينية المركبة والمعقدة أو الجوهرية، إن صح القول، هي الصادرة عن تجربة اللجوء والمصادرة والمقاومة. هذه الهوية تمد الفلسطيني بثقافتين وتاريخين وشخصيتين: ثقافة معطاة وتاريخ معطى وشخصية معطاة، ترد جميعها إلى الولادة والتاريخ، وثقافة وتاريخ وشخصية صادرة عن التجربة. وعلى هذا، فلا وجود لثقافة فلسطينية حقيقية خارج "زمن النكبة"، ولا تاريخ إلا انطلاقاً من هذا "الزمن"، ولا شخصية فلسطينية بمعزل عن أشكال الاضطهاد التي جاء بها اللجوء. لا يعني هذا أبداً الاستخفاف بالتاريخ الذي سبق النكبة وبثقافته، فهذا كلام سخيف تافه المعنى، فالمقصود استلهام التاريخ القديم من وجهة نظر الحاضر، وإعادة قراءة الموروث الثقافي من وجهة نظر الحاضر أيضاً، وبسبب ذلك، يستطيع الفلسطيني أن يستذكر أن زمنه الأساسي الجوهري قائم في الحاضر، وأن هذا الحاضر هو الزمن المركزي الذي يستدعي الماضي ويقرر شكل المستقبل" (دراج، 2008: 25-26).

انطلقت هذه الدراسة من هنا، من الحاضر، فتمت أغلب اللقاءات مع المبحوثين والمبحوثات[10] في الفترة الواقعة بين تموز وكانون الأول 2008، بغرض البحث عن الصورة الذهنية لفلسطين في سرديات/ روايات لاجئين من أجيال مختلفة في كل من مخيمي اليرموك وقلنديا، كنموذج للروايات الفلسطينية في حالتين للجوء في الخارج والداخل. انطلقت الدراسة لتبحث عن إجابات للأسئلة التالية: ما هي الرواية–ات التي يسردها اللاجئون عن فلسطين في المخيمين؟ من أين تبدأ؟ وما هي القصص التي تسيطر على الروايات؟ وأين هي من الماضي والحاضر والمستقبل؟ لكن لا يقتصر هدف الدراسة على جمع روايات شفوية غنية من لاجئين ينتمون إلى أجيال مختلفة في المخيمين، وإنما تحاول فهم المؤثرات التي تسهم في تشكيل الروايات المختلفة، وذلك من خلال قراءتها في ضوء الشرط الاستعماري والظروف التي أنتجتها القوى الخارجية والداخلية المسيطرة على الفضاء الفلسطيني اليوم. والشرط الآخر الذي لا يقل أهمية هنا، هو التحول في الخطاب الرسمي الفلسطيني بعد أوسلو،[11] والذي نقل المشروع الوطني الفلسطيني الرسمي من مشروع تحرير وعودة إلى الوطن، إلى مشروع دولة فلسطينية على جزء من الأرض، مع تأجيل بحث موضوع اللاجئين إلى أجل غير مسمى.[12] واستدعى هذا بدوره ربط روايات اللاجئين بالظروف المادية والاجتماعية والسياسية التي يعيشونها بفعل استمرار حالة اللجوء وتغييبهم من مشاريع التسوية السياسية من جانب، وبالأيديولوجيات السياسية و/أو الحزبية و/أو الفكرية المهيمنة[13] في المجال الفلسطيني والعربي والعالمي من جانب آخر، حيث لم يعد المخيم، في الحالتين اللتين يغطيهما هذا البحث على الأقل، جزيرة معزولة عن البيئة التي حوله، بل ومن الواضح أن

---

[9] وردت المقاطع المجمعة في هذا الاقتباس في كتاب من نسي قديمه تاه للباحث شريف كناعنة وبالتحديد في مقالة بعنوان "دور التراث الشعبي في تعزيز الهوية"، قدمت في مؤتمر (المشروع الثقافي الفلسطيني) الذي عقد في الناصرة سنة 1992، ويركز كناعنة اهتمامه بالرموز الشعبية في سياق تعزيز الهوية الفلسطينية بين السكان العرب الموجودين في منطقة 1948، وهو يحاول تحديد الرموز التي تسهم صياغتها في تعزيز الهوية لدى هذه الفئة.

[10] سأحاول التذكير والتأنيث قدر الإمكان للإشارة إلى مشاركة الجنسين في البحث، وفي المرات التي قد يشار فيها للجنسين بالمذكر يكون السبب الاختصار فقط.

[11] يصف وسام رفيدي دور أوسلو التفكيكي للهوية الوطنية الفلسطينية في ورقة قدمها في مؤتمر "الهوية الفلسطينية إلى أين؟" فيقول: "نحن أمام تأثير مركب لاتفاق أوسلو: همش المنظمة ككيان سياسي/ معنوي وبالتالي، ضرب المقوم الأساس للهوية الوطنية، فأحدث شرخاً في وحدة الشعب الفلسطيني فضرب بالتالي، أيضاً، هويته الوطنية" (رفيدي، 2009: 181). مأخوذ من كتاب المؤتمر المذكور الذي عقد في جمعية انعاش الأسرة في الفترة 21-23/3/2008. تحرير: شريف كناعنة.

[12] اتفاق أوسلو هو اتفاق سلام تم توقيعه بين منظمة التحرير الفلسطينية وحكومة إسرائيل في واشنطن بتاريخ 13/9/1993، سمي باتفاق إعلان المبادئ حول ترتيبات الحكومة الانتقالية الذاتية، اعترفت منظمة التحرير بموجبه بإسرائيل رسمياً، ونص على إقامة سلطة حكومة ذاتيه انتقالية فلسطينية (سميت فيما بعد السلطة الوطنية الفلسطينية) ومجلس تشريعي منتخب في الضفة الغربية وقطاع غزة، ونص الاتفاق على تأجيل المفاوضات حول القضايا الخاصة بالقدس، واللاجئين، والمستوطنات، والحدود والترتيبات الأمنية إلى وقت لاحق في إطار مفاوضات الحل النهائي، كما نص على إنشاء قوة شرطة فلسطينية لضمان النظام العام في الضفة الغربية وقطاع غزة.

[13] بالرجوع إلى نظرية الهيمنة لدى غرامشي وألتوسير.

سكانه يختلطون بالمحيط المحلي في حياتهم اليومية، وبالمحيط العالمي من خلال الفضائيات، وبحدود أقل من خلال المؤسسات الغربية العاملة في البلدين.

أجـــزاء الـــــدراسة

يحدد الفصل الأول موقع هذه الدراسة ضمن دراسات التاريخ الاجتماعي التي تُعنى بجمع روايات الأشخاص والجماعات التي تتعرض حياتها للاضطهاد وسرديتها للتهميش. ثم يلخص هدف الدراسة، ومنهجية البحث الكيفي التي تم اعتمادها في جمع الروايات الشفوية للاجئين باستخدام طرق النظرية المتجذرة. كما ويقدم وصفاً لمجتمع البحث في كل من مخيمي اليرموك وقلنديا، ويحدد المفهوم الرئيسي للبحث: صورة فلسطين.

يقدم الفصل الثاني مراجعة لمفاهيم الذاكرة والذاكرة الجماعية وتشكل السرديات/ الروايات لدى الشعوب في الحالة العامة. ومن ثم يعرض المداخل النظرية التي خدمت عملية قراءة الروايات وتحليلها، للتوصل إلى تحقيق هدف البحث بالتعرف على آليات بناء الرواية أو الروايات المشكلة لصورة فلسطين: مقاربة تعتمد على قراءات نظريات الاستعمار، فانون تحديداً، وآليات الهيمنة والسيطرة وأثرها على تشكيل الهويات، بتلخيص موجز لبعض المقولات النظرية المتعلقة باستخدام الأيديولوجيا في السيطرة والهيمنة على الذاكرة الجماعية والرواية–ات الشعبية. والمفهوم النظري الآخر الذي ارتأيت مراجعته بعد القراءة الأولى للروايات في سياق الواقع السياسي الفلسطيني العام هو مفهوم الاغتراب بتجلياته المختلفة: الاستلاب، التشييء/الفيتيشية، الأنومي/اللامعيارية، التي تبدو المرادف الطبيعي للحياة في شرط اضطهادي واستعماري.

أما الفصلين الثالث والرابع فيقدمان قراءة تحليلية في صور فلسطين كما شكلتها روايات اللاجئين، والتي تم تصنيفها ضمن عنوانين رئيسيين من حيث مضمون الرواية وموقع الراوي من أحداثها ودور الفاعلين فيها، هما صورة فلسطين الواقع وصورة فلسطين الأحلام. وينقل الفصلان مقتطفات من الروايات الشفهية للاجئين الذين قابلتهم في مخيمي اليرموك وقلنديا. فيعرض الفصل الثالث صورة فلسطين الواقع والتي بنتها روايات 47 راوٍ وراوية يتوزعون بين أربعة أنماط من الرواة، هم: الواقعي السياسي، والمحبط بين الرافض للواقع والمتكيف معه، والمأسور بالمشهد المحيط، والمنسحب من التاريخي إلى اليومي. بينما يعرض صورة فلسطين الأحلام 35 راوية وراوٍ تم تصنيفهم ضمن أربعة أنماط، هي: الحالم الغاضب، والحالم باستعادة الماضي الجميل، والحالم الباحث عن فلسطينه، والحالم بالغد الأجمل. يسبق عرض رواية كل نموذج تقديماً لصفات النمط ورواة هذا النمط/ المبحوثين[14] في محاولة لاستكشاف العلاقة بين صفات المبحوثين ومضامين رواياتهم وشكلها (اللغة والأسلوب). ويتداخل عرض وقراءة الروايات مع التحليل النظري والمفاهيمي المُشار إليه في الفصل الثاني.

ويقدم الجزء الأخير ملخصاً للبحث واستنتاجاتٍ عامة توصلت إليها حول صورة/ صور فلسطين في المخيمين وداخل كل مخيم تحديداً بما قد يسهم في فهم كيفية بناء صورة الوطن في الذاكرة والرواية الشعبيتين من قبل الأفراد والجماعات التي تعيش حياة اللجوء والاقتلاع المتواصل. وتم التركيز، في هذه الدراسة، على المحاور الرئيسية التي تتقاطع في الروايات: ظروف الحياة في شرط استعماري وفي ظل هيمنة السلطات السياسية المسؤولة في المحيط الصغير الذي يتواجد فيه المخيمين والمحيط الأكبر العربي والعالمي والذي تبين من خلال الروايات أنه لا يقل في تأثيره عن المحيط الصغير؛ ومواقف اللاجئين: قراءة في تفاعلهم مع وضع

[14] يستخدم البحث غالباً مصطلح الرواة في الإشارة إلى المبحوثين.

اللجوء وظروفه وتأثير هذا الوضع على حياتهم وبالتالي على رؤيتهم لفلسطين. ويعرض هذا الجزء ملخصاً للمصادر الرئيسية التي برزت في تشكيل روايات كل نمط والتداخل بينها.

وأورد في نهاية البحث ملحقين: يعرض الأول مجموعة من الصور التي أخذتها لشوارع المخيمين، والمنازل، والمدارس، والبوسترات والشعارات المرسومة على الجدران، والمقابر. ويقدم الملحق الثاني مجموع رواة الأنماط الثمانية الذين شكلوا برواياتهم صورة فلسطين الواقع وصورة فلسطين الأحلام.

الفصـــــل الأول

الروايات الشفوية كأسلوب للتأريخ الاجتماعي

مازال موضوع اللاجئين الفلسطينيين مثار جدل واهتمام العديد من الباحثين، أكاديميين ومؤسساتيين،[1] بعد مرور واحد وستين عاماً على نكبة الفلسطينيين وتهجيرهم القسري من أراضيهم. وقد تناول الباحثون الموضوع من وجهات نظر مختلفة ضمن عدة حقول. وإذا توجب تصنيف هذا البحث فهو يأتي ضمن البحوث التي تهتم بالسرديات الشعبية لدى اللاجئين والجماعات التي تعرضت إلى تهجير قسري من أوطانها الأصلية، أي ضمن حيز الدراسات التي تهتم بالتاريخ الاجتماعي، مقابل سرديات التاريخ الرسمي التي "برغم ما فيها من قسمات لامعة معبرة تعبيراً صحيحاً عن بعض لحظات تاريخية مرحلية، إلا أنها أقرب إلى الرؤى الإيديولوجية منها إلى الاستخلاصات والنتائج العملية. ويرجع ذلك إلى أنها أنساق كلية تسجن التاريخ الإنساني داخل قوالب وأطر مفروضة من خارجه" (العالم، 1992: 12).

وينطبق هذا على الحالة الفلسطينية أيضاً، حيث تركز الرواية التاريخية الفلسطينية على الأحداث السياسية من وجهة نظر النخبة والقيادات السياسية، أما الفاعلون الاجتماعيون فهم غير موجودين في كتب التاريخ إلا كأرقام تختزل القتلى والمهجرين منهم، وهذا ما أشار إليه مجدي المالكي في افتتاحية مؤتمر حول التأريخ الاجتماعي الفلسطيني:

> "لقد أصبح من المعروف أن الخطاب السياسي القومي قد طغى على التأريخ الفلسطيني، فبرز هذا التاريخ كأنه تاريخ بطولات في مواجهة الاستعمار، وتاريخ نخبة سياسية تقود الصراع القومي، وغاب خلف كل ذلك الإنسان الفلسطيني العادي، والعائلة الفلسطينية البسيطة، التي ما زالت تكد وتشقى لتعيل أبنائها على أرضها منذ أكثر من قرن. لقد جُندت القرية بتراثها، والمدينة بأحيائها، والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لصالح الخطاب السياسي القومي، فخرجنا بتاريخ مبتور فيه الكثير من الافتراضات التي تحتاج إلى المراجعة [...][2] أعتقد أنه لا بد من تطوير رؤية أكثر شمولية لدراسة التاريخ [...] لتمنح المشهد التاريخي روحه النابضة بالحياة وواقعيته المعقدة المتغيرة [...]"[3] (المالكي، 2004: 10).

فهناك حاجة إلى ملء الفراغات التي تشوب الروايات الرسمية بقصص يعيشها صانعوا الحدث، الناس العاديون، كما غناها الشيخ إمام: "الناس بالطول والعرض، اللي من عافيتهم تقوم الأرض وعرقهم يفجر بساتين، الناس اللي همّا حطب ونار الحرب، والشهداء بكل مدارها منكسرين أو منتصرين". هؤلاء الذين يصورهم التاريخ الرسمي كمفعول بهم، لاجئين، من مخرجات النكبة. ويتم اختزال قضيتهم في السياسة إلى شعار يترنح عنوانه بين العودة والتوطين، وتُغيّب صورهم كفلسطينيين من

---

[1] "There has been an upsurge in the use of social science in policy oriented research (applied research). This is due to existing agendas of international agencies (World Bank, International Monerary Fund, the United nations agencies, and international and regional donor research organizations, etc) and the perceived needs of policy makers in the Arab states." (Hilal, 2004: 3).

[2] يشير هذا الرمز [...] إلى حذف جمل أو مقاطع من الاقتباس سواء كان الاقتباس هنا من مرجع أو من روايات المبحوثين الذين قمت بمقابلتهم.

[3] من الكلمة الافتتاحية لمؤتمر التأريخ الاجتماعي الفلسطيني بين غابة الأرشيف وأشجار الحكايات، جامعة بيرزيت، 2004.

عكا والجاعونة وحيفا والناصرة وبرفيليا و(...)، لكل قصته ولكل رؤيته وفهمه لمعنى الحدث والتي بدونها لا تكتمل صورة الحدث التاريخي الكبير، هذا ما قاله منير الساريسي، أحد الرواة الذين قابلتهم في مخيم قلنديا:

> "إذا بدي ألخص حكاية فلسطين من زوايا مختلفة يمكن أن تكون هي الأنسب في الطرح، فلا بد أن يكون هناك البعد الإنساني والبعد الاجتماعي والبعد السياسي لتكون هناك رواية متكاملة، مش بالضرورة أن تُظهر الفلسطيني فقط بلباس الضحية والمسكين والغلبان، بل هو الإنسان صاحب الحق وصاحب الملكية أسوة بكل من هُوجم أو عُودي في العالم يحق أن يكون له كيانه المستقل، سواء كان في شخصه أو وطنه أو ثقافته، لأن التاريخ عم بيضيع، ولم يتنبه الفلسطينيون لضياعه إلا مؤخراً من شي 15 سنة، وبشكل متناثر وغير مبرمج، فكلٌ يشتغل على ليلاه في الموضوع دون أن يكون هناك عمل منسق. فالتاريخ الشفوي الفلسطيني بالضرورة أن يُكتب لأن هناك ذاكرة زاخرة، يعني كلما تستمعين إلى قصة تجدين فيها حيثيات جديدة، البارحة استمعنا في جامعة بيرزيت إلى أشياء واستغربنا أنها كانت تحدث في فلسطين. يجب أن يتم تسجيل واقع حياة الناس قبل النكبة وأثناءها وبعدها، ليس فقط من بعض الوثائق الرسمية الفلسطينية؛ فتاريخ الشعب الفلسطيني لم يُكتب."

تركز الدراسة الحالية على حالة محددة من الجماعات المُهجّرة وهم اللاجئون الذين اقتلعوا من أراضيهم سنة 1948، نتيجة لعمليات ممنهجة من التطهير العرقي كما أثبت العديد من الدارسين (كناعنة، 2000؛ الصباغ، 2005؛ بابيه، 2007). إلا أن هذا لا يعني أن أثر الاقتلاع والتشرد اقتصر على فئة اللاجئين فقط، فما زال الفلسطينيون الباقون ضمن حدود فلسطين الانتدابية، سواء في الجزء المحتل سنة الـ 1948 أو في القدس أو في الضفة الغربية وقطاع غزة، يعانون من الاضطهاد وخطر الاقتلاع والتشريد: "الاحتلال بحد ذاته وما يترتب عليه من نتائج يمكن قراءته كشرط تشتيتي *diasporic condition*، ومن هذا المنطلق فإن سكان الضفة الغربية وقطاع غزة يعانون من عملية اغتراب مستمرة عن الأرض"[4] (Hanafi, 2006). لكن شروط اللجوء؛ أي تجربة الاقتلاع والتشريد التي عاناها اللاجئون، والتهميش الناجم عن العيش في مخيمات تختلف عن المجتمع المحيط، لا بد وأن تعمق الإحساس بالاغتراب واللامكان، مع أن درجة الاختلاف تتباين حسب الوضع السياسي والاقتصادي للمحيط المضيف، بما يجعل بعض المخيمات تبدو للوهلة الأولى أشبه بأحياء الصفيح أو مأوى الفقراء (هذا ما شعرته بزيارتي لمخيمات لبنان وبعض مخيمات غزة)، بينما تتشابه مخيمات أخرى مثل مخيم اليرموك مع بيئة الأحياء المدنية المجاورة لها بما يتوفر فيها من خدمات وبنية تحتية وأماكن ترفيهية. وعلى الرغم من هذه الاختلافات، فإن المخيمات أصبحت أمكنة يتشارك فيها الفلسطينيون ذكريات ماضٍ ضائع، وتجارب اللجوء والكفاح والصمود في الحاضر، وتساؤلات حول مستقبل مجهول. وقد عبر الكثيرون ممن قابلتهم في مخيمي قلنديا واليرموك، خاصةً من الجيلين الأول والثاني، عن شعورهم بأن المخيم يعطيهم الإحساس بالأمان والحماية والقوة والانتماء. ومن الاستراتيجيات التي يلاحظها أي زائر للمخيم، قيام اللاجئين بإعادة بناء الروابط العائلية والقروية التي كانت سائدة في البلاد قبل التهجير، حيث غالباً ما يتجمع أفراد العائلة أو الحمولة وأحياناً البلد الواحدة في نفس المنطقة في المخيم وتأخذ المنطقة اسمها من اسم العائلة (حارة المواعدة نسبة إلى آل موعد

---

[4] من ورقة عمل قدمها ساري حنفي في مؤتمر حول اللاجئين عقدته جامعة القدس في العام 2006 .

من صفورية في مخيم اليرموك)، أو اسم البلد الأصلي في فلسطين (حارة ساريس أو صرعة في مخيم قلنديا، وشارع لوبية تجمع عائلة الشهابي في مخيم اليرموك والشهير بسوقه الكبير، وحارة المغاربة في مخيم اليرموك، والتي تضم عائلات من أصول جزائرية كانت تعيش في فلسطين، غالباً في قضاء طبريا،[5] حين حدث التهجير في العام 1948).

هناك العديد من الباحثين في العالم الذين تناولوا موضوع تشكل الذاكرة والهوية ضمن مجتمعات اللاجئين والأقليات المشتتة نتيجة تعرضها للاضطهاد، كالأرمن والأكراد واليهود وبعض القوميات التي بدأت في البروز في أوروبا الشرقية وأفريقيا:

(Curtis, 2005; Gross, 2002; Booth, 1999; Barseghyan, 2004; Malkki, 1992, 1995, 1996; Said, 2000; Emerson, 1969; Gupta and Ferguson, 1992).

أما فلسطينياً، فقد صدر عدد من الدراسات التي انطلقت من روايات أو سرديات الفلسطينيين كأساس لها، ويمكن تصنيفها ضمن مجموعتين رئيسيتين:

اهتمت المجموعة الأولى بجمع الرواية الفلسطينية بغرض توثيق الحياة في فلسطين قبل التهجير وأثناءه، وبعد ذلك في المخيمات. (صايغ، 1980؛ كناعنة، 1985–1987؛ فرح، 1998؛ يحيى، 2006، 2008؛ موعد، 2002؛ جرار، 2003؛ القلقيلي، 2004؛ سرحان، 2005؛ ميعاري، 2005؛ علان، 2007؛ عمرو، 2007). اعتمدت هذه الدراسات في الغالب على أسلوب التاريخ الشفوي من خلال مقابلات معمقة مع الفاعلين الاجتماعيين؛ نساء ورجال يصفون الواقع التاريخي الذي عايشوا أحداثه.

بينما تُصنف المجموعة الثانية من الأبحاث ضمن الدراسات الاثنوغرافية، قامت بها باحثات غربيات مهتمات بمواضيع تحولات الهوية وبناء الذاكرة، والروايات التاريخية لدى اللاجئين الفلسطينيين الذين عاشوا تجارب اللجوء، وأحياناً قليلة العودة إلى الوطن، مثل دراسة هامر[6] وغيرها:

(Sayegh, 1979, 1998; Peteet, 1996, 2005; Schulz, 2003; Hammer, 2005) . ومع أن الباحثات المذكورات قمن في تناولهن لهذه الروايات بتسجيل روايات الفلسطينيين في أماكن تواجدهن، إلا أن موضوع اهتمامهن الرئيسي كان تشكل الهوية الوطنية في حالات الصراع واللجوء والاقتلاع، ولم يقمن في تحليلهن بالتركيز كثيراً على تحليل مضمون الروايات التي يسرد من خلالها الفاعلون الاجتماعيون رؤيتهم للتاريخ الاجتماعي والسياسي لفلسطين (الماضي، الحاضر)، وربطه بتوقعاتهم المستقبلية. وهذا ما حاولت هذه الدراسة أن تقوم به، مع إضافة البعد المقارن بين اللجوء في الداخل والخارج (المقصود داخل وخارج حدود فلسطين التاريخية). وفي الدراسة الحالية، أعتقد

---

[5] حسب اللاجئين الذين قابلتهم ضمن هذه الدراسة.

[6] في دراسة أثنوغرافية صدرت سنة 2005 أجرت Juliane Hammer مقابلات معمقة مع مجموعة من الفلسطينيين الشباب تتراوح أعمارهم بين 16-35، تجمعهم أصولهم الفلسطينية وتجربة ولادتهم خارج فلسطين، حيث عاشوا ونشأوا في عدة بلدان عربية أو في الولايات المتحدة الأمريكية ومن ثم انتقلوا، بعد أوسلو، إلى الضفة الغربية وقطاع غزة، وتصف هامر عملية بحث اللاجئين عن "الوطن" وكيف أثرت التجربة الخاصة لهؤلاء الشباب في الصورة التي كونها كل منهم عن الوطن، ودور المخيم والانتماء السياسي والوضع الاقتصادي في تشكيل هذه الصورة.

أن البعد المقارن سيساعد في التوصل إلى فهم أعمق للعوامل التي تسهم في بناء رواية فلسطين بنسختها الشعبية.

هدف الدراسة

تسعى هذه الدراسة، بمستواها المعرفي، إلى التعرف على صورة أو صور لفلسطين سنة 2008، وذلك من خلال الروايات الشفوية التي يسردها مجموعة من اللاجئين الفلسطينيين الذين مازالوا يعيشون حتى اليوم في مخيمات اللجوء، نتيجة لتهجيرهم من بلادهم في العام 1948، ومحاولة قراءة هذه الروايات قراءة تحليلية باستخدام مداخل نظرية تفسر آليات بناء السرديات الوطنية الفلسطينية خلال ستين عاماً من اللجوء في شرط استعماري مستمر.

هناك مستويان للدراسة من حيث الهدف: المستوى الأول، وصفي، يقدم روايات للاجئين ينحدرون من أجيال مختلفة في المخيمين، ويسردون رواياتهم عن فلسطين مما تختزنه الذاكرة من قصص البلاد أو البلد الأصلي، وقصة التهجير ورؤيتهم للأحداث التي تتابعت على القضية بما فيها قصة لجوئهم وحياتهم في المخيم، ونظرتهم للمستقبل. يحاول المستوى الثاني من الدراسة تفسير كيفية تشكل هذه الروايات/ السرديات حول فلسطين لدى اللاجئين المبعثرين في مخيم للجوء خارج حدود فلسطين الانتدابية، اليرموك نموذجاً، وآخر داخل حدودها، قلنديا نموذجاً. إن رواية فلسطين التاريخية التي جمعتها هذه الدراسة ليست قائمة على نشاط الشخصيات العظيمة كما يفترض المؤرخون والسوسيولوجيون المثاليون، فينظرون إلى "الجماهير الشعبية كموضوع للتاريخ وليس كفاعل فيه، ككتلة سلبية جامدة، أو في أحسن الحالات كأداة للتاريخ وليس كصانع مبدع له." (زكريا 1998: 70). وإنما انطلقت هذه الدراسة لالتقاط صورة فلسطين من خلال عيون الفاعلين الاجتماعيين، وهم هنا اللاجئون الفلسطينيون، الذين يشكلون جزءاً من العالم المادي المحيط بهم في مخيم اللجوء من خلال الرواية أو الروايات التي يحملها كل منهم عن فلسطين. تأتي الدراسة الحالية، في جانب منها، ضمن المحاولات العديدة التي قام بها باحثون محليون وأجانب لتأريخ اجتماعي لقضية فلسطين في ظل طغيان الخطاب السياسي على التأريخ الفلسطيني. وعلى المستوى الثاني، تهدف الدراسة إلى تحديد العوامل التي تساهم في تشكيل الروايات لدى الفاعلين الاجتماعيين من خلال البعد المقارن لواقع اللاجئين الذي يختلف باختلاف مكان اللجوء والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشونها والخطابات السياسية والأيديولوجية المهيمنة، والتي لم تعد صناعتها تقتصر على الأحزاب والفصائل اللاعبة على الساحة الفلسطينية، وإنما دخلت أدوات الحداثة والعولمة، كالفضائيات والانترنت، كمؤثر هام بما تحتله من حيز كبير في حياة الفاعلين الاجتماعيين.

باختصار، ينصب تركيز هذه الدراسة على الرواية–ات الشعبية الفلسطينية وتحليلها، بغية التعرف على العوامل الرئيسية التي تساهم في بناء هذه الروايات عند الفئة المبحوثة هنا، اللاجئين، خلال هذه الفترة التاريخية التي يسودها التخبط وعدم الوضوح في الخطابات السياسية الفلسطينية الرسمية الصادرة عن الفصائل والأحزاب الفلسطينية، خاصة تلك المتعلقة بمستقبل فلسطين بشكل عام،

وبقضية اللاجئين بشكل خاص. ومع أن الدراسة لن تغطي الخطاب الفلسطيني الرسمي، والذي يحتاج إلى دراسة منفصلة ليست جزءاً من موضوعات هذا البحث، لكنها تشير إلى هذا الخطاب في تحليل روايات اللاجئين. فقد ثبت من مراجعة الأدبيات السابقة أن خطابات الأحزاب والفصائل الفلسطينية تلعب دوراً بارزاً في بناء الهوية الوطنية الفلسطينية، وفي تشكيل الذاكرات الجماعية التي ستؤثر بدورها في مضامين وأشكال روايات اللاجئين (صايغ، 1998؛ سمارة، 2000؛ تشولز، 2003؛ بيتيت، 2005؛ هلال، 2006؛ بومجارتن، 2006؛ دراج، 2008).

منهجية الدراسة

من أجل جمع روايات اللاجئين عن فلسطين، استخدمت منهجي المسح والمشاركة في الحقل، باعتماد أسلوبي الملاحظة والمساءلة، والأداة الرئيسية التي لجأت إليها هي المقابلة المعمقة. واعتمدت هذه الدراسة، بشكل رئيسي، على تقنيات منهجية النظرية المجذرة *grounded theory*. بدأت بالنزول إلى المخيمين، ميدان البحث، أحمل بيدي جهاز التسجيل ومحاور المقابلة المعمقة شبه المنمطة *semi-structured interviews* وهي أسئلة مفتوحة النهاية. بالإضافة إلى اللجوء إلى الملاحظة الدقيقة للمبحوثين وبيئتهم. ونظراً لكون هدف الدراسة مركب من مستويين، كما ذكرت سابقاً، تطلب هذا الدقة والتنظيم في اختيار المبحوثين وجمع البيانات وتحليلها في إطار نظري ومفاهيمي مناسب، ورغم أني قضيت وقتاً طويلاً في قراءة مراجع تتعلق باللجوء والتاريخ الشفوي والذاكرة الجماعية، إلا أني اكتشفت أن طبيعة هذا البحث لا تسمح بمدخل نظري محدد منذ البداية، بما هو بحث إمبريقي يسعى إلى استكشاف طبيعة الرواية الموجودة أصلاً لدى المبحوثين في المكانين، ومن ثم الاستعانة بالمداخل النظرية المناسبة لتفسير آليات تشكل هذه الروايات. فهو ليس بحثاً في الخطاب فقط، وليس مجرد مقاربات نظرية وحسب، وإنما هو بحث امبريقي يلجأ إلى المنهج المسحي لجمع أجزاء رواية فلسطين كما يسردها الفاعلون الاجتماعيون في مخيمي اليرموك وقلنديا أولاً، ومن ثم استكشاف إمكانية استخدام نظرية–ات ما لقراءتها ثانياً.

توظيف تقنيات النظرية المتجذرة

هنا، بالتحديد، ساعدت تقنيات منهجية النظرية المتجذرة *Grounded Theory*، بما توفره من آليات لتنظيم عمليات جمع وتحليل البيانات الكيفية، في بناء معرفة مفاهيمية ونظرية متجذرة في البيانات المجموعة في البحث الامبريقي أساساً (Charmaz, 2006: 2, 130). حيث تقترح هذه الطريقة تقنيات تساعد الباحث على التنسيق بين عمليات جمع البيانات وتحليلها، بتوظيف أو استنباط النظرية الملائمة لموضوع البحث، بحيث ينطلق من موضوع البحث ويعتمد على تحليله للبيانات المجموعة في توظيف المعرفة النظرية أو بنائها وليس العكس. فتستند فكرة النظرية المتجذرة على أن النظرية–ات المرتكزة على البيانات أساساً ستقدم رؤية أقرب إلى فهم الواقع من وجهة نظر المبحوثين أنفسهم، كونها ترتكز في تصنيف البيانات وتنميطها على الروايات التي يتم جمعها من المبحوثين، وذلك

بعكس البحوث التي تنطلق من فرضيات مستمدة من نظريات تم التوصل إليها اعتماداً على خبرات سابقة أو من مجرد توقعات. وقد تطورت هذه المنهجية في محاولة لتلبية حاجة الباحثين لاكتشاف ما يحدث حقيقةً في الواقع، من خلال توظيف النظريات أو استخلاصها بالاستناد إلى البيانات المجموعة، بما يطور فهماً أعمق للفعل الاجتماعي الذي يتم في شرط معقد ومتنوع وبتأثير عوامل متداخلة؛ إضافة إلى أن هذه النظرية تأخذ بعين الاعتبار الدور الذي يلعبه الفاعل الاجتماعي في إضفاء المعاني للواقع، من خلال علاقاته التفاعلية مع البيئة والشخوص والمعاني، والعلاقات المتداخلة بين البنية والفعل الاجتماعي (Strauss and J Corbin, 1998: 10-12). لا يعني هذا أن استخدام تقنيات النظرية المتجذرة يؤدي بالضرورة إلى تطوير نظريات تشرح العالم الاجتماعي بشكل يعكس الواقع تماماً، ولكنها، كما أفهمها من تجربتي المتواضعة،[7] تقدم طرقاً للتعرف على المعاني التي يسبغها الناس على تجاربهم وعوالمهم الاجتماعية، باللجوء إلى وسائل منظمة ومرنة في جمع المعلومات والتحليل، وهذا ما أسعى إليه من البحث في روايات اللاجئين الفلسطينيين.

وجدت تقنيات النظرية المتجذرة مفيدة في حالة هذه الدراسة التي تريد التعرف على صورة فلسطين في أذهان اللاجئين اليوم، سنة 2008، بعيداً عن الافتراضات المسبقة. كانت البداية بجمع الروايات الشفوية باستخدام أسئلة مفتوحة النهايات وغير موجهة قدر الإمكان، بشكل يحقق هدف الدراسة بمستواه الأول: الحصول على صورة فلسطين المركبة من روايات لاجئين يجمعهم المكان في كل من مخيم اليرموك ومخيم قلنديا، ويختلفون في العمر والجنس والمستوى التعليمي والوظيفي. أيقنت من مراجعتي للأبحاث السابقة أن هذه الاختلافات ستُنتج حتماً روايات مختلفة في الشكل والمضمون، مما سيصعب عملية التحليل والدراسة. لذا كان يجب التأكد من قدرة المقابلة على تحقيق شرطين: أولاً، التوصل إلى تركيب صورة فلسطين بالأبعاد الخمسة التي حددتها[8] اعتماداً على مراجعتي لعدد من الدراسات النظرية والامبريقية المتعلقة بحالات التهجير القسري عالمياً ومحلياً (فلسطينياً)، ثانياً، جمع روايات تغطي محاور قابلة للمقارنة بما يساعد على اكتشاف آليات بناء الروايات الشفوية من خلال مقارنة نقاط الشبه والاختلاف بين الروايات المختلفة وربطها بصفات المبحوثين وظروف حياتهم وتجاربهم. وعلى هذا الأساس تم تحضير عدد من الأسئلة لتحفيز ذاكرة الرواة بحيث تغطي كل رواية المحاور التالية:

- قصة البلاد والتهجير بأبعادها التاريخية والجغرافية والرمزية.
- قصص الهزائم والانتصارات: الأحداث في التاريخ الفلسطيني كما يراها اللاجئون اليوم.
- أدوارهم في القصص ومشاركتهم الشخصية في التعبير عملياً عن الانتماء والهوية، ومدى اهتمامهم بالتعرف على فلسطين: المصادر التي يستقون منها المعلومات (أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة، كتب، انترنت ..).

---

[7] تعرفت على النظرية المجذرة أول مرة من كتاب: Anselm Strauss and Juliet Corbin بعنوان Basics of Qualitative Research: Techniques and Procedures for Developing Grounded Theory، وخلال تنفيذي لهذه الدراسة كنت أرجع باستمرار لكتاب Kathy Charmaz بعنوان: Constructing Grounded Theory: A Practical Guide Through Qualitative Analysis.

[8] ترد في القسم الأخير من الفصل الأول لهذه الدراسة بعنوان "صورة فلسطين في الروايات الشفوية للاجئين".

- المخيم وأثره في حياة الراوي/ة.
- الطموحات والتوقعات المستقبلية.

قمت بتفريغ المقابلات أول بأول، وكنت في البداية أقرأها فرادى ومن ثم بشكل مقارن، معتمدة على الترميز والتبويب في محاولة للتوصل إلى آلية لقراءة الروايات وتحليل مضمونها من أجل تحقيق المستوى الثاني من هدف البحث، وهو تفسير كيفية تشكل سرديات اللاجئين عن فلسطين. ولفهم آليات تشكل روايات اللاجئين عن فلسطين، تحتم موضعتها في السياقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع الأكبر الذي يتواجد فيه المخيمين.

تمكنت في النهاية من جمع روايات تحكي قصة ماضي فلسطين وحاضرها ومستقبلها من كلا المخيمين. يتكون الجزء الماضي للرواية التاريخية لفلسطين مما تحمله الذاكرة الشفوية للاجئ عن البلاد والنكبة، والأحداث السياسية/ التاريخية التي حلت بالقضية وأوصلته إلى مخيم اللجوء حيث يعيش اليوم. أما الجزء الحاضر لصورة فلسطين، فيقدم وصفاً لفلسطين كما يراها اللاجئ اليوم في ضوء الوضع السياسي المتغير، وأثر هذه التغيرات على حياته في محيط مختلف عما حوله، وهو مخيم اللجوء، الذي كما تبينَ من مراجعة الأدبيات السابقة يولد لدى ساكنه هوية تميزه عن المحيطين به، وتنتهي الروايات بتوقعات الراوي/ة لمستقبل فلسطين ومستقبله/ا كلاجئ/ة.

بهذا تتركب أجزاء صورة فلسطين التي ينتجها اللاجىء –المقتلع من وطنه – بعد مرور 61 عاماً على الاحتلال الاستعماري العسكري لأرضه. وفي بحثي عن صورة فلسطين كمكان في أذهان اللاجئين في المخيمين، فإنني لم أتوقف عند البعد الجغرافي فقط، رغم أهميته في حالة فلسطين التي تتعرض لاحتلال إحلالي يستهدف المكان والمزيد منه، لكنني توجهت للبحث أيضاً عن المعاني والصفات التي يسبغها الفلسطينيون، كفاعلين اجتماعيين، على قضيتهم السياسية.[9] ولم تتطرق الدراسة إلى صورة فلسطين كما يتم إنتاجها في الخطاب أو الخطابات الفلسطينية الرسمية والسياسية، أو تلك التي أبدعها الكتاب والشعراء والرسامون، إلا بما يساعد على فهم تأثير الصورة التي تظهر من الطرفين الأخيرين في تلك التي يقدمها اللاجئون.

تجربتي مع المبحوثين/الرواة

قمت بإجراء 80 مقابلة فردية، ومع أني كنت أرتب للمقابلة على أساس أن تكون فردية إلا أنها كانت تتم أحياناً بحضور أكثر من شخص، حسب المكان والزمان الذي أجريت فيه المقابلة. وقد أجريت مقابلة جماعية واحدة ضمت خمسة شباب وفتاة في إحدى النوادي الشبابية في مخيم اليرموك، احتسبت منها روايتين في التحليل كونهما غطتا جميع محاور المقابلة، بينما اختار الرواة الآخرون الإجابة على بعض الأسئلة فقط. وبما أن المقابلة الواحدة كانت معمقة وتمتد من 40 دقيقة إلى

[9] طورت محددات صورة فلسطين في هذا البحث اعتماداً على تعريف Thomas Gieryn (2000) للمكان سوسيولوجياً بأبعاده الثلاثة (الموقع الجغرافي، والشكل المادي، والاستثمار في المعنى والقيمة). وبما أن وجود فلسطين كمكان في أذهان شعبها ليس طبيعياً نتيجة الحالة الاستعمارية التي أفرزت اللاجئين، فقد أضفت لتعريف Gieryn عاملين وجدتهما أساسيين لدراسة المكان في حالة التهجير القسري، وفق ما توصلت إليه بعد مراجعة عدد من الدراسات حول الموضوع هما: التاريخ، ودور الفاعل الاجتماعي في بناء علاقته مع المكان. التفاصيل في القسم الأخير من هذا الفصل.

الساعة، وأحياناً كانت تستمر ساعتين حسب رغبة المبحوث/ة–الراوي/ة في الحديث وحسب وقته/ا، فقد كنت أحاول دائماً أن أحدد الموعد مسبقاً مع المبحوث/ة–الراوي/ة، بعد أن أوضح له فكرة المقابلة وطبيعة الأسئلة والغاية منها. وكان أنسب مكان لإجراء المقابلة هو منزل المبحوث– الراوي/ة. وفعلاً أُجريَت معظم المقابلات في منازل المبحوثين، باستثناء بضع مقابلات، حيث كنت محصورة بالوقت، خاصة في مخيم اليرموك، بما أنه لم يكن أمامي سوى شهر لإجراء المقابلات جميعها. فاضطررت أحياناً إلى إجراء عدة مقابلات في اليوم في أماكن تجمع اللاجئين مثل مجمع طبي حيث قابلت خمسة من الموظفين والموظفات العاملين من فئات عمرية مختلفة أو نادي شبابي كما ذكرت سابقاً. وحين كان اللقاء يتم في منزل المبحوث/ة–الراوي/ة، حدث أن يشاركنا الجلسة أشخاص آخرون من العائلة كانوا أحياناً يقدمون مداخلات حول بعض الأسئلة. في بعض الحالات، كنت أطلب من الأشخاص الآخرين أن يتيحوا المجال للراوي/ة ليسرد روايته/ا، على أن أجري معهم مقابلة منفصلة إن رغبوا بذلك. وفي مرات أخرى، كانت المقابلة تتوزع بين شخصين أو أكثر، مثل إحدى المقابلات التي أجريتها مع شخص في قلنديا، وكانت زوجته التي جلست بصحبتنا طيلة اللقاء تجيب على جميع الأسئلة، فحصلت على روايتين غنيتين من قبل كل من الزوج والزوجة.

اختيار الرواة

لم يكن الأمر سلساً دائماً. أحياناً كان يصعب العثور على رواة متنوعين من حيث التجربة والعمر والاهتمامات بشكل يلبي شروط البحث. ففي المخيمين، لم يكن سهلاً علي الدخول إلى بيوت الرواة مباشرة. كان لا بد من ترتيب اللقاءات –ككل البحوث الإثنوغرافية– من خلال بضعة أشخاص أعرفهم، وفي الغالب من خلال الرواة أنفسهم الذين كانوا يرشدونني إلى رواة آخرين، بعد أن أحدد لهم الصفات العامة التي أريد توافرها في الرواة من حيث العمر والجنس والوضع التعليمي والاقتصادي والاجتماعي بما يسمح بالحصول على روايات قابلة للمقارنة بتأثير هذه المتغيرات المختلفة، ويجدر التنبيه هنا إلى أنني لم أعتمد الانتماء السياسي أو الحزبي كعامل لاختيار الرواة. هنا أيضاً استفدت من استراتيجيات اختيار العينة أو الحالات المبحوثة التي تقترحها النظرية المتجذرة *theoretical sampling*، فطريقة الاختيار كانت قصدية، وذلك لضمان توفر عدد معين من الرواة الذين يتباينون في العمر والجنس والمستوى التعليمي والاقتصادي في كلا المخيمين، بما يضمن توفر أسس للمقارنة بينهم خلال تحليل المقابلات (Charmaz, 2006: 101).

ركزت في دراستي على الجيلين الثاني والثالث من اللاجئين، أي أولئك المولودين خارج فلسطين المحتلة سنة 1948 أو الذين خرجوا منها أطفالاً –أقل من ست سنوات– إثر تهجير أهلهم، لكن الصدفة أتاحت لي اجراء ثلاث مقابلات مع راويين وراوية أكبر سناً من مخيم قلنديا تبلغ أعمارهم اليوم[10] 71، و 76، و 80 عاماً.

[10] المقصود خلال سنة اجراء المقابلات 2008

وبشكل عام، استطعت الوصول إلى رواة متنوعين، لكني كنت مقيدة بالرواة الذين يوافقون على المشاركة وتسجيل رواياتهم. ولم يكن جو المقابلة مريحاً دوماً، لارتياب بعض الرواة من شكلي واسمي ربما، وبتأثير الجو السياسي في المخيمين أيضاً. هناك، كما هو معروف، قيود على التحدث في السياسة في سوريا بشكل عام، وإن بدا لي الوضع اليوم أسهل قليلاً. وعلى الرغم من أن الحالة السياسية في قلنديا وفلسطين، بشكل عام، كانت تسمح بمساحة أوسع للنقاش السياسي، اختلف الوضع مؤخراً كما ذكر لي أحد المبحوثين الشباب من قلنديا، حين علق على سؤالي عن الهوية التي يشعر أنها الأقرب له بقوله:

> "إنه يوجد عدم وضوح، والناس لا تجرؤ على الإفصاح عن انتمائها. يعني هون في الضفة الغربية أنا أقول عن حالي إني بحب حماس؟! ولا بقدر أحكيها. كمان في غزة، لما الواحد بيقول أنا ابن فتح، في حدا حكالك هون إنه حماس؟ بيجوز ولا واحد."

وقد لاحظت لجوء بعض الرواة إلى استخدام الرمزية لتجنب انتقاد السلطة وقياداتها بشكل مباشر، المقطع التالي من رواية أحد المبحوثين في مخيم قلنديا:

> "المشكلة بتصير إنه الراعي سيء، وهو يأخذ الغنم تاعته على مرعى سيء، يأخذهم على صحراء. هذا الشخص اللي في موقع المسؤولية تتحكم فيه الصهيونية والامبريالية العالمية، وهدول الناس بدهم ينفذوا طلبات وأوامر أسيادهم، وبالتالي كل شريف انحجب وممنوع يتحرك، وكل إنسان شريف عم بحاول يتحرك، بيقضوا عليه قبل ما تقضي عليه إسرائيل أو الأميركان .... (هنا يتوقف ليقول) أخت لورا تخربيش بيتي ... ويضحك ... (فأؤكد له أن البحث يركز على مضمون روايات اللاجئين كمجموع ولا يهدف لعرض الآراء الفردية للمبحوثين)".

وفي المقابلة –التي أشرت إليها أعلاه– مع الرجل في قلنديا بمشاركة زوجته التي كانت ترافق زوجها في الإجابة على جميع الأسئلة، وبينما كان الرجل يروي مشاهدته لحرب العام 1967، أوقفته زوجته تحاول منعه من الحديث عن السلاح، كما يوضح المقطع التالي، ويظهر كلام الزوجة بخط مائل، فقط لتمييزه عن كلام الراوي الرئيسي:

> "الحرب يعني؟ متذكرينها! هو أساساً أنا برفض كلمة أنه صارت حرب، هو المزبوط ما صرش حرب، صار شراد، **ناس ينشوا فيهم زي الجاج، ناس ماشية قدامنا**، صار حرب (...) **ولا مالهم طخطخوا!!** شوفي اللي كان يطخ اللي معه بندقية، البندقية رصاص حي ... **إحنا يا ابن الحلال بدناش نحجي** *(نحكي)* **عن البندقية ولا عن السلاح، شو بدنا في هذا الحجي**؟ هذه معلومات مالك أنتِ؟ شو في؟ **لا إحنا ما بدنا نحجي، إحنا بدنا نحجي شو صار في حرب الـ** *67*، **شو صار مع الناس، شو آراءنا، بس ما بدنا نحجي** ... شو صار مع الناس؟ مافي حرب، ما صرتش حرب، يعني المدفعية كانت تضرب من راس العمود على القدس الغربية شرايط، زي مدافع العيد، مافي حرب! والجيش الإسرائيلي ييجي يوخد من الجندي بندقيته ويكسرها ويقول له روح على حسين ... هذا هو ..."

كما أن بعض الذين قابلتهم في مخيم اليرموك، وبترتيب مسبق، رفضوا إجراء المقابلة بعد أن لاحظوا أني أقوم بتسجيل رواياتهم، وكانوا يوافقون ربما لشعورهم بالحرج، ولكن بشرط أن لا أستخدم جهاز التسجيل أو القلم، وحينها كنت أستمع للرواية بدون أن تحتسب في البحث.

لم يكن قلقي كباحثة أقل من قلق المبحوثين، خاصة في سوريا، حيث قيل لي أنه يتوجب علي الحصول على موافقة أمنية قبل إجراء أية دراسة، فكنت أحرص على عدم حمل أية مواد خاصة

بـالبحث، كالاسـتمارات أو قـوائم الأسـئلة كـي لا تُسـتخدم ضـدي أو ضـد المبحـوثين إن تعرضـت للمسـاءلة. كنـت أطمئن المبحـوثين بتوضـيح فكـرة البحـث، والتأكيـد علـى أن التحليـل سـيعتمد علـى مضمون الرواية، ولن يتم ربط الروايات بالأسماء. كما أنني لم أكن أسجل اسم المبحوث كاملاً زيادة في الحيطة، حيث كانت مخاوف المبحوثين مختلفة، وأبدى بعضهم عدم ارتياحه لأسئلة معينة مثل الشاب من مخيم قلنديا الذي استغرب سؤالي عن مدى رضاه عن حياته في المخيم، ووصفه بأنه سؤال ملغوم، أو الرجل في مخيم اليرموك الذي واجهني مباشرة في منتصف المقابلة بشكوكه:

"أنا متحفظ لشغله واحدة، لأنه هاي الأوراق راح تفوت لجوا، مو مشان هلا، للمستقبل، قلت لك أنا من الـ 83 لهلا مافي! يعني، بقعد بحكي معك شوي، بعد شوي بتفاجأ إنه أنت مع جهة ثانية ... بتيجي تحكي شوي هلا يعني، بتتفاجأي ثاني يوم أنه الموضوع تغير.. فالأفضل الواحد مثل ما بقول المثل يكربل، يقعد على جنب!"

وأصرت إحدى السيدات في مخيم اليرموك على معرفة الجهة التي تموّل البحث قبل الجلوس معي، فسألتني بوضوح إن كان ممولاً من قبل حزب معين أو جهة أجنبية أو منظمة غير حكومية "NGO" ما. وأخبرتها أنني طالبة في الجامعة وأجري البحث على نفقتي الخاصة لإتمام متطلبات التخرج، أي أنه بحث أكاديمي، ولا توجد من ورائه غايات أخرى.

بما أن هدفي من البحث كان الحصول على صورة فلسطين في مخيم اليرموك في الخارج، ومخيم قلنديا في الداخل، كما تنعكس في أذهان الرواة والمحيط الذي يتحركون ضمنه: البيت والمخيم بشوارعه ومؤسساته، فقد كنت حريصة على أن أشجع المبحوثين على التحول إلى رواة. كان بعضهم أكثر تحمساً من الآخرين بحكم الخبرة والاهتمام، وكنت أشجع الأقل رغبة في الحديث بشرح موضوع البحث لهم وإعادة صياغة الأسئلة لتركز دائماً على المحاور الأساسية في المقابلة بما يضمن الحصول على روايات قابلة للمقارنة. وساعدني استخدام تقنية الـ grounded theory في تحليل الروايات، أول بأول، إلى مراجعة مضامينها وتطوير الأسئلة بما يضمن فهمها من قبل المبحوثين بالمعنى نفسه، بغض النظر عن ثقافتهم وتجاربهم.

اعتمدت على التسجيل الصوتي للمقابلات التي قمت بتفريغها على دفعات، وفي النهاية، تجمعت لدي روايات مختلفة من حيث المضمون والشكل. لكني بعد أن سمعتها عدة مرات شعرت بأن هناك عناصر مشتركة بين بعض الروايات، وبقراءتي المعمقة لمضامينها، تم تبويب مضامينها باعتماد عملية الترميز coding، وتوصلت إلى وجود عدة أنماط من الرواة، تتقاطع رواياتهم في بعض المحاور، وتختلف في محاور أخرى.[11]

لغة الروايات

حرصت على الإبقاء على لغة المبحوثين كما هي قدر الإمكان لتعكس مضمون وجو الروايات، لكني اضطررت أحياناً إلى تفصيح (من الفصحى) بعض الكلمات العامية التي شعرت أنها قد تكون غير واضحة، مثل: استخدام "القاف" بدل الـ "أ"، خاصة في روايات المبحوثين من مخيم اليرموك، على سبيل المثال: قديش بدل أديش أو أديه، بعتقد بدل بعتئد، قدرت بدل إدرت، القعدة بدل الأعدة. وإعادة

[11] يقدم الفصلان الثالث والرابع عرضاً لروايات كل نمط مع قراءة تحليلية لمضمون الروايات.

الهمزة في حال إزاحتها: للوراء بدل لوَرَا، أو سوداء بدل سودا. وكذلك في حالة ضمير الجمع الغائب؛ استخدمت هم ومنهم، ولهم بدل هن، منن، إلن. وكذلك الأمر بالنسبة لضمير الملكية الغائب، مثل قولهم أرضن، بيتن، استخدمت أرضهم أو بيتهم.

لماذا مخيمي اليرموك وقلنديا؟[12]

لم يكن اختياري لهذين المخيمين بالذات صدفة. صحيح أن تجربتي الخاصة دفعتني للعودة إلى مخيم اليرموك الذي غادرته قبل عشر سنوات. لكن هناك سبب آخر جعلني أختار مخيم اليرموك كمثال على مخيمات الخارج، ومخيم قلنديا، كمثال على مخيمات الداخل، وهو تحقيق هدف البحث بالتعرف على العوامل التي تؤثر في تشكيل روايات اللاجئين في حالة مستمرة من الاستلاب والاقتلاع، ولذا وجدت أنه من المفيد الاستفادة من البعد المقارن. وحين اخترت مخيماً في سوريا وآخراً في الضفة الغربية "فلسطين"، انطلقت من أنهما قد يعكسان حالة التعدد في الخطاب السياسي الرسمي. حيث ما زالت سوريا ترفع شعار القومية العربية (من خلال الخطابات، البرامج التلفزيونية، المناهج المدرسية والجامعية)، وتنظر إلى إسرائيل ككيان غريب يمزق الوطن العربي، وترفض رسمياً الدخول في تسوية مع إسرائيل،[13] وتستمر في توجيه النقد لاتفاق أوسلو وتبعاته، كما ويُسمع هذا الموقف الرافض في خطابات الفصائل والحركات الفلسطينية الموجودة في سوريا، "والتي تتخذ من مخيم اليرموك مركزاً لنشاطاتها، باستثناء حماس وحركة الجهاد الإسلامي، والتي لم تعمل على إقامة هياكل تنظيمية لهما في مخيم اليرموك أو أي من المخيمات الفلسطينية الأخرى في سورية" (موعد، 2002: 127). هذا ما وجدته في كتاب حمد موعد ولم تتوفر لي فرصة للتأكد من الموضوع، حيث لم يرغب معظم من قابلتهم بالدخول في تفاصيل حول نشاطات الفصائل، لكني لاحظت تواجد الحركتين في مخيم اليرموك من خلال الفعاليات والبوسترات والشعبية التي يحظون بها بين سكان المخيم.[14] بينما يرتكز الخطاب السياسي الرسمي للسلطة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة حول مشروع بناء الدولة الفلسطينية، و هذا لا يمنع و جود خطابات أخرى تطلقها أحزاب أو فعاليات أخرى متواجدة على الساحة، بالإضافة إلى عامل الاحتكاك المباشر مع سلطات الاحتلال الذي يعيشه سكان مخيم قلنديا،

---

[12] حيث يستخدم البحث كلمتي اليرموك وقلنديا يكون المقصود مخيم اليرموك ومخيم قلنديا، لكن حُذفت كلمة المخيم أحياناً للاختصار فقط.

[13] لن أغوص هنا في التحليل السياسي لموقف سوريا، لأن هذا ليس موضوع الدراسة الحالية. ما يهمني من هذا الجانب هو تأثير سياسة الدولة وخطابها على اللاجئين الذين قابلتهم في مخيم اليرموك. فعلى أرض الواقع، "هناك ربط تاريخي بين سوريا وفلسطين (سورية العظمى) جعل من سوريا موقعاً سهلاً لتأقلم الفلسطينيين المهجرين عام 1948، وشارك العديد من السوريين في الدفاع عن فلسطين ما بين عامي 1936-1939. وأصبحت سوريا مأوى للثوار الفلسطينيين بعد ثورة 1939، وبعد النكبة، تبنت الحكومات السورية المتعاقبة نتيجة للدوافع القومية العربية موقفاً داعماً للفلسطينيين وحقهم في العودة إلى ديارهم وممتلكاتهم. وضمنت للاجئين منهم في سوريا نفس الحقوق والاحترام التي يحظى بها المواطن السوري ... بما فيها حقوق التوظيف والعمل والتجارة وخدمة العلم وحق التملك (لأكثر من محل تجاري ولكن لشقة سكنية واحدة في حين يحق للمواطن السوري امتلاك العديد من الشقق السكنية)... ومن حيث الجنسية، يحتفظ الفلسطيني بجنسيته الفلسطينية لكنه يحصل على هوية سورية مسجل عليها بلد الأصل (حيفا، يافا) لتسهيل أمور الإقامة. وبذلك حصل اللاجئ الفلسطيني على نفس الحقوق المدنية التي يتمتع بها المواطن السوري تقريباً باستثناء حق الترشح والانتخاب للهيئات الرسمية والتشريعية والتنفيذية في سورية، أي لمجلس الشعب والرئاسة" (بديل، 2000: 34-36). ومن ناحية المواقف السياسية، ما زالت سوريا ترفض رسمياً التعامل مع إسرائيل والإسرائيليين وترفع شعارات التحرير، على الرغم من دخولها مؤخراً في مفاوضات غير مباشرة مع إسرائيل بوساطة تركيا.

[14] يقدم حمد موعد في كتابه مخيم اليرموك استعراضاً لأشكال التنظيم السياسي العاملة في المخيم منذ نشأته حتى صدور الكتاب في تشرين الأول-أكتوبر 2002.

والذي بلغ أوجه مع بناء جدار الضم الاستعماري التوسعي وزرع أكبر حاجز عسكري في الضفة الغربية عند مدخل المخيم. وبالرغم من تشابه المخيمين من حيث أسباب النشأة، فمن الواضح للداخل إليهما أن هنالك تبايناً في الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ينعكس ظاهرياً في شكل الشوارع والمنازل ومستوى الخدمات والأماكن الترفيهية التي بدأت بالتطور في مخيم اليرموك، حتى أنه لم يعد يتميز عن الأحياء السورية الأخرى المجاورة كثيراً، وقد تحول –على حد تعبير العديد من المبحوثين الذين قابلتهم– إلى ثالث أكبر منطقة تسوق في دمشق بعد سوق الحميدية والصالحية، بينما يبدو مخيم قلنديا أكثر بساطة من ناحية الخدمات والبنية التحتية.[15] تحاول الدراسة التعرف على أثر هذه الاختلافات على صورة فلسطين في روايات اللاجئين في المخيمين ورؤيتهم للمستقبل.

أما السبب الآخر لاختياري لكل من مخيم قلنديا ومخيم اليرموك، فهو التشابه بين المخيمين من ناحية مجاورتهما للمراكز الحضرية وقربهما من مراكز صنع القرار السياسي في المكانين، بشكل يجعل المقارنة أكثر واقعية. فمخيم قلنديا يقع شمال مدينة رام الله–مركز تواجد السلطة الفلسطينية ومؤسساتها الرسمية، وكذلك حال مخيم اليرموك الموجود جنوب مدينة دمشق، إحدى أقدم المراكز الحضرية في الوطن العربي.

ملامح عامة من المخيمين

أقدم هنا بعض المعلومات العامة عن واقع المخيمين اليوم بما يخدم فهم روايات المبحوثين في الفصلين الثالث والرابع. بينما يتوفر عدد من الأبحاث عن مخيم اليرموك، لم أجد أي بحث أو دراسة منشورة حول مخيم قلنديا، إلا أنني استطعت الحصول على ملفات الكترونية من وجيه عطا الله من مركز شباب قلنديا، سأعتمد عليها وعلى المعلومات التي جمعتها عن المخيم من مشاهداتي ومن خلال مقابلاتي مع بعض المبحوثين النشطين.[16]

أولاً: مخيم قلنديا

الموقع وعدد السكان: يقع المخيم بين مدينتي رام الله والقدس، ويبعد عن مدينة رام الله 5 كم و 11 كم عن مدينة القدس. وقبل العلم 1967 اعتبر المخيم جزءا من محافظة القدس، وقسّمه الاحتلال الإسرائيلي فيما بعد إلى قسمين "القسم المدار من قبل وكالة الغوث أتبع لرام الله وأما ما تبقى حوله وفي جهته الغربية فقد أتبع لمدينة القدس".[17] وحسب مؤسسة بديل، يقع المخيم ضمن المنطقة (ب) وفقاً لاتفاق أوسلو، وتعد إسرائيل هي فقط المسؤولة أو المخولة بالمسائل الأمنية. (بديل، 2000: 16). وقد ورد الوصف التالي على لسان أحد العاملين في الأنروا الذي التقيته في المخيم: "لا توجد رعاية للسلطة، كونها منطقة B and C، ولا يوجد للسلطة نفوذ كثير في المخيمات. فالأوضاع ليست مريحة لكن الناس مازالت تعيش كما كانت في فترة الانتفاضات بأوضاع صعبة جداً، ولا يوجد لديهم مخرج

---

[15] أنظر الصور في الملحق رقم 1

[16] راجع الملحق الأول للاطلاع على صور من المخيمين: الشوارع، البيوت، المدارس، جدران البيوت، والقبور.

[17] معظم المعلومات الواردة هنا مقتبسة من ورقة أعدها مركز شباب قلنديا.

آخر." تبلغ مساحة المخيم 392 دونم، 0.39 كم 2 (353 دونم مستخدم). ويصل عدد سكانه في العام 2008 إلى 11620 نسمة، وعدد العائلات فيه يبلغ حوالي 2278 عائلة.

نشأة المخيم وأصول ساكنيه: أنشئ المخيم في العام 1949 من قبل الصليب الأحمر وكان عبارة عن خيام. "سنة 1950، استلمت خدماته وكالة هيئة الأمم المتحدة للإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) من الحكومة الأردنية (دائرة حارس أملاك العدو). فبنت وحدات سكن مؤقتة للاجئين بدل الخيام، كان المفروض أنها تعيش لمدة 10 سنوات وبعدين تنحل القضية الفلسطينية ويعود الفلسطينيون إلى ديارهم، ما صارش حل، ظلت هيئة الأمم المتحدة ترعى شؤون اللاجئين من ناحية خدمات كاملة صحية وتعليمية وتموينية. وكانت بالسابق كمان تزودهم بالمياه. بعد 1970 صار في تقليصات في خدمات الوكالة، وصارت تقتصر فقط على الشؤون الاجتماعية: حالات العسر الشديد فقط يساعدوهم تموينياً، وصار في تقليصات بالمدارس. تقليصات بشكل عام في خدمات الوكالة ولغاية الآن. صار في مجالات للعمل، صاروا يشتغلوا عند اليهود، طبعاً بالمخيم مافش عند الناس أراضي زراعية فأصبحوا يعملون بالمهن، ولما إجت السلطة صاروا يشتغلوا اشي بوظائف السلطة واشي بالعمران وبالمهن الفنية".[18] تعود أصول سكان المخيم إلى 76 قرية و 4 مدن احتلت ودمرت في العام 1948؛ معظمها من قرى غرب مدينة القدس، ومن مدن يافا واللد والرملة وقراها، وبعضهم من قرى شمال غرب مدينة الخليل ومن قرى مدينة حيفا وعائلة واحدة من مدينة بيروت. وفي العام 1967، ونتيجة لعملية تدمير القرى الثلاث يالو، وعمواس وبيت نوبا، انتهى المطاف بـ 48 عائلة منها للإقامة في المخيم، وهم غير مسجلين رسميا في دوائر وكالة الغوث بحجة أنهم ليسوا لاجئين أو نازحين. يصف اللاجئون نشأة المخيم والظروف الصعبة التي عاشوها بداية في الخيام، فلم يكن الانتقال من تحت الخيمة إلى غرفة الـ 11م 2 بأفضل حال، نظرا إلى أن سماكة الجدران كانت لا تتجاوز 10سم وسماكة السقف من 7–8 سم فقط، مما جعلها حارة جدا في الصيف وباردة جدا في الشتاء، الأمر الذي اضطر اللاجئين إلى إضافة الغرفة تلو الأخرى كلما سمحت لهم ظروفهم المادية، وكما يصف وجيه عطا الله "أتى الاسمنت على معظم المساحة التي شجرها منذ اليوم الأول لإقامته في المخيم، لحين اكتشافه مأزق فتح شباك للتهوية بينه وبين جاره، بعد أن زحف على جزء من الطريق العام للمارة، وصولا إلى اضطراره للبناء العامودي متحديا ومخاطرا بالبناء مباشرة بمحاذاة أعمدة الكهرباء، حتى أنك تراها أحيانا داخل البيت أو مخترقة جدران غرفة من الغرف، بانتظار شركة الكهرباء لحل المشكلة".

الخدمات: ما زالت الخدمات التي وفرتها وكالة الغوث منذ تأسيس المخيم تدار من قبل دوائرها المختلفة، وتتمثل بالخدمات التعليمية والصحية وخدمات الإغاثة فقط، في وقت اختفت فيه بعض الخدمات الأخرى منذ العام 1982، حيث قلصت الوكالة حصص الإعاشة. ففي حين كانت تشمل سابقاً جميع سكان المخيم، اقتصرت على حالات العسر الشديد والحالات الاجتماعية. وتم إغلاق

[18] من مقابلة مع مسؤول في الأونروا أجريتها خلال شهر تموز 2008.

مركز التغذية مع نهاية العام 1989، وإلغاء موازنة مركز الشباب الاجتماعي السنوية، مع الإبقاء على ما يسمى بالمنح السنوية والتي تصل في المتوسط من 800 – 2000 دولار سنويا. كما قلصت ميزانيات التعليم فيما يخص صيانة الأبنية (زجاج، طراشه)، والتي باتت من مسؤولية المجتمع المحلي.

طبيعة الحياة في مخيم قلنديا: المشكلة الكبيرة (وهي مشتركة بين مخيمي اليرموك وقلنديا) هي مشكلة الازدحام والضغط السكاني، ويصفها أحد المبحوثين الذين قابلتهم بالقول:

> "المخيم توسع أفقياً وعمودياً لآخر حد ممكن، بنينا على كل المساحة طبقات، فاطّلعي بتدخلي في المخيم، وين في مساحة تزرعي؟ فش مساحة للأوادم، الحيز اللي وُجد في قلنديا، كانوا حوالي 3000 نسمة سنة 1950 واليوم حوالي 12000 نسمة بنفس الحيز وبنفس المساحة شايفة؟ زي ما قلت لك تضاعف، ما هو طبيعي بتحكي عن مخيم أُسس في الخمسينات على مساحة أرض هي نفسها مش ممكن تتمدد بالعكس تقلصت لأنه أجوا من مناطق الخليل شروا المناطق المحاذية اللي كانت الفضاء! اطلعي المنطقة حوصرت، يعني نفس الحيز! لما الوكالة حطت معايير ما حطتش معايير إنه تقولي فيها كماليات، معايير إنه هذه المساحة 300 متر لعائلة من 8 أو 9 أنفار عادي، فصفت نفس الحيز مش لـ 9 أنفار، لـ 9 عائلات. يعني كل نسمة صفى عائلة من الخمسينات أو بجوز أكثر، يعني أنا انولدت في الدار اللي أنا موجود فيها، والآن أنا جد، وحفيدتي بتيجي عالدار نفسها، نفس الحيز."

إلا أن معاناة مخيم قلنديا لا تقتصر على ضيق المساحة وتقليص خدمات الوكالة، فبالمقارنة مع مخيم اليرموك الذي تتوفر فيه نفس الخدمات المتوفرة في أحياء دمشق المجاورة، بالإضافة إلى خدمات صحية جيدة نسبياً_ حسب وصف أحد الأطباء والصيادلة _ تقدمها ثلاثة مستوصفات تابعة للأونروا وثلاثة مستشفيات وأربعة مجمعات طبية، وعدد لا بأس به من الأطباء والصيادلة، فإن مخيم قلنديا يعاني من مشاكل بيئية تتلخص في الافتقار للخدمات الصحية "توجد عيادة للوكالة بطبيب واحد مفرغ لخدمة السكان من لاجئي المخيم وجواره"، ولا يوجد مشروع للتخلص من المياه العادمة، مما أدى إلى تزايد عدد حفر الامتصاص، حتى أمسى في كل بيت حفرة ليتحول المخيم إلى "مجمع سكني قائم على حفرة امتصاص كبيرة جداً"، رافقها تسرب في كل اتجاه، وانتشار المياه العادمة في كل شارع وزقاق. وبالتالي، زيادة هائلة في عدد الحشرات من ذباب و ناموس: " فكل عائلة تعمل مسارب على نفقتها الخاصة، تدب في أرض مشاع، وتبعد عن آخر بيت في المخيم حوالي 150 متر فقط، هاي تشكل نكبة صحية مستقبلاً، يوجد مكب للنفايات قريب من المخيم، وهو أيضاً يبعد عن آخر بيت في المخيم حوالي 150 متر، لكن تتم معالجته بطمره بالطمم والأتربة."[19] ومن جهة ثانية، ظهرت مشكلة بيئية أخرى، نتيجة لعملية البناء المستمرة التي شهدتها جميع بيوت المخيم منذ أواسط السبعينات وزيادتها في الثمانينات وجنونها في التسعينات، والتي أدت إلى سد منافذ التهوية، وانتشار كميات هائلة من الغبار والطمم باستمرار في جميع شوارع وأزقة المخيم.

[19] من مقابلة مع مسؤول في الأونروا في شهر تموز 2008.

المخيم والاحتلال: واجه سكان المخيم، بعد احتلال بقية فلسطين سنة 1967 أنواعاً مختلفة من العقاب الجماعي، منها: نفي 14 شخصاً من سكانه، وهدم أربعة منازل وإغلاق سبعة أخرى، واعتقال 875 شخصاً وجرح أكثر من 2500 آخرين، واستشهاد 36 شهيداً، وإغلاق مركز الشباب لأكثر من 12 عاماً. كما أغلق الاحتلال مدخل المخيم الرئيس أربع سنوات متتالية قبل انتفاضة العام 1987، ومرة ثانية لأكثر من ست سنوات، وثالثه لأكثر من سنتين. وأغلقت المدارس مرتين لفترات تراوحت ما بين 3– 6 أسابيع، كما تعرض سكان المخيم للقنابل المسيلة للدموع وبشكل شبه يومي خلال سنوات الانتفاضة الأولى وانتفاضة الأقصى، وتعرض المخيم لتفجير خزانات المياه فيه ولمختلف أنواع العقاب الجماعي، بجمع رجال وشباب المخيم في الساحات العامة لساعات طويلة من الليل والتنكيل بهم".[20] ويصف المسؤول العامل في مركز الأونروا صعوبة الحياة في المخيم خلال الانتفاضة: "كانت أطقم الوكالة العاملة في المخيم تتحرك في فترات منع التجول بالخفاء من الجيش، لأنهم كانوا معرضين لأن يتم الاعتداء عليهم. فكانوا يقدمون الخدمات التموينية والطبية حين يطلع الجيش أو يغير موقعه، فيذهب الموظفون إلى المنطقة التي لا يوجد فيها جنود إسرائيليين لتقديم الخدمات [...] كان يتم إحضار المريض على العيادة بالسرقة (حتى لا يرانا الجيش)، ثم يُعالج ويرجع لبيته [...] كانت مأساة، الأوضاع الأمنية حالياً أهدأ نوعاً ما، لكن الأوضاع الاقتصادية صعبة، فأغلب سكان المخيم يعملون في البناء أو في مؤسسات السلطة، ويوجد عدد من الأطباء والمهندسين والمعلمين، لكن الكثير منهم هاجر خارج المخيم أو خارج الضفة الغربية كلها في فترة الانتفاضتين". وتمثل آخر أشكال العقاب الجماعي في العام 2001، عندما وضعت قوات الاحتلال حاجزها العسكري على المدخل الجنوبي للمخيم، مما أدى إلى شل نشاط سكان المخيم الذين كانوا يعتمدون في عملهم على سوق العمل الفلسطيني في أنحاء الرام والقدس وسوق العمل الإسرائيلي. كما تضرر طلاب المدارس بشكل عام، وطلبة المرحلة الثانوية بشكل خاص، من الذين يدرسون في مدارس بيت حنينا والرام. ولم يعد حتى بإمكان المرضى الذين يتلقون علاجهم في مشافي القدس، سواءً الخاصة أو الحالات التي تقوم وكالة الغوث بتحويل علاجها إلى مشفى المطلع، تخطي الحاجز للوصول إليها، ولم يعد بالإمكان الحصول على تصاريح مرور.

ثانياً: مخيم اليرموك[21]

الموقع وعدد السكان: يعد مخيم اليرموك أكبر تجمع فلسطيني في سورية، وقد يكون أكبر تجمع للفلسطينيين خارج الوطن (موعد، 2002: 8). ومن المثير للانتباه، أنه على الرغم من أن مخيم اليرموك نشأ كتجمع للفلسطينيين أساساً سنة 1957 على مساحة تقدر بـــ 2110 دونماً (حسبما يذكر موقع الأنروا الرسمي على الانترنت)، وكان وما زال يسمى "مخيماً" من قبل ساكنيه ومن قبل المحيط، وحسب ما هو مكتوب على اللافتة الموجودة في مدخله الجنوبي،[22] وبلغ عدد سكانه من

[20] الإحصائيات مأخوذة من مركز الشباب في قلنديا من ورقة تم إعدادها في آذار 2001.
[21] معظم المعلومات مأخوذة من كتاب مخيم اليرموك لحمد موعد (2002).
[22] توجد صورة للافتة في الملحق 1.

الفلسطينيين 120 ألفاً (حسب نشرة بديل الصادرة سنة 2000، وتقديرات الأونروا وفق ما أشار إليه موعد ص 35 من المصدر السابق)، وهم يحملون كرت الإعاشة، ويستفيدون من خدمات الأونروا الصحية والاجتماعية والتعليمية في المخيم (28 مدرسة، مركزين للمرأة وللخدمات، 3 مجمعات طبية وعدد من العيادات، مركزاً للخدمة الاجتماعية)، إلا أن الأونروا لا تعتبر مخيم اليرموك مخيماً وفقاً لتعريفاتها، فلا تشمله في إحصائياتها (شمل، 1996). ومع أن هذا الموضوع لم يرد في حديث اللاجئين في المخيم ولا في الدراسات الخاصة بالمخيم (موعد، 2002؛ سرحان، 2005)، إلا أنني لاحظت في أكثر من نشرة للأونروا، استثناء مخيم اليرموك من إحصائياتها، وقد يكون أحد الأسباب ظروف نشأة المخيم التي سأشرحها باختصار في الفقرة التالية وفي الغالب هناك أسباب أخرى تحتاج لمزيد من الاستقصاء.

نشأة المخيم وأصول ساكنيه: تعود نشأة مخيم اليرموك إلى العام 1957، حين بدأت عملية نقل الفلسطينيين من المساجد والمدارس والمشافي في دمشق ومن حي الأمين (أو حارة اليهود كما أسماها اللاجئون الذين قابلتهم)، إلى تجمع سكني جديد أُطلق عليه مخيم اليرموك بإشراف مؤسسة اللاجئين الفلسطينيين العرب وبدعم من الأونروا. وعلى العكس من مخيم قلنديا، لم يشهد مخيم اليرموك مرحلة الخيام، حيث بدأت المساكن بغرف بسيطة كانت تبنى من الاسمنت والخشب، وكان البناء –كما يقول المهندسون– يتم بطريقة شبه منظمة، اعتمد فيها مبدأ التخطيط الشطرنجي. وفي الستينات والسبعينات، شهد المخيم قدوم لاجئين من مناطق أخرى كالفلسطينيين الذين كانوا موجودين في الجولان واضطروا للجوء مرة ثانية بعد حرب العام 1967، فتوسع المخيم بظهور مناطق عمران عشوائية. ومن اللافت للنظر، أن مخيم اليرموك ظهر منذ نشأته كتجمع سكني مختلط. ففي بعض المناطق، تطور التجمع الفلسطيني جنباً إلى جنب مع تجمعات غير فلسطينية تتكون أساساً من أبناء الأحياء الدمشقية الفقيرة، الذين جاؤوا للسكن في مخيم اليرموك باعتباره منطقة سكنية شعبية. وجاء معظم سكانه من شمال فلسطين، وخصوصاً من قضاء صفد، ومن مناطق طبرية وحيفا وعكا ويافا.

الخدمات: مقارنة بمخيم قلنديا، حيث تعتبر الأونروا المؤسسة الرسمية الوحيدة التي تقدم خدمات للمخيم، والباقي تقوم به لجان شبابية أو نسائية، تشرف ثلاث مؤسسات رسمية على إدارة مخيم اليرموك، وهي الأونروا التي تهتم بقطاع التربية والصحة والخدمات الإدارية والشؤون الاجتماعية؛ والهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين العرب،[23] التي أنشئت في العام 1949 وكانت تعتمد على المساعدات والتبرعات حتى العام 1969، عندما أصبحت ميزانية الهيئة جزءاً من ميزانية الجمهورية العربية السورية؛ إضافة إلى بلدية مخيم اليرموك التي تشكلت في العام 1964 والتي ترتبط بعلاقة

[23] من مقابلة مع أحد الناشطين في مؤسسة اللاجئين في سوريا أجريت بتاريخ 13 آب 2008: "أحدثت الحكومة السورية الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين العرب، وهي مؤسسة تعنى بالأحوال المدنية، القيود المدنية المتعلقة بزواج، طلاق، ولادة ..كلها في المؤسسة. استملكت هذه المؤسسة قطعة أرض في اليرموك وبدأت تعطي أراضي للأسر الفقيرة حسب عدد أفراد الأسرة، وتبلغ مساحة أكبر قطعة ممكن أن تمتلكها الأسرة 60 متر على أساس أن السقف خشب. لكن الناس لم تلتزم وصاروا يبنون السقف من الباطون ويشترون أراضي كبيرة، قدمت الأنروا في البداية كل مستلزمات الحياة الضرورية: دفاتر وأقلام، والآن لا يقدمون شيئاً إلا للحالات الصعبة والتي لا تملك معيلاً."

مزدوجة مع كل من الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين، ووزارة الإدارة المحلية المسؤولة عن البلديات في سورية. وتهتم البلدية، كغيرها من البلديات، بتحسين الأوضاع الصحية والنظافة والخدمات. فعلى سبيل المثال، بدأ مشروع المجاري والصرف الصحي في مخيم اليرموك منذ العام 1965، وبدأ مد المخيم بمياه عين الفيجة في العلم 1972، إضافة إلى انتشار النوادي ومنتديات ومراكز ثقافية ومكتبات عامة بإشراف الفصائل الفلسطينية المختلفة (موعد، 2002: 25–55).

طبيعة الحياة في مخيم اليرموك: مع أن أغلب الرواة الذين قابلتهم في مخيم اليرموك يفضلون السكن في المخيم عن أي مكان آخر في سوريا،[24] إلا أن الشكوى ذاتها من الازدحام والضغط السكاني، الذي وصفه أهل مخيم قلنديا، ظهرت لدى البعض، خاصة من أبناء الجيل الثالث (20–35 سنة):

> "أنا بحب أطلع من المخيم، مو لأنه مخيم؟ بالعكس أنا بحبه، وبعتبر إنه منطقة فيها أمان، ومثلاً أنا امبارح رجعت الساعة 11:30 بالليل، بيجوز لو بمنطقة ثانية ممكن ما برجع بهيك وقت (...)[25] بس أنا لأسباب بيئية (...) كونه ما في أوكسجين بالمخيم. بحب أطلع أسكن بالضواحي. هيك شي شخصي (...) بحب أسكن بضيعة أكثر، وبمنطقة مطرفة ما يكون فيها عجقة هالقد.."[26].

> "أنا بهمني أنه يصير في تحسينات بالمخيم، يعني أنا الله ما خلقني أظلني عايشة بهاي الأزمة السكنية والأزمة المناخية، أنا بحافظ على هويتي لو سكنت ببناية، مو إنه الخيمة هي اللي بتعطيني الحق، مو شرط أنا أكون يعني بهذا البؤس حتى والله ما أنسى حق العودة يعني (....) مقصود أنا أقتل نفسية اللاجئ كإنسان، يعني أنا إذا قتلت نفسية إنسان ما عاد يعرف شو إله حقوق! والله ما بيعود ياكل، كيف بدو يتذكر فلسطين؟؟"[27].

وعلى الرغم من أن سكان مخيم اليرموك لم يعانوا من السياسات الاستعمارية نفسها التي وصفها أهل قلنديا، إلا أنهم يتحدثون عن نوع آخر من المعاناة؛ فيركز الأكبر سناً على ما يذكرونه من طفولتهم من معاناة أهلهم أثناء رحلة اللجوء والتهجير، بينما يركز الجيلان الثاني والثالث على خيبة الأمل والتغير الذي أصاب النمط الخاص للحياة في المخيم، والتي تميزت بالحراك السياسي منذ بدايات الثورة[28] حين تعرض عدد كبير من الفدائيين للسجن والاستشهاد. ويذكر البعض بأسى أيلول الأسود وأحداث لبنان واستشهاد أقرباء لهم خلالها. وعلى الرغم من أن اللاجئين في سوريا يعيشون في ظروف أفضل من تلك التي يعيش فيها أقرباؤهم في لبنان، كونهم يتمتعون بكافة حقوق المواطنة تقريباً، كما وضحت سابقاً، إلا أن هذا لا يمنع نمو الإحساس بانعدام الأمان والاستقرار لدى البعض، خاصة خلال الأزمات والأحداث الكبيرة: الاجتياح الإسرائيلي للبنان 1982، وحروب المخيمات

---

[24] من أصل 44 لاجىء قابلتهم في مخيم اليرموك، 9 فقط عبروا عن رغبتهم بالانتقال للعيش في مكان آخر غير المخيم، مقابل 36 شخص قالوا اجمالاً أن المخيم ليس سيئاً، ولا يرغبون بالانتقال إلى مكان آخر في سوريا، لكنهم يريدون أن تُجرى تحسينات في مستوى الحياة والخدمات، وبعضهم اشتكى من التغيرات في شكل المخيم وبنيته الديمغرافية. بالمقابل معظم أهل قلنديا عبروا عن عدم رضاهم عن نمط الحياة في المخيم، والسبب الرئيسي الذي ذكروه هو الازدحام، 10 فقط من أصل 39 ذكروا أنهم راضون عن الحياة في مخيم قلنديا ويفضلونه عن أي مكان آخر.

[25] تشير النقاط الموضوعة بين قوسين (...) ضمن مقاطع الروايات هنا إلى لحظات صمت الراوي، واستخدام عدد أكبر من النقاط هو للدلالة على طول لحظة الصمت.

[26] من مقابلة مع منى الصفورية 35 سنة.

[27] من مقابلة مع لينا ترشيحي 46 سنة.

[28] يذكر أحد الذين قابلتهم استشهاد عمه ووالده ووالد زوجته الذين كانوا يعملون ضمن الكتيبة 68 التي تأسست سنة 1954 وشارك أفرادها في مراقبة العدو وإيصال الأسلحة إلى العرب هناك ... وسكن عدد كبير منهم في مدخل المخيم في حارة أطلق عليها حارة الفدائيين (موعد، 2002: 112).

1983–1987، ومفاوضات السلام في مدريد 1991، واتفاق أوسلو 1993، والمشاكل بين الفصائل وغياب الإحساس الوطني، فهذه الأحداث تزيد من منسوب القلق والاغتراب لدى اللاجئين كما ذكر رواة من عدة أجيال ممن قابلتهم:

> "الوضع بمخيمات سوريا بختلف عن الوضع بمخيمات لبنان، إلي رفقات بمخيمات لبنان، مثلاً بعين الحلوة، على الرغم من وضعهم المعيشي وغياب الفرص والمعاناة بس الإحساس الوطني ما زال موجود، يمكن لتاريخ بيروت ويمكن المعاناة بتولده! هاي مشكلة أساسية للمخيمات الفلسطينية بسوريا وهي الرخاء الاقتصادي الاجتماعي، واحتكاك الفلسطيني بحياته اليومية، إنه المواطن الفلسطيني يُعامل مثل المواطن السوري، فالواحد بدور على شربه وأكله وكذا، يعني لم يعد هم الفلسطيني هم بالمعنى الواضح والصريح! يعني صرنا إحنا الفلسطينية بالمخيم بنتطلع مثل السوريين على القضية. وما عاد الوضع الفلسطيني مثل الأول، وحتى الإحساس خف".

لم يكن هذا التحول، برأيه، نتيجة للتطور الطبيعي للحياة في المخيم، بل لعبت التغيرات السياسية ومصالح مراكز القوى، الحكومة السورية والأحزاب دوراً فيه، يصف شريف الطنطوري رؤيته للتغير الذي عاشه في المخيم:

> "المشكلة الأساسية هي إنه أنا بالـ 87 كان عمري 8 سنين، وكان مخيم اليرموك لسه مخيم، يعني ما تدجن، كان لسه فيه فلسطينية وكان في هذا الحس الفلسطيني موجود، وكان الشهيد شهيد بامتياز مو رقم على شاشة، هو حالة، حالة معاشة، لما 3، 4 يموتوا بفلسطين كانت العالم هون تستنفر إنه في شي غلط عم بصير، كان في حس وطني عالي جداً تجاه مجمل القضايا. عموماً، بعد العام 1992 اختلفت المواضيع، بعد ما بلشت قصص السلام وأوسلو، بلش مخيم اليرموك يبطل مخيم، أنا برأيي إنه كان في شي هادف بالنسبة للمخيمات السورية. الحكومة السورية تعاملت مع المخيمات الفلسطينية بشكل كثير ذكي، بالأول اعتمدت سياسية العزل وبعدين اعتمدت سياسة التدجين (...) رفقاتي بالمدرسة الثانوية بفكروا إنه مخيم اليرموك خيم، هذا الحكي بالـ 99، وما بعرفوا لا مخيم ولا شي (...) أنا بعتقد إنه هذا كان سياسة، يعني مثلاً الحكومة السورية داعمة حماس، فبنلاقي حماس فيها تساوي مهرجانات أو تطلع مسيرة امتى ما بدها، طبعاً بالتنسيق مع طرف سياسي سوري، مثلاً حماس عم بتجوز العالم (...) وإحنا مثلاً جينا نقعد قدام الجامع لما مات محمود درويش، كان في شباب فلسطينيين، لا تنظيمات ولا شي إله علاقة، فإجو قالوا لهم إنه ممنوع ... فبتحسي إنه في شي إله علاقة برؤية الحكومة السورية للقضية الفلسطينية، باعتبار إنه هاي الحكومة السورية حالياً عم بتدور على السلام، فلما بدهم (....) أنا هيك بحس، إنه يكون في حس وطني، إلى حد ما، فوق الشيء المسموح فيه (...) ما بدهم أيام الـ 87 وما بدهم أيام الثمانينات، وخلص كل واحد ينام على الجنب اللي بريحه. سوريا فاتت بالتسعينات على مدريد وكانت القصة قصة 2 كم على بحيرة طبريا، قصة مياه يعني، متفقين على كل شي، ما عدا الميات. بس الربط المباشر أنا بحسه هيك لما بدهم يساعدوا الحس الوطني بالمخيمات الفلسطينية بساووها (الفعاليات)، ولما ما بدهم يعني ولا كأنه صار شيء! مرات بموت شهيدين أو ثلاثة وبتلاقي إنه العالم طلعت مسيرة وانمنعوا (...) غياب المنظمات الفلسطينية المستقلة وأدلجة المنظمات: بين شعبية وديمقراطية وفتح وقيادة عامة وكل يغني على ليلاه (...) والانشقاق الحاصل بفلسطين عموماً عم بيأثر بطريقة كثير قوية، سواء على المنظمين داخل هاي الفصائل وحتى على المستقلين، على اعتبار إنه شي ما بيصير (....) وبالتالي كله عم بخفف من الحس الوطني الفلسطيني، عم بكون عامل ضغط لحتى يرخي، اللي عم بصير بالزبط هو عم يرخوا هذا الشعور [...]"[29]

ويشترك العديد من اللاجئين الذين قابلتهم في انتقاد التغيرات التي طرأت على المخيم، خاصة الازدحام الناجم عن ازدياد عدد سكان المخيم واستقرار فئات أخرى من سوريين وعراقيين فيه.[30]

---

[29] هذا المقطع من مقابلة أجريتها مع شاب في مخيم اليرموك يبلغ من العمر 28 عاماً، أوردت مقتطفات مطولة منه لأنه يتشابه في مخاوفه مع العديد من الرواة الآخرين.

[30] في أعقاب تدمير العراق سنة 1991 ومن ثم احتلاله سنة 2003 ولجوء مهجرين عراقيين إلى سوريا.

وقد سمحت لي إقامتي في المخيم، خلال شهر آب الحارق، حيث استأجرت منزلاً في نفس الحارة القديمة التي قضيت فيها طفولتي، بأن أشعر بروح المكان بشكل جديد. كان المكان مختلفاً عما عهدته، شعرت أن حاراته أصبحت أكثر ضيقاً ربما بفعل الازدحام السكاني، وأكثر من مرة ضيعت مدخل الحارة التي كنت أقيم فيها، على الرغم من أنني كنت أحفظ المخيم بحاراته وشوارعه عن ظهر قلب. لكن منذ دخولي للمخيم اتضح لي أنه تعرض لتغيرات كثيرة خلال فترة غيابي في السنوات العشر المنصرمة. لقد ازداد الازدحام كثيراً، وتحول الشارع الرئيسي إلى سوق يزدحم بجميع أنواع البضائع الاستهلاكية؛ ألبسة وكهربائيات ومواد غذائية وأقيمت مطاعم وكافتريات ومقاهي للانترنت، مما يجعلك تشعر وأنت تقطع طريقك بصعوبة خلال ساعات المساء بين حشود الناس الذين يملأون الطرقات لوقت متأخر من الليل، بأنك في يوم الوقفة الذي يسبق العيد، أو في أحد شوارع القاهرة المزدحمة. ما بقي من المخيم هو منظر البوسترات وصور الشهداء التي تتزاحم على الحيطان، وتتكدس بعضها فوق بعض، أحياناً عن قصد، حيث أخبرني بعض المبحوثين، أن الفصائل المتنافسة على زيادة رصيدها من المؤيدين تضارب على بعضها بحرب البوسترات؛ فحين يكون هناك إعلان عن نشاط كبير لفصيل معين، يقوم فصيل آخر بتغطية بوسترات الفصيل الأول ببوسترات أو نشرات؛ قد تكون إعلانات دعائية لمنتج أو دورة تعليمية. ولا يقتصر التغيُر على المشهد فقط، فالأصوات التي سمعتها في المخيم كانت مختلفة هذه المرة: يغلب على سكان المخيم، حتى الفلسطينيين منهم، اللهجة الشامية، وتختلط لهجاتهم بلهجات مدن سورية أخرى[31] إضافة إلى اللهجة العراقية،[32] ولم تعد تُسمع موسيقى الإذاعات التي كانت تنطلق من الدكاكين منذ الصباح الباكر تصدح بصوت فيروز، أو الأغاني الوطنية، والأخبار من إذاعات القدس[33] ومونت كارلو ولندن ودمشق، والتي كانت شائعة في الثمانينات وأوائل التسعينات، فقد طغى التلفاز بمحطاته الفضائية على حياة المكان، وتحولت معظم الدكاكين الصغيرة إلى ميني أو سوبر ماركتات. حتى أذني لاحظت انقلاباً في مواعيد السكان، فالمخيم الذي كان يستيقظ وينام باكراً في الماضي، صار يصحو متأخراً ويسهر بدكاكينه وساكنيه إلى ساعة متأخرة من الليل.

---

[31] أخبرني المبحوثون أن عدداً لا بأس به من السوريين يسكنون في المخيم أو يأتون خلال النهار للعمل في المحلات التجارية أو المطاعم التي يمتلكونها أو يستأجرونها.

[32] كذلك صادفت في المخيم أعداداً من العراقيين ممن لجأوا إلى سوريا في أعقاب تدمير العراق سنة 1991 ومن ثم احتلاله سنة 2003، حيث يعمل عدد منهم في البيع على بسطات منتشرة في شوارع المخيم وفتح آخرون محلات لبيع الخبز العراقي أو مواد أخرى، وهم يملأون مقاهي الانترنت المنتشرة في المخيم، فحسب ما يبدو هذه هي احدى طرق التواصل مع أقربائهم في الخارج.

[33] إذاعة تابعة للجبهة الشعبية – القيادة العامة، وكان لها في فترة الانتفاضة الأولى وحتى منتصف التسعينات شعبية واسعة بين أبناء المخيم. أما اليوم فلم يصدف أن أسمعها في الأماكن العامة والدكاكين ولم يذكرها المبحوثون إلا نادراً، ربما يرجع هذا إلى انتشار الفضائيات، التي تبث الأخبار صوتاً وصورةً على مدار الساعة، فلم يعد للإذاعات هذا الرواج الكبير.

البحث في معالم صورة فلسطين في روايات اللاجئين

من أجل تحديد أجزاء صورة فلسطين التي تسعى هذه الدراسة إلى تركيبها، قمت بمراجعة أبحاث تُعنى بتشكل هويات اللجوء، وبالتالي النظرة إلى الوطن المغتصب في حالة الاقتلاع والنفي القسري، والاطلاع على نماذج لـــ صورة/صور فلسطين في الذاكرة الجماعية للاجئين كما وردت في عدد من الأبحاث الإمبريقية التي أشرت إليها في المقدمة. وأجريت لاحقاً مراجعة لمفهوم الذاكرة الجماعية بشكل عام، وآليات تشكل السرديات الوطنية[34] *narratives* لدى الجماعات التي عاشت تجربة التهجير والاقتلاع، بما أن هذه الدراسة ستعتمد على روايات اللاجئين لتركيب صورة/صور فلسطين. سأكتفي في هذا الفصل بعرض محددات صورة فلسطين التي توصلت إليها من خلال مراجعتي للأبحاث الامبريقية، وسألخص مراجعتي لمفهومي الذاكرة الجماعية والسرديات الوطنية في الفصل الثاني الذي يقدم الإطار النظري للبحث.

في البداية لا بد من تفكيك أجزاء المتغير الرئيسي الذي انطلقت هذه الدراسة للبحث عنه، لكي نتوصل فيما بعد إلى تركيب صورة فلسطين. العنصر الرئيسي هنا هو فلسطين، لذا لا بد في البداية من الإجابة على سؤال:

ما هي فلسطين؟ وبالتحديد ماذا تعني فلسطين بالنسبة للمقتلعين منها منذ ستين عاماً؟

للإجابة على هذا السؤال، انطلقت من التعريف السوسيولوجي للمكان، وبما أن فلسطين ليست مكاناً عادياً من الناحيتين الجغرافية والسكانية، وذلك نتيجة تعرضها لهجمات استعمارية شوهت المكان والمجتمع المرتبط به، وانتزعت أكثر من ثلثي سكانه وألقت بهم خارج قراهم ومدنهم، لذا فإن التعريف السوسيولوجي للمكان لا يكفي في حالة فلسطين. بمراجعة الأبحاث التي تهتم بدراسة حالات التهجير القسري في العالم، لاحظت أن الباحثين يركزون غالباً على المكان من حيث علاقته بهوية المهَجرين. وهذا مُلاحظ أيضاً في الأبحاث الفلسطينية،[35] خاصةً في الدراسات الإثنوغرافية التي أجرتها باحثات من الأكاديمية الغربية أقمن في تجمعات اللاجئين، وسجلن رواياتهن ومشاهداتهن للحياة في المخيم.

تعريف المكان سوسيولوجياً

يحدد Thomas Gieryn في دراسة له بعنوان "A Space for Place in Sociology" ثلاثة ملامح لدراسة المكان سوسيولوجياً، وذلك من خلال مراجعته للأدبيات السوسيولوجية حول المكان منذ السبعينات، أولاً: الموقع الجغرافي: وهو يحدد المكان كبقعة مميزة في الكون، هو الفرق بين الهنا

---

[34] تستخدم هذه الدراسة بشكل عام مصطلح (رواية-ات) للإشارة إلى(السردية-ات)، الترجمة العربية الحرفية للمصطلح الانجليزي narrative، وراو/راوية للإشارة إلى من يقوم بفعل السرد narrator، كونها أكثر شيوعاً. وطبعاً المقصود هنا الرواية أو السردية التي يحكيها أبناء الشعب الفلسطيني عن فلسطين، والفئة المبحوثة هنا هي اللاجئين في مخيمي اليرموك وقلنديا تحديداً.

[35] لأن القضية الفلسطينية ليست قضية المخيم فقط، فالاقتلاع الذي حصل نتيجة الاستعمار أثر على الفئات المختلفة للمجتمع الفلسطيني بطرق مختلفة، ولكني، لمحدودية الإطار والزمان والطاقة المتوفرة للبحث سأركز على أجزاء من الصورة؛ تلك الموجودة عند فئة من اللاجئين في المخيمين اللذين اخترتهما.

والهناك، وللإمساك بتلابيب مكان معين يجب أن نبحث عن أوجه الشبه والاختلاف بينه وبين الأمكنة الأخرى. ثانياً: الشكل المادي: يوجد للمكان بعداً مادياً ملموساً، سواء صنع بفعل الطبيعة أو بيد الإنسان الذي يفعل فعله بعد استحواذه على الأمكنة الطبيعية، فيعيد تشكيلها لتضفي على حياته الاجتماعية معان جديدة من الثقافة المادية. فالتدخل المادي للإنسان لبناء الأمكنة وإعادة تصميمها واستخدامها لأغراضه الخاصة، يؤثر في الحياة الاجتماعية، وذلك بما يفرزه من مفاهيم السلطة والاختلاف واللامساواة والفعل الجماعي. ثالثاً: الاستثمار في المعنى والقيمة: لا يصبح المكان مكاناً إلا حين يأخذ اسماً وحدوداً وشكلاً معيناً يمثله. وتتشكل الأماكن بفعل مزدوج؛ فهي في الغالب تُبنى وتُنحَت مادياً، لكنها أيضاً تتشكل من خلال عمليات السرد والتفسير والإحساس والانطباعات والفهم والخيال (Soja, 1996: 465). لكن هل يحمل المكان نفس المعاني في حالات الاقتلاع والتهجير القسري؟

بناء الهويات في حالات الاقتلاع واللجوء

من خلال مراجعتي لعدد من الأبحاث التي تهتم بالتهجير القسري، لاحظت أن العديد من الباحثين ينطلقون في دراستهم للموضوع من العلاقة التي تربط اللاجئين بالأرض كمكان هُجِّرُوا منه، وذلك في محاولة منهم لفهم تأقلمهم أو عدمه في المكان الجديد، ومحاولة اقتراح بدائل أو حلول. (Brun, 2001; Gupta and Ferguson, 1992). وتصنف Catherine Brun في دراستها (2001) الأبحاث التي تهتم باللجوء القسري إلى فئتين؛ تفترض الفئة الأولى وجود علاقة طبيعية بين المكان وساكنيه، وفي هذه الحالة يكتسب الشعب والثقافة صفة المحلية، وينتميان إلى مكان معين تسكنه وحدات متجانسة، وحين يتعرضون للاعتداء، ويتم انتزاعهم من أرضهم، يبدون وكأنهم انتزعوا من ثقافتهم وأصبحوا بلا حول ولا قوة، وفقدوا هويتهم أو ما يسمونه بالانجليزية *uprootedness and an essentialist conception of space*. ويرى منظرو هذه الفئة[36] أن اللاجئين "أشخاص خارج المكان" وغير منتمين للمكان الجديد، ويعتبرون أن وجودهم في المكان الجديد مؤقت. وبرأيهم تتراوح الحلول الممكنة أمام هؤلاء بين إنهاء حالة اللجوء التي يعانون منها من خلال دمجهم بالمجتمع المحلي أو تغيير مكان إقامتهم، أو بإعادتهم إلى بلادهم الأصلية طوعاً أو قسراً. فمن وجهة نظر هذه الفئة، فإن اقتلاع الإنسان بمعناه الجغرافي *territorial uprootedness* يعني انتزاعه من بيئته الثقافية، ليصبح بلا حول أو قوة ويخسر هويته..(Brun, 2001: 17-18) أما الفئة الثانية، فهي بعكس الأولى لا تنظر إلى العلاقة بين الناس والمكان على أنها علاقة طبيعية، وتركز على تحليل الآليات التي بموجبها يسكن اللاجئون في أماكن معينة، ولكنهم في الوقت ذاته يشكلون جزءاً من جماعات عبر محلية. وينطلق منظرو هذه الفئة من فكرة أن الناس كانوا بلا شك يتنقلون باستمرار، ويتمتعون بهويات أقل ثباتاً من الهويات الجامدة التي تدعيها الدراسات الأنتروبولوجية، ليأتي James Clifford بسؤاله: "إلى ماذا يرمي هؤلاء المنشغلون بالحديث عن "الأرض الأصلية" في نهاية القرن

[36] Hammond (1999); Massey (1994); Allen and Turton (1996).

العشوين؟"، و"ما هي العمليات التي تدخل في التجربة الراهنة لبناء الهوية غير الحديث عن الأصول؟"(Clifford, 1986) . هذه الأسئلة وغيرها حول الهوية الجماعية ليست جديدة، بعد أن ازداد عدد الذين يعيشون في عالم أطلق عليه إدوارد سعيد (Said, 1979)'a generalized condition of homelessness'، عالم أصبحت هويات الأشخاص فيه "تتحدد بشكل منفصل عن الأرض الأصلية لهؤلاء الأشخاص، أو لنقل أنها أصبحت تتغير بتغير الأرض التي يقطنها الشخص" (Gupta and Ferguson, 1992: 9). ويرى منظرو هذه الفئة، أنه بالرغم من أن الناس أُجبروا على الرحيل عن أراضيهم، إلا أنهم لم يُقتلعوا من ثقافتهم ولم يفقدوا هويتهم، وليسوا عديمي القوة. فاللاجئون، حسب هذه الفئة، ليسوا ضحايا سلبيين حُكِمَ عليهم العيش في ظروف غير طبيعية، لكنهم أعضاء فاعلين يمكن أن يطوروا استراتيجيات لبقائهم في المكان الجديد. ومن بين هذه الاستراتيجيات، مفهوم الخيال كما طوره Appadurai، والذي يشرح كيف يعيش الكثير من الناس في عالم لم يعد المكان أو الأرض تحدده؛ فحين ينفك الرباط الذي يشد الناس بالأرض والملكية، يؤدي هذا إلى ما يطلق عليه قوة جديدة في الحياة الاجتماعية هي الخيال، فتصبح الفانتازيا ممارسات اجتماعية، ويصبح الخيال في حالة اللجوء ممارسة اجتماعية، وجزءاً من الآلية التي يبني فيها الأشخاص سيرهم الذاتية التي بدورها تتحول جزئياً إلى حيوات متخيلة "ترتبط بصور، وأفكار، وفرص تأتيهم غالباً من مكان آخر (غير المكان الأصلي) وغالباً ما تنتقل عبر وسائط الإعلام الجماهيري" (Appadurai, 1991: 199). وتأتي باحثة أخرى Liisa Malkki لتتحدث عن "إعادة بناء علاقة مع الأرض حين تخسر جماعة معينة أرضها، لتبني نفسها فيما بعد على أرض جديدة مثل مخيمات اللجوء" (Malkki, 1995). وقد تعرضت للانتقاد بسبب إهمالها لأهمية الحاضر والهنا في الدراسة، بتركيزها على آلية بناء ماض وطني. باختصار، تحاول هذه الفئة دراسة الكيفية التي تتوزع فيها العلاقات الإنسانية عبر الحدود والمواقع الجغرافية، بشكل يُظهر انخراط الناس في شبكة معقدة من العلاقات على المستويين العالمي والمحلي معاً. ليتحول المكان هنا إلى بناء ثقافي وليس مجرد وحدة ثابتة؛ "فالمكان ليس موقعاً لإنتاج الأفكار فقط، وإنما لتوليد ممارسات عملية تساهم في تشكيل هويات قاطنيه وتمكنهم من المقاومة"(Brun, 2001: 19) . ولكن أكثر ما يثير الانتباه هنا، هو أنه في الوقت الذي بدأت تضعف فيه أهمية المكان كموقع جغرافي، برزت أفكار جديدة حول أماكن متميزة ثقافياً وعرقياً. وهنا، يتبدى بوضوح تأثر هذه الفئة بفكرة بندكت أندرسن عن الجماعات المتخيلة التي ترتبط بأماكن متخيلة، فصارت هذه الجماعات التي أبعدت عن أرضها الأصلية تتجمع حول أوطان وأماكن في الذاكرة والخيال (Anderson, 1983).

في قراءتي للتصنيفين اللذين توردهما Brun لعلاقة اللاجئ بالمكان، أو بالأحرى علاقة هوية اللاجئ بالمكان الذي اقتلع منه، لاحظت أنه لا يوجد فرق بين الفئتين من حيث المنطلق الذي يرتكز عليه كل منهما. فالفئتان تحصران مشكلة التهجير القسري في الجانب الثقافي؛ أي في الأثر الذي تتركه تجربة اللجوء على هوية اللاجئ.[37] كما أنهما تركزان على النتيجة وليس على السبب؛ ففي الحالة الأولى

[37] as Liisa Malkki says: "There is a strong tie between forced migration and identity." (Malkki 1992: 38).

التي تعتبر العلاقة بين اللاجئ والمكان علاقة طبيعية، يحاول المنظرون تحديد حل لإعادة الوضع إلى طبيعته كي لا يفقد اللاجئ هويته، وفي الحالة الثانية التي تعتبر أن هوية الإنسان ليست إطارا جامداً، لذلك لا ترتبط بالضرورة بالأرض الأصلية التي اقتُلع منها الإنسان، فهي ترى أنه بإمكان الإنسان، وبالتالي الجماعات، تشكيل هويات جديدة تمكنهم من مقاومة ضياع الهوية الأصلية وبناء الوطن في الخيال. وبهذا تنغمس الفئتان في البحث عن حلول لمشكلة ضياع الهوية، بينما تهملان المشكلة الأساسية وهي الاضطهاد والاستغلال الذي توقعه فئة بأخرى، على سبيل المثال، مستعمِر بمستعمَر، والتي أدت بالنتيجة إلى اللجوء والتهجير القسري. فيبدو للوهلة الأولى كأن الاستعمار داء موجود في الطبيعة، ولا يمكن إيقافه حين يصيب الشعوب بمرض التهجير القسري ويحولها إلى جماعات لاجئة، وبالتالي يكون من الطبيعي أن ينصب تركيز الدارسين على الإجراءات العلاجية التي يمكن أن تزيل الاغتراب، أو تخفف من ضياع الهوية لدى المهَجّرين.

ومع أني أتفق مع الفئتين على أهمية الدور الذي تلعبه الهوية–ات التي تنمو لدى اللاجئ كفرد و/أو جماعة في حالة الاقتلاع، إلا أنني أختلف معهم حول لحظة البدء، فلحظة البدء ليست الضياع الهوياتي للمهجر/اللاجئ، والذي يجب معالجته أو مساعدته بالتكيف مع الواقع الجديد أو بخلق وطن متخيل. إن لحظة البدء هي ظروف الاضطهاد أو الاستعمار الذي أدى إلى التهجير القسري، من هنا، يمكن البدء بالتفكير بهوية–ات ترفضه وتقاومه.

ومن هنا، فإن التعامل مع قضية اللاجئين الفلسطينيين كقضية ثقافية فقط بمعزل عن الشروط الاستعماري المادي الذي أنتجها، يؤدي إلى قراءة مبتورة للواقع الذي هو في جوهره علاقة تقوم على استغلال واضطهاد طرف قوي لطرف ضعيف وما ينتج عنها من نفي الطرف الأول للثاني بإبادته أو طرده ليحل محله. فعلى سبيل المثال، يمكن توظيف فكرة الجماعات المتخيلة لخلق شرط يواجه الشرط الاستعماري بالبحث عن "إمكانية تكوين قومية متخيلة أو سرديات وطنية لدى جماعة معينة من خلال فعل القراءة، قراءة الروايات الأدبية والصحافة كأسلوب جديد للربط بين الأخوة والقوة والزمن" (أندرسن، 1999: 38). لكن هل يُعتبر فعل القراءة وحده كافٍ لمحو آثار اللجوء ونتائج الاضطهاد الأخرى التي يعيشها اللاجئون؟ من الملاحظ أن أندرسن، خلال استعراضه لنشوء القومية في بعض المستعمرات الآسيوية، يعطي دوراً كبيراً للغة والمنتجات الثقافية في المجتمعات، فيقول:

> "هناك نوع خاص من الجماعية المتزامنة توجدها اللغة وحدها في شكل شعر وأغان قبل كل شيء. خذ، على سبيل المثال، الأناشيد القومية التي تُغنَى في الإجازات القومية؛ فمهما كانت الكلمات قديمة مستهلكة والنغمات هابطة المستوى، فإن هناك معايشة للتزامن في هذا الغناء. ففي هذه الدقائق بالتحديد يغني أناس لا يعرفون بعضهم بتاتاً نفس الأشعار بنفس اللحن، فالصورة إذاً صورة توحد" (أندرسن، 1999: 148).

لكن بقياس ما أورده أندرسن على الحالة الفلسطينية كما تظهر في عدد من الأبحاث الامبريقية التي أجريت على التجمعات الفلسطينية اللاجئة، يظهر أن دور فعل القراءة في تكوين الذاكرة الوطنية ينحسر أمام دور التجربة الذاتية والجماعية للحياة في البلاد والتهجير واللجوء والأحداث السياسية

المتلاحقة، والتي تتدخل جميعها لتؤثر في قراءة الفلسطيني للحدث، وبالتالي في روايته له؛ حسب الجيل الذي ينتمي إليه ومستواه التعليمي والجنس والطبقة وتجاربه الحياتية، فهذه كلها ستؤثر على طريقة رؤيته للأحداث التي تبثها المؤثرات المختلفة (إعلام أو كتب).

وقد يكون للتشتت الفلسطيني، الذي بدأ مكانياً وصار سياسياً فيما بعد ليبلغ أقصاه بعد أوسلو، دوراً في هذا في فترة من الفترات، إضافة إلى محدودية تأثير السلطة الوطنية الفلسطينية في إنتاج وإعادة إنتاج عوامل موحدة تجتمع حولها مصالح الفلسطينيين جميعاً. والحالة التي يقدمها هذا البحث هي نموذج لما يعنيه هذا التشتت، فعلى الرغم من أن الدراسة تُعنى بمجتمعين فلسطينيين يجمعهم التهجير القسري نتيجة مشروع استعماري غربي أدى إلى تشتتهم في أماكن مختلفة، إلا أنه لا توجد على الرغم من ذلك لغة واحدة (على حد قول أندرسن) حول رواية تشتتهم. هل تبدأ الرواية بقصة استعمار الوطن واقتلاع الشعب؟ أم تبدأ بالرواية الرسمية المسموح بها للفلسطيني اليوم؛ قصة الدولة الفلسطينية على أي جزء يتم تحريره؟ هنا أود أن أعطي مثالاً على التشتت اللغوي وغياب "الجماعية المتزامنة" التي يتحدث عنها أندرسن في الاقتباس الذي أوردته أعلاه، وبالصدفة أن موضوع الحديث هو النشيد الوطني أيضاً. فإحدى الاكتشافات الطريفة التي وجدتها أثناء حديثي مع اللاجئين هنا وهناك، هو وجود نشيدين وطنيين فلسطينيين. فالمفروض أن النشيد الوطني هو إحدى الآليات الرمزية الموحدة للشعب في "الأمم الحديثة"، لكن في حالة مخيمي اليرموك وقلنديا يُجمع أهالي كل مخيم على نشيد مختلف. يشير أهالي مخيم اليرموك إلى نشيد "موطني" على أساس أنه النشيد الوطني الفلسطيني، بينما النشيد الوطني الفلسطيني في فلسطين هو "فدائي". وبينما لم يُشر أحد من الرواة في مخيم قلنديا إلى النشيد الوطني أثناء سرده لرواية فلسطين، ذكره عدد من رواة مخيم اليرموك في رواياتهم، فكما يبدو يلعب النشيد دوراً رمزياً أكبر في التعبير عن الحس الوطني عند غياب وسائل أخرى:

> "وكثير كنا بالمدرسة متحمسين ونطلع مظاهرات وإضرابات. وبتذكر مرة ما قبلنا نفوت على الصفوف إلا لنقول النشيد الوطني الفلسطيني " موطني، موطني". هذا كان بعد المفاوضات، إحنا بمدارس الوكالة بنغني النشيدين السوري: حماة الديار، والفلسطيني: موطني. *(س: هل موطني هو النشيد الفلسطيني؟)* إيه إحنا هيك بنعرف، إنه النشيد الوطني الفلسطيني هو موطني، وابني، كان عندهم حفلة في مدرسة ترشيحا قبل فترة، وحطوا النشيد الوطني الفلسطيني نفسه؛ موطني."[38]

فلسطين في الدراسات السابقة بين الاقتلاع واللجوء

لأقترب أكثر من مبتغاي في هذا القسم، وهو التوصل إلى تعريف محددات صورة فلسطين التي ستبحث عنها الدراسة الحالية، سأحاول الانطلاق بدايةً من مراجعتي للدراسات السابقة التي اهتمت بالموضوع. إذا انطلقنا من الموضوع الذي حددته Brun (بغض النظر عن التصنيفات التي توصلت إليها) كمحور لدراسات التهجير القسري، وهو علاقة هوية اللاجئ الفلسطيني بالمكان أي بفلسطين، فسأحاول التعرف على الصورة التي يحملها الفلسطيني/ة لفلسطين كما تظهر في روايته/ة. هذا الموضوع يفتح على مبحث آخر، أوسع من مجال هذا البحث، فقد كتب العديد من الفلسطينيين رواياتهم عن فلسطين، فكان لها نسخ إبداعية، أدبية وشعرية وفنية (رسم؛ رقص؛ موسيقى؛ غناء)،

[38] من مقابلة مع نغم الصفورية، 35 سنة، أجريت في شهر آب بمخيم اليرموك.

تندرج هذه غالباً ضمن الإبداعات الفردية التي يحفزها المكان كجغرافيا أو كوطن متخيل[39] وإن كانت من وحي الرواية الشعبية الجماعية، ومراجعتها ممتعة ومهمة، لكني سأركز هنا على مراجعة الأبحاث والدراسات التي ركزت على الرواية الجماعية لفلسطين.

من خلال استعراضي لما وقع بين يدي من أبحاث، وجدت أن صورة فلسطين من حيث علاقة الفلسطيني اللاجئ بها كمكان يمكن أن تنقسم إلى فئتين: الفئة الأولى، تركز على فلسطين كوطن مفقود، فتعتمد الاقتلاع الاستعماري كحدث مؤثر وكمرتكز للذاكرة الجماعية. أما الفئة الثانية، فهي تبدو متأثرة بالفكرة التي وردت لدى الفئة الثانية من منظري التهجير القسري، والتي لا تعتبر أن هوية اللاجئ تتحقق فقط في المكان الأصلي الذي اقتلع منه، وإنما تنطلق من قدرة اللاجئ على خلق وطن جديد بالخيال أو بالكلام، فتنطلق دراسات هذه الفئة من اللجوء وتتمحور حوله، لتبتعد عن تحليل الشرط الاستعماري باتجاه تحليل التحولات في روايات اللاجئين وهوياتهم؛ كما في دراسات ما بعد الاستعمار.

الفئة الأولى: الأبحاث التي تركز على البناء الاجتماعي لفلسطين كمكان–وطن مفقود

مع أن هذه الأبحاث تختلف في الإشكاليات التي تتناولها والأساليب البحثية التي تتبعها، إلا أنني لاحظت أنها تشترك في انطلاقها من الحيز الجماعي لبناء الرواية الفلسطينية عن الاقتلاع. وأقصد هنا، الأبحاث التي تهتم بروايات الذاكرة سواء كانت ذاكرة جماعية أو وطنية أو شعبية، وهي غالباً تعتمد على أسلوب التاريخ الشفوي لكتابة تاريخ الطبقات المسيطَر عليها، وذلك بالتركيز على الجانب الاجتماعي أو الإنساني "الذي اختفى خلف القضية السياسية" على حد تعبير روزماري صايغ (صايغ، 1980: 2).

تبرز ضمن هذه الفئة أبحاث (صايغ، 1980 و 1995؛ القلقيلي، 2004؛ عبد الجواد، 1994؛ يحيى، 1998؛ كناعنة وآخرون، 1985–1986 دراسات مركز الوثائق والأبحاث في جامعة بيرزيت حول القرى المهجرة). اهتم هؤلاء الباحثون بكتابة التاريخ الفلسطيني من خلال الروايات أو "الشهادات الشفوية للأحداث التي شهدها وخبرها شخص أو جماعة ما وانطبعت في ذاكرتهم" (عبد الجواد، 1 من ورقة لمؤتمر لم أجد توثيقاً لها).[40]

تظهر صورة فلسطين هنا كما تسترجعها ذاكرة الراوي، بالتركيز على تصوير الماضي الفلسطيني قبل الاقتلاع؛ كماض زاه وجميل (المصدر السابق: 7). فالتاريخ الشفوي قد يكون نوعاً من المقاومة لمشروع الاقتلاع، كما تقول روزماري صايغ: "إعادة خلق فلسطين بواسطة الذاكرة، لم تكن فقط رد فعل طبيعي للفصل القسري بين الفلسطيني ووطنه، بل كانت أيضاً وسيلة، الوسيلة الوحيدة "لتوريث" الأطفال البيوت التي كانت من ميراثهم" (صايغ، 1980: 9).

---

[39] فالجغرافيا، بتعبير ادوارد سعيد: "لا تحفز الذاكرة فقط، بل تحفز الأحلام والأخيلة، تحفز الشعر والرسم والفلسفة (كما في كتاب هايدغر Holzwege) والقصة (روايات والتر سكوت التي تدور أحداثها في الأراضي الجبلية) والموسيقى (كما في فينلاندا ..) (سعيد، 2002: 97).

[40] عنوان الورقة: "درة الغواص في أوهام الخواص: كيف نستخدم المصادر الشفوية لكتابة التاريخ الاجتماعي، حالة فلسطين".

تتميز هذه الأبحاث باستخدامها لأسلوب التاريخ الشفوي في تسجيل روايات فلسطين التي تتراوح بين تقديم وصف للماضي وقراءته تحليلياً

ترتبط صورة الوطن التي تتكرر على لسان اللاجئين في هذه الأبحاث بمشاعر الحنين والتوق والحسرة أو ما تلخصه اللغة الانجليزية في كلمة *Nostalgia*، الحنين للماضي الفلاحي الجميل. فالصورة الشائعة لدى الفلسطينيين في هذه الأبحاث عن وطنهم فلسطين هي **صورة "الفردوس المفقود"**، لتتكرر في رواياتهم التاريخية جمل مثل: "**كنا نعيش في الجنة**". والعناصر التي تتكرر في صورة الفردوس أو الجنة هي: الحياة الفلاحية برموزها الطبيعية والاجتماعية، وأهمها التضامن في الأفراح والأتراح: "كان من عادة أهل القرية أن يحتفلوا معاً بالمناسبات السعيدة، كالأعراس مثلاً، حين كان كل الناس يجتمعون ويغنون العتابا والميجانا ويرقصون الدبكة. وكانوا يعملون "السحجة"... (صايغ، 1980: 17 من ذكريات لاجيء من قرية الشعب). ويظهر تأثير نمط الحياة الفلاحي الذي كان سائداً في فلسطين في تلك الفترة واضحاً في الصور التي يذكرها الفلسطيني حين يُسأل عن بلاده، ويحاول تعزيزها وإضفاء الإحساس بالسعادة والجمال على حياته السابقة، التي لم تكن تخلو من الفقر والاضطهاد الطبقي. كما يوضح أهل قرية عين حوض تعرضهم لاستغلال وجهاء من آل الماضي لهم ولأراضيهم (كناعنة والكعبي، 1985: 17–20 مأخوذ من عبد الجواد، مصدر سابق). ولكن هؤلاء الفلاحين الذين انتُزعت منهم ممتلكاتهم وأرضهم وانتهوا إلى مخيمات اللجوء البائسة، يشددون على التغني بحياة القرية؛ بوصفها كانت حياة جميلة، ويحتفلون بالتضامن الذي كان سائداً بين أبناء القرية أو الحمولة الواحدة (صايغ، 1980: 7–9). وعلى الرغم من الانقطاع الجسدي والمادي الذي فُرض على الفلسطينيين بتأثير الاستعمار الإحلالي الإسرائيلي، إلا أن اللاجئين حاولوا قدر الإمكان الحفاظ على هذا التضامن من خلال استمرار التجمعات القروية في المخيمات، وتأسيس الدواوين التي تمثل حمولة أو قرية معينة، إضافة إلى الذاكرة الجماعية التي كانوا يتناقلونها في الأحاديث اليومية بين الجيران والأقارب حول تفاصيل الحياة القروية. ويلتقي اللاجئون في المخيمات الموجودة ضمن حدود فلسطين التاريخية/ الانتدابية مع أولئك في المخيمات الموجودة في لبنان بالنسبة إلى الصورة التي يرسمونها للوطن الضائع. يلخص الباحث عبد الفتاح القلقيلي مكونات الذاكرة الشعبية للأرض عند اللاجئين في مخيم جنين والتي صورت فلسطين قبل الهجرة في نظر اللاجئين المقتلعين منها "**بيتاً وحقلاً وذكريات طفولة**". كما أظهرت الروايات أن انتماء الفلسطيني لقريته أقوى من انتماءاته الأخرى، فالمجموعات السكنية في المخيمات تتكون حسب القرى الأصلية، وتظهر القرية كمحدد لأصل الشخص وقت المشاحنات والزواج. واعتمد القلقيلي على الروايات الشفوية التي سجلها في مقابلاته مع 47 راوٍ من الجيل الأول من مخيم جنين إثر اجتياح الإسرائيليين له في العام 2002، مما تسبب في تدميره ولجوء سكانه إلى تجمعات جديدة، وذلك للتوصل إلى مفهوم الأرض أو الوطن في ذاكرة اللاجئين المبحوثين. وفي الجزء الذي خصصه الباحث لتحليل مدى رضى الفلسطينيين عن حيلتهم فوق أرضهم في ذلك الوقت، أجمعت الأغلبية أنهم كانوا "مبسوطين" ويتحسرون على أراضيهم التي خسروها، وعلى العادات والتقاليد الأصيلة التي كانت

سائدة وقتها. وكون الباحث أجرى هذا البحث بعد الاجتياح الهائل الذي تعرض له مخيم جنين، فقد استغل الحدث ليقارن بين ما حصل في العام 1948 و هذا الاجتياح. وجاءت أغلب الروايات تُثني على مقاومة المخيم وصموده مقابل اندثار قراهم في العام 1948، ليشعر القارئ بأن الرواة يلومون أنفسهم وجيلهم على تركهم لقراهم في العام 1948، "فاليوم هناك أحسن من ميت يوم هون، هناك الميه بين ايدينا، والشغل بين ايدينا، والقمح بين ايدينا، والخير عام وطام" (القلقيلي، 2004: 113). ويؤكد آخرون بأنهم رفضوا الخروج من المخيم وقت الاجتياح حتى لا يتكرر ما حدث في العام 1948، فتقول إحدى الراويات: "قعدنا والطيارات من فوق والدبابات من تحت، وخبط من كل جهة". وتعتقد أن "جيش الإنقاذ كله ما قاوم قد مخيم جنين، واللي صار في المخيم لا صار في إجزم ولا صار في حيفا"، وهي في المخيم صمدت، ولم تغادر كما فعلت في العام 1948، وقالت لأولادها وبناتها: "خليهم يطخوني بقلب الدار في المخيم" (المصدر نفسه: 114).

بالمجمل، وبما أن الأبحاث التي تعتمد التاريخ الشفوي تهدف إلى توثيق التاريخ الاجتماعي والثقافي للفلسطينيين منذ النكبة إلى يومنا هذا، فإن الصورة التي أوردها اللاجئون عن الوطن، كما استعرضت سابقاً، تركز على التغني بأمجاد القرية والحياة الفلاحية وقيمها. **ونلاحظ أن صورة فلسطين الجنة تظهر عند جميع الأجيال**، لكن بينما تشكل الصورة المحورية لدى الجيل الأول، الذي تبدو رواياته وكأنها نُسجَت خارج المكان والزمان، نلاحظ أن روايات الأجيال الأصغر هي أكثر ارتباطاً بالواقع السياسي وظروف الحياة اليومية في المخيم، فتسجل لتجربتهم في الضياع والاضطهاد والصمود والمقاومة لتجسد تاريخاً جماعياً يصف لحظات الاضطهاد والمقاومة، كما قالت روزماري صايغ: "في غياب أي تقدم نحو تحقيق العدالة، سوف تحافظ هذه الغالبية على إمكانية للمعارضة في المستقبل القريب، وما زالت أسلحتهم كما كانت دائما؛ رفض النسيان، والغضب، وقدرة غير عادية للحفاظ على بقاء الجماعة." (صايغ، 1998: 33).

لكن الحفاظ على الجماعة لا يعني التركيز على إبراز الوجه الحسن للفلسطينيين كجماعة فقط، "واستبعاد الجوانب الأخرى كالحمائلية والصراعات الطبقية والمعاملة القاسية والتهميشية للمرأة، فهذا لا يصب في معرفة تاريخنا ومعرفة الأسباب التي قادت وتقود المجتمع الفلسطيني إلى مواجهات خاسرة، مع أنه توجد أعمال قليلة أبرزت الدور الوطني والاجتماعي والاقتصادي للمرأة الفلسطينية الريفية"[41] (عبد الجواد، مصدر سابق). ومع أن الأبحاث السابقة تقدم نماذجاً للصور التي يشكلها الفلسطيني عن وطنه الضائع، إلا أنها لا تقوم غالباً بقراءة تحليلية لهذه الصور بما يساعد على فهم الأساليب التي يلجأ إليها الفلسطينيون لإعادة خلق الوطن في المنفى والمحددات والآليات التي تؤثر في بناء الصور المختلفة التي يخلقها الفلسطينيون في تجمعاتهم المختلفة.

الفئة الثانية: الأبحاث التي تركز على البناء الهوياتي للفلسطينيين بتأثير المكان–الجغرافيا Territory

[41] الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة لروزماري صايغ (1980)، الدور الذي لعبته المرأة الفلسطينية الريفية في الحفاظ على العائلة بعد النكبة لربيحة علان (2007)، أدوار النساء الفلسطينيات الريفيات ببعديها الاقتصادي والثقافي بين 1930-1960: قرية البروة نموذجاً للينا ميعاري (2005).

تنطلق هذه الدراسات من حالة اللجوء، فهي بعكس الأبحاث التي استعرضتها ضمن الفئة الأولى، لا تركز على التاريخ الاجتماعي بهدف توثيق تجربة الاقتلاع وبناء الذاكرة الجماعية، وإنما تستخدم المنهج الإثنوغرافي للتعرف على آليات تشكل الهوية الوطنية الفلسطينية في المنفى وفي المخيم بشكل خاص. من بين الأبحاث التي اطلعت عليها (Helena Schulz, 2003; Juliane Hammer, 2005; Julie Peteet, 2005; Gillian Hundt and Dawn Chatty, 2005).

تركز الباحثات بشكل رئيسي، على هوية الفاعلين الاجتماعيين _اللاجئون هنا_ وليس على الروايات الشفوية كمصادر تاريخية، باستثناء صايغ التي تهتم بالجانبين. فصورة فلسطين هنا ترتبط بالهوية التي يطورها اللاجئ، والتي تتغير بتغير الظروف من حوله، فهي قد تكون هوية وطنية نضالية تستذكر فلسطين في فترات المقاومة، أو هوية قلقة تبحث عن الأمن والاستقرار في فترات الحرب. إن العامل الرئيسي في تكوين الهوية هو تجربة اللاجئين الحياتية في المخيم، فنقطة الانطلاق هنا ليست تجربة الاقتلاع والحياة في شرط استعماري، وإنما هي المكان الجديد وتجربة اللجوء.

ترى الباحثة Peteet Julie أن اللاجئين الفلسطينيين في المخيمات اللبنانية يعرفون أنفسهم كأقلية *minority* في فترات الحروب والنزاعات المسلحة. فلحظة الانطلاق هنا هي المكان الجديد والكيفية التي يؤثر بها على هوية اللاجئ، والجو السياسي المشحون بالقلق والخوف وانعدام الاستقرار في المخيمات في لبنان، والأثر الذي يتركه على هوية اللاجئين؛ فتستنتج الباحثة أنهم ينزعون في توجهاتهم نحو المستقبل أكثر من ميلهم لاستعادة الماضي الغائب (Peteet, 2005: 99). لكن الهوية القلقة تتقلب في فترات المقاومة: ولادة المقاومة في المخيمات في الفترة 1968–1982، وفترة حرب المخيمات 1985–1987، واحدى مظاهرها، كما وصفتها الباحثة، هي التحول في مشهد المكان الجديد (المخيم): "بدأت كتل الزينكو تُستبدل بمكعبات إسمنتية، وتمكن اللاجئون من توسيع منازلهم طولياً ببناء طابق ثان وثالث، بالإضافة إلى بناء دورات مياه في المنازل بدلاً من الدورات العامة". هذا التحول في المشهد المكاني، كما تقول الباحثة، رافقه تحول في الهوية الوطنية للاجئين، لتبرز العديد من الشخصيات النضالية التي ما زال سكان المخيم يذكرونها ويذكرون تضحيات أصحابها حتى اليوم" (المصدر نفسه: 131–134). لكن تلك الحال والصور انعكست إثر حرب المخيمات التي كثفت معاناة اللاجئين وحرمانهم، لينظر اللاجئون مجدداً إلى أنفسهم كموضوع إنساني بحاجة إلى رعاية دولية. ويُعلّق أحد المبحوثين على تلك الفترة بقوله: "بدون النضال وبدون حركة مقاومة، لا نعرف من نكون، فنحن شكلنا هويتنا من خلال النضال". (المصدر نفسه، 211). من الواضح هنا، أن الباحثة لا تركز كثيراً على الشرط الاستعماري[42] الذي أدى إلى اللجوء كإطار عام للدراسة، إنما تنطلق في قراءتها اليوم من حياة اللاجئين في المكان الجديد، وانعكاسها على حاضر اللاجئين ومستقبلهم (Peteet, 2005: 27). وتستنتج بيتيت أن اللاجئين الذين يعيشون في مخيمات الخارج، يميلون إلى التركيز، في حديثهم عن الوطن، على الإحساس بالأمان والارتياح أكثر من تركيزهم على

[42] إلا حين تستعرض رد فعل اللاجئ على التاريخ الكولونيالي للحركة الصهيونية وسعيها لخلق مشهد للأرض الفلسطينية يُظهرها وكأنها خالية من سكانها الأصليين. مما يدفع اللاجئين الفلسطينيين الذين هُجروا من تلك الأرض إلى الدخول في عملية مستمرة لبناء هوية ومشهد لوجودهم الحاضر والمستقبلي رغم محاولات اللاعبين الدوليين والدول المضيفة في تحديد هذه العملية كل حسب مصلحته.

مشاعر الشوق والحنين، لكن هذا لا ينفي برأيها كون علاقة الهوية بالمكان إشكالية. فالباحثة ترى أن استعادة الماضي ليست هي الرغبة الأساسية للاجئين، ولكن الماضي الذي يذكره اللاجئون يمثل برأيها ما حُرِمَ منه هؤلاء اللاجئون: مكان آمن، والاعتراف بالحقوق، وإحساس اللاجئ بالانتماء لوطنه وبالعدالة.[43] وتخلص Peteet إلى أن **صورة فلسطين لم تعد تتشكل لدى هؤلاء اللاجئين بالحنين والتوق إلى نمط الحياة ما قبل النكبة، وإنما بالتوق إلى الإحساس بالأمان في المكان الذي يعيشون فيه والحصول على حقوق المواطنة** (المصدر نفسه، 215).

وتتوصل الباحثتان Dawn Chatty and Gillian Hundt إلى نتيجة مشابهة للنتيجة التي توصلت إليها Peteet في بحثها، وإن اختلف التفسير الذي قدمتاه، وهذا طبيعي بسبب اختلاف مجال البحث وأهدافه وغايته. فمحور هذا البحث هم الأطفال والشباب الفلسطينيون، الذين يعيشون في مخيمات اللجوء في لبنان وسورية والأردن وغزة والضفة الغربية. وتبحث الدراسة فيما يحدث للأطفال والفتية عندما يتم اقتلاعهم وعائلاتهم وإجبارهم على مغادرة وطنهم. ويشرف على كل موقع مجموعة بحث متخصصة من نفس الموقع، تختار الأدوات والمنهجية التي تلائم السياق الذي تعمل فيه. ركزت الدراسة بشكل رئيسي على الأثر النفسي الذي يتركه التهجير القسري على أطفال اللاجئين الفلسطينيين. وتطرق الباحثون أيضاً إلى موضوع الهوية، فأظهرت الدراسة اختلافاً في هوية اللاجئين حسب مكان اللجوء وظروفه. فعلى سبيل المثال، يشعر أطفال المخيمات اللبنانية، بشكل عام، بافتخار بهويتهم، ويُظهر أكثريتهم رغبة قوية في العودة إلى فلسطين مع إدراكهم التام لانعدام إمكانية تحقق هذا في المستقبل القريب. كما يعرب بعضهم عن الرغبة في الهجرة إلى أوروبا كخيار أكثر واقعية، مع تأكيدهم على أن الهجرة لن تفقدهم هويتهم: "أنا بحاجة إلى أن أكون مواطناً في دولة ما. يوجد فلسطينيون أميركيون لم يفقدوا هويتهم الوطنية، وما زالوا فخورين بكونهم فلسطينيين". (شطي وهونت، 2007: 65). وهما تتفقان هنا مع نتائج دراسة Peteet التي استعرضتها سابقاً. أما بالنسبة للهوية التي يحملها اللاجئون الفلسطينيون في سوريا، فعلى الرغم من أن ظروف اللجوء أقل قهراً من تلك التي يعاني منها اللاجئون في لبنان، إلا أن هوية كثير من اللاجئين الفلسطينيين تختلف عن هوية السوريين، فالكثير منهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم بلا وطن، وأن هويتهم تهان وتحتقر من قبل أعدائهم ومن جانب بعض المجتمعات العربية. وكوّس تنامي المقاومة بين اللاجئين، والخطاب السوري –الذي ما زال يعتبر إسرائيل عدواً– هوية وطنية مختلفة؛ **فالوطن بالنسبة لهم يعني استعادة مقومات الهوية التي فقدوها، والخلاص من وصمة "لاجئ"**.

بمقارنة سريعة ما بين الفئتين الأولى والثانية من الأبحاث في سرديات اللاجئين، نلاحظ أن الفئة الأولى بانطلاقها من لحظة النكبة والاقتلاع، تبدو سردياتها عن الوطن أقرب إلى محاولة لتوثيق التاريخ الاجتماعي لفلسطين من قبل الأشخاص الذين عايشوه. لذا صُنِّفَت في الغالب ضمن مشروع

[43] تركز هذه الدراسة على الجيل الثالث من اللاجئين في المنفى والذين لم يروا فلسطين التاريخية أبداً ولم يعبروا عن الحنين الرومانسي للماضي، إلا أنهم تمكنوا من تقديم وصف دقيق لقراهم الأصلية التي خلقوا مشهدها، بما يتضمنه من تفاصيل الرائحة وتاريخ القرية كما سمعوها من آبائهم، وهذا يُظهر، برأي الباحثة، أن ارتباطهم بقراهم الأصلية سببه أنهم عاشوا إعادة بنائها الاجتماعي والمكاني في المخيم، ولكنهم كانوا مدركين للتحولات التي طرأت على قراهم بمرور الزمن.

بناء الذاكرة الجماعية للفلسطينيين، والتي كانت أساساً للرواية الوطنية الرسمية لمنظمة التحرير في فترة الثورة، وبخاصة تلك التي تركز على جمع الروايات الشفوية من الجيل الأول عن الحياة في فلسطين قبل النكبة، وعن التهجير واللجوء. بينما تتخذ صورة فلسطين "الوطن" لدى الفئة الثانية معان جديدة متغيرة، ترتبط بهوية اللاجئين المتغيرة بتغير ظروفهم الحياتية المادية، فتقترب أو تبتعد عن الرواية الوطنية الرسمية حسب ظروف اللجوء، لتتعزز الهوية الوطنية في فترات النضال والمقاومة، وتضعف في حالات الحرمان وانعدام الأمن السياسي في المخيم، ولتُستَبدل بهوية قلقة تبحث عن المواطنة والانتماء والاستقرار في أي مكان.

يمكن تلخيص المعاني التي يعطيها اللاجئون الفلسطينيون لفلسطين في سردياتهم من خلال **تجربَتَي الاقتلاع من فلسطين والبحث عن الهوية في مخيمات اللجوء.** فالعنصر الرئيس هنا هو تجريد الإنسان الفلسطيني من كل شيء: الملكية والانتماء والماضي؛ أي تجريده من وسائل إعادة إنتاج وجوده الطبيعي، بتحويله إلى لاجئ يعيش حالة من الضياع،anomie أو اللامعيارية[44]، نتيجة الاغتراب عن شروط وجوده. ولكنه يحاول خلق شروط وجوده خارج الحاضر البائس، فيلجأ أحياناً إلى النضال مدفوعاً باستعادة حقه في الوطن المسلوب، أو ينطلق للبحث عن مستقبل يحقق له ما يفتقده في الحاضر من حقوق المواطنة والأمن.

محددات صورة فلسطين في الدراسة الحالية

تنطلق هذه الدراسة من الشرط الاستعماري الذي يعيشه الفلسطينيون بشكل عام، والذي كانت إحدى نتائجه اقتلاع الشعب الفلسطيني (أفراداً وجماعات) من مكانه السوسيولوجي،[45] ورميه في مخيمات اللجوء. وبالنتيجة، تتحدد صورة فلسطين التي ستبحث عنها الروايات في هذه الدراسة بالأبعاد الخمسة التالية:

1. الموقع الجغرافي: فكما بينت مراجعة الأدبيات السابقة، تنطوي عملية الاقتلاع على الحرمان من الأرض بمعناها الفيزيائي المادي، وهذا ما يظهر في إصرار اللاجئين على مقارنة الهنا بالهناك؛ بؤس المخيم بجمال البلاد. وقد يفسر هذا إصرار اللاجئين على أن الماضي كان أجمل. ستحاول الدراسة الحالية التعرف على تأثير الموقع الجغرافي في روايات المخيمين. هل يلعب البعد الجغرافي المكاني، أي مكان وجود اللاجئ، سواء كان خارج حدود أرض فلسطين الانتدابية أو داخلها، دوراً في تحديد صورة فلسطين؟ أم أن وجود اللاجئين في الحالتين في مخيم اللجوء يشكل نفس الصورة لفلسطين في خيالهم؟
2. الشكل المادي: ويرتبط في الحالة المدروسة بالمخيم. كيف تظهر صورة فلسطين في فضاء المخيم؟ وما الأثر الذي تتركه حياة اللجوء والعلاقة مع المجتمع المضيف على صورة فلسطين في ذهن اللاجئ؟

---

[44] بحد تعبير إميل دركهايم، سأوضح لاحقاً في الفصل الثاني ومن خلال استعراضي لروايات اللاجئين هذه المقاربة بين مفهوم دركهايم للأنومي وحالة الضياع التي يشعر بها الفلسطينيون اليوم في أماكن تواجدهم المختلفة بما يرتبط بالتخبط وانقلاب المعايير في المسيرة الوطنية الفلسطينية.

[45] بالتأسيس على تعريف Thomas Gieryn للمكان سوسيولوجياً بأبعاده الثلاثة.

3. الاستثمار في المعنى والقيمة: في الحالة الطبيعية، يتم إضفاء القيمة والمعنى للوطن من قبل هيئة رسمية (في الغالب مؤسسات الدولة)، التي تتبنى تشكيل الذاكرة الجماعية بما يتناسب مع الحفاظ على مصالح الفئة المسيطرة في الدولة. ولكن في حالة اللاجئين في المخيمات الذين تعرضوا لاستعمار اقتلاعي، لم يحرمهم من المكان كموقع جغرافي فقط، وإنما حرمهم من الشروط الطبيعية لإعادة إنتاج أنفسهم كجماعة، كان على الفلسطينيين أن يبدأوا في خلق وجودهم كجماعة في مكان لجوئهم. وهنا لجأوا، كما تبين من الدراسات السابقة، إلى إعادة خلق الوطن المسلوب بواسطة الذاكرة ونقله للأجيال الجديدة. ففي حالة تغييب الوطن كمكان يتشارك فيه الفلسطينيون تجارب الحياة بما يضفي قيم ومعان مشتركة على هويتهم الجماعية، شكلت التجربة المشتركة للاقتلاع والتشريد والمعاناة والنضال في المخيم مرتكزاً لهوية جماعية شعبية، تبلورت وتطورت إلى هوية وطنية غذتها مؤسسات عديدة كمنظمة التحرير الفلسطينية والفصائل المختلفة، والتي كانت مؤسساتها في السابق تنشط في المخيمات سراً أو علناً، وفقاً لما تسمح به السلطات المسيطرة لتعزيز الهوية الوطنية الفلسطينية المبنية على مشروع التحرير والعودة. لكن شهد هذا المشروع انقلاباً مع دخول الجانب الرسمي في مشروع التسوية، ليتبنى الخطاب الرسمي مشروع دولة فلسطينية على جزء من فلسطين، ويتحول اللاجئون إلى موضوع مؤجل. فكيف يؤثر هذا التحول على المعاني التي يعطيها اللاجئون لفلسطين في رواياتهم؟ وما هو الموقع الذي يحتله الفرد في الرواية؟ هل يختار دور الفاعل الذي يساهم في صنع سرديته للوطن؟ أم يقتصر دوره على أخذ موقف من السردية الجماعية بالرفض أو القبول؟

4. البعد الآخر الذي ستهتم به هذه الدراسة، والذي يغيب في تعريف Gieryn للمكان السوسيولوجي، هو البعد الزماني التاريخي. يكتسب الزمن أهمية خاصة في تحديد المكان السوسيولوجي في حالة الاقتلاع، ومن بين الطروحات السائدة في الدراسات السوسيولوجية التي تعنى بدراسة المكان: "أن البشر لا يعرفون من هم حقاً إلا إذا كان بإمكانهم تقصي جذورهم لتحديد المكان الذي ينتمون إليه، كما أن أي مكان لا تظهر في صروحه آثار الأزمنة التي تعاقبت عليه، يُعتبر مكاناً فاقداً لأية شخصية" (Tuan, 1980: 6). ويظهر هذا بوضوح في روايات اللاجئين في دراسات التاريخ الشفوي، وتلك المتعلقة بالتحولات في الهوية في مخيمات اللجوء؛ فالروايات التي يسردها لاجئون من أجيال مختلفة عن فترة الحياة في المخيمات ما بعد النكبة هي روايات عميقة الجذور في التاريخ، وتحتل الأحداث التاريخية والسياسية التي عاصرها اللاجئون حيزاً كبيراً من رواياتهم كما يظهر في دراسات روز ماري صايغ (1980، 1998) وبيتيت (2005) ويحيى (2006، 2008).

5. والبعد الأهم هنا هو دور الفلسطيني بشكل عام، واللاجئ في هذه الدراسة بالتحديد، كفاعل في صناعة التاريخ من خلال سرده لروايته لفلسطين والمسيرة الوطنية الفلسطينية: إن حدث الاقتلاع موجه بشكل رئيسي إلى الإنسان كنفي لوجوده على أرضه، بما يحمله هذا الوجود

من معان مادية ورمزية وتهديد لانتمائه لمجتمعه. وهنا يبرز دور الفعالية وقوة الفاعل الاجتماعي agency، من خلال رفض اللاجئ ومقاومته للتغييب المفروض عليه من قبل القوى المسيطرة، وذلك بالإصرار على إعادة إنتاج نفسه/ا فلسطينياً من خلال بناء الذاكرة والرواية، التي كما تقول لينا جيوسي: "توثق لتعاقب الزمن على القضية، وتقدم أكثر من مجرد رؤية للمستقبل، فهي تقدم مشروعاً للمستقبل" (Jayyusi, 2007: 130).

حرصت الدراسة على جمع روايات معمقة تغطي المحاور أعلاه، والهدف الأساسي هنا ليس التوثيق أو القيام بكتابة تسجيلية للتاريخ الاجتماعي والسياسي الفلسطيني من منظور ورؤية مجموعة من اللاجئين في مخيمي اليرموك وقلنديا، مع أن هذا جزء من البحث، إنما تهتم الدراسة أيضاً بالاقتراب من المضامين التي يضفيها الرواة على فهمهم للتاريخ كما تنعكس في رواياتهم، ومحاولة فهم آليات تشكل هذه الروايات، من خلال التحليل المقارن لمضامينها وأشكالها، بما قد يساعد على فهم الأثر الذي تتركه ظروف الحياة في حالة استعمار واستلاب، وكيف يتفاعل الفاعلون الاجتماعيون – أفراداً وجماعات – مع هذه الظروف. وسأحاول في الفصل الثاني استعراض بعض الجوانب النظرية التي تساعد في قراءة روايات المبحوثين.

الفصل الثاني

"مهما تحدثت عن الوضع ومهما كتبنا، مش زي ما تقعدي مع انسان عاشه، ولكل انسان قصة، ما تفكري أنه 1000 واحد هاجروا إلهم نفس القصة، كل انسان إله قصة والمعاناة بتبرز عند كل انسان من جانب مختلف"[46]

مقاربات مفاهيمية ونظرية تفيد القراءة التحليلية للروايات

بدايةً، كما ورد في منهجية الدراسة، وبما أن البحث ينطلق بالأساس لاستقراء صورة فلسطين من الواقع المُعاش في مخيمي اليرموك وقلنديا، فإن هذا العرض للمداخلات النظرية التي استعنت بها لتحليل روايات المبحوثين لا ينفصل عن مبنى البحث ككل ومضمون الروايات وظروف انتاجها بشكل خاص. فقد تطورت هذه المراجعة النظرية بالتزامن مع عملية التحليل التدريجي للمقابلات.[47] وأكدت لي قراءة روايات المبحوثين وجوب اعتماد عدة مداخل نظرية ومفاهيمية في قراءة تجربة اللجوء الفلسطيني المركبة من تداخل عوامل خارجية وداخلية: أولاً، الشرط الخارجي الاستعماري الذي ما زالت آثاره مستمرة في المكانين بدرجات متفاوتة كما يظهر في روايات اللاجئين،[48] وثانياً، حالة اللجوء القسري والعيش في مخيمات مبعثرة داخل فلسطين وخارجها- لأكثر من 61 عاماً – وإن تغيرت بنية المخيمين المادية والديمغرافية،[49] وثالثاً، الشرط الداخلي الفلسطيني ببعديه السياسي الرسمي والشعبي.

تعتمد هذه الدراسة على روايات/ سرديات المبحوثين، أو ما أسميته روايات اللاجئين مقابل السردية الوطنية الكبرى *grand nationalist narrative* التي تركز على سير النخبة والقيادات السياسية والأحداث السياسية التي ترتأي هذه النخبة تضمينها بما يخدم أغراضها السياسية والاقتصادية. ولذلك يطلق عليها الباحثون أحياناً تسمية (*hegemonic Grand Narrative*)، كما تقول ليزا تراكي، في اشارتها إلى الطريقة المتبعة غالباً في انتاج السودية الفلسطينية بالتركيز على نمط "المراحل التاريخية/السياسية" *periodization*، إضافة إلى أن السردية الفلسطينية الكبرى المهيمنة، تتعامل مع الفلسطينيين كطبقة أو كتلة وطنية متجانسة *"nation-class homogenous"*، وباعتقادها أن التركيز أساساً على النمط المرحلي للتأريخ، ليشمل الحروب، ولحظات المقاومة التي تبعتها يحجب لحظات أخرى. وهذا بالنتيجة يرفع سداً أمام أية تدفقات تاريخية نقدية للعقود الماضية والتي تركت آثاراً عميقة على الحاضر (Taraki, 2004: 89).

---

[46] اقتباس من مقتطف من رواية محمد العطابي، 44 سنة، مخيم قلنديا.

[47] بالاستعانة بتقنيات الـ grounded theory.

[48] الصورة التي تبدو عليها فلسطين حالياً مؤطرة باطار استعماري بكل ما في كلمة استعماري من معاني: الاقتلاع، الاغتصاب، السيطرة، الضياع، الهيمنة، الاستغلال الاقتصادي لموجودات الأرض والسكان،... هذا الاحتلال امتداد زمكاني للاستعمارات المتلاحقة، يتعدى فلسطين جغرافياً، ويسبق 1948 تاريخياً بقرن، منذ نشأة الاستعمار الغربي الحديث.

[49] كما شرحت في الملخص الذي قدمته عن المخيمين في الفصل الأول.

لكن هل يمكن للتأريخ الاجتماعي واستخدام الروايات الشفوية أو الشعبية، أن تقوم بدور في ازالة هذا السد؟ أم أن هيمنة الرواية الرسمية الكبرى والخطاب الرسمي السائد ضمن الشروط الداخلية والخارجية التي ذكرتها أعلاه تمنع ظهور محاولات تأريخية نقدية على المستوى الشعبي؟

من خلال مراجعة عدد من الدراسات الامبريقية والنظرية التي تتعلق بالتهجير القسري وتشكل الذاكرة الجماعية والسرديات الوطنية لدى الأقليات، والتي ضمّنتُ جزءاً منها في الفصل الأول، يُلاحظ أن هناك تداخلاً في عدد من المفاهيم التي ترد في هذه الدراسات: مثل الهوية–ات (الوطنية أو الجماعية)، والتاريخ الشفوي والاجتماعي مقابل التاريخ الرسمي، والمخيال الجمعي، والسردية–ات *narratives* (والتي يُشار إليها، في هذا البحث غالباً، بمصطلح الرواية–ات)، والذاكرة (الجماعية أو الوطنية). ومع أن الكتب والمراجع النظرية تقدم تعريفات موسعة لكل مفهوم، إلا أنني لاحظت أنها كثيراً ما تحمل دلالات متشابهة في سياق تجربة اللجوء والتهجير القسريين. فبشكل عام، كلها تُستخدم في سياق الاشارة إلى المضامين (روايات، تعبيرات مجازية، رموز) التي يستعملها الأفراد الفاعلون الذين تعرضوا لتجربة التهجير للتعبير عن هذه التجربة التي تميزهم كأفراد و/أو جماعات عمن حولهم. سأركز هنا على مفاهيم السرديات والذاكرة[50] ودورها في التأريخ. وأعرج باختصار على الدور الذي يلعبه المخيال الاجتماعي في اعادة الانتاج الاجتماعي، وكنت قد مررت سابقاً على مفاهيم الهوية الوطنية والتاريخ الاجتماعي في تقديمي للبحث وللفصل الأول.

السرديات/ الروايات وآليات بناء الذاكرة والمخيال الاجتماعي

تأخذ رواية القصة مسميات مختلفة بحسب الحقل الذي يتم دراسة الروايات من خلاله، فهناك: السير، والسير الذاتية، وتاريخ الأقليات، والتاريخ الشفوي، وتاريخ الحياة، والسرديات/ الروايات. وتندرج الروايات المتعلقة بالسرد والذاكرة في الأدبيات المعاصرة لعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا ضمن حقل دراسات الذاكرة الاجتماعية social memory studies[51](Olick and Robbins, 1998: 105). وفي مجال التاريخ الاجتماعي، لا تقف الرواية كجسم منفصل، وإنما تتشكل الرواية أو القصة أو السردية كما يختار الناس أن يخبروها، فهذه الروايات تكشف، بمعنى ما، اشتباكات البشر في حياتهم ضمن الحيز العام والخاص على السواء. وقد يطرح البعض مشكلة صعوبة تحديد ما يشكل "التاريخ" وما يشكل "رؤية أو منظور الشخص الراوي للتاريخ" في الروايات المجموعة بأسلوب التاريخ الشفوي. وقد يكون أحد المخارج من هذه الاشكالية هو الدمج بين روايات اللاجئين والمعلومات المتوفرة من الأرشيفات التاريخية أو غيرها من المصادر الثانوية[52] ولا يجب أن ننسى، في هذه الحالة أيضاً، أن مضمون الروايات التي نقوم بجمعها من الأشخاص الذين نقابلهم أثناء الدراسة يعتمد كذلك على نوعية ذاكرة الشخص نفسه وشعوره وقت المقابلة.[53] لذا يمكن أن نقول أن الروايات

---

[50] كونهما مرتبطان بشكل مباشر بهدف البحث: جمع روايات اللاجئين وقراءة مضامينها تحليلياً.

[51] جميع الاقتباسات التي يشار لكاتبها باللغة الانجليزية مأخوذة عن المصدر الأصلي بلغته، وترجمة الباحثة.

[52] كما فعلت روزماري صايغ في كتابها: "الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة".

[53] هناك أجزاء من الرواية تضيع إذا اكتفى الباحث بالتركيز على مضمون المقابلة المفرغة transcript فقط، فشعور الراوي واحساسه اللذان يظهران من خلال نغمة صوته وتعابير وجهه، يعكسان جزء من الرواية، كما شرحت في الفصل الأول حول تجربتي في اجراء مقابلات هذا البحث. وقدمت توضيح أكثر في نهاية الفصل الحالي.

الشعبية، بما هي كذلك،[54] تقدم صورة/صور لحياة الناس والأحداث التاريخية التي عاشوها في سياق أكثر ديناميكية. لكن هذا لا يعني أن الروايات الشعبية تقدم صورة كاملة للأحداث، فهي تعتمد أسلوب السيرة، التي يروي خلالها الانسان ما يتذكره، أو/و ما يحب أن يتذكره، أو/و ما لا يقدر أن ينساه. كما أننا كباحثين، حين نُقَدِم هذه الروايات ضمن دراساتنا نضطر إلى اختيار مقتطفات منها وترك أجزاء أخرى بما يتناسب وهدف البحث ويجيب على اشكاليته، فمن الواضح أن عملية اعادة السرد تتجاذبها تأثيرات من الطرفين: الراوي/ة والباحث/ة [55] (Naguib, 2009).

وإذا اتفقنا هنا مع جوتشاك Gottschalk الذي يعتبر أن أهم ما يميز السرديات هو "أن الأشخاص الذين يقومون بسردها يؤمنون بأنهم ينقلون تفاصيل الأحداث الماضية التي عاشوها فعلاً" (Gottschalk, 2000: 71). فإننا نميز أيضاً بين التاريخ كسجل رسمي للأحداث والروايات كسجل للأحداث من ذاكرة الأشخاص الذين عاشوها فعلاً. فبينما يُنظر إلى التاريخ الرسمي كتسجيل عقلاني وعلمي للماضي بما يخدم غايات الحاضر والمستقبل، تُعتبَر الذاكرة الشفوية، بالمقابل، تسجيلاً أكثر واقعية للتجارب الشخصية للناس "العاديين" الذين عاشوا هذه الأحداث التاريخية، فهي بمثابة نسخة شعبية للماضي تجادل وتضيف وتنتقد وقد تهدم النسخة الرسمية المسيطرة، وبالنتيجة "ستبقى الكثير من أسئلة مؤرخي المستقبل بلا اجابات إذا أهملنا تسجيل روايات الأشخاص الذين عاشوها" على حد تعبير روزماري صايغ (Sayigh, 2004: 39).

تشرح سوزان سليموفتش في كتابها The Object of Memory كيف يمكن إعادة بناء مكان تم هدمه والاستيلاء عليه من قبل آخرين بالكلمات (Slymovics, 1998: 3). فهي تهتم بالأماكن الخاصة والرمزية التي تستقر فيها الذاكرة "the specific and symbolic sites where memory resides" (Ibid: p.4). فتمزج في نصوص الكتاب التجارب المعمارية للبيوت الحجرية الفلسطينية مع الروايات الشفوية التي تروي ذكريات الأشخاص الذين عاشوا في هذه البيوت، والتي تشكل جزءاً من الذاكرة الجماعية الفلسطينية لتجربة الاقتلاع والتهجير.

بالعودة إلى المنظرين السوسيولوجين، تظهر فكرة دوركهايم بأن كل مجتمع يحتاج إلى أن يشعر باستمرارية الماضي وبأن هذا الماضي هو الذي يمنح الأفراد والجماعات هويتهم، هذه الفكرة تسمح لنا برؤية الذاكرة الجماعية كأحدى الأشكال المهمة للحياة الاجتماعية (Misztal, 2003). وقد تبلورت، الفكرة، من اهتمام دوركهايم بالماضي كحقيقة اجتماعية. "فحين نتذكر، لا نتذكر كأفراد بل كأعضاء في مجموعات محلية أو قومية. يتحدد ما نتذكره من ماضينا بما يخبرنا به آباؤنا وأجدادنا، بمعنى آخر أكثر عمقاً، فإننا نعرف أنفسنا من خلال الذكريات الباقية من المجموعات التي ننتمي إليها. وعندما تتزامن الحدود الجماعية مع الذكريات المشتركة، فإننا نشعر بالفخر أو بالخجل من الأحداث الماضية التي قد تكون وقعت قبل أن نولد (Schwartz, 1996: 278). ويضيف

---

[54] أي شعبية تروي الأحداث من وجهة نظر الناس كما عاشوها أو حفظوها في الذاكرة من مصادر أخرى.

[55] التقيت نفيسة نجيب من جامعة بيرغين، وهي باحثة تهتم بالسرديات والتاريخ الاجتماعي عند زيارتها، لجامعة بيرزيت خلال شهر كانون الثاني 2009 وتحدثت معها حول استخدام الروايات في التاريخ الاجتماعي، وجزء مما كتبته هنا مبني على الملاحظات التي أخذتها أثناء اللقاء.

Halbwachs، تلميذ دركهايم، في السياق نفسه: "قد يقول أحدهم بأن الفرد يتذكر من خلال موضعة ذاته ضمن منظور الجماعة التي ينتمي إليها، ولكن في نفس الوقت، يمكن أن يُقال بأن ذاكرة الجماعة تتحقق وتبرز أيضاً من خلال ذاكرة الفرد" (Halbwachs, 1992: 40). فعلى عكس التصورات العلمية السائدة في عصره، والتي كانت تنظر إلى الذاكرة وعملية التذكر الفردية كوظيفة بيولوجية محضة، ربط هالبواتش في دراساته حول الذاكرة، الذكريات الشخصية للفرد بالمجتمع الذي ينتمي إليه، واعتبر أن الإطار الاجتماعي ــ والذي تُنشئه ثقافة مجتمع ما ــ يسهر على وضع نسق جمعي يجعل الخبرات الفردية قابلة للتذكر وللتأويل. وهنا أيضا تتجلى بوضوح وظيفة الذاكرة الجماعية في علاقتها مع المجتمع، برأيه، وهي تأسيس هوية المجتمع وضمان سيرورتها.[56] وبهذا يُحَمّل هالبواتش الذاكرة وظيفة اجتماعية فيقول: "إذا كنا نقوم مراراً باستحضار صور أحداث معينة في الذاكرة، فهذا يعود إلى أن المجتمع يمتلك في كل لحظة الوسائل اللازمة لاستحضار هذه الصور" (Halbwachs 1992, 183). ففي كتابه "الذاكرة الجماعية" On Collective Memory، قدم هالبواتش تصوراً جديداً للكيفية التي يبني عبرها الأفراد رواياتهم للماضي، منطلقاً من أن الأفكار والاهتمامات والطموحات التي يحملها الأفراد في الحاضر تؤثر في تشكيلهم لرؤى مختلفة للماضي. فالذاكرة الجماعية بالنسبة لهالبواتش هي بالأساس إعادة بناء للماضي في ضوء الحاضر، ومداخلته التي استند عليها الباحثون هي وجود إطار اجتماعي للذاكرة: "المجتمع هو في العادة المحيط الذي يكتسب الأفراد ذكرياتهم عبره، كما أن عمليات استعادة الذكريات وإعادة ترتيبها وتأويلها تتم في المجتمع أيضاً". في مقارنته الذاكرة بالتاريخ، يجادل هالبواتش أنه بينما توجد طبعة واحدة فقط للتاريخ، توجد ذاكرات جماعية عديدة (Halbwachs 1992, p38 *several collective memories*). يبدو هنا وكأن هالبواتش يصف التاريخ بالموضوعية مع أنه هو أيضاً مرهون بذاكرة من يقوم بتسجيله. ويأتي Pierre Nora، منظر فرنسي آخر، بمقارنة مختلفة قليلاً بين التاريخ والذاكرة، فهو يقارن بين التاريخ المصطنع، كما يسميه، والذاكرة الحقيقية ليجادل بأن الذاكرة بطبيعتها حية، بينما التاريخ لا يخضع فقط للبناء وإنما لاعادة البناء. وخلال دراسته للهوية الجماعية الفرنسية، يقترح نورا، مفهوم أماكن الذاكرة "*Les Lieux de Mémoire*" والتي تشير إلى أي "كينونة أو وجود مميز، بغض النظر إن كان مادياً أو رمزياً، والذي ساهم التدخل البشري أو مرور الزمن في تحويله إلى أحد الرموز التي تشكل الذاكرة التراثية لأي مجتمع" (Nora, 1996: xvii).[57] فحسب بيير نورا، فإن المجتمع العصري يشهد انتقالية ذات وتيرة متسارعة، بدأت فيها معظم، إن لم نقل كل أشكال الارتباط بالماضي والمُؤسسة في آن واحد للهوية الجمعية في الاضمحلال التدريجي لتحل محلها أماكن الذاكرة، مما يجعل من "أماكن الذاكرة" البديل الحسي و"الاصطناعي" لذاكرة جمعية فرنسية لم تعد

---

[56] من مقالة على الانترنت بعنوان: "مفهوم الذاكرة الجماعية لدى موريس هالبواكس" بقلم زهير سوكاح http:// www.doroob.com/?p=16608 (استرجعت بتاريخ 13/3/2008).

[57] Sites of Memory, at https://tspace.library.utoronto.ca/citd/holtorf/2.6.html (retrieved on 16 April 2009).

موجودة الآن.[58] ويعزي نورا تكثف الذاكرة بشكل مستمر في أحاديثنا اليومية إلى غيابها المادي عن حياتنا: "Memory is constantly on our lips because it no longer exists". بعد أن تم تذويب الذاكرة في السرديات الكبرى *metanarratives* للتاريخ. وكما جاءت السرديات الرسمية للتاريخ لتحل محل التقاليد والأعراف والخبرة المعاشة للأحداث، جاءت أماكن الذاكرة لتتكثف ذكريات أحداث مضت حول النصب التذكارية والأعمال الفنية والكتب التاريخية وأيام الذكرى السنوية فتحل محل العوالم الحقيقية التي عايش فيها الناس الأحداث الماضية. فتشعر، بحد تعبير نورا، وكأن "أماكن الذاكرة" جاءت لتقول باستحالة وجود الذاكرة بشكلها الطبيعي والعفوي (Schwartz, 1998: 66).

وَصفُ نورا للطريقة التي تم بها ترسيم (من رسمي/ عكس شعبي) الذاكرة الجماعية الفرنسية لتتجمع مشاعر الحنين (*Nostalgia*) والحزن والافتخار حول "أماكن الذاكرة"، يثير التساؤل حول الشكل الرسمي الذي تطورت به الذاكرة في الحالة الفلسطينية مع أخذ خصوصية الحالة بعين الاعتبار:[59] فهل تحولت التجارب المُعاشة للاستلاب والاقتلاع التي مازال الشعب يعيش آثارها إلى اليوم إلى مجرد أماكن للذاكرة في السردية الرسمية الفلسطينية؟ وأين "النكبة" و"المخيم"، على سبيل المثال من أماكن الذاكرة التي يصفها نورا؟ "ففي حين كانت القيادة الفلسطينية ترى في المخيم، في فترة الثورة، مخزناً للفدائيين والشهداء والأمهات اللواتي يُنتجن شباباً تستهلكهم دروب العودة إلى الوطن، يبدو أنها أعادته إلى السبات اليوم" (دراج، 1996: 17). وقد يكون هذا أحد العوامل التي أدت إلى تعميق مشاعر الاغتراب لدى اللاجيء. الأمر الذي يظهر بجلاء في روايات اللاجئين الذين قابلتهم وينعكس من خلال ردود فعل مختلفة لديهم كما يتضح في تحليلي لروايات اللاجئين عن المخيم في الأنماط المختلفة في الفصلين الثالث والرابع.

واستكمالاً لآليات بناء الذاكرة التي يسعى هذا البحث إلى فهمها، أعود لهالبواتش الذي يحاول تفسير الكيفية التي تتموضع بها الذكريات القديمة في الحاضر، فيطور مفهوم "الذاكرات الكلية المشتركة" التي تنشأ ضمن مجموعات صغيرة وأكثر قدرة على الاستمرار، كالعائلة على سبيل المثال. في هذه الحالة نقوم باستعادة الذاكرة بصيغتها الشمولية من خلال تبني التوجه أو الاعتقاد الذي يشترك أفراد المجموعة بتبنيه. وبرأي هالبواتش، أنه والحالة هكذا ليس هناك ما يستدعي منا التطرق إلى الترابط بين الذكريات بتأثير التشابه، فمن المؤكد أن ذكريات العائلة تبدو متشابهة لأنها متعلقة جميعها بنفس العائلة، إلا أنها تختلف أيضاً بناءً على علاقات أخرى كثيرة. وهنا يشرح هالبواتش أين يبتعد موقفه من نظريات علماء النفس التي تتعامل مع الذاكرة على مستوى الأفراد. فبرأيه: "من أجل فهم الذاكرة التي تشغل أفكار الفرد، يجب أن نقوم بموضعتها في السياق العام لأفكار الجماعة التي ينتمي إليها" (Halbwachs, 1992: pp.52-53). يوسع هالبواتش فكرته عن "الاطار الجماعي لبناء الذاكرة" حين

---

[58] قراءة في كتاب "أماكن الذاكرة" لبيير نورا، بقلم زهير سوكاح على الرابط الالكتروني دروب: http://www.doroob.com/?p=16091 (استرجعت بتاريخ 26/3/2007).

[59] ضمن الشروط الثلاثة التي ذكرتها في تقديمي للفصل الثاني.

يشير إلى أن هذا التأثير من قبل الجماعة على ذاكرة الفرد ليس خطياً نظراً إلى أن الفرد في المجتمع الحديث ينتقل من مجموعة إلى أخرى، ففي حديثه عن العمال يذكر "أن العمال في انتقالهم من محيط مجموعة معينة (العائلة مثلاً) إلى مجموعة أخرى (المصنع أو مكان العمل) فإنهم بلا شك سيحملون معهم إلى المجموعة الجديدة أفكاراً تبنوها من انتمائهم للمجموعة الأولى، والعكس صحيح" (Halbwachs, 1992: p.141).

حاولت مقاربة تفسير هالبواتش على السياق الفلسطيني الحالي؛ لكن الأمر لا يبدو بهذا الوضوح، فمن الصعب موضعة أفكار الفرد ضمن جماعة محددة، خاصةً في وقت اتسع فيه انتشار المؤثرات الاعلامية والفكرية، لتتجاذب الفرد منا قوى عديدة فاعلة في الداخل والخارج، بعضها ملموس (ضمن المحيط المادي الذي يعيشه الفرد) والكثير منها يأتيه من خلال عوالم تُوصف بالافتراضية (جماعات الاهتمام المشترك على الانترنت والفضائيات). ما أود قوله هنا، باختصار، هو أن وجود كل هذه العوامل يجعل تحديد الاطار الاجتماعي الذي ينتمي إليه الفرد من الصعوبة بمكان. حتى وإن كان الحيز المكاني، كالمخيم، الذي يقطن فيه الرواة/ المبحوثون حيزاً محصوراً، ويمكن تخطيط حدوده الفيزيائية بوضوح، إلا أن التحديد المكاني وحده غير كافٍ. فهناك العديد من المؤثرات التي تلعب دوراً في تشكيل الفضاء العام والخاص للأفراد الذين يسكنون المخيم. والعامل الآخر المهم والذي لم يأخذه هالبواتش بعين الاعتبار هو الدور الذي تلعبه الشروط المادية التي تسمح للفرد والمجموعات بالوجود واعادة انتاج وجودهم، فهذه بلا شك ستلعب دوراً في بناء وتحديد الإطار الجماعي الذي ينتمي إليه الفرد مدفوعاً بدرجات مختلفة بين الرغبة الفردية أو الاكراه بسبب تبعيته لعائلته أو مشغله فحينها قد يضطر إلى تشكيل ذاكرته لتتناسب وفكر أو أيديولوجيا الجماعة التي تتحكم بمصدر رزقه حتى لو لم يكن مقتنعاً بهذا الفكر في قرارة نفسه، ليدخل الفرد في حلقة أخرى من الاغتراب.

وإذا نظرنا إلى الذاكرة الجماعية من ناحية الوظيفة التي تقوم بها، فهي تعتبر أحد الأسس المهمة لبناء الشعور القومي والهوية القومية، فالذاكرة الجماعية "ليست شيئاً خامداً سلبياً، وإنما هي مجال فعالية يتم في إطاره انتقاء أحداث الماضي وإعادة بنائها وصونها وتحويرها ومهرها بالدلالات السياسية" (سعيد، 2002: 101). وقد تساعد دراسات هالبواتش ونورا التي استعرضتها هنا في فهم عملية بناء الذاكرة الجماعية للأحداث الماضية وعمليات اعادة بنائها بما يلائم حاجاتنا الحاضرة،[60] "لتتحول الذاكرة إلى رموز مادية ظاهرة تستبدل المعاني الضمنية التي تحملها الأحداث في حياة من عايشوها" (Olick and Joyce Robbins, 1998: 121)، بما أن الذاكرة هي احدى المكونات الرئيسية التي تُبنى عليها الروايات التي تهتم بها هذه الدراسة. إلا أن تحليلات هالبواتش ونورا _التي تستند إليها الكثير من الدراسات الحديثة عن الذاكرة الجماعية، فتحلل دور النسق الجمعي والمؤسسات الاجتماعية

[60] As Halbwach declares that our understanding of the past is always instrumental to the solution of present problems (quoted in Schwartz, 1982: 376).

والرسمية في بناء ذاكرة الأمم وسردياتها[61]_ لا تقدم مفاتيح جاهزة لتفسير عملية بناء الذاكرة والسرديات الوطنية في جميع الحالات. خاصة في حالة الاقتلاع من المكان: "فهدم المكان وضياعه، لا بد أن يترك آثاراً هدامة على التاريخ وعلى الذاكرة والهوية بصيغتيهما الفردية والجماعية" (Fullilove as quoted in Gieryn, 2000: 482). مما يؤسس لدور أكبر لعملية المخيال الاجتماعي، التي تنعكس في السرديات الشعبية للشعوب المضطهدة، والتي تتحكم في انتاجها القوى والإيديولوجيات المسيطرة، كما ورد في وصف إحدى الباحثات في الحالة الأرمنية، فهنا وإن غاب الشكل الحداثي للدولة، إلا أن هذه الشعوب تلجأ إلى أشكال أخرى من عمليات الهندسة الاجتماعية من خلال مبادرات تعليمية تقوم بها مراكز بحثية ومنظمات سياسية في محاولة نشطة لاعادة انتاج "الأمة المسموح بوجودها" permitted nation (Barseghyan, 2004: 13). ويمكن أن أستعير هنا تعبير الباحثة للحديث عن "الوجود الفلسطيني المسموح به".

فما هو شكل الوجود الفلسطيني في روايات الفلسطينيين اليوم؟ هل يتحدد بالشروط الواقعي "المسموح به" أم يتسع به المخيال الاجتماعي ليتجاوز حدود الزمان والمكان للوجود الفلسطيني المبعثر اليوم؟

إذا حاولنا مقاربة أفكار نورا و هالبواتش على الحالة الفلسطينية المدروسة هنا، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار غياب دور الدولة في خلق ذاكرة جماعية عن المكان وتاريخه في الوقت الذي يخضع فيه الوجود الفلسطيني المشتت جغرافياً لشرط استعماري ينفي جزء من الأرض والسكان ويطبق سيطرته العسكرية على الجزء الباقي. بينما السلطة الحاكمة الفلسطينية محكومة باتفاقيات لا تحقق لها أية سيادة على التجمعات الفلسطينية المشتتة، إضافةً إلى أن استمرار وجودها مرهون بالالتزام بإيديولوجيا التسوية التي تعني هدم الرموز الجماعية التي كانت تؤسس للهوية الوطنية الفلسطينية والذاكرة الجماعية: نكبة العام 1948، واللجوء، والعودة، والبلاد كما أشرت في مقدمة هذه الدراسة (كناعنة، 2000؛ دراج، 2008). لكن هل يؤدي غياب قيادة تُعنى بالذاكرة الجماعية بالضرورة إلى تغييب الذاكرة لدى الفلسطينيين أفراداً ومجموعات؟

هذا ما حاولت التعرف إليه من خلال جمعي للروايات الشفوية من لاجئين يعيشون في مخيمين مختلفين. فالمخيمات كانت جزءاً لا يتجزأ من الذاكرة الجماعية للنكبة، حيث يلجأ اللاجئون المنفيون عن أرضهم إلى أساليب مختلفة لاعادة خلق وطن يشكل امتداداً لجذورهم في الماضي ويحقق طموحاتهم المستقبلية. وذلك من خلال محاولة اعادة خلق الروابط الاجتماعية التي كانت سائدة في فلسطين قبل الهجرة، واعادة خلق خارطة الوطن بأسماء القرى الفلسطينية في المخيمات والتمسك بالرموز التراثية التي تعزز الانتماءات الوطنية للاجئين وتفرض احساساً بالأصالة والثقافة الموحدة التي تهدف إلى ربط الماضي الضائع بالطموحات المستقبلية. هذا ما وصفته الباحثة الألمانية Klaus:

[61] I noticed that many of the research works on the building of memory and national narratives are based on Halbwachs' and Nora's interpretations and representations of collective memory. See for example: Barry Schwartz's articles (1982, 1991, 1996, 1998), Jeffrey Olick (1998, 2003), articles' titles are listed in the reference section at the end of this study.

بقولها: "لا يوجد محيط اجتماعي يعزز بناء الذاكرة بشكل أصيل وحيوي أكثر من المحيط الذي يعيشه اللاجئون في مخيم اللجوء. فالمخيمات، وعلى الرغم من ظروف العوز والفقر الذي يعيشها قاطنيها، أو ربما بسبب هذه الظروف، شكلت ومازالت تشكل منبعاً لاحياء الروح الوطنية الفلسطينية" (Klaus, 2003: 129). لكن المخيم، في نفس الوقت، من خبرتي السابقة في العيش فيه، وكما ظهر في الأبحاث التي استعرضتها في المراجعة الأدبية هو فضاء مكاني يشكل حالة تهميش واغتراب لقاطينه عن محيطهم، مما يعزز الحاجة إلى اعادة بناء الوطن السليب في الخيال.

وهذا يتوافق مع ما توصلت إليه الباحثة ليزا مالكي، المتخصصة بأبحاث اللاجئين بأن الأرض أو الوطن، في حالة اللجوء/النفي، يميل إلى أن يكون أقرب إلى الميتافيزيقي والرمزي منه إلى الحقيقي. وأن العلاقة بين مفاهيم الأرض، والنفي أو اللجوء والمقاومة هي علاقة معقدة. فاللاجئون في مخيمات اللجوء يعيدون خلق صورة لوطنهم ليساعدهم ارتباطهم بهذه الصورة الذهنية في إعادة موضعة أنفسهم في المكان والزمان الجديدين (Malkki, 1992: 35).

والجماعات أساساً، كما يقول أبادوري ليست كيانات ثابتة، لهذا فإن عملية بنائها واعادة بنائها في صيرورة مستمرة. وليس من السهل دراسة الجماعات، خاصةً تلك التي لا تتأطر في مكان محدد حتى ولو كانت مازالت تُعرف كجماعة واحدة نظراً لأصول وتنظيم الأفراد الذين يشكلون هذه الجماعة (Appadurai 1993: 26-30). ويضيف أبادوري: "إن العالم المعاصر يتميز بوجود دور جديد كلياً يؤديه المخيال في الحياة الاجتماعية. فالجديد في العمليات الثقافية العالمية هو المخيال باعتباره ممارسة اجتماعية، وباعتباره مجالاً منظماً للممارسات الاجتماعية، "شكلاً للعمل" وشكلاً من أشكال التفاوض بين مواقع القوة (الأفراد) والمجالات المحددة عالمياً للإمكان (الواقعة تحت تأثير القوى العالمية). وكان للوساطة الالكترونية والهجرة الجماعية أهمية بارزة في عمل المخيال باعتباره مقوماً أساسياً من مقومات الذات المعاصرة للأشخاص العاديين. حيث توفر وسائل الإعلام مصادر جديدة وفروعاً معرفية جديدة لتركيب ذوات متخيلة وعوالم متخيلة"[62] (تراكي، 2008: 16).

ويرتبط مفهوم المخيال أو الخيال أكثر بمبحث علم النفس، حيث يشير فرويد في كتابه "مدخل إلى التحليل النفسي" إلى المتخيلة[63] باعتبارها القيمة العقلية الوحيدة التي لا تزال إلى حد بعيد، حرة تلقاء مبدأ الواقع. وتلعب المتخيلة دوراً هاماً إلى أقصى حد في البنية العقلية. فهي تربط أعمق طبقات اللاشعور بأعلى نتاجات الشعور (بالفن)، الحلم بالواقع. وهي تحرس نماذج النوع، والأفكار الخالدة ولكن المكبوتة، للذاكرة الفردية والجماعية (ماركوز، 2007: 159).

> "والتخيل، حسب ماورائية علم النفس الفرويدية، من حيث هو عملية عقلية مستقلة، أساسية، يتمتع بقيمة حقيقية خاصة، تتعلق بتجربته الخاصة، وهي تجربة تجاوز الواقع الانساني المتناقض. ذلك أن التخيل يستهدف إعادة التوافق بين الفرد والكل، بين الرغبة وتحققها، وبين السعادة والعقل. ففي الواقع المتسلط: فإن التخيل يلح على كون أنه ينبغي له (أي التخيل) ويمكنه أن يتحول إلى واقع، وأنه وراء الوهم إنما تقبع المعرفة. فحقائق التخيل تتجسد مبدئياً عندما يأخذ التخيل ذاته شكلاً، وذلك حين يخلق عالماً من الادراك والتفهم، عالماً ذاتياً، وفي الوقت نفسه، موضوعياً، وهذا ما يتحقق في الفن. ولعل الفن هو "رجوع ما كان مكبوتاً" بأوضح شكل، وليس ذلك على المستوى

[62] جميع الاقتباسات من المقالات والكتب الانجليزية هي ترجمة الباحثة عن المصدر الأصلي، هذا الاقتباس مأخوذ عن كتاب الحياة تحت الاحتلال في الضفة والقطاع لذا اقتضى التنويه.

[63] هكذا يترجم المرجع كلمة imaginary.

> الفردي، ولكن على المستوى التاريخي الورائي. إذ أن التخيل الفني يعطي "للذكرى اللاشعورية" صورة التحرر الذي سبق أن فشل، وصورة الوعد الذي كان قد غُدر به. فلقد عبر الفن، عن عودة صورة التحرر المكبوتة. ولهذا كان الفن مقاومة" (ماركوز، 2007: 161-163).

ويأتي كارل يونغ في كتابيه "نماذج نفسية" (1950) و"سيكولوجية اللاشعور" (1954) ليلح على القيمة الإدراكية للخيال بقوة أكبر مما يفعل فرويد: "فهو يرى أن التخيل يتحد مع جميع الوظائف العقلية الأخرى. "فالتخيل هو قبل كل شيء الفعالية المبدعة التي تصدر عنها الأجوبة على جميع المشكلات التي يمكننا أن نحلها، و هو أم جميع الامكانيات، التي يؤلف فيها كل من العالم الداخلي والعالم الخارجي و حدة حية كجميع المتناقضات النفسية الأخرى. والتخيل لا يلتفت فحسب نحو الماضي الأصلي المذهب، ولكن نحو المستقبل كذلك، نحو الامكانيات التي لا تزال غير متحققة، ولكنها قابلة للتحقق" (المصدر السابق، 166).

و في محاولة لقراءة المتخيلة أو الخيال كما وصفه علماء النفس على اللجوء الفلسطيني، نجد أن الخيال يلعب دوراً كبيراً في تشكيل صورة الوطن لدى مجتمعات اللجوء، فالفلسطيني ما زال يخلق في خياله وطناً كاحتجاج على الواقع الذي يكرس ضياع الوطن.[64] وتوصلت الباحثة Juliane Hammer في بحثها Palestinians Born in Exile: Diasporas and the Search for a Homeland الذي أجرته مع مجموعة من الشباب/ات الفلسطينيين العائدين بعد أوسلو إلى الضفة الغربية من فلسطين أن الصورة المتخيلة للوطن *imagined homeland* التي يحملها الفلسطيني الموجود خارج بلاده تتكون من خلال قصص الجيل الأول وذكرياتهم والإعلام. وهي صورة مثالية، وتقترب من الأسطورة تظهر فلسطين فيها بأنها أجمل مكان في العالم، فهي المكان الذي يشعر فيه الفلسطيني بأنه في البيت/الوطن at home ولذا يجب النضال في سبيل العودة إليها. وتبين هامر من خلال المقابلات التي أجرتها مع العائدين أو الفلسطينيين الذين يعيشون في الولايات المتحدة ويزورون فلسطين باستمرار كيف تتغير الصورة إثر الاحتكاك المباشر مع الوطن، لمن أتيحت له فرصة العودة و/أو الزيارة لتصبح أكثر واقعية فتُختزل إلى ما تسميه هامر بالصورة الثقافية *cultural image* و هي صورة تربط الوطن بالبعد الديني واللغة والعائلة والعادت والتقاليد أكثر مما تربطه بالوطن المثالي الجميل الذي يجب العمل على استعادته (Hammer, 2005: 67-74). وقد تكون نتائج هامر منطقية إذا ما قُرأت ضمن السياق الذي أُجري فيه البحث، فهي تتحدث على الأغلب عن أشخاص كان لهم خيار بالعودة أو عدمه وتركز على المعنى الثقافي للوطن ضمن هذا السياق. لكن واقع اللجوء الذي تبحث فيه هذه الدراسة ينطلق من استمرار حالة الاقتلاع والاستلاب في سياق استعماري استيطاني يسلب الفلسطيني حقه في الوجود الطبيعي كإنسان يملك خيار العودة إلى المكان الذي اغتُصِبَ منه.

---

[64] ويظهر هذا في روايات اللاجئين الذين قابلتهم، أنظر الفصل الرابع: صورة فلسطين الأحلام.

كما يظهر في روايات الفلسطينيين في الأبحاث التي راجعتها وفي هذه الدراسة أيضاً، تتخذ فلسطين صوراً مختلفة في الخيال، الماضي الجميل، خاصةً بين فئة اللاجئين الأكبر سناً، فحين تسأل واحدة من العجائز الفلسطينيين عن الحياة في فلسطين قبل تهجير 1948، تسمع أغلبهم/نَّ يقول "كنا عايشين في الجنة" وقد تُعتَبَر هذه الفكرة من قبل الواقعيين منا يوتوبيا، لكن الفلسطيني الذي كان يعيش معتمداً على خيرات أرضه بحياة فلاحية أقرب إلى البساطة لا بد أن يستعيد الماضي في خياله كالجنة مقارنة بالحاضر البائس في المخيم ورغبة منه بمستقبل مختلف. ولا يقتصر الخيال على العودة إلى الماضي وإنما كما قال ماركوز قد يتجه خيال الفرد به إلى المستقبل، وهو ما ظهر في هذا البحث في روايات النمط الحالم بالغد الأجمل، ليصنع الراوي ماضي فلسطين في خياله بما يلائم الصورة التي يريدها لفلسطين المستقبل. وأحياناً يلجأ الرواة إلى الخيال الابداعي، المسرح، مثل سوسن الصفورية التي اختارت أن تخبرني بروايتها عن فلسطين من خلال العمل المسرحي الذي كتبته: ويبدأ بقصة الاقتلاع التي ترويها بسرد قصص ثلاث فتيات جمعتهن صداقة قديمة على أرض الوطن، تجسدت مادياً في صورة التقطها لهم مصور لتحتفظ كل منهن بنسخة منها. لكن الفتيات يفترقن بفعل الاستعمار القسري في العام 1948، لتذهب كل واحدة منهن في اتجاه، وتنتهي قصة المسرحية بالتقاء الفتيات عندما يكبرن، ويظهر هذا اللقاء الشخصي بينهن كتعبير عن حلم يعيش في خيال سوسن لاعادة تجميع أجزاء الوطن بمكوناته الثلاثة: أهل الضفة وغزة، ولاجئو المخيمات، وفلسطينيو العام 1948:

"عملي بحكي عن أوجاع فلسطين، وجسدت بالمسرحية فلسطين المقسمة إلى ثلاثة أقسام: فلسطين المحتلة اللي هي الضفة وغزة، وفلسطين الـ 48 اللي بقيوا وفلسطين اللي هم نحنا اللاجئين. الثلاثة جسدتهم بثلاث فتيات، كل بنت بتحلم. هن كانوا بمنطقة واحدة بفلسطين، وصار الاحتلال وتبعثروا، واحدة رجعت على الضفة لأنها بالأصل من نابلس، وواحدة طلعت لبرّا، وواحدة بقيت، بظروف خاصة جداً. أنا عملت شوية تحليل، إنه كيف كانوا وشلون طلعوا، عملت دراسة إنه هيك قصة، حكاية. حكاية إنه هدول كان أبوهم يشتغل بنابلس، هن من نابلس وخطر على بالهن إنه يفتحوا محل بالجليل: محل كنافة نابلسية. وسكنوا بمنطقة الجليل، وسكنوا بالحارة اللي فيها هدول الرفقات الثلاثة. واحدة منهن لما صارت حرب الـ 48: إنه كيف خرجونا، كيف طلعونا، حدا طلع، حدا بقي وحدا هرب، تخبى بالكنيسة. أنا عاملتها بكنيسة، لأنه جزء كبير من قرايبنا تخبوا بدير بصفورية. **فأنا عملت المسرحية بشكل إله علاقة بالحكايا اللي بذاكرتي.** إنه كيف فيك تجسدي حكاية مرتبطة بالواقع؟ لأنه فعلاً في عالم بقيت بفلسطين، قدرت تبقى، مو بس قصة صمود، بس في ناس قدرت تتسلل، تتشبث وتتخبى وفي ناس ظرفهن كان إنه طلعت بهجرة جماعية. وهدلون الثلاثة كان عندهن صورة، صورهم واحد من هدول المصورين اللي بدوروا، إجا على القرية وصور وقال لهن: خذوا هالصورة وكل واحدة تحتفظ فيها لأنه أبصر كل واحدة فيكن وين راح تصير! وبلش يحكي مع الست والجد تبع البنت اللي بالشمال إنه بسمع عن حكي إنهم بدهم يقلعوا الفلسطينية، ويجيبوا يهود عم بقولوا إنه فلسطين ما فيها ناس وبدهم يرجعوا اليهود يسكنوها، هون برجع بغمز على الأسطورة الصهيونية اللي بتقول أنها أرض بلا شعب. من خلال المسرحية حاولت أدخل عناصر الأكاذيب والأساطير والواقع. فاحدى الفتيات بتنتبه وبتخاف وبتقول لرفقاتها: إنه احنا يا بنات لازم نتشبث بالصورة ... أطفال عمرهن ثمان سنوات رجعوا التقوا بعد خمسين سنة ببلد أجنبي لأنه الثلاثة ما قدروا يلتقوا على أرض الوطن. والثلاثة عندهن حلم، اللي برا، صارت مصورة شهيرة بالعالم. وعندها حلم إنها ترجع على فلسطين، بتصور كل الدنيا إلا فلسطين ما قدرت تصورها وهذا الجرح الفظيع، والبنت اللي في نابلس بتحكي عن وجعها، وجع الاحتلال ووجع الشهداء ووجع القهر، والبنت اللي في الـ 48 بتحكي عن وجع الجنسية الثانية ومعاناتها إنه أنت بأرضك القريبة منك بتشوف الحقل والورد بس صعب تقطف منها وتشمها، بس هي بترسم الصورة لأنها صارت فنانة ... أنا بحكي في هاي المسرحية عن هاي البنت اللاجئة أكثر إشي، المصورة، اللي لفت ودارت وصورت كل العالم ما عدا فلسطين. **فبحكي بهاي المسرحية عن هاي البنت اللاجئة اللي هي احنا،** بتجسد هاي المسرحية أكثر شي صوتنا ومتضمن فيها

الشخصيات الثلاثة كون صورة الضفة واضحة بالاعلام، والـ 48 ما كثير واضحة بس المعاناة هي القبول بالجنسية الثانية، واحدى الحوارات هي: "قبلنا بالجنسية الاسرائيلية على مضض، قالولنا يا بتقبلوا بالجنسية، يا مكانكم مثل غيركم برا، فقلنا: بقينا، قبلنا بجنسيتهم مرغمين، قلنا الكحل ولا العمى". فأنا من خلال هذا العمل عم بحكي عن هاي الثلاث شخصيات وبحكي عن الحلم."[65]

يُظهر هذا المقطع كيف يوظف اللاجىء خياله لخلق صورة لفلسطين أجمل من صورة الواقع وممكناته المستقبلية: تستخدم الراوية هنا مهاراتها المسرحية والابداعية والبحثية لتعيد بناء قصتها لفلسطين بما يحقق حلمها باتحاد الأجزاء المبعثرة، فترسم صورة لفلسطين كما تحلم أن تراها. ويظهر من خلال رواية سوسن تداخل عدة عناصر: الذاكرة والخيال والقراءة والبحث في بناء سردية فلسطين. قد يكون هذا نموذج فردي، بما هو عمل ينتجه الخيال الابداعي الفردي، ويعبر عن طاقات واهتمامات الفرد المبدع، لكنه يلعب أيضاً دوراً في بناء الذاكرة العامة كما يبين أندرسن في كتابه "الجماعات المتخيلة" حين بدأ جدالاً مهمًّا حول العلاقة بين الأدب، لا سيما الرواية، وبين القوميّة (أندرسون، 1999: 55). حيث يشير إلى الدور المهم للرواية في تكوين وبناء القوميّة عَبر كونها وسيلة معاصرة لتمثيل الجماعة المتخيَّلة. في الرواية، ثمّة عدة شخصيّات تقوم بأدوار مختلفة بدون أيّ رابط، وبدون أن تعرف الشخصيةُ الواحدة الأخرى. القارئ هو الذي يرى الأحداث بتزامن بينها، وهو الذي يعرف انتماء كل الشخصيّات لنفس المشهد الاجتماعي. الأحداث في الرواية موازية – بحسب أندرسون – لـِ "الجماعات المتخيَّلة". في هذا السياق، يمكن القول أن الأدب يروي للجماعة حلمها المشترك، أو يُنسيها أحداثًا مأساويّة عايشتها، من خلال إحيائه لبعض الذكريات أو إقصائه لها عن الذاكرة الجماعية، ممّا يصقل خيالاً واحدًا وذاكرة واحدة. فالرواية قادرة على إنتاج الحدود بين الأنا والآخر، وعلى بناء الهُويّة وترسيخ الثقافة عَبْر روايتها وتلقينها الى وعي الأفراد.[66]

مداخل نظرية لقراءة صورة فلسطين في روايات اللاجئين بين واقع اللجوء والحلم بالوطن

كما يتضح من مقاربة مفاهيم الذاكرة والمخيال والسرديات للحالة الفلسطينية اليوم، وبالتحديد لوضع اللاجئين الذين ما زالوا يعيشون في المخيمات لأكثر من ستين عاماً، فإنه لا يمكن قراءة روايات اللاجئين بمعزل عن الشروط التي يعيشها الرواة. وهي بداية ***الشرط الاستعماري***: الذي استندت في قراءته على نظريات التحليل النفسي للهويات الاستعمارية، فرانز فانون تحديداً. تأتي في الدرجة الثانية ***ديناميات السيطرة والمقاومة للأيديولوجيا المهيمنة***، وتشكل "الهيمنة" hegemony بما هي احدى أهم مساهمات غرامشي النظرية عن الدور الذي يمارسه المثقفون لاستدخال أيديولوجياتهم الطبقية، ومساهمة ألتوسير عن أجهزة الدولة الأيديولوجية، أحد المداخل لقراءة الواقع الفلسطيني. بالإضافة إلى الاستفادة من ***أطروحات منظرين مختلفين حول الاغتراب*** في محاولة لفهم حالتي العجز واللامعيارية السائدة في المجتمع العربي عموماً (بركات، 2006) والفلسطيني خصوصاً (سمارة، 2009).

---

[65] من مقابلة أجريتها مع سوسن الصفورية 37 عاماً، خلال شهر آب 2008.

[66] التعليق مأخوذ من موقع الحوار: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=48750_

تبدأ الاشكالية من أن الفلسطيني بشكل عام، واللاجيء موضوع البحث هنا بشكل خاص، لم يعد يمتلك شرط اعادة انتاج نفسه بعد أن اقتُلع من أرضه، مصدر رزقه الأساسي، وانتُزِع من وطنه ليتحول إلى لاجيء على بعد كيلومترات منها ويبيع عمله لمؤسسات تهيمن عليها نخبة حاكمة محلية توجهها ارتباطات مصلحية في علاقة تبعية مع المركز الاستعماري الغربي المسيطر الذي لا يسمح لها باعادة انتاج ذاتها خارج شروطه هو المرتبطة بالحفاظ على الكيان الاسرائيلي الاستيطاني. هذا يستوجب الانتقال من ذاكرة فلسطين النكبة إلى اللاذاكرة أو احلال ذاكرة جديدة منطلقة من قيم المركزانية الأوروبية: التسامح،[67] والمواطنة، والمجتمع المدني. وأوضح مثال على هذا هو اتفاقيات أوسلو، التي كرست مشروع الاستقلال الفلسطيني الناقص بدولة ناقصة، أقل ما ينقصها السيادة.

فكيف ينعكس تأثير هذه الظروف على ذاكرة الفلسطينيين الذين يعيشون في مخيمات اللجوء اليوم؟ تدل الدراسات السابقة، التي أشرت إليها في الفصل الأول، أن التجارب الحياتية للاجئين تحتل جزءاً كبيراً من رواياتهم الشفوية: ظروف الاقتلاع التي تعرضوا لها، وحياتهم في المخيمات فيما بعد بالإضافة إلى التوقعات والطموحات المتعلقة بالمستقبل. فالحياة في ظرف مؤقت وغير مستقر تترك الفلسطيني في حالة انتظار دائم يستدعي عبرها الماضي بغرض البحث عن خيارات حياتية مختلفة في المستقبل. وهناك تشابه بين مضامين هذه الروايات بشكل عام. فطوال ستين سنة، شهدت المخيمات تغيراً محدوداً على أرض الواقع ولم تحمل المشاريع السياسية أية وعود بالتغيير، فكان المهرب تأجيل البحث في الموضوع إلى مرحلة لاحقة مع الابقاء على حق العودة كشعار تتبناه الأطر التنظيمية فكرياً وثقافياً ولكنه يختفي في حيز الممارسة.

لا شك أن خيارات اللاجئين ما زالت محدودة، والوجود المادي هنا أي المخيم بما يمثله من حرمان واستلاب سيتأثر بالخطاب السائد الذي يحاول أحياناً تبرير الواقع وأحياناً شحذ الهمم لرفضه. وفي زمن الحداثة والعولمة تتعدد مصادر الخطاب ومضامينه. ومع أن الوجود المادي يبدو متماثلاً للناظر من خارج المخيم، لكنه يختلف من الداخل. فالفاعلون الاجتماعيون مختلفون في صفاتهم وفي الفرص المتاحة لهم، ولا بد أن يظهر هذا الاختلاف في رواياتهم.

أولاً: مدخل مختصر حول تجارب الحياة في شرط استعماري

على الرغم من اختلاف السياقات المكانية والزمانية للحالات الاستعمارية في العالم والتي لا بد ستنتج تجارب وأحاسيس خاصة بكل حالة، إلا أنني وجدت من خلال قراءتي في روايات اللاجئين

[67] هناك أمثلة عديدة على سيادة هذا الخطاب من خلال مبادرات تشرف عليها غالباً دول أوروبية. تستخدم آليات مختلفة بعنوان "مشاريع مشتركة" تجمع فلسطينيين واسرائيليين من أجيال مختلفة تحت شعارات مختلفة: ثقافية أو رياضية أو تعليمية .. وجميعها تهدف إلى تشجيع التعامل مع الكيان الاسرائيلي كوجود طبيعي في الجوار بغض النظر عن سياساته الاستعمارية المستمرة. يشرح وسام رفيدي أثر ثقافة التطبيع على الهوية الوطنية الفلسطينية: "بعد النكبة وطوال سنوات النضال الفلسطيني نشأ الوعي الجمعي الفلسطيني كوعي تحرري يروم الخلاص من الاحتلال وتحرير الوطن. والتطبيع اليوم، في هذه الجزئية بالذات، إنما يهيل التراب على هذا الوعي ليعيد صياغة وعي جديد: القبول بالعدو والاستسلام لإرادته بدونية تسحق الهوية الوطنية للفرد. إن أخطر ما يؤثر عليه التطبيع هو تلك التركيبة النفسية/ الثقافية/ الوجدانية للمطبّع: لا حقد على المحتل بل خلاف جيران ومحاورة تستهدف العيش المشترك." (رفيدي، 2009: 183).

الفلسطينيين العديد من التشابهات بين الممارسات الاستعمارية التي وصفها فانون في الجزائر وردود فعل الجزائريين عليها، وبين السياسات الاستعمارية الاسرائيلية وردود الفعل الفلسطينية عليها.

فالصراع الأزلي بين المستعمِر وأدواته لترسيخ سيادته على المكان والزمان في الحاضر، والمستعمَر سيد المكان والزمان في الماضي والمستعبد اليوم والمنقسم في تطلعاته إلى المستقبل وفقاً لموقعه في البنية الاستعمارية فتراه مرة وكيلاً للمستعمِر و مرة ثانية مستسلماً له و في فترات أخرى مقاوماً للخروج من أسو البنية الاستعمارية. ولا تختلف الحالة الاستعمارية في فلسطين عن الحالات الاستعمارية في أماكن أخرى من العالم، وبما أن الكيان الصهيوني هو وليد المشروع الاستعماري الغربي أساساً وهو استمرارية له وبه، فلا غرابة أن يشبهه في كثير من المضامين والأشكال. حتى أنني كثيراً ما شعرت وأنا في حضرة الرواة في المخيمين بأنهم يعيدون رسم الصورة الاستعمارية التي وصفها فانون في كتابه معذبو الأرض، (فانون، 1972: 45– 55) لكن بنسخة فلسطينية.

إن المواجهة الأولى للفلسطينيين مع المستوطنين الاسرائيليين والتي امتدت في ظل دعم الاستعمار البريطاني للمستوطنين اليهود في الفترة من 1917 إلى 1948 حولت الفلسطينيين إلى لاجئين حيث كان الاحتلال الأول، أما المواجهة الثانية لهم مع الاحتلال، فحولت الكثير منهم إلى أيدي عاملة في اسرائيل، في قطاعي البناء والزراعة. وهذا يتقاطع مع وصف ألبير ميمي لحالة سكان الجزائر في ظل سيطرة المستعمِر الفرنسي:

> "أما المستعمَر فهو لا يشعر أنه مسؤول ولا مذنب ولا مرتاب، بل إنه خارج اللعبة. وفي كل الأحوال لم يعد فاعلاً في التاريخ ولو أنه غالباً ما يعاني أكثر من غيره من وطأة التاريخ، إنما يعاني منه كموضوع لا كذات فاعلة. وانتهى به الأمر إلى أن أصبح غير معتاد على المشاركة الفعلية في صنع التاريخ وحتى إلى عدم المطالبة بهذه المشاركة. وما أن يطول الاستعمار بعض الوقت حتى ينسى ذكرى حريته، وينسى ثمن تلك الحرية أو لا يجرؤ على دفع هذا الثمن. وإلا كيف يمكن شرح تمكن عيش قبضة من المستعمرين المتغطرسين بين حشد كبير من الناس الواقعين تحت نير الاستعمار؟ المستعمِرون أنفسهم يعجبون لهذا الأمر، ومن هنا يأتي مصدر اتهامهم المستعمَر بالجبن. لكن الاتهام في الحقيقة وقح جداً. فهم يعرفون جيداً أنهم بسبب قتل مستعمر واحد يموت ويباد مئات لا بل ألوف المستعمَرين ومثل هذه الحادثة غالباً ما تكررت ولربما افتعلت _ حتى اقتنع المستعمَر بالقصاص المحتوم والرهيب" (ميمي، 1980: 120).

وفي هذا السياق، أتفق مع لومبا في أنه قد يكون من المغوي عوض تجارب النفي والتشرد والاستعمار بصيغ شمولية وعامة، لكن بشكل عام لا يجوز التعميم. فمع أنه توجد بين التجارب المختلفة أفكاراً متشابهة إلا أنه توجد بينها أيضاً فروقاتٍ هائلة تمثلها مسألة الطبقة والتواريخ التي تشكل كل مجموعة تتعوض للاستعمار (لومبا 2007: 184). فعلى الرغم من التشابه بين الاستعمارات من حيث الممارسات وردات الفعل الظاهرة إلا أن لومبا تنتقد التعميم والنظرة الشمولية للاستعمار بدون أخذ اختلافات الجنس والطبقة والموقع في عين الاعتبار. فبرأيها أن المستعمَرين المختلفين أحسوا حضور المستعمِر بصورة مختلفة: فالبعض لم يروا الأوروبيين طيلة حياتهم، وكانت السلطة عند هؤلاء ترتدي وجهاً محلياً. بينما كان الحضور الأجنبي ظاهراً عند فئة أخرى بصورة يومية، ومع ذلك بقي الفضاء مقسماً إلى "مجالهم" و"مجالنا". وهناك فئة ثالثة تنظر إلى الاستعمار على أنه قد تمكن من النفاذ إلى مستويات أعمق في حياتهم اليومية. لذلك فإن أصداء كل من الهجانة

والتقليد متنوعة بصورة كبيرة جداً. يظهر هذا الاختلاف في صور الاستعمار التي يقدمها الرواة هنا ضمن كل نمط.

ثانياً: مدخل لقراءة صورة فلسطين في إطار الهيمنة والسيطرة الأيديولوجية

وتشكل الهيمنة، بالمعنى الذي طوره غرامشي للمفهوم كجزء من نظريته في المجتمع المدني، أحد المداخل لقراءة الواقع الفلسطيني. لكن، استكمالاً لما ذكرته أعلاه، لا تشكل الهيمنة بحد ذاتها نقطة البدء، بل إن المصالح المادية التي تولد الهيمنة هي أحد المحركات الأساسية بما تنشره من أيديولوجيا وثقافة تبرر استمرار الاستغلال، "فالواقع في ظل العلاقات الرأسمالية الاستغلالية ينشىء الأوهام التي تقوم من خلالها الطبقة المسيطرة على القوة المادية في المجتمع بتشويه الواقع بانتاج أفكار مشوهة عنه تكرس سيادتها، هذه الأوهام والإدراك المشوه للواقع أطلق عليها ماركس الأيديولوجيا أو الأفكار السائدة التي تعكس مصالح الأفراد السائدين" (ماركس وانجلز، 1976: 42).

وبالنظر إلى الحالة الفلسطينية، يمكن أن نميز مستويين من السيطرة والهيمنة:

– السيطرة كدرجة أولى لتحقيق المصالح المادية، والتي بدأت مع بداية المشووع الاستعماري الأوروبي للمنطقة العربية، وما زالت مستمرة إلى اليوم من خلال الممارسات الاستعمارية الاسرائيلية الهادفة إلى تكريس السيطرة على الأرض والسكان.

– الهيمنة كطبعة أقل قسراً، ولكنها تخدم بدرجة أو بأخرى تحقيق هذه المصالح. يمكن استخدام نظرية الهيمنة لقراءة محاولات القيادة الفلسطينية في تثبيت وتمكين نفسها من قيادة الشعب الفلسطيني، والذهاب بأولوياته بعيداً عن التحرر من السيطرة الاستعمارية.[68]

ولقد ظهر هذا الموضوع بأشكال مختلفة في روايات اللاجئين. فمن الملاحظ عند قراءة الروايات، أن جزءاً كبيراً من الرواية يدور حول الوضع السياسي الفلسطيني الداخلي أكثر مما يركز على الشرط الاستعماري والظروف الناجمة عنه. وتختلف قراءة الرواة لسلوك القيادة لتتراوح بين التجاوب مع الخطاب،[69] والتذمر، والاحباط، واليأس، وخيبة الأمل، والرفض النقدي الغاضب أو التحليل السياسي

[68] بينما تستمر الحالة الاستعمارية على الأرض، شهد الخطاب الوطني الفلسطيني الرسمي تحولات مستمرة منذ سنة 1964 إلى يومنا هذا. تنعكس في التغير في خطاب م.ت.ف خلال المحطات المختلفة: من تحرير كامل التراب الفلسطيني والعودة عبر البندقية والكفاح المسلح سنة 1964 (حين قرر المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في القدس سنة 1964 استخدام كلمة "عائدين" بدلاً من "لاجئين" في وصف الفلسطينيين المقتلعين من أرضهم (حميد، 1975: 46))، مروراً بتغيير ميثاق م.ت.ف من القومي إلى الوطني لتكريس شرعيتها كممثل وحيد للشعب الفلسطيني سنة 1968 (إثر نكسة حزيران)، واقرار البرنامج السياسي المرحلي سنة 1974 الذي أبقى على الأهداف الاستراتيجية نفسها لكنه طرح أهداف مرحلية تكتيكية باقامة سلطة وطنية مستقلة على كل جزء يتم تحريره ببحث امكانية التوصل إلى حل سلمي إقليمي للصراع العربي الصهيوني. ليتوَج هذا المسار سنة 1988 باقرار إعلان الاستقلال وإقامة "دولة فلسطينية" في الضفة الغربية وقطاع غزة عبر قرارات الشرعية الوطنية بهدف الحصول على كيان فلسطيني بجانب دولة اسرائيل. وكان اعلان اتفاق أوسلو سنة 1993: "اعلان مبادىء حول ترتيبات الحكومة الذاتية الانتقالية" تتويجاً للتحول في خطاب م.ت.ف من "حركة تحرر وطني" للشعب الفلسطيني على كامل التراب الفلسطيني عن طريق الكفاح المسلح إلى "حركة استقلال وطني" تسعى إلى الحصول على دويلة فلسطينية على أرض الضفة والقطاع مقابل الاعتراف بحق دولة اسرائيل بالعيش في سلام وأمان. أما اللاجئون، هَم هذا البحث، فكان نصيبهم من اتفاق أوسلو ارجاء البحث في مسألتهم ليتم تسويتها عن طريق التفاوض.

[69] كما في النمطين الواقعي السياسي والمأسور بالمشهد المحيط حيث تظهر آثار الرواية السياسية المهيمنة على رواية اللاجئين وإن اختلفت تبريرات الرواة لخطابهم.

للواقع ولآليات هيمنة النخبة القيادية على الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة. في هذا المستوى تحديداً يمكن استدعاء آليات الهيمنة كما عرضها غرامشي وعمَّقها ألثوسير.

بالنسبة إلى غرامشي تشكل الهيمنة الأيديولوجية أو هيمنة أيديولوجيا الطبقة الحاكمة مصدراً رئيسياً لفرض سيطرتها دون الاضطرار للجوء إلى القوة، بمعنى أن تغلغل هذه الهيمنة ضمن مسار الحياة اليومية للناس وفكرهم تجعلهم في وضع من يطبق أيديولوجيا السلطة معتقدين أنهم يقومون بذلك بمحض ارادتهم، وفي هذا السياق يجري الجزء الأكبر من عمليات التحكم الاجتماعي. ومصطلح الـ *hegemony* الذي يستخدمه غرامشي هو "تلك العملية التي تجعل الطبقة المسيطرة والتي تتحكم بمؤسسات المجتمع السياسية والاقتصادية هي نفسها الطبقة التي تتمتع بامتيازات الاحاطة بمؤسسات المجتمع الإيديولوجية الأساسية (الدين، الثقافة، التعليم، وسائل الاتصال). ولعل أكثر مظاهر الهيمنة بروزاً – في المجتمعات الحديثة – هي قمع الآراء المختلفة من خلال تأسيس معايير تحدد ما هو الشرعي، الممكن، العقلاني، العملي، الجيد، الحقيقي، الجميل. ويعد التعليم ووسائل الاتصال من أهم الأدوات لتكريس السيطرة. واحدى النتائج التي تنجم عن عملية الهيمنة *hegemonic process* هي أن غالبية السكان يصبحون غير مدركين لوجود خيارات بديلة من القيم وقراءات أخرى مختلفة للتاريخ (Sallach, 1974: 41).

وسع غرامشي مفهوم الأيديولوجيا الماركسي بقوله أن "الانسان ليس محكوماً بالقوة وحدها وإنما بالأفكار" لتتحول "الأفكار" إلى عنصر توحيد *social cement*أي عنصر تقوية وتماسك يمتد تأثيره أبعد من الطبقة السائدة. وهنا يذكر غرامشي ما يسميه "الأيديولوجيا العضوية للطبقات المستغَلة" بالمعنى التاريخي، عن طريق تطويره لمفهوم الهيمنة *hegemony* التي يعتبرها أداة لفهم المجتمع بغية تغييره. "فبالنسبة له لا تستطيع أية طبقة أن تصل إلى الزعامة القومية وتصبح طبقة مهيمنة إذا حصرت نفسها في إطار مصالحها الطبقية، وبالتالي يجب عليها أن تأخذ بالحسبان مطالب ونضالات الناس الشعبية والديمقراطية وليس الطبقية فقط [...] بما يساعد في توحيد مجموعة من القوى الاجتماعية المختلفة في تحالف ديمقراطي عريض يعبر عن الارادة القومية – الشعبية المشتركة" (الحسيني 2001: 31). تلعب الأيديولوجيا هنا دوراً مختلفاً: "دور الاسمنت أو القوة" التي توحد الطبقات والقوى الاجتماعية المختلفة. ويشدد غرامشي على مادية الأيديولوجيا "وبالتحديد على وجودها المادي في ممارسات الأفراد الإجتماعية. إذ أن الأيديولوجيات، برأيه، ليست تصورات فردية، أو "نسقاً متعالياً من التصورات"؛ بل تتجسد في طوائق الحياة والممارسات المشتركة الجماعية.

وينطلق غرامشي في فهمه للعلاقة بين الأيديولوجيا والأفراد الذين يتأثرون بها مما يسميه "الحس المشترك" وهو الطريقة غير الانتقادية واللاواعية إلى حد كبير التي يدرك المرء فيها العالم إدراكًا غالباً ما يكون مشوشاً ومتناقضاً، ممزوجاً بالفلكلور والخرافات والتجارب الشعبية، وهو يقترح بلورة

"النـواة الجيـدة" لـذلك الحـس (الحسـيني، 2001: 32–33) ويعتقـد معظمنـا أن "الحـس المشـترك" *common sense* يمثل ما هو صحيح ومألوف بصورة واضحة ولكل شخص. **وبهذه الطريقة تُحكم الطبقات السائدة سيطرتها على الشعب، ليس من خلال القوة والإكراه وإنما من خلال فكرة "الحس المشترك" الذي يضمن خلق أفراد وجماعات تستسلم بإرادتها لقبول الواقع على سوئه وتوافق بشكل عفوي على هيمنة الطبقة المسيطرة على الحياة الاجتماعية.**

باستعراض سريع للحالة الفلسطينية، نلاحظ أن منظمة التحرير التي تشكلت في الخارج وضمت مجموعـة مـن الفصـائل الفلسـطينية بعـد 1967 ونظـراً لطبيعـة الصـراع كـان الكفـاح المسـلح هـو الأيديولوجيا المهيمنة حينها،[70] بل كانت هيمنتها تسمح لها بالفرادة بحيث اعتمدت المقاومة الكفاح المسلح، تقريباً، دون الأشكال الأخرى للمقاومة. وهذا ساعد على هيمنة القيادة الفلسطينية التي أسمت نفسها "الشرعية"، بما يعزز دورها المهيمن على فئات واسعة من الفلسطينيين الذين كانوا يرتبطون مع مؤسساتها المختلفة: المثقفين، القطاعات العمالية والطلابية والاتحادات المختلفة. "ليعطي العمل الوطني الفلسطيني صورة عن قلب العلاقات بامتياز: تبدأ المؤسسة من وطن ومشروع وطني وتعيد في تحولاتها السلطوية تنظيم العلاقات، فتصبح المؤسسة هي البدء والوطن علاقة تابعة." (دراج، 1996: 29).

وهنا نتساءل ما هي المسافة التي يمكن للذات الفاعلة أن تجتازها بتفكيرها مبتعدة عن أفكار الأيديولوجيا/ الأيديولوجيات المسيطرة؟

يأتي ألتوسير ليجيب أنه في المجتمع الرأسمالي الحديث من الصعب هروب الذات الفاعلة من بين فكي كماشة أجهزة الدولة –القمعية والإيديولوجية– التي تفرض على الذوات الفاعلة تبني الأفكار المهيمنة على أساس أنها أفكارهم هم، وبهذا المعنى فالأيديولوجيا تتخذ صفة الأبدية والشمولية التاريخيـة (Althusser, 1971: 150). وسـّع ألتوسـير تـأثير الأيـديولوجيا مـن حيـث الوظيفـة والمؤسسات. فمن حيث وظيفة الأيديولوجية، حددها ألتوسير بإعادة انتاج علاقات الانتاج وتأمين اصطفاء الكل الاجتماعي عن طريق عملية استدعاء *interpellation* الأفراد من أجل أن تشكلهم كذوات يدركون أنفسهم ويخضعون بحرية لنظام قائم، وبهذا تسمح الأيديولوجيا للذوات بتنفيذ المهام المحددة لهم، وتساعدهم على تحمل مواقفهم. ومن حيث المؤسسات، وسّع ألتوسير أجهزة الدولة الأيديولوجية التي كانت حسب الماركسية تقتصر على الحكومة والجيش والبوليس والمحاكم والسجون وهذه أطلق عليها اسم جهاز الدولة القمعي. ولكنه أضاف إليها كومة من المؤسسات، جزء كبير منها تابع للقطاع الخاص وأطلق عليها مسمى "أجهزة الدولة الأيديولوجية" على اعتبار أنها تهيمن على

---

[70] في هذا السياق يمكن الاشارة إلى ألتوسير الذي دفع نظرية الهيمنة باتجاه توضيح دور الإيديولوجيا في تثبيت الهيمنة. يحاجج ألثوسير: "بأنه ما من طبقة قادرة على الامساك بالسلطة لفترة طويلة دون أن تمارس في الوقت نفسه هيمنتها على وفي الجهاز الإيديولوجي للدولة". وعليه، فان بوسع الطبقة ان تمسك بسلطة الدولة ولكن كي تتمكن من الاحتفاظ بها، لا بد لهذه الطبقة ان تمارس تأثيرها الإيديولوجي من خلال جهاز الدولة الإيديولوجي. *Althusser,* Lenin and Philosophy, NLB Publications, 1971, pp 141-150,

الأفراد بواسطة الأيديولوجيا بشكل رئيسي والقمع بشكل ثانوي. وبالنسبة لألتوسير لن تستطيع الطبقات المستغَلة التخلص من الأيديولوجيا إلا بمساعدة العلم وقد أشمل غرامشي ضمن أجهزة الدولة الأيديولوجية المؤسسات الدينية والتعليمية والعائلية والحقوقية والسياسية والنقابية والاعلامية والثقافية بما لا يترك للفرد مساحة للتفكير خارج خطاب هذه المؤسسات وأيديولوجياتها المسيطرة فيضمن احتفاظ النظام الرأسمالي المسيطر بتجديد إنتاج وسائل الإنتاج وقوة العمل المؤلفة من أفراد مهيأين لقبول النظام.

والمهم في هذا النوع من السيطرة أن القبول بأفكار الطبقة المهيمنة، وإن بدا عفوياً، لا يتم استجابة لرغبات الأفراد المُهيمَن عليهم وحاجاتهم، حيث تتغلغل هذه الأفكار إلى أذهان الأفراد بطرق تبدو طبيعية كونها لا تستخدم العنف المباشر كما يحدث في العملية التعليمية: "إن أي نشاط تربوي هو موضوعياً نوع من العنف الرمزي، وذلك بوصفه فرضاً من قبل جهة متعسفة لتعسف ثقافي معين. وتسهم جميع الأنشطة التربوية، التي تمارس في نطاق مختلف الجماعات أو الطبقات في توطيد هيمنة الطبقة الغالبة." (بورديو، 1994: 10). فكما وصفها بورديو، تُعتبر التربية، بسبب الإيقاع البطيء جداً الذي يميز تغير النشاط التربوي، أداة رئيسة لتأمين الاستمرارية التاريخية لمعاودة إنتاج التعسف الثقافي من خلال عملية التطبع التربوي الـ *habitus* القادرة على إطلاق ممارسات مطابقة لنموذج هذا التعسف.

وبالنظر إلى مجتمعي الدراسة في هذا البحث: مخيم اليرموك ومخيم قلنديا، يتضح أن هناك فرق في المصادر التي ترسم الأفكار المهيمنة في المكانين، فعلى سبيل المثال هناك فرق في المناهج المدرسية التي تعرض لها المبحوثون أو الرواة في فلسطين وتلك في سوريا. والمنشأ الأساسي لهذا الفرق قد يكون مدى السيطرة والتحكم الذي تمارسه القوى المسيطرة في المكانين ومصالحها وارتباطاتها بالقوى الخارجية. فنظام التعليم السوري يُدار باشراف السلطات السورية الحاكمة، وهذه وإن كانت تتعرض لضغوط خارجية وداخلية اليوم، إلا أن مضمون المناهج مكتوب باشراف مركزي، وبالاطلاع على نماذج الكتب والمواد يلاحظ أنه تم إعداد كتب التاريخ والقراءة، خاصة للمراحل التأسيسية، في سنوات السبعينات والثمانينات، في الفترة التي كان فيها الخطاب السوري تجاه فلسطين هو خطاب يدعو إلى التحرير ويعتبر اسرائيل احتلالاً يجب مقاومته. أما في فلسطين، فالوضع أكثر تعقيداً. فالمبحوثون الذين قابلتهم تعرضوا لأكثر من منهاج في الفترات المختلفة. قبل توقيع اتفاقيات أوسلو، كانت السلطات الاستعمارية الإسرائيلية تتحكم بالنظام التعليمي من خلال فرضها كتب المناهج الأردنية في الضفة وكتب المناهج المصرية في غزة. بالإضافة إلى أن السلطات الإسرائيلية كانت تقوم بفرض رقابة صارمة على مضمون المناهج المكتوبة من جهة وتقديم المدرس لها من جهة ثانية، كما أوضح لي بعض المبحوثين. وتم تنفيذ مشروع بناء منهاج فلسطيني بدءاً من سنة 1998، وفقاً لما سمحت به اتفاقية أوسلو للفلسطينيين من حقوق تسمح لهم بادارة شؤونهم المدنية التي تشتمل على ادارة العملية التعليمية. وحسبما تبين بعض التقارير التي راجعت المناهج لأغراض مؤسساتية أو بحثية، فإن فلسطين في كتب المناهج الفلسطينية ظلت غامضة من حيث الحدود الجغرافية والسكانية

بما يمنع اصطدام السلطة الفلسطينية مع الدول الراعية لمشروعها: مشروع دولتين تعيشان بسلام جنباً إلى جنب.[71] وكنت قد فكرت، في بداية بحثي، باجراء مقارنة بين المنهاجين في محاولة لتحديد الفروقات بينهما ومقارنتها بالفروقات بين روايات المبحوثين في المكانين، لما يشكله التعليم والمدرسة تحديدا من اشكالية باتفاق العديد من المنظرين (غرامشي، وألتوسير، وبورديو) كما أشرت أعلاه. فبتعبير ألتوسير، ليست المناهج مكاناً محايداً كما تحاول الإيديولوجيا المسيطرة أن تصورها بل أنها حلت مكان الكنيسة لتلعب دوراً حاسماً في تجديد انتاج علاقات انتاج نمط معين من الانتاج مهدد في وجوده بصراع طبقي عالمي. وبما أن الأفراد هم القوة الرئيسية للانتاج، فيتوجب اعدادهم اعداداً جيداً ليؤدوا دورهم في سوق العمل في المجتمع الرأسمالي، وهنا يأتي دور التربية والتعليم، وأهم مؤسسة فيها وهي المدرسة التي صنفها ألتوسير على أنها من أهم أجهزة الدولة الأيديولوجية، لا سيما أنها الجهاز الوحيد الذي يتمتع بمستمعين مكرهين، خمسة إلى ستة أيام أسبوعياً، وثمان ساعات يومياً (ألتوسير، 1981: 97). لهذه الأهمية، أحضرت بالفعل نماذجاً من كتب التاريخ والقراءة والنصوص الأدبية التي تُدرس في سوريا، واكتشفت أنها في الغالب نفس النصوص التي درستها شخصياً، واطلعت سريعاً في مكتبة مؤسسة القطان على بعض كتب المناهج الفلسطينية فوجدت فروقات أساسية في صياغة فلسطين في المنهاجين من حيث الكم والنوع بما توقعت أن يترك أثره على صورة فلسطين في روايات المبحوثين في المكانين، لكني اكتشفت فيما بعد أن هذه المقارنة، كي تكون دقيقة، تتطلب جهداً كبيراً، وبحثاً منفصلاً لن تسمح حدود بحثي الأكاديمي اليوم بانجازه. إضافة إلى أن الاعلام اليوم، بوجود الفضائيات 24 ساعة في كل بيت، يلعب دوراً مماثلاً في التأثير، يحتاج فحصه إلى بحث أكبر أيضاً، ناهيك عن تداخل هذين العاملين بتأثير الأهل والتجارب الشخصية للمبحوثين، مما يجعل من الصعب عزل تأثير كل عامل بمفرده في تشكيل رواية اللاجىء/ة. فعدلت في النهاية عن هذا الربط، لصالح التركيز على مضامين الروايات ومحاولة تحديد العوامل المشتركة بينها وبين الرواة الذين ينتجونها، والتي تُسهم، إلى حد معين، في الاحاطة بالأيديولوجيا/ت المهيمنة في الرواية–ات.

تفيد روايات المبحوثين المعروضة في الفصلين الثالث والرابع، أن الإجماع الذي نتحدث عنه ليس شاملاً للفلسطينيين. والسؤال الذي يقفز إلى الذهن هنا هو: هل أن عدم اكتمال الإجماع، ناجم عن ضعف الهيمنة؟ أم هو ناجم عن شدة الصراع وامتداده؟ فالصراع مع المستعمر الإسرائيلي ما زال مستمراً، على الرغم من تغير وتيرته على الأرض، بما يتناسب وحاجات الأطراف الأقوى بالطبع. قد يكون في قول سالاش جزء من الجواب: "إن عملية السيطرة *hegemony* لا تخلق اجماع قيمي *a value consensus* بل بالعكس تخلق ارتباك، تشتيت، ولا معيارية تجاه أنظمة القيم. يقدم سالاش تفسيراً للتناقض الذي يسود وسط الجماهير العريضة بتأثير الهيمنة فيقول أن ما نراه من تناقض لدى الجماهير العريضة بين: "حالة التشتت والارتباك الذي يشوب وعيها وادراكها للقيم، وحالة التماهي

[71] لمزيد من التفاصيل راجع كتاب المنهاج الفلسطيني: اشكاليات الهوية والمواطنة: من اصدارات مواطن 2008. وتقرير اليونسكو المنشور على الانترنت بعنوان "Studies on the Palestinian Curriculum and Textbooks" على الرابط: http://unesdoc.unesco.org/images/0015/001515/151551e.pdf .

مع المعايير الأيديولوجية التي وضعتها الطبقة المسيطرة التي تظهر في نقاشات هذه الجماهير وجدالاتها ليست إلا وجهين لعملية الهيمنة نفسها، بحيث تبرز الحالة الأولى كنتيجة للثانية" (Salach, 1974: 42).

أو ربما يكون الجواب ببساطة، مقاومة اللاجئين للهيمنة بالرفض أو بالحيلة وهي احدى أشكال المقاومة التي ينتجها الخاضعون الموجودون داخل أنظمة السيطرة (جماعات وأفراد) للرد على القمع والاستلاب الذي يتعرضون له من قبل البنية المسيطرة ويسميها جيمس سكوت "المقاومة بالحيلة". حيث يميز سكوت بين الخطاب المعلن والخطاب المستتر. فيُعرِّف الخطاب المعلن: كطريقة مختصرة تُبرز التبادل المعلن بين الخاضعين والذين يهيمنون عليهم. فينشأ أساساً من الصورة الذاتية التي ترسمها النخب المسيطرة لنفسها، راغبة منها أن تكون الصورة التي تُرى بها. وبالنظر إلى قدرة النخب المسيطرة على اجبار الآخرين على أداء ما تريد منهم أن يؤدوه _من خلال أجهزتها القمعية والأيديولوجية[72]_ فمن الواضح أن خطاب الأداء العلني، خطاب غير متساوق. لقد توخي منه أن يكون مؤثراً، وأن يؤكد على قوة النخب المسيطرة ويعطيها سمة طبيعية. فلئن كان على هذه الصورة الذاتية المادحة، أن تمارس سلطة فصاحة على الخاضعين، سيترتب على ذلك وبالضرورة أن يكون ثمة شيء من التنازل لما فيه مصلحة هؤلاء الخاضعين المفترضة. بمعنى أن الحكام الذين يتطلعون إلى الهيمنة، بالمعنى الغرامشي للكلمة، يتوجب عليهم أن يصيغوا بعداً إيديولوجياً يجعل حكمهم إلى حد ما، وكأنه يتماشى مع مصلحة محكوميهم. في المقابل، دائماً ما يكون مثل هذا الزعم مغرضاً، لكنه نادراً ما لا يكون له صدى بين الخاضعين أنفسهم (سكوت، 1995: 34).

من جهة ثانية يتكون الخطاب المستتر، وفق تعريف سكوت، من الأقوال والأفعال والممارسات التي تتبدى خارج المسرح لتأكيد، أو معارضة أو الانحراف عن الخطاب المعلن:

> "الأداء أو الخضوع الذي يُفرض على الأكثرية الساحقة من البشر للقوى المسيطرة سواء كانت السلطة الحاكمة أو الحزب أو رب العمل، باختصار إلى أي جهة مهيمنة وتملك السلطة التي يبدي الفرد خضوعه العلني لها انطلاقاً من مشاعر الحذر والخوف والرغبة في نيل الرضى، بشكل يستجيب لما يتوقعه صاحب السلطة" (سكوت، 1995: 14).

وهنا يأتي سكوت بمصطلح السياسة التحتية *infrapolitics* للجماعات الخاضعة والتي بحد تعبيره تتحدد بوجود تنويعة عريضة من أشكال المقاومة تحتية السمات، التي لا تجرؤ على إعلان ماهيتها بوضوح (سكوت، 1995: 36). وهي لا تتوقف على الخطاب المستتر الذي يستخدم أسلوب الشائعات والقيل والقال والذكات باعتبارها أدوات يمكن أن تسرب نقداً للسلطة وإنما تتجاوزه إلى الممارسات، أو ما يسميها سكوت، التصرفات السياسية المتنكرة، أو الممارسة خارج المسرح للمقاومة العملية التي تقودها الجماعات المضطهدة (سكوت، 1995: 11).

ثالثاً: مدخل لقراءة ملامح الاغتراب في الروايات الفلسطينية

---

[72] كما أوردت في هذه المراجعة عن ألتوسير سابقاً.

يتبين من روايات اللاجئين الذين قابلتهم، أن الراوي منقطع عن المكان، محروم من وصوله، مغرَّب، يشعر بالعجز والارتباك وإن بدرجات مختلفة. لذا وجدت أنه سيكون من المفيد قراءة الروايات باستخدام مفهوم الاغتراب القسري كإحدى آليات الفهم النظري للحالة الفلسطينية.

وبمراجعة مفهوم الاغتراب يتبين أنه لا يوجد تعريف واحد جامع لمعنى المفهوم، حيث يستخدمه علماء الاجتماع والفلاسفة والكتاب للاشارة إلى حالات مختلفة يعاني منها البشر أفراداً و/أو جماعات. لكن على الرغم من اختلاف العوامل المسببة للاغتراب، برأي المنظرين، يبدو أنه في النهاية يوصل الانسان و/ أو الجماعات إلى نتيجة واحدة هي "العجز" *powerlessness and helplessness*[73] وقد لا يعي الانسان حقيقة عجزه، على حد تعبير حليم بركات (2006)، كما أنه قد لا يعي حقوقه، وإن وعاها ربما سوغها إيديولوجياً باسم الحزب أو الدين أو العائلة. "يتكون لدى الانسان المغترب تدريجياً احساساً بعدم الرضى عن علاقاته بالمجتمع والدولة والمؤسسات التي ينتمي إليها، فيرفض الأنظمة والثقافة السائدة، ويسعى ليس لتغييرها عن طريق المشاركة في الحياة السياسية، بل للهرب منها عند أول فرصة من مشاعر عدم الرضى والقلق والغضب والخوف والنفور من كل شيء. كل ذلك يحصل نتيجة الظلم الذي يتعرض له في حياته اليومية" (بركات، 2006: 14).

وجدت خلال قراءتي لصورة فلسطين في روايات المبحوثين الذين قابلتهم، وجود حالة أو بالأحرى حالات اغتراب يستعصي وصفها بشكل محدد من ضمن أشكال الاغتراب التي ذكرها المنظرون. لذا كان من الأنسب مراجعة التعريفات النظرية المختلفة للاغتراب، وربطها فيما بعد بحالات الاغتراب التي تظهر في روايات المبحوثين. أورد فيمايلي بعضاً من هذه المعاني التي وجدتها تنطبق على الحالة الفلسطينية بشكل أو بآخر كما يتضح في استعراضي لروايات المبحوثين في الفصلين الثالث والرابع.

إن أحد التعريفات التأسيسية للاغتراب يأتي من ماركس الذي تأثر بهيغل وفيورباخ في تقديمهما للمفهوم، لكن تأتي مساهمة ماركس في تحويله "الاغتراب" من مفهوم فلسفي إلى مفهوم اجتماعي _ اقتصادي[74]. بالنسبة لماركس، ينتج الاغتراب عن الاستغلال، ويستخدمه كأساس لتحليل وضع العامل في ظل النظام الرأسمالي: "العامل في النظام الرأسمالي مغترب لأنه لا يعمل من أجل نفسه بل من أجل غيره، حتى إنه يفقد القدرة على تحقيق ذاته في العمل، بل إنه على العكس ينكر ذاته" (بركات، 2006: 42). فالاغتراب بالنسبة إلى ماركس هو حالة عامة في المجتمعات الرأسمالية التي تحول الانسان إلى كائن عاجز وسلعة بعد أن اكتسبت منتجاته قوة مستقلة عنه ومعادية له. ويطلق ماركس على عملية التحول هذه fetishism of commodities[75] فيتيشية السلع أو صنمية البضاعة حين تتحول البضاعة التي أنتجها الانسان بقوة عمله وجهده الذهني واليدوي إلى صنم يعبده ويتمناه، وبهذا

---

[73] بحسب تعبير هيغل وماركس. (cited in Herbert Marcuse, Reason and Revolution, New York: Oxford (University Press, 1941, page 34 and 273

[74] In his books Critique of Hegel's "Philosophy of Right" and Economic and Philosophic Manuscripts of 1844 (as quoted in Barakat, 2006: 39).

[75] In Capital, 1967.

يحدد النظام الرأسمالي العلاقات الانسانية من خلال السلع المتبادلة بين البشر، ولا تتحدد مكانة الأفراد الاجتماعية، بذاتها، بل بموجب قيمة السلع التي يملكونها. "يمكن توسيع تعريف ماركس لمفهوم الاغتراب من تغريب الفرد عن عمله إلى فقدان الإنسان لأنسنته، ليساعدنا هذا في قراءة الوضع الفلسطيني المغرّب كليته وعموميته. فلا ينحصر فقدان الأنسنة في تشيؤ جهد العامل، وإنما يمكن تطبيقه على الحالة الاستعمارية في فلسطين، حيث الاغتراب عن وسيلة البقاء الأولية: الوطن وحق التواجد في المكان والجنسية وفرص الانتماء والهوية" (سمارة، 2009: 27). ويمكن قراءة الوصف العملي لهذه الحالة من الاستلاب أو التشيئية المصاحبة للممارسات الاستعمارية في كتاب إيمي سيزار Discourse on Colonialism:

> "لا يسمح الحيز الموجود بين المستعمِر والمستعمَر بوجود شيء غير: العمل القهري، والاكراه بالتهديد المستمر، والضغط، والبوليس، وفرض الضرائب، والسرقة، والاغتصاب، وزراعة المحاصيل المفروضة قسرياً، والاحتقار، وانعدام الثقة، والغطرسة، والرضا الذاتي المتواكل، والخنزرة، ونُخَب بلا عقل، وجماهير مهانة. لا يتيح هذا الحيز مجالاً لتطور علاقات انسانية، وإنما يطور علاقات قائمة على الهيمنة والخضوع تحول الانسان المستعمِر إلى مراقب للتعليم الذي يتلقاه المستعمَر في صفوف الدراسة، ورقيب في الجيش، وحارس سجن، وسائق عبيد، بينما يتحول الانسان الأصلي المستعمَر إلى أداة للانتاج. الاستعمار = التشييئية" (Césaire, 1972; as quoted from Williams and Chrisman, 1994: 177).

إن الحالة الفلسطينية اليوم لا تعاني من تشتت مكاني فقط وإنما من تشتت سياسي ينجم عنه حالة من الفوضى في المعايير، كتلك التي وصفها دركهايم من خلال مفهوم الـ *anomie* أو *normlessness* ليعبر عن تفكك القيم والمعايير الاجتماعية والثقافية، وفقدانها السيطرة على السلوك الانساني وضبطه. "يشير المصطلح إلى حالة من تدهور المعايير التي تضبط العلاقات الاجتماعية، لتهدد الاحساس بأهمية التضحية في سبيل المجموع، إذ تستعمل الفئات القوية وسائل غير عادلة في فرض إرادتها على الفئات الضعيفة، ما يهدد التماسك الاجتماعي بالوصول حتى إلى درجة التفسخ والنزاع" (بركات، 2006: 44). وتنشأ هذه الحالة من التدهور في المعايير عن الانفصام الذي يعيشه الفلسطينيون بين الخطاب الرسمي الذي يعيد تشكيلهم كمواطنين يعيشون في دولة بكامل أجهزتها: الأمنية والسياسية والتعليمية وبين الواقع المعاش الذي يذكرهم في كل لحظة بواقعة اقتلاعهم من أراضيهم ليتحولوا إلى لاجئين في مخيمات لا تبعد أحياناً سوى كيلو مترات عن قراهم وبلدانهم الأصلية التي أصبحت ككل المستعمرات ملكاً للقادمين من أمكنة بعيدة. فالواقع الاستعماري لم يتغير: لم تعترف اسرائيل بمسؤوليتها في تشريدهم وسرقة أراضيهم في الوقت الذي كان على الشعب الفلسطيني أن يقبل باعتراف قيادته باسرائيل، الاعتراف الذي يعني ضمنياً انتفاء حقهم في بلادهم. فاسرائيل لا تتوجد إلا بمحي القرى والمدن العربية التي ينحدر منها هؤلاء اللاجئين. ويتم تسويق هذا المشروع ضمن الخطاب الرسمي بالواقعية السياسية، والممكن، والحل التكتيكي، كما يتضح في روايات النمطين: المأسور بالمشهد المحيط والواقعي السياسي؛ بينما لا يزال اللاجئون في الداخل لاجئين وفوق هذا ما زالوا يعيشون حالة استعمارية غالباً ما تكون أشد وطأ عليهم مما هي على سكان المحيط، وهذا ما يفسر الازدواجية في التفكير لدى معظم روايات هذين النمطين.

وهناك نمط ثالث للاغتراب من وجهة نظر هايدغر،[76] ينتج عن الوجود المزيف الغارق في الحاضر الذي تحدده الاعتبارات والعادات، لا اختيار الانسان نفسه بنفسه. بالنتيجة يغرق الانسان في عالم الآخرين، فينفي وجوده ويصبح واحداً من الآخرين. يؤكد هايدغر أن وجود الانسان يكون أصيلاً authentic بقدر ما يتحكم باختياراته وبقرارات حياته ويعي واقعه ويعرض نفسه للأزمات الوجودية ويخترق عالمها الخفي. "يكون وجود الانسان أصيلاً بقدر ما يختار ويصنع قراراته بنفسه وبمعزل عن التقاليد المتبعة" (Heidegger, 1962 as quoted in Halim Barakat, 2006: 46) . وتظهر أثار هذه الحالة من الاغتراب في روايات النمط الواقعي السياسي، كما يظهر في الفصل التالي.

ويأتي سارتر بمفهومه الخاص عن الاغتراب، فهو برأيه ناتج عن النفي أو الوجود العدمي حين تفقد الحياة معناها. والنتيجة أن الانسان يغترب عن نفسه، ليس فقط في مواجهة العدم، بل أيضاً في علاقته مع الآخر. إنه في هذه الحالة ينظر إلى نفسه كما يراها الآخرون، فيستحيل إلى موضوع ويصبح الإنسان الآخر هو المرآة التي يرى نفسه فيها، ليس كفاعل، بل كمنفعل بالوجود. كما أن الآخر في حالة الاغتراب لا يراه كإنسان حر يملك إمكانيات خاصة، بل يكتفي برؤية أوصافه الخارجية. إن المعضلة الأساسية هنا هي الحرية، فالمهمة الأولى للإنسان في هذه الحالة هي أن يؤكد حريته ويسلك طريقه الخاص (Sartre, 1943 quoted in Barakat, 2006: 47). وهذا ما يظهر في رسائل سارتر إلى سيمون دي بوفوار في فترة النازية في أوروبا: "أعتقد بأننا منعزلون وبدون قوة!... يجب أن نتحد، وننظم حركة مقاومة" (دي بوفوار، كما ورد في كتاب عمراني[77]: 21). ومن ثم في تقديمه لكتاب معذبو الأرض حيث يتفق مع كاتبه فانون في فهمه للاستعمار كاستلاب لانسانية الانسان وفي ايمانه أن المخرج الوحيد من هذا الضياع والاغتراب هو المقاومة كما يقول:

> "إن العنف الاستعماري لا يريد المحافظة على اخضاع هؤلاء البشر المستعبَدين وإنما هو يحاول أن يجردهم من انسانيتهم. إنه لن يدخر جهداً من أجل أن يقضي على تقاليدهم، فإذا ظلوا يقاومون رغم الجوع والمرض فلسوف يتولى الخوف القيام بالمهمة: لسوف تصوب إلى الفلاح بنادق، فإذا قاوم أطلق الجنود النار، فأصبح ميتاً، وإذا خضع انهار، ولم يعد انساناً. لسوف يمزق العار والخوف خلقه، لسوف يحطمان شخصه [...] اقرأوا فانون لتعلموا أن جنون القتل إنما هو اللاشعور الجمعي للمستعمَرين في زمن عجزهم" (سارتر، كما ورد في مقدمته لكتاب فانون، 2004: 21-24).

ويحدد حليم بركات موقع الانسان الموضوعي في البنية الاجتماعية كأحد أهم العوامل في اغترابه أو عدمه. فالاغتراب ينشأ نتيجة حرمان الأفراد من حقوق المشاركة في مؤسساتهم ووسائل الانتاج في

---

[76] من الجدير ذكره أن هايدجر، بالرغم من كونه فيلسوفاً، إلا أن هذا لم يمنع تعصبه لألمانيته: "**[...]** هايدجر متعصب أيما تعصب ليس "لغربيته" فحسب، بل لألمانيته أيضا مما جعله يعلن أن فعل التفلسف لا يمكن أن يتم حقا إلا بلغتين هما اليونانية والألمانية. وليس أكثر دلالة على تعصبه هذا أكثر من كونه أبرز المفكرين الألمان الذين تعاطفوا مبكرا مع النازية وأيدوها مما أوصله عام 1933 إلى شرف من نوع معين: أول رئيس "قومي اشتراكي" (أي نازي) لجامعة فريبورغ. وألقى هايدجر بمناسبة استلامه هذا المنصب، محاضرة شهيرة حول "دور الجامعة في الرايخ الجديد" مجّد فيها اشراقة شمس ألمانيا الجديدة والعظيمة، أما كتابه المنشور عام 1953، "مدخل الى الميتافيزيقا" فقد دعا أمته –الأمة المركز على حد تعبيره- الواقعة بين مطرقة همجية المجتمع الروسي وسندان همجية المجتمع الأميركي، إلى تحقيق رسالتها التاريخية والنهوض بمهمة تجديد البداية العظيمة للفكر الغربي – وهي المهمة التي لا يستطيع النهوض بها أي طرف آخر غير الشعب الألماني- وإنقاذ الإنسان والوجود نفسه من حال العدمية والتردي التي وصلا إليها" (العظم، 1992: 110-111).

[77] كتاب بعنوان "جان بول سارتر والثورة الجزائرية" تأليف عبد المجيد عمراني في جامعة الجزائر وأعادت طباعته وإصداره مكتبة مدبولي في مصر (1996).

العمل، وقدراتهم على التمسك بحقوقهم والمشاركة في سبل تغيير أوضاعهم بالاتجاه الذي يريدون في سياق القوانين العامة التي يسهمون في وضعها أصلاً، ومدى قدرتهم على العمل من ضمن أحزاب وحركات أو منظمات اجتماعية ناشطة. ويحدد بركات مصادر الاغتراب بمستواه الاجتماعي: "بسبب عجز المجتمع نفسه من حيث محدودية تحكمه بموارده ومصيره، إذ قد تتحكم فيه قوى خارجية، وكثيراً ما يحصل ذلك بدعم من تحالف بين قوى داخلية تُعنى بمصالحها الخاصة على حساب المجتمع ومؤسساته ومواطنيه، وقوى خارجية تسعى لإنشاء إمبراطورية قوية [...] ويتجلى هذا العجز بشكل ظاهر في السيطرة الخارجية وسلطوية الأنظمة السائدة. مثل هذه الأوضاع تحد من مشاركة الشعب الفعالة في صنع مصيره، وحماية نفسه من الاعتداءات على حقوقه وكرامته، فيعيش متستراً بحُجب كثيفة، ويحن إلى الهجرة إلى مجتمعات أخرى. وكثيراً ما تعمق مثل هذه الأوضاع الاتباعية، والتسويغ، والتمسك بالوسائل بمعزل عن الأهداف الجوهرية، والفصل بين المعنى والشكل، والرمز ومدلولاته" (بركات، 2006: 60-61).

تنطبق قراءة حليم بركات على الوضع الفلسطيني بما هو جزء من الوضع العربي العام، لكن لا يمكن دراسة الحالة الفلسطينية بعيداً عن عامل الاقتلاع والتشتيت الذي تعرض له المجتمع الفلسطيني، خاصة حالة اللجوء المدروسة هنا. في هذا السياق قدم عادل سمارة قراءة لوضع الفلسطينيين في تقاطعه مع الاغتراب: "ليس كحالة سياسية/ شاملة شعبياً بل كحالة إنسانية ثقافية أيضاً [...]. إن التبعثر المتعدد هو عامل ذفي لتجميع الهوية أو معيق لها مما يتطلب جهداً هائلاً [...]. فما بقي مشتركاً بين الفلسطينيين هو العامل السياسي (الوطني/القومي) لأنه حالة متخيلة، أكثر مما هو تجسيدات على الأرض، هو محمول يمكن الانتقال به بعد الطرد من الوطن/ وهذا يُمكّن الفلسطيني من الحياة، هو حالة متخيلة أقيمت على وجود أرض لها صورتها التي تشكل مدخلا لاستعادتها. إذا كانت الثقافة إذاً خلقا إنسانياً من خلال العمل، فإن ثقافة أي مجتمع هي من خلقه، وعليه، يكون طرد الفلسطيني من وطنه هو عملية تغريب عن الثقافة أيضا، ونقصد بالثقافة هنا مجموع الوجود والعمل التاريخي مادياً وروحياً في المكان وليس فقط في التاريخ كزمان، للشعب الفلسطيني في وطنه، كما هو حال أي شعب آخر في وطنه. ولو حاولنا دفع التحليل إلى مداه، لتبين لنا عمق التغريب الفلسطيني حيث أنه بعد التغريب-الاقتلاع، والمقصود به اقتلاعاً أبدياً وجماعياً عن الوطن، فُرض على الفلسطيني معاناة من اغتراب متعدد. فخلال عملية الاقتلاع من الوطن، صار الفلسطيني مقتلعاً حتى من أي مكان، بما هو زائد عن حاجة المكان الذي لجأ إليه، بل هو حالة من التعْدية في نظر النظام السائد في كثير من أماكن اللجوء، وحتى لدى الكثير من الطبقات التي تتضرر مصلحياً من وجوده، أي شكّلت استعادته لذاكرته المُقاوِمة تحدٍ لمصالحها وارتباطاتها. فحين يغدو الصراع على الذاكرة، لا بد أن يتخذ شكلا أكثر تعقيداً، هو الاغتراب والتغريب مكتنفاً الثقافة ووسيلة العيش _استراتيجية البقاء_ والنشاط السياسي العلني وخاصة السرّي تفادياً للقمع البوليسي. إنه مركّب وأكثر تعقيدا من الطرد بالقوة والمقاومة بالسلاح. فالذاكرة هي الوطن المفترض الذي يرفض التشيؤ فردياً وجماعياً. من أجله وبسببه يقول المستعمِر وحلفاؤه مشكلتنا كيف نجتث الذاكرة بما فيها من صورة

ومتخيّلْ. وحين حصلت التسوية كان الهدف تغريب وعي الفلسطيني في الضفة والقطاع بخلق ما يغري الفلسطيني اللاجيء بما قد يفترضه وطنه: الوظيفة، والسلطة، والدخل غير المنظور، وأجهزة الأمن. (أوطان بصور متعددة) واعتماد هذه لتؤدي إلى اقتلاع الذاكرة، أو تنويمها (كالخلايا النائمة) إلى أن تموت بالنوم! نتحدث، في الوضع الفلسطيني اليوم، بعد أوسلو وتبعاتها أي تشتت المشروع الوطني واندحاره إلى الوراء لصالح الاضطرار لتدبير اليومي والمصلحي الفردي والفئوي. ليتراجع، ولو مؤقتا، الاغتراب الجماعي، ويطفو، أو يتولد عنه الاغتراب الفردي القلق جدا. وتراجع الاغتراب الجماعي ناجم عن نجاح إعادة هندسة المجتمع والقضية بما يذهب بالفرد إلى إشكالاته الخاصة، فيصبح وطنه هو المكان أولا، ويصبح ضمان المكان هو ما يعطي المكان جوهرانيته" (سمارة، 2009: 26–38).

وبمقاربة روايات اللاجئين هنا للمعاني المختلفة للاغتراب التي وصفها المنظرون والباحثون أعلاه، يتضح وجود ملامح من بعض هذه المعاني التي تتداخل أحياناً في أنماط معينة كما يظهر في تحليل أنماط الرواة في الفصلين الثالث والرابع.

مدخل لقراءة صورة فلسطين من الروايات التي جمعتها الدراسة الحالية

لم تتوفر لدي مسطرة تصنيفية جاهزة أقيس بها الروايات التي قمت بجمعها، لتمكيني من تصنيفها بما يساعد على رسم الخطوط الرئيسية المشكلة لصورة أو صور فلسطين التي أبحث في عوامل بنائها. من خلال القراءة الأولية لسرديات/ روايات اللاجئين لقصة لجوئهم، وحاضرهم في المخيم ورؤيتهم للمستقبل، لاحظت، أن مجمل الروايات التي قمت بجمعها يمكن أن تُدرج ضمن عنوانين رئيسيين، وذلك من حيث مضمون رواية "فلسطين" وموقع الراوي من أحداثها ودور الفاعلين فيها. حيث أفرزت الظروف المختلفة لنشأة اللاجئين وتجاربهم الحياتية وخياراتهم المادية والسياسية، روايات تختلف أحياناً في أبعاد معينة، وتتشابه في أبعاد أخرى.

بعد استماعي مجدداً للمقابلات، انتبهت إلى بعدٍ لا يتم أخذه بعين الاعتبار في دراسات التاريخ الشفوي التي راجعتها، وهو حضور الراوي وصوته وأسلوب كلامه، والذي وجدت أنه يلعب أيضاً دوراً في تحديد شكل الرواية. فمن خلال المقابلات الـ 82 التي أجريتها مع أشخاص مختلفين في الصفات (العمر، الدراسة، طريقة التفكير، الاهتمامات، العمل..)، وجدت أنه يمكن التمييز بين عدة أساليب لتقديم الرواية. ويرتبط هذا غالباً بمضمون الرواية، فهناك رواة يستخدمون أسلوباً خطابياً واضحاً يشبه أسلوب السياسيين في الخطب السياسية، فتميل رواياتهم في بعض أجزائها إلى الفصاحة، وتتداخل فيها لغة الشعارات مع لغة الراوي الانسيابية. وهناك رواة يميلون إلى الأسلوب الوصفي الشارح؛ فيتخلل سردهم لرواية فلسطين محاولات لتوضيح أحداثها، وشرحها بصوت يشعرك أنك أمام معلم في صف مدرسي. وهناك الأسلوب الذي سأسميه الإبداعي، والذي يشبه أحياناً الأسلوب الأدبي أو الحكائي، حيث يسرد الراوي روايته عن فلسطين من خلال قصص مشوقة تشبه الحكايات، أو باستخدام لغة رمزية كتلك المستخدمة في الأعمال الأدبية. وهناك أيضاً تنوع في الأصوات، فمنها

الحزين والغاضب واللامبالي والمتسائل والساخر والضاحك والباكي. لن أطيل الشرح هنا، لكني أردت الإشارة إلى هذا البعد الذي اختبرته كمستمعة للرواية، والذي من الصعب إيصاله إلى القارئ بالكتابة وحدها، على الرغم من محاولاتي لتفريغ المقابلات بالدقة التي تعكس هذا البعد، من خلال اللجوء إلى استخدام الأقواس وأدوات الترقيم في المواضع التي ضحك فيها الراوي أو استغرب أو صمت أو بكى.

أعود هنا إلى شرحي لكيفية توصلي للأنماط، فبعد تفريغي للمقابلات، وقراءتها عدة مرات، ومناقشة مضمونها مع أستاذي المشرف والصديقات والأصدقاء من حولي حينما أمكن، وباستخدام أدوات أسلوب النظرية المتجذرة، قمت بترميز مضامين الروايات بمساعدة برنامج الـ excel لكل مقابلة على حده، وباستخدام أمر الترتيب *sorting* وجدت أن هناك تقاطعات بين الروايات. كان دليلي إلى المحور الرئيسي في البحث وهو صورة فلسطين، الرواة أنفسهم، فقد تكررت أكثر من مرة عبارة: "صورة فلسطين الحلم أجمل من صورة فلسطين الواقع"، ومن هنا، بدأت بالاستشعار، فجعلت أقيس الروايات حسب اقتراب الراوي أو ابتعاده في تشكيل صورة فلسطين بما يشبه الواقع المهيمن أو الممكن، أو تلك التي تقترب من الحلم المُفترض أو المُراد. ووجدت، أنه يمكن بشكل عام، إجمال الروايات ضمن صورتين سأصطلح على تسميتهما صورة فلسطين الواقع وصورة فلسطين الأحلام. وسأستعرض، ضمن الفصلين الثالث والرابع، العناصر التي تبني الصورتين، من خلال تقديم مقتطفات من روايات اللاجئين الذين قابلتهم في المخيمين: 40 مقابلة في كل مخيم، وقراءتي الوصفية والتفسيرية لهذه الروايات.

وهنا، يجب أن أشير، إلى أنه لا يوجد حد تصنيفي قاطع للصورتين اللتين توزعت ضمنهما الروايات. فالواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي الذي يعيشه اللاجئون في المخيمين معقد، وتتجاذبه قوى ومتغيرات محلية ودولية عديدة، وهذه كلها تلعب دوراً في تشكيل وإعادة تشكيل روايات اللاجئين لماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم. بالإضافة إلى أن المؤثرات الثقافية، التعليم بشقيه المنهجي واللامنهجي، ووسائل الاعلام التي لا حصر لها، ودور الأهل واهتمامهم، تنعكس كلها في روايات اللاجئين. وبالتأكيد، فإن رواية المبحوث ستكون نتيجة لتداخل كل هذه العوامل، بما يجعل التصنيف الخطي مهمة مستحيلة. فالقارئ للروايات، سيلاحظ بوضوح، أن الواقع والحلم يختلطان في جميع الروايات.

لكن، يتبين بالقراءة الأولية، أن درجة الواقعية والحلم في الروايات تختلف بين راوٍ وآخر؛ فبينما يغلب صوت الواقع على همس الأحلام في بعض الروايات، نجد أن صوت الحلم يرتفع ليتجاوز الواقع في روايات أخرى. وهذا ينطبق على روايات اللاجئين في المخيمين. وبقراءة متأنية ثانية ضمن الروايات المشكلة لكل من الصورتين، استطعت تمييز عدة أنماط بين الرواة الواقعيين والرواة الحالمين، وكل نمط من هذه الأنماط ليس خطياً، فهناك تداخلاً وتقاطعاً بين بعض عناصرها ضمن الرواية، كما سأوضح في عرضي للصورتين ضمن الفصلين القادمين.

سأركز في استعراضي للصورتين الرئيسيتين والروايات الفرعية ضمنها على العناصر الرئيسية التالية:

- صفات الراوي: ضمن الأنماط المذكورة أعلاه، والتي توصلت إلى تحديدها بعد قراءة تحليلية للمقابلات، قمت خلالها بربط صفات المبحوثين الذين قابلتهم (ظروفهم الحياتية المادية وأعمارهم، وتجاربهم)، بمضامين رواياتهم (قصة البلد الأصلي، التهجير، المخيم، توقعاتهم المستقبلية، موقعهم من الأحداث والفاعلين الواردين في الرواية: المستعمرين، الدول العربية، المنظمات والسلطة الفلسطينية)، وبشكل هذه الروايات (اللغة والمفردات والصور المستخدمة).
- صفات الرواية: من خلال المقابلات المعمقة قمت بجمع روايات تختلف من حيث الطول والقصر والتفاصيل، وذلك حسب خبرة الراوي وتجربته وثقافته ورغبته في الحديث. وركزت في المقابلات على المحاور الأربعة التالية: المحور الأول: قصة البلاد واللجوء، الأحداث المفصلية التي تنطبع في ذهن الراوي من تاريخ القضية، البعد الجغرافي، المشاركة في التعبير عن المشاعر الوطنية؛ والمحور الثاني: المخيم، والانتماء له والرضى عن الحياة فيه؛ والمحور الثالث: الطموحات والتوقعات المستقبلية؛ والمحور الرابع: مصادر المعلومات؛ النصوص والكتابات والمؤثرات الإعلامية. سأركز في التحليل على تقديم أبرز خصائص الرواية مع تسليط الضوء على روايات الهزيمة والانتصار؛ وقصص المعاناة والاضطهاد وأشكال المقاومة بين اليومي والتاريخي.
- الشخصيات والأفكار الرئيسية في القصة: المخيم، اللجوء، إسرائيل والمشروع الصهيوني، الدول العربية، السلطة الفلسطينية.
- اللغة المستخدمة في الرواية: المفردات والصور المجازية.

الفصـــــل الثـــــــالث

صورة فلسطين الواقع

تتشكل هذه الصورة من مجموع 47 رواية يسردها الرواة في المخيمين،[78] بنسب متقاربة تقريباً بين المخيمين، حيث يبلغ عدد الرواة في مخيم قلنديا 26 مقابل 21 راو وراوية في مخيم اليرموك.
وجدت بين الرواة، الذين اصطلحت على تسمية رؤيتهم لفلسطين بالواقعية، أربعة أنماط:

1. النمط المحبط بين الرفض للواقع والتكيف معه: ظهر في روايات 24 راو وراوية، أغلبهم (17 راو وراوية) من مخيم قلنديا. تمتزج في روايات هذا النمط خيبة الأمل مع الرفض الواعي ولكن السلبي للواقع الموجود، لتقدم صورة لحياة الفلسطيني وقصة البلاد ضمن شرط استعماري، فتروي قصة الفلسطينيين مع الاقتلاع والتهجير واللجوء والحياة تحت الاحتلال. ويركز الرواة على أدوارهم في القصة التي تتراوح بين الرفض الإنسحابي من دائرة الفعل الاجتماعي، لتتدرج هذه الروايات ضمن فئة الاغتراب بأقسى صوره، فيبلغ الاحساس بالعجز واليأس مدى يشعر معه الرواة بالاغتراب الوجودي ويغترب الإنسان عن نفسه كإنسان يحق له العيش والعمل في شروط انسانية في وطنه ويرتفع منسوب الاغتراب حين يعجز الراوي عن مجرد التفكير بآليات مقاومة للشروط اللاإنسانية المفروضة عليه قسراً.
2. النمط المأسور بالمشهد المحيط: يبدو الراوي والرواية جزءاً من صورة تلفزيونية وتقرير صحفي و/أو خطاب حزبي يصف الواقع الفلسطيني؛ وتظهر هيمنة الخطاب الإعلامي و/أو الحزبي بوضوح في الروايات. (مجموع الرواة 12، أغلبهم (10) من مخيم اليرموك).
3. المنسحب من التاريخي إلى الواقع اليومي: يغلب اليومي والراهن على التاريخي، وتختزل الذاكرة عن البلاد وتغيب الرواية أحياناً بوعي أو بدونه. (مجموع الرواة سبعة يتوزعون بين المخيمين).
4. النمط الواقعي السياسي: يستند في روايته إلى قراءة واقعية للواقع الفلسطيني، آخذاً بعين الاعتبار موازين القوى واللاعبين الأساسيين في اللعبة السياسية. يبدو هذا الراوي مبرراً للواقع، أي ضمن إجماع الهيمنة الذي يعمل على تكوين الإجماع الذي يخدم أيديولوجيا السلطة الفلسطينية اليوم في بناء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. (مجموع الرواة أربعة، ثلاثة منهم من مخيم قلنديا).

تتميز روايات النمطين الأول والثاني بانسجام أكبر من حيث مضمون الرواية، فيبدو للقارئ أن هناك وضوح أكثر في الرؤية لدى الرواة، حيث تجتمع قصص الماضي والحاضر لتقود إلى خياراتهم للمستقبل، والتي تبدو أوضح مما هي عليه لدى رواة النمطين الثالث والرابع، الذين تسود في رواياتهم مشاعر الضياع والتشتت وتختزل صورة فلسطين إلى الحدث السياسي أو الهم اليومي.

---

[78] مرفق قوائم بأسماء وصفات رواة كل نمط في الملحق الثاني لهذه الدراسة.

أولاً: النمط المحبط بين الرفض للواقع والتكيف معه

"أنا اعتبر أن نكبتنا هي القادمة، أننا لن نستطيع أن نتفق. هل نريد فلسطين؟ أم لا نريد فلسطين؟ ... تستطيعين أن تضعيني في خانة اليائسين...أنا سجين سابق في الثمانينات، نحن الفئة الصامتة اليوم، كثير من شعبنا يُعتبر من الفئة الصامتة ".

(أبو فادي البرفيلي، 47 سنة، مخيم قلنديا، كانون الأول 2008)

صفات النمط ورواته

تقدم روايات هذا النمط **تأريخاً اجتماعياً للحياة في شرط استعماري**. حيث تتشكل صورة فلسطين في روايات اللاجئين هنا من تجاربهم الحياتية، والمعاناة التي عاشوها وأهلهم، ابتداء من فترة الانتداب، ومروراً بالنكبة والنكسة وأيلول الأسود والمقاومة والانتفاضات، وصولاً إلى الأحداث الحالية في مرحلة ما بعد أوسلو وبناء الدولة والانقسام الداخلي.[79] فالصورة التي يقدمها هذا النمط لفلسطين _وهي الصورة الأكثر شيوعاً بين الرواة الذين قابلتهم[80]_ تروي قصة الإنسان الفلسطيني مع الاقتلاع والتهجير واللجوء والحياة تحت الاحتلال (قلنديا) والتشتت (اليرموك)، وذلك من خلال وصف الرواة لمشاعر الصدمة والمفاجأة، والمعاناة اليومية، وردود أفعالهم بالمقاومة حيناً والتكيف أحياناً أخرى. باختصار، يمكن وصف روايات هذا النمط **بسرديات المشاعر والأحاسيس**. فالراوي هنا يركز على الأثر الشعوري الذي تركه الحدث التاريخي والسياسي في نفسه، أكثر من تركيزه على وزن الحدث في السردية التاريخية للقضية. يغلب على بعض الروايات الصوت الحزين،[81] حيث ينسج الرواة الصورة من خلال قصص ومشاهد المعاناة التي عاشوها، والتي تختلط بمشاعر الخوف والألم غالباً، والرعب والصدمة أحياناً. بينما يغلب على بعض الروايات الأخرى الصوت النقدي والرافض،[82] الذي يختلط بمشاعر القهر والغضب وخيبة الأمل من مسيرة القضية في المراحل المختلفة التي عايشها الرواة: الثورة والمقاومة في الأردن ولبنان، الانتفاضة الأولى، وأوسلو وما بعدها. عدد **الرواة ضمن هذا النمط** كبير نسبياً 24 من مجموع رواة البحث الـ 82، 17 من قلنديا و 7 من اليرموك، بينهم 11 من الإناث و 13 من الذكور. يتجاوز مجموع الرواة نسبة الربع من العدد الكلي، هذا مع العلم أن الإحباط سمة متكررة في معظم روايات هذه الدراسة، لكن بنسب مختلفة، كما ورد في روايات النمط الواقعي السياسي وغيرهم. لكن سمة الإحباط هنا هي السائدة، بين الرواة وكلهم، باستثناء راو واحد، من الجيل الثاني للنكبة. وتتجاوز أعمار الرواة، باستثناء ستة منهم، الـ 45 سنة و 13 منهم (50

---

[79] المقصود هنا حالة الانقسام الداخلي بين الضفة الغربية وقطاع غزة إثر قيام الذراع العسكري لحركة المقاومة الاسلامية (حماس) بتاريخ 14 حزيران 2007 باحكام سيطرته على مواقع السلطة الفلسطينية ومقار الأجهزة الأمنية التابعة لها في قطاع غزة. وهذه الحالة ما تزال مستمرة حتى تاريخ اعداد هذا البحث وفي الفترة التي أجريت خلالها المقابلات.

[80] يشكل رواة هذا النمط الأغلبية بين الرواة الذين قابلتهم (24 راو وراوية من أصل مجموع رواة الدراسة الـ 82)، أنظر قائمة الرواة في الملحق المرفق في نهاية الدراسة.

[81] مثل روايات: أبو غسان العرتوفي، أم عمرو الشوعانية، أبو سالم البرجي، أم راجي القبيبية، ناريمان معذري.

[82] مثل روايات: أسماء القبيبية، أبو مالك الصرعاوي، أم فراس علارية، أبو أمين القبيبي، أبو فادي البرفيلي، أبو حسن الصفدي، نوح الخصاصي، باسم الإجزمي.

سنة– فما فوق). ومن الملاحظ أن المستوى التعليمي لهذه الفئة أقل من غيرها.[83] ومن الملاحظ أيضاً أن جميع الرواة نقديون للخط السياسي الفلسطيني الحالي (السلطة و/أو أوسلو) وكذلك للأحزاب والفصائل بشكل عام، مع أن بعضهم ذكر أنه كان سابقاً منتمياً لحزب معين، إلا أنه ينتقد التغير في موقف حزبه. وما يميز روايات هذه الفئة هو الاختصار، فالرواة هنا يتحدثون حول محور النقاش باقتضاب، وبجمل قصيرة عادةً، ومن الملاحظ أنهم أقل استرسالاً من رواة الأنماط الأخرى. قد يعود هذا إلى شعورهم بالإحباط واليأس، أو القلق والخوف وقلة الثقة كما عبر لي أحدهم:

> "أنا إلي تاريخ، وبعرف كثير شغلات، بس ما بحب أحكي. نحنا فلسطينيين، شو اللي بهم فلسطين نحنا معه، نحنا مو مع فلان. أنا لما بدي أحكي مع شخص غير فلسطيني بصور له فلسطين قمة. أما لفلسطيني بحكي غير، لأنه في أغلاط كثير من كل الجهات، ومين عم يدفع ثمن الغلط؟ شعبنا الفلسطيني".[84]

من حيث الشكل، يميل رواة هذا النمط إلى استخدام اللغة اليومية المباشرة، والبعيدة عن الاستعارات والتشبيهات والمصطلحات التقنية المستعارة من لغة السياسة أو الإعلام أو الشعارات الحزبية.

المحاور العامة ضمن روايات النمط المحبط

تشترك روايات هذا النمط، بإجماع الرواة، على أن لحظة الذروة في الرواية هي لحظة الاقتلاع العنيف من الأرض، فمعظم الروايات بدأت بلحظة النكبة والتهجير، ولكن قلب الرواية ومضمونها هو تجربة الاستعمار والحياة الطويلة من المعاناة مع الاحتلال، وخيبة الأمل من الحاضر واليأس من حدوث التغيير في المستقبل القريب.

أولاً: قصة الحياة في البلاد – مزيج من مشاعر الحنين والحزن بأسلوب السخرية السوداء

لا تقتصر قصة البلاد في روايات هذا النمط على وصف الماضي الجميل، وإنما يذكر الرواة لماماً بعض أشكال المعاناة والصعوبات التي كان الفلسطينيون يعيشونها قبل النكبة وتمتزج القصص الحزينة بنوع من السخرية السوداء على حالة العجز والازدواجية التي يخلقها العيش في شرط استعماري.[85] يسرد أحد رواة مخيم اليرموك، بصوت ضاحك، التناقض في فكرة عمل جده عند المستعمِر البريطاني، وقصة نسيان والدته خلال رحلة التهجير:

> "الوالد لما طلع كان عمره ست سنوات فقط، بس الوالد كأنه بيعرف كل شي، صحيح ست سنوات بس حافظ الذاكرة كلياتها، يعني بحكيلي عن البير اللي كان موجود، وبحكي لي على الجامع، بحكيلي عن الأرض اللي كانت عندن، وعن الدار الوسيعة اللي كانت عندن. كان عندهم اللي بسموه الطرش (الماعز) هذا. بحكي عن اجزم، عن البلدة تاعته وبيعرف كل الناس اللي كانت موجودة، وبعرف مثلاً دار سيدي ومين كان مجاورها قدامها وخلفها. وأنا بعرف إنه سيدي على الأغلب كان يشتغل موظف للانجليز، كان حارس حاطينه بمصنع للانجليز، فكان يترزق من وراهن يعني *(يضحك ضحكة طويلة)*. *(س: يعني هذا الشغل اللي كان موجود*

---

[83] باستثناء نغم، من اليرموك وعماد وابراهيم من قلنديا الذين يحملون شهادات جامعية، فإن ثمانية من رواة هذا النمط يحملون شهادة دبلوم معهد وثلاثة عشر راو وراوية لم يكملوا تعليمهم المدرسي أو وصلوا لمرحلة الدراسة الثانوية (التوجيهي/ البكالوريا). ويعمل أغلبهم في أعمال متوسطة أو متدنية الدخل: موظفون في الدولة وفي القطاع الخدماتي غالباً.

[84] من رواية أبو كريم السمخي، 57 سنة، من مخيم اليرموك، آب 2008.

[85] هناك العديد من الأمثلة على الحالات التي يلجأ فيها الفلسطينيون إلى ما أسماه فرويد guillotine humour، أي أسلوب السخرية من الوضع أو التنكيت عليه للتعبير عن الأوضاع المأساوية التي يعيشونها، يوجد العديد من النماذج في: كتاب **ليش الشتوح طلق عزيزة؟!** (كناعنة وعلقم، 2008)، (*Struggle for Survival* Kanaana, 2003)

وقتها؟) هذا الشغل اللي كان موجود إيه، حتى الأرض عندن ما كانت تعطي مزبوط يعني، فكانوا يلجأوا للوظيفة بهديك الأيامات كمان. والدتي ما ذاكرة شي، كمان طلعت وهي عمرها أربع سنوات، بتقول إنه أختها، خالتي هي اللي حملتها وطلعتها، حطوها على الحمارة وطلعوها، وبالطريق لما صار القصف، فإجت خالتي الكبيرة نسيتها، عند شجرة، حطوها عند شجرة وهربوا، فإجا سيدي قال لها ارجعوا جيبوها. اللي بموت بموت معس فارجعوا جيبوها، *(يضحك)*. فراجعين جايبينها وطلعوا من البلاد، **يعني بصورة عامة كان الوضع كثير مرتاحين،** يعني هيك بحكي أبوي وكان عمره ست سنوات لما طلع وفي عنده غصة، يعني، بتذكر كل شي".

وبينما يركز رواة اليرموك ضمن هذا النمط في قصتهم عن الماضي على القصص الشخصية للأب والأم والجد والجدة، تقدم روايات قلنديا تفاصيل أكثر للحياة في البلاد، لتجمع بين ما يستحضره الرواة من صور البلاد كما شاهدوها على أرض الواقع خلال زيارتهم لها وتلك المترسخة في الذاكرة من كلام الأهل، فتشكل رواياتهم الشفوية مادة غنية بالمعلومات التي يمكن أن تفيد في التأريخ الاجتماعي للحياة في فلسطين:

"أصلي من ساريس، وبيحكوا لي كنا عايشين على الزيتون. أمي من اشوع، قرية جنب ساريس، كثير كانت متعلقة فيها وتظلها تحكيلنا عن زتوناتها، غنماتنا وأرضها. أمي طلعت وهي أكثر من 35 سنة. بتحكي: طلعنا وفكرنا إنه بدنا نرجع، فخلينا نصف الأغراض بالبيت، وأخذنا هالغنمات وطلعنا، فكرنا بدنا نرجع، أخذوا الغنمات وشردوهن. وكاينه وقتها فترة زراعة الذرة، كانوا رايحين على علار. بتحكيلنا عن رحلة التهجير، بتقول ميلنا عليهم وقعدنا أسبوعين، وكان عندهم بساتين كنا نلقط ونطبخ ونروح على اشوع في الليل، نلقط عرانيس الذرة، في الليل، يروحوا مشي تخيلي يقطعوا الذرة اللي كاينين زارعينها، في أواخر شهر 4 أو أول 5. وكانت تحكيلي: إنه أجو اليهود وشردنا وخفنا ورحلنا وتركنا كل البلد ورحنا فكرنا يومين، 3، 4، 5 ونرجع، شوي ما رجعناش نهائياً، وأبوي كان كمان يحكيلنا هيك، كان عندهم زتون وقمح وزهر وبندورة وبصل وسبانخ ... وكان عندهم مسجد يروحوا عليه الولاد الصغار، كان شيخ يدرسهم القرآن، ولما يختموا القرآن، كانوا يشتروله قطعة قماش يعمل منها قمباز ... بدل تدريس، كان اسمه روبين، بقولوا أصله من رام الله، وكاين يظل يحكيلهم: يا ريت تيجوا على بلادنا برام الله تشوفوا ما أحلى صيفها! هديك البلاد عالية. وقالت أمي: هينا جينا على رام الله *(تضحك)*، **هذا الشيخ روبين كاين أصله من رام الله-وجاي ساكن في اشوع، متوطن** يختي *(تضحك)*. أنا بحب حكي أمي، لأنها باستمرار بتظل تحكي: كنا نلقط زتون، وبتقول في يوم من الأيام قبل ما يطلعوا كاينين زارعين فول، رايحة تلقط فول مشان تطبخ، وإلا 2 انجليز عسكر داخلين على البلد وعبد القادر الحسيني وثنين ثوار كاينين في هديك الفترة في بلدنا، وطاخين الانجليز الاثنين وقاتلينهم وهاربين. أجوا الانجليز بعدها وعجبوا في البلد، أخدوا القتلى تاعينهم وعجبوا، فهربوا أهل البلد بعد قتل هدول الانجليز الاثنين، أظن هذا الحكي قبل الـ 48 بشوي".

يلاحظ في المقطع السابق كيف تنتقل الراوية في سرديتها، بين ضمير الغائب حين تروي قصة أمها في البلاد، وضمير المتكلم حين تحكي عما تختزنه ذاكرتها أو تنقل القصة بلسان أمها. لتُلقي ضوءاً على طبيعة الحياة الاجتماعية في فلسطين، فتعطي فكرة عن نمط الهجرة الداخلية بغرض العمل الذي كان سائداً قبل سنة 1948، حسب ما تورده عن قصة الشيخ الذي جاء في تلك الفترة من رام الله ليعمل مدرساً في اشوع، وهذا يتكرر في قصص اللاجئين الأخرى في اليرموك وقلنديا. على الرغم من أن القصة، في السياق الذي وردت فيه هنا، تحمل صبغة من الكوميديا السوداء في وصف سخرية الأقدار، التي حولت الهجرة الداخلية الطوعية بغرض العمل إلى تهجير قسري بغرض الحفاظ على الحياة بالاتجاه المعاكس.

وتأتي الروايات الأغنى بتفاصيل الحياة الاجتماعية في الماضي من الجيل الأول، مثل رواية الحاج محمد الذي يروي قصة البلاد كما عاشها هو، وكما شاهدها فيما بعد خلال زياراته المتكررة لها، كونه يحمل هوية قدس، ويزور بلده باستمرار، حتى أنه تحول إلى أيقونة إعلامية كما يظهر في روايته المطولة، حيث كان يقدم لجميع القصص التي يخبرني بها بنفس المدخل: "أنا حكيت هاي القصة لما عملوا معي مقابلة تلفزيونية"، أو "سجلوا قصتي في الصحافة الإسرائيلية لما هدوا داري في القدس وأجوا صوروها، هالقيت أنت "أضربي" أو حطي اسمي على الانترنت بتطلع قضيتي كلها وبتشوفيني". وسأكتفي هنا بعرض بعض المقاطع من روايته الطويلة:

"إحنا بلدنا كان عدد سكانها حوالي 500 نفر، قرية صغيرة كثير، ولكن كانت مساحة أراضيهم 12 ألف دونم وكانوا عايشين على الزراعة، يزرعوا القمح والشعير والسمسم والذرة البيضاء، وكان عندهم الحلال، يعني فش دار إلا وفيها 3 أو 4 روس بقر لأنهم كانوا يستعملوا البقر للحراث وللدراسة ولكل اشي يستعملوا البقر، يعني البلد كان فيها حوالي 400 راس بقر، وعددهم كلهم 500، يعني البقر قد البني آدمين، في حوالي 5000 راس غنم، وفي سبعة أو ثمانية جمال اللي يناقلوا القش عليهم من الخلا ويجيبوهم على البلد مشان يدرسوه. وكانوا عايشين، يعني، البقرة منها يحرث ومنها يدرس ومنها يوخذ حليباتها ويتقيظ منها. ويستفيد من حبلها وميلادها، تلد له عجل يبيعه. **كانوا عايشين أفندية.** يعني لو ظلت العالم، 12 ألف دونم على 500 يعني قسميها أنت وشوفي شو كانوا عايشين بهذاك الوقت، وعندنا نبع، إحنا قريتنا فيها نبع من دون القرى اللي حواليها، أنا رحت في يوم النكبة، أجوا أخدوني تبعين التلفزيونات، تبع العربية ودبي، وكانوا يأخدوني على القرية وأشرحلهم كيف ووين كنا عايشين، وكيف طلعنا وشو اللي أطلعنا. *(س: ولما رحت عالقرية، عرفتها، كانت بنفس ملامحها من لما طلعتوا؟)* والله آخر شي ماعرفناش اشي منها، لأنه مش مخلين أي آثار منها، كلها ممسوحة وكلها فلل بس في مقام لولية قبل البلد بحوالي كيلو، مش مهدوم بس ساقط السقف وظايل الحجارات تبعها، ومن هذا المقام أنا حددت موقع البلد وين، وموقع دارنا وين، هان كان كذا، وهان كان كذا، أنَقّل فيهم *(يقصد الصحفيين الذين يروي لهم الرواية)*، توصلنا، قلتلهم هان كانت دارنا، *(س: محل داركم في اشي هلا؟)* ثلاث فلل، قلتلهم والله الجماعة عادلين بيعرفوا أنه إحنا ثلاثة إخوة وكل واحد عاملين له فيلا، *(وضحك)*، يعني سجلوها وحوالي ثلاثة أيام وهم يذيعوها على التلفزيون على العربية. أنا كنت أشتغل مع الجيش البريطاني، يعني كانوا أهدأ من اليهود شوي، وبعدين يعني بدك تقولي كيف الواحد يعني بشتري له خروف ويربربه وعلى العيد بيذبحه؟ وإحنا ربربونا الجيش البريطاني، مصاري وشغل وبعدين آخرتها سلمونا لليهود. يعني هم طلعوا من المعسكرات ودشروا كل إشي فيها، دباباتهم والسلاح وكل اشي لليهود. والزعامات تاعيينا خونا، من أولها زعاماتنا خونة، وإحنا كشعب عاطفيين، وين يقولوا دوروا نروح ونجري، وظلينا هيك زي الغنم بلا راعي، فش إلنا قائد مزبوط اللي يكون عنده ضمير وعنده دين ياللي يقود هالشعب".

ثانياً: صور المعاناة أثناء التهجير وفترة اللجوء بين جيلين من الرواة

يذقل رواة هذا الذمط قصصاً مفصلة عن المعاناة التي تكبدها اللاجئون في الفترة الأولى للتهجير معتمدين على ما ذكره الأهل عن تلك الفترة، بالإضافة إلى ما شاهدوه من برامج تلفزيونية حول الموضوع، وتحديداً مسلسل التغريبة،[86] الذي ذكره الكثيرون من الجيلين الثاني والثالث، على أساس أن حلقاته روت ما حدث تماماً. ومن الملاحظ، أن الصورة الأكثر تفصيلاً، هي تلك المبنية على التجربة المعاشة، فهي تأتي كفيلم سينمائي يقدم صورة حية للأحداث كما ترسخت في ذهن الراوي. بينما ينقل الرواة الأصغر سناً، القصة التي سمعوها من ذاكرة الجيل الأول، بشكل صور ثابتة، فيشعر

[86] المسلسل التلفزيوني السوري للكاتب وليد سيف والمخرج حاتم علي، صُور وعُرض سنة 2004. ويروي حكاية الفلسطينيين منذ بدايات هجوم العصابات الصهيونية على فلسطين، ورحلة التهجير سنة 1948، والتشرد والتشتت فيما بعد في مخيمات اللجوء والبلدان المجاورة.

القارئ وكأنه يشاهد عرضاً سريعاً لصور ثابتة متتابعة باستخدام برنامج الـــ PowerPoint. لتبيان المقارنة، أورد هنا مقتطفات من روايتين للجيل الأصغر الذي لم يختبر التهجير مباشرة في كل من مخيمي قلنديا واليرموك، حيث تقوم الراويتان بسرد القصة كما رواها الأهل بصور سريعة. وفي المقابل أورد مقطعين من روايتين لراويين في قلنديا عايشوا تجربة اللجوء، لتقدم الرواية الأولى صورة مفصلة لرحلة التهجير واللجوء في العام 1948، وتسرد الرواية الثانية رحلة التهجير ومعاناة اللجوء الثاني للعائلة في العام 1967.

تروي أسماء القبيبية (52 عاماً، مخيم قلنديا) الرواية كما سمعتها من الأهل والأقارب:

"حكوا عن جية اليهود وكيف طردوهم، وكانت أمي تحكي لنا لما حشروهم، في زي لما تقولي منطقة حشروهم فيها، ذبحوا النسوان وأخذوا الأطفال وعجبوا عليهم، بتعرفي زي مذبحة ديرياسين، ومذبحة الدوايمة، ولما سمعوا الأشياء هذه صارت، بتعرفي، إحنا يالعرب الشرف عنا فوق كل اشي، عرفوا إنهم بيوخذوا النسوان وبستغلوهم وبنهبوا، فكل واحد حمل عياله وشردوا. أبوي أول شي راحوا على الظاهرية، وبعدها راحوا على أبوشخيدم، وأصحاب الأرض شكوا للوكالة إنه بدهم أرضهم ففي الـ 67 جينا هون، كنا جديد ساكنين هون. لما بدت الـ 67، أنا قبل الـ 67 ما بعرف! أهم اشي إهمال الحكام، هذا إهمالهم، وزي ما إحنا بنعرف إنه في الـ 67 ما حاربوا وما وقفوا قدام العدو، مجرد إنه كأنها اتفاقية وانباعت الأرض بس اطلعوا. كانت زي كأنها مجرد حركة قدام الناس، بس لو إنهم كانوا بدهم يوقفوا في وجه إسرائيل كان وقفت الدول العربية، بس هي سلمتها وطلعت، يعني جيش الحسين ما قاوم، حتى كنا نسمع إنه السلاح اللي كانوا يعطوه للجيش كان غير صالح للاستعمال، كله مبَرّد، وفي نفس الوقت ضحكوا على الشعب الفلسطيني وباعونا بثمن رخيص، وهينا لحد اليوم بندفع الثمن، وأولادنا وأولاد أولادنا راح يدفعوا الثمن".

وبصوت مليء بالحزن والدموع، تروي ناريمان معذري (46 سنة، مخيم اليرموك) حكاية تهجير أهلها، والمحطات التي مروا بها في بداية حياة والديها، اللذين كانا حديثي العهد بالزواج في فترة النكبة فتقول:

"أهلي أول ما إجوا عانوا معاناة كثير كبيرة، أول ما إجوا سكنوا بأكثر من مكان، مش مباشرة وصلوا على المخيم، وصلوا على السويداء بالأول، وعاشوا شي سنتين وبعدين انتقلوا على منطقة اسمها باب مصلى بالشام، إحنا أصلنا من معذر، قضاء طبريا بس أصلنا جزائري، مغاربة يعني، من اللي نفوهم الفرنسيين مع عبد القادر الجزائري، وكان جدي من اللي طلعوا على فلسطين سكنوا بمنطقة معذر. وما زالت لحد الآن المنطقة، كيف حي المغاربة بالقدس، وحي المغاربة هون بالسويقه عندنا، وحتى هون في المخيم في حي اسمه حي المغاربة. بعدها لما أجوا أهلي هون، كانت هيئة الأمم المتحدة (الأونروا)، وهني المغاربة قعدوا في أكثر من منطقة، كانوا اخوات وأولاد عم، بس كل واحد في منطقة. في منهم قسم أجا على سوريا، ولما طلعوا من فلسطين طبعا قعدوا في أكثر من منطقة حتى وصلوا للمخيم، طبعا كانت الأونروا أخذت هذي الأراضي تبرعوا فيها بعض الأهالي السوريين مثل بيت الحكيم وبيت الصباغ، أعطوا هذي الأراضي في منطقة حي الشاغور والبساتين عقار كامل للمخيم. فأعطوا لكل فلسطيني شقفة، وطبعا أجوا أهلنا ... في الجامعة كانوا بيفكرونا عايشين في خيم، لما يدخلوا على المخيم يلاقوه موش معقول، هذا مدينة موش مثل ما همي متخيلين، بس أهلي لما دخلوه زمان، كان كله عشب وشوك في الأرض، أرض بور وتعبانه فهني عمروها. وبتذكر أبي بيحكيلنا كيف إنه هون عَمّر، كمان كان معمر هناك في فلسطين، لما نوى يتجوز. اتجوز سنة وصارت الهجرة في الـ 1948، كان إله سنة متزوج، فكان معمر بيته وأجا هان بلش بيته من أول وجديد، كيف صارت الهجرة وتركوا كل شي؟! يعني أمي كانت عروس طلعّت جهازها إنها عروس وبدها ترجع؟؟"

ويصف الحاج محمد (80 عاماً، مخيم قلنديا) قصة الهجرة واللجوء مستخدماً أسلوب يمزج ما بين الحكاية والرواية التلفزيونية المليئة بالتفاصيل الحية عن معاناة الأيام الأولى للتهجير والتشرد في

القرى المجاورة، حيث يصف تعامل أهل القرية السيئ معهم، ومن ثم لجوئه إلى حارة اليهود في القدس، وبعدها طرده منها من قبل الإسرائيليين والأردنيين، حين وصل إلى المخيم. وهنا تدخل شخصية جديدة في القصة هي الأونروا، التي يبدو دورها سلبياً ككل الشخصيات الأخرى الواردة في القصة (الجيش الأردني، أهل القرى المجاورة الذين يصف نهبهم لبلده في بداية التهجير، اليهود، والمجتمع المضيف):

"والله إحنا انتكبنا، يعني مثل ما تقولي إنه إجانا الجيش الأردني، كان عنا. الجيش الأردني دخل البلد قبل ما دخلت اليهود، (أي سنة تقريباً؟) قبل الـ 48، بعدين انسحبوا، بدك تقولي أجوا يسلموا، وأنا حكيتها على التلفزيون إنه الدول العربية أجوا سلمونا، وقلت خلص إن رحت على الأردن بمسكوني على الجسر، أطلعونا بناء على أنه ساعتين، إنه اليهود بدها تيجي وبدوا يصير قصف بينا وبين اليهود، وأنتم بتروحوا تحت الرجلين. فاطلعوا ساعتين زمان بس نخلّص بترجعوا. وقلنا ليش بدنا نحمل أغراض طالما بدنا نرجع بعد ساعتين، طلعنا بأواعينا يعني، ولا إشي ما حملنا!! طلعنا كل البلد، وقعدنا بكرم قبال البلد نشوف المعركة شو بدو يصير فيها. لا صارت معركة ولا ..، قعدنا تحت شجر الزيتون والتين نستنى، راحن الساعتين وراحن يومين، وراح أسبوعين، وراح شهرين، وراحن ستين سنة، ما شفناش إشي ولا رجعنا. بتعرفي لما الواحد بيطلع مشلح يعني؟ ماعوش إشي ونايم تحت الشجر، صرنا نتسلل في الليل، نروح على دورنا ونسرق أواعينا سرقة، إن مسكنا الجيش الأردني يحبسونا وإن مسكنا اليهود يطخونا، نخاطر بين هذا وهذا حتى نجيبلنا شغلة من دورنا؛ اللي يحمل كيس قمح، واللي يحمل له لحافين لأولاده يغطيهم، تما ضلش اشي في البلد يناقلوه. مش إحنا بس أهل البلد، صارت العالم كلها تيجي تناقل، القرى حتى اللي ما رحلوش، يروحوا ينهبوا من عندهم ويجيبوا. وظلينا تحت الكرم، ما صرش إشي، وصرنا ندور لنا على مطرح نقعد فيه، قعدنا في المُغُر، وقعدنا تحت الشجر. وحتى القرى اللي كنا نروح عليها، والله سكروا بيار المية من خوف ما نشرب منها... في بلد اسمها بيت عور التحتا. أول ما طلعنا، قريبة من بلدنا، طلعنا عندهم وسكنا هناك، وصاروا يسكروا البيار، بيار شتاء، مش بيار، فش عندهم نبع. طلعنا في واد جنب بيتونيا، فيه عين قوية، بقولولها عين جريوط، عين قوية، وقلنا بدنا نروح نقعد في ها الواد، مشان المية، صاروا أهل بيتونيا، يطخطخوا علينا من روس الجبال، مشان يهججونا. يعني تقارني بين الرسول (ص) لما هاجر من مكة إلى المدينة، تقاسموا حتى اللي عنده نسوان ثنتين تنازل عن وحدة لصاحبه وشاركوهم في المال، وفي كل اشي، إحنا شربة المي منعوها عننا. بعدين قلنا لهم تعالوا يا عمي شو اللي بدكم إياه؟ إحنا مش قاعدين، بكره بنزل الشتا وإحنا شو قاعدين تحت الشجر، كل واحد قاعد تحت شجرة، مستعدين ندفعلكم، قديش بتساوي ثمر هذه الشجرة بندفعلكم حقها. قعدنا تنزلت الشتا علينا وعاودنا هجينا. أنا أمي من الجبل من هان، رحلنا عند خوالي، كان باقيلها حصة لأمي قعدنا فيها، بس يخلصوا الكيظات، يعني التينات والعنبات، خلص فش شغل، طب وإحنا بنقدر نعيش بدون شغل؟ رحلنا، أنا رحلت على القدس، كانت حارة اليهود ومطلعينهم المناضلين مش الجيش الأردني، المناضلين طلعوا اليهود، طردوهم، هدموها، فرحنا كل واحد لاقى له دار صلحها وقعد فيها. وأنا صلحت دار وقعدت فيها في حارة اليهود 11 سنة. وبعدين أجا حسين أعطوه اليهود مصاري يبنيلهم وحدات سكن في مخيم شعفاط، هذا مخيم شعفاط كله كان سكان حارة اليهود. بنالهم 3 في 3، لكل واحد غرفة ولا مطبخ ولا حمام، الحمامات في الشارع، للمرة وللزلمة بدخلوا على بعضهم البعض، وأنا لما شفتها قلت هذه هي الإغاثة؟ مسامح فيها بديش إياها. في كان مكتب في القدس مسؤول عن أراضي اليهود بقولوا له حارس أملاك العدو، وكان في مدير من دار الجاعوني من القدس، رحت عنده قال لي في عندي شقفة في قلنديا فإجينا هان وأعطاني إياها بالآجار أدفع في السنة دينار، دفع رمزي على إنه إنت مش ملاك، إنت مستأجر، عندي كونتراته موجود عندي لحد الآن إنه إنت مستأجر من حرس أملاك العدو. وأنا بنيت وقتها، كلها كانت هاي أراضي يهود وصاحبي هذا الجاعوني قال لي في شقفتين ضايلات: شقفة في قلنديا وشقفة عند الجسر، عند المحسوم القديم اللي كان في الأول عند الضاحية، ما كنش في هناك لا بُنى ولا في حدا، يعني إحنا تهوسنا (سكننا من house بالانجليزية) هان عشان كان في المخيم، قلنا يعني إذا الواحد كان اعتاز إشي في هان المخيم قريب. هيك بنكون بانيين ع حسابنا والأرض هدي مستأجرينها آجار. أنا بدفع أرنونا وهاي منطقة قدس، بس معي بطاقة لاجئين، بس ما إحنا بناخدش مؤن من زمان، يعني أخدنا وإحنا في القرى لما طلعنا جاي هان ما فيش إلنا مؤن، هو المخيم كله بخدش إله مؤن إلا المحتاجين المسجلين وإحنا مش مسجلين

إننا محتاجين. والله ـلا يحيجنا، إحنا مش في عازتهم ولا في عازة رطلين الطحين إلي بطلعوهم ببيعوا الشوال بـ 15 شيكل، وهم بطلعوش إلا للي عنده كرت شؤون ... وبنيت أنا وقتها ع قدر الحالة، غرفة ومطبخ وحمام وبرندة كانوا أولادي لسه صغار، أنا تزوجت في حارة اليهود في 2/ 2/ 1955، وزوجتي امها من البلد وأبوها من قطنا بس عايشين عنا في البلد وجماعة كويسين وتناسبنا وكانت قسمتي معها، خلفتلي 13 بنت وولدين".

وتصف أم عمرو الشوعانية (49 سنة، مخيم قلنديا) بالتفصيل رحلة التهجير سنة 1967، والتي تتشابه في كثير من أحداثها مع الوصف الوارد في المقتطفات الثلاثة السابقة، إلا أنها أكثر تفصيلاً، حيث تحاول أم عمرو تفسير سبب طلوع أهلها سنة 1967، وتعزيه إلى خوف والدتها التي تقول أنها حضرت التهجير الأول سنة 1948، بالإضافة إلى خوف والدها عليهن؛ كونهن بنات. وتذكر المحطات العديدة التي مروا بها، باختصار، وفق ما تسعفها الذاكرة. أورد فيما يلي هذا المقتطف الطويل من رحلة أم عمرو، والتي تتداخل فيها مأساة تهجير أهلها وتشردهم بين مخيمات الأردن، مع مأساتها في رحلة حياتها الشخصية التي بدأتها بطفولة عاشتها بين التهجير واللجوء، وشباب أمضته بوفاة زوجها واضطرارها للبحث عن عمل لإعالة أطفالها، ومن ثم استشهاد زوج ابنتها البكر خلال الانتفاضة الثانية:

"كانت رحلة معاناة، لأنه أهلي متنقلين من بلد لبلد: أريحا، عين عريك، وقعدوا في عقبة جبر فترة .. وبعدين جايين على قلنديا هان، بيجوز حوالي سنة الـ 51 جايين هان، وبعدين ظلوا فيها للـ 67، من الـ 67 لما صارت الهجرة طلعوا على عمان، أهلي: أمي وأبوي وأخوتي، طلعنا، كان عمري وقتيها 5 سنين بجوز، وبتذكر كيف كنا نمشي، مشينا لحد أريحا مشي، وبعدين أجا ترك حمّلنا، ورحنا. ما بعرف ليش تركوا؟! أمي كانت تخاف كثير لأنها حضرت الهجرة الأولى في الـ 48، فهي خافت إنه يصير فيهم نفس الشي وشردت. أخذتنا وشردت، وأخوي كان طالع قبل الهجرة على مصر يتعلم دكتور، إحنا الثلاث بنات طلعنا مع أمي، وأبوي ظل هون. بعد أسبوعين رجعت أمي عنده قالت له: بدي أجيب البنات وأرجع. قال لها أبوي: لا بلاش يصير فينا زي ما صار فينا في الرحلة الأولى، خليك أنت والبنات وأنا بلحق بكم، ولحقنا. رحنا على منطقة حي نزال عند خوالي اللي طلعوا سنة الـ 48، وقعدنا فترة عندهم، حوالي شهر، عاودنا نزلنا على الكرامة، على الغور، وبعدين على الشونة، قعدنا فترة، هو أنا مش كثير متذكر! يعني هيك زي الخيال، وصاروا أهلي يشتغلوا في الزراعة، في البرتقال، بعدين طلعنا ورحنا على مخيم البقعة. بيجوز قعدنا أسبوع بمخيم البقعة، ومن مخيم البقعة، طلعنا على مخيم شنلر في الخيم. ظلينا قاعدين في الخيم لفترة، مش متذكر قديش الفترة اللي قعدناها! كانوا هم يوزعوا علينا زي مؤن، وكان في مطعم يطعموا الناس فيه. وبعدها بعرفش كيف عشنا!! مش متذكرة منيح، بعد الخيم، عملولنا براكيات زنكو، أعطوا لكل واحد غرفة، قعدنا فيها، خلصت توجيهي وإحنا قاعدين فيها، وبعد ما خلصنا توجيهي بعنا البيت. بعدها أخوي اللي كان يتعلم دكتور في مصر، رَوّح، واشترى أرض في سحاب، وتركنا المخيم، وبنى هناك، وقعدنا هناك. كان هو أصلاً متزوج قبل الهجرة، وكانت مرته مخلفة إلها أسبوع لما هاجرنا، يعني حملت البيبي ومشت معانا برضه. كانت عايشه معانا، تركها على أساس يرجع، ولما صارت الحرب ما قدرش ييجي، لما روح كان عمر ابنه 3 سنين، ومرت أخوي كانت ساكنة معانا في المخيم. بعدين أنا تزوجت ابن خالي في عمان، وقررنا نرجع هون عند أهل زوجي في قلنديا. كان شغل زوجي منيح كثير، كان مواسرجي، شرينا أرض من قرايبنا اللي تركوها وراحوا على عمان وبنينا عليها، وظلينا قاعدين. عشت مع زوجي 16 سنة، وكنت حامل ست أشهر لما توفى، صابته جلطة وتوفى. بعدها بسنتين، صرت أشتغل لأنه أولادي صغار، كان ابني الكبير صف تاسع. أولادي معظمهم تعلموا، والي بنت تزوجت وهي بالصف العاشر، بإرادتها، هي كان بدها، قعدت مع زوجها خمس أشهر واستشهد، كانت حامل شهر، استشهد لما صار اجتياح لرام الله،ـكان هو في القوات الخاصة وصارت اشتباكات بينهم وبين اليهود، طخوه، أجت الرصاصة في صدره وطلعت من عند قلبه، من كثر النزيف اللي نزل منه توفى، كانت بنتي حامل شهر، هاي بنتها صارت في أول ابتدائي، مش راضية تتزوج مشان البنت، بقول لها بصيرلهاش إشي بربيها، الحمد لله إحنا مبسوطين ...".

ثالثاً: صور من الحياة في شرط استعماري

إذا جمعنا أجزاء روايات هذا النمط تتشكل لدينا صورة تفصيلية لحياة الإنسان في ظل السيطرة الاستعمارية. تكشف الرواية جوانب من حياة العائلة الفلسطينية: الطفولة والأمومة والأبوة والأخوة ومعاناة التشتت، فتسيطر على حياة الرواة، في مراحلها المختلفة، مشاعر تتراوح بين القلق والتوتر والغضب والخوف والمعاناة. ليشعر القارئ، أن الإحباط الذي يسيطر على الرواة اليوم، يستمد جذوره من الشعور بالعجز الذي عاشه الرواة في الماضي ولم يتغلبوا عليه إلى اليوم. كما يتضح من الصور القصيرة التالية التي اقتطفتها من رواة النمط المحبط:

صورة الصدمة والمفاجأة

تصور الروايتان التاليتان عجز المستعمَر أمام الآلة الاستعمارية الغربية، حين يصف مشاعر الصدمة والمفاجأة عند احتلال إسرائيل لرام الله سنة 1967:

"لما أجوا في حرب الـ 67، ركضوا الناس على هالراديو يقولوا في حرب، صاروا ينطوا هالناس. يقولوا: ايش بدنا نرجع على بلادنا؟ خلص، ونسمع الضرب كان هون على جبل المكبر ما كنش في دور مخفية، كان مبين، ما نشوف إلا هالدخان طالع! ونقول: خلص بدنا نرجع. كاين كلها قنابل دخان وصاروا ييجونا هان، جيش بسموهم الجيش العراقي. هدول بيجوز أكلوا هوا أكثر شيء، لأنهم هدول جايين يحاربوا فعلاً وجابوهم رموهم وانقطعوا هدول. لا عرفوا وين يروحوا مع اليهود! ولا العرب قدروا يخبوهم! الجيش الأردني نفسه شو عمل؟ فعلاً، أخذ ثياب من النسوان وخبأ سلاحه كله في جوا السناسل وطلع، هربوا. لما رحنا على بيتونيا سنة 1979. وفي عنا أولاد جيران سن 14، 15، يكونوا يلعبوا في هالفوطبول يلاقوا قنابل للجيش الأردني. كانوا يجيبوا الجيش اليهودي يفجرها. وفي سنة 1967 برضه لو ما طلعوش الناس من بلادهم ما صرش اشي، بس الناس اللي هون حملوا حالهم. إحنا ظلينا قاعدين في مخزن على الشارع، الناس هربوا تخبوا في الوديان وفي ناس طلعوا على الأردن، إحنا من الناس اللي ظلينا قاعدين في المخيم. دخلوا الجيش وكان في إلي ابن عم أستاذ، بقوا يقولوا: جيش عراقي جاي، ابن عمي طلع، أنا سمعته بيقول، لحد الآن بذكر: جيش إسرائيلي هذا، شاف النجمة على السيارات، أستاذ هو، كان واعي" (من رواية أم فراس علارية، 56 سنة، مخيم قلنديا).

وتتكرر نفس الصور في رواية أبو سالم البرجي، 65 سنة، في مخيم قلنديا:

"كان يوم الاثنين، كنت أحلق لواحد وبعدين صارت الحرب، خبيت عدتي في المحل، كان محلي زنكو، والبوابة خشب. بعدين شردنا وطلعنا على الجبل، قعدنا ليلتها نراقب بالطيارات وهن يضربن على النبي صاموئيل وعلى القدس. كان إلي أخ، الله يرضى عليه، كان يدرس في الثالث إعدادي، مترك، وكان يضوي الضوء، أقول له: اطفيه، تقاتلت أنا وإياه، هو بده يقدم الامتحانات والطيارات يضربن، صبحنا الحمد لله رب العالمين، مكسورين. مكسورة العرب، ودخلت اليهود. دخلوا اليهود على المخيم، وفي ناس طلعت يهاهو ويزغردوا وقالوا: الجيش العراقي، لأنه كانوا اليهود حاطين صورة لعبد الناصر وللملك حسين على بوز السيارة والدبابة .. وبعدين في واحد طلع يرحب: هييه، تعيشوا! يعيش الجيش العربي! قام نزل واحد من اليهود ضربه كف. عرف إنه إيش؟ يهود!! وبقت ناس شاردة على الجبل، سلموها تسليم، سلموها، حتى الجيش الأردني لما كانوا يلحقوه اليهود. عطشان يسقوه، [...] وصار اللي صار في الـ 67، بعدين أجو طلعوا علينا الشباب والختيارية اللي ظلوا في المخيم .. أجو علينا على الجبل، قالوا يا جماعة: اليهود بقولوا لكم إرجعوا، كل واحد يحط في إيده شريطة بيضاء .. راية .. ويرجع على داره يقعد بهدوء .. وبتسلموا، وبالفعل رجعنا على دورنا وقعدنا ... لقينا الغنم ميتة والدجاج ميت ... يعني في خراب ..".

يمكن للمرء أن يقرأ الكثير في المقطع القصير الذي يصف فيه أبو أيمن، بلغة مباشرة، ما حدث سنة 1967. فاللاجئون، الذين أُخرجوا من ديارهم بغتة سنة 48، جاءتهم الحرب مرة أخرى بشكل مباغت، فتوقعوا حدوث ما كانوا يجلسون بانتظاره قرابة عشرين عاماً في مكانهم المؤقت (زنكو وخشب، كما ورد في الرواية أعلاه). كانوا ينتظرون الجيش العربي الذي سيحررهم، فإذا بهم يكتشفون أن حالة الانتظار التي طالت وهم خارج التاريخ لم تنتهِ بعد، وكيف اكتشفوا ذلك؟ "بضربة ك" من المستعمِر، كما وصف أبو سالم البرجي في المقتطف أعلاه. ففي حالة الاستعمار، كما قال ألبير ميمي ذات مرة: "يُحرَم المستعمَر من المشاركة الحرة في الحرب كما في السلم، ومن المشاركة في أخذ القرارات التي تساهم في صنع مصيره، ومن المسؤولية التاريخية والاجتماعية" (ميمي، 1980: 119). لكن من الواضح، أن الصورة ليست قاتمة تماماً، فقد قرر المستعمَر[87] أن يضيء الضوء، ويمارس حياته خارج الشرط الاستعماري.

الوجه الآخر للاستعمار

> "بشكل عام الاستعمار في العالم إله سلبياته المعروفة وبنحكي فيها أيام، بس إله ايجابيات، من ايجابياته لما نابليون أجا على مصر جابلهم الماكينة الطابعة هاي، هسا إحنا هون في عنا تطور ماكنش موجود في كل المنطقة العربية بحكم احتكاكنا بإسرائيل، بالثقافة الموجودة غاد، وبالتطور الموجود فاستفدنا منها، مش ما استفدناش. يُفترض إنه هذه هي كلها ايجابيات، عبر التاريخ، الاستعمار بكون له ايجابيات، غصباً عنه، مش بخاطره! مش ايجابيات هو بيعطيها للناس. بقصد بالنسبة لعرب إسرائيل عايشين بالمجتمع الإسرائيلي، وشايفين الثقافة وتعلموا بمدارسهم، العلم ماكنش موجود! مادياً واقتصادياً يمكن استفادوا، يمكن أخذوا أراضيهم، بس طوروا حالهم وتثقفوا وتعلموا أكثر".

هذا ما قاله أحد الرواة من مخيم قلنديا، ويظهر الانبهار بحضارة المستعمِر في أكثر من رواية لدى الأنماط المختلفة، وفي المخيمين، وإن كان أكثر وضوحاً في قلنديا عنه في اليرموك.[88] وبقراءة هذه الرواية، في سياق روايات المحبط، ينتابني شعور بأن الفلسطيني أصيب بشلل مضاعف؛ في المرة الأولى أُصيب –في حادثة 48– بشلل أقعده عشرين عاماً، وذلك بعد عملية الاغتصاب العنيفة التي تعرضت لها إنسانيته، وكل ما حوله من أرض وهواء وماء. وفي المرة الثانية، أصيب بشلل في إيمانه بقدرته على التفكير نتيجة امتداد سيطرة المستعمِر –في حادثة 67–، ليصل المستعمَر إلى قناعة باستحالة تحقيق إنسانيته خارج الشرط الاستعماري. قد يظهر في هذا الوصف نوعاً من المبالغة،

---

[87] في إشارة إلى أخ المبحوث المذكور في الرواية أعلاه

[88] هنا يتساءل القارىء إن كان تردد هذه الفكرة لدى العديد من المستعمَرين صدفةً! (وردت تعليقات شبيهة في روايات مبحوثين آخرين إضافة إلى وجود تعليقات مشابهة في أحاديث الفلسطينيين اليومية). فهل توصل لها الفلسطيني نتيجة تعجيزه إثر إصابته بالشلل في الحادثتين اللتين ذكرتهما أعلاه؟ أم أنه فعلاً انبهر بالمستعمِر وبخطابه "الحضاري" لدرجة أعمته عن رؤية حقيقة المشروع الاستعماري ومقاومته؟ والتساؤل المطروح هنا ليس جديداً فقد أشار إليه ابن خلدون (1377) في مقدمته حين تحدث عن ولع المغلوب في الإقتداء بالغالب. وطرح إيمي سيزار السؤال نفسه في كتابه "خطاب حول الكولونيالية" (1972): "هل أسهم الاستعمار في خلق تواصل بين الحضارات؟ وبصياغة أخرى (الكلام لسيزار أيضاً): من بين مختلف الوسائل الممكنة لبناء علاقات بين الحضارات، هل يشكل الاستعمار أفضلها؟" وتناول آخرون هذه الفكرة من أبعاد مختلفة منطلقين من وجهات نظر مختلفة، فالبعض كان يركز على الممارسات الاستعمارية على الأرض وانعكاساتها على نفسية وحياة المستعمر بشكل عام في مراحل الاستعمار، ما بعد الاستعمار أو الامبريالية، بينما اهتم آخرون بتحليل خطاب المستعمِر في هذه المراحل، كما يظهر في كتابات:
Mimi, 1966; Fanon, 1967; Cesaire, 1972; Mohanty, 1988; Lomba, 2007; Spivak, 1988; Said, 1998;) Suleri, 1992; Mbembe, 2001; Williams, Patrick and Laura Chrisman, 1994 who compiled a group of .(readings on Colonialism and post colonialism

وهذا ممكن إذا كان ينطلق من مقولة الراوي في هذا المقطع حصراً، لكن هذه المقولة تتردد في الكثير من الروايات، كما ترد في أحاديث الكثير من الفلسطينيين باختلاف خلفياتهم التعليمية ومواقعهم الوظيفية أو الاجتماعية أو الطبقية عموماً. وتظهر بوضوح أكبر لمن ينظر إلى شكل الوجود الفلسطيني "المسموح به" رسمياً اليوم.[89] وهنا تتجلى تجربة السيطرة الاستعمارية في سعيها لتكريس الاستغلال *"فالمستعمِر لا يكتفي بخلق نظام لقمع الحياة الثقافية للشعب المستعمَر ولكنه يسعى لإثارة ونشر الاغتراب الثقافي لجزء من الشعب إما من خلال ما يسمى بـ "احتواء" الشعب الأصلي أو بخلق فجوة اجتماعية بين النخبة والطبقات الشعبية ضمن السكان الأصليين. وكنتيجة لهذه الفجوة، يلاحظ أن عدداً غير محدود من السكان الأصليين وبشكل خاص المدنيين وصغار البرجوازيين يتلبسون طريقة تفكير المستعمِر ويعتبرون أنفسهم في مرتبة ثقافية أعلى من بقية الشعب فيتجاهلون أو ينظرون بازدراء إلى قيمهم الثقافية"* (Cabral, 1973, as quoted in Williams and Chrisman, 1994: 57).

صورة اللقاء مع المستعمِر والعمل لديه

وبالعودة إلى الروايات، مازال هناك طرفان: المستعمَر والمستعمِر. ارتبط وجود الأول بالثاني من خلال علاقة اقتلاع واستغلال. في البداية كان على المستعمِر أن يحصل على الأرض باقتلاعها من أصحابها بالنفي والتشريد والقتل والتهجير، ثم حين أراد العيش سيداً عليها كان لا بد من استقدام المُهَجرين أنفسهم ليضرب عصفورين بحجر، أولاً: الربح المادي، بالاستفادة من توفر أيدي عاملة رخيصة تنجز الأعمال اليدوية الشاقة التي يحتاجها "بناء دولة إسرائيل الحديثة" من عمران وزراعة وصناعة. وثانياً: بسط سيطرته الاقتصادية والسياسية على ضحاياه المشردين وضمان عدم ثورتهم ضده. فهؤلاء اللاجئين الذين تسبب في مأساتهم، باقتلاعهم من حياتهم وسرقة الأرض مصدر رزقهم الأساسي، سيجدون مصدر رزق آخر بعد أن خسروا كل شيء. وفي نفس الوقت، سيلجمهم عن المطالبة بحقهم ما دام في يد مشغلهم ولن يستعيدوه إلا بالقضاء على مشغلهم، مصدر رزقهم. هنا تبرز الورطة الاستعمارية بوضوح على السطح، كما يُظهر المقطع التالي عن لحظة اللقاء الأولى مع الإسرائيلي لحظة دخوله إلى الجزء المتبقي من أرض فلسطين التاريخية سنة 1967:

> "وصارت الناس تتفرج على اليهود. والله أنا من النوع اللي صرت أتفرج على اليهود. كيف؟ زينا زيهم؟ أوادم ولا مش أوادم؟ وكانوا اليهود لما دخلوا علينا، ما يخلوش ولا يخلوا اشي في السوق: قلم حبر ناشف ياخذوه، علبة سردين ياخذوها. كانوا ياخذوهم مشترى، بعدين أيامها بقى طايح الصبر، ونطلع على رام الله، نشوفهم كيف هاجمين على الصبر، اليهود، اليهود بحبوا الصبر. والله تفرجنا عليهم، واليهود تتفرج علينا، يأخذوا ويعطوا، وتبحبحوا في هالناس الهُبُل.[90] والله العظيم، لسه، ما صارش معارف ولا صار مقابلات، لسه اليهود داخلين يتفرجوا على المناطق[91] وإحنا نتفرج على اليهود. وهذا اللي صار، وصاروا يفتحوا شغل للناس. أجا موشيه ديان على القهوة اللي على الشارع، ما هو بقى وزير الدفاع، أجا ولاقى الناس قاعدين على القهوة، قال لهم: كيف

[89] كان الفلسطيني قبل أن يدخل في اتفاقيات تحدد شكل وجوده في الحيز الضيق الذي فرضه عليه مستعمِره يتصرف بما تمليه العلاقة بين طرفين في شرط استعماري وكانت المقاومة إحدى السبل المشروعة للفلسطينيين لمواجهة الممارسات الاستعمارية الاسرائيلية بحقهم.

[90] هنا وفي القسم الأخير من هذا المقطع، يُلاحظ إدراك المستعمَر لورطته، لكنه يبقى إدراكا سلبياً، لم يرتفع إلى مستوى الوعي الذي يدفعه للرفض والمقاومة الفعلية.

[91] لاحظ استخدام مصطلحات المستعمِر في وصفه للبلاد.

شغلكم؟ وكيف أنتم؟ **بتعرفي الناس شو طلبوا؟؟ طلبوا الشغل قال: إحنا بدنا نشتغل.** قال لهم: انشالله بس تروق الحرب بنفتح وبنشغلكم وفي عندكم أشغال. وبالفعل، التهوا بالأشغال، والناس دبوا راسهم زي الغنمة اللي بتكون جوعانة، بدهم يشتغلوا. على زمان الأردن بقوا يشتغلوا بعشرين قرش وبنصف ليرة، يعني ببلاش إلا ربع، هلقيت لما اليهود صاروا يعطوا، ترفهت العرب وشافت. تنفسوا الناس، صاروا الناس ياخذوا أولادهم على البحيرات، على البحر الميت يوم السبت، وعلى يافا يروحوا وعلى تل أبيب يروحوا، والله إنه إحنا ماشاء الله شعبنا نسي، نسي. أنا والله بأقول لك بصراحة. والله متصعب أحكي! لأنه إحنا شعب بننسى على طول. خاصة الفلسطيني، بنسى على طول: قتلته ومرمرته".

يصبح العمل عند المحتل وضعاً طبيعياً غير مستغرب كما يظهر في المقتطفات التالية:

"إحنا على زمانّا كان الوضع هادي، كانوا الناس يروحوا يشتغلوا عند إسرائيل، انبسطوا عند إسرائيل أول ما أجو، كانوا يشتغلوا، يروحوا بأمان، وييجوا بأمان، كانوا بتعرفي يشتغلوا وصاروا يجيبوا مصاري، كثير تحسنت الأحوال الاقتصادية لما أجوا، بس هلقيت! وقتها تركوا الزراعة وصاروا يجيبوا المصاري من البناء والاسكانات والعمارة وشغل المواسير والخضرة تبعت اليهود، أول ما أجو اليهود أبسطو الناس" (من رواية جميلة الساريسي، 51 سنة، مخيم قلنديا).

"بتيجينا الأقمشة مقصوصة من الشركات الإسرائيلية، هم اللي بصمموا وبقصوا الموديل جاهز، ونحنا نطبق .. وبعدين بتنباع البضاعة كلها لإسرائيل، ما إلنا خص في البيع .. زي ما تقولي: أكثر شغلنا لإسرائيل، لتل أبيب، وفي نفس الوقت. شغل على مستوى، مش أي شغل، شغل حلو، إحنا بنوخذ من واحد لواحد، مش ايد أولى. إحنا بنوخذ من ايدتين، يعني في واحد من اللي معهم هوية قدس وبدخلوا على إسرائيل، أما إحنا كضفة بندخلش. هالحين أنا متعاقد مع واحد، هو بجيب شغل من الشركة نفسها وبيعطيني وهو وأمانته، هو ما بحسب حساب كيف أنا توفي معه، لا، بس كيف هو توفي معه؟ بكون حاسب إذا القطعة بدها تكون 4 شيكل أو 5 شيكل هو بكون حاسب إله أقل اشي النصف أو ثلث الأجرة، وإحنا بنعتمد على الإنتاج، كيف إدارتك للعمل، كيف إنتاجك، يعني كيف بتزقي عالبنات، كيف بتطلعوا إنتاج؟ يعني اكتفاء ذاتي، يستغني الواحد لا. يعني أنت بدك ما تحتاجيش، تطلعي بأجرة هالبنات ويطلع لك اشي، قبل الانتفاضة كان وضعي توب، كثير كويس، كان الشغل أسهل، لأنه كان يجينا مباشرة من جوا" (من رواية أسماء القبيبية، 52 سنة، مخيم قلنديا).

"بالمصادفة، أنا أعمل في نفس القرية التي هاجر منها أهلي، تجمع القرى، أنا أُجيد العبرية. تعلمت العبرية في السجن سنة 1984، واجتهدت حتى تمكنت من القراءة والكتابة. أعمل مراقباً على العمال وأحتاج إلى قراءة الخرائط. أحد فوائد السجن أني تعلمت العبرية. عندما غادرت السجن تعلمت العبرية بشكل شخصي" (أبو فادي البرفيلي، 47 سنة، مخيم قلنديا).

حلقات متتابعة من الاستغلال، فالفلسطيني المُقتَلع من أرضه، لم يتم استغلاله في العمل مرة واحدة فقط بإعطائه العمل اليدوي المُنهِك بأجرٍ رخيص، لكنه، بالمصادفة، كما يقول أبو فادي في المقطتف الأخير أعلاه، كان يجب أن يشتغل في الأرض التي اقتُلع منها ولصالح مغتصبه. فماذا نسمي هذه الحالة من الاستغلال؟ إن الاستغلال والاضطهاد الذي يتعرض له العامل الفلسطيني من قبل مستعمِره، لا يقتصر على الاستغلال الذي وصفه ماركس وانجلز؛ والذي يشيىء العامل ويجرده من إنسانيته بتحويله إلى سلعة رخيصة، فتتدنى قيمته الإنسانية بازدياد قيمة عالم الأشياء من حوله.[92] لكن اللاأنسنة و"الاغتراب هنا ليسا عن وسائل الإنتاج والإنتاج نفسه والجهد *فقط*،[93] وإنما عن وسيلة البقاء

[92] في "الأيديولوجيا الألمانية": يشرح ماركس وانجلز كيف يفرز الاستغلال المصاحب لتقسيم العمل في النظام الطبقي الرأسمالي ظاهرة الاغتراب. فبقدر ما يستهلك العامل من جهده وعرقه، فهو يقوي العالم الخارجي حوله دون أن يحقق هو نفسه تقدماً يُذكر، بل إنه على العكس، يزداد فقراً واغتراباً كونه لا يملك إلا قوة عمله، فهو يعمل ليؤمن سبل عيشه ولزيادة ملكية ومنافع الرأسمالي. (ماركس وانجلز، السنه 30-32).

[93] إضافة من الباحثة.

الأولية في الوطن، وحق التواجد حتى في المكان والجنسية وفرص الانتماء والهوية" (سمارة، 2009: 28). نعود للورطة!؟ وهنا نتورط نحن أيضاً، حين نلوم الإنسان الفلسطيني الذي يعمل لدى مستعمِره بعد أن وجد نفسه مجرداً من كل شيء، وأراد الحفاظ على وجوده، بإطعام نفسه وأطفاله الجياع، فلم يستطع أخذ موقف رافض لمستعمِره وللعمل لديه. مع أنه ثبت، أن نفس الشخص الذي يبيع قوة عمله للاحتلال[94] من أجل البقاء (الاستمرار كجسد)، مستعد لبيع روحه وشبابه للتحرر من القيود التي تستلب جسده وعقله في شرط مختلف. فهذا الفلسطيني الذي طلب من ديان فرصة للعمل، والذي اشتغل فعلا في أرضه التي يحتلها المستوطن، هو ذاته الذي حيَّر اسحق رابين في الانتفاضة الأولى.[95]

قصص قصيرة لمقاومة المستعمَر وأخرى طويلة تصف الممارسات القمعية المستعمِر

لم يتعامل الفلسطيني، كما يظهر في روايات مبحوثي هذا النمط، مع اغترابه على الدوام بالهروب أو الرضوخ للخيارات المفروضة. فقد اختار المقاومة ومواجهة ممارسات الإسرائيلي _الذي هو سبب غربته واغترابه_ بما يملك كما يصف رواة قلنديا:

> "أنا اعتبر أن ممارسات الاحتلال جديرة بأن تخلق وعياً لدى الجيل الجديد. مثلاً الجدار والحصار. فالشاب الذي عمره 20 عاماً لا يعرف القدس وهي بعيدة عنا 3 كيلو. هذه التصرفات كفيلة أن تولد ثورة وأن تنشئ جيلاً لا يتساهل مع اليهود".

> "أحداث النفق بالـ 96 أثبتت أن النضال ظل موجود، بدليل أنه الجيل اللي عمل انتفاضة النفق في الـ 96 مع إنه كانت السلطة جايه وكانت الأمور فاتحه والسلام على وذنه. أجوا قطعوا الزتون وأعطوه للجيش، واللي قام بالانتفاضة الجيل الجديد حتى اللي ماحضرش انتفاضة الـ 87، فالنضال ظل موجود وراح يكون موجود، وبالـ 2000 كمان ناس تانيين، والختيارية طفوا لما صاروا كبار! في كل جيل هاي بتنتهيش، وفش حدا فش في عيلته حد استشهد أو تصاوب أو اعتقل مستحيل".

ويقدم رواة هذا النمط صوراً قصيرة وسريعة لنماذج المقاومة يقابلها صوراً مكثفة للقمع والمعاناة، فتغيب اللحظات الايجابية، عموماً، في روايات المحبط، لتقتصر على الماضي في البلاد، وأحياناً قليلة على الماضي القريب في فترات النضال: الثوار، الانتفاضة. وحتى هذه، فإنها لا تركز على الجانب الايجابي؛ إذ سوعان ما تنعكس فيها رؤيتهم المحبطة واليائسة مع الكثير من "لكن"، و"بس"، و"للأسف". فيما يلي نماذج قصيرة:

---

[94] "خلال الفترة الأولى من الاحتلال الإسرائيلي وحتى سنة 1988 كان الطلب على العمالة المأجورة غير الماهرة (في قطاعات الخدمات والبناء) قد تحول إلى علاقة كاملة بين توقعات العائلة، وتعليم الأطفال، ومطالب سوق العمل. وأصبحت مجتمعات قروية بأكملها، وكذلك مجتمعات المقيمين في مخيمات اللاجئين تعتمد كلياً على العمل في إسرائيل" (فافو، 1994: 22).

[95] في مقابلة نشرت في ملحق الجريدة الإسرائيلية، جيروسالم بوست 25-3-1988، أي بعد أربعة أشهر من اندلاع الانتفاضة، تساءل رابين: كيف يمكن لهؤلاء الذين يشتغلون عندنا، ويكسبون عيشهم، كيف يمكنهم أن يرجموننا بالحجارة؟ وماذا كان الحل الذي اقترحه رابين آنذاك لتلك الحالة؟ حل من شقين، كان الشق الأول أن يطرد 600,000 فلسطيني من الضفة إلى الأردن. وحين سأله الصحفي ولكن هذا سيمدد الصراع خمسين عاماً أخرى؟ قال رابين: نعم، لكن هذه ستكون مشكلة القيادة الإسرائيلية في ذلك الحين. إذاً، المستعمِر لم يكتف بحلقة من التطهير العرقي، بل هو ينفذ ذلك كلما أمكنه وكلما ثار العبيد. أما الشق الثاني فكان كما أسماه بنفسه: "تكسير العظام".

"كان في مناضلين، الثوار، أنا جدودي الثنين كانوا ثوار، بس ما كان في وحدة ولا تنظيم، زمان كانوا فقراء والعرب كانوا خونة .. كلهم تآمروا عليهم وما كان في دعم ..." (نغم الصفورية، 35 سنة، مخيم اليرموك).

"أول كنت أشارك في المقاومة بكل شيء بس هلا قليل، كنت أشترك .. ومن ناحية تنظيمية بس عندك من الـ 83 لهلا ... بنظل فلسطينيين بس لما بنطلب مني شيء وأنا مقتنع فيه بساويه، بس إذا شي ما بقتنع فيه ما بساويه بغض النظر مين ما كان يكون اللي عم بيطلب ... هلا مثلاً عم تطلع مسيرات، أنا المسيرات كلها ما بآمن فيها ... " (أبو كريم السمخي، 57 سنة، مخيم اليرموك).

"وبعدين قامت الثورة .. الإضرابات في المدارس وفي الجامعات، وبعدين صار ضرب حجار .. وبعدين شو بدي أقول لك: يعني هذا المخيم كان رهيب ... هذا المخيم لازم تشهد له العالم إنه كان في كتلة شباب عنا تمام تمام تمام ... صدقي إنا ما كنا نعرف ننام الليل من الجيش .. وعلى كل حال، والله بقينا نصبر، لأنه هواتهم تجيب، الشباب يعني الصحيح إنهم فظعوا .. والله إنهم اليهود استسلموا للشباب ... والله استسلموا بأسلحتهم وقالوا دخيل الله، خلص يا عمي .. إذا هم زهقوا منا، وإحنا زهقنا منهم .. بس هالقيت بلشت المؤامرة، وجابوا ياسر عرفات هان.. الله يرحمه .. وجابوه وصاروا يقولوا غزة وأريحا أولاً ونسيوا إنه القدس عاصمتنا ... وصار اللي صار .." (أبو سالم البرجي، 65 سنة، مخيم قلنديا).

"من حد ما انخلقنا والقضية هي هي، التاريخ بعيد نفسه، وحتى لما بقت الانتفاضة ما حسيتش بفرق من حد ما وعيت عالقضية! الوضع هو هو، بالنسبة إلى مش شايفه ولا إشي تحسن، لما بنعرف إنه إسرائيل مساندة من أميركا فالواحد بيقطع الأمل، وبعد ما انحبس أخوي وانهدت دارنا يعني خلص صار ..(تسكت) أخوي كان يحلم أنه يقدم لوطنه اشي بسيط بس (تسكت)، الوضع اللي نحنا شايفينه صعب الواحد يتأمل كثير فيه، بما أنه إسرائيل صارت خلص قايمه وكل شي إلها صار ... المقاومة ممكن تأثر بس إنه تمحيها نهائياً صعب ... (تضحك) ... صعب يصير شي ونرجع، وحتى اللاجئين اللي بره صعب يرجعوا، وحتى إنهم بفضلوش يرجعوا، خالي وخالتي في الأردن وعمتي، بس هي هي واحدة هون لاجئة وهناك لاجئة في النهاية! والشباب اللي زي أخوي قدموا .. بس الواحد بدوا يحكي إشي واقعي، إنه يعني يتعلق بأشياء مستحيلة ...." (من رواية أميرة الماعينية، 25 سنة، مخيم قلنديا).

تشكل قصص المعاناة من الممارسات الاستعمارية لحظات الذروة في روايات النمط المحبط، فهي تحتل القسم الأطول من الروايات، لترسم أجزاء من صورة الحياة في شرط استعماري، وهي حياة تنقسم فيها مشاعر المستعمَر بين الخوف ومشتقاته والغضب وتوابعه. تخيم في بعض الروايات مشاعر الخوف والقلق والتوتر والحزن على مصير الفرد المستعمَر وأفراد عائلته، فالهم هنا يركز على الخاص، على العائلة والظروف الصعبة التي تعيشها. ويبتعد بشكل أو بآخر عن الهم العام، الذي يسيطر على روايات الواقعي السياسي على سبيل المثال. يمكن إيعاز هذا إلى كون الرواة، ضمن هذا النمط، كما تبين صفاتهم يعيشون في ظروف أقل استقراراً من الناحية المادية والوظيفية.

بعد اقتلاع الآباء، جاء دور الأبناء

يحكي رواة هذا النمط قصة المستعمَر الأب، أو الأم، أو الأخت، أو الأخ الذي لا يعرف طعم النوم والراحة، خوفاً على أبناء عائلته المهددين إثر أي مداهمة للمخيم. والمستعمِر الذي فعل فعلته باقتلاع الآباء من أرضهم البارحة لن يقصر اليوم بالأبناء. أليس مجرد وجودهم [الجيل الجديد المستعمَر] عائقاً أمام توسع وجوده هو[المستعمِر]؟ فكيف سيكون الوضع إذا لم يقتصر وجود الأبناء على مجرد التواجد كأشياء، كما أرادهم المستعمِر، فنمى وعيهم بذواتهم وبالواقع الاستعماري من حولهم وقرروا

رفضه؟[96] فالجيل الجديد الذي فتح عيونه على واقع المخيم البائس وقصص الآباء عن ماضي جميل أحياناً، وحزين في معظم الأحيان، بدأ يصنع عالماً جديداً. كانوا أطفالاً يذهبون إلى مدرستهم وهم ملتصقون بثوب أمهم، يخافون من الجندي الواقف على باب المدرسة مصوباً بندقيته تجاههم. وهم ككل الأطفال، يستكشفون الحياة باللعب؛ يتأثرون بقصص الكبار عن الحروب، ويشاهدون أدواتها على أرض الواقع متجسدة في جنود مدججين بالسلاح يقتحمون أزقة مخيمهم الصغيرة بعرباتهم الحربية الكبيرة، فيخترعون أدواتهم الخاصة ليشاركوا بلعبة الحرب. ليتفاجأ المحتل الذي ارتاح في دور السيد المسيطر، بأبناء من كان يراهم عبيداً خانعين ينتفضون بصدورهم العارية وليس في أيديهم سوى الحجارة، أو في أحسن الأحوال، قنابل يدوية صنعوها بعد خروجهم من المدرسة. أطفال نشأوا تحت الاحتلال؛ حيث قصص الجدة والجد تحكي سيرة الأرض التي اقتُلعوا منها، والحياة الهانئة التي ضاعت وانتهت بهم إلى مخيمات البؤس والشقاء، يحيط بهم جنود يتكلمون لغة لا يفهمونها ويصوبون أسلحتهم تجاههم في كل الأوقات. الجو كله يشجع على لعبة الحرب، ولا يستوعب الجنود المفاجأة، فيردون رداً قاسياً لسحق من يسمونهم بـــ "المخربين"، فيسقطون منهم الجرحى والشهداء والمعتقلين.

تروي إحدى الراويات في قلنديا قصة ابنَي شقيقتها اللذين لم يفعلا شيئاً سوى المشاركة في لعبة الحرب. كان دورهم في اللعبة رمي الحجارة على مدرعات وجيبات الطرف الثاني، لكن الطرف الثاني، لم يرَ طفولتهم، فرد على حجارتهم الصغيرة بقنابل كبيرة مزقت أحشاءهم وفجرت رؤوسهم لتسلبهم حياتهم:

> "مرت سنين، قديش الناس تقتلت وماتت، الولد الصغير شو ذنبه إنه يصير فيه هيك؟ يصاوبوه أو ينشل أو يعيش معاق أو يستشهد!؟ يعني أختي فقدت ولدين، 48 يوم بين الأول والثاني. وهذا الشاب اللي مرق إسا *(تشير إلى ابن أختها)*، شعره بينه وبين الموت، تحطمت مصارينه. لا سمح الله كان صاروا ثلاثة... كان عاشت أختي هبلة في الشوارع! الله يرحمهم، الواحد لما بموت خلص، بحسش بإشي، بس الحسرة في قلب الأم. هو القدس بتستاهل، يعني أي واحد مستعد يضحي بدمه من أجل القدس، وأنا بكون أحكي لزوجي .. أنا لو في نسوان بيطلعن، أنا أولهم، كرمال القدس بس واللي فيها: العرب مش اليهود. يعني أي واحد مستعد يضحي بدمه لأجل القدس. ابن أختي هذا 11 سنة، شو ذنبه 11 سنة؟ اتطلعي لف من باب دارنا، حكى لأبوه، كذب على أبوه. لأنه جاي على باله يستشهد. كذب على أبوه! حكى له: بدي أروح لعند خالتي أوديلهم كيس البرتقان تبعهم، جاب لي إياه، وطلع قبل موعد الفطور في رمضان، أول يوم العيد استشهد! قال له أبوه: بتروح وبتيجي على طول: لف اللفة ونط وظلوا رايح على المحسوم، ما بقاش محسوم حتى، على الجبل، على التلة تحت، وعلى طول صاوبوه، ليش؟ لأنه ابن 11 سنة بفكر في القدس، بفكر في السلام، وفي إنه اليهود يروحوا من بلادنا. عشان هيك: الجيل صار يوعى على ضرب حجار وعلى يهود وعلى مشاكل".[97]

وتروي راوية أخرى قصة أخرى عن معاناتها مع اعتقال أولادها:

> "هاي أولادي الثلاثة قضوا عمرهم في السجون، ولا تعلموا ولا اشي، كنت آخذهم الثلاثة، أمسكهم وأوصلهم الصبح على المدرسة، وكان يكون الطخ شغال، وأروح آخذهم بعد الظهر، ومرات كانوا الجنود يلاقونا على باب المدرسة ويصوبوا بنادقهم علينا، والله أطّلع على أولادي، ألاقيهم عاملينها

---

[96] وصف الراوي عمر البرجي، أحد رواة النمط الواقعي السياسي في قلنديا، كيف تطور الوعي لدى الجيل الجديد ليدركوا أنهم لن يخرجوا من حالة الاستلاب والاغتراب التي يفرضها عليهم الظرف الاستعماري القاسي إلا عبر المقاومة والرفض. ويصف عمر الذي كان في حينها جزءاً من مشروع المقاومة الدور الذي لعبته منظمة التحرير من الخارج في تحفيز الداخل على الانتفاض. راجع رواية عمر _ضمن روايات النمط الواقعي العقلاني_ تحت عنوان "قصص الهزيمة والانتصار".

[97] من رواية تغريد البرفيلية، 29 سنة، مخيم قلنديا.

تحتهم، وأدفشهم جوا باب المدرسة بسرعة. أسمع الجندي بيسحب في ذخيرة الرشاش بحضر حاله يطخ، أقول له: حرام عليك، ليش هيك؟ أطفال هدول! كان ابني سامي ينام على الشجر ودايماً متخبي في الخلا وبودي أخوه الأصغر على الحدادين يجيبله هذا. *(لم توضح ماذا)* ويعمل منها المولوتوف. قلت لأولادي: خلي غيركم يناضلوا، والله ما شفنا يوم حلو، اجيت على المخيم وأنا عمري 5 سنين وهايني ختيرت وأنا هون في المخيم. اعتقلوا ابني الكبير وهو عمره 13 سنة عشان رمى هو وأصحابه مولوتوف على سيارة يهود، والله لما حاكموه، رحت أزوره بالسجن وكنت حاملة أخوه اللي عمره سبعة أيام وكان يبكي. سألني الجندي: ليش ببكي هذا؟ بكره بصير زي أخوه يعمل مولوتوف! وقلت له: وليش إنتوا ناويين تظلوا هان ليكبر؟ قال لي: ولا وين بدنا نروح؟! يومها أجوا يعتقلوا أولادي، وكنت أواجههم يعني شو بدكم؟ ليش بتدافشوا هاي البيت قدامكم، وأنا عارفة راح يأخذوا ابني، حتى مرة اعتقلوا ولادي الثلاثة مع بعض وقتها صيحت في الجندي وقلت له: خلص خذني أنا وأبو سامي بالمرة، وقال لي: راح نأخذك، جاييكي الدور، وشو الفائدة؟ قضيت حياتي بين السجون. بس كنا زمان أقوى، والله مرة تفيت في نصف وجه الجندي، ما استرجاش يعمل اشي وكانت الوحدة تخبط الجندي كف على وجهه، ما يسترجيش يعمل اشي، ما كانوش زي هلا، هلا صاروا لؤماء" (أم سامي، 62 سنة، مخيم قلنديا).

في المقطع السابق كانت أم سامي تصف الانتفاضة الأولى، لكن يبدو أن المستعمِر له وجه واحد لا يتغير بمرور الزمن، فوصف الراوية التالية لتجربتها في الانتفاضة الثانية لا يختلف كثيراً عن رواية أم سامي، فالحدث هو هو، اقتحام المخيم واعتقال الابن، وحزن وقلق الأم هو هو، وإن كان منسوب الخوف في رواية أم راجي أكثر ارتفاعاً:

"الانتفاضة أثرت فينا وبقينا نظل قاعدين نتشرد من هون لهون، ويطبوا علينا الجيش في الدور، شو بدو يخرف الواحد ليخرف! أنا صار معاي سكري من الخوف. والله عبروا قبل فترة أخذوا ابني من هون وهاي صار له سنتين محبوس. متنا من الخوف، وقبل في الانتفاضة، أولادي كلهم بقوا صغار، كل ليلة بقوا يخشوا ويخوفوا ويضربوا ويفتشوا ويوخدوا الشباب ويطلعوا النسوان برا ..... والله الواحد يخاف منهم بقوا يخوفوا في الأول، قعدوا فترة يخوفوا أولها، بقوا يضربوا ويساووا وهاي عاودوا رجعوا زي أول، بقوا في الأول يخوفوا، وبعدين يوم صار الصلح الواحد أمّنلهم شوي، وبعدين عاودوا توحشوا في الأزود هلقيت، وهديك الليلة لما أجوا عجبوا هان في المخيم، هان وحدة مسكينة أخدوا ولادها .... ويوم بدهم يوخدوا ابنها وودوا على ابنها الثاني، يعني يوريهم أخوه شو بده يظله الواحد بعقله، انجلطت وماتت[98]... شو بتتوقعي من هالدنيا، يعني عالجهتين مضيقينها من هان ومن هان. عالمحسوم نظل قاعدين 20 ساعة تم إنه الواحد يطلع .. تايجيك الدور لتروحي تصلي ...وبقى عرفات الناس يقولوا عنه منيح يعني وأحسن من اللي جابوه هذا، والله بقى يساعد الناس في جل شي (كل شي) يودوله كتاب واحد مريض يساعدهم، بس هذا مصرياته إله، يعني ابني هذا صار له سنتين محبوس و 3000 شيكل طيح له بس، زرته مرة في المحكمة، شفته، وبعدين ودوه عالنقب، قدمنا للزيارات إلنا سنة بنقدم، وبرفضوها، وهاي قدمنا من جديد وبعرفش يعني؟!" (أم راجي، 61 سنة، مخيم قلنديا).

وتأتي قصة شبيهة من الراوي الأب هذه المرة:

"في الانتفاضة الأولى بنكون قاعدين في الدار، ما نشوف إلا اليهود داخلين علينا في الليل بدقوا على الباب في الليل وفي النهار. بدك تفتحلهم: شو عندك ولاد؟ وشو عندك كذا؟ يعني بتذكر لك أنا مرة كنت جوا بالبيت بصلّي صلاة العشاء. وكان عندي ابني جمال وشوي من رفايقه قاعدين بشربوا فنجان قهوة.. إلا الجندي واقف على الباب هذا بقول شو في؟ قال بدي أشوف الشباب...

---

[98] وقعت هذه الحادثة ليلة 25/11/2008 في مخيم قلنديا، إثر اقتحام الجنود الإسرائيليين للمخيم واعتقالهم 45 شاب. كنت أجري المقابلات في تلك الفترة، ولم أسمع الأخبار صبيحة اليوم التالي 26/11، فتوجهت إلى المخيم كعادتي لأجري مقابلة كنت قد رتبت لها في اليوم السابق، وكان الوضع في رام الله وحي أم الشرايط [حيث أسكن في مكان لا يبعد إلا بضعة أمتار عن الشارع الرئيسي المؤدي إلى مخيم قلنديا]، طبيعياً، يعني يشبه كل الأيام. لكني حين اقتربت من مدخل المخيم وجدت نفسي في ساحة حرب: إطارات سيارات مشتعلة، وأطفال يحملون حجارة بانتظار جيب الجيش الإسرائيلي، وأهل المخيم كلهم في منزل السيدة الشهيدة. قفز يومها سؤال أم فراس علارية إلى ذهني: "هي فلسطين لأهل المخيم؟ مش لأهل القرى؟ مش لأهل المدينة؟ يعني 3% من الشعب ماكل هواء والباقي عايش؟!"

ابني غسان اعتقلوه مرتين، ثلاثة، وجمال أخذوه مرة 18 يوم من رام الله على بلوزة قال مكتوب عليها شعار بعرفش شو يعني!! مكتوب عليها فلسطين ومدري شو! أخذوهم من رام الله هم وثلاثة أربعة وسجنوهم 18 يوم في الفارعة... وإيهاب 6 مرات انسجن... وطارق راح 8 أشهر ودّوه عالنقب... الأربعة انسجنوا.. وإيهاب أكثر واحد عانى في السجن 6 مرات انسجن.. بقى بس يصير ضرب حجر في الشارع ما تصير الساعة الواحدة بالليل إلا المخابرات نازلة هان... ينادوا: أبو غسان؟ أقول له شو بدك يا زكي يقول لي: بدي إيهاب، بدي إيهاب... طب هو إيهاب باقي مسؤول عن المخيم؟! الدار اللي يعرفوا اسمها ييجوا عليها رأسا... آه، ومرة صلاة الفجر أجو أخدوا زياد، والله بقيت أصلي في الفجرهان، إلا هم بدقّوا على الباب. قلت له: مالك؟ إلا بقول لي بدي ابنك الصغير... طيب شو عرّفك في ابني الصغير قال لي: اسمه طارق... شو ما بقاش مكمل الـ 14 سنة! ... ولا شو بقوا يعتقلوا الناس... بقوا يرحموا واحد هم؟!" (أبو غسان، 65 سنة، مخيم قلنديا).

صورة المستعمِر التي تظهر في روايات هذا النمط، بما تحمله من معاني السيطرة والاضطهاد، لا تختلف عن الصورة التي نقلها فانون عن الجزائر حين وصف تعامل العائلة الجزائرية مع الاستعمار الفرنسي: "بدون دراية الأهل الذين لم يخطر ببالهم إشهار السلاح لقتال المحتل، على الرغم من مناقشاتهم المستمرة لأمانيهم في هزيمة الاستعمار، إلا أن هذه الأماني تشبه التشكي اليائس لدى جميع المستضعفين في جميع بلاد العالم، في ظل مسحة الاستسلام السائدة ، وهنا يطل موكب نصائح الأهل للأبناء: إبقوا هادئين، إن الفرنسيين أقوياء جداً. غير أن الابن يتجنب المناقشة ويتحايد الجواب، ويحاول بألا يعارض دنيا الاستسلام والانتظار اللامتناهيين في حياة الأب، بالعالم الجديد الذي يقوم ببنائه: فالمناضل يحل محل الابن ويشرع في العمل من أجل كسب الأب إلى جانب أفكاره" (فانون، 2004: 105). يصف المقطعان التاليان محاولة الآباء الفلسطينيين تجنيب أبنائهم المعاناة:

"ابني أنا شردته 3 سنين على فنزويلا. قلت له: بديش منك اشي بدك تطعم حالك خبز، قطعت له تكت وسفرته. لأنه كان أية شغله ييجوا يأخدوه احترازي على الأعياد يحبسوه، آخر مرة واحد وعشرين يوم أنا ما أعرفش ابني وين هو!! قلت له: يابا يعني يأخدوك ويضربوك، أنا ما كنش عندي وقتها إلا هو، قلت له آه يابا روح أنت الله يسهل عليك، هناك في جماعتنا أهل بلدنا كتار، اطعم حالك وبديش منك أنا شي *(س: مع أنك أنت بتقول كنت تجاهد ضد الانجليز زمان؟)* نعم، أنا مش مهم، بس ابني بديش يضربوه الهوايا يرجع لي مجنون. قعد 3 سنين ابني تسقط الفايل تبعه، ما هو بعد 3 سنين بسكروا الفايل. لما طلع، كانوا ييجوا الجيش يدوروا عليه هان مش موجود، مسافر، بعد 3 سنين سكروا الفايل تبعه، بطل إله فايل. قلت له: هالقيت أرجع. قال: شو أرجع؟ قلت له: أرجع أنا ما وديتك تجيب مصاري أنا بدي تخش وتطلع علي بتسوى كل المصاري اللي بالدنيا. بتعرفي أنا بقى عندي بنات كلهم، هاي بنتي كانت 5 سنين لما اندهست هان عالشارع وواحدة دفنتها في عمان، وهدول البنات كلهم صغار، وما عنديش أولاد بدي ابني والله رجع. شريت له سيارة وصار يشتغل في السمك يروح على محني يهودا يحمل السمك ويروح يوزع على الدكاكين عند اليهود، إله على الكيلو شيكل، يوزع له ألف كيلو بألف شيكل وعنده شغيل يعطيه 50 شيكل باليوم والساعة 11 أو 12 يبقى عندي (س: واليهود بطلوا يضايقوه على أساس كان إله فايل؟) لا السيفيل ما الهمش دخل بالأمن يعني هذا لحال وهذا لحال."[99]

"يعني لو إنهم الناس، برضه في الـ 67 ما طلعوش من دورهم ولا حدا صابهم ... بعدها شو صاروا يقولوا الختيارية: اللي عنده شباب يهربهم، اليهود بدهم ياخذوا الشباب. إلي أخ شاب وأولاد عم اثنين شباب طلعوهم .. بعد ما طلعوا بيجوز بعد سنة أو سنتين أخوي كان بيجوز أول ثانوي .. وما سألوش بينهم وبين نفسهم: عند من بدهم يعيشوا؟ وين يعيشوا؟ ما سألوش .. طلعوهم، بعدها صاروا يساووا جمع شمل لنرجعهم .. تغلبنا في الترجيع ورجعناهم ...".[100]

---

[99] الحاج محمد الماعيني، 80 سنة، مخيم قلنديا.
[100] أم فراس علارية، 56 سنة، مخيم قلنديا.

مقارنة بين قصص المعاناة في المخيمين

تقدم هذه الروايات صورة للاغتراب العنيف للمستعمَر الذي يعاني من التهميش والضياع بسبب انقلاب القيم[101] الناجم عن التحولات السياسية السريعة في المسيرة الوطنية الفلسطينية، والذي أوقع الرواة هنا في حالة من العجز سلبتهم القدرة والإرادة على المواجهة. وتتضح هذه الحالة –بشكل خاص– بين رواة قلنديا الذين يركزون في رواياتهم على المعاناة المتولدة من ممارسات الإسرائيلي، لتظهر وكأنها معاناة فردية بعيداً عن الشرط الاستعماري العام. وعبر سؤالهم مباشرة، ومن خلال قراءة رواياتهم، يتضح أن المصادر التي ساهمت في تشكيل روايات هذا النمط هي غالباً التجارب الشخصية التي عاشوها أو قصص الأهل؛ بينما لا يظهر بوضوح أثر خطابات اعلامية أو حزبية أو فكرية معينة. والسمة الغالبة على الروايات هنا هي الإحباط من الواقع الفلسطيني اليوم. وتختلف ردة فعل الرواة تجاه هذا الإحباط، كما يتضح من نظرتهم إلى المستقبل بين الرفض الواعي، ولكن السلبي، للواقع الموجود أو التكيف معه.

فروايات اللاجئين هنا حفرتها الحياة في أذهانهم بما حملته من أحداث، ولم يكن لهم غالباً يد في صنعها، لذا كانت لحظات الفعل محدودة بالنطاق الضيق الذي يحدده الشرط الاستعماري للمستعمَر. فيبدو الراوي هنا كأنه "في انتظار غودو"[102] لا يعرف كنهه: في سنة 1948، كان "غودو" الجيوش العربية التي ستهزم المعتدي؛ وفي سنة 1967، كان الجيوش العربية التي ستعيدهم إلى بلادهم التي اقتُلعوا منها في الـــ 48، وفي سنة 1988، أصبح الانتفاضة التي ستحقق لهم الاستقلال من الاستعمار الذي لحق بهم في الـــ 67، وفي سنة 1993، كانت الدولة التي ستحقق لهم بعض الإحساس بالحرية والأمان لتخلصهم من المعاناة اليومية التي عاشوها خلال فترة الانتفاضة، وفي سنة 2000، كانت انتفاضة أخرى ومعاناة جديدة لم تنتهِ آثارها بعد. فيعيش الرواة في حالة من الضياع واللامعيارية التي وصفها أبو فادي بالقول:

> "التفكير لدى الشعب الفلسطيني مزدوج. لاجئ ويريد وطناً ويريد أن يحارب ولا يريد أن يحارب.. والقرويين أقاربه وأبناء المدينة أصحابه ... وهو في صراع".

تبين من خلال الوصف الذي يقدمه الرواة لحياتهم، أن الواقع الاستعماري الذي يعيشونه اليوم لا يختلف عن ذلك الذي عاشوه في الماضي؛ من حيث الشعور بالاستلاب والحرمان الذي تفرضه حياة المخيم أولاً، وممارسات الاحتلال القمعية ضدهم ثانياً، وإهمال السلطة الفلسطينية –التي توسم بعضهم بها خيراً في البداية– لاحتياجاتهم ونضالاتهم ثالثاً. فصور المعاناة هي التي تسيطر على الروايات هنا، بدءاً بالقصص التي اختزنها الرواة لفترة الاستعمار البريطاني، ومروراً بالنكبة والتشرد والحياة المستمرة تحت الاحتلال (قلنديا)، واللجوء والتشتت (اليرموك). ولم يجلب التغيير السياسي الذي تم التسويق له بعد أوسلو أي تغير ايجابي في واقع حياتهم، والأهم أنه لم يهتم بوضع حد لمعاناتهم كلاجئين. فالإنسان، إذا أراد أن يعيش في شرط استعماري ليس أمامه إلا خيارات محدودة؛ إما أن

---

[101] بالمفهوم الدوركهايمي للأنومي – اللامعيارية.

[102] في إشارة إلى مسرحية Samuel Beckett "بانتظار غودو".

يكون في حالة عبودية مباشرة: يعمل لدى السيد الذي هو نفسه مغتصبه، وفي بعض الحالات قد تتحقق صدفة تاريخية مؤلمة تسمح له بالعمل في أرضه بالذات، كما في حالة أبو فادي اللاجئ من برفيليا، والذي يعمل في المستعمرة المقامة على أرضه، أو في حالة مستمرة من الصراع بين الخضوع للواقع الاستلابي أو رفضه بمقاومة التشيء، كما عبر فانون ذات مرة في وصفه للواقع الاستعماري في الجزائر،[103] والذي لا يختلف في جوهره عن واقع فلسطين: "إن المستعمَر "الشيء" يصبح إنساناً بمقدار ما يحقق من عمل لتحرير ذاته" (فانون، 1972: 35).

يُعرب أغلب رواة هذه الفئة (في اليرموك وقلنديا) عن عدم رضاهم عن ظروف الحياة في المخيم لأسباب مختلفة، أكثرها ترديداً في قلنديا هو الخوف من الممارسات الاستعمارية التي تشتد على أهل المخيمات أكثر من غيرهم، بحد تعبيرهم، والتي مازالت مستمرة إلى اليوم. كما يظهر في المقطع التالي لاحدى الراويات التي تصف أحداث وقعت مؤخراً في المخيم:

> "إحنا المخيم مبسوطين فيه كثير، إحنا بس لو ما فش يهود بداهموا البيوت، كثير بداهموا المخيم، مرة صارت عملية عسكرية، وكنا مساوين نادي صيفي لبنات من أول لرابع، تصوري، وصاير إخبارية إنه واحدة من اليهود مبلغة إنه زوجها الصحفي خاطفينه ناس من قلنديا أو أهل رام الله، بس هم حددوا إنه في قلنديا، وبركب سيارة حمرا، هالحين كانت عنا مرشدة اجتماعية، إلها سيارة حمراء وكانت صافة في المدرسة (...) قبل ربع ساعة من ما داهموا المدرسة، كانت المعلمة طالعة ... كان كسروا لها السيارة ... كانت طالعة، فخلال هي ما طلعت، إلا الجيش عبروا بالدبابة من باب المدرسة، وباب المدرسة حتى تكسر والبنات، من الخوف، كلهم عبروا على الغرف وتحت الطاولات عبروا، ويومها شو طخ، طخ صار ... دخلوا يومها قلنا لهم: إحنا عنا بنات، عاملين مخيم صيفي .. وطلعوا وهم بطخوا، وتصاوب شاب في المدرسة على باب المدرسة، إحنا عنا بابين: باب على شقة الشارع الرئيسي وباب على شقة المخيم، وهم دخلوا من الباب اللي على شقة المخيم ... يومها، يعني طلّعنا البنات شوي شوي على شقة المخيم، وأنا يومها للساعة ثلاثة لقدرت أطلع من المدرسة من كثر الطخ ... وأنا مروح ما قدرتش أمشي على رجلي من الخوف ... عن جد من كثر الرصاص اللي في الشارع ... يومها، زي التسلسل اجيت ... وإحنا عرفنا بعدين من الأخبار شو صار! وعشان هيك أجوا قالوا: في سيارة حمراء وين راحت؟ يومها بقت يعني قبل ربع ساعة طالعة ... يعني بالعكس عايشين أحسن عيشة ومرتاحين بس هو أنا بقول لك بس هم اليهود، قبل حوالي ستة أيام، وصلت على المدرسة الصبح، طبعاً أنا بنزل 7 إلا ربع، شميت ريحة غاز، ولما وصلنا تحت إلا هم ضاربين قنابل (غاز) في المدرسة، يعني أنا حطيت منديلي هيك وصرت أمشي بدون ما أشوف اللي قدامي ... لأنه ضاربينها على أبواب الصفوف، وحتى الصف المخبوطة فيه، عليه زي شحبار، مشحبر، هالحين أنا اتصلت على الدار، وقلت لبنتي ما تجيش إلا تتروح الريحة ..صرنا مش قادرين نستوعبها بالمرة ريحة الغاز ... قلت لبنتي ما تجيش هلا، تعالي الساعة 8 إلا عشرة ... صاروا البنات ييجوا نعبرهم في الصفوف، بس لاقينا الصفوف مليانات ريحة غاز ... سمعنا إنهم كانوا جايين يعتقلوا ناس عن الشارع .. وجاية الآزنه فاتحة المدرسة وعابرة، فضربوا عليها، هي شردت، ومنيح اللي ما طخوها وقتيها، بس ضاربين عليها غاز، جاي على شقة المدرسة ومتعبي في الصفوف، لما فتحنا الصفوف بدنا نعّبر البنات ما قدروش على الريحه.. فاتصلنا بالوكالة وقلنا لهم هاي اليهود ضربوا على المدرسة مسيل للدموع، فأجوا الأجانب، الـ UN وأجا واحد من الوكالة، فصوروا قنابل الغاز وصوروا بنات تأذوا كثير من الريحه .. فروحنا البنات .. بيجوز حوالي 150 بنت، البنت اللي نشوفها تعبانه نروحها على

---

[103] يقدم فانون في كتابه وصفاً لعالم المستعمرات وما يتعرض له المستعمَر من استلاب وتمييز عنصري يصل به إلى "العيش في حالة من التوتر والقلق الدائم ليصل في النهاية إلى وضع من العجز كما يعبر رواة هذا النمط أو يرتفع منسوب التوتر ليضطر المستعمَر فيه للدفاع عن شخصيته تجاه مواطنه .. فتبدأ المعارك بين القبائل، التي يصفها فانون على أنها إحدى الطرق التي يحرر بها المستعمَر توتر عضلاته (لست متأكدة إن كان هذا التحليل النفسي لوحده يساعد في قراءة الاقتتال الداخلي الفلسطيني الذي يعبر عن صراع بين بنيتين سياسيتين تتنافسان على السلطة وتختلفان في خطابهما السياسي بين الاعتراف بالكيان الاسرائيلي أو عدمه)، ويصف فانون كيف يلجأ المستعمَر أحياناً أخرى إلى الدين، فيخضع مذعناً للقضاء والقدر" (فانون، 1972: 46-48).

الدار، يومها صارت بلبلة .. وما درسوش البنات في غرف المدرسة، ظللوا في الساحة ... درسوا بجوز 3 حصص وبعدين روحوا".

إن قصص رواة قلنديا ضمن هذا النمط غنية بتفاصيل المعاناة من القمع المباشر الذي توقعه عليهم الممارسات الاستعمارية، بينما تتركز معاناة رواة اليرموك على وصفهم للجوء والتشرد والتشتيت الذي أصاب العائلة فيما بعد:

"سيدي كان عنده 6 ولاد، لما هجروهم من إجزم كلهم راحوا على جنين. بعدين من هناك كل واحد راح على مساره: إلي عمين راحوا على الأردن وظلوا هناك، عمي الثالث راح على البصرة، والثلاثة اللي صفوا رجعوا على درعا، وبعد درعا إجينا ع مخيم اليرموك. إحنا تاعين الأردن شفناهم، تاع العراق أنا لهلا مو شايفه ... وأبوي ما شايفه ... توفى هلا من شي شهرين، بس إحنا كنا نطمئن عليه أثناء الحرب على العراق بالتلفون، يعني بنعرف إنه هذا عمي عالتلفون، بس أنا شكله لهلا ما بعرفه، وأبوي ناسي شكله كمان، يعني عيلتنا متشتتين، أبوي ما بتذكر غير إنه هذا أخوه الكبير مهديه ساعة، يعني لهلا بتذكر إنه إله فضل عليه أهداه ساعة، أخوه هذا اللي راح على البصرة وتوفى، والله هي كل الأحداث مؤلمة".[104]

وتصف راوية أخرى، تشتت عائلة أمها، ولحظة اللقاء المريرة التي سبقت وفاة أمها بساعات قليلة:

"كانت مرارة الغربة كبيرة كثير على إمي، لأنه أهلها ظلوا في الأرض المحتلة في الجليل وفي الناصرة، حتى إذا بتذكري طِلعوا لما طلّعوا أول وفد فلسطيني من الأراضي المحتلة كانوا عرب فلسطين، طبعا همي فلسطينيين، كانوا خوالي، إجوا شافوها لأمي تقريبا قعدت معهم أربع ساعات ... فشوفي الغربة والهجرة ومساوئها والاحتلال والحدود البشعة يعني، صار عندها المرارة وصار في عندها التصاقات والبنكرياس وكانت الانتفاضة بأوجها في سنة الـ 2001، كانوا أول وفد طلع. كانت مأساتنا انه الفرحة الكبيرة اللي كنا مهيئينها لاستقبالهم، حي المغاربة كله كان بستنى هذا الوفد، طبعا منهم خوالي، لأنه إحنا المغاربة عمك خالك يعني كلهم قرايب أمي، فكله عم يستقبلهم، فعاشت معهم 3 ساعات ونصف! شوفي من 1-7 إلى 6-11 وهي تنتظر، كانت تقول يا رب انك تحييني لأشوفهم، والله العظيم روحها تغرغر عم تنَتِع بس لتشوفهم تستناهم. فلما أجوا شافت الكل وودعت الكل، حتى حكوا معها من الأرض المحتلة كل أولاد خوالي، فتصوري التهيئة اللي كنا عم نهيئلهم، شهور لنستقبل الفرحة وكان ثاني يوم تشييع الجنازة، فهاي من أكبر المآسي. فتصوري إنك ما بتعرفي فلسطين مزبوط وصرتي تعرفي أهلها، وفجأة الفرحة هاي انغمست بالدم أو مربوطة بحزن كبير ما زالت آثارها لحد الآن...المعاناة اللي عاشتها أمي مو سهله، مثلا إمي طلعت، وتنقلوا كثير، قعدوا سنه عند الحدود مع الأردن وبعدين أجوا على سوريا، كانت حامل وولدت ومات الولد، كانت طفله شو كان عمرها 15 سنه. عم تنتظر العودة ومفتاحها معها، انتظرت الرجعه لحد ما توفت سنه الـ 2001 ومعاها المفتاح، هاي مأساتنا كل ساعة بتكرر".[105]

يمكن لقارىء المقتطفات من روايات المبحوثين في المخيمين أن يلاحظ الفرق في المصطلحات التي يستخدمها اللاجئون في تسمية الأماكن والتي تعكس تأثرهم بالخطاب المهيمن في البلدين، وتسميته للمكان: فهي في هذه الرواية من اليرموك "الأرض المحتلة" بينما في روايات قلنديا يظهر أكثر من اسم: "إسرائيل"، "المجتمع الإسرائيلي"، "المناطق".

ويذكر رواة اليرموك، باختصار، قصصاً مشابهة في سردها لتفاصيل المعاناة لتلك التي سردها رواة قلنديا، وإن اختلف المكان والزمان. يتحدث رواة اليرموك عن فترة الثمانينات تحديداً، فترة اجتياح لبنان والانقسام والاقتتال بين الفصائل:

---

[104] من رواية باسم الإجزمي، 41 سنة، مخيم اليرموك.
[105] من رواية ناريمان معذري، 46 سنة، مخيم اليرموك.

"أحداث سنة 1982، كانت مُرّه كثير بالنسبة إلنا، ما في بيت إلا كان فيه شهيدين أو ثلاث، ومقبرة الشهداء بتشهد إذا مرقتي عليها. وما في بيت إلا وفيه أسير أو شهيد. أنا كان عندي أسير، حتى جدي اللي قلتلك عليه انأسر في سجن عتليت في حيفا، كان دايما يقول عن أخوي *(**تتوقف هنا ثم تكمل**)*. أنا كان في إلي أخ كان مناضل وثوري كثير وانأسر سنة 82، فكان دايما بيقولنا جدي اللي شافه مره لما طلع على الحج، ...أخوي كان رايح يحج، وهناك التقى مع الوفد الفلسطيني أو بالأحرى الفوج اللي كان طالع للحج وكان جدي معهم، فالتقى معهم، فبعث لامي يقولنا هذا بده ينسجن يوم زي ما أنا انسجنت، على قد ما كان أخي يعني كثير ثوري. وفعلاً انسجن بالداخل 3 سنوات وطلع سنه 1985 بعملية النورس اللي بادلوا فيها 3 أسرى فطلع معهم. في كل بيت عايشين قصة انه في كفاح وفي أشبال وزهرات وكشاف كله يعني، هذه التضحيات في الآخر رسخت فينا إنا فلسطينيين. أحيانا بيجوز إساءات أو كذا بس ما بنقدر ننسلخ عن حالنا، يعني ممكن يكون الفلسطيني قدامي غلطان بس قدام غيري ما بقدر أغلطه، ما بتقدري دغري بدك تدافعي، يعني لو هلا حدا بده يقوللي حماس أو فتح آه كلهم اخوات ... بس ضمنيا لا والله رافضه هيك قصة".

وتبدو مشاعر خيبة الأمل والمرارة في وصف أحد رواة مخيم اليرموك لمشاركته في حرب لبنان، وخيبة أمله من أداء الفصائل والأنظمة العربية على السواء:

"أنا عشت لبنان، (وبدأ يؤشر على جروح في جسده) هاي واحدة، وهاي هون، وهون، أنا حضران لبنان من الـ 77 لـ الـ 86 لما طلعنا بالبواخر. وأنا جريح حرب ومعي شهادة جريح حرب، ومعي شجاعة حرب، ومعي ميداليات من الحرب ومعي ميداليات من جيش التحرير الفلسطيني .. بس أنا ما كنت راضي بهالحرب، كانت نفسيتي وقتها تعبانه لأنه ما عم نعرف مين عدونا! مين عدونا؟ نحنا إجينا لحماية هالمخيمات، نحنا شو إلنا علاقة نتجه لمنطقة معينة؟ يعني قال خط تماس وهذا عدوك، وين عدوي؟ كل هالنضال اللي علم على جسمي على الفاضي ... أنا انبسطت بشغله واحدة: بـ"حصار بيروت"، هذا عدوي الوحيد (وقالها بحسم) **إسرائيل** (يقولها بتشديد) هذا عدوي الوحيد، هذا عدوي ... هذا عدوي، هذا عدوي، يعني مثلاً مثل الجبهة العربية لنفترض مثلاً الجبهة العربية بتشتبك مع مين؟ مع أنصار الثورة، طب ما هذا عربي مسلم وهذا عربي مسلم. كيف هذا عم بوجه سلاحه على هاذ بعد جمعة، جمعتين، 3 أيام تصالحوا ومشيوا بنفس الشارع! إذا هذا مو عدوي، هاي فتنة! فتنة، فتنة داخلية، لشق وشرذمة الوطن العربي كله، لشق لبنان، لشق فلسطين، لشق سوريا، فتنة من الداخل مو من الخارج بس تمول من الخارج، معروفة. أنا والله خيبان أملي من جميع الأنظمة العربية كلها، أنا بعد ما شفت صور صفد، وصور أخواتي، وكيف كانوا يحكوا أهلنا وختايرتنا، وبعدين شفنا الواقع من الـ 67. وبعد ما طلعنا من هناك (يقصد بيروت)، إحنا بالـ 82 كنا متوقعين، يعني كان أملنا كثير كبير، أنه تتحرر لبنان ونفوت على الأراضي العميقة وكان بإمكاننا كلنا نفوت، بس كمان كان في خونة وخزي عربي وخيانة عربية. يعني من الـ 48 واقعنا يعني، وهذا كلام أنا بتحمل مسؤوليته إن كنت عم بتسجليه، الخيانة العربية من الـ 48 لحد هلا وكله عم بتآمر عالشعب الفلسطيني".

وتصف راوية أخرى المشاكل التي يعيشها الفلسطيني المحروم من الجنسية، حتى في تنقله بين البلدان العربية:

"كنا في بولمان على حدود الأردن، مليان ركاب، ومن بين الكل استوقفوني أنا، وأمي كانت معي، وواحد أردني قاعد بلبنان.. إحنا بس استوقفونا وكلهم مشيوا، يعني إحنا حملة الوثيقة، بيتعاملوا معك على الحدود كأنك متهمة، هاي المعاملة بتذكرنا وإحنا بنتوقف شو إحنا، بتذكر كيف جاوبت الشرطي على الحدود لما سألني: أنت من وين؟ قلت له: جوازي، يعني وثيقتي معك فمعروف أنا من وين، وجايه من سوريا. لما ما أعجبه جوابي، قلت له: جزائرية الأصل، فلسطينية الجنسية، سورية الموطن ووثيقتي معك".

إن الإحساس المشترك الذي يشعر به القارئ لهذه الروايات، هو الإحساس بالعجز واليأس من إمكانية حدوث أي تغيير في الوضع الحالي، الأمر الذي دفع بالرواة إلى الانزواء أو الانسحاب من المشاركة

في صنع الحدث، حتى من كان فاعلاً منهم في السابق (هو و/أو عائلته)، فإنه يفضل اليوم الانشغال بشؤون الحياة اليومية ومراقبة الوضع بصمت، بعد أن يئس من جدوى العمل السياسي أو المقاومة.

مولدات الإحباط في المخيمين

تحتل المعاناة من الممارسات الاستعمارية الجزء الأكبر من روايات المحبط، لتظهر، للوهلة الأولى، كسبب رئيسي للإحباط واليأس الذي يحيط بالصورة التي يبنيها الرواة هنا لفلسطين في سردياتهم. لكن يفسر الرواة إحباطهم بأسباب أخرى، هي في الغالب أسباب ذاتية. فيتوجه النقد والغضب هنا إلى الذات الفلسطينية والعربية لتُلام على تقصيرها في تأمين الشروط التي يمكن أن تتحقق فيها شروط حياة أكثر إنسانية. وأكثر الأسباب تكراراً هو اتفاق أوسلو، يأتي بعده نقد التعصب الحزبي، وغياب الوحدة الوطنية، وتدهور مستوى التعليم، واليأس من القيادة بعد عودتها من الخارج وسياستها التي وصفها البعض بسياسة التجهيل وتغييب المؤسسات وتضييع انجازات الكفاحات السابقة. كما يتردد في معظم الروايات شعور باليأس من المقاومة التي تحولت –في نظر البعض– إلى مجرد تنفيس عاجز عن تحقيق أي تغيير، ليتضخم الشعور بالعجز أمام تضخم قوة إسرائيل في عيون الرواة هنا.

وسأعرض فيما يلي باختصار بعض الأسباب التي يُجمع عليها الرواة هنا للإحباط الذي يسيطر على رواياتهم:

أولاً: التطورات السياسية بعد أوسلو، وأداء السلطة

وجه رواة هذا النمط نقداً صريحاً لمشروع أوسلو بشكل عام، حيث اعتبروا أنه لا يلبي طموحاتهم وتطلعاتهم. حيث تأمل بعض الرواة في قلنديا بأن يجلب لهم اتفاق أوسلو بعض الأمان الذي افتقدوه طويلاً، لكن الأمل لم يدم طويلاً:

> "كان عنا شوية أمل لما أجت منظمة التحرير هان، على كل حال صار الواحد يروح ويجي. بس فش أمان الساعه، لحد الآن فش أمان، يعني ممكن أروح على رام الله وفي أي لحظة... عالمحسوم هاد فش حد فلسطيني ضفة بقدر يقدم إلا يكون هوية قدس."[106]

بينما لم يجد رواة اليرموك أن المشروع يقربهم من آمالهم وطموحاتهم ويضع حداً لحالة اللجوء والتشتت وعدم الاستقرار التي يعيشونها:

> "هاي حدود الـ 67 وكذا هاي ما حققت لي أنا شيء، بالنسبة إلي أوسلو ما حققت لي إشي، لأنه أرضي أنا بالجليل الأعلى، قضاء صفد، إذا بدي أرجع لما ترجع الـ 67، مالي شي فيها أنا، لا بغزة إلي شي ولا بالضفة، ما إلي شي."[107]

ويلاحظ أن لهجة النقد أكثر حدة في روايات قلنديا عن تلك التي في اليرموك، وقد يرجع هذا إلى أن رواة قلنديا تأثروا مباشرة بالتغيير الذي حدث بعد أوسلو. كما انتقد البعض تقصير السلطة الفلسطينية في تنمية الشعور الوطني لدى الجيل الجديد:

---

[106] من رواية أبو غسان العرتوفي، 65 سنة، مخيم قلنديا.
[107] من رواية نوح الخصاصي، 50 سنة، مخيم اليرموك.

"وجابوا الفلسطينية من برا، زي الشرطي بس مشان يدير الحكم الذاتي، هذا اللي صار، إدارة حكم ذاتي بس، إنه إحنا الأمن معاكم، والهويات ودائرة السير والنظام العام في البلد هذا استلموه .. لكن هل هذا بحصل حقوق إلنا؟ ما بحَصّل.. لما بتدخل الدبابة الإسرائيلية على رام الله، بتلاقي الجندي الفلسطيني بيتخبى جوا الدكان، بسترجيش يوقف قدام الدبابة بسلاحه ... لأنه إذا ظل واقف بسلاحه بينطخ.. فعمره الضعيف ما بيوخذ حقه" (من رواية أبو أمين القبيبي، 56 سنة، مخيم قلنديا).

"جيل اليوم بيعرفوش اشي، فش حدا يقول لهم؛ فش حكومة، الجماعة الجايين *(في إشارة للسلطة القادمة من الخارج)* بيعرفوش وقاصدين تجهيل الناس، بعد الـ 67، بطل في تعليم زي العالم، هلا اسألي جيل اليوم، الواحد منهم بيعرفش وين نابلس. ... كل أملنا كان في منظمة التحرير الفلسطينية وفتح قبل دخولهم لهون، لكن لما إجو، غيروا كل الصورة والواحد مش مقتنع فيهم، لو ظللوا برا يمكن كان قدروا يعملوا شي، كان الواحد عنده أمل فيهم ... وما إلها حل، يا إحنا يا هم *(الإسرائيليين)* في البلد، بدها حرب، أما سياسة ومفاوضات هذا كله حكي فاضي، إلهم 60 سنة بجربوا، شو طلع معهم؟... كلهم بدهم مراكز ومصالح شخصية ومناصب، بدهمش بلد وتحرير، جماعة، كيف اليهود بدهمش سلام، لأنه إذا صار سلام بينتهوا، بقدروش يعيشوا، كمان جماعتنا مستفيدين من الوضع هيك وبدهمش سلام .... أنا قرأت اتفاقيات أوسلو، شفتي نهايتها؟ يعني هي إنه الضفة ترجع للأردن وغزة لمصر، يعني ما تبقى من الضفة الغربية، راح يخلونا إحنا نطالب إنه يرجعونا للأردن، يعني هذا كله موجود في أوسلو" (من رواية أبو مالك الصرعاوي، 61 سنة، مخيم قلنديا).

"أنا أقول إن نكبتنا ليست ما قام به اليهود، كانت مجرد حرب ومؤامرة لم يواجهونا وجهاً لوجه، نحن كنا فلاحين نعمل في الأرض ... ولم نكن نخوض حروب... النكبة الحقيقة حسب حسابات المخيم وليس وفق حسابات القيادات سواء فتح أو الشعبية، أنا أحسب كابن مخيم.... النكبة الحقيقية إن القيادة بعيدة عن انجاز أي مكاسب. وهذا الكلام أنا واثق منه. لو كان هذا هو برنامجهم السياسي فنحن بعيدون جداً" (من رواية أبو فادي البرفيلي، 47 سنة، مخيم قلنديا).

" وحالياً إحنا تأملنا إنه يصيرلنا حكومة ودولة بس انقضى علينا ... لسه وضع الشعب الفلسطيني كان في الضفة أحسن من لما أجت السلطة علينا كثير كان أحسن، كانوا أول إشي عايشين بحرية ورفع رأس. بس هالقيت، لا، صارت إلنا دولة وانذلينا، بدال ما ترتفع روسنا، انذلينا .. وكملو ها يختي، لسه فتح وحماس: بلشوا يتقاتلوا على الكراسي .. على شو بدنا نتأمل؟ في ايش نتأمل؟" (من رواية أسماء القبيبية، 52 سنة، مخيم قلنديا).

ثانياً: اليأس والتيئيس من جدوى المقاومة

يحيل رواة مخيم اليرموك أسباب فشل المقاومة اليوم إلى الازدواجية الغربية في التعامل مع الفلسطينيين وحقهم بمقاومة إسرائيل كقوة مستعمرة، والاتفاقيات التي التزمت بها القيادة الفلسطينية، والتشتت في صفوف الفلسطينيين أنفسهم:

"أنظري مثلاً إلى خروج إسرائيل من جنوب لبنان، المفارقة هنا أن العالم اعترف بالمقاومة المسلحة ودورها على أساس أنه اعترف أن المقاومة تقاوم إسرائيل من الأرض اللبنانية المحتلة، أما في حالتنا، فالعالم لا يعترف أن الأرض لنا".

"أنا بقول المقاومة أفضل. حتى مقاومتنا هلا مشتتة. يعني كل شعب عنده مقاومة بس إحنا حتى المقاومة عنا هلا متشتته ... هي الاتفاقيات أثرت عليها ... المقاومة حالياً ضعيفة جداً. ليتنا نكون مثل المقاومة في لبنان يعني حزب الله حزب متماسك، وهذا ما يميزه عن المقاومة الفلسطينية، مع إنه المقاومة الفلسطينية التاريخ بشهد لها، بشهد لها بفترات السبعينات، الثمانينات، وحصار بيروت. لكن بعد اتفاقات أوسلو ما بعرف شو صار بالدنيا ... قدروا يفرقوا الشعب الفلسطيني عن بعض، يحاصروا المقاومة وبفرقوها ... .، يعني كل ساعة لازم أسمع نشرة الجزيرة، أقطعلها المسلسل لمرتي بقول لها: بس بدي أشوف شريط الأخبار، يعني بعد ساعة بكون حاطط في بالي إنه شي يكون صار، يطلع خبر عاجل مثلاً، المقاومة ... شي ببسط يعني إنه والله في عملية صارت مثلاً وفي مقاومة بفرح الواحد ... ".

بينما يعزو رواة قلنديا يأسهم من المقاومة إلى تراجع أساليب ونفس المقاومة، أو إلى تحويلها إلى مشروع ربحي استثماري:

"شوفي أنا عايش في الـ 36 كان في ثورات، ما كنش في بلفونات مثل اليوم، كان الواحد يقف على راس الجبل، يقول: هيه يا أهل البلد الفلانية، صار في معركة في البلد الفلانية، تلاقي اللي حامل كريك واللي حامل عصاه وهاجمين عالدبابات، وعالجيش البريطاني، هذا شو بعني، هذا نخوة ومروءة الناس تفزع لبعضها، اليوم ببقى أخوك يقتلوا فيه جنبك بتقدرش تفزع له. وإحنا في سنة الـ 48 بقى الواحد يبيع بقرة من بقراته، يروح يشتري بارودة من كيسه ويشتري فشكاته من كيسه ويقدم حياته، مشان القضية. ونروح ندشر بلدنا، وين بير اماعين، ونروح على باب الواد، بالخط الرئيسي اللي بيربط يافا مع القدس، نقعد هناك في باب الواد، نحاصر وننام ليالي، نمنع القوافل اليهودية اللي بتجيب الأرزاق من تل أبيب على القدس، والسيارات اللي حرقناهم، لحد الآن بحطولهم أكاليل اليهود بدهنوهم بويا وبحطولهم أكاليل زهور، هدول اللي إحنا كنا ندمرهم لليهود. .. إحنا بس النخوة، يدب الصوت من بلد لبلد لبلد تلاقي البلاد كلها فزعت والشاطر بشطارته سلاحه من كيسه ومقدم حياته بدون مقابل. قال هان صار اللي يضرب له الولد حجر على سيارة ويوخدوه اليهود بعنكر أبوه عقاله، ويصير هذا فدائي يروح يجيب أبوه مصاري من المنظمة. شو سوا ابنه؟ ما هو الطلق بأثرش فيه هذا الهمر والدبابات تبع اليهود، الحجر تاع ابنك يعني صاوبها، دمرها؟ المهم أنه الناس تراجعت، النفس مش زي أول".

ويلاحظ من الرواية السابقة أن الراوي يصب غضبه على تقصير الفلسطينيين اليوم في المقاومة وسوء استغلالها من قبل البعض. ولكنه لا يشير إلى الاختلاف في موازين القوى بين الفلسطيني المقاتل في جميع المراحل (الكريك، العصا، البارودة، الحجر)، وبين الإسرائيلي (الدبابات والمدرعات والهمر). وبالمقابل ينتقد الرواة الأكثر تسيساً، غياب المشروع السياسي الذي من الممكن أن يدعم المقاومة على الأرض، مما يترك الفلسطينيين في حالة ضياع:

"أنا بعتبر الانتفاضات والمقاومة الموجودة لحظات عفوية، لحظات تفاؤل. كلها أمور حماسية تخرج بعاطفتنا من منطلق: أنت يهودي أنا عربي، أو أنت يهودي استوليت على ارضي، وليس كموضوع حبكة سياسية. اعتبر جميع الأمور عفوية. خذي مثلاً فتح فهي لا تملك أي برنامج حالياً... اليسار بشكل عام والذي كان في يوم من الأيام محراب لثورات العالم جميعها لا يملك أي برنامج... يعني حماسة أولاد مخيمات! نحن عندنا في المخيم يشربون السياسة مثل الماء مع احترامي للقرويين وغيرهم، تربية أبناء المخيمات أولاً يقولون السلام عليكم سياسة. نحن هكذا تربيتنا... جميع المخيمات عندما يبدأ الطفل يصل إلى مرحلة فهم يبدأ يعيش هذه المرحلة شعبية وفتح ومقاومة ويهود وغيره. أنا اعتبر هذه المرحلة الجميع يمر فيها لكنها تلقين وليس بوعي أو تركيز ولا يوجد استثمار حقيقي للنضال. .. لا يوجد أُناس تستثمره.. أنا لم أر على جميع وسائل الإعلام محاضرة حقيقية تتحدث عن حلّ...الجميع يتحدثون عن لوم...البارحة شاهدت محاضرة خلال متابعتي للتلفاز وكان المحاضر صالح عبد الجواد – محاضر في جامعة بير زيت، لكنهم لم يعطوا حلاً. نحن نسمع هذه التحليلات باستمرار، أي شخص يستطيع أن يعطي تحليلاً ويُشَرِّح المسألة، لكننا نحتاج إلى علاج. العلاج هذا يجب أن يكون هناك قيادة، يكون هناك مسؤولاً نُسلم أُمورنا إليه. نحن نعيش حالة ضياع للأسف يعني."

ثالثاً: الانقسام السياسي على الساحة الفلسطينية

يسيطر على صورة فلسطين الحدث السياسي اليومي، خاصةً في ظل انتشار الفضائيات والتغطية الإعلامية للأحداث، مما يفسر ظهور موضوع الاقتتال بين فتح وحماس بكثافة في معظم روايات

مخيم اليرموك. ويتكرر هذا العامل بشكل رئيسي في روايات هذا النمط في المخيمين، كمولد للإحباط وخيبة الأمل:

"ما شايف طموحات هلا في هالوضع المشتت، عسى ولعل إنه يتصلح الوضع هذا ويرجع الشعب الفلسطيني يتكاتف مع بعضه، بظن وقتها ممكن أفكر في طموح مستقبلاً، هلا إحنا شاعرين بحالة اليأس والله ... حتى مقاومتنا هلا مشتتة. بعد اتفاقات أوسلو ما بعرف شو صار بالدنيا ... قدروا يفرقوا الشعب الفلسطيني عن بعضه، يحاصروا المقاومة ويفرقوها ... كل واحد عامل كرسي لحاله وخايف ع الكرسي تبعه" (من رواية نوح الخصاصي، 55 سنة، مخيم اليرموك).

"بنرجع بنقول المسؤولين من كل فصائل المقاومة الفلسطينية، كلها بدون استثناء، عم تغلط بحق شعبها، ما عم بقول فتح أو حماس، الكل عم يغلط. وشعبنا هو اللي عم بيدفع الثمن بكل فئاته. مثال بسيط: في غزة، إذا واحد معه مرض قلب وبده يروح يتعالج ما عم بسمحوا له يطلع وإذا معه مرض بالكلية وبده غسيل كلية ما عم بسمحوا له يطلع مشان شو؟ نتيجة الخلافات الموجودة، الإنسان هذا عم بموت مشان فلان ميبس راسه ..." (من رواية أبو كريم السمخي، 57 عاماً، مخيم اليرموك).

وتعبر أم راجي القبيبية عن ألمها لهذا الوضع بأسلوب بسيط بعيد عن الخطاب السياسي:

"ما هن إخوة ما هم ليش يعني بتحاذفوا هيك، وبتقاتلوا يعني هالقيت مش بقوا في إخوة اثنين في هالدار واحد فتحاوي وواحد حمساوي مش أخوة وولاد من إم وأبو؟ وبيتقاتلوا على اشي فاضي يعني، مش مساووين فايده للناس. يعني هالقيت اليهود بخشوا على هالدار بنبشوا فيها، بيقتلوا على كيفهم..".

الرؤية المستقبلية

من الملاحظ أن الصوت النقدي المسموع هنا هو أقرب إلى التذمر السلبي،[108] مع أن بعض الرواة حددوا علل وأسباب إحباطهم، إلا أن إحساسهم بالعجز جعلهم يفضلون الانسحاب من الواقع على مواجهته، ليكملوا مسلسل الانتظار. تنتهي روايات هذا النمط بنفس الصوت المحبط اليائس من الوضع السائد، الأمر الذي يجعل الراوي عاجزاً عن التفكير بالمستقبل؛ فيختار نشيطو الماضي الصمت إلى أن "ينعدل" الوضع _بحد تعبير أحد الرواة_ ويترك الباقون الموضوع بيد الله، بينما يختزل البعض أمنيته في البقاء على قيد الحياة في المخيم.

تظهر قمة الإحباط والعجز عن التفكير بأية إمكانية للتغيير حين يعتقد اللاجئ أنه في حالة اقتلاع لا فكاك منها، ولا جدوى من مقاومتها، فهو لوحده عاجز، ولا يوجد من يدعمه، لذا ينظر إلى حق العودة كأمر مستحيل أو يلجأ إلى قوى غيبية:

"يعني بنتأمل يصير الوضع أحسن من اللي إحنا فيه، والواحد يتريح، أما بلادنا؟ مش رايحين نرجعلها بس يخلونا محلنا ويخلف على الله،- والله يخلونا محلنا ويخلف على الله ما يظلوش يتحكرشوا فينا، ولا عمرها راح ترجع فلسطين! هذا حكي بس يصطلحوا ويخلونا كل واحد في محله ويخلف على الله، أما القول يرجعوا للـ 48 لهديك الشقات ولا عمرهم برجعولها، وهذا حق العودة، من يوم ما خلقنا وإحنا بنسمع في هالكلمه هادي، وعالفاضي، حكي عالفاضي". (أم راجي القبيبية)

[108] المقصود بمصطلح "سلبي" هنا غير فاعل.

وتستبعد الراوية من مخيم اليرموك أية إمكانية لتغيير الوضع، لكنها تتمنى الحصول على أية جنسية تمكنها من الدخول إلى فلسطين كزائرة على الأقل:

"بتمنى أحصل على جنسية، حيّالله، كندية، سويسرية، سورية، سعودية، أية جنسية تسمح لي أفوت على أرض الـ 48، أما العودة؟ حق العودة؟ هذا حق العودة يعادل دمار إسرائيل، وإسرائيل ما راح تقبل فيه أبداً أبداً، فأقل من إنه أنا أفوت أشوفها، يا أخي، بفوت بزورها وبطلع! موافقة، بس خلينا نفوت نزورها، نشوفها .. رفقاتي بالشغل في منهم معاهم جنسيات أسترالية وكندية بفوتوا على القدس وبصلوا بالكنيسة تبعهم وبطلعوا.. بتمنى تنحل القضية والعودة لوطننا: أنا مع دولتين كل واحد برجع على بلده وأنا بروح على إسرائيل."

إن الواقع الاستعماري أقوى من أن يقوموا بمواجهته لوحدهم. وفي غياب الدور العربي ودول عظمى تساندهم، لم يبقَ أمامهم إلا العناية الإلهية:

"إحنا عملياً بتعرفي شو اللي بيعملوه فينا، في سقف الدار: كل ما بنزلوه، مش بنحاول ندفعه، بنحاول ننقص من رقبتنا شوي ونتأقلم معه ... مرة بنحودب ومرة بنطعج رقبتنا .. فالسقف قاعد بنزل، ما بطلع، ولا بثبت كمان. فكل ما نوافق، بنزلولنا إياه. بس في شغله، مع إني أنا مش كثير مع الاتجاه الإسلامي، بس عنا قضيتنا هاي قائمة، في شغله مخليتها قائمة غير الأمور هذي، في عناية إلهية بهاي الأرض مخليتها قائمة، يعني ربنا حط كل هندسته هون، كل الحبكة تبعة العالم هون. ففش عليها خوف المنطقة هاي. يعني لو بدك تيجي من ناحية تحليلية ومنطقية، تحسبي بورقة وقلم: كيف الناس عايشين في المنطقة هون؟ بتعرفيش، بس عايشين وعايشين منيح. كيف بتعرفيش؟ في إشي خفي موجود هون، في بركة في اشي، مع إنه لا نستحق ... يعني الناس هون قعدت 10 أو 12 شهر ما قبضتش رواتب وكان وضعها سيء، وقعدت ما تغيرش عليها اشي كثير يعني! كيف؟ بتعرفيش ... وبعد عشرين سنة إذا بنظل في المخيم، كويس ... أنا واقعي مش لأنه فش أمل، لأني شايف الوضع اللي هون مربوط ببرا بالوضع العالمي، يعني فلسطين نقطة في بحر في العالم، في دول عظمى احتُلت ودُمرَت يعني بنحكي بـ 17 يوم العراق راح!... هم مش كبار، بس إحنا ضعاف ... إحنا كثيرين وقليلين بركة."

وتحدد راوية أخرى، موعد الحل أيضاً اعتماداً على إعجاز قرآني:

"وعد الله حق والنصر للمؤمنين بإذن الله ... وإلا ربنا بيعتلنا واحد مجاهد بنجد فلسطين، مثل ما بعث صلاح الدين، واحد من هالأمة ... ولا يمكن تنحل إلا بالجهاد، بتوقع 2022 تكون نهاية إسرائيل، هذا تحليل إعجاز قرآني، ... فخلص هلقيت بدا العد التنازلي."

بينما يعبر راوٍ آخر عن ثقته بنصر الله مستشهداً بحديث عن الرسول، ويستبشر بتسونامي يضرب المنطقة الغربية ويحيل إسرائيل هباء منثوراً:

"فلسطين من البحر للنهر، هذا اللي بنعرفه عن فلسطين من يوم ما خلقنا، فهذه الجرثومة اللي دخلت في فلسطين وعملت الكانتونات الاستعمارية في النصف هذه انشالله بتزول! ما بتظل. وفش إشي على الله بعيد، يعني تسونامي خلال لحظات خلاها تروح هباء منثوراً! فربنا كريم، يجيب إعصار على المنطقة الغربية. بعدين الرسول (ص) في زمانه لما دخل الجراد على المدينة فدعا الصحابة وقال لهم: "ادعوا أن يتجه إلى بيت المقدس" قالوا له: لماذا يا رسول الله؟ قال لهم: لأنه لا يعمر فيها ظالم، هدول ظالمين وبإذن الله لازم يروحوا ما بظلوا."

أما الرواة الأقل تشاؤماً ضمن هذه الفئة فهم أولئك الذين كانوا من الفاعلين سياسياً في الماضي، واختاروا الصمت اليوم. ومن الملاحظ أنهم الأشد انتقاداً ضمن هذا النمط. والصمت هنا، ليس سلبياً تماماً، وإنما يمثل، كما يبدو من الصوت النقدي في رواياتهم، موقفاً من رداءة الواقع السياسي عموماً والحزبي خصوصاً. فحين شعر هؤلاء بعجز الحزب عن تلبية طموحاتهم، وفي ظل غياب بديل،

آثروا الصمت. وبناء على تحليلهم للوضع، قرروا أن التضحيات تقدم حالياً بدون فائدة. يلخص المقطع التالي من احدى روايات مخيم اليرموك هذه الصورة:

"نحنا فلسطينيين شو اللي بهم فلسطين نحنا معه نحنا مو مع فلان. صح أنا كنت بفتح، أنا مو فتح هلا، فتح القديمة. لما تأسست، وعشان الأهداف اللي تأسست عشانها. أما لما صار في: صاروا يبعبشوا وأنا مع الوحدة. أنا بلدي الأساسية ما رجعت، يعني أنا ما رجعت على سمخ، العودة بتعني كل واحد يرجع على بلده، وهالشي مو بهالسهولة راح يصير. وبمفاوضات ما راح يصير! اليهود ما راح ييجوا يقولولك هاي حيفا تفضلي. وبالمقاومة إذا ما كان في قوة فعلاً ما راح يصير، وطبعاً بالوحدة الوطنية، لأنه الوحدة الوطنية بتربط الشعب الفلسطيني ياللي بالـ 48 ضمن فلسطينية الداخل وفلسطينية غزة وفلسطينية الضفة الغربية وفلسطينية الشتات بالعالم. هذا مفهومي أنا للوحدة الوطنية ... الأفضل الواحد اليوم يقعد على جنب، أنا الضجة كلها ما بحبها. بالنسبة إلى أطلع أعمل مظاهرة فاضية ما بحب، وشو النوادي كلها موجهة، هالانقسامات هاي عم تضعفنا، ما عم بتقوينا. وأنا بهمني فلسطين، القضية الفلسطينية، مين اللي بكون قوي فيها أنا معه. المشكلة إنه شعبنا فقير بالمعلومات مو بس بالفقر المادي."

ويتخذ رواة قلنديا النشيطين سياسياً في السابق موقفاً مشابهاً. فيختارون التزام الصمت في ظل غياب برنامج سياسي. دون الاكتفاء بالنقد فقط، وإنما يبحثون في الحلول الممكنة للخروج من الوضع المأزوم، وإن بقي الحديث هنا على مستوى الفكرة الفردية، ليردنا إلى ما يمكن تسميته طغيان الانفعال على الذاكرة. فمجرد هذا اللون من الحديث هو تعبير عن مرارة، هي درجة من المقاومة للشرط الاستعماري الذي يسيطر على حياة الراوي كما يوضح المقتطف التالي للراوي الذي يعمل اليوم تحت إمرة مستعمره على أرض قريته الأصلية. فهل هناك اغتراباً أعلى من هذا وأكثر مرارة؟

"أنا تستطيعين أن تضعينني في خانة اليائسين. أنا سجين سابق في الثمانينات. نحن الفئة الصامتة. كثير من شعبنا يُعتبر من الفئة الصامتة. أنا لم أذهب قط لانتخابات ولا مرة. حتى عندما حضرت السلطة أنا من الناس الذين وضعوا علماً اسوداً على البيت. بالنسبة لي أية خطوة يقومون بها باتجاه السلام سوف تُفرح الناس مثلما القوا أغصان الزيتون على دبابات الجيش الإسرائيلي سابقاً عندما دخلت السلطة، بس بالنسبة لي كان منظراً مضحكاً. أنا أقول ماذا يعنيني في هذا الأمر؟ أنا وطني الحقيقي معروف. هناك ابتعاد عن الثوابت الوطنية. قيادتنا لن تستطيع أن تحقق شيئاً بهذه الطريقة. منذ البداية أحسست أنهم لا جدوى منهم. روابط القرى أشرف منهم. أذكر أن رابين في بداية الانتفاضة كان مستعد أن يتنازل عن 1967 لم يكن هناك ولا مستوطنة. حتى اليهود اليساريين حيث أنهم مرنون يقولون العقبة التي أمامنا ليست الماء أو الكهرباء أو البنزين أو الوضع الاقتصادي، العقبة هي المستوطنات. حتى شلوميت ألوني التي كانت سكرتيرة الدولة قالت العقبة الوحيدة التي سوف تواجهنا هي المستوطنات، وقالت إن الجولان ليست لنا فلم نحتفظ بها؟.. أنا أولادي يعرفون أننا من فلسطين 48 ولا علاقة لنا بغيرها.... يجب أن تحدث انتخابات حقيقية للفلسطينيين بعيداً عن أوسلو. وفي النهاية ما بحك جلدك غير ظفرك. كفلسطينيين علينا أن نحل مشاكلنا، يعني حماس وفتح كي نستطيع أن نصل لآلية مع بعض قوى اليسار أو القوى الوطنية مع القوى جميعها نستطيع أن نصل إلى آلية. هذا الآلية على ضوئها يتحدد برنامج سياسي. إما نتبنى الكفاح المسلح، نحن لن نخسر شيئاً في المخيمات. يعني ثوروا فلن تخسروا سوى القيد والخيمة، يعني الدار لم تكلفني كثيراً....والـ 67 ليس مشكلتي. هذا غيرُ كافٍ. قد يكون مرض لغالبية الشعب الفلسطيني، لكن بالنسبة للمخيمات أين سيذهبون بنا. نحن ليس لدينا موضوع للمساومة، لا نساوم على الأرض."

محاولة لقراءة التناقض في الرؤى المستقبلية

يتضح، ضمن هذه الفئة، تداخل علاقات السيطرة والهيمنة من تضارب الرؤى حول المستقبل، فبينما خلقت هيمنة الخطاب السائد إحباطاً كبيراً يصل إلى حد العجز في التفكير في أي مخرج من الواقع

الصعب لدى بعض الرواة، تعكس الروايتين السابقتين مقاومة الرواة هنا للهيمنة أو الإجماع العام، ضمن الخط السياسي الفلسطيني الذي كان سائداً في بدايات أوسلو. فالحوار والقلق النفسي، الذي ورد في هاتين الروايتين، يتجاوز هذا أو يذهب في تعقيد أبعد، وهو خيبة الأمل واليأس لدى من شاركوا في العمل الوطني وكان لديهم افتراض عال في الحزب حينها، ليرفضوا اليوم هيمنة الخطاب الحزبي التي قبلوها في الماضي. ويظهر هذا في يأس أبو كريم بسبب الطريقة التي تطور بها حزبه وتغير خطابه السياسي أو توقف أبو فادي عن العمل السياسي. فالتغييرات التي جلبها مشروع أوسلو على أرض الواقع تحت شعار بناء الدولة الفلسطينية، والخطاب السياسي الفلسطيني الذي رافقها، لم ينجح في ترسيخ هيمنته على الرواة هنا. حيث غلبت علاقات القوة التي يفرضها الواقع الاستعماري المستمر على حياة الرواة، وزاد من حدتها غياب المشروع الوطني الذي يمكن أن ينخرطوا عبره لمواجهة واقع الاقتلاع هذا، مما زاد من اغتراب هؤلاء الرواة، وزاد بالتالي من العناد الوطني.

تعبر هذه الروايات عن المأزق الاستعماري، حيث وجود الفلسطيني/المستعمَر لا يتحقق إلا من خلال الإسرائيلي/المستعمِر، وفي ظل غياب الإمكانية لوجود علاقة أخرى غير علاقة السيد بالعبد: فالمستعمِر هنا، هو السيد القوي، الذي يتحكم بمصير المستعمَر، وبكل ما يحيط به من روح وجماد وهواء وماء. وفي القصص التالية، لم يكن أمام الفلسطيني، في روايات هذا النمط، سوى خياران: إما أن يحاول الانعتاق ويرفض ويقاوم السيطرة الاستعمارية، وحينها ينقض عليه الإسرائيلي بمخالبه التي يقلمها أكثر كلما ارتفع منسوب المقاومة لدى الفلسطيني. ليصلح هنا تطبيق المعادلة التي نحتها إيمي سيزار يوماً الاستعمار = التشيئية.[109] (Césaire, 1972 taken from Williams, Patrick and Laura Chrisman, 1994: 177). ومن الطبيعي أن يتولد، عن هذه الحالة، اغتراب يعيشه لاجئو الداخل والخارج على حد سواء. ومنشأ الاغتراب هنا مركب، فهو ليس ناشئاً عن استمرار حالة الاستعمار فقط، وإنما أيضاً بسبب غياب مشروع وطني لمواجهة هذا الاستعمار، حيث تكشف الروايات عن تعمق الفجوة بين الوضع الذي يعيشه الشعب والموقف الرسمي لممثليه. وعلى الرغم من أن هؤلاء الممثلين ما زالوا يرددون بعض الشعارات عن التمسك بحقوق اللاجئين وعودتهم خلال المناسبات الرسمية، إلا أن ممارساتهم على أرض الواقع لا تتفق مع آمال وطموحات اللاجئين بالعودة، أو على الأقل بالخلاص من حالة الاستلاب والتشييء التي يعيشونها.[110]

لا يملك رواة هذا النمط، في حالة العجز الخاص والعام التي يعيشونها، من سبل لتحرير ذواتهم إلا بالصمت أحياناً، وبالضحك على سخرية الأقدار من الازدواجية التي تخلقها الحياة في ظل الاحتلال،

[109] From Discourse on colonialism.

[110] يشترك منظرون عديدون في وصف حالة الاستلاب أو التشيئية المصاحبة للممارسات الاستعمارية: فرانز فانون (معذبو الأرض، بشرة سوداء وأقنعة بيضاء، العام الخامس للثورة الجزائرية)، سارتر (في مقدمته لفانون، رسائله لسيمون دي بفوار)، ميمي (صورة المستعمِر والمستعمَر).

وتحدي المحتل كلامياً أحياناً أخرى،[111] أو الرفض أحياناً أخرى،[112] أو ترك الأمر "للمشيئة الإلهية" كما عبرت المجموعة الأكبر ضمن هذا النمط في رؤيتها للمستقبل. عبر أكثر من نصف الرواة تقريباً عن يأسهم من إمكانية التغيير إلا بإرادة الله—أو بتسونامي يضرب البلاد. ويمكن أن نميز هنا المجموعة التي اختارت الصمت بناء على قراءة نقدية تحليلية للوضع العام الذي كان في الماضي جزءاً لا ينفصل عن حياتهم الخاصة، وربما كان هذا هو السبب الذي دفعهم للانسحاب من العام إلى الخاص اليوم نتيجة يأسهم من القدرة على التغيير من خلال "العام" بعد انقلاب برامج الأحزاب التي كانوا يعملون ضمنها وانزياح المعايير باتجاه لا يتناسب مع تفكيرهم. يُعد اختيار هؤلاء للصمت نوعاً من المقاومة للخضوع للواقع الذي يرفضونه، هي مقاومة على سلبيتها،[113] فوسط غياب الإمكانيات لتغيير الوضع المفروض عليهم بالقهر والعنف لم يكن أمامهم إلا الارتداد إلى دواخلهم للبحث عن تفسيرهم الخاص للواقع الذي يعيشونه ومحاولة الاحتفاظ بالقدرة على رفضه ضمن نطاق حياتهم الضيق إما بالاستثمار في الأبناء الذين قد يتغير الوضع على أيديهم أو بمجرد الحفاظ على البقاء والصمود. وهذا الصمود الصامت والرافض بنفس الوقت هو بحد ذاته سلاح ذو حدين: فهو يعني أولاً، رفض للسيطرة الاستعمارية الإسرائيلية التي لم تثبت وجودها إلا بتغييب الفلسطيني ونفيه وثانياً، تجاوز إجماع الهيمنة المساوِمة. هو الصمود الذي عبر عنه عماد الصرعاوي:

> "احنا هون كشعب فلسطيني مش مطلوب مننا أكثر من إنه نكون صامدين، اللي بيجي بيتطلع على الخارطة والوضع اللي احنا موجودين فيه، احنا شعب مسكين، عنا قوة وعنا طاقات، وقابلين للتضحية وبدنا نضحي بس احنا في حصار شديد وصعب إنه الواحد يبدع أو يخوض الأمور عالمياً. فيفترض من الناس الموجودين برا: الفلسطينية اللي في الخارج، والأحرار والمناضلين هم اللي يشتغلوا أكثر مننا، وإحنا بنكون الأداة أو المادة اللي بشتغلوا عليها واحنا ممكن نساعدهم بس احنا كشعب، في عنا رقابة وبتحكي عن سنين كبيرة من الاحتلال تغلغلت فكل الاحترام إنه لسه احنا عايشين ومحافظين على حالنا، وعرب اسرائيل كل التحية لإلهم اللي لليوم في عندهم ثقافة وتراث فلسطيني لليوم وعايشين وما اندمجوش [...]"

---

[111] كما يظهر من المقاطع التي أوردتها لأبو فادي في مواجهته للجندي على الحاجز، وروايات الحاج محمد التي تحوله إلى أيقونة اعلامية وتحول حالة اللجوء واللاجيء نفسه إلى موضوع مربح يملأ الساعات التلفزيونية وصفحات المجلات الالكترونية والجرائد.

[112] كما في حالة أبو مالك الذي اختار تعليم أبنائه كي لا يضطروا للعمل داخل اسرائيل: "أولادي تعلموا كلهم، ما استفدناش غير من العلم، الواحد ما عنده أرض وعقارات، بقدرش إلا يصير بني آدم بالشهادات اللي بيحملها، وأنا علمت ولادي كلهم وطلعت منهم المهندس والدكتور وكمان علمت اخواني لما توفى رحمة أبوي والاثنين صاروا دكاترة لأنه فش اشي الواحد يركن عليه. ما حدا فينا بيشتغل في إسرائيل، لا أخوتي ولا أولادي، ما في شي اسمه يروحوا يشتغلوا عند اليهود، يتعلموا ويشتغلوا".

[113] المقصود بمصطلح "سلبي" هنا غير الفاعل.

نموذج من روايات النمط المحبط

يعيش الفلسطيني _الذي يظهر في روايات النمط المحبط_ تجربة الاغتراب الوجودي الذي يتمثل أولاً؛ باغتراب الفلسطيني عن نفسه كإنسان يحق له العيش والعمل في شروط إنسانية. وثانياً؛ بالاغتراب عن وطنه من خلال تجربة الاقتلاع الأساسية من البلاد، واستمرار آثار هذه التجربة عبر الاستلاب الذي يعيشه الفلسطيني في مخيمات اللجوء. أورد فيمايلي الجزء الأكبر من رواية أم فراس علارية، 56 عاماً، في مخيم قلنديا كمثال على روايات هذا النمط.

قصة البلاد هي قصة القرية البسيطة

أنا من علار، وبقولوا إنها علار كانت بلد صغيرة، قضاء بيت لحم، وعدد سكانها بسيط جداً .. مش هالبلد الكبيرة، كانت كل حاجياتهم التعليم أو شراء الأغراض يروحوا على القدس، هي بين القدس وبيت لحم .. كانوا كل أهل البلد يشتغلوا في الزراعة .. كلهم مزارعين ..[114] وكانت حياة بسيطة وهادئة وكانوا مبسوطين، يلقطوا من هالشجر وعايشين ويكيفوا على اللي يزرعوه ... كان عندهم شيخ في المسجد، كان هو سيدي متعلم، كان يعلم البنات والشباب قرآن .. يعني كانت حياتهم هادئة ومطمئنة.

معاناة التهجير واللجوء – قصة الأهل

هم كانوا طريقة الهروب، مش تقولي أجو اليهود عليهم ضربوا عليهم وطلعوهم، كان بس يسمعوا إنه قرية من القرى طلعت يحملوا أغراضهم ويطلعوا .. كانوا مثلاً لنفرض أنا متزوجة مع ناس من ساريس، فتقول لي حماتي من ساريس، هاجروا من ساريس، قضاء القدس هون .. هربوا على علار على بلدنا وقعدوا فيها شهر أو شهرين ... فلما صاروا يسمعوا إنه أجوا اليهود .. يعني يسمعوا صوت .. بيجوز طلقة واحدة يحملوا حالهم ويطلعوا .. وعلى أساس، إنهم احتمال يرجعوا ... يحصدوا القمحات .. بس طلعوا أهل علار بالذات أغلبهم إجا قسم بسيط هون، وقسم على بيت لحم، وفي ناس ظلوا نازلين على الأردن .. على الكرك ... مثلاً أنا من مواليد الكرك، عشنا هناك في الكرك لصار عمري ست ستنين وبعدين رجعوا على هون ... أول ما أجينا على المخيم، متذكرة بيجوز كان عندي ست سنين وإجينا على المدرسة هون، كانت حياة فقر .. كانت دور الناس ترثى لها .. يعني مش هالعيشة اللي عايشينها الناس .. كان بيجوز الزلمة البطل يا دوب يدخل 10 شيكل في اليوم، وإذا دخل العشرة شيكل يخلف عليه .. وكانت الحكومة الأردنية أقسى من اليهود علينا اليوم .. متذكرة زمان كانوا الناس يستعملوا الراديو الكبير اللي يحطوله الأنتين وكانوا الناس ما يسترجوش حتى يفتحوا على اذاعة صوت العرب .. يخافوا من الحكومة الأردنية .. ومتذكرة لما كانوا الناس يطلعوا مسيرة مثلاً أو مظاهرة يعبروا عن حالهم الفلسطينية .. بيجوا حرس البادية الأردنيين وكانوا يضربوهم ضرب، يموتوهم .. انا كنت آجي أدرس هون في المدرسة هاي، كل الناس كانوا زي ما تقولي بنفس المستوى .. كانوا مسخمين الناس .. وقليل جداً كنا نطلع على رام الله -.. اللي بده يطلع على رام الله يشوف حاله وكأنه أبصر وين رايح! كانت السيارات قليلة جداً، أنا طلعت في الثالث إعدادي أدرس برام الله وكان في سيارة واحدة بس في قلنديا، سيارة مرسيدس، فكنا نتجمع مجموعة بنات نطلع على رام الله فيها.

قصص المعاناة في ظل السيطرة الاستعمارية

كل قصص فلسطين محزنة ... بتذكر لما كنت صغيرة أحداث الـ 70 في الأردن .. بتذكر كان إلنا جيران وكانوا قرايب من بعيد أنا متذكر إنه الزلمة كان في المستشفى، كان طيب، في السبعينات لما صارت الأحداث مع الفدائية والأردنيين ومتذكر قالوا إنه الجيش الأردني جرف المستشفى وهو طيب .. دمروها على رؤوسهم .. جرفوهم جراف .. متذكرة كانوا يظلوا يحكوها .. وفي قرايب إلي كانوا مخبيين ذهبهم في الدار .. عشان بلبسوا الثوب الفلسطيني ... دخل الجيش الأردني، وعشان بيعرفوا بعض لأنهم كانوا عايشين مع بعض بتعرفي .. دغموا وجوههم بالدغام ودخلوا عليهم سرقوا الدور وأخذوا الذهب وطلعوا .. كانوا يدخلوا عليهم، يعملوا هيك .. من 48 مأساة الفلسطينية من يوم ما طلعوا من بلادهم .. يعني أنا بتوقع لو إنهم الفلسطينية يعني أنا بلدي علار، بلدها برفيليا أو صرعة .. لو إنهم ما طلعوش من بلادهم .. كان ظلوا عايشين في البلاد .. بس هم كانوا هاي مثلاً احنا عايشين في قلنديا .. يسمعوا مثلاً إنه أهل بيتونيا رحلوا .. كانوا أهل قلنديا يلحقوهم ويرحلوا .. ممكن إنه دخل اليهود على بعض القرى وفظعوا فيها .. عجبوا فيها بس مش كل القرى .. الغلطة

[114] يشير التنقيط هنا إلى لحظات توقف في الرواية تطول كلما زاد عدد النقط المستخدمة.

الكبيرة إنه تركوا البلاد وطلعنا .. في الـ 67 أنا متذكر، لما أجوا في حرب الـ 67، صاروا هالناس على هالراديو سامعين ويقولوا في حرب .. صاروا ينطوا هالناس ... يقولوا: ايش بدنا نرجع على بلادنا .. خلص .. ونسمع الضرب كان هون على جبل المكبر ما كنش في دور مخفية.. كان مبين .. ما نشوف إلا هالدخان طالع .. ونقول: خلص بدنا نرجع .. كاين كلها قنابل دخان وصاروا ييجونا هان .. جيش بسموهم الجيش العراقي .. هدول بيجوز أكلوا هواء أكثر شيء لأنهم هدول جايين يحاربوا فعلاً وجابوهم رموهم وانقطعوا هدول .. لا عرفوا وين يروحوا مع اليهود ولا العرب قدروا يخبوهم .. الجيش الأردني نفسه شو عمل؟ فعلاً، أخذ ثياب من النسوان وخبى سلاحه كله في جوا السناسل وطلعوا ... هربوا .. لما رحنا على بيتونيا في الـ 79 حوالي الثمانين .. كانت المنطقة اللي احنا فيها .. فاضية .. كان في سنسلة قديمة لأهل بيتونيا .. وفي عنا أولاد جيران سن 14، 15، يكونوا يلعبوا في هالفوطبول يلاقوا قنابل للجيش الأردني .. كانوا يجيبوا الجيش اليهودي يفجرها واشي يمسكوه ويرموه في جور المنافع .. يعني قنابل هالطول كانت .. (تشير بيدها) وملابس الجيش الأردني مخبية .. وفي الـ 67 برضه لو ما طلعوش الناس من بلادهم ما صرش اشي .. بس الناس اللي هون حملوا حالهم .. احنا ظلينا قاعدين في مخزن على الشارع .. الناس هربوا تخبوا في الوديان وفي ناس طلعوا على الأردن .. احنا من الناس اللي ظلينا قاعدين في المخيم .. دخلوا الجيش وكان في الي ابن عم أستاذ .. بقوا يقولوا: جيش عراقي جاي.. ابن عمي اطلع، أنا سمعته بيقول، لحد الآن بذكر: جيش اسرائيلي هذا، شاف النجمة على السيارات، أستاذ هو، كان واعي .. عمي كان إله فرن كانوا لسه رايحيين يخبزوا .. فاتوا السيارات على المخيم وطلعوا .. بعدها حملوا حالهم .. في ناس حكوا تطلعوش يا جماعة ... بس حملوا حالهم وشردنا على الواد ... في مغارة هناك ... وفي بنت خليلية متذكرة هون كانوا وهي معانا، يا حرام، لما كانوا يضربوا الجيش أجتها رصاصة وماتت .. كان عمرها بيجوز سبع أو ثمانية سنين .. بعدها احنا من الناس اللي رجعنا .. وفي ناس ما رضوش يرجعوا، وظلوا هاربين على الأردن .. بعدها بدأوا يتسللوا ويرجعوا الناس .. يعني لو إنهم الناس، برضه في الـ 67 ما طلعوش من دورهم ولا حدا صابهم ... بعدها شو صاروا يقولوا الختيارية: اللي عنده شباب يهربهم، اليهود بدهم يأخذوا الشباب إلي أخ شاب وأولاد عم اثنين شباب طلعوهم .. بعد ما طلعوا بيجوز بعد سنة أو سنتين أخوي كان بيجوز أول ثانوي .. وما سألوش بينهم وبين نفسهم عند من بدهم يعيشوا؟ وين يعيشوا؟ ما سألوش .. طلعوهم، بعدها صاروا يساووا جمع شمل لنرجعهم .. تغلبنا في الترجيع ورجعناهم ... بعدها بدأت الانتفاضة، أنا ما كنتش فترتها في المخيم، كنت في بيتونيا، بس طبعاً عاصرناها، بس مش نفس الوضع اللي عاصروا فيه أهل قلنديا .. مثلاً أنا من الناس اللي أخوتي أكلوها في المخيم .. اللي أخ انسجن سبع سنين وسكرت دارهم .. كان عندهم خمس غرف تسكرت بألواح زنكو .. وحشروهم كلهم: أمي وأبوي والأولاد وأخوي كان متزوج بغرفتين، يعني غرفة واحدة وبرندة .. وكل الدار تسكرت .. عقاب للي انسجن، قال إما هد أو تسكير .. وهو طلع نصيبهم التسكير .. يعني لو كنت تفوتي على الدار كنت تشوفي ألواح الزنكو، الصالون مسكر بحديد .. ومن جوا غرفة مفتوحة ومطبخ وبرندة .. ظلت سبع سنين .. كان في عملاء .. هو أخوي أخذ الحكم والدار أخذت حكم .. هو مضى الحكم وطلع، وبعد ما طلع بيجوز بشهرين أو ثلاثة فتحوا الدار ... أطلعوا حكم من المحكمة وفتحوها .. كانوا يبعثوا "أولاد حلال" طبعاً من الفلسطينية أحياناً في المغرب ويتطلعوا على الغرف يشوفوها مفتوحة أو لا... وهم ييجوا أحياناً يفتشوا على الدار يشوفوها مفتوحة أو لا. كانوا يفقدوها الدار .. **كان في كثير بيوت مسكرة، وفي ناس هدوا بيوتها[115] ... في إلي خال كان جاي من ألمانيا، وكان جايب معه مقعد حمام فرنجي من ألمانيا ، ما كانوش الناس يعرفوه وقتها، وجايب أثاث ... وبنى دار بتجنن .. برندات وحمامات .. انمسك، كاين يناقل في سيارته فدائية وسلاح وأبصر ايش .. نسفوا الدار كلها ...** فاللي كان يطلع نصيبه التسكير ... كانت رحمة من الله ... هد الدار مش بسيط ... هاي انفتحت دارنا .. فش مع الناس امكانيات للبناء ...

انتقاد الاستغلال السيء للتضحيات و"الطبقية في المقاومة"[116]

والمزبوط أنا كنت أحس إنه كل هذا على الفاضي! لما تشوفي إنه في ناس أكلوها، أكلوا هواء وترموا برا وجوا .. وفش حدا سائل عنهم .. بتشجعش الواحد ... بالمرة ... أنا ما كنتش أشجع الأمور هذه ... في موقف من المواقف، كان إلي اخوة اثنين أصغر من هذا اللي كان بالسجن ... رحت مع أمي زيارة إلهم على مخيم الفارعة، بعيد ... في منطقة طولكرم، كان في سجن هناك .. كانوا محبوسين، كل الأرض كانت طينة، وفش مجال تشوفيهم .. أبو عشر دقائق، ربع ساعة وتحملي حالك وتروحي ... طب أطلع على الناس هايهم عايشين، في ناس، بيجوز هم اللي بمشوا هالشباب هدول .. ولا واحد من أولادهم انسجن .. في ناس عايشين ومبسوطين

[115] لم يقتصر وصف معاناة اللاجئين في الخوف على الأرواح، وإنما على ما استطاعوا امتلاكه خلال فترة العشرين عاماً من اللجوء، كما يتضح من وصف الراوية لسياسات إغلاق البيوت وهدمها.

[116] ترى أم فراس، الراوية هنا، أن المقاومة الفلسطينية دخلت حيز التقسيم الطبقي. فحين تعيد النظر في تجارب المقاومة التي تعرفها، ترى أن المقاومين من أبناء المخيمات أخذوا واجب المقاومة حينها على عاتقهم، وعرضوا حياتهم وحياة أقربائهم للخطر، ليحصد نتائج تضحياتهم هذه طبقة معينة أو مسؤولون كبار.

.. ايش معنى أنتم بتتبهدلوا مثلاً؟ .. جندي اسرائيلي نفسه: في إلي ابن خال كان برضه بالسجن ومعند، وقفوه على باب السجن.. يقول له: الجندي، بدي تقول لي شو اسم أمك بس وبتطلع افراج... ما رضيش يقول شو اسم أمه ... يقول له: يا فلان، شو اسم أمك؟ قال له: بقولكش ، قال له الجندي: بتطلعش، قال له: بديش أطلع ... وأهله برا بستنوا فيه: يصيحوا: مشان الله قل له اسم أمه زكية ... قال لهم الجندي: إلا هو يقول ... قال له: ارجع... رجعوه .. والجندي بقول: والله أنتم يا أهل المخيم مجانين ... شوفو أهل المدينة، قديش بيجي عندي مساجين، بيجي من المدينة حدا؟ كله أهل المخيمات[117]. ومن القرى، أهل القرى كانوا مسالمين وقتها .. جديد أهل القرى دخلوا الانتفاضات، بالانتفاضة الأولى أهل القرى ولا كانوا معهم خبر ... بيجي حدا من القرى؟ في واحد عنده فيلا جاي مسجون؟ ... هي فلسطين لأهل المخيم؟ مش لأهل القرى؟ مش لأهل المدينة؟ .. يعني لازم يكون في مقاومة، بس المقاومة تكون على الكل مش على راس ناس معينين ... حرام ناس يقعوا في النار وناس زي هلا بقول لك مسؤولينا: السياسيين بيحصدوا نتائج عمل آخرين.. هذا الكلام غلط .. لما دخلت السلطة خربت الدنيا ... خربت الدنيا بزيادة... يعني هذا واضح للكل، خربت ... الكل كان يتأمل إنه السلطة تكون سلطة عادلة، سلطة مستقيمة [...] احنا بنرسم خريطة فلسطين كاملة .. بس الاشي اللي بحز في النفس فعلاً وبدنا إياه إنه الشعب يكون كامل، مش جزء لا يتعدى 2 أو 3% هو اللي ماكل هواء والباقي الشعب عايش ... كل المدن: القدس ويافا وحيفا والرملة .. كلها طبعاً. بس للأسف فش حدا سائل، احنا رؤساءنا ما في حدا ... فش ولا حدا ... بصراحة .. والشباب اللي بضحوا بحالهم .. أحكيلك قصة سمعتها أنا على عيد، قبل بيجوز سنتين، دخلوا اليهود مرة أيام الوقفات على رام الله كان في شاب مطارد، الشاب هذا داخل رام الله،وكانت الدنيا شتوية وبده يتخبى في احدى هالعمارات ... في دار مستأجرينها، راح يتخبى فيها، وسلاحه معه، لما دخل العمارة اللي فيها الدار لقي الدار مسكرة .. وصار وين بده يروح؟ بره رام الله بتنعف نعف بشر، وهو سلاحه معه وحالته حالة جاي من مغارة أو أبصر من وين مسكين... يعني أنا اللي سمعته حط سلاحه وقعد على سلاحه شي ثلاث أو أربع ساعات في العتمة وفي بيت الدرج، في هديك اللحظة .. ما أنا سألته: شو كان شعورك؟ قال لي: تفيت على حالي 60 تفة، ليش؟ قال لي: أنا قاعد بضحي مشان الناس وشايف الشباب والصبايا والناس برا مش سائلين ... وخايف أطلع برا، لأني خائف حدا يوز عني وفعلاً بعد يومين استشهد الشاب .. استشهد عند حلويات الأمراء ... دخلوا وقتلوه هناك ... يعني شعبنا بستحقش التضحية .. يعني ناس حطب بكونوا وناس بشووا على الحطب قاعدين، وبيأكلوا في هالفراخ واشي وبقولوا للناس أدخلوا لجوا مشان يستوي الاشي أكثر ...

التعليق على دور الأحزاب واليأس من المشاركة في الفعاليات

طبعاً، فتح هي اللي ساهمت من الأساس أكثر أشي لأنها هي القاعدة الأساسية اللي كل الشبال بميلوا لإلها ... مع إنه حماس في إلها مواقف مليحة برضه، إلها مواقف ممتازة .. يعني الجهتين إلهم مواقف هيك وهيك .. والله بيجوز لما كنا شباب، أما هالقيت ما بآمن بهالحكي هذا كله .. حتى حالياً أقول لك المزبوط: الجهاد بطلت أؤمن فيه، لأنه صار مستهدف وصار كأنه سلعة تباع وتُشترى .. بدنا دولة منيحة، بدنا مسؤولين مناح ومخلصين .. إذا كان في عنا الرأس ... ما هو في مثل بيقول: إذا كان رب البيت للطبل قارع، فشيمة أهل البيت الطبل والرقص .. إذا كان الرأس منيح والمسؤولين عنا مناح والله كلنا بنمشي بالطريق السليمة وإذا هم مش مناح هاي ضعنا .. أهل المخيم بشكل عام مللوا .. أنا مثلاً كنت ساكن في بيتونيا، وآجي أحياناً هون على قلنديا .. بتدخلي: المخيم كله عجال مولعة ... الشوارع دغام ودور الناس من الشوارع كلها دغام .. تلاقي الحجار محطوطة، وكل دار فيها شبين أو ثلاثة مسجونين ... كل دار في عندها مجاريح ... بينما تروحي محل ثاني الناس ولا معهم خبر .. فالناس وعوا لهذه الأمور ... خصوصاً من يوم ما أجت السلطة .. أهل المخيمات هم اللي طلعت على رؤوسهم الانتفاضة وأجت السلطة من وراهم شو أخذوا من المراكز؟ أخذوا ولا أشي؟

حياة المعاناة في المخيم

أنا طلعت منه لأني بدي أعيش حياة أحسن، وطبيعة العيشة في المخيم صعبة .. مش زي طبيعة العيشة برا .. تختلف .. من جميع النواحي .. في كثير ناس أيام الانتفاضة أخذوا أولادهم وهربوا لأنهم خافوا على أولادهم .. اللي معه مصاري طلع واللي ما معه ظل قاعد .. وفي نظرة للناس: كان في نظرة طبقية طبعاً إنهم أهل المخيم غير شكل .. لحد الآن أنا بلاحظ إنه أهالي القرى، هاي احنا إلنا 28 سنة أنا ساكنة في بيتونيا، وبظلهم يقولولنا: أنتم الغربية، مع إنا احنا صرنا المسيطرين على البلد حالياً .. أهالي القرى بعرفوش اشي عن القرى المهجرة جوا، بقولوا اللاجيين حتى هم ... كنا احنا نلاحظ لما كانت هاي المنطقة زمان فاضية بين قلنديا وبين الرام

[117] "إن نسبة غير قليلة من المعتقلين الإداريين ونشطاء الانتفاضة الأولى هم من أصول كادحة، ونسبة قليلة جداً كانت من العائلات المتنفذة أو الوجاهية. فأكثر من 70% من المعتقلين في سجن أنصار (3)، كانوا من أبناء المخيمات والقرى، ولم تتجاوز نسبة الذين كانوا من قيادات الانتفاضة نسبة الأفراد من العائلات الوجاهية 5%" (هلال، 2002: 57).

وكانت كلها شجر تين .. كانوا الشباب أحياناً لما بدهم يطلعوا يدرسوا مثلاً: كان في مترك، ثالث اعدادي يحمل الواحد كتابه ويطلع تحت الشجر يدرس .. احتمال وهو يدرس هناك ... يلقط له حبة تين يأكلها .. كانوا نسوان الرام يفضحونا فضح: يا لاجيين أنتم بعتم أراضيكم أجيتنوا عنا بدكم تخربوها .. أنتم بدكم تخربوا بلادنا، أنتم أبصر ايش .. حتى أيام الانتفاضة، لما كان يصير منع تجول على المخيم ويقتحموا كل دار بدارها، كانوا يشردوا الشباب .. يتخبوا بين دور الرام، طب وين بدهم يروحوا هدول؟ يتخبوا.. يطردوهم أهل الرام .. وأهل كفر عقب نفس الاشي ... يعني بتحز في نفسه هذي .. احنا لاجئين، لاجئين، احنا بننساش هذا واقع، واحنا ما بنرضى، يعني أنا طلعت من المخيم وساكنة في بيتونيا، بس ما بعتبرها بلدي برضه، بالعكس أنا بفضل أرجع لبلدي الأصلية ...

انتقاد تقصير المنهاج بصيغته الحالية كمؤثر في بناء الهوية الوطنية[118]

أنا بعلم تربية وطنية، بس منهاجنا لا يمت بصلة للواقع، حاطين مواد وكلمات ضخمة لهالطالبات احشي في دماغهم حشي عالفاضي .. فاحنا لما نرجع للمنهاج الأصلي، أنا بدلهم .. بنرجع للمعلومات اللي عنا احنا، احنا بندلهم: هون مثلاً يافا، هون عكا، هاي كانت بلادنا واحنا طلعونا، والقرى اللي أنت منها يا شاطرة منتشرة بين هاي المدن مثلاً .. عدد قليل جداً اللي بسألوا عن الوضع، وفش وقت أصلاً توصلي هذا الكلام، المنهاج محشي حشي كلام .. يا دوب تلحقي .. خصوصي مادة التربية الوطنية، مادة متعبة، بدل ما تكون مختصرة ومفيدة وترمز لشغلات هادفة، لا .. المنهاج مش منيح .. زمان كان في كتاب اسمه القضية الفلسطينية، وكان في كتاب كنا نقرأه للتوجيهي اسمه تاريخ العرب وتاريخ المسلمين. هذا كله التغى... الدين كان عنا كتاب يكون محرز .. حالياً فش أشي آية بتحث على القتال وفش أشي بيجيب سيرة اليهود حتى .. كتاب التربية الوطنية لرابع .. فش فيه عن اليهود إلا كلمة عن تاريخ القدس: شو كان اسمها على زمن اليبوسيين وعمر بن الخطاب وشو صار وبقول لك: وحتى الآن، هي "تحت الاحتلال الإسرائيلي"... . بدون أي أشي ولا أي أشي ... حتى مناهج الأكبر: أنا بشوف من كتب ابني، فش فيها ذكر ولا إشي .. تغير المنهاج لما دخلت السلطة للأسف ... كل أشي آيات، كان في آيات عن القتال اللي بيتطرق الواحد لما تيجي آية عن القتال بتتطرقي للقتال وللحرب بين العرب واليهود.. كلها انحذفت .. *(س: وبرأيك هذا الجيل من وين ممكن إنه يحفظ تاريخه: لاجئين وغير لاجئين؟)* هم بيعرفوش تاريخهم، أدخلي على الصف في 43 بنت، بنسألهم أحياناً من أي بلد أنت، واحنا نرسخ فيهم بلدهم الأصلي ؟ في بنات بيعرفوش... بلدك الأصلية؟ بتقول لك: من مخيم قلنديا، بقول لها: بقول لك بلدك الأصلية من وين أنت؟ بتعرفش .. خصوصي بين البنات الجايات وبكونوا أهلهم مغتربين في دول الخليج.. بتقولي لها: من وين أنت؟ بتقول لك؟ من فلسطين. وأصل بلدك؟ بتعرفش .. **ما هو أهل المخيم صار عندهم زي احباط**، بعد ما دخلت السلطة .. صار عندهم احباط، يعني بقولوا لك: احنا جاهدنا واحنا اللي تعبنا، وأجوا على ظهورنا في الآخر طلعنا ولا أشي احنا ..

الرؤية المستقبلية

والله بالنسبة للقضية احنا اعتبرناها ماتت خلص، والله ماتت، لما احنا قاعدين بنشوف زعماءنا هيهم بروحوا، زي ما قالها القذافي: الشباب قاعدين بتقتلوا وبموتوا وبستشهدوا .. والمسؤولين عنهم بروحوا بسكروا في تل أبيب مع اليهود .. شو ظل فيها؟ [...] بتمنى إنه احنا ننعدل، نتغير، يتشقلب هذا الشعب اللي احنا عايشين في فلسطين، بالعكس، احنا بدل ما نصير شعب منيح ... ونحرر .. احنا رجعنا بنفكر بشغلات تافهة حالياً، شغلات ما إلها قيمة ... والسلطة من يوم ما أجت على هالبلد، صارت بدها تعمل نظام طبقي: طبقة مبينة مثلاً، والله هذا أبوه أبصر ايش، لازم لو حتى كان، الناس بلاحظوا مثلاً في معدلات التوجيهي، بيجيبوا أولاد المخيمات معدلات أعلى، لكن بطلعلوش اشي في الجامعة، أبوه مش قادر يدرسه .. بينما في ابن مسؤول جايب في الستين بيطلع على حساب السلطة بروح بتعلم برا ... انشاالله يصير تغيير ... بس تحرير ما أظنش، يعني حرب بيننا وبين اليهود إنه ننتصر عليهم. احنا بنتخاذل قاعدين للوراء .. بنرفع في الراية البيضاء وبنكبر فيها كل مرة ... يعني أنت اتطلعي الأيام هاي وتطلعي قبل عشر سنين، حتى معنويات الشباب بتفرق .. كان في أمل أكثر ... ياريت يجينا نصر الله يصير علينا مسؤول ... لازم يتغير اللي ماسكين الدولة .. يعني مثلاً لما أنا بسمع عن واحد مسؤول كبير .. قاعد بمول بالجدار، والحد فلسطيني، ومسؤول كبير هو اللي بمول بالجدار، يعني شو بنتأمل احنا؟ يعني شو نتأمل احنا؟ إذاً ليش ندافع ونحارب عن الجدار لما أنت المسؤول وأنت اللي قاعد تمولهم بالإسمنت وأبصر ايش؟ العودة بعيدة ... والحلول هاي اللي بحكوا عنها كلها كلام ضدنا احنا كشعب فلسطيني، مش لصالحنا، وأكبر مثال، المستوطنين كانوا زمان: يسترجي واحد يبين في الشارع؟ لو كان ينزل شبين على مستوطنة، كانوا كل المستوطنين يتخبوا جوا دورهم، حالياً صاروا ينزلوا على الشوارع يدمروا ويكسروا .. ويعملوا اللي بدهم إياه، مش احنا اللي أعطيناهم هذا المجال؟ احنا اللي فتحناه ..

---

[118] تعمل الراوية معلمة للمرحلة الابتدائية.

وسائل الاعلام

والله بنتابعها، وأحياناً على مضض، وأحياناً بنسمعش كلامهم، بتسمعي الجزيرة والعربية، بس أخبار فلسطين بردحوا لبعض وهذا اشي عيب ... يعني أكبر مثال اللي حصل في عوفر،[119] وفلسطين نفسها فتحنا عليها مش جايبة عنها أخبار .. المفروض تتابعها كحدث .. حتى اتصل واحد قال لهم: الله أكبر أنا ابني في عوفر وقلبي بينحرق قاعد، بدي أسمعه وأنتم بفتح عليكم ولا معاكم خبر يعني، جايبينلي هالشباب وقاعدين بتقابلوا فيهم ... وتقول بعصبية: إف ... جيبولنا أخبار عنهم، سمعونا اشي، طمنونا على أولادنا بالقليلة وفعلاً ... وبيضحكوا علينا .. يعني هيهم حرروا السجناء اللي طلعوا: في واحد عنده حكم محرز؟ لا، بدل ما تطلعوا 250 واحد، بقول لهم: بدي 40 واحد من ذوي الأحكام العالية .. بنفع أو لا؟

[119] تشير الراوية هنا إلى الاشتباك الذي حصل بين إدارة سجن عوفر الاسرائيلي والمعتقلين السياسيين الفلسطينيين فيه والاجراءات القمعية التي اتخذها حراس السجن الإسرائيليون فاستخدموا الرصاص المطاطي والغاز المسيل للدموع والكلاب البوليسية بحق المعتقلين في سجن عوفر بتاريخ 21/12/2008 رداً على احتجاجات المعتقلين على معاملة سلطات السجن المهينة بحقهم.

ثانياً: النمط المأسور بالمشهد المحيط[120]

صفات النمط ورواته

يبدو الراوي/ة والرواية، ضمن هذا النمط، جزءاً من صورة تلفزيونية أو تقرير صحفي و/ أو خطاب حزبي. تأخذ فلسطين في هذه الروايات صوراً متغيرة بتأثير الخطاب الحزبي المهيمن أو بتأثير المشهد الإعلامي والسياسي والعسكري الإسرائيلي (بالنسبة لرواة قلنديا تحديداً). ويوجد صعود وهبوط في الرواية التي تخلط بين التاريخي واليومي، مع تغليب نسبة اليومي على التاريخي، لتختلط الشعارات بلغة الواقعية السياسية التي برزت في "النمط الواقعي السياسي"، حيث يكرر الرواة هنا أهمية المحافظة على مشروع فلسطين الوطني وتطوير مؤسساته، دون أن يحددوا بوضوح معالم هذا المشروع، ليظهر في رواياتهم درجات متفاوتة من التناقض والازدواجية بين تطلعاتهم الشخصية وخطابهم السياسي المُسَيّر بانتماءاتهم الحزبية. فتتحدد رؤية الراوي وانعطافاته في الرواية من خلال رؤية الحزب الذي ينتمي إليه والدور الذي يؤديه ضمن هذا الحزب. وإذا حاولنا تتبع المصادر التي أثّرَت في صياغة روايات هذا النمط فإنه يظهر بشكل أساسي أثر الخطاب الحزبي في الروايات، يليه دور الأهل في نقل ذاكرة البلاد وتجربة الاقتلاع والتهجير والتشريد، وتأتي في المرتبة الثالثة الممارسات الاستعمارية التي يزيد أثرها في حالة قلنديا. وهناك مؤثر رابع يظهر أثره في الروايات وهو وسائل الإعلام، وذلك على الرغم من أن معظم الرواة هنا انتقدوا الدور الذي لعبه الإعلام في القضية على اعتبار أنه لا يوجد إعلام محايد، كما يشرح نزار الصفدي[121] في المقطع التالي:

> "الفضائيات هي أحد أسباب المشاكل، وما حدا بينقل أخبار فلسطين اللي عم بتصير، يعني نحكي بصراحة؛ قناة فلسطين هي اللي عم تنقل أخبار فتح، وقناة الأقصى بتنقل أخبار حماس، والعربية بتنقل أخبار إسرائيل، والجزيرة بتنقل أخبار قطر. يعني لأنه الإعلام مسيس، الإعلام ما عم بمارس دوره ليعطي صورة واقعية عن أي حدث بيصير، بالإضافة لتخلف بعض القنوات العربية، في قنوات بعد ستة شهور من سقوط بغداد جابت خبر عاجل عن سقوط بغداد. ما في مصداقية للإعلام، حسب كل جهة مسيسة كيف تدعم القناة. مثلاً العربية مبينة من خبرها: "مصرع قتيلين فلسطينيين" مش شهيدين، مبينة شو منحاها. والمنار مبين شو منحاها، لحزب الله حصراً، فالإعلام ما عم بمارس دوره كسلطة رابعة لنقل الحقيقة للناس. حتى الانترنت كمان مسيس، أنا بصراحة يوم حرب تموز ما حطيت على المنار، ما كنت أحضر المنار كنت أحضر إسرائيل،[122] إنه يرفعوا درجة التأهب مثلاً هاي المواضيع كنت آخذها حسب الجهة، المنار كان في كثير مواضيع تلغوط فيها، تضخم الحدث، يعني من ناحية: اتبع سياسة اعرف عدوك."

وينعكس تأثر الرواة بالمشهد المحيط في مضمون رواياتهم وفي اللغة المستخدمة أيضاً. على سبيل المثال، يُلاحظ أن الراوي، جمال الصرعاوي، من قلنديا يُكثر من استخدام التعابير الأجنبية التي تنسجم مع نشاطه في استقبال الوفود الأجنبية التي تزور المخيم، حين ينقل لهم صورة للحياة في

---

[120] اخترت تسمية هذا النمط بما يعكس، بأقرب صورة ممكنة، شكل ومضمون رواياته التي تنقل صورة لفلسطين يظهر فيها جلياً تأثير المشهد الذي يرسمه الخطاب الإعلامي والحزبي والمؤثرات الحياتية اليومية، ومن الملاحظ وجود هذه المؤثرات بدرجات مختلفة في جميع الروايات التي جمعتها خلال إجراء دراستي وكذلك في الأحاديث اليومية للناس، لكنها تظهر بشكل أكثر كثافة في روايات هذا النمط.

[121] وهو ينتمي إلى الجبهة الديمقراطية (21 سنة، مخيم اليرموك).

[122] تردد هذا الأمر في أكثر من رواية لدى رواة قلنديا تحديداً، حيث عبر المبحوث عن اعتماده على الإعلام الإسرائيلي كمصدر موثوق، وهذه هي المرة الوحيدة التي ذُكر فيها الإعلام الإسرائيلي في مخيم اليرموك.

المخيم ولاحتياجات أهله فهو يصف المخيم بالانجليزية بـ waiting station ، ويستخدم كلمة refugee أكثر من مرة للتعبير عن اللاجئين. كما يستخدم الرواة في مخيم اليرموك شعارات حزبية وتعبيرات سياسية خطابية، حتى أنني لاحظت تكرار عبارات محددة لدى الرواة المنتمين لنفس الحزب. مثلاً يصف الرواة المنتمين إلى فتح أوسلو بالعبارة نفسها: "وهاي كلها تحصيل حاصل"،[123] كما يستخدمون صفات متشابهة في وصف العلاقة مع إسرائيل: عدو غادر، دهاء سياسي، مناورة. وتمتلئ الروايات عموماً بمفودات ومصطلحات مستعارة من القواميس الحزبية ولغة الخطابات السياسية والإعلام.

أكثر ما يميز رواة هذا النمط هو الصوت الحزبي البارز في رواياتهم. وبالفعل عَبّرَ جميع رواة هذا النمط تقريباً عن انتماءاتهم الحزبية بوضوح: وتبين أنهم ينقسمون ما بين فتح واليسار،[124] وينشطون في الفعاليات الجماهيرية من خلال الأحزاب التي ينتمون إليها، حيث ذكر الأصغر سناً من بينهم أنهم يشاركون في تنظيم فعاليات لإحياء المناسبات الوطنية: النكبة وغيرها، بينما ذكر الأكبر سناً أنهم يشاركون في نشاطات تهدف إلى توعية الجيل الصاعد، في حين تقتصر مشاركة البعض الآخر على النقاشات السياسية. ويبلغ عدد الرواة هنا 12 راوٍ وراوية من أعمار مختلفة (نصفهم تحت الـ 35)، وبعكس النمط السابق، يتركز غالبية رواة هذا النمط في مخيم اليرموك (10 في اليرموك مقابل 2 فقط في قلنديا)، وبين الذكور (8 ذكور مقابل 4 إناث). يمكن أن يُعزى الفرق الموجود على أساس الجنس، ضمن هذا النمط وغيره من الأنماط، إلى العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمعين، والتي ترحب عادةً بمشاركة الذكور بشكل أكبر في الفعاليات العامة من الإناث، وقد تحدثت بعض الفتيات اللواتي قابلتهن، ضمن هذا النمط، حول معانتهن من تدخل الأهل والأزواج للحد من مشاركتهن في الأنشطة العامة.[125]

---

[123] أنظر روايتي ناصر الغزالي وعمر الصفدي.

[124] وهنا يجب أن أشير إلى أنني لم أعتمد الانتماء الحزبي كأحد العوامل في اختياري للرواة (كما شرحت حول آلية اختيار الرواة في المقدمة)، لكن تبين خلال المقابلات أن العديد من اللاجئين الذين قابلتهم ينتمون أو انتموا في السابق إلى أطر تنظيمية معينة. هناك من حرص على إبرازها بينما فضل آخرون عدم الحديث عن انتماءاتهم التي ظهرت عرضاً خلال الحديث.

[125] لا يقتصر هذا على رواة النمط المأسور بالمشهد المحيط، فقد ورد في روايات عدد من الأنماط مثل رواية لينا ترشيحي (مخيم اليرموك) من النمط الحالم بالغد الأجمل. وكذلك في رواية نغم (مخيم اليرموك) من النمط المحبط، حين تقول: "بتمنى، أشارك أكثر، وأحياناً بقول يا ريتني كنت مو متزوجة لأنه الواحدة لما بتتزوج بتخضع لزوجها وزوجي ما بحب هاي القصص، زوجي فلسطيني من ياجور قضاء حيفا بس ما بحب مشاركة المرأة بهيك أشياء". وذكرت أكثر من راوية في قلنديا أسباب عدم مشاركتها في الفعاليات والمسيرات وأغلبها يرجع لأسباب اجتماعية: تقول نبال الساريسية من نمط الحالم الباحث عن فلسطينه: "نادراً، أشارك في هيك نشاطات، وأشعر أنها غير مفيدة ونظرة الناس لك تكون كأنك مسخرة، أنا شخصياً ما بفكر هيك، لكن هيك بتحسي نظرة الناس، لأني صبية يعني لو تشوفي شب عادي ولكن حين ترين فتاة تكون هناك حساسية". وتذكر نسرين الجبرينية هذا الموضوع في روايتها وهي متزوجة وتعيش في مخيم قلنديا لكنها بالأصل لاجئة من بيت جبرين وكانت تعيش في الخليل: "إحنا عايشين في الخليل، والناس هناك محافظين وملتزمين، ما بحبوا بناتهم يتحركوا، أحياناً كانت تنزل المدرسة مظاهرة في مناسبة معينة، أولها يكون عدد البنات كبير وبس توصلي آخر المظاهرة فش ولا بنت، اللي توصل دارها تدخل فيها. وإحنا دورنا كلياتنا قريبة على المدرسة وصعب إنك أنت من دون كل البنات تظللي ماشية في الشارع وتهتفي لحالك! بعد فترة تعَوَد الواحد وخلص إنه فش مجال إنه البنات يمشوا في وضع زي هيك (تعلق ابنة أختها التي تبلغ من العمر 10 سنوات: حتى هلا إحنا أبياتنا ما بسمحولنا نطلع)". وكما يظهر من الروايات، يتبين أن مشاركة النساء في الحيز السياسي والاجتماعي العام مرتبط بظروف مختلفة ومتداخلة، كالوضع الاجتماعي والطبقي ودرجة تسيس العائلة وعمر المرأة واستقلاليتها الاقتصادية والتغير في الظروف المحيطة والحدث نفسه الذي قد يكسر القاعدة الاجتماعية السائدة كما عبرت إحدى الراويات في قلنديا: "إحنا عشان وجه الشارع، كانوا جميع الشباب يتخبوا عنا، ومدخلنا البراني فش إله باب يتسكر ولا شي! حتى لو في باب، الواحد بحب إنه يحمي ابن شعبه. يعني أنا قعد ابن جيراننا فترة يتخبى في غرفتي، يعني أنا وإياه خاوينا بعض، ينام جنبي ويكون زوجي يعني .. يكون الجيش لاحقينه، نخاوي بعض وينام على الفرشة، عشان الجيش ما يعرفش [...]".

المحاور العامة لروايات النمط المأسور بالمشهد المحيط

أولاً: صور فلسطين مرسومة بتأثير الخطابات الحزبية وعدسات الإعلام وحواجز الاحتلال

تأخذ رواية هذا النمط شكل الرواية الإعلامية أو الخطاب الحزبي. حتى أنه يمكن القول بأن الرواة هنا مشهديون بامتياز: فالمشهد اليومي يهيمن على تفكيرهم بصورته المباشرة كما يقدمها الإعلام أو الحزب، والتي لا يبدو أن الرواة هنا يبذلون جهداً في محاولة اختراقها بالتساؤل والنقاش ووضعها في السياق التاريخي للقضية، وذلك بعكس الرواة المنتمين للأحزاب ضمن الأنماط الأخرى.[126] ويظهر في بعض مقاطع الرواة هنا رؤيتهم وقراءتهم للواقع الفلسطيني، والتي يوجهونها لتتناسب والتوجهات السياسية للحزب الذي ينتمون إليه، فنلاحظ حلول الخطاب الشعاراتي المتناقض أحياناً والتبريري معظم الأحيان محل الرواية التاريخية. ويمكن إرجاع هذا التناقض في الخطاب إلى الحيز الضيق الذي يفرضه الواقع أمام الراوي الذي اختار العمل في المجال العام من خلال الإطار الحزبي، فيهيمن الخطاب الحزبي على تفكيره بوعي أو بدونه ليتخذ الراوي موقعاً دفاعياً شمولياً عن الحزب، وتضيق روايته الخاصة عن فلسطين أو تتسع حسبما تضيق أو تتسع الحدود المفروضة في الرواية الحزبية. وبشكل عام يضيق منظور الراوي للقضية ليقتصر على هموم الحياة اليومية، فالراوي يبدأ وينتهي بمشاكل الحياة التي تقف في وجه طموحاته: المواطنة التي تسمح له بالترشح إلى منصب مجلس الشعب أو الرئاسة في سوريا (كما ذكر رواة مخيم اليرموك في هذا النمط)، أو الحصول على هوية القدس التي تسمح للراوي بحرية الحركة واجتياز الحواجز (كما ذكر رواة قلنديا)، فيختزل الراوي قصته عن فلسطين إلى قصص معاناة شخصية أو مطالب تلبي طموحاته الخاصة. كما يظهر في المقطع التالي من الرواية التي يلخص فيها ناصر – 46 عاماً من مخيم اليرموك– قصة الشعب الفلسطيني بمحطات تنسجم مع تطور حركة فتح التي ينتمي إليها:

> "ظهور الكفاح المسلح الفلسطيني وبالتالي انطلاقة الثورة استطاعت أن تحول الفلسطيني من لاجئ إلى مناضل حالم بالعودة. بعدين إجت أوسلو، **أوسلو كمان تحصيل حاصل**، طبعا أنا أحيانا لما باخذ نظرية باخذ عكسها كمان، تأبرهن النظرية لازم أبرهن عكسها. هلأ عكس النظرية اللي هو شارون لما جاب عمود إنارة لبلدية ومعسه، ليش؟ هو يقوم بضرب البنية التحتية. ضرب المطار ضرب الصرف الصحي ضرب الكهرباء، يعني لم يبقِ على البنية التحتية خلال الانتفاضة الثانية! هذا تدمير للبنية التحتية، واللي هو شعور شارون ومن خلفه بالفكرة الصهيونية ببروز دولة حقيقية اسمها دولة فلسطين. وبالتالي راح ينضرب المشروع الصهيوني بإقامة دولة إسرائيل بهالمنطقة. وهون يُعتبر شارون آخر ملوك اليهود لأنه حافظ عالنظرية تبعتهم إنه ما في شي اسمه شعب فلسطيني ودولة فلسطينية، وبالتالي دمر كل هاي. وبناء عليه كل ما مسكين سلام فياض بحاول يعمل شي بنابلس أو بطولكرم أو بجنين بيجوا بخربولوا إياه اليهود. ما بدهم قوة على الأرض تدلل على وجود شعب متكامل. هو **إحنا حاولنا** نفوت ونعمل من القطاع والضفة دولة، هاد الحلم ولو جزئي **المفترض إني أبدأ أحول هذا الثائر لمواطن يشعر بالمواطنة**، لازم أشعره بمواطنته. هاي ما قدروا يعملوها، لأنه كانوا بيجوا يقولوا لأبوعمار في مؤسسة اجتماعية إلى آخره، يحل عالطريقة الثورية. ومات ومسدسه عالطاولة، والإسرائيليين لما إجا أبو مازن: هلأ أبو مازن لأنه عاش بقطر وبنى مؤسسات بقطر، ولما حاول يعمل مأسسة للشعب الفلسطيني واجهته كل المواقف. وكانوا يقولوا لما جابوا أبو مازن رئيس وزراء إحنا ما بدنا ياسر عرفات بدنا شخص تاني معني بالسلام فجابوا أبو مازن. إيش معنى هلأ أبو مازن مش معني بالسلام؟ لأنه عم بعمل مؤسسات وطنية وبالتالي عم بأسس لوطنية راح تحول العسكري واللاجئ والمنتفض وكل ما هو

[126] كما يظهر في روايات النمط الواقعي السياسي والمحبط والحالم بالغد الأجمل والحالم الغاضب.

تحت شعار فلسطيني لمواطن فلسطيني. هلأ هون صار صراعنا وهون اليهود والمشروع الإسرائيلي من خلفه بسنة الـ 1948 لما بلش يشعر الفلسطيني بمواطنته ويروح يعمل انتخابات، وبلش يتحول لمواطن من الدرجة الخامسة للثانية ومن الثانية للأولى بلشوا الإسرائيليين أنفسهم يعانوا من هذا الموضوع، مع إنه هو مواطن حقيقي! إحنا كمان **بفلسطينا الثاني** المفروض يكون في شعور بالانتماء. وأنا بدون مزاودة وبشفافية مطلقة بدي أرجع على عين غزال. **لو هلأ بقولولي مسموح لك خيمة بعين غزال بروح على عين غزال**. لأكثر من سبب: السبب العام هو إنه كل شخص وكل مواطن لازم يرجع لبلده ولترابه وإلى آخره. والسبب الثاني أنه بلدنا جميلة ومناخها وبيئتها كتير رائعة إنه خَرْج الإنسان يعيش فيها، وإنشالله يعني الدولة العبرية أو الدولة الإسرائيلية مش بمنظورنا، بالواقع، أنه هي عابرة مثل ما حكى محمود درويش فهي إلى زوال! وهذا طموح أنا متأكد منه يقينا. إن عشت لهذاك اليوم أو ما عشت أنا عندي يقين أنه فلسطين رح ترجع لصحابها. يقين يعني مو شك، يقين! هلا كيف؟ على مايبدو إنه ضمن المعطيات الموجودة؛ المفاوضات عم بتراوح بمكانها: اليهود نفسهم ما بيقدروا يطلعوا من كذبة، يعني هن كذبوا كذبة ضمن أهداف معينة إنها أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، فبالتالي إذا بدهم يرجعوني بالمفاوضات فهن عم بدقوا مسامير في نعشهم، فمين الأجدب اللي بده يدق مسامير في نعشه؟! كمان الكفاح المسلح للأسف بعد أوسلو وبعد ضربات سبتمبر يعني صارت القوة المانعة ضد المقاومة توصم المقاومة بالإرهاب، فبالتالي قد ما كان إرهابي وطني وسليم وغير مرتبط فهو متهم بإنه إرهابي وبالتالي مُحارَب من الأهل قبل الآخرين. يعني في هلأ أشكال من المقاومة يُفترَض تكون هي موجودة. هلأ إذا اعتبرنا المفاوضات جزء من المقاومة فلتكن مفاوضات حسب أصول التفاوض، ويكون هناك في **ذكاء، وخبث، ودهاء، ومناورة** تستند إلى الوحدة الوطنية."

وتقدم رندة صورة أخرى لهيمنة الخطاب الحزبي على تفكير الرواة ضمن هذا النمط، هي التي ورثت عن جدتها وجدها حب الأرض وحلم العودة مما دفعها للانضمام إلى صفوف حركة فتح منذ صغرها. بدأت رندة كزهرة بالمعسكرات، وشاركت في العمليات النضالية للحركة في بيروت من خلال عملها، وكان حلمها في ذلك الوقت أن تقوم بعملية فدائية في "الداخل العميق"[127] كما ذكرت في روايتها. لكن هذا الحلم تغير (فهي لا تعتقد أن المقاومة مجدية في ظل موازين القوى اليوم، حيث العدو كما تصفه غدار والأسلوب المنطقي لمحاربته هو المفاوضات. فالمفاوضات التي يقودها الحزب الذي تنتمي إليه (فتح) ليست فقط الطريقة المناسبة للمقاومة اليوم، لكنها أيضاً الطريقة الوحيدة _ليس لاستعادة الأرض_ وإنما لإنقاذ الشعب الضائع والجائع في الداخل بحد تعبيرها). وتنتقد رندة بالمقابل مفاوضات حزب الله مع إسرائيل ضمن عملية تبادل الأسرى وتعتبرها خطأ أخلى المزيد من الأرض لإسرائيل:[128]

"**بنحب قضيتنا وما بنتنازل عنها** ولا راح نتنازل عن حق العودة ولا توطين ولا تهجير. وأنا حلمي من وأنا صغيرة، وقت كنت بإطار التنظيم كان حلمي آخذ الحزام الناسف اليساري وأفوت فيهم، بس هلا ما حلمي هيك، **حلمي صار بالتكتيك السياسي** لحتى أقدر أفوت للعقول تبعتهم، يعني عمليات الاستشهاد ما بتكفي لأني أدمر، لا خليني أدمر بالعقول وأخرب هاي بتكون واصلة أكثر. بحرب حزب الله على إسرائيل أنا كنت موجودة وداومت 21 يوم على الحدود السورية اللبنانية أساعد بتقديم المعونات الغذائية والصحية للمتضررين رغم إنه اللبنانيين كانوا يسيئوا لنا. ويجينا

[127] هكذا تشير الراوية للجزء الفلسطيني المحتل في العام 1948.

[128] يمكن قراءة هذا الموقف الغاضب لرندة من عملية الرضوان من أكثر من زاوية. فرندة التي تؤمن بأن طريق الحل اليوم يبدأ "بالتكتيك السياسي والمفاوضات" كما تقول في بداية روايتها، تنتقد حزب الله على طريقة ادارته للمفاوضات مع اسرائيل بشأن عملية الرضوان وتعتبر أن حزب الله حقق انجازاً لاسرائيل في النهاية بتمكينها من التوسع على أرض المقبرة، لكنها لم تنتقد من جهة أخرى إدارة السلطة الفلسطينية لعملية المفاوضات مع الطرف الإسرائيلي رغم أن الفترة ذاتها شهدت مصادرة المزيد من الأراضي الفلسطينية بشكل واسع بهدف التوسع الاستيطاني. ويمكن أيضاً قراءة هذا الموقف الرافض من عملية الرضوان، على أنه يعكس نوعاً من الانشداد الرومانسي والعاطفي الذي يحمله المبحوثون لأرض الوطن المسلوب. وقد تكرر هذا الموقف لدى أكثر من راو وراوية من مخيم اليرموك ومن الأنماط المختلفة (أنظر رواية خالد الناصري، 18 عاماً، النمط الحالم الباحث عن فلسطينه). بالمقابل هناك من ينظر إلى عملية الرضوان كانتصار حققه حزب الله باسترجاع جثامين الشهداء المأسورة في مقابر الأرقام الإسرائيلية ليدفنها أهاليهم كما يستحق هؤلاء "الشهداء اللاجئون" بحسب تسمية نزار الصفدي لهم، الذي أورد روايته في نهاية عرضي لهذا النمط.

أوامر من قيادة الإقليم السوري إنه معلش أعطوهم، بنوقف على السيارات وبنعطيهم وبشتغل معهم. يعني وقتها رجع لي شوي الأمل بس بكيت بكاء مرير لما انطلق قطار العودة، (وبدأت بالبكاء) رجعوا، أنا من النوع اللي مخضرمة بالدم وبخوض في الدم، أنا من عمري 13 سنة وأنا بالدم ، يعني عدا الدراسة، كان في تدريب وتهيئة! هم على القاعدة العسكرية ونحنا على القاعدة الطبية. أنا كنت على الحدود، يعني كنت بين الثانية والثانية بطير كان بصدري القرآن وأدوية ... (تتوقف الراوية هنا وتبكي) ... أول شيء بتمنى إيقاف سفك الدم، الخلاف والنزاع الداخلي يوقف بين هالفصيلين ... أنا ما راح أقول لك بوقف مع هدول أو هدول، الاثنين مخطئين، بس بدنا نوصل لحل، لأنه كل العالم ضحكت علينا، بكفي، بكفي، ووحدة الدم هي الطريقة! وخلينا نفوت مع العدو بالمفاوضات، لأنه هذا عدو غادر، أنا لما بدي آجيه بالمقاومة فأنا خاسرة لسببين: أنا لا أمتلك سلاح بقوة السلاح اللي هو بمتلكه، والسبب الثاني: نحنا جميع القياديين العرب لا يمتلكون دهاء سياسي مثل إسرائيل وأمريكا والبريطانيين، فهذا عدو غادر أنا ما بحاربه، بدي أفوت فيه بالمفاوضات، وبالعقول. أنا ضد الحرب، وضد سفك الدم! أنا لما بدي أفاوض مع عدو، لا ما بدير له ظهري لأنه بالتالي عندي شعب جوا بده يجوع، وبده يتدمر، وبده تنقطع عليه الكهرباء، لا لازم أفاوض ولازم أسايسه وبنفس الوقت أنا واعي، يعني لما بدي أسلمه أسير وآخذ ألف سجين جوا، معناته أنا لازم آخذ أول شيء الأسير وبجوز أضحك عليه، لأنه **الحرب خديعة** ... أنا بدي **دهاء!** يعني وضع حزب الله مختلف وهم أقوى منا بكثير، وآخر فترة أنا كرأي شخصي .. أنا كنت زعلانة من حزب الله لدرجة شديدة: أخطأ، أخطأ، أخطأ، أخطأ ... حزب الله لما أعطانا رفات شهداء، نكب العالم، وأمهات مريرة جداً، مرت خالي من اللي نسيانه ابنها من 25 سنة (تتوقف الراوية مرة أخرى وتبدأ بالبكاء) لا تعطيني عظم من تحت التراب ... صار له ميت 30 سنة و 25 سنة و 17 سنة ... خليه مدفون ببلده وخلي روحه مرتاحة ببلده، طالب بأسير، طالب بمروان البرغوثي، لما **أنت أعطيتني رفات شهداء، عظام، .. وتركت إسرائيل تتوسع** ... صار إسرائيل عندها توسع سياسي وتوسع بالأرض، **ممكن هاي المقبرة اللي أخذنا منها الشهداء تفتحها كازينو ولا مدرسة ولا مشفى** ... لا ما بدنا هذا الشيء، ليش نظرت للجانب الإنساني يا حزب الله مع أنك من طول عمرك بتنظر للجانب العسكري؟! أنت صحيت آلام كل إنسان، أنت ما شفت البكاء المرير بمخيم اليرموك (توجه الكلام لي)... أنا كنت ماسكة ورقة وقلم مثل المجنونة عم بركض وبسجل وصرت أوزع مي وساعدت بإسعاف الأمهات، كان يوم مرير، في منهن، أمهات دخلوا بالعناية المشددة. أنا ما بدي أنظر للجانب الإنساني، هو مات خليه بأرضه مرتاح، لأول مرة بحس كرأي شخصي شخصي، للمرة المليون بقولك إياه حسيت إنه حزب الله أخطأ."

وتبكي مرة أخرى، حين تذكر قريتها في صفد:

"الدموع مش خوف، الدموع مش فرحة ولا حزن، الدموع حرقة قلب ... إنه هذا الشيء المنيح مو لإلنا، يعني إذا شي لإلك وأنا أخذته منك (تشير إلى كتاب على الطاولة)، وأنت لا قادرة تجيبيه بسلاح، ولا قادرة تجيبيه بالعقل، فلازم تظلك تفكري كيف بدك تاخدي كتابك مني ... فدمعتك ما عم تنزل خوف، عم تنزل مقت وقهر، عم تنزل لأنه أنا كيف بدي وصل لهذا الشيء."

يمكن أن نلحظ انعطافاً واضحاً في رواية رندة الخاصة بفلسطين، من تلك اللحظة التي قررت فيها المشاركة بالعمل الحزبي، لإيمانها بقدرة الحزب الذي اختارته على إيصالها إلى هدفها باستعادة حقها الضائع، كلاجئة تعيش خارج أرضها وأرض آبائها، لتصرح في بداية المقابلة أن هدفها لم يتغير ولن يتغير، إلا أنه يتضح خلال المقابلة أنها ما زالت ملتزمة بفصيلها السياسي وتدعم مواقفه على الرغم من انعطافه انعطافة كبيرة من حيث الهدف والشعار الذي ما زالت هي تحلم به؛ من التحرير واستعادة كامل التراب الوطني إلى إعلان الدولة المستقلة إلى جانب دولة إسرائيل.

برر بعض الرواة في هذه الدراسة هذه الانعطافة على أنها حركة تكتيكية تتطلبها الواقعية السياسية والشروط المرحلية. فيما رأى فيها الرواة الآخرون ضمن هذا النمط _الذين يظهر في رواياتهم أثر

هيمنة خطابات حزبية أخرى_ انحرافاً استراتيجياً عن القضية المفصلية التي ما زالت ماثلة في شروط الحياة اليومية في المخيم المرتبط وجوده بتشريدهم من وطنهم ضمن مشروع استعماري ما زال مستمراً. يمكن مقاربة هذا الوضع من الاغتراب والضساع إلى انتشار حالة **اللامعيارية** أو ما سماه دركهايم بالوضع الانحلالي أو الأنومي: انحلال القيم والمبادئ السياسية، فبعد عقدين من العمل تحت راية الثورة والكفاح المسلح من أجل التحرير والعودة تغير البرنامج الحزبي ليركز على إقامة دولة في الجزء "المسموح به".[129] ومن الطبيعي أن يتولد عن هذه الحالة من الانشقاق اغتراب يظهر في روايات هذا النمط من الانفصام الذي يعيشه الفلسطيني اللاجئ بين الخطاب الرسمي الذي يعيد تشكيله كمواطن يعيش في دولة بكامل أجهزتها الأمنية والسياسية والتعليمية، وبين الواقع المعاش الذي يذكره في كل لحظة بواقع الاقتلاع والتشرد من الوطن. وتنعكس حالة الاغتراب أو اللامعيارية هذه في التوتر والتناقض البادي في رواية هذا النمط خاصةً، والازدواجية أو الفصام الذي يسود خطاب الرواة، كما في المقطعين اللذين أوردتهما أعلاه. فالراوي يدرك أن عودته إلى فلسطين لن تتحقق من خلال مشروع أوسلو، ولكنه مع ذلك يمتدح المشروع الذي سيضمن تحقيق دولة للفلسطينيين في الضفة وغزة إلى جانب دولة إسرائيل، وفي نفس الوقت يصر على العودة إلى بلده الأصلي المحتل من قبل إسرائيل سنة 1948. لتغدو الازدواجية شيئاً عادياً غير مستغرب: فالرواة يكررون الكلام الحزبي جاهزاً، غالباً بدون مراجعة أو انتقاد لتفاصيله، ويدعمونه بأمثال وأقوال السياسيين والشعارات الحزبية. وإلى حد ما، تكشف روايات هذا النمط الشعور بالعجز أمام خطاب السلطة المسيطرة؛ فعلى الرغم من أن الظاهر هنا هو قبول الرواة بفكر الحزب، إلا أن التناقض الذي يظهر في خطابهم كنوع من الانفصام بين الممكن والمأمول يعود إلى كونهم مأسورين بقبول أيديولوجيا الحزب الذي ينتمون إليه قبولاً قسرياً. والقسر هنا ليس بفعل الإرهاب أو القمع المباشر، وإنما بفعل هيمنة الخطاب الحزبي وأيديولوجيته المؤثرة على الوعي العام، وبالتالي على الوعي النقدي. فالراوي، الذي تبدو آثار الخطاب الحزبي بوضوح في روايته، لا يلحظ التناقض بين روايته للواقع الفلسطيني التي تلتزم بإطار الحدود الضيقة التي تفرضها السياسة وبين المقولات التي يعبر من خلالها عن تماهيه مع الخطاب الشعبي السائد الذي مازال يصور فلسطين بخارطتها الكاملة ومركزها هو قرية أهله الأصلية.

وبعكس الرواة في النماذج الأخرى الذين حين يتجهون إلى لوم الذات نتيجة سكوتها على الإجراءات الاستعمارية والتقصير في مقاومتها؛ مما أدى إلى تكريس البؤس والعجز في الواقع الفلسطيني اليوم، يرجع لوم الذات هنا إلى أسباب مختلفة. فالراوي في قلنديا يلوم نفسه لعدم تماشيه مع الإجراءات الاستعمارية بما يجنبه المشاكل اليومية التي يعانيها اليوم. ينصب تركيز الراوي هنا على مصلحته الخاصة، وتصبح هوية القدس أهم من ضياع القدس:

> "الحين في ناس متزوجين من حملة هوية قدس هون في المخيم، عمره ما فكر يسوي هوية قدس زي مرته مع إنه هذا الحكي كان سهل جداً زمان، لو كان يتنبأ للمستقبل ويعرف إنه بده ييجي يوم

[129] من قبل الأطراف القوية (إسرائيل والقوى العالمية الداعمة لها).

زي هذا اليوم وإنه إسرائيل راح تمنعه يخش القدس ويخش هون وهون ..كان سوا الهوية من عشرين سنة ... ليش؟ لأنه الواحد دائماً في شويه تفاؤل وبيقول انشالله بس أنا فش ذرة تفاؤل عندي شايفها بتزيد وبتخرب وبتخرب ... إلا إذا ربنا تدخل هيك من فوق يخبطنا زلزال .. يخبط النص اللي هيك (يؤشر باتجاه إسرائيل)."

ثانياً: التركيز على الهم اليومي (حقوق المواطنة والجنسية والوحدة الوطنية)، وغياب الهم التاريخي (تحرير الأرض والبشر والعودة)

تتمحور الرؤية المستقبلية لرواة هذا النمط حول التركيز على حقوق المواطنة والجنسية والوحدة الوطنية، وتختلط الأماني العامة للواوي بأمانيه بالخاصة، ليظهر وكأن الواوي يختزل القضية التحررية إلى الأمل بالوحدة الوطنية ورفع العلم والاعتراف بالوجود من خلال الحزب الذي ينتمي إليه:

"بتصوري إنه إذا بدنا نحرر فلسطين، لازم أول شيء نحب بعضنا، إنه نحنا بالأول والأخير في خندق واحد، ضد العدو، أنا الإسرائيلي لما بده يزت قنبلة بأحد الأحياء ما راح يقول هاي لحماس وهاي لفتح، راح يزت القنبلة ويموت الكل ... أكيد راح يكون واحد فتحاوي وواحد حمساوي وواحد جبهة ديمقراطية وواحد حزب شيوعي ... ما راح يميز ... آلة القتل ما راح تميز إنه هذا التيار هيك وهذا هيك، بالأول والأخير نحنا كلياتنا شعب فلسطيني ... أنا بتمنى ييجي يوم ونكون عايشين فيه أشوف الشعب الفلسطيني كله إيد واحدة وتحت علم واحد هو علم فلسطين بالأول والأخير نحنا كلنا شعب فلسطيني، وبتمنى ييجي يوم وأكون عايش فيه، وأشوف إنه نحنا كلنا الشعب الفلسطيني شعب واحد وإيد واحدة تحت علم واحد: هو علم فلسطين الأبيض والأسود والأحمر والأسود وبس ما بدي أكثر من هيك ... يعني هذا أملي بالحياة." (رامي التلحمي، 23 سنة، مخيم اليرموك).

وبالمثل هناك من يختزل القضية الفلسطينية إلى حقوق المواطنة:

"أنا في سوريا عايش حياتي بس المشكلة عندي بالسفر، وكمان في مشكلة ثانية إنه للأسف أنا فلسطيني ما بقدر أنتخب... هلأ صاروا يعملوا البطاقة الانتخابية... بطاقة انتخابية على ضوئها بتروحي تنتخبي... هلأ أنا ما موجودة عندي... بجوز في ناس كتير تسألهم عهيك سؤال ما يوقفوا عنده... بجوز مفهوم المواطنة عندهم مش واضح لهالدرجة... هلأ أنا الحمد لله بدِّعي أنه في عندي طموح للوصول للبنية الفوقية، لكن في عندي كتير منغصات، ومن هاي المنغصات أنه أنا ما معي جواز سفر... ما بقدر أقترع... ما بقدر أعبر عن رأيي بشكل واضح وصريح... أنا أسير لأني لاجئ... أسير لثقاة حق العودة... يعني في عندي هناك حتى بنيتي الفوقية ما قادر أعبر عنها لأنه مواطنتي مجروحة... هموم أولى بسلم الأولويات أهم من إني أفكر بالبنية الفوقية... فهذي كمان كلياتها بتخليني حزين..." (ناصر غزال، 45 سنة، مخيم اليرموك).

كما نلاحظ أيضاً، عند الجيل الأصغر، كيف تتحول الطموحات العامة إلى طموحات شخصية تُحَمّل بعداً وطنيا:

"أنا الهدف الأول إني أدرس قانون دولي .. وراح أسعى أطلع برا على مصر أدرس القانون الدولي لهدف واحد إني أدافع عن القضية الفلسطينية بالمحافل الدولية .. كثير هذه النقطة مهمة: إنه نوظف الشي اللي بندرسه للهدف الأكبر: القضية الفلسطينية .." (رامي التلحمي، 23 سنة، مخيم اليرموك).

"أنا كطالب فلسطيني، بدرس لأخدم قضيتي، ومعروف إنه تحصيل الطلبة الفلسطينيين أعلى من تحصيل الطلبة السوريين، هذا الموضوع بنستفيد منه وبنبلوره، بنعمل حفلات لبلورة هذا الموضوع.. نكرم الطالب المتفوق الفلسطيني لأنه عم بناضل زي اللي بناضل بالسلاح .. أنا طموحي إني أكون سفير: أدرس علوم سياسية، وأنشر قضيتنا بين المجتمعات بالنسبة لقضية فلسطين." (من رواية نزار الصفدي، 21 سنة، مخيم اليرموك).

"أنا عندي طموح أكون بالعلاقات العامة أو بالخارجية الفلسطينية... هلأ بما إنه الإعلام هي الحماية الخفية اللي كانت عندي... عندي طموح بإني أكون إعلامي بارز... أحمل مثلا لواء قضيتي وهم وطني، أهم شي فضائيتنا أنا بقدر إني أطور فيها... فضائية فسطين... بس أتخرج أخدم هاي الفضائية، بحيث أنه تكون متطورة شوي هي بتكون أوْلى يعني." (من رواية ناصر غزال، 45 سنة، مخيم اليرموك).

ثالثاً: سيطرة الواقع بمشهديته وغياب الصوت النقدي

تتميز روايات هذا النمط بغياب الصوت النقدي الذي يوجد بدرجات مختلفة ضمن جميع الأنماط الأخرى. أما هنا فهو غالباً غائب، وحين يظهر يكون منسجماً مع مستوى النقد الذي يتقبله الحزب الذي ينتمي إليه الراوي، وموجهاً إما للأحزاب الأخرى (كما في حالة رواة مخيم اليرموك)، أو لانتقاد سلوكيات القيادة التي تتسبب في تعطيل المصالح الشخصية المتعلقة بالحياة اليومية للراوي وليس للخط السياسي العام (كما في حالة جمال الصرعاوي في مخيم قلنديا):

"أنا حالياً بتأمل تخفيف الحواجز هاي، هاي جبع بدهم يساووا معبر كبير زي معبر قلنديا، محوطين يعني، إحنا بنتأمل بنقول انشالله بس مش شايفين اشي! ديري بالك التقصير مش بس من أميركا وإسرائيل، من عنا التقصير. هالحين محمود عباس قلقان في 15 ألف لاجئ عايشين في مخيم قلنديا، هو وكل هالمستفيدين لما بيقعدوا مع المفاوض الإسرائيلي أنا متأكد بيحكوش ولا كلمة، يعني معقول محسوم زي محسوم جبع لو في ضغط عليه معقول بقدروش يقيموا السلطة؟ أنا بقول بقيموه أنا عندي قناعة، بقول لك لو في ضغط، صدقيني إنه جزء كبير من المحاسيم يعود للمفاوض الفلسطيني، مش إنه الفلسطينية بدهمش ينقام بس مش مهتمين، أنا معاي باسبورت أحمر وبدخل وين ما بدي مش مفرقة معاي، ما هم كلهم اللي بفاوضوا بدهم إيانا هيك، يعني بيجوز نلاقي واحد مُخلص!"

بعكس النمط المحبط، فإن رواية فلسطين تتحول هنا من قصة شعب يعاني من الممارسات الاستعمارية العنيفة إلى قصة صراع على احتلال المنابر الإعلامية أو القانونية بما يلبي احتياجات الفرد للوجود. وبشكل عام تتمحور روايات هذا النمط حول سلبيات الوضع الراهن، ويلقي الراوي باللوم على سلوكيات الأحزاب الأخرى (دون أن يلوم حزبه)، ويحصر روايته حول الوضع الداخلي والمشاكل اليومية والشخصية أحياناً أكثر مما يركز على الحالة الاستعمارية أو المواجهة مع الاحتلال. وحين يحاول الخروج من الإطار الضيق للخلافات الداخلية يركز على الرأي العام، وتحتل صورة فلسطين في الإعلام والرأي العام الغربي حيزاً كبيراً من قصته، كما يظهر في الروايتين التاليتين:

"فالحدث اللي أثر مزبوط، اللي حبيت إنه يتفعل هو رفع علم فلسطين في غزة؛ لما رجعوا على غزة وأعلنوا دولة فلسطينية، هذا بالنسبة لإلي أهم حدث في حياتي وبتمنى طبعاً يتكرر هالحلم هذا في جميع القرى والبلدات الفلسطينية ... والله حتى على مستوى الاتفاقيات اللي صارت أوسلو .. يعني في شي ضد وشي مع ... طبعاً كفلسطيني أنا بعتز بفلسطينيتي وأملي كبير إنه يُرفع العلم الفلسطيني في كل أنحاء فلسطين، لأنه فلسطين هي من النهر للبحر، كلها كاملة، لكن السياسة هلا أعطتنا إنه نحاور على قطع معينة من الأرض لكن في مثل بقول: "خذ وطالب" فمن هذا المنطلق إحنا أملنا كبير إنه ترجع ..." (أبو فارس، 42 سنة، مخيم اليرموك).

"في عندي طلعة ع فرنسا بيجوز نقضيلنا 10 أيام. عنا توأمة مع مركز أطفال في فرنسا بنزورهم ع حسابهم وبزورونا ع حسابهم ... بدي أحكيلهم بالوضع الموجود عندي كلاجئ، عن وضع طفل مثل هذا (يؤشر على أحد الأولاد) لا يجد العلاج الذي يحتاجه، أنا بحاول أركز على القصص

الفردية هاي بيجوز يكون وراها قصص كبيرة .. في عنا قصص معاناة ملان في المخيم، يعني قضية المحسوم والعلاج .... يعني مستشفى عيون فش عنا مستشفى عيون .. إحنا بنحكيلهم القصص هاي بيجوز أحسن من أني أحكيلهم بشكل عام، إذا بدي أحكيلهم سياسة refugees ما هم بعرفوا اللاجئين، بدي أقول لهم إنه طلعنا من أرضنا وإسرائيل، ما هي معروفة ... أنا بركز على القصص بقولهم: ابني وابن أختي وفلان [...] والوفود الغربية بجوز تقريبا في مخيم قلنديا وغير مخيم قلنديا تقريبا باستمرار... يعني عنا وفود... يعني بعد ما نحكيلهم مين إحنا كلاجئين يعني أول شغله بنفكر فيها بنورّيهم على أطراف المخيم، يعني إحنا مخيم قلنديا على سبيل المثال يحيط فيه مستوطنتين وهدول مستوطنتين ممتدات: يعني كل سنة بزيدوهم شوية... هلأ أول شيء بنفكر نوريهم المستوطنات عشان يشوفوا الناس الأجانب هدول قديش إحنا مسخّمين... يعني منطقة زي منطقة مثلا هاي المستوطنة اللي بسموها كوكب يعقوب هاي... هاي كل أطفال مخيم قلنديا إذا بدهم... يعني كانت متنفّس المنطقة هاي... متنفس للأطفال يعني... أنا كنت في طفولتي إذا بدي أجد مكان أروح أشم هوا فيه أتنفس أتعلل كنت أروح للمنطقة هاي... اللي هي هلأ منطقة مستوطنة..." (جمال الصرعاوي، 38 عاماً، مخيم قلنديا).

وعلى الرغم من تماشي الرواة مع الخطاب السياسي الرسمي في وصفهم للواقع الفلسطيني، إلا أنهم يتفقون جميعاً على أن صورة فلسطين الجغرافية ظلت كما هي، ولم تتغير، وهي عبارة عن 27 ألف كم 2 أو كامل حدود فلسطين الانتدابية، ويمكن تفسير هذا بتأثير المشهد المهيمن في سوريا والذي يصور فلسطين بخريطتها الكاملة في الإعلام والأهم في كتب المناهج الدراسية، بالنظر إلى أن معظم رواة هذا النمط [10] هم من مخيم اليرموك.

الـــرواية بيـــــــــن المـــخيمين

يظهر الاختلاف بوضوح ضمن روايات هذا النمط بالنسبة لمتغير المكان. فبمجرد إلقاء نظرة سريعة على قائمة الرواة،[130] يتضح أن أغلبية رواة النمط المأسور بالمشهد المحيط يعيشون في مخيم اليرموك (10) مقابل اثنين فقط يعيشون في مخيم قلنديا. ولا يمكنني أن أقدم تفسيراً جازماً للفرق في عدد الرواة بين المخيمين بالاستناد فقط إلى المعلومات التي يوفرها مضمون المقابلات وصفات الرواة الذين يجمعهم النشاط في العمل السياسي والحزبي، وذلك لأن نسبة من قابلتهم وصرحوا بنشاطهم السياسي لا يسمح بإصدار تعميمات حول ذلك، كما أن الذين صرحوا بانتماءاتهم لا يمثلون إلا جزء بسيط من الفصائل المختلفة التي تنشط على الساحة الفلسطينية (ومن الملاحظ غياب أصوات الأحزاب الإسلامية: حماس والجهاد تحديداً، مع أنها ظهرت لدى بعض الرواة لكن ليس ضمن هذا النمط تحديداً). بالإضافة إلى أن الانتماء التنظيمي أو الحزبي لم يكن متغيراً رئيسياً في هذه الدراسة، ولم أتخذه بالتالي كمعيار لاختيار الرواة. لكن باختصار، يمكن إرجاع غلبة هذا النمط بين رواة مخيم اليرموك إلى البعد الجغرافي المادي عن الوطن والذي يعزز لدى اللاجئين حالة النفي والغربة والإحساس بالانعزال وبالتالي بالحاجة إلى البحث عن محيط اجتماعي يعطيهم الإحساس بالحماية والانتماء إلى الجماعة الأصغر والفرصة للتعبير عن شخصيتهم الوطنية، وقد لعبت الأحزاب والفصائل الفلسطينية تاريخياً هذا الدور. وهذا لم يمنع حدوث تراجع في مكانة العديد من الحركات السياسية وأدوارها اليوم، حيث عبر بعض الرواة الذين قابلتهم عن استيائهم من الأحزاب بشكل عام،

[130] راجع قائمة الرواة في الملحق الثاني في نهاية الدراسة.

وانتقدها آخرون صراحة، كما وجه العديد من النشطاء انتقادات للأحزاب التي ينشطون ضمنها.[131] ومن الملاحظ أن درجة التذمر والإحباط من ممارسات الأحزاب وخطاباتها –بعد الانقسام والاقتتال بين فتح وحماس والجو الأمني السائد اليوم في الضفة والقطاع– ترتفع أكثر لدى الرواة الذين قابلتهم في قلنديا، لتصل إلى درجة الرفض والابتعاد عن الحزب، وقد يفسر هذا بدرجة معينة قلة رواة قلنديا ضمن هذا النمط. أما في مخيم اليرموك فعلى الرغم من وجود إحباط مماثل كما ذكر الرواة، إلا أن دور الأحزاب ما زال أكثر تأثيراً سواء من ناحية تأمين فوص العمل والتعليم للاجئين عبر المؤسسات المختلفة التي تديرها وتشرف عليها هذه الأحزاب في مخيم اليرموك، أو من حيث تلبية حاجة اللاجئ إلى حيز يعبر من خلاله عن شخصيته السياسية والوطنية. وبالنظر إلى رواة النمط المأسور بالمشهد المحيط (وبالخطاب الحزبي تحديداً)، فإن أغلبهم يعدون فاعلين ضمن الأطر الحزبية التي ينتمون إليها، ويعمل جزء منهم موظفاً ضمن مؤسسات الحزب، بينما يلتزم الجزء الآخر بالمشاركة الفاعلة في نشاطات الحزب.

ومن حيث مضمون الروايات، يظهر تأثير متغير المكان جلياً في روايات هذا النمط بدءاً من القسم الأول من الرواية، حيث يشترك رواة قلنديا بالاختصار الشديد في وصف الحياة في البلاد في الماضي ورحلة التهجير، حتى أن الراويين الوحيدين من قلنديا في هذا النمط نصحاني بمقابلة رواة من الجيل الأول لجمع روايات عن البلاد. حين سألت سمر الساريسية وتبلغ من العمر 20 عاماً لتخبرني عما تعرفه عن البلاد وقصتها عن فلسطين، أجابتني:

> "يمكن الأفضل أن نحكي مع الأجداد والآباء لنسألهم كيف كانت **فلسطين تاعة زمان**، فلسطين التاريخية. نحنا كنا نعمل أبحاث كل واحدة عن بلدها، كان البحث مخصص أننا نسأل الأجداد. يعني أنا عرفت أن الحياة كانت حلوة كانوا كلهم مع بعضهم، وفي ختيار حكالنا أننا كنا عايشين، دار سيدي، العائلة كلها على جبل، يعني كانوا كلهم قعدتهم في ساحة واحدة، تخيلي أن قعدتهم كلها كانت في ساحة واحدة!! نحن اليوم لا نقعد مع دار عمي في ساحة واحدة. فتخيلي كيف يعني عيلة كاملة تقعد في ساحة واحدة."

وحصلت على الجواب نفسه من الراوي الآخر في قلنديا، جمال الصرعاوي 38 عاماً:

> "أمي وأبوي انولدوا في بلدنا الأصلية اللي هي صرعة هاي قريبة من القدس...طبعا إمي طلعت صغيرة يعني بجوز 8 سنين بس أبوي بعرف البلد أكثر... طبعا هم كبار السن ذاكرتهم بتختلف مش عارف حسب تركيبة الدماغ... يعني في عنا كبار السن بتقعدي معهم 10 ساعات بوقفش. بيعطيكي معلومات ودقيقة جدا كأنه موجود، يعني بيعطيكي الإشي كأنه بث مباشر، بتذكر الأماكن، والأسامي، وكل الأحداث. أما إحنا بنعرف الشغلات البسيطة يعني مش كتير."

---

[131] يمكن ملاحظة تراجع موقع الخطاب الحزبي ودور الحزب في التأثير على رؤية اللاجئين (ضمن عينة المبحوثين الذين قابلتهم) في روايات أنماط: الحالم الغاضب، والحالم بالغد الأجمل والمحبط، ولا يقتصر هذا على أهالي مخيم قلنديا فقط، فمن الواضح أن دور الحزب تراجع أيضاً في مخيم اليرموك. ويظهر هذا بشكل أوضح في روايات الأنماط ضمن صورة فلسطين الأحلام، حيث يوجه الرواة انتقاداً لسلوك الأحزاب الفلسطينية في المراحل المختلفة ويتحولون للعمل ضمن الحركات الاجتماعية مثل لجان حق العودة وتجمعات ثقافية وفنية أخرى مشتركة (أي تلك التي تجمع سوريين وفلسطينيين)، بينما يختار رواة آخرون الابتعاد عن الأحزاب ويرفضون حتى التعامل مع المؤسسات الاجتماعية التابعة لهذه الأحزاب. تقول إحدى الراويات في مخيم اليرموك: "المشكلة إنه أي نشاط بصير بكون تحت اسم فتح أو حماس أو الجبهة ولما تشاركي فيه بتنحسبي عليهم. أنا كنت بدي أسجل ابني بنادي سباحة وشفت كثير نوادي، لقيت نادي واحد مرتب بالمخيم، هلا قالولي عن "نادي جنين" وحكوا إنه كثير مرتب بس لأنه تابع لحماس، زوجي رفض. ما بده يكون لا لحماس ولا لفتح، دورنا على نادي ثاني لقينا نادي كثير مرتب لما فتت لقيتهم حاطين فوق صورة فتحي الشقاقي والمهم طلع للجهاد الإسلامي. وكمان صرفت نظر، ما بدي ابني هلا يصير لا فتح ولا حماس بس يكبر هو حر ...".

بينما روى المبحوثون في مخيم اليرموك، على اختلاف أعمارهم، قصصاً أطول عن البلاد، وصفوا فيها طبيعة الحياة التي كانت سائدة في فلسطين، مستقين معلوماتهم من روايات الأب والأم أو الجد والجدة. بالإضافة إلى الزيارة الالكترونية من خلال القرص المدمج الـ CD ومواقع الانترنت في حالة اليرموك، التي تحل محل الزيارات التي يقوم بها اللاجئون إلى بلادهم في قلنديا، حيث تتكرر القصة في أكثر من رواية ضمن هذا النمط وغيره. يصف علي الكرملي_50 عاماً_ في روايته بصور سريعة رحلة التهجير وبلده طيرة الكرمل التي شاهدها عبر الـ CDبرفقة والده:

"إحنا أساساً من طيرة الكرمل. أهل أبوي طلعوا من هونيك وراحوا على الأردن وبعدين طلعوا على لبنان وبعدين اجو لهون. قعدوا بمنطقة حي الأمين[132] وبعدين أجو على المخيم. قصة الهجرة، صارت معروفة للجميع بالإضافة للتهويل الإعلامي اللي صار والمجازر اللي كانت تصير طبعاً الناس خافت وطلعت. أنا شفتها للطيرة على الـ CD. في شب من السويد كان رايح وعامل ريبورتاج، حتى لما تفرجنا عليه أنا وأبوي، أبوي صار يبكي، أول مرة بشوف أبوي عم يبكي. حتى إنه أثناء الحديث في التصوير كان عم بيقابل واحد وصار يقول هونيك كان بيت الأبطح فأبوي طبعاً تذكر المنطقة وفي مناطق زي ما هي بعدها. **يعني شفت الطيرة أنا، بس أكيد ما كانت تشبه الصورة يالللي في خيالي. أنا متخيل الطيرة حسب ما كانوا يحكوا لي أنه هيك ضيعة[133] مثل رأس البسيط[134] يعني ع الساحل مثل ضيعة بحرية يعني جبل وبحر**، يعني الكرمل وبعدين السهل والضيعة والطيرة، بس اللي شفته أرض كبيرة وخالية. في مناطق متغيرة فيها حسب ما والدي قال لي إنه هاي منطقة متغيرة وحتى في أبنية جديدة عم تطلع."

وتأتي الرواية الأكثر غنى بالتفاصيل من ناصر الغزالي _46 عاماً_ الذي يصف طبيعة الحياة في بلده الأصلي عين غزال وقصة تهجير أسرته بتفاصيلها الصغيرة:

"أنا من عين غزال، قضاء حيفا. عين غزال كانت مشهورة بالأحذية. كان الغني من القرى المجاورة إذا بده يرفع راسه بكندرته بقلك أنا كندرتي من عين غزال (...)[135] فكانوا شاطرين بهاد الموضوع (...) الزراعة بتعرفي كمان كقرية بتعتمد عالفلاحة وكان عندهم مواشي، وكان في تجار إلهم علاقة بتجار لبنانيين، يعني كان في تجار لبنانيين يجوا ياخذوا خضار وفواكه و إلى آخره ويجيبوا أقمشة (...) وبنفس الوقت كانت علاقاتنا بالقرى المجاورة علاقات مفتوحة بسبب وجود من قبل ال 45 كان في مركز ثقافي ونادي رياضي. سقطت قريتنا بعد الهدنة فهدول اللي طلعوا من القرى الثلاثة عين غزال وإجزم وجبع هذول اسمهم مثلث الصمود طلعوا بشاحنات الجيش العراقي، في جزء طلع مباشرة بسيارات الجيش العراقي باتجاه بغداد (..) وفي جزء لجأ لعصيرة الشمالية. أبوي كان ما يعادل صف سابع/ثامن (...) درس في حوران، سابع وثامن مع بعض في معهد ونجح فيهم بشكل جيد (...) لما شافوه شاطر قدموه للتاسع. وقدم تاسع وتوظف عليها مدرّس بمنطقة الجولان... طبعا لما أجا بالصيف من عين غزال كان لابس أواعي كشفية، اللي هو نص بنطلون شورت وقميص لدرجة أنه الحوارنة ضحكوا عليه أنه كيف زلمة لابس بنطلون شورت! هلأ بفلسطين ممنوع كان طالب المدرسة يروح بالشروال أو بالقمباز عالمدرسة، من الحكومة وزارة التربية: من الانتداب البريطاني.. فكانوا يلبسوا بنطلون بالشتاء وشورت بالصيف (...) فهاجروا فيهم (...) في شغلة حكالي إياها أبوي رحمه الله أنه لما طلعوا من البلد تذكروا الدكان والبيت، هلأ جدي كان عنده دكان صغيرة وتذكروا أنه البيت مفتوح... فرجع قفل الدكان وخلا المصريات بالجارور...ورتب الفرشات.. هن قالولهم انتو راجعين كمان أسبوع فقال شو بدي آخد غراض لآخد معي... فسكره وبرجع فهاد أبوي قفل عالمصريات وأمن الدار ورجع.. هاي حالة اللجوء... بعدها وصلوا عاليادودة.. ناموا في خيم يعني نصبوا خيم مباشرة... وبلشوا يشتغلوا بالأرض.. تجمعوا... طبعا بتعرفي انت طبيعة القبائل سابقا كانت موجودة.. كيف كانوا

---

[132] حي الأمين هو الحي الذي يقطنه اليهود في دمشق والبعض يسميه حارة اليهود، وقد ذكر العديد من اللاجئين الذين قابلتهم أنهم أمضوا المرحلة الأولى من اللجوء في هذا الحي.

[133] الضيعة هو المصطلح الذي يستخدمه معظم اللاجئين الذين قابلتهم في مخيم اليرموك حين يتحدثون عن القرية الأصل التي هُجروا منها، على ما يبدو تأثراً باللهجة السورية.

[134] وهي منطقة على الساحل السوري، تمتاز بجمال خاص يجمع التقاء الجبل بالبحر.

[135] يدل التنقيط هنا على لحظات توقف الراوي أثناء سرده للرواية.

القبائل والحمايل زمان دايما يهتموا ببعض (...) بحالة اللجوء رجعت القصة نفس المبدأ.. الحمايل وأهل القرى.. هلأ بتلاقي عنا هون بالمخيم شارع عين غزال... بتلاقي شارع لوبيا.. رجعت التجمعات عهوى العائلة... بدرعا بتلاقي نفس الشي..بتروحي على مخيم حمص بتلاقي الغالبية العظمى من أهل الشجرة... فهذي التشكيلة هي اللي خلت الناس يحطوا كتافن عبعض وظهورن لبعض... فأهالي عين غزال مثلا بدرعا قعدوا حوالين بعض... اه الفلسطينيين أخذوا فرص عمل، وحتى سد الثورة سد الفرات هاذ بحيرة الأسد معظمه كان من أعمال فلسطينيين. أنا أبوي كان مستلم وزارة الدفاع ملف خدمة العلم، وكان مرجع لشي اسمه التأجيل الدراسي والإداري... فكانوا القوانين من 48 ليوم ما طلع عالمعاش هو المرجع تبعهم، عمي كان مستشار قانوني بوزارة التربية، فهون الحكومة سمحت للفلسطينيين ينخلطوا في المجتمعات. منعوا عنهم فقط مجلس الشعب والانتخاب."

وتمزج عبير التي تبلغ من العمر 22 عاماً، بين قصة الجدة والصورة الخيالية التي رسمتها في ذهنها لإجزم بناء على ما سمعته من أهلها، والتي لا تتطابق مع ما تراه اليوم على شاشات التلفزيون:

"بتحكي لنا ستي عن فلسطين، وكيف كانوا يروحوا على البير هي والصبايا. أنا لما بتخيل فلسطين بتخيلها مثل بنت رشيقة كثير حلوة وقوية وطيبة ومتعالية وما حدا قدر يمسها، جريئة بس في حدود لجرأتها .... بتخيلها مثل مرج أخضر يعني مثل أفلام الكرتون بتخيلها: مرج أخضر وسماء صافية وبيوت حلوة، هلا مش مثل التلفزيون لأنهم شو بطلعوا رام الله وغزة وباقي فلسطين اللي أخدوها الإسرائيليين ما حدا بيعرفها! جدي وستي بحكوا عن فلسطين هاي (تقصد فلسطين الجميلة التي في خيالها: الجزء المحتل في الـ 48)."

وهناك اختلاف آخر بين رواة قلنديا ورواة اليرموك ضمن هذا النمط. حيث يسيطر على رواة قلنديا مشهد الواقع الاحتلالي اليومي مدعماً بصورته التلفزيونية. ففي روايته، لا يركز جمال على إسرائيل كقوة مسيطرة وعلى ممارساتها الاستعمارية بشكل أساسي، كالنمط المحبط الذي سبقه، وإنما يتحدث عن قوتها الإعلامية:

"القصة إنه إسرائيل دولة قوية إعلاميا أول إشي، وزي الإخطبوط يعني في كلِ مكان، طبعا بعرفش قوة إسرائيل! عندهم أسلوب عجيب الإسرائيليين يعني ماخذين عقول العرب والأمريكان والروس، يعني كل الدول اللي أنا شايفها يعني. يعني اللي بتتعاطف مع فلسطين يعني بجوز مش كل الشعوب. لأنه إسرائيل هي بتلعب عالحكومات ما بتلعب عالشعوب: يعني ممكن تشتغل على الشعوب وتخليهم يبكوا شوي الشعب، إنه الإسرائيلي مضطهد وفي عمليات وإشي، بس في النهاية، يعني بقلّك إشي يعني إسرائيل بتخوّف فعلا، بتخوّف على مستوى الإعلام، يعني كثير ناس بيجوا من برّا حتى العرب، حتى العرب اللي بيجوا من برّا بعرفوش حقيقة إسرائيل."

وبشكل عام يختزل رواة مخيم قلنديا الأحداث التاريخية في قصص قصيرة تصف مشاهد من حياتهم اليومية أو حدث معين يسردون قصته بطريقة تلفزيونية. كما تفعل سمر الساريسية حين تختزل القضية في رمز ديني هو الأقصى لتصف قصة زيارتها للأقصى وتحديها للجنود والحواجز:

"أريد أن أخبرك بهذه القصة، في رمضان الفائت كنت أريد الذهاب إلى الأقصى وظليت حتى وقت صلاة التراويح على الحاجز بس مرقت! ولم أتخيل أن أرجع إلى البيت بدون أن أصل للأقصى أولاً. مرقت على العبارة ثم طلعت الجبل وبعدين على بيت حنينا، ومشينا كثير ورموا علينا مسيل للدموع وكان الوضع لا يطاق ولكن لما وصلت حسيت أنه أنا هلا هون. يعني إلى من الصبح واقفة على المحسوم والجندي اللي على المحسوم حكالي وين بدك تروحي قلت له على الأقصى، لأنها كانت ليلة القدر، قال لي: روحي على المنارة، إعملولكم أقصى على المنارة في رام الله. لكن قلت له: لا، الأقصى في القدس وراح يظل في القدس، وصار يضحك."

أما روايات مخيم اليرموك، فتقدم نموذجاً على تأثير الهيمنة السياسية والحزبية تحديداً. حيث يسيطر الحدث السياسي المعاصر على الروايات وتغيب الأحداث التاريخية. ويظهر أثر الخطاب الحزبي بشكل واضح في روايات هذا النمط، إلى درجة أن بعض الروايات تبدو نسخاً متطابقة تقريباً، على الرغم من اختلاف خلفية الرواة الثقافية وأعمارهم. ليظهر كأن الرواة هنا يتحدثون بلسان الحزب، فتغيب التفاصيل الخاصة والتجربة الشخصية على حساب سيادة الخطاب المهيمن:

> "ظهرت حركة فتح والحدث المنير هو معركة الكرامة، من بعد معركة الكرامة، الفلسطينيون هم أول شعب في العالم فاق على حاله؛ إنه نحنا قادرين نساوي شي وبتوقع إنه هاي المعركة إلها الفضل باستمرار المقاومة والصمود، وباستمرار كثير شغلات هلا بفلسطين صارت. هذا تاريخ كثير مشرق للشعب الفلسطيني شو ما صار بعدين هاي كانت نقطة تحول .. ومن بعدها راح يبلش يحسب العداد زمن إنه نحنا الآن قدرنا نوصل ... وشو ما كانت النتيجة معلش رب العالمين هو اللي بوفق بالنهاية وهو بعرف إنه كل واحد إله حق لازم ياخذه ... وشو صار بعد هيك فيك تعتبريه سياسة أو مناورة، شي لازم آخذ فيه أرضي أو في عندي شعب لازم يعيش **وهاي كلها تحصيل حاصل**. هلا كل شي صار بعدين بحركة فتح، بعد معركة الكرامة، بالتاريخ بين إنها صح ومع الوقت بين إنها صح ... وأنا متوقع أو مو متوقع، متفائل أو شبه متأكد إنه هاي الحركة راح تظلها تمشي على صح وما في عندها خطأ ومهما تكاثروا عليها العالم، باقي الحركات ما فُتِت فيها صح، بعض الحركات إلها بصمات بس بتلمسي الصدق بالتعامل وبالعطاء اللي بتقدمه ما لقيت مثل فتح ... وحلم العودة لازم يصير حقيقة: إجباري ... بدي أرجع لصفد لسببين: سبب لأنه أنا ما شفتها وسبب لأنه أهلي انحرموا منها وما راح أطلع منها" (من رواية عمر الصفدي، 27 سنة، مخيم اليرموك).

نموذج من روايات النمط المأسور بالمشهد المحيط

أبرز ما يظهر ضمن هذا النمط هو التداخل بين الرواية السياسية الرسمية ورواية اللجوء الشعبية، حيث أن المصدر الرئيسي للقسم الأكبر للروايات هنا هو الخطاب الحزبي وأحياناً الإعلامي. باستثناء قصة الماضي التي تظهر على شكل صور من البلاد يختزنها الراوي في ذاكرته بتأثير روايات الآخرين، أو صور أحضرها أقارب له، أو نشرت على صفحات الانترنت، وأحياناً (في حالة مخيم قلنديا) تشكلت عبر زيارات قام بها أهل قلنديا إلى البلاد. أورد فيما يلي أجزاء من رواية نزار الصفدي من مخيم اليرموك، الذي يبلغ من العمر 21 عاماً، والمنتمي إلى الجبهة الديمقراطية كمثال على روايات هذا النمط.

قصة البلاد في الماضي

أنا والدي تولد في الشام، بس جدي والد والدي وستي أم والدتي هم بقولولنا أكثر شي عن وضعنا كلاجئين. ستي مازالت عايشة وطلعت أصلاً صبية من فلسطين، بتتذكر كل شي، ومازالت حتى الآن بس تطلع على أشياء على التلفزيون، بتخص الانتفاضة أو بتخص المجازر الإسرائيلية ضد شعبنا الفلسطيني بتقعد وبتبكي .. ستي والدة والدتي من الطيرة بتحكيلي كيف كانوا يشتغلوا بالغبانة، الغبانة هي عبارة عن الخياطة، بقولوها باللغة الفلسطينية الغبانة، كيف كانوا يخيطوا كيف يجتمعوا كلياتهم بالنسبة للستاير كلهم كصبايا، وحتى كيف حادثة الزواج كانت تصير: كيف كانوا يتعرفوا الشباب على الصبايا الفلسطينيات، وكيف يتم موضوع الزواج وكيف الخطبة وكيف الحناء، وهاي المواضيع كلياتها كذكريات. والد والدي بحكيلي إنه كاين فلاح عند إقطاعي، هذا الإقطاعي بفترة من الفترات وهبه أرض، وظل يشتغل في الأرض، بتعرفي بمنطقة سهل الحولة، بتتوفر فيها الشروط الطبيعية لأي زراعة، فكان يزرعها تفاح، فيقول لي: هلا التفاحة إذا بتشوفها عالشجرة شمامة صغيرة، كان التفاح الفلسطيني كثير كبير بهديك المنطقة، وبحكيلي عن ذكرياته، بحكيلنا عن المفتخرة، معاناته كلاجئ، أول ما طلع، اللاجئين كلياتهم اشتغلوا بأي مهنة كانت تُعرَض عليهم. يعني جدي اشتغل في موضوع المضافة، أول وجودنا يعني، ما كان في حدا متعلم وموظف، إنه فوراً يروح يتوظف أو يشتغل بمهنة حرة ... إلخ.[136] كله تعب يعني، أجدادنا اللي قبلنا كلهم تعبوا بالعمل بهاي المواضيع ... خلال اللجوء، وشوي شوي كوننا حالنا لحتى وصلنا لهذا الشكل من المخيمات.

قصص الهزائم والانتصارات – متأثرة بصوت الحزب

أنا بالنسبة إلي عاصرت انتفاضة الاستقلال، انتفاضة الـ 2000، من بدايتها لحد الآن، **نحنا كان عنا رؤية** إنه هدف هاي الانتفاضة إنه راح يكون في استقلال، خصوصاً إنه تميزت بالعمليات النوعية، وإنه الشعب كله قام على العدوان الصهيوني من المستوطنات ضمن أراضي الـ 67 وحتى ضمن أراضي الـ 48، يعني كان في تفاعل من شعبنا في الـ 48 بهاي الانتفاضة ... بس أنا بدي أحكي بس باللحظات الايجابية، يعني إحنا بمستوانا أي حدث كان يصير اعتباراً من الـ 2000، قبل هيك كان في فترة سبات، ما في وضع يحرك، وقت أوسلو وما بعد أوسلو، فانتفاضة الأقصى ... إجت تحرك الشعب الفلسطيني في المخيمات من اعتصامات، ومسيرات جماهيرية، ومعارض فنية للانتفاضة، وحفلات فلكلورية، يعني نحنا على مستوانا، على مستوى جامعة دمشق، صارت تحركات جماهيرية للشعب الفلسطيني والشعب السوري وكان في تعاطف كثير كبير من أشقاءنا العرب الموجودين ضمن سوريا، بموضوع الانتفاضة سواء كدعم مادي وشعبي وإعلامي ... إلخ يعني فيك تقولي نحنا، يعني في شباب منا كرسوا حياتهم، على مستوى مستقبلهم، ومنهم أنا ... إنه يكون في عندي امتحان، وفي مظاهرة برا أطلع بالمظاهرة وأترك الامتحان، وكثير صار في مشاكل أمنية معنا بفترة من الفترات، يعني نحنا كل يوم كنا نطّلع الجامعة مسيرة ... ما بصير تطلع الجامعات مسيرات إلا بأمر يعني ... عرفت كيف؟ صار في عنا قدرة وصار في تجاوب معنا بالوقت اللي قبل الألفين ما كان في أي تجاوب معنا، أي مسيرة، أي نشاط لفلسطين خصوصاً إنه كان في تيار اتُهم بإنه باع فلسطين، إجت الانتفاضة لتصحح هاي الصورة، لتثبت إنه الشعب الفلسطيني مازال يقاوم![137]

---

[136] يقدم الراوي تفاصيل أكثر في روايته حول الحياة الاجتماعية في البلاد وبدايات التهجير، كما نقلتها له جدته وجده.

[137] تختلف صيغة الرواية وأسلوب الراوي الشاب هنا عن روايات الشباب في الأنماط الأخرى، حيث يظهر تأثير صوت الحزب في أكثر من مكان: "نحنا بنطلّع الجامعة مسيرة"، "في تيار اتُهم بإنه باع فلسطين".

بالـ 60 سنة الماضية، موضوع تجسيد الشخصية الفلسطينية واستقلاليتها، نحنا بنعرف إنه بعام 1950 تم إلحاق الضفة بالأردن وقطاع غزة بمصر إدارياً، ومن ناحية الشخصية الوطنية الفلسطينية قتلتها، ما عاد في إلها أي هوية أو أي معنى، يعني ما عاد في شي اسمه فلسطين، الشعب الفلسطيني خلص باللجوء والشتات ومشيت هاي القصة. إذا بنيجي بنشوف النقطة الايجابية بالـ 60 سنة الماضية، انطلقت الثورة الفلسطينية المعاصرة لحتى تقول إنه لا في شي اسمه أرض فلسطين، وفي شي اسمه الشعب الفلسطيني بعد الـ 74، بعد البرنامج الوطني اللي طلع إنه لا، الضفة الغربية لازم تكون إلنا مش للأردن، وقطاع غزة لازم يكون إلنا مش لمصر، قضية اللاجئين تبلورت وصار ينحكى فيها كثير وحق العودة، انتزاع قرارات من الأمم المتحدة ومن العالم بموضوع القضية الوطنية، طبعاً كله بعد ما انمحت هذه، بقى هاي نقطة ايجابية، وانتفاضة الحجارة نقطة ايجابية، أدت إلى عودة الفلسطينيين إلى الداخل رغم الملابسات اللي صارت ضمن أوسلو. الانتفاضة الجماهيرية اللي صارت، لو كنا نحنا بنقدر، كان في ظرف بنقدر نحصل فيه على اشي من حقوقنا أكثر من اتفاقية أوسلو، اتفاقية أوسلو نحنا بننظرلها نظرة سلبية جداً، يعني أدت بموضوع اللاجئين للحل النهائي، وموضوع الحدود للحل النهائي، وأعطت حكم ذاتي للفلسطينيين، ما أعطت استقلال وطني فلسطيني ... وفي لحظات انتصار مثل لحظة تشييع الشهداء ... طلع المخيم كله ... لا صغير ولا كبير ظل في البيت ... وجميع الأحزاب اشتغلت ومازالت تعمل، كلنا حركات مقاومة هدفنا الوحدة بغض النظر عن وجود انقسام حالياً، بس إنه هذا الانقسام صحيح عم بدهور الوضع الفلسطيني ورجعنا للوراء شي 30 سنة بس إحنا لا عم بنقول إنه الجميع عم بشتغل بغض النظر عن أيديولوجيته وبرنامجه السياسي بس الكل عم بشتغل لفلسطين ... أولاً وآخراً ... بالنسبة لإخوتنا بحركة فتح ولا بحركة حماس ولا بالشعبية، إحنا كلياتنا بنعتبر حالنا، أي سبيل للعمل هو سبيل وطني واحد يؤدي لهدف واحد هو فلسطين بغض النظر عن الأيديولوجيات ... بس ... بنرسم الخريطة كاملة .. يُقال عنا إنه نحنا بمرحلة النضال الفلسطيني رضينا بجزء من فلسطين ... يعني إنه عم بنقال بمشروع الدولة الفلسطينية، إنه هذا المشروع جزأ فلسطين وخلاها عبارة عن قطع متناثرة، بغض النظر! إحنا ما تنازلنا عن حبة رمل واحدة من فلسطين، وما راح نقدر نتنازل عن حبة رمل واحدة، فلسطين الموجودة ببالنا، هي فلسطين التاريخية من النهر إلى البحر، هاي هي فلسطين بالنسبة إلنا ... نحنا على المستوى السياسي: بنحيي الفعاليات كلها تقريباً هلا بـ 27 أيلول عنا ذكرى الانتفاضة وفي عنا مهرجان الأغنية الفلسطينية ... أنا بعطيكي مش كلاجئ، كطالب جامعي لاجئ، أو كشاب لاجئ: **الفعاليات اللي بنقوم فيها** مهرجان الأغنية الفلسطينية، وبنجيب فرق تراثية تحيي الأغنية الفلسطينية، معارض فنية: معارض للشهداء ومعارض للأسرى، معارض كاريكاتيرية لناجي العلي .. بالإضافة للبرنامج الاجتماعي لأنه إحنا كلاجئين كمان عنا أوضاع اجتماعية خاصة فينا، مثلاً تفشي ظاهرة المخدرات بالمخيمات الفلسطينية، هاي بنحاول نواجهها ونواجه التسرب من المدارس .. في فترة من الفترات كان يُقال القول التالي: "إنه شارون قال: لك يوم يا مخيم اليرموك، يا منبع المخربين"، الناس قالت إنه هاي الهجمة راح تكون عسكرية وما خطر على بالهم إنه الهجمة راح تكون اجتماعية ... بوباء اسمه الحبوب أو المواد المدمنة؛ في نسبة لا بأس فيها (بالمخيم) بتعاطوا الكحوليات والمواد المخدرة ... ومشكلة البطالة، أنا كطالب جامعي أعظم فرصة انعرضت علي هي كمندوب مبيعات ... فما بالك بالعامل اللي يادوب يلحق لقمة عيشه بالنهار، بكون بشتغل لحام وبتلاقيه يشتغل بلاط، بيشتغل كل شي ما بقول لا: من جبصين، لدهان ... أي شي بنعرض عليه ما بقول لا: بس آخر النهار يدبر هالـ 300 أو 400 ليرة بجيبته وينام مرتاح.

إحنا بنقول عن الفلسطيني أي فلسطيني، إنه فلسطيني وبس، ما عنا فلسطيني سوري، حتى الفلسطيني اللي بيجي يدرس من الضفة أو من لبنان بنعّرفه كفلسطيني مو كفلسطيني من الداخل، **هذا الخطاب بس من أجل تقديم المساعدات لطلبة الداخل**: إنه فلسطيني قادم من الداخل بدرس بجامعة دمشق .. بس نحنا بنقول فلسطيني وما في كمان تقسيم: فلسطيني من الـ 67 وفلسطيني من الـ 48، لا كله فلسطيني .. في بعض الحالات التي تستحي أو تخجل تقول لك إنه أنا فلسطيني بس هاي نادرة كونها انخرطت في المجتمع السوري لأبعد الحدود، وعملها ضمن سوريا وكونها كونت رؤوس أموال كبيرة من خلال عملها في المجتمع السوري وبالمقابل في حالات كمان كونت رؤوس أموال وعندها حياتها الاقتصادية هون بتمارسها، ومازالت محتفظة بطابعها الفلسطيني وبتمول المؤسسات الشبابية. وفي كمان موضوع الفساد: صارت أيام الانتفاضة إخواننا بحركة حماس لمت مصاري بتخوف على أساس للانتفاضة بعدين بنتفاجأ إنها راحت للحركة نفسها، على اعتبار إنهم جزء من الانتفاضة، بالإضافة إلى إخواننا في حركة فتح، يعني موضوع الفساد عندهم مستشري، الأموال اللي حولتها الإمارات لبناء مخيم جنين مثلاً وصل نصفها ... وهذا الموضوع متابع بالأرقام والإحصائيات [...].[138]

[138] على الرغم من اختلاف مضمون خطاب الراوي المنتمي للجبهة الديمقراطية عن مضمون خطاب الرواة المنتمين إلى فتح (كما يظهر في الموقف من اتفاقيات أوسلو مثلاً) إلا أن هيمنة الخطاب الحزبي واضحة لدى الطرفين ضمن هذا النمط، وكذلك الابتعاد عن التفكير النقدي الفردي، حيث ينصب نقد الرواة ضمن هذا النمط على سلوك وخطاب الأحزاب الأخرى، أكثر مما يتوجه نقدهم نحو إسرائيل وممارساتها الاستعمارية.

التركيز على الهم اليومي - تقييم العمل النضالي

قصة الشهداء مهمة كثير، **لأنه الجيل الجديد** ما بعرف شي، أنا من وجهة نظري، بعد نص السبعين والثمانين وأول التسعين: البارز هو العمل العسكري من الخارج. واللي فوت اللاجئ على الداخل خلاه يعمل العمل العسكري لشغلتين: أول شغله: لإيمانه ببلده وبقضيته والانتماء اللي عنده، وثاني شغله: ليندفن بالأرض اللي هو موجود فيها .. وكمان في 3 شغلات بتدور برأس اللي فايت على الداخل يعمل عملية: أول شغله؛ في عنده عدو بده يواجهه، و هو مغتصب أرضه ومضطهد شعبه وطلعه من بلده، فهو أول نقطة عنده مواجهة هذا العدو .. وثاني نقطة: يعطي دفعة لقدام، لهالشي اللي عم بصير، يتابع ببلده. ثالث نقطة إنه مو يستشهد، إنه يرجع، يرجع حتى يكرس عمله، إنه يستشهد شيء سامي، أنا كشخص، بالنسبة إلي، العمل المقدس هو العمل الفدائي، اللي بسموه استشهادي أنا بسميه انتحاري .. لأنه أنا لما بفوت بسلاح وبواجه معسكر صهيوني مثل حصن "مار غانيت"[139] أنا إذا فايت بسلاح ممكن أطلع وممكن أستشهد، بس إذا طلعت بفيد بلدي بأكثر من شي، بس أنا لما أكبس كبسة زر خلص يعني انتهيت .. راح انحسب إنه شكلت ضحايا أكثر وطلعت على حالي اسم الإرهاب ... اللي طلّع سمعة الإرهاب هو هذا الشي ... **بموضوع هاي العمليات، نحنا بننظر للعمل العسكري على أساس شو الفائدة اللي بتحققها منه**، يعني أنا لما بدي أفوت على الـ 48 وأكبس كبسة زر وأفجر وأقتل أربعة مستوطنين عم بيطلع الطيران الإسرائيلي وبيقتل من شعبنا في الضفة وغزة 400، فشو فائدة هاي العملية بالنسبة إلي، من جوا بنبسط عاطفياً، لكن على المدى البعيد هاي العمليات ما عم بتفيدنا بقدر ما عم تؤذينا، فبالتالي نحنا عم يطلق علينا إرهابيين **.. بس في الأراضي المسموح إلنا فيها، أو اللي بنسميها الأراضي المحتلة في الـ 67، المعترف بها لنا مو بس عربياً، ودولياً كمان وعلى مستوى إنساني، اللي عم بعمل عملية هناك مقاوم ..**

النظرة المتبادلة بين الشباب الفلسطيني في الخارج والداخل

بيجوا علينا طلاب من مختلف المناطق من غزة ومن الضفة، بوجودهم هون بتلاقيهم لسه عندهم الخوف، ما بعيشوا حالة الحواجز هون بس بعيشوا حالة إنه ما بدي أكون بأي نشاط سياسي على أساس إني ببلد غريب وممكن أستدعى من الأمن، وخصوصي إنه أول ما بيجي بيتم استدعاؤه من الأمن: شو عملت؟ شو ساويت؟ .. إلخ يعني ما بتلاقي عنده هذا التفاعل السياسي. شي ثاني إنه ممكن بيجي و هو مؤطر حزبياً .. يعني إذا إجا عن طريق حركة حماس، فهو لازم يقابل مندوب حركة حماس، مش إنه مثلاً ينزل يتعرف على الناس ورفقاته، وبتلاقيه دائماً أقرب لأعضاء تنظيمه، ما بتلاقيه متفاعل مع الكل أو منفتح مع الكل بالإضافة إلى أنه نشاطاته بالأنشطة الجماهيرية، انفتاحه على جو جديد، بيعمل تناقض يعني هو كان عايش مثلاً بجو احتلال، بيجي لهون مثلاً يمكن بشوف ديسكو .. أووووه عرفت كيف؟ طبيعة الحياة هناك بسيطة أكثر والظاهر بفوت على جو منفتح وما في احتلال ويحق لك أن تعمل ما تريد، ما في حظر تجول، وين ما بدك بتروح، واللي بدك إياه بتعمله: من مطاعم وكافتيريات ..إلخ، فهو عم بفوت على جو منفتح، عم ببعده عن هداك الجو وبنفس الوقت يقلل اهتمامه بهداك الجو، علماً إنه بعرف إنه في يوم كذا معرض كذا، فعم بقلل هذا الموضوع من ارتباطه بالأنشطة. **وفي كمان وجهة نظر معينة عند طلبة الأرض المحتلة** علينا نحنا اللاجئين، مثلاً بممارسات فتح وممارسات حماس، والناس اللي رجعت إثر اتفاق أوسلو، سموهم طغمة تونس، وهدول اللي خربوا علينا الوضع، يعني إحنا قبل ما يفوتوا جماعة أبو عمار على الداخل، كنا عايشين ما في لا انتفاضة ولا شي، واقتصادنا كويس وبنشتغل عندهم (يقصد الإسرائيليين) وبتعاملوا معاهم وفي رخاء مادي شوي بسيط، فأول ما فاتوا بعد أوسلو، صار في مجاعة وبطالة وفقر، فبتعاملوا معنا بريبة وبتحسي إنه في حاجز بيبعده عنا .. ما بعرف شو هو؟ هل هو معتقدنا إنه نحنا استسلاميين؟ إحنا فوراً بنقول له: **إنه لا العمل المسلح كان فترة من الفترات على أكتاف اللاجئين، ومرات إنه حاجز الخوف: حاجز الخوف من الموضوع الأمني والانفتاح على العلاقات الجديدة... إحنا على العكس بنحاول نيسر موضوع طلبة الأرض المحتلة** خير الله من موضوع الأجارات وموضوع المساعدة، بنعرف شو طالب الأرض المحتلة اللي جاي يدرس من جوا، في ناس بتيجي منحة .. وفي ناس بتيجي الله يعينها .. ودايماً متكتلين على بعض، يعني مستحيل تلاقي لاجئ (مع إنه **نحنا** ما بنستخدم هذا التقسيم) بين مجموعة طلبة أرض محتلة، هم ما بسمحولنا ندخل بيناتهم، نعرف تفاصيل شو محتاج وكيف أوضاعك الدراسية .... في طبيعة معينة عندهم، **أنا تعاملت مع مئات الطلاب من الأرض المحتلة**، فيك تقولي نفس النمط من التعامل موجود عندهم، نادراً ما تلاقي واحد مستعد للاحتكاك معنا حتى

---

[139] يشير الراوي هنا إلى "العملية الفدائية التي قام بها اثنان من مقاتلي كتائب المقاومة الوطنية، الذراع العسكري للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين حين اقتحموا الموقع العسكري لمستوطنة "جان أور"، الذي يعرف بموقع "مارغانيت" يوم 25 آب سنة 2001 واشتبكوا مع الجنود الإسرائيليين الذين كانوا يحرسون المستوطنة ليقتلوا ثلاثة جنود وقائد الموقع ويجرحوا عدد آخر من الجنود." نقلت هذه المعلومات عن موقع www.ashod.org/vb/sitemap/t-889.html استرجع بتاريخ 16 نيسان 2009.

نعرف شو وضعهم ويعرفوا وضعنا .. إلخ لأحملك رسالة لحد، لفلان .. هذا الاشتياق مثلاً .. لأرض الوطن .. نحنا بنتعامل معاه هيك بس بالمقابل في ناس منهم بتعاملوا معنا إننا سوريين في ناس بقولوا شوام ...

الرؤية المستقبلية

أنا كطالب فلسطيني، بدرس لأخدم قضيتي، ومعروف إنه تحصيل الطلبة الفلسطينيين أعلى من تحصيل الطلبة السوريين، هذا الموضوع بنستفيد منه وبنبلوره، بنعمل حفلات لبلورة هذا الموضوع.. نكرم الطالب المتفوق الفلسطيني لأنه عم بناضل زي اللي بناضل بالسلاح .. **أنا طموحي إني أكون سفير: أدرس علوم سياسية، وأنشر قضيتنا بين المجتمعات بالنسبة لقضية فلسطين.**

بالنسبة للعودة، يعني قد ما الواحد بيصير ويتصور بالآخر إلا يرجع على أرضه، يعني **على مستوى سوريا، أنا محروم من حقوقي السياسية إني أكون سفير أو إني أكون بالسلك الديبلوماسي الأول أو رئيس**، يا ستي، في ناس كثير أمنيتها هيك ... **هذا الموضوع إحنا محرومين منه: السلك الأمني والدبلوماسي، و هذا بدل إنه نحنا في إلنا مكان نمارس فيه هذا النشاط** ... وأنا لما بدي أرجع بدي أرجع على أرض بلادي اللي هي المفتخرة وكل واحد من الشباب بده يرجع على بلده .. طيب أنا شو بدي بالضفة وغزة، لا تؤاخذيني، يعني أنا زي ما أنا قاعد بمخيم اليرموك تفضل هياك بالضفة أو بغزة نفس الشيء ... يعني أنا الأرض تبعي بدي أنام وأرتاح بأرضي ...

وسائل الإعلام

الفضائيات هي أحد أسباب المشاكل وما حدا بينقل أخبار فلسطين اللي عم بتصير، [...] فالإعلام ما عم بمارس دوره كسلطة رابعة ... لنقل الحقيقة للناس ... حتى الانترنت كمان مسيس ... أنا بصراحة يوم حرب تموز ما حطيت على المنار، ما كنت أحضر المنار كنت أحضر إسرائيل: إنه يرفعوا درجة التأهب مثلاً هاي المواضيع كنت آخذها حسب الجهة، المنار كان في كثير مواضيع تلغوط فيها، تضخم الحدث، يعني من ناحية: اتبع سياسة اعرف عدوك .. قلت لك: دائماً نحنا العلميين بناخذ الموضوع بمقدار ما له فائدة لنا ... بنشوفه من هذا المنظار ... مثلاً حرب تموز شو جابتلنا فائدة سياسية، هلا بعد عملية التبادل شو صفى عمل حزب الله كمنظمة يعني بناخد شو استفدنا من هالموضوع أكثر من موضوع العاطفة ... يعني خدعنا بموضوع العاطفة خير الله ـ.. موضوع جيش الإنقاذ ... موضوع حرب الـ 67: إنه نزلنا 100 طيارة للعدو الصهيوني... هذا الكلام كله ما عاد نتعامل معه ... شو بجيب لنا فائدة هذا الموضوع، نحنا معه ... مو ماديين بالمنحى المادي .. شو الفائدة السياسية لهذا الموضوع ... على المدى البعيد شو ممكن يحقق؟؟؟

ثالثاً: النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي

"بنتمنى يصير حل بالنسبة لإلنا هون في السلطة إنه يصير وضعنا أحسن من هيكد أما لقدام صعبة كثير. اليهود عمالهم يعملولنا صعوبات عشان نتمنى إنهم مثلاً يفتحوا الحاجز وننسى الوضع اللي قبل. فاحنا عمالنا بنفكر في مشكلاتنا اليومية، قبل ما نفكر لسه ببيت جبرين! بتمنى إنهم يخففوا عن الناس على الحواجز(..). يعني عمال الواحد بنسى إنه بده يرجع على بلده، خلص كأنه صار اشي مُسَلّم فيه بس على القليلة إنه الوضع اللي عايشين فيه إنه يصير أفضل شوي"

(نسرين الجبرينية، 33 سنة، مخيم قلنديا)

صفات النمط ورواته

يعبر المقتطف أعلاه ببساطة عن روايات هذا النمط لفلسطين التي تختفي كقضية سياسية أو تاريخية، وتُختزَل إلى صور صغيرة من معايشات الرواة اليومية للحدث، أو كلام الأهل، أو المدرسة أو من لقطات سريعة مرت على التلفاز، إذا شاهدوا بالصدفة برامج تتعلق بالقضية.[140] يغلب الهم اليومي والراهن على التاريخي وتُختزَل الصورة حول فلسطين لتغيب التفاصيل من قصص الرواة، خاصة القصص المتعلقة بالأحداث الماضية. فتختفي الرواية وتستبدلها اجابات سريعة عن أسئلة المقابلة على شكل تعليقات عن الوضع الذي عايشه الرواة في الماضي ويعيشونه اليوم وبالذات الجوانب التي تترك أثراً مباشراً على حياتهم. تنتهي رواياتهم بالأمل بأن تُحَل مشاكلهم وتتحسن الحياة في فلسطين من حيث مستوى التعليم، وإضفاء التحسينات على المخيم. وبالنسبة لمستقبل القضية، يتمنون أن يحل السلام ويتوقف القتال بين فتح وحماس. أما بلادهم فيرونها بعيدة بوجود اسرائيل القوية، فهي لن ترجع إلا من خلال معركة كبيرة برأي البعض، بينما يرى البعض الآخر بأن فلسطين التاريخية أضحت منسية، والكلام عنها شعارات فقط. وينحصر رواة هذا النمط ضمن الفئة الأصغر عمراً، حيث تتراوح أعمارهم بين 18–33، وأغلبهم من الجيل الثالث للنكبة، أي ممن وُلِدَ آباؤهم خارج البلاد. وهم ست فتيات وشاب واحد، أربعة من مخيم قلنديا وثلاثة من مخيم اليرموك، ويختلفون من حيث المستوى التعليمي والعمل.

المحاور العامة لروايات النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي

أولاً: الماضي المتجمد

نلاحظ أنه في الغالب تغيب رواية فلسطين لدى هذا النمط، لتتحول إلى مقتطفات قصيرة يعبر الرواة من خلالها عن هموم الحياة اليومية. بخلاف الأنماط الأخرى، يُلاحظ أن الماضي، إن ظهر، يظهر متجمداً في أذهان الرواة في نتف صغيرة لصورة القرية كما سمعوها من الأهل والمحيط ليفقد قيمته كحق مسلوب بفعل استعماري أدى إلى تشريد أهاليهم وتحويلهم إلى لاجئين ما زالوا يسكنون في المخيم الذي أجمع رواة هذا النمط على عدم الرضى عن الحياة فيه. فعلى سبيل المثال، تكتسب القرية

[140] أغلب رواة هذه الفئة ذكروا عدم اهتمامهم بمتابعة البرامج السياسية.

الأصلية كطبريا، جمالها ليس لكونها بلاد الآباء والأجداد فقط وإنما لنيلها جائزة أحسن منتجع سياحي في العالم:

"أول شي هي حلوة كثير، أكيد، يعني حتى بدون ما تكوني أنت فلسطينية. إذا بتشوفيها يعني لما طبرية يمكن أخذت أحسن منتجع سياحي بالعالم يمكن بالـ 2003، يعني أنا بحاول أكون حيادية. أنا مو تبعة القصص، بس فلسطين فيها كثير شغلات تشدك مثل المسجد الأقصى. مرة اجتني صور عن حيفا، كثير فظيعة، حتى رفقاتي السوريين هون لما شافوها صاروا يقولوا شو هذا؟ في تشابه كثير بين فلسطين وسوريا، بالطبيعة حتى بتلاقي إنه في أسماء وقراني نفسها مثل أريحا والناصرة" (آمال سمخية، 24 سنة، مخيم اليرموك).

بينما تبدو صورة البلاد في روايات قلنديا وكأن الحياة تجمدت فيها سنة 1948، كما يبين المقطع التالي حيث تصف نسرين بلدها، بيت جبرين، والحياة الفلاحية التي سمعت عن خيرها من أهلها لكنها في الوقت نفسه تقيّمها وفق مقاييس الحاضر، فتقارن بين حياة اللجوء في المدينة وحياة الفلاحة التي كانت ستضطر أن تعيشها لو لم يُهَجّر أهلها من بيت جبرين، وإن كان الأمر على سبيل الضحك كما تقول:

"كانوا يحكوا عن بيت جبرين ومرة زرتها بس مش ضايل فيها اشي. ودونا على مناطق اسمها الطوار اللي كاينين يحطوا فيها الغنم على أيام الرومان، كثير عالية، بس البلد مش ضايل فيها بيوت أو اشي، وشكلهم اليهود بزرعوا فيها قمح وكانوا وقتيها حارقين كل اشي، كانت كل المنطقة رماد أسود. كانوا أهلي يحكوا إنهم مثل كل الفلاحين عاداتهم بربوا غنم وبيزرعوا، حسب ما بحكوا أهلي كان إلهم أراضي كثيرة ويا دوب يلحقوا يزرعوها وهي مونتهم، وثاني اشي كانوا يعتمدوا على تربية الغنم. حسب ما بحكوا أكيد كانوا كثير مبسوطين، يعني أكيد أحسن من عيشتهم لما صاروا لاجئين! وقديش واجهوا صعوبات في المخيمات وجوع وذل. اللي عاش في الخير، شو ما يكون اشي بسيط، يعني خيرهم وقمحهم ودايماً عندهم غرف مليانة من زيت ولبن وغنمهم واشي، أكيد في خير كثير مقارنة باللي واجهوه لما راحوا على المخيمات اللي كانت كثير صعبة. بتعرفي الختياريات بظلوا يتحسروا على حياتهم! بالنسبة إلهم كانت كثير منيحة، مش زي ما أنا بحكي: أحسن إلنا بدناش غنم، **بضحك مع اخواتي هديك المرة بقول أحسن منيح اللي طلعونا، كان هالقيت ورا الغنم بنجري! بحكوا لي لا كان تطورنا** بس أنا بضحك. الواحد شو ما يكون، وصل التطور للبدو، بدوش يوصل لقرى الخليل؟!"

ويتكرر الوصف نفسه في رواية نور، ففكرة العودة إلى بلدها الأصلي، قبيبة بني عواد، تبدو غير معقولة لها، ليس لكونها حق يصعب استعادته في ظل موازين القوى الحالية، ولكن لتفضيلها بيئة رام الله الأكثر انفتاحاً عن بيئة الخليل المحافظة:

"أكيد فش حدا إلا بتمنى إنه فلسطين تتحرر لأنه وضع الكل راح يتغير وزي ما أنت شايفة محاسيم وأشياء، الواحد لما بده يطلع مشوار بتنكد، مش زي ما كنا بالأول نروح ونطلع وهيك. يعني على مستوى بس أريحا، البحر الميت، صار الواحد بس نفسه يسبح في بحر! ومش مسموح حتى بالبحر الميت! أكيد زي ما بحكوا إن ما كبرت ما صغرت، أكيد إلا يصير اشي إنه مثلاً معركة كبيرة عشان تتحرر فلسطين. وهي عشان بلدنا قضاء الخليل وهيك، يعني حسب المنطقة بس الواحد بحب إنه تتحرر فلسطين، والواحد بحب يشوفها بس سبحان الله حسب المنطقة اللي الواحد متعود عليها، يعني خلص الواحد تعوّد هون أكثر وعشنا هون. وهي بلدنا اسمها قبيبة بن عواد من قضاء الخليل، والنا قرايب هناك بس بنروحش على البلد الأصلي، بس بنروح على الخليل ومدينة الظاهرية وبتعرفي كيف الأجواء، خلص حسب ما بتعود الواحد بحب يعيش محل ما تعود أكثر."

وتأتي قصة الشاب الوحيد ضمن هذه الفئة عن البلاد بشكل تساؤلات عن الجاعونة:

"اللي بعرفه أنه هلا حالياً الجاعونة ما فيا ولا واحد فلسطيني كلها يهود، هيك اللي بنعرف فيه، لما طلع جدي وستي هيك اللي بعرفه إنه صاروا كلهم يهود، ما ظل فيها ولا واحد فلسطيني، هيك بحكولنا يعني، هلا نحنا بقولولنا إنه أنت يهودي مو فلسطيني، على أساس إنه الجواعنة بقولوا إنن يهود إنه ما ظل ولا واحد فلسطيني بالجاعونة، أكثر شي نحنا الجواعنة بقولوا علينا يهود.[141] ما سمعت هذا التعبير؟ (ثم سألني إن كانت الجاعونة ما تزال موجودة في فلسطين؟ فأجبته أنني لست متأكدة) وقال متسائلاً: يمكن ما في شي هلا اسمه جواعنة، ما بعرف! (س: أنت ولا مرة سألت؟) مافي، ما في، أنا بتوقع كأنه ما في، يمكن موجودة على الخريطة شي، يمكن!؟ بس يمكن ما في شي؟! يمكن ما في فلسطينية عايشين فيها هلا؟" (سامر الجاعوني، 29 سنة، مخيم اليرموك).

ثانياً: الابتعاد عن الهم التاريخي والسياسي باتجاه هموم الحياة اليومية

بعكس الأنماط الأخرى، عبر رواة هذا النمط عن عدم اهتمامهم بالسياسة، وعزوا مشاركتهم الضعيفة في الفعاليات والنشاطات العامة إلى القيود الاجتماعية، كون أغلب رواة هذه الفئة فتيات ولا يحبذ أهاليهن أو أزواجهن مشاركتهن في هكذا نشاطات. كما تقول نسرين الجبرينية في روايتها، التي يحتل التعليم محوراً أساسياً فيها، لتتحول قصة الحياة تحت الاحتلال إلى قصة الحرمان من التعليم الذي تريد مقاومته، كما تقول، بتوفير فرص تعليم أفضل لأبنائها، فهي تتحدث عن فلسطين خلال فترة الانتفاضة الأولى التي عايشتها وتركز على معاناتها وجيلها لحرمانهم من التعليم. لتنحصر طموحاتها للمستقبل في أن يتوفر لأولادها تعليم أفضل:

"احنا عايشين في الخليل، والناس هناك محافظين وملتزمين، ما بحبوا بناتهم يتحركوا! أحياناً كانت تنزل المدرسة مظاهرة في مناسبة معينة، أولها يكون عدد البنات كبير وبس توصلي آخر المظاهرة فش ولا بنت، اللي توصل دارها تدخل فيها. واحنا دورنا كلياتنا قريبة على المدرسة وصعب إنك أنت من دون كل البنات تظلي ماشية في الشارع وتهتفي لحالك. بعد فترة تعود الواحد وخلص إنه فش مجال إنه البنات يمشوا في وضع زي هيك (تقول ابنة أختها: حتى هلا احنا أبياتنا ما بسمحولنا). [...] بالنسبة إلي احنا وعينا في المدرسة على العطل، كثير عطلنا أيام المدارس، وقت الدراسة كان يصير اغلاقات كم شهر، ويفتحوا مدة معينة مشان يلحقوا يضغطوا المنهاج بفترة بسيطة: يعني مثلاً بدل ما هو بتسع شهور بدك تخلصيه بثلاثة شهور، فشو بدك تستفيدي في هالثلاث شهور؟ هذا بولد ضعف عند الطلاب. احنا كشعب فلسطيني معروف عالمياً إنه بنحب التعليم، بس عنا ضعف كلياتنا لأنه هي مش سنة، قعدت الانتفاضة كذا سنة، تخيلي كنا نعطل أشهر! كان في اغلاقات للمدارس، تمد شهرين أو ثلاثة وإن فتحوا كانوا يدرسوا بالبيوت وشو بدها تتحمل البيوت؟ وكثر العطل يولد كسل، فتعودوا الطلاب على الكسل وعلى الاهمال فبقينا نروح على هالمدارس بس مشان نقضي هالسنة اللي علينا، وبس مشان ناخد هالشهادة. والضعف اللي ما بنحسه أياميها، احنا كطلاب بدنا نخلص، إيه أحسن، نظل قاعدين في الدار أحسن لنا، بس لما كبرنا بَيَّن عنا الضعف. لولا إنه عنا أمل كان الواحد بقدرش يستمر في هالحياة الصعبة، بس بتذكر إنه كان عنا أمل بالمقاومة وكنا عايشين في الوضع. كان الواحد كثير يتأثر فيه، يوم يوم ضرب حجار وشباب! كنا كثير نمجد بأبو عمار وما حداش كان مصدق إنه تيجينا سلطة لكن لما أجت السلطة واللي صار بعد هيك ما كان حسب آمالنا، مش حسب ما كنا متوقعين! لأنه ما حسينا إنه في تغيير كثير، الجيش عماله بيجي وبياخد اللي بده إياه حتى في مناطق سلطة بيجي ياخد اللي

[141] لم ألتق إلا براويين من الجاعونة، وكلاهما من الجيل الثالث، وكانت قصة البلاد لديهما مختصرة، فلم أستطع تتبع أصول ما يقوله الراوي هنا حول تسمية الجواعنة، بين الفلسطينيين في مخيم اليرموك، باليهود. لكن من الممكن أن يكون أحد الأسباب هو الطرد المبكر الذي تعرض له أهل الجاعونة ضمن حملة التطهير العرقي التي قام بها المستوطنون الصهاينة في بدايات مجيئهم للاستيطان في فلسطين حين كانوا يبتاعون أراضي القرى من المالكين الكبار ويقومون بطرد الفلاحين الفلسطينيين منها. وفيما يخص الجاعونة، أورد أحد الكتاب في مجلة صهيونية "هشيلوح" وصفاً للكيفية التي تم طرد أهل الجاعونة بها في عام 1907: "إذاً عندما نأتي لنستوطن في البلاد، ألا يثار حالاً السؤال: ماذا يفعل الفلاحون الذين سنشتري حقولهم؟ [...] فلنعترف أننا طردنا أناساً مساكين من بيوتهم الفقيرة وقطعنا رزقهم. [...] لغاية اليوم ما زال يدوي في أذني النواح الذي ناحته النساء العربيات عندما تركت عائلاتهن قرية الجاعونة، التي هي "روش بينه"، وذهبت لتستوطن في حوران في شرق الأردن. كان الرجال راكبين على الحمير والنساء ماشيات وراءهم على الأقدام وهن يبكين بشدة والمرج يمتلىء نواحاً. لقد توقفن لحظات وقبلن الحجارة والتراب" (ايشتاين، يتسحاق 1907، مأخوذ عن الصباغ، 2005: 16).

بده اياه، فشو تغير علينا؟ ما تغير علينا شي كثير! في اشي منيح، مش إنه بالمرة بالمرة بس مش مثل ما كنا متوقعين. **أكيد أهم أشي بالنسبة إلي إنه أولادي يتعلموا منيح، أهم اشي يظل مستمر التعليم، وإنهم ما يواجهوا الصعوبات اللي واجهناها احنا إنه يصير في إغلاق للمدارس وصعوبات. وبدنا كمان يدرسوا أولادي المادة اللي بحبوها ما يضطروا إنهم يسافروا برا مشان يتعلموا اشي بسيط كان ممكن يتواجد هون. التعليم هو مفتاح الحل لإلنا احنا الشعب الفلسطيني، بدون التعليم بنسواش اشي"**.

في الغالب لا توجد لدى رواة هذا النمط رواية لفلسطين، ومعلوماتهم عن القضية محصورة بالأحداث التي عايشوها يومياً، وحتى في هذه الحالة يأتي سردهم للأحداث مختصراً وغير دقيق، كما في رواية نور التي تخلط بين الانتفاضتين الأولى والثانية، ولا تعرف من فلسطين غير المدن التي زارتها:

"سيدي ما حكالنا لأنه ما كنش عايش في القبيبة، بس كان يحكي لنا إنه كيف زمان إجوا اليهود وخيروهم بين القدس ورام الله عشان يعملوا الهويات *(في اشارة للـ 67)*، وكان يحكي إنه كيف العيشة كانت! بعرف عن النكبة والـ 48، بس أنا عشان ما كنتش عايشة في الأيام هديك، بتعرفي **الواحد بيدرس عن هاي الأحداث في المدارس، بس الواحد لما ببلش، ببلش من حديت ما شاف. احنا عشان عشنا في الانتفاضة الأولى والانتفاضة الثانية، مش مثلاً من الـ 48، والـ 67** زي ما كنا نقرأ بالكتب لأنه هاي كل الأجيال راح يقرأوها لأنه أصلاً هاي أحداث بلدنا وتاريخ فلسطين. بس إنه الواحد ببلشش من الانتفاضة الأولى، كيف يعني دخلوا اليهود على الأقصى، وشو الأحداث اللي صارت؟ (س: تقصدين الانتفاضة الثانية لما دخل شارون على الأقصى؟) آه الانتفاضة الثانية. لما يكون الواحد عايش في هاي الأحداث وبشوفها وبسمع عنها على التلفزيونات وبشوف كيف كانت الحياة قبل وكيف بعد؛[142] إنه كنا مثلاً نروح على مناطق اسرائيل وهيك اللي هي حالياً يعني وبدون ولا محاسيم ولا أزمة ولا اشي! وبعد الانتفاضة هسا ما بصحلنا ولا نندخلها ولا اشي، ما بصحلناش ولا نروح ولا نيجي والمحاسيم. كان الوضع قبل الانتفاضة أحسن، بالنسبة لشغل أبوي مثلاً، الواحد ما هو بشوف وبعيش الأشياء اللي بتصير في الأسرة، كيف مثلاً كان دخل أبوي وكيف احنا كان مصروفنا واشي! كان يشتغل أبوي عند اليهود، مع معلم متبنيه عند اليهود وكان يشتغل بالكهرباء وكان كثير وضعنا أحسن، أما هسا ممنوع، اليهود لما صارت الانتفاضة يعني خلص. أولها الواحد حس إنه انشالله ما تطولش لما تكون الأحداث حامية بس بعدين مع السنين الواحد بيأس، إنه مثلاً صار إلهم هسا أراضي فلسطينية وأراضي اسرائيلية."

الرواية بين المخيمين

تظهر صورة البلد الأصلية باهتة في روايات هذا النمط في المخيمين، لكنها تطول في روايات مخيم اليرموك أكثر قليلاً بفعل عنصر الخيال الذي يساعد البعد عن البلاد في تنميته. فحين طُلِبَ من الراويات في مخيم قلنديا سرد حكاية البلاد والتهجير، أجابت أغلبهن بعدم معرفتهن أو قدمن وصفاً عاماً ومختصراً:

"وطني هو نفسه وطن أبوي وسيدي. وأنا بحس إنه وطني أو البلد اللي إلنا مزبوط هي اللي مع اليهود كلها. يعني أخدوا الخير كله، أخدوا ثلاث أرباع البلد يعني، ثلاث أرباع الخير، ورمولنا هالربع، يعني رموا كل الفلسطينيين مش بس إحنا." (رؤى عرتوفية، 18 سنة، مخيم قلنديا).

بينما تداخلت بقايا قصة البلاد في ذاكرة الرواة في مخيم اليرموك مع عناصر مستمدة من بيئة الشام (سوريا) والخيال:

"من حكي بابا وعمتي إنها تلة، وكلها خضار، مثل الغوطة[143] بقولوا الشجر مغطي الطريق وكلها أراضي: بيوت وحواليها أرض كبيرة. طلعوا، ستي كانت تحكي إنها كانت مشترية أغراض جديدة

[142] تغيب النكبة هنا وتحل الانتفاضة الثانية كلحظة الفصل بين القبل والبعد في الرواية.

[143] في إشارة إلى غوطة دمشق، وهي بساتين خضراء كانت تمتد لتحيط بمدينة دمشق "كما يحيط السوار بالمعصم" بحد تعبير السوريين وقد تقلصت هذه المساحات اليوم بفعل الامتداد العمراني للعاصمة باتجاه الريف.

وألعاب للأولاد[144] وما أخذتهم، كانت حابة تاخذهم لما طلعوا بس جدي قال لها: شو هذا خلص أتركيهم. وقفلت الباب، وبتفرجينا إنه المفتاح ظل معها، وإنه على أساس طالعين ثلاثة أيام عبين ما يقلعوهم لليهود وبعدين برجعوا. الجيش العربي كانوا يشلحوا لبس الجنود ويهربوا وهم نفسهم اللي كانوا عم بدقوا عالبيوت ويقولولهم إنه اطلعو بس جمعة وبنرجعكم، بعدين طلعوا نصبولهم خيم، وراحوا على حلب، وبعدين على لبنان وبعدين إجو لهون، وحكوا كيف كانوا يوقفوا ليعطوهم الاعاشة، وكثير عجقة. وبابا وقتها ضاع، مشي بين هالخيم لحتى جماعة ثانيين لاقوه ورجعوه. بحكوا كيف بالأول كانت الحمامات مشتركة برا وكانت ستي تحكي كيف كانت حامل وبدها تطلع بالليل وبالعتمة وكانوا جدودي الاثنين فدائية، ما يقعدوا معاهم. كيف إنه الحمامات بقرنة والبيوت بقرنة وكيف كانوا يروحوا يعبوا مي وكانت بعيدة ولازم يحملوها على راسهم. يعني كان في تعب ومعاناة كثير. أنا اليوم بحس إنه الضفة وغزة بتختلف عن جوا، يا إما لأنه جوا كثير معمر ومرتب وما في حرب وقتل، يعني بحس الضفة وغزة ناشفة جفاف. مو مثل ما أنا متخيلة فلسطين خضراء. أنا بحسها حديقة وبحس لهلا هواها غير هواء الشام ولبنان والأردن." (رجاء الصفورية، 30 سنة، مخيم اليرموك).

وهذا هو النمط الوحيد الذي يتفق فيه الرواة في المكانين على عدم رضاهم عن الحياة في المخيم، وإن اختلفت أسبابهم:

"بالأول كنت ما أرضى أطلع من المخيم، بس لما سكننا سنة بصحنايا[145] حبيتها، كمخيم لو يترتب ويتنظف شوي! لما بطلع الصبح وبتطلع كأني ماشية بحاوية زبالة. بصحنايا في خضار وكثير حبيتها. أيام الجامعة كنت أقول إني فلسطينية ما يصدقوا، أما من اللهجة يعرفوني، وقديش كنا نتضايق من هالشغلة إنه كيف بفكروا الفلسطيني؟ شفايفه كبار وأسمر غامق، مثل الأفارقة! وفي لهلا شباب بالجامعة بقولوا: إنه والله لو فتنا بالمخيم بعد الخمسة، يا بتروح ايدنا، يا بتروح إجرنا، لهلا بعتبروا إنه المخيم ما بنفات. بس مرات بقارن وبحس يمكن لأنه ما إلنا بلد، خلينا عاملين بلدنا بخيالنا إنه كان راح يطلع غير شكل: ديمقراطية وجمال ونظافة وعلم! حتى سوريا بحبها بس ما بحب أكون سورية. دائماً بقول إني فلسطينية. لما كبرنا، كل شي تثبت فينا، فإذا طلعنا اليوم من المخيم بكون عادي" (من رواية رجاء الصفورية، 30 سنة، مخيم اليرموك).

"حالياً لا ماني راضي، كنت أول راضي، يعني نحنا كنا معروفين الفلسطينية إننا شعب مثقف، حتى نحنا الفلسطينية اللاجئين كانوا معروفون إنهم ناس كثير مثقفين يعني يدرسوا ويتعلموا وياخدوا شهادات عليا وينحكى باسمنا! هلا على شو دايرين؟ يعني أنا بعتذر على هيك كلمة، دايرين على الحب، الحشيش وكذا[146] يعني نسبة قليلة جداً اللي عم تتعلم، مشان هيك أنا صرت أكره المخيم، وأكره الفلسطينية اللي عايشين بالمخيم لأنه هن اللي عم بسيؤلنا، وبسيؤوا للسمعة، يعني واحد بسيء لسمعة الكل. أنا هلا بالجامعة، لما أذكر إنه أنا فلسطيني وبيكونوا سامعين عنا يعني اختلف، بالمعهد الفندقي من سنة 1997 يعني واحدة ما بتعرف إنه في شي اسمه مخيم اليرموك أبصر بنت مسؤول أو واحد كبير. حكينا إنه نحنا عايشين بمخيمات، قالت لي: يعني أنتوا عايشين بخيم؟ قالت لي: بتركبوا ع جمال لما بتروحوا على مدارسكم، هلا احنا المخيم تطور وصاروا كل اللي برا بيجو لعنا بس اللي بسيء هاي الناس اللي هون الدايرة بالشوارع." (من رواية سامر الجاعوني، 29 سنة، مخيم اليرموك).

بينما تعتبر نسرين مخيم قلنديا مكاناً مخيفاً حين تقارنه بمجتمع الخليل حيث عاشت قبل زواجها:

"ما حدا بحب عيشة المخيم، ضيق، ما بتاخدي راحتك، وصح كلياتنا فلسطينية بس بالآخر كل واحد من بلد، ما بتعرفي أصل جارك من وين وما بتعرفي حدا، أنا ما بتخالط كثير أكثر من بيتي بطلعش، يعني أمي في الخليل دائماً زيارات مع الجارات وبحسهم زي أمياتي والحياة بسيطة هناك أكثر بس المخيم أنا بخاف منه، بقدرش، اللي بعرفهم منيحين بتعامل معهم، وأولادي بطلعوش

[144] لاحظ أن الراوية تتحدث هنا عن صفورية قبل سنة 1948 حين لم تكن ألعاب الأطفال بضاعة شائعة في الأسواق. فتبدو هذه الجملة أقرب إلى حياة اليوم منها إلى تلك الفترة.

[145] احدى الضواحي السكنية في دمشق.

[146] تكرر موضوع ادمان شباب المخيم على المخدرات: حب أو حشيشة في أكثر من رواية من روايات مخيم اليرموك وكذلك في روايات مخيم قلنديا مثل رواية مدير المدرسة في النمط الحالم بالغد الأجمل ورواية الناشطة النسوية في قلنديا من النمط الغاضب.

برا، بنات أعوذ بالله، أكثر من الحوش ولا يمكن واحدة فيهم تخطي الباب. وابني بيطلعش يلعب برا مع الأولاد، أخلاق الأولاد اللي حوالينا مش كلهم بيعجبوني، وما بعرف راح يلعب ابني مع الناس اللي أنا مطمأنة لهم ولا مع أولاد الناس الثانيين. أولادي في مدرسة خاصة، والفورد بياخدهم وبجيبهم، ولو هذا مش راح أدخلهم في مدرسة وكالة، كثير عدد الطلاب كبير في مدارس المخيم. يعني بستفيدوش الأولاد بالشكل المطلوب، عدا أنه منهاج السلطة ثقيل ويحتاج لوقت طويل في الدراسة وتدريس جيد."

ولا يقتصر غياب قصة فلسطين كأحداث تاريخية عن روايات هذا النمط وإنما يقدم الرواة هنا صورة مختزلة لفلسطين الجغرافية، لتقتصر على ما تراه أعينهم من مدن، في حالة الرواة الذين يعيشون في مخيم قلنديا:

"بالنسبة لخريطة فلسطين أنا برسمها كاملة وأنا كثير بحب الأقصى وبيت لحم. (س: وبلدك الأصلية، القبيبة، رحت عليها؟) لا ولا مرة (س: واشي ثاني من فلسطين المحتلة بالداخل، زرت قرى أو مدن في الداخل؟) كيف يعني؟ (س: مدن ثانية من الداخل؟) آه أكيد كنا نروح على الخليل وعلى بيت لحم وعلى جنين وعلى طولكرم. (س: أنا بقصد من الـ 48؟ مدن في الـ 48 عمرك رحت عليهم؟) لا ما رحت عليهم ولا مرة" (نور القبيبية، 19 سنة، مخيم قلنديا).

"هاي أنا هيك بتخيل فلسطين: احنا ملفوفين بجدار وفي إلنا ناس بعاد اللي هم أهل غزة وهي هي ثلاث أرباع فلسطين اللي بين قطاع غزة وبين الضفة الغربية، طبعاً الضفة الغربية مش كلها. هي فلسطين المزبوطة اللي هي في يافا وحيفا وهدول. أنا رحت هناك قبل سنة، أول شغلة هم اللي أخذوها بستاهلوها، يعني لو ظلت في أيدينا مستحيل، خاصة مع حماس والمشاكل اللي بتصير لتدمرت أكثر من هيك بالعكس أنا بشوف إنه قاعد بصير فيها اصلاح، أنا بحكي لهم (تقصد الاسرائيليين) ديروا بالكم عليها تنرجع (تضحك)" (رؤى عرتوفية، 18 سنة، مخيم قلنديا).

فلسطين، بالنسبة لرواة هذا النمط، موجودة إما في رام الله حيث يعيشون أو في البال بالنسبة لرواة مخيم اليرموك. أما العودة إلى البلاد فهي ليست حلمهم لأنهم، كما يقولون، لن يستطيعوا التأقلم في الحياة الجديدة:

"البلاد والعودة شعارات: بتظل فلسطين وطني، بس أنا لي أمين: أمي اللي خلفتني فلسطين واللي ربتني سوريا، بحب أشوف فلسطين أكيد، بس يمكن ما أسكن فيها لأني ما راح أقدر أتأقلم" (سامر الجاعوني، 29 سنة، مخيم اليرموك).

"الرجعة لبيت جبرين صعبة ومش شرط (نرجع)، بتمنى يصير وضعنا هون في السلطة أحسن" (نسرين الجبرينية، 33 سنة، مخيم قلنديا).

ويبدو أحياناً، وكأن رواة مخيم اليرموك هنا يسردون قصة شعب آخر، فهم متأثرون برؤيتهم للأحداث من منظور اليوم ويقيسون البلاد والحياة فيها وفقاً لمعايير اليوم. تتحدث آمال عن الفلسطينيين في الضفة والقطاع بضمير الغائب وتستثني نفسها من الوجود الفلسطيني:

"إذا كانت تحررت فلسطين بتمنى ما يعملوا مثل بقية الشعوب وبتمنى يفهموا على بعضهم! يعني هلا مبدئياً بهذا الوضع إنه يعرفوا شو ينقوا. السلطة فاسدة ما اختلفنا بس إنه لازم حدا يغيرها. يعني **احنا هون برا ما راح نقدر نعمل شي**. بس **أنتوا شعب جوا، فيكن تعملوا شي** يعني أنا بقول إنه أنا هون قاعدة مرتاحة بس باكل هم إنه في ناس عم بتموت كل يوم يعني هدول مني، نفس الدم. بس بنفس الوقت أنا قاعدة هون ماكلة ونايمة وبرجع بالليل على بيتي بلاقيه مثل ما هو، بنزل بشتري أغراضي ما بلاقي قنبلة ولا الكهرباء مقطوعة، ولا المي مفقودة وبشرب مية مدري شو. فلا يحق لي أنه ألوم اللي هونيك لأنه هم اللي بعانوه كثير أكثر من هون." (آمال سمخية، 24 سنة، مخيم اليرموك).

وتُبدع رجاء تقسيماً دولياً جديداً يعطي للفلسطينيين دولتين واحدة برا، هي الضفة وغزة ليتقاتل فيها الفلسطينيون وواحدة جوا، هي فلسطين 48:

> "يعني بستغرب كيف بتخانقوا قدام عدوهم! لما بياخدوا اليهود هاي الصور لبرا راح يتعاطفوا معهم إنه شو هذا عايشين مع وحوش، بتمنى هاي تنتهي **وإذا الأحزاب كلها بتنتهي وتصير الضفة وغزة دولة**، بس بصراحة أنا ما بعبرها تكون دولة فلسطين: إذا بظلوا هدول هم القادة والوزراء اللي بمثلوا فلسطين لأنه أظن راح يكونوا مثل ملك الأردن وتاع مصر لأنهم ما راح يعَيْشوا شعبهم مثل العالم والناس وراح تظل سرقة. وإنه **جوا دولة فلسطين تاع الـ 48 تصير فلسطين كلها**، مستحيل أنا بقول إلا إذا بالخيال، نتخيلها خيال معقولة أما بالحقيقة؟! أنا ولا ممكن أرجع برا، جوا إيه، حتى لو بده يظل فيها يهود. [...] وبتصير الضفة وغزة دولة لحماس وفتح يتقاتلوا فيها، وجوا دولة فلسطين، راح تكون دولة مدللة تعيش على السياحة" (رجاء الصفورية، 30 سنة، مخيم اليرموك).

باختصار، ينصب اهتمام الرواة في المخيمين على الحاضر اليومي، وبالتحديد على البحث عن حياة أفضل ضمن الوجود المسموح به. ومن حيث المضمون، تنحصر معلومات الرواة حول القضية في قصص الأحداث التي عايشوها أو شاهدوها من خلال شاشة التلفاز، وحتى في هذه الحالة يأتي سردهم للأحداث مختصراً وتنقصه الدقة. يعزو الرواة هذا الأمر إلى أكثر من سبب أهمها كما ذكرت سابقاً، القيود الاجتماعية المفروضة على مشاركة الراويات النساء في الأحداث أو الفعاليات التي تحدث في الفضاء العام: المظاهرات أو الأحزاب، وهذه القيود قد لا تكون ظاهرة أو مفروضة بالقوة على الإناث لكنها تندرج ضمن التقسيم الاجتماعي للأدوار التي يحتلها الجنسان والتي تحدد ابداع النساء ضمن الفضاء الخاص كبنات مطيعات، وزوجات محبات، وأمهات صالحات، وتقيد أو في أفضل الأحوال لا تحبذ مشاركتهن في الحياة العامة خاصة حين يتعلق الأمر بالنشاطات السياسية و/أو الحزبية، وليس شرطاً أن يكون هذا التقييد مفروضاً من قبل الذكور، فقد تختار المرأة نفسها، القيام بالدور المقبول لها اجتماعياً تجنباً للمشاكل أو الازعاجات التي يمكن أن تواجهها في حال خروجها عن الدور التقليدي المناط بها أو المتوقع منها. تعبر رواية نسرين الجبرينية، التي أوردت مقتطفات منها، عن هذه الحالة التي عبرت عنها أيضاً راويات نساء ضمن أنماط أخرى. وهذا لا يعني أن هذه الحالة هي الغالبة بين النساء الفلسطينيات في كل زمان ومكان. فقد ظهرت أنماط مشاركة مختلفة للنساء الفلسطينيات اللواتي شاركن في هذا الدراسة.[147] والسبب الآخر الذي أورده رواة هذا النمط لقصر رواياتهم عن القضية هو كونهم مولودين في المخيم ولوالدين هم أيضاً من مواليد المخيم ولم يعرفا الحياة في البلاد قبل الـــ 48 ولا معاناة التهجير.

نموذج من روايات النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي

يمكن وصف روايات هذا النمط بأنها تأخذ شكل تعليقات متداولة، فالأحداث، إن ذُكرت أصلاً، لا يتم طرحها من منظور تاريخي أو سياسي وإنما يزنها الرواة من حيث التأثير الذي تتركه على حياتهم اليومية. أورد فيما يلي رواية أم مالك اللداوية، 32 سنة، من مخيم قلنديا كمثال على روايات هذا النمط.

---

[147] راجع روايات النساء ضمن نمطي الحالم بالغد الأجمل والحالم الغاضب.

قصة البلاد الغائبة

(س: أنت من مواليد المخيم؟)[148] لا من أبو اشخيدم، *(س: في مخيم هناك؟)* لا قرية، جنب رام الله، *(س: متى جئت إلى المخيم أول مرة؟)* في الـ 93 لما تزوجت، *(س: ولما تعرفي حالك هون كيف بتقولي أنك لاجئة أو من أبو شخيدم؟)* من قلنديا لما بيسألوني من وين أنت؟ بقولهم من قلنديا، إذا سألوا من وين الأصل: بقلهم من أبو شخيدم، أما اللي بسأل عادي من قلنديا.[149] *(س: وحكولك أهلك عن بلادك الأصلية عن اللد كيف كانت حياتهم فيها قبل ما يطلعوا؟)* أنا بصراحة، لا، لأنه أمي من أبو شخيدم، وأبوي من اللد، وتوفى أبوي وأنا عمري سنتين بس، *(س: يعني ما حدا كان بحكيل؟ك جدتك؟)* دار سيدي لا، *(تضحك)*. *(س: وعمرك زرت فلسطين المحتلة بالـ 48؟)* لا. *(س: طيب، ومن اللي درستيه في المدرسة؟)*. احنا درسنا المنهاج القديم. *(س: لأي صف تعلمت؟)* للعاشر.

قصة فلسطين – التركيز على اليومي مقابل التاريخي

(س: طيب إذا أنت هلا بدك تحكي لأولادك اشي عن فلسطين؟ لما بيسألوك مثلاً ليش احنا عايشين في المخيم؟ شو بدك تحكيلهم؟)

ممكن أحكيلهم عن الانتفاضة، لأنها هي الفترة اللي عشناها بس.

(س: الانتفاضة الأولى كنت بأبو شخيدم؟) آه *(س: كيف كانت هديك الأيام؟ كيف كنت تحسي وأنت صبية؟)*

طبعاً في حصار، في أشياء، حصار بس ومنع تجول، هيذ يعني!

(س: كنت تشاركي بفعاليات الانتفاضة؟) لا طبعاً، قليل طبعاً، (س: ولا كنت تشاركي بالمسيرات والمظاهرات من خلال المدرسة؟)

قليل، مسيرات وبس أما أشياء ثانية لا، يعني قليل طبعاً! (س: مش كثير كانوا يطلعوا عندكم؟) لا يعني أنا بالنسبة إلى لا ما كناش نطلع، يعني قليل صدف، (س: يعني كونك بنت، ما كنش مقبول إنك تطلعي؟) لا في بنات كانوا يطلعن، بس احنا بطبيعتنا لا! (س: وحالياً بتشاركي في اشي فعاليات معينة مثل مسيرات النكبة أنت وأولادك؟)

لا أولادي لسه صغار. وأنا ما بشارك، والأحزاب أنا مش مآمنة فيهم، كلهم نتيجتهم واحدة، فش أي تقدم فيها، الواحد مصلحته الكرسي بس، الشعب لو شو ما صار فيه عادي!

اختزال فلسطين جغرافياً لتقتصر على ما يُسمَح للعين أن تراه اليوم

(س: إذا بدك ترسمي خريطة فلسطين لأولادك؟) برسمها زي ما هي تقريباً

(س: وأهم المدن عالخريطة بالنسبة إلك في فلسطين؟) رام الله. (س: لأنك عشت فيها؟)

آه، عشت فيها، وحتى لما رحت على محلات ثانية بس شفت أنه أحسن شي رام الله، رحنا على الخليل وعلى نابلس وعلى أريحا، بس هي أفضل اشي هان!

(س: ما رحتيش عالقدس ولا مرة؟) لا، من وقت الجدار، بالنسبة إلنا أقرب محل وأزود اشي بالنسبة إلنا على أساس التسهيلات هي رام الله، ولا القدس طبعاً هي أهم يعني، يا ريت لو أنها بإيده الواحد.

المخيم

(س: وبالنسبة لحياتك هون بالمخيم، راضية عنها ولا بتحسي إنه لو عندك خيار تسكني بمحل ثاني بكون أفضل؟)

طبعاً لو في خيار نسكن بمكان ثاني أحسن.

(س: ايش اللي بضايقك في المخيم أكثر اشي؟)

عدد سكانه، وبعدين لامم من جميعه، يعني تطلعي الواحد جنب الثاني فش مجال الواحد ياخد راحته وأولاده فش محل يلعبوا!

(س: بس كيف يعني قصدك أنه لامم من جميع المحلات؟)

يعني لامم من جميع البلاد، يعني صعب يتأقلموا معاك زي أبو شخيدم، تطلعي عليها، معظمهم أهل القرية، عارفين بعض، قرايب واشي، أما هون من جميع البلاد ململم! احنا كبداية بلشنا بدنا نطلع شرينا أرض وان شاء

---

[148] تختفي القصة تقريباً لدى بعض الرواة الذين يعزون الأمر إلى أن الوالدين ليسا من مواليد البلاد ولم يجربا الحياة في البلاد أو معاناة التهجير، يقدم المقطع التالي صورة نموذجية لمقابلات هذا النمط حيث تغيب الرواية وتتحول إلى سلسلة من الأجوبة القصيرة على أسئلة محددة.

[149] البلد الأصلي هنا هو مكان السكن، مع أن الراوية أخبرتني فيما بعد أن أصلها من اللد وأصل زوجها من اشوع.

الله على هوا ظروفه الواحد انشالله الله بيعطينا، شرينا في أبو اشخيدم، آه بصراحة مشان الأولاد، لبين ما نبني وهذا بيصيروا كبار
(س: يعني أنت ما إلك حياة اجتماعية هون؟ بتروحي بتزوري؟)
لا، بروح في الجيران بتعرفي، بس في القرية بظل غير

الرؤية المستقبلية
(س: بالنسبة إلك إيش طموحاتك لإلك وللقضية؟)
بتمنى لأولادي حياة أحسن من اللي احنا عايشينها حالياً، يتعلموا ويتغير الوضع، يعني الواحد مش مأمن على ابنه لو طلع مجرد يوصل الشارع بيبقى خايف عليه. وكثير أحيان بيفوتوا في الليل بس في النهار لا، بس الواحد لما بده يوصل على الحاجز بخاف على أولاده، لما بدك تبعتي ابنك يشتري حاجة بتظلك على أعصابك، أبو شخيدم بقوا بيجوا الجيش عليها بس لأنها قرية مش باستمرار مثل المخيم، صدف تيدخلوها، بس هون في أي لحظة بالليل بيدخلوا وأحياناً بطخطخوا[150]

(س: وبالنسبة لأمنياتك للقضية؟)
انشالله تنحل ويصير السلام، شو بده يتمنى الواحد يعني؟ وانشالله بتتدخل الروس الكبار انشالله بتنحل هالمشاكل واشي بس بالنسبة إلى حاسستها عمرها ما بترجع، البلاد، اليهود لما بيدخلوا على محل وبياخدوا محل مش بالسهل إنهم يرجعوه، طبعاً فش أمل 1% حتى، مستحيل، يعني، أجوا على محل، وتعبوا لزبطوه وهذا بدهم يرجعولنا اشي!؟ والاشي ما هو بيزيد ما بِخِفِّشْ، بقى في الأول أخف من هيذا بس هالقيت أي أشي بصعوبة، في الانتفاضة الأولى كان الواحد يروح وييجي ويعطوه تصاريح وأشي بس هلا بعد الجدار بطل، بطل الواحد يطلع من الجدار، زي المحطوط بصندوق مسكر عليه من جميع النواحي.

وسائل الاعلام
(س: طيب وأنت بتتابعي الأوضاع بتحضري أخبار؟)
كنت بالأول أتابع، ولما صار نفس الاشي كل شي بتكرر فبطلت، بالنسبة إلي بفضاش، قليل، س: ولا بتشغلي راديو، لا، أولادي عن 100 راديو.

[150] تشكل هذه الرواية نموذجاً لروايات النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي. فمن حيث المضمون، تحتل المشاكل وهموم الحياة اليومية الحيز الأكبر من روايات هذا النمط، فالراويات هنا معنيات بظروف معيشية أفضل، ويتطلعن للخروج من المخيم حين تتوفر الفرصة، ويحلمن بتحسين وضعهن الاقتصادي والحصول على تعليم أفضل لهن ولأولادهن. وحين يتحدثن عن الوضع السياسي والأحداث التي عايشنها، يكون التركيز على الجانب الاجتماعي والمشاكل الحياتية وليس على الأبعاد السياسية والتاريخية لتلك الأحداث. ويشترك رواة هذا النمط، كما في هذه الرواية بكونهم لا يهتمون بالمشاركة في الفعاليات التي تقام في المخيم لاحياء ذكرى الأحداث الوطنية.

رابعاً: النمط الواقعي السياسي

"أنا برسم خريطة فلسطين التاريخية كاملةً والجزء المحتل من الـ *48* بكتب عليه إسرائيل، والجزء هذا دولة فلسطين، حتى لا أنسى إنه إسرائيل هذه أقيمت على أرضي. هيك أنا، لأنه بصراحة، أنا بعيد عن العواطف، وعمري ما كنت عاطفي إلا بجوز تجاه زوجتي وأولادي."

(عمر البرجي، 55 سنة، مخيم قلنديا، كانون الأول 2008)

صفات النمط ورواته

تتميز رواية فلسطين لدى رواة هذا النمط[151] عن روايات الأنماط الأخرى شكلاً ومضموناً. حيث تبدو **لغة الروايات** في وصف ما تختزنه الذاكرة عن الماضي _الحياة في البلاد ورحلة التهجير_ أقرب إلى لغة الكتب التاريخية. أما في رواياتهم للحاضر والمستقبل، فيُلاحظ بوضوح استخدامهم لمفردات تقنية من قواميس السياسة والقانون الدولي والإعلام، ليبدو أسلوبهم أقرب إلى أسلوب الخطاب الرسمي (السياسي، أو الأكاديمي، أو الحزبي)، بما يعكس اهتماماتهم الفكرية والسياسية.[152] ينطلق رواة هذا النمط، كما ورد في رواياتهم، من الواقعية السياسية في القبول بوجود دولة (إسرائيل) انطلاقا من فهمهم للظروف السياسية وتوازنات القوى الاقليمية والدولية، والقبول بالمتاح وهو إقامة دولة فلسطينية في حدود العام 1967 تطبيقا لقرارات الشرعية الدولية.

يظهر هذا النمط في المخيمين، لكن بنسبة قليلة ضمن عينة رواة هذه الدراسة، فهم يشكلون أربعة من أصل 82 راوٍ وراوية، جميعهم رواة ذكور: ثلاثة من مخيم قلنديا وراوٍ واحد من مخيم اليرموك. وقد لا يكون قلة **الرواة ضمن هذا النمط** بالضرورة مؤشراً على قلة انتشار هذا النمط بين الفلسطينيين بشكل عام، واللاجئين بشكل خاص. ويمكن إيعاز سبب قلتهم ضمن رواة البحث إلى صفاتهم، كونهم من المهتمين بالمجال الفكري و/أو السياسي، وناشطين في الحيز العام في المجالات الثقافية والإعلام والمجتمع. بالتالي يمكن تصنيفهم ضمن فئة النخبة، فهم يشكلون نخبة داخل مجتمع المخيم على الأقل؛ وهم: أستاذ جامعي، وتاجر وناشط في المخيم، وإعلامي وسياسي ناشط، ومسؤول عن هيئة تعنى بخدمات اللاجئين، وقد التقيتهم بالصدفة من خلال لاجئين آخرين. تتراوح أعمار الرواة بين 46–62 عاماً، أي أنهم من الجيل الثاني للنكبة، وأهم ما يجمعهم ضمن النمط الذي أسميته "الواقعي السياسي" هو **تأكيدهم على أهمية الانطلاق من الواقعية السياسية في قراءة الواقع الفلسطيني واستبشار مستقبله**، واعتقادهم بوجوب اعتمادها لأنها اليوم المخرج الوحيد الممكن، إلى أن تتغير الظروف.

---

[151] راجع ملحق الرواة في نهاية الدراسة.

[152] على سبيل المثال، تظهر في روايات هذا النمط المصطلحات والعبارات التالية: "الواقعية السياسية، المراهقة العقائدية، اعتراف دولي، الحد الأدنى من الحقوق، حرب لانتزاع مواقف، جسم سياسي، حق المواطنة، الطابع الإنتاجي الزراعي، نزعة عنصرية، الصراع اليهودي الفلسطيني، دخول الامبريالية على المنطقة كتبرير لحماية اليهود، حرب تحريرية/ تحريكية، وعي جماهيري، الهيمنة الاحتلالية، خطأ تاريخي، المتغيرات الدولية، العدالة الكونية، الخيمة 101، التطور الروحي للإنسان الفلسطيني، هزيمة العلم للجهل، عينات صغيرة من المتعلمين، طاقة المخيم وإبداعه، الحقول الاجتماعية والجهوية، التدخلات الإقليمية، المصالح المعقدة للدول، الحقل السياسي الفلسطيني، تعليق الأيديولوجيات، المخيم كمفهوم concept، اجتزاء الحقوق، الاشتراطات والاتفاقات، حالة حرب، دول الجوار وإسرائيل، مفاصل مهمة في تاريخ القضية، البعد العربي، نظام جديد، زعيم/ قائد عربي/ كاريزمي، الانتصار وتحرير الأوطان، التوازن الاستراتيجي على الساحة، الخريطة السياسية، مزاودات، طمس الهوية، الظرف السياسي الداخلي، توازنات ومصالح، التمسك بالحق، والطغيان الإسرائيلي".

ومن حيث الميول السياسية، عَبَّرَ ثلاثة من الرواة عن اعتبارهم حركة فتح هي الرائدة في المجال الحزبي الفلسطيني. أما الرواي الرابع ضمن هذه الفئة، فقد انتقد كل الأحزاب الموجودة على الساحة، وعبر عن عدم قناعته بها أو بقدرتها على تحقيق أي انجاز، وذكر أنه سعى مع بعض الأخوة من فصائل أخرى إلى تأسيس حزب جديد ميزته أنه: *"يسعى لإحداث تغيير يتلاءم مع الطموحات الفلسطينية، وهو لفيف من كل القوى دون النظر إلى الماضي، يعني يقوم على أيديولوجيا سياسية وليس أيديولوجيا فكرية. وأهدافه هي إحداث تغيير على الصعيد الداخلي الفلسطيني، وضم الأصوات الفلسطينية تحت سقف واحد اسمه فلسطين فوق الجميع، المشروع الوطني الفلسطيني اللي أنا بنادي فيه: إنهاء الاحتلال على كامل التراب الفلسطيني عام 67، وإقامة دولة فلسطينية كاملة السيادة والصلاحيات بأقاليمها الثلاثة: إقليم بحري وبري وجوي حسب القوانين الدولية".*[153]

المحاور العامة لروايات النمط الواقعي السياسي

أولاً: قصة الماضي – وصف تاريخي تفصيلي للبلاد

تتميز صورة الماضي لدى رواة هذا النمط بالتركيز على المعلومة أكثر من كونها تركز على مشاعر الحنين والفقدان، فهم في وصفهم لبلادهم الأصلية يركزون على وصف جغرافية المكان وطبيعته، وطبيعة الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة حينها، والمبنية على التعايش الديني بعيداً عن الصراعات السائدة اليوم. ويُلاحظ أنهم يستخدمون مفردات تقنية مستمدة من تخصصهم العلمي والمهني. كما في الوصف الذي يرسمه الراوي من مخيم اليرموك لمدينته حيفا وبلدته أم الزينات التي لم يزرها يوماً بعد أن هُجِّرَ منها بعمر سنتين، وفق ما سمع عنها من ذاكرة الأهل:

> "صورة حيفا ما أنا بنيتها، وإنما أخذتها من أهلي، وأنا عملت لها الموقع الطوبولوجي داخل ذهني بصورة خاصة. أنا بتصور إنه حيفا بتجمع بين الجبل والبحر، وبتصور إنه السهل الساحلي في حيفا واسع، وإنه الجبال من بعيد هي عبارة عن غابات كثيفة ممتدة، والساحل والبحر بشعر إنه جميل جداً، وبشعر إنه أجمل مكان بالعالم، وبعتقد إنه حيفا هي عروس البحر الأبيض المتوسط، لا مرسيليا ولا الإسكندرية، لذلك كل ما أكون جاي طيران من القاهرة بصورة خاصة، لأنه بيمر قريب جداً من حيفا، وخاصة بالليل، أضواء حيفا ممكن تشوفيها من الطائرة، وبتكون أضواء حيفا ساحرة، لذلك حيفا ليلها ونهارها بعتقد إنه جميل جداً! اللي أنا رسمته لنفسي لأم الزينات نتيجة المادة الشفوية اللي أخذتها من أهلي إنه هي قرية واقعة على جبل، وأراضيها الزراعية ممتدة كثير، وفيها أكثر من بير مي، الغابات مطلة تحيط فيها من سفوح الجبال العليا، وفيها غابات كثيفة جداً ومياه غزيرة جداً، فيها دير للمتعبدين المسيحيين، مما يدل أنه هذا المكان آمن بالنسبة لكل الديانات. الدروز قريبين منا، من قريتنا، عسفيا والدالية، وفي حالة تعايش جميلة جداً بين الدروز والإسلام السنة وبين المسيحيين اللي بيجوا عالدير يتعبدوا، مما يدل على إنه بفلسطين ما في مشكلة دينية، في نوع من الوئام والتفاهم. الوحدة الروحية اللي هي أعمق من إنه الواحد ينتسب لهذا الدين أو ذاك إنه الكل مؤمنين بإله واحد وبمصير واحد. فبشعر إنه لو كنا بفلسطين، لو ما حدثت الكارثة يعني النكبة الكبرى، بشعر إنه ما كان راح يكون للأحزاب الدينية وجود قوي أبداً."[154]

تختلف صورة البلاد لدى رواة قلنديا من حيث مصادر الروايات، فبينما يستقي رواة مخيم اليرموك (في هذا النمط وغيره) معلوماتهم عن البلاد من الأهل وقراءاتهم، لا يقتصر وصف رواة قلنديا للبلاد

---

[153] من رواية عمر البرجي، 55 سنة، مخيم قلنديا.
[154] من رواية عيسى الزيناتي، 62 سنة، مخيم اليرموك.

على ما حفظوه من ذاكرة الأهل، إنما يستند إلى الزيارات التي قام بها بعضهم لبلادهم الأصلية أو ما تبقى من آثارها:

"في الحقيقة إنه مجموع ما في ذاكرتي عن البرج مستقى من عدة مصادر: المصدر الأول، الحديث من قبل الأهل، والِدَيْ تحديداً الله يرحمهم. والمصدر الثاني، دراستي عن القرى الفلسطينية في داخل الـ 48 ومن ضمنها البرج. المصدر الثالث، زيارتي المباشرة للبرج قبل منعي من الدخول لفلسطين، يعني الإطلاع عليها جغرافياً، كان عدد سكان البرج، قبل الـ 48 ، ما يقارب 425 بني آدم، معظم قرى فلسطين كانت بمثل هاي الأعداد، إلا ما ندر، فيها أكثر من حمولة، لأنه هيك مجتمعنا هو أصلاً مجتمع حمايل. إذاً يعني ما خرجناش عن هاي القصة إنه كنا حمايل! [...] أراضي البرج ممتدة تصل إلى قرية بمحاذاتها اسمها بير إماعين وقرية أخرى برفيلية، ومن ثم ديرأيوب، ومروراً بمنطقة اسمها البرية ومشتهرة بزراعة التين والعنب والصبر، هاي بلدنا... الطابع العام لفلسطين كان الطابع الزراعي، الكل بعرف هذا الحكي، وارجعي لغسان كنفاني ذكره، يعني اليوم في تصنيع زراعي، ولكن كان في البداية ما في تصنيع زراعي! غسان تويني على فكرة بناقش هاي القضية في جوهر القضية الفلسطينية. كانت البرج، كبقية القرى في فلسطين، تعتمد على الزراعة والمحصول السنوي. طابع فلاحي صرف، ما في أي صناعات، أصلاً فلسطين نفسها كانت تفتقر إلى التصنيع في الـ 48. إذا حكينا على أرضها والقرى المجاورة إلها، طابعها الإنتاجي المتعلق بالزراعة، واليهود، على الرغم إنهم كانوا فلسطينيين، يعني يعيشوا في فلسطين، بالقدم، ولكن ما كانت عندهم نزعة عنصرية، ولما بدأت تتجذر النزعة الصهيونية، بدأ الخلاف ما بين الفلسطينيين واليهود اللي كانوا عايشين في فلسطين. وبالتالي كانت الشرارة الأولى لإدخال الإمبريالية على المنطقة لحماية اليهود. لحماية اليهود كتبرير".

في هذا المقطع القصير، يختار يوسف أن يقدم صورة بلاده كما تبدو اليوم بعد احتلالها من قبل إسرائيل، فهو يتحدث بحسرة عن "صرعة"، التي اقتُلِع هو وأهله منها لتتحول إلى منتجع سياحي للإسرائيليين:[155]

"في صرعة، بيحكوا إنهم كانوا يعتمدون على الزراعة وتربية الماشية، وكان عندهم كروم، وكيف كانت الألفة بين الناس والساحة اللي بجتمعوا فيها الناس في البلد. لما كبرنا، كان في فترة من الفترات مسموح لنا نسافر لداخل إسرائيل، فكنا نروح نزور البلد ونأخذ الأهل معانا، فيوصفوا لنا إنه هون في بئر وهون الساحة، وهون دار المختار. ويحكوا لنا ويشرحوا لنا ورسخوا عنا بعض الذكريات الجديدة، إلى حد ما. كانت الصورة اللي شفتها تشبه الصورة اللي في خيالي، لأنهم كانوا يحكوا لنا إنه البلد تهدمت. لما احتلت إسرائيل البلد في الـ 48، هدمتها وحولتها إلى منطقة سياحية. وهسا هي فيها أشجار صنوبر مزروعة ومفتوح فيها شوارع، وبيروحوا الإسرائيليين يقضوا فيها أوقات العطل، يعني زي منتجع سياحي إلهم. وفعلاً رحنا وزرنا القرية ولاقينا إنه الإشي اللي انحكى لنا مزبوط. وإنه مش موجود آثار من البلد القديمة، إلا بعض أشجار التين، وبعض نباتات الصبر، وما في أي بيت موجود من البلد تقريباً. يعني لا شك إنها بلاد حلوة، والإنسان بينتابه شعور من المرارة والسعادة: السعادة إنه شاف القرية اللي نشأووا فيها أجداده، ومرارة إنه إحنا خسرنا اشي ثمين جداً، اللي هو هالأراضي الحلوة والجبال والشجر والمناطق الجميلة".

ثانياً: قصص الهزائم والانتصارات

يركز الرواة في رواياتهم لقصص الهزيمة والانتصار في التاريخ الفلسطيني، على غياب الثقافة والتعليم و(الوعي) كعوامل أساسية للهزيمة، ومن ثم كسبب في تدهور سلوك القيادات الفلسطينية. أما

[155] إن وصف زيارة البلاد هنا يختلف بوضوح عن الوصف الذي يقدمه الرواة الحالمين. أنظر على سبيل المثال، إلى رواية محمد العطابي، من نمط الحالم بالغد الأجمل، وكيف وصف زيارته لبلده كرحلة اكتشف فيها حقائق جديدة غيرت ما سمعه من والده، ساعده على هذا أنه تجاوز مادية المشهد أمام عينيه ليضيف إليه ما اختزنه في ذاكرته من حقائق تاريخية، فخلق في خياله صورة أجمل لبيت عطاب من تلك التي وصفها له والده.

عوامل الانتصار، فتتحدد لديهم بالانجازات على المستوى الشعبي: "بثورة المخيمات"، و"نمو الوعي الوطني"، ونشوء منظمة التحرير، وانتفاضة العام 1987، وانجازات الأحداث السياسية أو التاريخية مثل انطلاقة الثورة الفلسطينية، ومعركة الكرامة في العام 1968، وحرب رمضان في العام 1973، ووقوف ياسر عرفات في الأمم المتحدة، كعوامل ايجابية ثبّتت الهوية الفلسطينية، وكذلك حرب العام 1982 في بيروت والانتفاضة الأولى كونها عززت المقاومة، وأوسلو "لأنها سمحت بعودة عدد لا بأس به ولكن غير كاف من أهلنا وشعبنا الموجودين خارج الوطن"، على حد تعبير أحد الرواة.

يصف عيسى الزيناتي من مخيم اليرموك الوضع الذي أوصل الفلسطيني إلى اللجوء بالقول:

"طبعاً لما تركنا بلادنا إحنا العائلة كان بناء على نصائح الحكام العرب في ذلك الوقت[156]. والشعب الفلسطيني كان 60% منه ريفيين، وريفيين أميين ما عندهم خبرة لا في السياسة ولا في الثقافة، فصدقوا هذه الوعود وخرجوا، ومن جملة هؤلاء الناس البسطاء اللي خرجوا هي عائلتي [...] **أنا بعتقد أن الحدث المفصلي هو الثقافة والتعليم: إنه الفلسطينيين كانوا شعب ريفي ومتخلف مسكين كثير، فبالتالي لم يستطع أن ينتج قيادة على المستوى المطلوب ولذلك أنا بعتقد إنه الهزيمة في فلسطين هي هزيمة العلم للجهل. [...]** ما كان في قيادات؟! عائلات إقطاعية قليلة دافعت عن مصالحها، ما دافعت عن القضية، كل واحد منهم كان مشغول بمصالحه. عينات صغيرة، أولاً: سكان المدن ما بزيدوا عن 10% من السكان. ثانياً: قديش عدد المتعلمين من الـ 10%؟ حتى إذا وُجِد تعليم كان جزء كبير منه حرفي مهني فيمكن الكلية العربية بالقدس ومدرستين ثلاثة بكل فلسطين، مدارس الإرساليات ما كانت تدرس شي عن فلسطين، اللي بدرس بمدرسة أرثوذكسية روسية بيعرف تاريخ روسيا ما بيعرف تاريخ فلسطين. واللي بدرس في مدرسة كاثوليكية بيعرف تاريخ فرنسا، لذلك **أنا بعتقد إنه طبعاً في عوامل كثيرة سببت النكبة مو عامل واحد، من أهمها بعتقد أنا هو نقص المعرفة**. هذا كعامل ذاتي عامل خطير، لأنه بخدعه الشعب الفلسطيني ترك أرضه. بخدعه إنه اطلعوا بـ 15 يوم بننظفلكم إياها من اليهود وبنسلمكم إياها، هاي خدعة، وهذا الشعب لو عنده مستوى ثقافي أو حد أدنى من المستوى الثقافي والمعرفي ما بيصدق، يعني (ويبتسم) اليهود شو بدهم يعملوا ببيدوا كل الناس؟ مستحيل عملوا 3 أو 4 مجازر حقيقية وهم كبروا الموضوع وضخموا خافوا كمان هذا شو؟ صورة من صور الجهل، إنه الناس صدقوا إنه اليهود أينما حلوا إنه يعني بدهم يذبحوا الناس. وبعدين لاحظي إنه **الثورة الفلسطينية كانت قيادتها دائماً فلاحية، المدن ما دخلها بالثورة، المدن هي اللي بتفاوض وهي اللي بتروح على بريطانيا** وبتعمل وفود ولجنة تحقيق وكتاب أبيض [...] فلسطين تحولت لضحية بالنسبة للبعد العربي، كل واحد يريد الورقة الفلسطينية له، يعني لا أحد يفكر بفلسطين بل يفكر كيف تخدمه فلسطين، ولذلك تحولت فلسطين إلى قضية إقليمية، وما عاد في بعد عربي بالمعنى، فمن هون أنا برأيي إنه فلسطين هي قضية عربية لأن المستهدف مو الفلسطينيين لحالهم، المستهدف هي المنطقة، والجميع يعلم ذلك، لكن الآن فلسطين في ظل النظام العربي الحالي هي تخدم القضايا والمواقف الإقليمية".

وبرأيه، أنه حتى الآن، لم يتطور وعي القيادات الفلسطينية، مع وجود بعض الاستثناءات التاريخية، التي يعتبر أن "المخيم" لعب دوراً ايجابياً في تنميتها:

"الثورة بمعناها السياسي مو بس معناها القتالي، **الثورة نقاط ضعفها لما ضيقت نفسها على القتال، الثورة مو هيك، الثورة هي الوعي السياسي، ولذلك ربما أهم ضعف في الثورة الفلسطينية هي أنه الوعي السياسي مو كافي مو عميق**.... نزق ضل في عشائرية ودينية وعيوب ومع ذلك شكل تقدم... أنا دائماً بعتقد إنه **الشعب الفلسطيني أرقى من قيادته، ولليوم، لأنه القيادات ما عم بتكون ديمقراطية، وبالتالي ما عم تحكي الحقائق للناس. إحدى صور تسلط القيادة هو ربط الولاء بالرزق، إنه راتبك ما بتاخده إلا إذا كنت موالي**، هذا عم بشوه الوعي وبخلي العمل السياسي الفلسطيني عمل غير سياسي[157] ..."

---

[156] لقد تكرر نسب الهجرة إلى نصائح الحكام العرب، وهو الأمر الذي لم يجد ما يسنده بعد من ناحية بحثية حسب مراجعاتي التي ليست شاملة بالتأكيد، لكن ما وجدته أثناء دراستي هذه هو أن هذا الموقف يعبر عن تأثر الكثير من الفلسطينيين أو الرواة هنا بالرواية الصهيونية التي سادت في الإعلام الأوروبي حينها عما حصل سنة الـ 48. (كناعنة، 2000 ؛ الصباغ، 2005).

يشترك الرواة الأربعة ضمن هذا النمط في انتقاد دور الأنظمة العربية. في روايته، يموضع يوسف الصرعاوي نفسه في موضع المثقف والدارس والعارف والفاهم للقضية، وهذا يتكرر في روايات أخرى ضمن هذا النمط. ويؤكد الرواة، في أكثر من مكان، ذكر الرواة أنهم –بحكم تجربتهم في العمل النضالي[158] وثقافتهم السياسية واطلاعهم على التطورات ميدانياً وفكرياً– "فاهمين الصورة جيداً"، ويعرفون ما يحصل وما المطلوب فلسطينياً، فتبدو بعض الأجزاء من رواياتهم كأنها صنيعة الخطاب الرسمي المهيمن أو السائد اليوم الذي يعطي أولوية لبناء الدولة "المسموح بها" على حل مشكلة اللجوء والتخلص من اضطهاد المستعمر المستمر منذ 61 عاماً. وقد يكون هذا بتأثير موقع الرواة الاجتماعي والثقافي الذي يعطيهم رأس مال رمزي يضعهم في مصاف (النخبة)، ومع أن الرواة هنا، هم لاجئون من أبناء المخيم أساساً، إلا أنهم يصنفون أنفسهم في موقع العارف، على ما يبدو من منطلق امتلاكهم "رأس مال رمزي"،[159] الأمر الذي باعتقادهم، يؤهلهم للحكم على الواقع اليوم واقتراح الخيار الأنسب للمصلحة العامة:

> "قالوا إنه كان في حرب وحالة قتال، وسمعنا إنه في بعض المناطق المجاورة إلنا تم اغتصاب النساء وتم قتل الرجال، وبالتالي وجدنا إنه مشان نحافظ على أولادنا وبناتنا ونساءنا لا بد إنه نهاجر. وكان المفروض إنه نهاجر يومين ونرجع، وما كناش نتوقع إنه الهجرة راح تستمر ستين عام أو أكثر، وبعض الناس لحد اليوم محتفظين بمفتاح البيت تبعهم وبفكروا إنهم لسه راح يرجعوا! ويعني لما هاجروا كان الأمل كبير، وما كان يخطر في بالهم إنهم مهاجرين إلى غير عودة. كانوا متوقعين إنها حالة حرب وبس تنتهي راح يرجعوا على بيوتهم، فللأسف ما كانش هيك الوضع، وهاجروا إلى غير عودة. نكبة الـ 48 هي مفصل مهم في تاريخ القضية الفلسطينية، **وإحنا كناس مثقفين ودارسين وفاهمين القضية لا نفرق بين نكبة الـ 48، وحرب الـ 56، ونكسة الـ 67**، كلها بنعتبرها مفاصل مهمة في تاريخ القضية الفلسطينية، يعني إحنا بنقرأ تاريخ القضية الفلسطينية على أساس أنها سلسلة من النكبات المتتالية بواقع كل عشر سنوات نكبة؛ في الـ 48 النكبة، في الـ 56 العدوان الثلاثي على مصر، في الـ 67 نكسة حزيران، في الـ 73 حرب رمضان، واللي إحنا بنعتبرها أعادت بعض الكرامة للأمة العربية. والـ 69 معركة الكرامة بنعتبرها ايجابية، لأنها حققت نوع من رد الاعتبار للعرب. البعد العربي مهم، إلا أن ثقتنا في الأنظمة العربية مهزوزة إلى أبعد الحدود، لكننا دائماً نطمح حضور نظام جديد يحقق الأمل للأمة، لا نعقد عليه أمل إنه يحقق انتصار يعيد الكرامة للأمة العربية لكننا لا نفقد الأمل إنه لا بد من قدوم نظام يحقق النصر للأمة العربية، لأن تاريخ العرب والمسلمين حافل بقضايا من هذا النوع. ومرت القضايا العربية في ظروف أكثر سوءاً مما نمر به نحن اليوم، وجاء صلاح الدين وحقق النصر وأعاد الأمل للأمة. فنحنا لا نفقد الأمل في إنه ييجي زعيم عربي يجمع الأمة العربية ويحقق الأمل اللي إحنا بننشده وهو الانتصار وتحرير الأوطان، الانتفاضة الفلسطينية بنعتبرها

---

[157] بشكل عام تقترب روايات هذا النمط، من حيث الشكل والمضمون، من الرواية الرسمية المهيمنة، لكن هذا لا يمنع خروج الرواة أحياناً من إطار الهيمنة، خاصة ذوي الرؤية النقدية منهم، بالتحديد عمر وعيسى. كما في انتقاد عيسى هنا للبعد الواحد للمقاومة الذي اعتمدته منظمة التحرير الفلسطينية، وللفساد والارتزاق، هنا يبدو أنهما يقفان خارج إجماع الهيمنة.

[158] الرواة الثلاثة في قلنديا جميعهم تعرضوا لمضايقات من سلطات الاحتلال الإسرائيلي في الفترة السابقة من حياتهم بسبب نشاطهم السياسي تتراوح بين السجن لفترات طويلة (ثماني سنوات) أو سجن إداري لفترات متقطعة لأكثر من 11 مرة أو السجن والإبعاد خارج البلاد.

[159] باستعارة المصطلح من بيير بورديو، على اعتبار أن الرواة يتميزون لاعتبارات تتعلق بمستواهم التعليمي/ الثقافي و/أو المهني/ الاقتصادي بالإضافة إلى "التاريخ النضالي" لبعضهم. ويمكن لهذه الميزات أن تمنحهم رأس مال رمزي يضعهم في مصاف النخبة كما ذكرت سابقاً. يعرف جميل هلال النخبة اجرائياً "بما تملكه من تأثير على مسار، أو حركة، أو التغيير في واحد أو أكثر من الحقول التالية: الحقل السياسي، سواء أكان هذا في مجال ممارسة السلطة أم في المعارضة السياسية (الأحزاب والحركات السياسية)، أم في مجال منظمات المجتمع المدني أم الأهلي (خارج الأحزاب أو الحركات السياسية)، أم في الحقل الاقتصادي-المالي (كبار رجال الأعمال وكبار أصحاب رؤوس الأموال والمستثمرين)، أم في الحقل الثقافي (كبار الأدباء والأكاديميين والباحثين والفنانين والصحفيين)، أم في الحقل الإعلامي أم على صعيد التأثير في الرأي العام (رؤساء تحرير الصحف، والمشرفين على الإذاعات والتلفزيونات الخاصة) .... (هلال، 2002: 10-12). وبالنسبة للرواة الأربعة هنا، فهم كما شرحت يمتلكون واحد أو أكثر من هذه الصفات فهناك الأكاديمي والكاتب، والصحفي والسياسي، والسياسي التاجر، والسياسي العامل في مؤسسة سلطة تعنى بشؤون اللاجئين تحديداً.

مفصل استراتيجي رفع الروح المعنوية لدى الشعب الفلسطيني. **إحنا فاهمين القضية .. أنا والجيل اللي معي بنعتبر إننا فاهمين التوازن اللي على الساحة، ولا مرة كنا معتقدين إنه الانتفاضة راح تحرر حيفا ويافا"**.

نلاحظ في المقطع السابق _كما في الروايات الأخرى ضمن هذا النمط_ بعض الانزياح عن "الواقعية السياسية" باتجاه لغة الشعارات الأقرب للغة الحزبية، والأمل بانتظار "القائد المخلص"، الذي قد يقلب الوضع من الهزيمة إلى النصر. ويتكرر هذا في رواية ناصر، على الرغم من أنه يبدو أكثر تشاؤماً من الوضع الفلسطيني الداخلي بسبب الاقتتال الداخلي،[160] وانزياح الخطاب السياسي من المطالبة بالدولة المستقلة إلى التركيز على الهموم الإنسانية اليومية، مثل تأمين الوقود لغزة وإزالة الحواجز:

"البداية من وعد بلفور، إنه كان في هناك وعد من قبل البريطانيين بإنشاء دولة إسرائيلية على أرض فلسطين، حسب الرواية الإسرائيلية، أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، ومن هنا بدأت المؤامرة الدولية ضد أبناء الشعب الفلسطيني، وبعدين أجت النكبة الكبرى سنة الـ 48، والنكسة الأخرى اللي هي استمرار للعدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني. وكان في هناك محاولات فلسطينية مستمرة للنهوض بواقع الشعب الفلسطيني ليقف على قدميه، لكن أنا ما بدي أكون متشائم كثير، بس لحد الآن مش قادرين نقف بالشكل المناسب على رجلينا لنحقق أهدافنا وتطلعنا باتجاه الدولة الفلسطينية .. وطبعاً حصلت الكثير من النكبات. بسبب الضعف الفلسطيني أولاً، والضعف العربي ثانياً، هناك تضامن لكنه غير كافي بالشكل المطلوب، وللأسف الشديد عززت حالة الانقسام تدهور وضياع القضية الفلسطينية، في الفترة اللي أثبتت فيها الهوية الفلسطينية عبر السنوات الماضية، من بداية انطلاق الثورة الفلسطينية لغاية الـ 74 ووقوف ياسر عرفات في الأمم المتحدة. هاي على الأقل هي الحد الأدنى اللي قامت بها الثورة الفلسطينية وياسر عرفات لتثبيت الهوية الفلسطينية. لأنه كان في محاولات عربية لطمس هذه الهوية الفلسطينية، كمان الانتفاضة الأولى عززت المقاومة وشرعية المقاومة وعززت الهوية الفلسطينية. وبعتقد إنه كان في هناك انتصارات مهمة في ذلك الوقت وتحديداً المقاومة الشعبية اللي حققت انجازات سياسية. [...] حتى ولو كنا ضعفاء، حققنا الحد الأدنى من هذا الحق الفلسطيني، اللي وصل فينا لعودة عدد لا بأس فيه ولكن غير كافي إلى الأراضي الفلسطينية من أهلنا وشعبنا الموجودين خارج الوطن! لكن للأسف في الفترة الزمنية الأخيرة، يعني قبل كانت المعنويات أعلى بكثير مما هي عليه اليوم، يعني أنا بشعر اليوم في حالة إحباط عام بسبب الظرف السياسي الداخلي، وما عشناش هذا الظرف السياسي الصعب اللي هي حالة الانقسام وهي من أصعب ما يمكن. مشان هيك أنا بتقديري إنه أسوأ مراحل القضية الفلسطينية، وإذا استمر هذا الحال، ممكن حتى إنه نضيع القضية الفلسطينية بشكل كامل! وكل النضال التاريخي اللي قُدم، وكل الشهداء وكل الأسرى، وكل المعاناة اللي حصلت **خلال الـ 40 عاماً الماضية**[161] وأكثر راح تروح سدى! وهذا هو الخوف، **[...] وكل إنسان فلسطيني بعتقد إنه يتمنى العودة إلى البيت الفلسطيني الواحد الموحد، تحت الراية الموحدة، تحت العلم الفلسطيني الأساسي للقضية الفلسطينية. بالنسبة لموضوعة حل قضية اللاجئين يعني ما في حدا عنده حل سحري لهذا الموضوع، بس أنا بعتقد إنه يجب أن يبقى الإنسان الفلسطيني متمسك بموضوع حقه الفلسطيني وحق العودة. جائز في الظرف الحالي، يكون موضوعياً صعب تحقيق هذا الحلم، وتنفيذ هذا الحق، لكن مش من حق أي إنسان فلسطيني بغض النظر من هو التنازل عن هذا الحق، لأنه هذا حق جماعي وحق فردي لأبناء الشعب الفلسطيني يبقى للزمن ولأجيال**

---

[160] في اشارة إلى حالة الانقسام الداخلي بين الضفة الغربية وقطاع غزة إثر قيام الذراع العسكري لحركة المقاومة الاسلامية (حماس) بتاريخ 14 حزيران 2007 باحكام سيطرته على مواقع السلطة الفلسطينية ومقار الأجهزة الأمنية التابعة لها في قطاع غزة، مبررة ذلك باضطرارها للقيام بذلك نظراً لفساد الأجهزة الأمنية وحالة الفوضى الأمنية المتردية في القطاع. وهذه الحالة ما تزال مستمرة حتى تاريخ اعداد هذا البحث وخلال اجراء المقابلات.

[161] لاحظ أن العداد يبدأ عند الراوي من بعد النكبة بكثير، بعشرين عاماً على الأقل، مع أن عمله الرسمي اليوم يتعلق بإدارة شؤون اللاجئين، لكن يبدو أنه بتأثير موقعه ضمن بنية السلطة المهيمنة، وبحكم عمله، فإنه يتبنى خطاب هذه السلطة التي تؤدلج لفكرة الدولة على أنها الحل والمشروع بعد أن كانت مشكلة اللجوء وحق العودة هي المسيطرة على الخطاب المُجمَع عليه بمفهوم غرامشي consensus. فيظهر هنا وكأن الراوي يتكلم بلسان طبقة السلطة السياسية المهيمنة اليوم، مع أنه في نفس الوقت لاجئ ويتكلم باسم اللاجئين بصفته الرسمية. وطبقاً لموقعه الوظيفي الوسطي، فهو يعتبر بمثابة حلقة وسطى بين جمهور اللاجئين العاديين وبين السلطة المهيمنة العليا.

الزمن، هو الذي يقرر هذا الموضوع في موضوعة حق العودة. كهيئة معنية بشؤون اللاجئين إحنا ما فينا إلا التمسك بهذا الحق، على الأقل على المستوى المنظور، بعتقد إنه لا توجد أي خطة من أي جهة كانت لمحاولة التنفيذ في هذا الموضوع، ولكن هناك مطالبات بشكل مستمر من كافة أبناء اللاجئين وكافة أبناء الشعب الفلسطيني، إن كانوا عايشين داخل الوطن أو خارجه، حق العودة هو مطلب فلسطيني كامل وإنه كل إنسان يعود إلى أرضه. أكيد هو حلم بسبب معادلة القوة وبسبب الطغيان الإسرائيلي. إحنا قبل الانتفاضة الثانية، كان هناك الكثير من المفاوضات: كامب ديفيد، وشرم الشيخ، وللأسف الشديد إحنا كنا بنحكى عن 97% من أرض الـ 67 وتبادل أراضي ورُفضت كل هذه الحلول. طيب إحنا في بدايات الانتفاضة، صار مطلبنا هو إعادة الوضع على ما كان عليه قبل الانتفاضة: يعني عودة الحواجز إلى الخلف! صار كل الهم الفلسطيني، وعشنا سنوات طويلة 7 أو 8 سنوات فقط للمطالبة بإزالة الحواجز وتخفيف حواجز وتخفيف حصار، والحياة اليومية. اليوم هيها غزة محاصرة، وكل همنا، وهم كل الشعب الفلسطيني من صغيره لكبيره وكل هم العالم باتجاه غزة مثلاً، إدخال بترول. لا يوجد اهتمام سياسي حقيقي بالقضية الفلسطينية، بنحكي اليوم عن بترول، وعن أدوية، وعن تصريح مشان نطلع مريض. مع أهمية هذا الحكي كلياته، لكن الآفاق قاعدة بتتقلص بسبب ظروف ممكن يخلقها الواقع السياسي. الضعف الفلسطيني والضعف العربي هو الذي فرض واقعه وفرض كلمة موضوعية الحل، بصراحة الحل غير موضوعي، لكن القوة هي التي فرضت هذا الحل، وليس قناعة الشعب الفلسطيني بهذا الحل، القوة والمعادلة الدولية والضعف العربي والانقسام هي التي فرضت هذا الحل، وأنا يا خوفي كمان لسه إذا استمر هذا الانقسام الفلسطيني-الفلسطيني، أن يصبح هذا الحل، حتى حل الدولة الفلسطينية في حدود الـ 67، أن يصبح حلم!"

ويرتفع منسوب الشعاراتية عند الحديث عن حق العودة وموضوع اللاجئين بشكل خاص مقابل غياب أي مشروع أو خطة للحل. مع أن الراوي هنا يعمل بصفة رسمية في هذا المجال، إلا أنه يقول جازماً "أن الموضوع صعب ولا يوجد له حل سحري، لكن يجب أن يبقى للزمن. ليبدو وكأن موضوع اللجوء وحق العودة تحول إلى شعار، وأن العمل من أجله أصبح يشبه العمل في أية وظيفة أخرى."

ومع ذلك لا تزال روايات النمط الواقعي السياسي في كل من مخيمي اليرموك وقلنديا تشترك في العديد من المحاور التي لم يتطرق لها رواة الأنماط الأخرى غالباً، ومنها انتقاد الوعي العشائري والقبلية السائدة في المجتمع الفلسطيني، وفي هذا الصدد يقول عيسى من اليرموك في روايته:

"أنا بعتقد إنه ما وجد حقل متميز للسياسة في الحياة الفلسطينية بشكل كافي حتى الآن. الحقل السياسي الفلسطيني المتميز ما وجد! دائماً كان متداخل بالحقول الأخرى، خاصة بالحقول الاجتماعية والإقليمية والجهوية، مين من الخليل؟ ومين من غزة؟ ومن عائلة مين؟ يعني مثلاً آخر جريمة عملوها إنه عائلة حلس بدنا نصفيها ليش؟ لأنها موالية لفتح. فكرة إنك أنت تيجي تصفي عائلة بأكملها لأنها موالية لفتح شيء غريب، لكن كمان شيء غريب إنه عائلة بأكملها لفتح ما في تنوع. الحدثين أعجب من بعض عائلة حلس عائلة كبيرة غزاوية بجوز بتعد بالمئات كلهم محسوبين على فتح، فهذا شيء غير طبيعي إنه عائلة بأكملها لا يوجد فيها تنوع. فإذاً هذا مو سياسة ... بالمئات راحوا لإسرائيل .... تصوري إنه واحد يروح يهرب ع إسرائيل لتحميه، في أكثر من هيك فضيحة؟ في أكثر من هيك فضيحة ممكن حياة الفلسطيني توصلها؟ فضيحة هاي شو موقفنا أمام أنفسنا؟ مو أمام الناس؟ بس الحدثين عجيبات، إنه عيله بأكملها فتح أو هكذا صورت، وأنه أنا لا أستغرب هذا، وإنه حماس بدها تصفي العيله كلها كمان هذا شيء غريب. العشائرية انعكست بتنظيم فتح بصورة أساسية، وبالتنظيمات الإسلامية قياداتها كلها غزة، إذا مو من غزة ما بيأخذ امتيازات يعني حماس والجهاد، هم قيادات غزاوية. وفتح هي غزة والخليل، بيجوز هلا الخليل ضعفت بس بالأساس غزة: أبو عمار، خليل الوزير، صلاح خلف ... إلخ كقيادة عم بحكي".

ثالثاً: الرؤية المستقبلية

ينطلق الرواة في رؤيتهم لفلسطين من واقع فلسطين اليوم، والذي يصفونه بالسيء. وعلى الرغم من اختلاف قراءاتهم للأسباب المؤدية لهذا الواقع باختلاف تجاربهم وميولهم الفكرية والحزبية، إلا أنهم يتفقون جميعاً في نظرتهم إلى المستقبل، والتي تتلخص في تحقيق مشروع الدولة في الضفة والقطاع، كونه يقدم "حلاً واقعياً" للمشاكل الفلسطينية ضمن السياقين السياسي والقانوني لنظام دولي تسود فيه الدولة القومية كصيغة شرعية للوجود المجتمعي. فبالنسبة للرواة الأربعة ضمن هذا النمط، هذا هو الحل الواقعي، إلى أن تأتي ظروف مختلفة قد تكون مؤاتية "لحل أكثر عدالة" على حد تعبير رواة هذا النمط.

ويلجأ الرواة، بحكم تجاربهم السياسية، في تبريرهم لهذا الاختيار إلى ما يشبه القراءة التحليلية للواقع السياسي الفلسطيني منطلقين من منطلقات مختلفة، فبينما يستند أشد الرواة انتقاداً للمسيرة السياسية الفلسطينية إلى القوانين الدولية والواقعية السياسية فيقول: "نحن مع القوانين الدولية قلباً وقالباً وخاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، في إشي اسمه الواقعية السياسية، واشي اسمه المراهقة العقائدية، أنا بالنسبة لي لن أخرج عن الواقعية قيد شعرة"،[162] ينظر عيسى إلى الدولة الفلسطينية من منطلق الحداثة الليبرالية على أنها: "هي التي ستمنحنا تعبير سياسي عن الشخصية الفلسطينية، تصوري إنه الناس عايشين طوائف وقبائل وعشائر تتصارع فيما بينها، يعني مثل ما هو موجود حالياً في فلسطين، يعني فتح وحماس تحولوا إلى ما يشبه قبيلتين، الدولة بتدفعنا خطوة إلى الأمام باتجاه خلق حقل سياسي فلسطيني". ويُسمَع الصوت الحزبي [فتح تحديداً] في روايتي يوسف وناصر بوضوح، ويغيب الصوت النقدي من روايتيهما إلا حينما يتعلق الأمر بالاقتتال الداخلي. وبالمجمل، يشترك الجميع في نقدهم لفصل فلسطين عن بعدها العربي؛ فينتقدون مواقف الأنظمة العربية من القضية، وفي وصفهم للحاضر الفلسطيني بالرديء بسبب حالة الانقسام بين غزة والضفة، والتي تعطل مشروع إنشاء الدولة الفلسطينية على حدود العام 1967.

المحور الأبرز الذي يُجمع عليه الرواة الواقعيين هو إيمانهم بمشروع الدولة الفلسطينية كحل مرحلي، إلى أن تتغير الظروف الدولية أو حتى مجيء "القائد المحرر"، حسب روايات قلنديا، أو نتيجة لتحلل الكيان من الداخل حسب الراوي من اليرموك:

> "إحنا الآن متشائمين على صعيد القضية، وطموحاتنا أكبر، طموح يعني إنه يرجع جناحي الوطن الصغير، يرجعوا ليرتبطوا ببعض غزة والضفة على الأقل. أنا من اللي بيؤمنوا بموضوع الدولة الفلسطينية باعتبارها مرحلة على الطريق، لأنه مهما كانت الدولة صغيرة، ومهما كانت بتعبر عن اجتزاء الحقوق، بس بعتقد إنه هي بتضمن نوع من التعبير السياسي عن الشخصية الفلسطينية. دولة خير من لا دولة، فأنا بعتقد أن الدولة رمز مهم. يعني ما هو موجود حالياً في فلسطين، هاي مو حياة سياسية هاي اللي عم بتعيشه فلسطين هاي حياة قبلية. الدولة بتدفعنا خطوة إلى الأمام باتجاه خلق حقل سياسي فلسطيني، فمن هون أنا بعتقد أن الدولة رمز مهم. وبالنهاية الاشتراطات والاتفاقات اللي قد تفرض على الدولة، مو دائمة، مو دائمة، يعني ما في وثائق مقدسة في السياسة. والإسرائيليين بيعرفوا هالشي، ولذلك عم بيعطلوه لأنه بيعرفوا إذا صار في دولة، صار في ميكانيزم ذاتي بدو يتحرك وما بيقدروا يعطلوه مهما عملوا لو سيطروا على الجو والبحر، في النهاية سيضعفون، لا يمكن للإنسان أن يظل عايش حياته حذر، ما في مجتمع، والحذر بيجيه لحظة بنام من التعب، مهما كان اليهودي حذر بالآخر بيتعب بمل من الرقابة ومن ضرب الناس

[162] من رواية عمر البرجي، 55 سنة، مخيم قلنديا.

وسجنهم وتسكير الحدود، وتسكير الحدود والجسور بيجيه وقت بمل. فقيام دولة والسلام بقوينا وبيضعفهم".

يبرر يوسف، في قلنديا، واقعيته لانعدام الخيارات الأخرى ليس في ظل التوازنات السياسية اليوم فقط وإنما على صعيد الخطاب السياسي الفلسطيني أيضاً:

"الطموح إنه نرجع لبلادنا وإنه تتحقق العودة، ولكن للأسف يعني العقل بقول لا، **إحنا نأمل ونطمح ولا زلنا نربي أولادنا على حب الوطن**، وإنهم لازم يرجعوا ولازم يضحوا والحمد لله روح التضحية موجودة عند الأجيال القادمة بمستوى عالي جداً.. بس العقل بيقول إنه إحنا مش راح نرجع، حسب ثقافتنا ودراستنا للأوضاع الموجودة اليوم، والتوازن العسكري الاستراتيجي ما بين العرب واليهود، وتمسك إسرائيل ودعمها من كل الدول العظمى من أوروبا وأمريكا، والنظرة العالمية على إنه إسرائيل واقع لا بد من بقاؤه. يعني **كيف بده العقل يقول لي إنه أنا راح أرجع لصرعة؟ وأنا مش شايف فصيل على الساحة الفلسطينية بقول بدنا صرعة. مين بقول؟ في حدا ولا أنا غلطان؟"**

نقرأ في روايات هذا النمط نوعاً من الخضوع أو الرضوخ للواقع ظاهرياً، والنفور منه ضمنياً. يتضح هذا في ما كرره الرواة عن التضارب بين ما يقوله العقل وما يريده الوجدان أو يتمناه المرء، ويعكس هذا الرضوخ، الاغتراب الذي يعانيه هذا النمط وفق توصيف هايدغر للاغتراب الذي عرضته في الفصل الثاني.[163] فالرواة هنا، حين يعجزون عن تغيير الواقع الذي يرفضونه، يختارون الرضوخ له بتبريرات مختلفة: التمسك بالقانون الدولي وبموازين القوى الموجودة اليوم وبمحددات الخطاب السياسي السائد؛ وبالمشهد "الحداثي"، الذي كما يبدو في رواية مخيم اليرموك هنا، لن يدخله الفلسطينيون إلا من باب الدولة المستقلة nation-state مهما كان شكلها ومقوماتها. ويظهر في روايات هذا النمط، التي أوردت مقتطفات مطولة منها، نوعٌ من الانسجام مع خيارهم السياسي بإعطائه صبغة المؤقتية، بعكس الآخرين،[164] على أمل أن تتبدل الظروف بتأثير عوامل خارجية أو ذاتية قد تأتي في المستقبل. تشبه هذه الحالة من الاغتراب تلك التي شرحها بركات في كتابه حول الاغتراب في الثقافة العربية: "إن رضوخ الإنسان لما يرفضه ضمنياً، يشكل ما يُعرف في علم النفس الاجتماعي بالتنافر الإدراكي *cognitive dissonance* الذي يشير إلى أن الإنسان نادراً ما يتمكن من الجمع في ذهنه بين فكرتين أو إحساسين متناقضين حول نفسه (أو واقعه)[165] من دون أن ينشأ لديه دافع قوي لحل هذا التناقض بإقامة توازن من نوع ما. وكثيراً ما يكون هذا التصرف الخضوعي هو أيضاً عملية تسويغية لا واعية لصعوبة معايشة مثل هذا التنافر، بهذا لا يشكل الرضوخ تجاوزاً للاغتراب، بل تثبيتاً للواقع" (بركات، 2006: 83).

---

[163] "يكون وجود الإنسان أصيلاً بقدر ما يختار ويصنع قراراته بنفسه وبمعزل عن التقاليد المتبعة" (Heidegger, 1962, as quoted in Barakat, 2006: 46).

[164] أنظر إلى روايات "المأسور بالواقع المشهدي" و "المحبط بين الرفض للواقع والتكيف معه" حيث يصل الراوي إلى درجة عالية من التمزق والتشتت في قراءته للواقع، فيرتفع منسوب التوتر، وبالتالي الاغتراب لديه، ليعلن عن عجزه صراحةً، ويعبر عنه إما بالتكيف والقبول السلبي لكل ما يفرضه الواقع بدون أن يحتاج لتبريره، كرواة النمط الواقعي السياسي، أو بالصمت والانسحاب الكامل إلى مواجهة هموم الحياة اليومية.

[165] إضافة من الباحثة.

وهناك قراءة أخرى ممكنة هنا، كما أشرت سابقاً خلال تعليقي على بعض المقتطفات من الروايات، تبدو روايات النمط الواقعي السياسي جزءاً من الرواية السياسية المهيمنة اليوم *hegemonic Grand Narrative*. وقد يكون هذا بتأثير موقع الرواة في البنية المسيطرة بحكم طبيعة عملهم في المجال العام،[166] حيث تبدو رواياتهم أحياناً وكأنها خطاب سياسي يؤدلج لفكرة الدولة الفلسطينية المستقلة على أساس أنها الحل الوحيد الممكن والمناسب اليوم للجميع. وهذا نموذج لتحول الخطاب المسيطر إلى حالة من الهيمنة، سواء كان بتأثير أيديولوجي حزبي ومستند على ماضٍ نضالي، أو بتأثير أيديولوجيا سياسية وفكرية ونضالية، فيموضع الرواة أنفسهم في مصاف النخبة المثقفة التي لها الحق في ممارسة نوع من الهيمنة، على الأقل من خلال تقديم رؤيتهم لمشروع الحل على أنه المشروع الوحيد الممكن، والذي يجب التوصل إلى إجماع *consensus* بمفهوم غرامشي لتنفيذه، وإلا ضاع كل شيء، بحد تعبير ناصر:

> "أكثر أمنية وأكثر حاجة لكل إنسان فلسطيني، بغض النظر عن انتمائه السياسي، هو العودة إلى الواقع الفلسطيني، والقضية الفلسطينية والنضال الفلسطيني بشكله المتكامل بكل أطيافه. وأعتقد أن الحل الأمثل هو دولتين لشعبين: دولة فلسطينية كاملة السيادة غير منقوصة مع القدس عاصمة للدولة الفلسطينية، لكن الآفاق قاعدة بتتقلص بسبب ظروف ممكن يخلقها الواقع السياسي. صار همنا في السنتين الماضيات كيف نقعد مع بعض، كيف حماس وفتح يقعدوا مع بعض، قعدوا ولا ما قعدوا، يعني تخيلي كل الهم الفلسطيني يقعد فلان وفلان على معاناة هذا الشعب، فهاي التخوفات كلياتها بتخلي الإنسان يتخوف على القضية بكاملها [...] وأنا يا خوفي كمان لسه إذا استمر هذا الانقسام الفلسطيني-الفلسطيني، أن يصبح هذا الحل، حتى حل الدولة الفلسطينية في حدود الـ 67، أن يصبح حلماً!".

يتفق أصحاب هذا النمط في التعبير عن هويتهم الفلسطينية من خلال نقل المشاعر الوجدانية إلى أولادهم، أو المشاركة في العمل الكتابي السياسي أو التحليلي. يقول يوسف:

> "إجمالا أولادنا هم اللي بحملوا الرسالة في الفعاليات الشعبية .. في الزمنات كنت رائد في هذا المجال، حالياً أولادنا أنشط لكن في بعض القضايا كالمؤتمرات والاجتماعات يتم استدعاءنا وبنشارك فيها وبنقوم بدورنا".

وكذلك يؤكد عيسى من مخيم اليرموك:

> "أول تعبير عن هويتي الفلسطينية إني أنا بربي أولادي فلسطينياً. ثاني تعبير إني دائماً من حيث الندوات والمحاضرات فلسطين حاضرة حتى لو ما كان موضوع المحاضرة فلسطين، ففلسطين حاضرة بشكل أو بآخر في المحاضرة، وأيضاً بالكتابة، يعني من خلال المقالات والكتابات بيأخذوا مقالاتي وبينشروها على الانترنت، وأنا كمان عم بحضر كتاب مهم عن المخيم كمفهوم *concept* هو كتاب فلسفي. ما هو المخيم؟ بتأمل يطلع السنة الجاي".

الرواية بين المخيمين

إلى جانب هذه التشابهات في روايات النموذج الواقعي السياسي، يوجد هناك بعض الاختلاف بالنسبة لمتغير المكان، أي مكان وجود الراوي، فهو يؤثر بشكل مختلف على نظرة الراوي للمخيم وللعيش فيه. كما أن أثر اختلاف المكان واضح على الفروقات التي تظهر في مضامين الروايات، فبينما يركز

---

[166] التفاصيل في القسم الذي يلخص صفات الرواة.

الراوي في مخيم اليرموك على قصة النكبة، ومعاناة التهجير، وانتقاد القيادات الفلسطينية، تبرز في رواية قلنديا أحداث وشخوص أكثر هي: العائدون، "الفلسطينيون من أراضي الـ 48" ، "هزيمة الـ 67" كما يسميها الراوي. كما أن روايات قلنديا عموماً تزخر بتفاصيل أكثر من تلك التي يوردها الراوي في مخيم اليرموك للأحداث المتلاحقة على فلسطين بعد النكبة، ولتفاصيل الحياة المعقدة لفلسطينيي الداخل تحت الاحتلال الاسرائيلي: العمل لديه، والمقاومة، وروابط القرى، والانتفاضة الشعبية ودور الطلبة والنساء فيها، واتفاق أوسلو.[167]

إن الاختلاف الأوضح بين روايات الواقعيين في المخيمين يبرز حين يدور الحديث عن المخيم ورأيهم بطبيعة الحياة فيه. هناك فرقاً واضحاً في النظرة إلى المخيم والرضى عن الحياة فيه بين اللاجئين الذين قابلتهم في مخيم اليرموك وأولئك في مخيم قلنديا، ليس فقط في رواية النمط الواقعي السياسي، إنما يظهر هذا الفرق –وإن بشكل مختلف– في روايات الأنماط الأخرى. وبشكل عام، يصف أغلب اللاجئين في سوريا، خاصة الذين يعملون في عمل مستقر ووضعهم الاقتصادي والاجتماعي والتعليمي جيد، حياتهم في سوريا بالمريحة، حتى أنهم يعبرون عن شعورهم بالتفوق والتميز عن المواطن السوري.

يصف عيسى، الأستاذ الجامعي في مخيم اليرموك، استقبال سوريا للاجئين، واعتزازه بالدور الفاعل للفلسطيني في المجتمع السوري (التأثير على تعليم اللغة الثانية في المدارس) قائلاً:

> "الشي المهم إنه منذ وصلنا الأرض السورية عوملنا معاملة السوري، يعني الفلسطيني الفقير عومل معاملة السوري الفقير، والفلسطيني الغني عومل معاملة السوري الغني، والفلسطيني المتعلم عومل معاملة السوري المتعلم. لذلك الفلسطينيين هم اللي حولوا النظام التعليمي في سوريا من اللغة الفرنسية للغة الانجليزية، لأنه المدرسين الفلسطينيين كانوا يجيدون الانجليزية، وسوريا متحررة من الاستعمار الفرنسي، وفي رغبة برفض كل ما هو فرنسي، فكان من مظاهر هذا الرفض تحويل التعليم من اللغة الفرنسية إلى اللغة الانجليزية ...".

وفي وصفه للحياة في المخيم، يظهر رضاه عن "المخيم" كبيئة طبيعية للحياة، واستغرابه للطريقة التي ينظر بها إلى المخيمات داخل فلسطين:

> "المخيم كبيئة للوعي أرقى من القرية الفلسطينية، وهو بيعكس خبرة كبيرة، خبرة اللجوء والتشرد. أنا راضي بالمخيم، وممتاز وسعيد، وبيئة طبيعية لي هون لأنه نحنا بسورية الوضع مختلف، بس العجيب إنه بفلسطين في مين بيحتقروا أهل المخيم، بغزة بقولوا مواطن ولاجئ. والمخيم، في الضفة، أنا بعرف إنه موضع للاحتقار، سكان المدن الفلسطينية بيحتقروا المخيمات، وبيجوز بيحتقروا الريف كمان، بمعنى ما الفلاح، لذلك يمكن الانتفاضة هي انتفاضة المخيمات في المدن".

أما بالنسبة للرواة في قلنديا، فتتراوح نظرتهم للمخيم بين اعتباره كرمز، حسب تعبير يوسف:

> "المخيمات بحد ذاتها هي عنوان القضية، ومنظمة التحرير بكافة فصائلها حولت قضيتنا من قضية لاجئين إلى قضية سياسية، وقضية شعب مهجر وصاحب حق تاريخي في فلسطين"

أو مكان للذاكرة[168] وحتى كتراث، كما صرح ناصر قائلاً:

---

[167] كما يظهر في رواية عمر في مخيم قلنديا الواردة في نهاية تحليل هذا النمط.

[168] بمفهوم بيير نورا لأماكن الذاكرة. (Nora, 1989: 8)

"أنا برأيي مهم تظل المخيمات موجودة للمحافظة عليها كتراث فلسطيني، من معاناة شعب فلسطيني عاش أكثر من ستين سنة حياة اللجوء لغاية الآن، فمن المهم إنه هذا يبقى جزء من التاريخ الفلسطيني، إنه نحافظ على المخيمات، حتى لو وجدنا حل جذري لوضع المخيمات. طبيعي إنه بنهاية المطاف بتوقع أن يكون حل للحد الأدنى من مشاكل السكان ووضعهم، والازدحام السكاني داخل المخيمات وأتمنى طبعاً العودة".

نموذج من روايات النمط الواقعي السياسي

تعكس المقاطع السابقة جاذباً من طرح الراوي الواقعي السياسي وتبريراته لأسباب اختياره هذه الصورة لفلسطين، والتي تختزل فلسطين جغرافياً إلى دولة في الضفة والقطاع، لتبقى "البلاد" الضائعة أو كما يقول عمر "المُضيّعَة" رمزاً وجدانياً، على أمل أن يأتي التغيير في المستقبل. أورد فيما يلي الجزء الأكبر من رواية عمر البرجي في قلنديا كمثال على روايات هذا النمط.[169]

قصة البلاد

أنا من البرج ما بين مدينتي اللد والرملة، قرية صغيرة، معظم قرى فلسطين كانت صغيرة، إلا ما ندر! فيها أكثر من حمولة، لإنه هيك مجتمعنا هو أصلاً مجتمع حمايل. تعدادهم 425 أو أكثر قليلا أو أقل قليلا، أراضيها ممتدة قريبا تصل إلى قرية بمحاذاتها اسمها بير إماعين وقرية أخرى برفيلية ومن ثم دير أيوب ومروراً بمنطقة اسمها البرية ومشتهرة بزراعة التين والعنب والصبر، البرج كانت كبقية القرى في فلسطين تعتمد على الزراعة والمحصول السنوي، طابع فلاحي صرف. ما في أي صناعات، أصلاً فلسطين نفسها كانت تفتقر إلى التصنيع في الـ48. طابعها الإنتاجي المتعلق بالزراعة، غسان تويني عفكرة بناقش هاي القضية في جوهر القضية الفلسطينية. من ناحية التعليم، فلسطين بشكل عام كانت تعاني من تَركة عثمانية. تركة الفقر والمرض والجوع. فعلى هذا الاعتبار كان معظم الفلسطينيين قبل النكبة أميِّن. ما ندر أن تجد إنسان متعلّم! تلاقي يُشار لهم باليد فلان وفلان ولكن البقية أميين نتيجة الفقر الاقتصادي والفقر الاجتماعي. فما كان في يعني نخبة متعلمين. ما كان في على الإطلاق. ربما قارئين. يعني قرأوا سيرة وحصلّوا، كان نظام الكتاتيب وتحفيظ القرآن واللي يختم القرآن يزفوه عالجمل وإلى آخره. فما كان يعني في نشاط تربوي وتعليمي إلى حد إنه يكون في متعلمين.

قصة التهجير

لما حدثت النكبة واضطر الناس إنهم يتهجروا من البلد كانت خربثا بني حارث أقرب القرى المجاورة للبرج في حدود الـ 67، اللي هي الجزء الباقي من فلسطين، صفّا، بيت عور، عمواس، يالو، بيت نوبا. قبل ما يخذوهن الثلاث قرى هذول. وإحنا طلعنا من البرج باتجاه صفا وبيت نوبا ودير أيوب و و و إلى آخره. انتشرنا في أكثر من قرية. إحنا كان نصيبنا والدي الله يرحمه كان نصيبه إنه طلع من البرج مباشرةً لقرية اسمها خربثا بني حارث. أنا ولدت في خربثا بني حارث. عشنا فيها تقريبا خمس سنوات وتركنا خربثا بني حارث بناءً على دعوة من أهالي قرى بيرإماعين وبرفيليا لأنهم هم المجاورين لقريتنا وبتربطنا فيهم علاقات صداقة ومعرفة وإلى آخره. كان معظم أهالي بير إماعين وبرفيليا وين متواجدين؟ في قلنديا. والدليل على صحة هانا منطقة بنسميها حارة المياعنة لأهل بيرإماعين. يعني بلد بقدها وقديدها موجودة هان. بير إماعين كلهم معظمهم، وبرفيليا نفس الشي. هذا الحديث قبل 50 سنة لأنه أنا الآن 55 يعني كنت خمس سنين لما دخلت قلنديا إذاً الآن 50 سنة إلي في مخيم قلنديا هذا السبب المباشر للسكن، و في المحصلة إنه مجرد تركنا أرضنا في البرج فما عاد يهمنا وين نسكن يعني. في قلنديا أو في أية قرية أو أية مدينة! ما المهجَّر مهجَّر؟! ما عادلك شي؟! إذاً لا تملك إلا هالبيت إذا استطعت إنك تستأجره أو تبينه فقط لا غير فمش مهم وين تسكن. المهم كيف تعيش. فسكنّا بالمخيم.

قصص الهزائم والانتصارات

بداية "الصراع"

[169] أورد هنا معظم الرواية كما رواها الراوي في مقابلتي معه، وسأشير بـ [...] حيث قمت بحذف بعض التفاصيل غير المهمة أو المكررة.

أنا بعتبر الحكاية الفلسطينية بدت من بداية الصراع اليهودي الفلسطيني في فلسطين من أوائل الـ 27. مجرد إنه بدأت حالات الخلاف والاقتتال ما بين الفلسطينيين وما بين اليهود. على الرغم إنهم كانوا فلسطينيين يعني يعيشون في فلسطين. اليهود كانوا يعيشون بفلسطين قديماً. ولكن ما كانت عندهم نزعة عنصرية. لما بدأت تتجذر النزعة الصهيونية، بدأ الخلاف ما بين الفلسطينيين: إحنا الفلسطينيين واليهود اللي كانوا عايشين في فلسطين، وبالتالي كانت الشرارة الأولى لإدخال الإمبريالية على المنطقة لحماية اليهود كتبرير وخلق واقع فلسطيني جديد. تجلّى الواقع الفلسطيني الجديد في إصدار قرار التقسيم المجحف بحقنا. كان الرفض من قبل القوى في حينها وفي مقدمتها الحزب الشيوعي الفلسطيني اللي رفض قرار التقسيم ولحقته عصبة التحرر الوطني [...] وفي فترة معينة تبخرت فيها الأحلام الفلسطينية قِبِلوا بقرار التقسيم تحت ظرف استفحال الاستيطان. لما حاولوا ايقاف المد الإستيطاني، وفشلوا، إذاً بدأت فلسطين في التآكل. [...] واليوم في تجليّات في أوجه أخرى. بيناته جذر صراع دموي وأكثر دموية ولكن لا يمكن أن تكون أقل. إلا ما وصلنا عليه الآن.

النكسة

أنا عاصرت النكسة بحذافيرها لأنه كان عمري 14 سنة في ال 67. يعني نحكي عن النكسة، هو أنا بديش أحكي إنها تسجلت أو ما تسجلت وليش ما تسجلت أوهيك لأنه القضية هاي بطول بحثها ولكن نحكي على النكسة. هي في الحقيقة أنا ما بسميهاش نكسة أنا بسميها هزيمة. لأنه المشروع العربي أثبت فشله وبالتالي هُزِم أمام المشروع الصهيوني. كل المناداة بإنه سنستعيد فلسطين ونستعيد الحق العربي كل هذا تذروه الرياح لأنها كانت مجرد ضوضاء سياسية من قِبَل أنظمة عربية غير حريصة على المصلحة الوطنية. صدقاً. [...] أنا كنت مدرك وقتها على الرغم من إني كنت صغير، وفهمي السياسي وقتها لا يتجاوز الـ ألف باء، ولكن كانت واضحة _إنه بفهمنا الطفولي البسيط_ إنه نقول جيوش مصر لحالها في الـ 67 وكانت تقارب الـ 50 مليون. 50 مليون وإسرائيل كانت 3 ملايين؛ يعني هيك نأخذها بطابع طفولي 50 مليون لـ 3 ملايين ما يقدرولهمش؟؟ إذاً هذا بوعينا البسيط فكانت القضية مش عاوزة تفكير يعني وتحليل وخاصة إنه مصر مش لحالها دخلت الحرب! الدول العربية دخلت الحرب واللي ما دخلش الحرب مباشرةً بقوة عسكرية كان باستطاعته إنه يدعم مالياً. إذاً هزيمة! كان في مشروعين مشروع صهيوني ومشروع عربي. كان يتخذ من القضية الفلسطينية قضيته. وهُزِمَ واحتُلَت بقية فلسطين ومُضاف إلها أراضي عربية، إذاً أي نكسة؟ هزيمة نكراء، النكسة قد تكون كبوة بعدها ينهض الجواد وينطلق من جديد ولكن إحنا لم ننهض! قد يتبادر إلى ذهن بعض الأشخاص إنه يقولوا نهض الجواد في حرب الـ 73 لأ غلط. في حرب الـ 73 كنت في سجن رام الله وحكيت عليها على النحو التالي إنه هل هي حرب تحريرية أم حرب تحريكية؟ قلت لهم: لأ حرب تحريكية. لكسر الجمود السياسي على الجبهة المصرية والجبهة العربية. للوصول إلى نتيجة. [...][170] ما هو مش مهم النية، إذا أنا بدي أحاسب عالنوايا مصيبة هاي يعني! أنا بحاسب على النتائج الملموسة لأنه النوايا في النهاية لا يدلي بها إلا صاحبها. النوايا صح، ولكن ترجمة هذي النية لوين استمرت؟ استمرت إلى إنه كسروا الجمود السياسي ودخلوا على الخيمة 101 وتفاوضوا. واستعادوا جزء من سيناء أو سيناء. و 10 سنوات من المفاوضات ومحكمة دولية لبين ما استعادوا طابا! وتفرغت الساحة العربية من أقوى قوة عسكرية عربية اللي هي مصر حتى تستفرد إسرائيل بالبقية وكان لها ذلك. لأنها الآن حطت سوريا على مصاف دول الإرهاب ولبنان دخلت معها في حرب سابعة والفلسطينيين تصادرت كل أراضيهم وممتلكاتهم وبالتالي إحنا يصعب على الإنسان فينا إنه يوصل لأخوه في المدينة، في نفس المدينة، تقطعت أوصالنا بالمرة [...] في الحقيقة إنه بعد استكمال احتلال بقية فلسطين وأقصد في الـ 67 في الحقيقة لم يكن في وعي جماهيري شعبي. هذا الحديث بدور عن قبل 41 سنة من الـ 67 للـ 2008: 41 سنة ما كان في وعي شمولي عند الفلسطينيين والدليل إنه كل الفلسطينيين وحتى لو أقول مش الكل. معظم يعني بين قوسين "جل" اللي هو معظم. المعظم انخرطوا في سوق العمل الإسرائيلي على اعتبار إنه سوق مفتوح فالكل أصبح يعمل في مرافق العمل الإسرائيلية وفي مقدمتها البناء. البناء كان إستيطان ولكن ما في إدراك من الفلسطينيين بإنه هذا إستيطان على حساب الأراضي الفلسطينية. مجرد عمل، ومجرد رزق. **إذاً فُتحت الأبواب على مصاريعها. أبواب العمل أمام الفلسطينيين وانخرطوا في سوق العمل دون الالتفات إلى ما هو الهدف من وراء هذا البناء. أنا واحد من اللي اشتغلوا. أنا من اللي اشتغلوا في النبي يعقوب هان ما كنت أدرك إنه هذا مُقام على أرضي والهدف منها ابتلاع جزء من أرضي وإضافته للـ 48 وبالتالي على حساب المواطن الفلسطيني.**

نشأة منظمة التحرير و"نمو الوعي الجماهيري"

[...] ما كنا نتعامل مع إسرائيل كسلطة احتلال لأنه ما كان في وعي وطني على الرغم من إنه كان الوعي الوطني في حينها عند منظمة التحرير اللي كانت تعيش في الخارج. وما تعمم هذا الوعي، لأنه لأجل تعميم

[170] هنا حذفت سؤالي للراوي: (س: ما هو كان في نية تحرير بس النتيجة طلعت غير؟) ارتأيت حذف الأسئلة والمداخلات من الرواية كي لا أقطع تسلسل الرواية وحيث كان المهم الإشارة إلى السؤال قمت بذلك.

الوعي السياسي والوطني عند بقية أبناء الشعب الفلسطيني أصبح لا بد من إنشاء قواعد إرتكازية في أراضي الـ67 تنطلق منظمة التحرير من الأردن ومن سوريا والدخول إلى أراضي الـ67 لنشر الوعي ونقل فكرة المقاومة من المهجر إلى داخل الـ67 وأصبح في قاعدة ارتكازية وتدخل دوريات مسلحة بأسلحة وإلى آخره من الدول العربية سوريا والأردن لداخل فلسطين لنشرها. في حينها أصبح في نقلة: نقلة فكرية [...] هذا تقريبا في ال 68-69. يعني بعد مرور سنتين تقريباً على الاحتلال حتى سنتين وأكثر شوي. كانت شرارات ولكن فيما بعد تعمقت. وأصبح في قواعد. كانوا يدخلوا كمقاتلين وإلهم قواعد إرتكازية، يعني جهات يركنوا إلها وبالتالي يمارسوا عملهم من داخل أراضي الـ67 وخاصة إنه ما كان في عمليات إحصاء للسكان ولا كان في تصاريح ولا كان في هوية ولا إشي. كان في إمكانية لعبور النهر وبالتالي كان الوصول للبلاد سهل. هالقيت ثقل الوعي الوطني والوعي السياسي وتفسير طبيعة الاحتلال كان رهين بمنظمة التحرير. حاولت منظمة التحرير جاهدة واستطاعت إنها توصل في مرحلة لاحقة إلى نشر وعي نقابي وسياسي وثقافي ونظامي. أُنشأت نقابات أنشأت لجان المرأة أنشأت لجان عمل صحي وإلى آخره. إذاً صار في التفاف حول الفكرة الوطنية. وكان كله سري وبطابع اجتماعي. [...] وبمجرد إنه شرعت منظمة التحرير بتأسيس قواعد إرتكازية داخل أراضي الـ67 للإعداد لمرحلة من الوعي السياسي الوطني الجماهيري، كان لا بد من العمل تحت مسميات اجتماعية وسياسية ولكن بقالب اجتماعي، سرّي. يعني اتحاد الطلبة مثلاً، كان يجوز تأسيس اتحاد الطلبة[171]، وفليكن، ليأخذ ترخيص من وزارة التربية والتعليم تحت الهيمنة الاحتلالية في حينها و لكن يدور وراء الأكمة ما يدور. يعني في السر معروف: شعبية، وفتح، والديمقراطية إلى آخره. ولكن العمل جماهيري إذاً لا يتعارض وكان على هذا الاعتبار في الوقت اللي كان يستطيع الاحتلال إنه يكتشف خلية ما أو شخص ما تابع لمجال عمل جماهيري ويعتقلوه ويحاولوا يغلقوا المؤسسة هاي. لأنه بعرف إنها بتشكل خطر. هو الخطر وين بكون؟ في بث الوعي الوطني. تجلّى الوعي الوطني عندما حاولت إسرائيل إجراء انتخابات للبلديات في داخل أراضي ال 67 وعينت بعض الرموز الاحتلالية من قبلها تحت مسمى وطني. إذاً دخلت في منافسة صريحة مع القوى الوطنية اللي بتعمل بشكل سري. استطاعت القوى الوطنية إنها تتسلل بجدارة للمراكز. [...] كان في زُلم للاحتلال قبل روابط القرى، الروابط هاي دورها شيء تاني. استطاعت منظمة التحرير تتسلل بجدارة وبذكاء وبحنكة سياسية لبعض المواقع الجماهيرية. مثل البلديات وتهيمن عليها بطريقة سرية ولكن بدعم من وين؟ من منظمة التحرير. استطاعت أن تُفشِل المشروع الصهيوني في حينها بتعيين زُلم الاحتلال لتسيير شؤون المواطن الفلسطيني. إذاً أصبح المواطن الفلسطيني في أراضي الـ67 على دراية ضمنية بأنه من يدير المشروع في داخل فلسطين هي منظمة التحرير. وحينها أسقِطَت كل الرموز، وفي بعضها تم تصفيتها. هلأ قضية الوعي الجماهيري أصبحت عقبة أمام التمدد الإسرائيلي. **كل هاي التراكمات من خلال الممارسات الأولية للاحتلال لما بدا يكشر عن أنيابه. لأنه عرف إنه الشعب الفلسطيني عرف. يعني علم الاحتلال بأن الفلسطينيين قد علموا ما معنى الاحتلال. إذاً لا بد من التصدي، وأخذ التصدي شكل جديد كان الهدف منه شطب منظمة التحرير عن الخارطة السياسية الغير معلنة داخل فلسطين. من خلال تشكيل جسم سياسي يلبي طموحات المواطنين الفلسطينيين ومرتبط مع الإدارة الاحتلالية اسمه روابط القرى.** كان في هدفين للاحتلال منه أولاً، تلبية احتياجات المواطن من خلال ارتباط الدولة مع الاحتلال وشطب منظمة التحرير. والقضاء على رموزها وصلاحياتها، سواء كانت علنية أو سرية. [...] تجلّى الوعي الجماهيري اللي استطاعت منظمة التحرير بثه في داخل فلسطين بمقاطعة روابط القرى من قبل الجماهير إذاً لم تعمّر روابط القرى وأُسقطت وذهبت وكأنها لم تكن! وكان هذا نتاجاً للوعي الوطني الجماهيري. الوعي الوطني الجماهيري تراكمات كمية أدت إلى تغير كيفي. التغير الكيفي شو كان؟ الدخول في انتفاضة الـ87 لإحداث تغيير جذري يتجسد في طرد الاحتلال. [...] كان في هدف عند جميع الفصائل وقتها هو طرد الاحتلال من أراضي الـ67 وإقامة الدولة الفلسطينية. يعني مش لازم ننسى إنه كانوا النسوان، النساء، من عنا كانوا يحملن البصل على رؤوسهن ويلحقوا الشباب اللي بتصدوا للاحتلال، يعني حتى المرأة الفلسطينية البسيطة ما بحكي عن المتعلمة و الواعية أو اللي بتمارس عمل سياسي. الإنسانة البيتوتية أو ربة البيت شاركت في الانتفاضة. انتفاضة شاملة كان الهدف منها كنس الاحتلال وإقامة دولة فلسطين. هذا يدل على تعمق وتجذر الوعي الوطني الفلسطيني. وكانت النتائج إلى دخول أوسلو. وهذا إحنا مش بصدده [...] اللي صار لنا كان غُبُن! يعني لما انتهت الانتفاضة بأوامر أو بقرارات من قيادة منظمة التحرير، كان الهدف تتويج النضال الوطني الفلسطيني بسلطة وطنية وهذا كان مشروع من كافة القوى. يعني مجرد إنه أنهينا صراعنا مع الاحتلال أو كذسناه عن فلسطين إذاً لا بد من إقامة دولة فلسطينية. هذا حلم كل فلسطيني سواء داخل الأطر أو خارجها. **يعني تتويج النضال الوطني بإقامة دولة فلسطينية**. هذا حلمنا! أما أن تصبح كذا وكذا هذا في المستقبل. ولكن كحلم مرحلي هو كنس الاحتلال وإقامة دولة فلسطينية. مناداة منظمة التحرير في الخارج وقيادتها بأن إقامة الدولة الفلسطينية قاب قوسين أو أدنى من خلال مفاوضات

[171] في هذه اللحظة، لحظة انتقال نشاط منظمة التحرير إلى الداخل، يرى عمر البرجي أن الوعي الجماهيري بدأ ينمو لتنمو في مواجهته سياسات الاحتلال القمعية.

فلسطينية تجريها القيادة الفلسطينية مع الإسرائيليين بوساطة دولية في الخارج. يقود إلى إقامة دولة فلسطينية تبدأ بأريحا وغزة هذا غبن للشارع الفلسطيني. الشارع الفلسطيني ما كان في عنده انتكاسة في الوعي. ولا كان في عنده غياب في الوعي يعني كان عنده طموح عالي جدا وإيمان قاطع بالقيادة الوطنية. وأصلا اتفاقات أوسلو لم تعمم ولم تُقرَأ على الشارع ولم يُستفتى حولها أحد. حتى الآن لا يُستفتَى الشعب الفلسطيني في أية قضية مفصلية. كل المفاوضات الدائرة الآن ولا أي إنسان فلسطيني بعرف شو بدور بالخفاء! إطلاقاً، اللي بيرشح في وسائل الإعلام بيعرفوه الناس. وقد يكون كاذب وقد يكون صادق. ولكن ما يجري في الخفاء لا يدريه أحد. فعلى هذا الاعتبار ما كان في قراءة سواء مباشرة أو ضمنية لما جرى في اتفاقات أوسلو، ولكن كان في إعلان صريح من قبل القيادة بإنه الدولة الفلسطينية قائمة وفي بداية الطريق اللي هو تسلُّم منطقتين أريحا وغزة. إذاً الشعب الفلسطيني رحب في هاي الفكرة لإيمانه في القيادة الفلسطينية. وبالتالي لا بد من تتويج النظام الوطني الفلسطيني بإقامة سلطة وطنية. فعلى الرحب والسعة. **ولكنه دخل في خيبة الأمل نتيجة الغبن بعد ما أدرك إنه كان هذا فخ اسمه غزة وأريحا وضع الفلسطينيين جميعهم تحت الاختبار الاحتلالي إذا إجتازوا هذا الاختبار بنجاح حسب ما بريده الاحتلال بضخ عليهم شرارات أخرى وإذا لم ينجح يتم سحب هذا الامتياز**. هذا الخطأ التاريخي اللي وقعت فيه قيادة منظمة التحرير. وكانت النتيجة إنه دافعنا بطريقتنا إحنا الفلسطينيين. إذاً لا بد من إحياء عملية التغيير الجماهيري من خلال الضغط على المفاوض الفلسطيني لإنه في ثورات فلسطينية منذ بداية الأزل. وفي مقدمتها طرد الاحتلال لحدود ال 67.

مرحلة التراجع ـ انتقاد الحمائلية والمزاودة

هذا جميعه أدى إلى انشقاق في الصف الفلسطيني. اللي قاد الانشقاق اللي بيرفع راية القتال حتى آخر نفس وأقصد فيها الثورات الإسلامية مثل ثورة حماس، سواء هم قطعوا شوط أنا مش هذا اللي بيعنيني في القضية. اللي بيعنيني إنه أصبح الصف الفلسطيني الآن منشق على ذاته، وبالتالي أصبحت كل قبيلة عنا أمة! وهذه مصيبة، إنه كل قبيلة تصبح أمة! هذه مصيبة. الآن أصبح في نظام في غزة ونظام في الضفة الغربية، الفلسطينيون جزآن هناك من يدين بالولاء لحماس ومنهم من يدين بالولاء للسلطة إذاً أي المشروعين أفضل لا أدري؟! (يضحك) ولكن مش راح نحاكم لا الفصيل هاذ ولا الفصيل هاذ. لأنه مش مطلوب منا نحاكم. **ولكن أنا بعرف بالضبط وين هي المصلحة الوطنية الفلسطينية.**[172] **المصلحة الوطنية الفلسطينية تكمن في إعادة اللُحمة للصف الفلسطيني. التنازل عن الشعارات الرنانة الصعبة التحقيق، والامتثال للواقع بما لا يتنافى مع الثوابت الفلسطينية حتى لو أدى إلى الانتحار الجماعي.** يعني مثلا أنا هذا البيت إلي، بيتي، يعني لا يمكن أطلع منه إلا وأنا ميت يعني مثلا واحد ييجي يستعمل البيت هذا ويوخذه مني. بقدر يوخذوه بس بعد إيش بعد ما أكون أنا ميت! ولكن ما دام حي مستحيل! هالقيت فش واحد عنده وعي وبقول هييبه ماتوا والبيت بتغيّر لا بتغيّرش بيتي ورح أموت في الدفاع عنه. هذا ثابت من الثوابت. إذاً أي تضحية من أجل هذا الثابت لا تُعتبر مغامرة بالعكس تُعتبر تلبية للنداء الأيدولوجي لأنه إحنا بنقول إحنا مُدلّجين أصحاب مبدأ. مبدأنا المحافظة على حدود فلسطين بأراضي ال 67. بدنا إحنا نقيم عليها يعني بكفيش إحنا تنازلنا عن حدود ال 48؟! وشوفي أنا لما بقول بيتي ومن حقي ويجب إني أعيش فيه وأنا بطلعش منه إلا جثة. هذا معناه إنه عن نفسي بضحي أنا صاحب البيت. مش أضحي فيكي أنت [...] يعني إذا أنا بدي كقائد أطالب باستعادة الحق الوطني الفلسطيني ولن أتنازل عنه قيد شعرة يجب أن أكون أوّل المضحين لاستعادة الحق الوطني الفلسطيني مش من ينادي بالتضحية بغيره لاستعادة الحق الفلسطيني. هذه هي مأساتنا إحنا لأنه أصلا السياسة بتقول القائد من يقول اتبعوني وليس من يقول اذهبوا سأتبعكم. إذا هم قيادتنا وبعتبروا حالهم إنه هم مطلوب منهم تحرير البلد وإحنا في خلفهم. يتفضلوا يقودوا الصف وإحنا وراهم. مش هم يبعتونا نموت وهم في الخلف. هذا هو فإذا أي إنسان تضحوي بده يستعيد الثوابت فليبدأ بذاته، ومن يستطيع استعادة الحق الفلسطيني في الـ 48 واللهِ لننحني إجلالاً لحذائه، تخيلي إجلالاً لحذائه.

الرؤية المستقبلية

أنا برسم خريطة فلسطين التاريخية كاملةً والجزء المحتل من ال 48 بكتب عليه إسرائيل، والجزء هذا دولة فلسطين، حتى لا أنسى إنه إسرائيل هذه أقيمت على أرضي. هيك أنا، لأنه بصراحة، بصراحة، أنا بعيد عن العواطف... وعمري ما كنت عاطفي إلا بجوز تجاه زوجتي وأولادي. [...] إحنا مش بنزايد بنحكي حقائق، أنا بعيد عن العواطف ولكن إرتباطي وجداني صادق. واللهِ لو إنه آخر يوم في عمري لا أنسى إنه في إلي حق. ولكن في فرق بين ما أنسى إنه إلي حق عن ما إني أحاول أنسّي ذاتي بإنه في إلي حق! إحنا الآن بنتعرض لمرحلة تنسية الذات بإنه إلنا حق. في كثير من الناس بقولولك إحنا حقنا راح! لأ حقي أنا قائم وموجود ولن أنساه. أما ممكن المتغيرات الدولية الآن إنها تكون ضدي، وتحرمني من استعادة حقي. وللعلم بذكّر إنه في

[172] يظهر هنا أثر الخطاب المهيمن. حيث تتكرر مرة أخرى فكرة موضعة الراوي لنفسه في مصاف النخبة التي تعرف مصلحة الآخرين، كما يظهر في روايات ناصر ويوسف التي ذكرتها سابقاً.

مرحلة أفول الإمبراطورية البريطانية وبزوغ الإمبراطورية الأمريكية برزت إسرائيل يعني في غفلة تاريخية لإحدى الدول ونهوض تاريخي لإحدى الدول تبرز مرحلة تكميلية. في الفجوة هاي ما بين الأفول والبزوغ برزت إسرائيل، التاريخ ما بيتوقفش عند حد بصيرش هذا الإشي. فلربما في مرحلة قادمة إنه في ظل غياب إمبراطورية ما، وبروز أخرى، يبرز الحق الفلسطيني. إذاً أنا ما بيأسش! بعرف إنه في إلنا حق. **خارطة فلسطين ترتسم بحدودها التاريخية كاملة هذا لإسرائيل و هذا لفلسطين.** حتى تبقى في الذاكرة، إذاً أنا مرتبط وجدانيا في إشي اسمه فلسطين، باستمرار. وحالياً بحلم ألاقي شعبنا جميعاً شعب واحد، حلم واحد، هدف واحد، مصير واحد، مقيم في دولة[173] يتمتع فيها بكافة حقوقه الإنسانية أسوة ببقية شعوب العالم لا أكثر ولا أقل، وهذا يمكن أن يتحقق بوجود نخبة من الحريصين على المصلحة الوطنية، والنخبة هاي تلتقي في جسم وطني واحد وتموت لتحقيق هدفها".

المخيم[174]

هاي قضية إنسانية، لا يمكن للإنسان، أياً كان، إنه يرضى يعيش في أي مكان غير ملائم للظروف الحياتية. المخيم غير ملائم للظروف الحياتية، اكتظاظ، ازدحام سكاني، المرض إذا صاب واحد في الحارة كل الحارة بتمرض لأنه في التصاق. فش حرية مباشرة إلك كانسان تمارس حياتك، يعني بتسكر شبابيكك لأنه إذا شباكك مفتوح بكون جارك شايفك وأنت نايم. ناهيك عن إن الشوارع مبهدلة وفش خدمات ولا بنية تحتية ولا أي شيء. إذاً من ناحية إنسانية، لا أرضى أن أعيش في المخيم. لكن من ناحية إنه مفروض علي، طبعاً برضى أعيش في المخيم، لأنه أصلاً فش بديل. **المخيم لن يكون ناحية رمزية، لأن المخيم يتغير طابعه الرمزي يوماً إثر يوم.** يعني على مدار الخمسين سنة اللي عشتها في المخيم، بيجوز المخيم مر في مراحل تغيير جغرافي وشكلي، أقصد عمراني، أضعاف ما كان عليه في السابق. يعني دخلت المخيم كان برّاكات وزنكو وبعض الخيم، الآن في أبنية حجر. **ولكن الرمزية تكمن في الارتباط الوجداني للسكان الفلسطينية داخل المخيمات. يعني أنا بعيش بشقين روحي مرتبط مكانياً في قلنديا ومرتبط وجدانياً في البرج**، إذاً حلم الحياة ارتباط وجداني. لما بتسألني من وين انت؟ بقولك من البرج، مش بقلك من مخيم قلنديا، مقيم في مخيم قلنديا، لكن بعتبر إنه الإقامة فيه من ناحية وجدانية مؤقتة لأرجع للبرج.

دور الفاعل الاجتماعي[175]

حالياً بحلم ألاقي شعبنا جميعاً شعب واحد، حلم واحد، هدف واحد، مصير واحد، مقيم على دولة[176] يتمتع فيها بكافة حقوقه الإنسانية أسوة ببقية شعوب العالم لا أكثر ولا أقل، وهذا يمكن أن يتحقق بوجود نخبة من الحريصين على المصلحة الوطنية والنخبة هاي تلتقي في جسم وطني واحد وتموت لتحقيق هدفها.

بناء صورة فلسطين وفق ما يسمح به الواقع اليوم

وهدفي أنا كفلسطيني: الوصول إلى إقامة الدولة الفلسطينية على كامل أرض الـ 67 ورحيل المستوطنات والمستوطنين وإطلاق سراح الأسرى وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضي الدولة الفلسطينية مع التعويض، من يشاء العودة إلى أرض الـ 67. بحكي الواقعية السياسية مختلفة عن موضوع الحق العقائدي، الواقعية السياسية تقول إنه لا يختلف أي اثنين فلسطينيين شرفاء على أنه حقنا التاريخي في فلسطين من 48 وحتى 67 اللي هي فلسطين التاريخية كل فلسطين التاريخية، وهذا حقنا. ولكن من ناحية واقعية، أُقيمت إسرائيل بقرار دولي إمبريالي على الجزء الأكبر من أراضي 48، (يستدرك) من الأراضي الفلسطينية، وأصبحت حقيقة واقعة ونالت اعتراف من كافة الدول العالمية والدول العربية والإسلامية بإنه أصبحت دولة إسرائيل، فعلى هذا الاعتبار، لا يمكن إزالة دولة إسرائيل إلا بتضافر القوى العربية والإسلامية بما فيهم الفلسطينية. يعني مناداة صريحة وواضحة 21 دولة عربية + 58 دولة إسلامية في منظمة المؤتمر الإسلامي يهبوا هبة رجل واحد، ويكنسوا إسرائيل عن الوجود و يلغوا إسرائيل، وبالتالي بترجع فلسطين للفلسطينيين. ولكن إذا كان الأمر مناط بالفلسطينيين وحدهم فلا يمكن إنجازه. والدليل واضح إنه كل الأمة العربية والإسلامية تسعى إلى إنهاء الملف الفلسطيني من خلال التفاوض وإقامة دولة أو دويلة حتى على ما تبقى من أراضي الـ 67. وبالتالي المفاوضات قائمة على هذا الأساس. **إذاً تقتضي الواقعية السياسية تقريب وجهات النظر ما بين الفلسطينيين على الأقل للحصول على الحد الأدنى من حقنا، ولكن استعضنا إنا ننادي في**

---

[173] يكرر عمر رأيه بمشروع الدولة كحل واقعي، كما يظهر في القسم الأخير من مقابلته التي يدافع فيها عن واقعيته السياسية.

[174] تمتد النظرة النقدية لعمر هنا لينتقد ظروف المعاناة والحرمان التي يفرضها المخيم على اللاجئ.

[175] يذكر الراوي، خلال المقابلة، أكثر من مرة مشاركته في مؤتمرات وندوات تناقش القضية، والكتابة في الصحافة المحلية والعربية، والمشاركة في مقابلات تلفزيونية. وينتقد عدم وجود تأريخ للقضية الفلسطينية يسهم في استنهاض الوعي والإرث النضالي بالتركيز على النماذج التي لديها تجربة نضالية والذين أسماهم "الرواد الأوائل"، ويصفه بعملية "تغييب للإرث النضالي الفلسطيني، من خلال طمس الماضي واستبداله بالحاضر لخلق مستقبل غير واعي"، مع أنه لم يتطرق في حديثه، إلا عابراً، إلى السنين التي قضاها في السجن.

[176] يذكر عمر من قلنديا رأيه بمشروع الدولة بوضوح، كما يظهر في أماكن أخرى من المقابلة، ويدافع عن واقعيته السياسية.

الجماهير: لا تنازل عن أراضي الـ 48 ولا تنازل حتى آخر شبر، هذه كلها شعارات أنا بعتبرها شعارات، يعني تبقي الباب مفتوح على مصاريعه أمام انتحار جماعي. ربما تُفَسَّر أمام بعض أصحاب النزعة الكوزموبوليتية اللي هن تبعين "كن فيكون" إنه هذا نوع من الاستسلام، ولكن أنا بقلك لأ هذا نوع من البراجماتية، لأنه هو أصلاً البراجماتية هذه هي الواقعية السياسية، إنه أنا لما بدي أفتح أمام أجيال لم تُخلَق بعد مشروع موت لأجل استعادة حق مُضيَّع مش ضائع، مُضيَّع من قوى عالمية أنا لا قِبَل إلي فيها الآن، ربما في المستقبل! [...]

المشروع الوطني الفلسطيني اللي أنا بنادي فيه هو إنهاء احتلال كامل التراب الفلسطيني عام 67 واقامة دولة فلسطينية كاملة السيادة والصلاحيات بأقاليمها الثلاث: اقليم بحري وبري وجوي حسب القوانين الدولية *(س: وين الاقليم البحري؟)* في قانون دولي بيحكي عن الاقليم البحري، مرمى قذيفة المدفعية، وين بتسقط بكون الاقليم البحري، هذا قانون دولي، يعني ما في مجال، لما بنقول هاي الدولة كاملة السياسة. الاقليم البري معروف الحدود الجغرافية ما بينها وبين الدول الأخرى المجاورة، الاقليم الجوي مرتبط تلقائياً مع الاقليم البحري، إذاً الاقليم البحري كيف بكون؟ مرمى قذيفة مدفعية من العيار الثقيل وين بتسقط بكون هو الاقليم البحري، إذا يجوز للطائرات أن تحلق في الاقليم البحري ... يعني مش الاقليم البحري عند باب المندب، الاقليم البحري حسب القانون الدولي، فمشان هيك البحر الأبيض المتوسط وين قذيفتنا بترسي فيه بكون اقليمنا البحري، والاقليم الجوي مرتبط فيه، إذاً ما في امكانية للتقسيم دون القانون الدولي! لهذا السبب نحن مع القوانين الدولية قلباً وقالباً وخاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية.[177] في اشي اسمه واقعية، الواقعية السياسية، واشي اسمه المراهقة العقائدية أنا بالنسبة إلي لن أخرج عن الواقعية قيد شعرة.

[177] يظهر هنا إصرار الراوي على التمسك بالنظرة الواقعية والبراغماتية والالتزام بمعايير القانون الدولي ليظهر وكأن الواقعية بحد ذاتها أصبحت هي الهدف والغاية بغض النظر عن النتيجة التي قد تؤدي إليها.

الملامح العامة لصورة فلسطين الواقع

يختلف الرواة الميالون لتشكيل صورة واقعية لفلسطين من حيث المصادر التي يكتسبون منها صورة فلسطين ودوافعهم لبناء وإعادة بناء هذه الصورة، وتختلف بالتالي الصور التي يشكلونها لفلسطين باختلاف هذه المصادر والدوافع. تتراوح صورة فلسطين الواقع بين الاختزال والاتساع. وتضيق حدود الذاكرة لتتناسب مع حدود فلسطين المسموح بها، حسب موازين القوى اليوم، على أرض الواقع جغرافياً ورمزياً. ليبدو، في الغالب، وكأن صورة الواقع تختزل فلسطين إلى بعد واحد هو الممكن المكاني أي البعد الجغرافي.

جدول يبين عدد الروايات ضمن الأنماط الأربعة التي تتركب منها صورة فلسطين الواقع

أنماط الروايات التي تشكل صورة فلسطين الواقع	مخيم اليرموك	مخيم قلنديا	المجموع
النمط المحبط بين الرفض للواقع والتكيف معه	7	17	24
النمط المأسور بالمشهد المحيط	10	2	12
النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي	3	4	7
النمط الواقعي السياسي	1	3	4
مجموع رواة صورة فلسطين الواقع	21	26	47

ظهرت الصورة الواقعية لفلسطين في روايات 47 راو وراوية ممن قابلتهم، ويتساوى عددهم نسبياً بين المخيمين (21 في اليرموك مقابل 26 في قلنديا). ويسيطر على صورة فلسطين المكونة من رواياتهم منظور رؤية الراوي/ة للواقع الذي عايشه هو شخصياً والأحداث التي تعيشها فلسطين اليوم. فالراوي هنا يركز في سرديته على الأحداث الأكثر راهنية، أما صورة فلسطين كحق تاريخي مستلب من قبل مشروع استعماري غربي فتغيب أو تتوارى إلى الخلف لأسباب مختلفة. إما لأن الهنا والآن لا يسمحان بالتركيز عليها كون المطلوب حل عملي ضمن المسموح به وفق موازين القوى التي تتموضع فلسطين والفلسطينيون ضمنها، كما يظهر في **السردية السياسية التي يقدمها النمط الواقعي السياسي** الذي يمكن توصيف روايته بقراءة سياسية للواقع باستخدام أدوات التحليل السياسي، بحكم تجارب رواة هذا النمط في العمل السياسي وانتماءاتهم الحزبية. أو بسبب شدة الممارسات الاستعمارية وتهميش المخيمات من قبل السلطة الفلسطينية، الأمر الذي يُشعر الفلسطينيين بإحساس بالعجز والإحباط يفقدهم الإيمان بقدرتهم على التغيير أو بمجرد الرفض، كما يشرح الراوي **المحبط بين الرفض للواقع والتكيف معه في سردية أقرب إلى الرواية الاجتماعية للحياة في شرط استعماري**. أو نتيجة هيمنة المشهد اليومي بقسوته والخطاب الحزبي بتناقضاته بين الممارسة السياسة والشعارات الحزبية، كما يظهر في **روايات النمط المأسور بالمشهد المحيط** وهي تشبه في أسلوبها وقصصها الروايات الاعلامية أو الخطاب الحزبي. أو بسبب سيطرة الهم الحياتي اليومي على حياة

الرواة لتضيع تفاصيل الأحداث السياسية والتاريخية في الرواية، كما يظهر في **سودية الوواة المسحوبين من التاريخي إلى اليومي.**

أبعاد صورة فلسطين الواقع

يتغير **البعد الجغرافي** حسب الزمان، فبينما تتمركز فلسطين في القرية أو المدينة الأصلية في الماضي، تنزاح حدود الوطن الموجود في الذاكرة لتبتعد قليلاً أو كثيراً عن البلد الأصلي وتقتصر على الحدود المسموح بها "افتراضياً" اليوم؛ أي **حدود الدولة التي ستقام في الضفة الغربية وقطاع غزة،** على أمل أن يأتي المستقبل بمتغيرات تعيد رسم جغرافية فلسطين بما يعيد الحق التاريخي في البلاد.

وتظهر تجليات **البعد المادي** للصورة في حياة اللاجئين في المخيمين، حيث يشكل المخيم معاني مختلفة لدى الرواة المختلفين الذين مازالوا يعيشون حالة اللجوء بغض النظر عن مكان تواجدهم. فبينما يشكل المخيم أحد مكونات الهوية لدى مجموعة الرواة الذين عبروا عن إحساسهم بالانتماء للمكان والرضى عن الحياة فيه، خاصة رواة مخيم اليرموك، تعتبر مجموعة أخرى من الرواة الذين لا يرون في المخيم مكاناً ملائماً للحياة، أن التمسك بالهوية لا يرتبط بالعيش في المخيم. وفي حالات أخرى، عبر بعض الرواة، وأغلبهم ممن انتقلوا للعيش خارج المخيم، عن أهمية الحفاظ على المخيم نفسه كتراث. فكانوا يتحدثون عن اللاجئين والمخيم بصيغة الغائب مستثنين أنفسهم من صفة اللجوء ليتحول المخيم والنكبة واللاجيء من واقع مُعاش وجزء مُكوّن للذاكرة الشعبية التي تحفز اللاجئين لمقاومة الشرط الاستعماري الإستلابي إلى مواقع للذاكرة، بمفهوم بيير نورا. فتُختَزَل النكبة إلى ذكرى سنوية يتم احياؤها بتظاهرة اعلامية، ويتحول المخيم إلى متحف يجب الحفاظ عليه كتراث فلسطيني يدلل على عدد السنوات التي مرت منذ النكبة. وتتحول العودة إلى بند في مؤتمر وشعار على بوستر وموضوع في مقالة أو ندوة أو صورة تلفزيونية لا بد أن تتحقق يوماً لكن تحققها يحتاج إلى حل سحري أو يد إلهية أو معجزة، ويصبح اللاجيء نفسه موضوعاً أو مادة اعلامية ويتعامل مع مأساته المتكررة بهدم البيت أو مصادرة الأرض أو حبس الابن أو الحرمان من الجنسية بإبراز ها كقضية إغاثية أو مشكلة إنسانية، فيقف عاجزاً أمامها ويمني نفسه بقوى خارجية تحلها حتى لو كانت هذه القوى هي نفسها التي تسببت في المشكلة.[178]

ومن حيث **المعاني والقيم** التي يعطيها اللاجئون لفلسطين هنا، تعكس الصورة الواقعية حالة التناقض التي يعيشها الراوي المتردد بين فكرتين. الفكرة الأولى تعزز ها هيمنة الخطاب السياسي و/ أو الحزبي و/ أو الفكري من جهة والسياسات الاستعمارية المسيطرة على وجوده من جهة ثانية والقائلة بوجوب تقبل إسرائيل كأمر واقع لا مفر منه والتعامل مع سياساتها اللاإنسانية بالقبول والخضوع للمحافظة على البقاء "المسموح به" في ظل انعدام الخيارات الأخرى. والفكرة الثانية، وهي الأضعف

[178] راجع رواية ناصر ضمن النمط الواقعي السياسي، تحت عنوان المخيم؛ ورواية جمال الغزالي ضمن النمط المأسور بالمشهد المحيط، ورواية الحاج محمد ضمن النمط المحبط.

تأثيراً هنا تعزز ها الذاكرة والمعايشة اليومية للشرط الاستعماري وتقول بوجوب مقاومة سياسات الاحتلال والقضاء على الشرط الاستعماري الذي يكرس حالة الاقتلاع التي يعيشها اللاجىء.
وإجمالاً، تركز الروايات هنا على **اليومي والحاضر والممكن والسياسي أكثر من تركيز ها على الماضي والتاريخي والمأمول في المستقبل.** ويمكن ملاحظة هذا بتتبع قصص الهزائم والانتصارات التي تظهر ضمن **الأنماط المختلفة التي تشكل صورة فلسطين الواقع:**

- النمط الواقعي السياسي: يروي قصص فلسطين من منطلق الواقع والممكن والمنطقي ضمن حدود الخطاب السياسي والحزبي والفكري المهيمن، ويستعير مفردات تقنية من قواميس السياسة والقانون الدولي والاعلام. فيقدم بلاده في الماضي بصورة موسوعية ويقدم سردية سياسية للمسيرة الوطنية الفلسطينية، يغلب فيها السياسي على الاجتماعي، بما يبرر رؤيته للمستقبل أو ما يسميه أحد الرواة موضوعية الحل القاضي بانشاء الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة في ظل التوازنات السياسية اليوم.
- ويلتقي معه النمط المأسور بالمشهد المحيط في تقديم خيار خلق المواطنة –التي توفر للاجىء الجنسية والديمقراطية والتمتع بكافة الحقوق المدنية المحروم منها اليوم كحق الانتخاب والترشح– على استعادة شروط هذه المواطنة بالتحرر الذي يسمح بالتخلص من الشوط الاستعماري المسيطر على حياة الرواة.
- بينما يقدم النمط المحبط بين الرفض للواقع والتكيف معه صورة للحياة البسيطة الهانئة في القرية مقابل صور الحياة القاسية تحت عقب الاحتلال الحديدية بما تتضمنه من اقتلاع، يتبعه مقاومة، ومزيد من الاقتلاع والقمع، ثم المقاومة، والقمع، والإحباط.
- وتختفي صورة فلسطين كقضية سياسية أو تاريخية ضمن رواية النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي لتُستبدل بصور صغيرة من معايشات الرواة اليومية للحدث، أو كلام الأهل، أو المدرسة أو بلقطات سريعة مرت على التلفاز. فيغلب اليومي على التاريخي وتغيب التفاصيل من قصص الرواة، خاصة القصص المتعلقة بالأحداث الماضية.

وتتكثف صورة فلسطين الواقع ضمن النمط المحبط الذي يشكل عدد رواته القسم الأكبر بين الأنماط الأربعة المشكلة لصورة الواقع، 24 من أصل 47. أي أن المشهد الغالب في صورة فلسطين الواقع هو صورة الحياة في ظل شرط استعماري والتي ليست مجرد فكرة بل مجموعة من الأوضاع المُعاشة.[179] والصورة التي تبدو عليها فلسطين اليوم مؤطرة بإطار استعماري بكل ما في كلمة استعماري من معاني: الاقتلاع، والاغتصاب، والسيطرة، والضياع، والهيمنة، والاستغلال الاقتصادي لموجودات الأرض والسكان.

يتخذ **الفاعل الاجتماعي** أو الراوي موقفاً محايداً في الغالب وحين يقوم بدور الفاعل يكون مدفوعاً بخطاب مهيمن حزبي أو فكري. فالدور الغالب هو دور الملتزم بالمصلحة الحزبية أو تلك المرتبطة

[179] راجع النمط المحبط للتعرف على أجزاء الصورة التي يرسمها رواته بالتفصيل.

بمشروع شخصي، يليه دور المنسحب بدافع الإحباط أو الغضب أو الضغوط الاجتماعية. ويقدم الرواة في الدورين قراءة نقدية موجهة للحاضر الفلسطيني غالباً، وبنسبة أقل للماضي. فينتقدون بالتحديد ضعف الوعي بين الشعب والقيادات، ومسيرة القيادات والحركات الفلسطينية.

تتشكل ذاكرة الراوي هنا بالانطلاق من الممكن والواقعي، فتركز على أبعاد الصورة المتعلقة بمشروع الدولة القومية في الضفة وغزة والانتماء الجغرافي للبلاد والأرض والتراب وتستبعد –بتأثير هيمنة خطاب الدولة– الانتماء الرمزي الذي يتم التعبير عنه عادة من خلال قصص وحكايات الآباء يغذيها الحنين إلى استعادة الماضي. ولكن نظراً لأن الهيمنة ليست شاملة يتولد صراع لدى الرواة بين الصورة التي يحملونها لفلسطين في ذاكراتهم وبين تلك الصورة التي يفرضها الخطاب المهيمن والواقع الاستعماري المسيطر وإحساسهم بالعجز أمامه، مما يخلق صراعاً في دواخلهم يترجم بشكل اغترابات متنوعة: التضارب بين ما يقوله العقل وما يريده الوجدان الذي ينتهي إلى الخضوع للواقع ظاهرياً والنفور منه ضمنياً كما في النمط الواقعي السياسي. أو الصراع بين الخضوع للواقع الإستلابي أو مقاومته برفض التشيؤ كما في حالة رواة النمط المحبط بين الرفض للواقع والتكيف معه. أو الوقوع في حالة من الأنومي أو اللامعيارية التي تتولد نتيجة حالة من الانفصام الذي يعيشه الفلسطيني بين الخطاب الرسمي الذي يعيد تشكيله كمواطن يعيش في دولة بكامل أجهزتها الأمنية والسياسية والتعليمية وبين الواقع المعاش الذي يذكره في كل لحظة بواقع الاقتلاع والتشرد من الوطن، كما في حالة رواة النمط المأسور بالمشهد المحيط. ويتعامل الرواة مع واقع الاغتراب المفروض عليهم بالهرب أو الانسحاب أحياناً وبرفضه وانتقاده أحياناً أخرى. يظهر الصوت النقدي لدى بعض رواة النمط الواقعي السياسي[180] وبصورة أكبر لدى بعض رواة النمط المحبط[181] وبالأخص أولئك الذين كان لهم نشاط سياسي في السابق.

هناك مجموعتين من الرموز تتكرر في صورة فلسطين الواقع، المجموعة الأولى[182] ترتبط برمز الدولة الوطنية وما يلتصق بها من رموز كالعلم والنشيد الوطني وحقوق المواطنة والسيادة المبنية على الاتفاقيات السياسة من قبل أطراف الهيمنة أو إيصال الفلسطيني، الراوي في بحثنا، إلى تصور الواقعية السياسية أو أوسلو كأرض يقف عليها الفلسطيني هو خلق وطن آخر لكنه مقارنة بالأصل مُتَخَيل لا سيما إذا قرأنا جيداً سياسات الاحتلال واستراتيجيته بعيدة المدى، وهو أمر له تفسيرين: الأول، أن الهيمنة وصلت بالفلسطيني إلى اختلاق وطن جديد أو بديل، لكنه بالطبع مفترض. والثاني، أن الفلسطيني في الشتات، يحلم بمكان أي مكان في فلسطين، وليس شرطاً أن يكتفي به. وترتبط المجموعة الثانية بالشرط الاستعماري وما يحمله من ظلم واضطهاد ويولده من مقاومة. يفتح هذا على مناقشة البعد الواحد في الفترة الواحدة، وليس تعدد الأبعاد، بمعنى أنه في لبنان كان الكفاح

---

[180] راجع روايات عمر البرجي وعيسى الزيناتي.
[181] يظهر الصوت النقدي الأعلى في روايات أم فراس علارية، والحاج محمد الماعيني، وأبو فادي البرفيلي، وأبو كريم السمخي.
[182] كما في نمطي الواقعي السياسي والمأسور بالمشهد المحيط.

المسلح هو البعد الواحد، وفي ظل هيمنة السلطة صارت المفاوضات هي البعد الواحد، وقد طرح بعض الرواة البعد الإعلامي.

الفصـــــل الرابع

صـــــــورة فلسطين الأحلام

رسمها 35 راو وراوية من مجموع الرواة الـــ 82 الذين قابلتهم. ويتجمع العدد الأكبر من رواة هذه الصورة في مخيم اليرموك حيث يبلغ عددهم 22 راو وراوية مقابل 13 راو وراوية في مخيم قلنديا. في قراءتي للصورة الثانية التي سميتها فلسطين "الأحلام" بالجمع، وجدت أن أحلام اللاجئين في رواياتهم تضيق وتتسع وتختلف باختلاف الواقع الذي يعيشونه، أو يحاولون أحياناً تخطيه وتجاوزه إلى حلم بواقع مختلف. وتوصلت إلى أنه يمكن تصنيف الحالمين ضمن أربعة أنماط رئيسية:

1. النمط الحالم باستعادة الماضي الجميل: تسود في الرواية صورة الفلسطيني المُقتَلَع من أرضه ومن حياة جميلة في الماضي فتبدو الروايات حزينة تملؤها مشاعر الحنين للماضي الجميل الذي يقارنه الراوي بالحاضر البائس. وبينما يمثل الماضي الجميل القرية والمدينة الأصلية في فلسطين بالنسبة للجيل الأكبر، يركز الجيل الأصغر على زمن الثورة وذكريات المقاومة الجميلة مقارنة بالواقع المأزوم اليوم. لتنثر ذكريات الماضي الجميل بذور الحلم بالتغيير بتـأثير المعتقد الحزبـي و/أو الإيمـان الـديني. (مجمـوع الـرواة 11 أغلبهـم (9) مـن مخيـم اليرموك).
2. النمط الحالم الباحث عن فلسطينه: تجمع الرواية بين النقد لبعض المحطات أو الفاعلين في القضية وبين البحث عن وسائل جديدة لتحقيق الحلم الفلسطيني بأشكال متعددة لا تقتصر على أساليب المقاومة التقليدية وإنما يبتدع الفرد أساليب تصنع وجود فلسطيني ابداعي وفني وعلمي ونضالي. (مجموع الرواة 11 أغلبهم (8) من مخيم اليرموك).
3. النمط الحالم بالغد الأجمل: يغلب في روايته التاريخي على اليومي، ويقرأ أحداث الماضي والحاضر قراءة مقارنة، وبالتوازي مع تجارب تاريخية مماثلة لشعوب تعرضت لاضطهاد واستيطان واحتلال عسكري، ويخلص في روايته إلى حتمية التغيير باتجاه إنهاء الحالة الاستعمارية. (مجموع الرواة ثمانية يتوزعون بالتساوي بين المخيمين والجنسين).
4. النمط الحالم الغاضب: يسيطر على رواياته الصوت الغاضب والرافض للواقع الفلسطيني الحالي. تبلغ نسبة النقد ضمن هذه الروايات حدها الأقصى ويستند الرواة، وهم من النشيطين فـي الحقليـن السياسـي والاجتمـاعي، فـي نقـدهم إلـى أحـداث وأمثلـة تفسـر رفضـهم للواقـع المفروض من قبل القوى المسيطرة والمهيمنة على الخطاب والفعل الفلسطيني/ العربي في المراحل التاريخية المختلفة. (مجموع الرواة خمسة أغلبهم (4) من مخيم قلنديا).

سأكتفي بتقديم نماذج من روايات هذه الأنماط التي قمت بتحليل مفصل لها، مراعاةً لحجم البحث.

أولاً: النمط الحالم باستعادة الماضي الجميل

"كل الناس في فلسطين في هذيك اللحظة كانوا عايشين من الأرض وعلى الزراعة، يأكلوا ويشربوا ويزرعوا، صيفي وشتوي، وعندهم مواشي وكان عندهم جمال وخيل وبقر وكل شيء كان موجود. والحياة الاجتماعية كانت ذهب!"

(الحاجة سارة، 67 سنة، مخيم قلنديا)

"الاضطهاد والقهر اللي كان بقلب مخيماتنا هو اللي خلى الناس تنتفض وتنطلق وتشكل ثورة. يعني كان عند الناس اندفاع أكثر من اسا! [...] في بداية الثورة كانوا الفدائية بالجبال بس ينزلوا في الليل، ملثمين، كانوا كل الأولاد يركضوا وراءه: فدائي فدائي، كنا صغار وكان الفدائي رمز [...] وكان عندهم هدف بهداك الوقت هو تحرير فلسطين: بحس لو ظلينا مصرين بهداك الوقت كان تحررت فلسطين."

(أم سعد حولية، 45 سنة، مخيم اليرموك)

صفات النمط ورواته

تسود في الرواية صورة الفلسطيني الذي اقتُلِعَ من أرضه ومن حياة جميلة في الماضي وتحول إلى ضحية ويرتفع صوت المعاناة والحرمان في الماضي والحاضر، فتبدو روايته حزينة تملؤها مشاعر الحنين للماضي وتفاصيله التي يقارنها بالحاضر. إلا أن الحلم بالتغيير موجود بتأثير المعتقد الحزبي و/أو الإيمان الديني. يرسم رواة هذا النمط صورة فلسطين من خلال التسلسل التاريخي للأحداث مرتكزين على الماضي كإطار مرجعي يستعينون به في سردهم للرواية، حيث يحتل الماضي الحيز الأكبر من الرواية، ليتبعه الانتقال للحاضر، ويظهر المستقبل بشكل مختزل. ومن الملاحظ أن الماضي يظهر بشكلين مختلفين بين الجيلين القديم والجديد من رواة هذا النمط. يتكون الماضي الجميل، لدى الجيل القديم من التناقض بين جمال الحياة في البلاد، والمقصود بالبلاد القرية الأصلية، وبشاعة تجربة الاقتلاع والنفي والتهجير واللجوء، كما يقول فيصل دراج "لا تولد صورة الوطن المفقود من جماله الذي كان، بل من وحشية المنفى" (دراج، 2008: 17). بينما تتكون رواية الماضي لدى الجيل الشاب بشكل معاكس فهو ينطلق من بشاعة تجربة الاقتلاع والنفي واللجوء وقسوتها التي انتقلت إليه غالباً من حديث أهله، ليصل إلى جمال تجربة المقاومة. هذا لا يعني أن المقاومة غائبة في رواية الجيل القديم، فهي، بالعكس، ترد كوسيلة لتحقيق الأمل باسترجاع الماضي الجميل. فتتكرر في روايات هذا النمط التجربة النضالية الملتصقة بالراوي وعائلته، ليظهر العمل النضالي والثوري في جميع روايات هذا النمط كمكون أساسي في الرواية. يستخدم بعض الرواة أسلوباً أقرب إلى السرد التاريخي النثري prose historical narrative، ويلجأ البعض للتعبيرات الشعرية. ويختلف الماضي الجميل هنا من جيل إلى آخر: الجيل الأول يحلم بفلسطين زمان ويعبر عنها بأسلوب الشعر

أو الحكاية. أما الجيلان الثاني والثالث، فيظهر بينهما نوعان من الحالمين: النوع الأول يحلم بالبلاد من خلال معايشته لها في روايات الجدة والجد والأم والأب والنوع الثاني يحلم بماضي المقاومة الجميل الذي عايشه شخصياً ويشعر بغصة لضياعه، ويحاول البحث عنه في المستقبل. وتسود في روايات هذا النمط المشاعر والعاطفة، فالوصف يأخذ طابع رومانسي ينعكس في الأسلوب الشعري لعبد الوهاب الصفوري، وأسلوب الحكاية الممزوجة بضحكة سوداء عند الحاجة سارة. ومن حيث اللغة، تميل إلى البساطة، حيث تخلو الروايات من المصطلحات التقنية السياسية باستثناء روايات أم سعد وسليم، ويمكن تفسير هذا لتأثرهم بنشاطهم السياسي في الماضي.

المحاور العامة لروايات الحالم باستعادة الماضي الجميل

أولاً: صورة الماضي الجميل بين جيلين

يختلف مضمون الماضي الجميل بين الرواة في هذا النمط حسب العمر. حيث يركز الجيل القديم في روايته على البلاد، وبالذات على القرية التي ينحدر منها، لتبدو من خلال روايته مرتعاً مثالياً للأمان والبساطة والجمال مقابل مشاهد الخوف والحرمان والفقر والمعاناة التي يرسمها في روايته لفترة التهجير وحياة اللجوء فيما بعد. أما روايات الجيل الأصغر، فهي تحكي قصص البلاد وجمال الحياة فيها لكن تضيع التفاصيل هنا لتحل محلها حكايات مفصلة عاشها الرواة زمن الثورة، فتأخذ شكل ذكريات مضت لزمن أجمل من الحاضر، ذكريات ماضي المقاومة الجميل مقارنة بالواقع الحاضر المأزوم. سأقدم فيمايلي بعض المقتطفات التي يسرد فيها الرواة صورة ماضي البلاد الجميل تحت عنوان ***صورة ماضي البلاد الجميل – الفردوس المفقود*** وهي كما ذكرت موجودة في جميع روايات هذا النمط وإن كانت روايات الجيل الأكبر سناً أكثر غنى بمشاعر الحنين/ النوستالجيا وبالتفاصيل التي تصف المكان من روايات الجيل الأصغر. ومن ثم سأورد مقتطفات من روايات الجيل الأصغر الذين يركزون على وصف ذكريات المقاومة بعنوان ***صورة ماضي المقاومة الجميل***.

أ. صورة ماضي البلاد الجميل – الفردوس المفقود

تسود في روايات هذا النمط، بشكل عام، صورة فلسطين الجنة التي يحلم الرواة باستعادتها، فهم يصفون بصوت مختلط بمشاعر الحنين والحسرة ذكريات الماضي والحياة في البلاد، وتتخذ القرية أو المدينة الأصلية للراوي موقعاً مركزياً في الرواية حيث يرسمها الرواة متكئين على مخزون الذاكرة وابداعات الخيال لتتشكل صورة حية للبلاد، كما في رواية عبد الوهاب الصفوري، 62 سنة، في مخيم اليرموك _التي أقدم معظم أجزائها في نهاية عرضي لهذا النمط_ وقد اختار أن يقرأ لي بعضاً من أشعاره التي يرسم فيها صورة صفورية، قريته الأصلية في فلسطين. وأورد هنا مقتطفاً من رواية الحاجة سارة، 67 سنة، في مخيم قلنديا، التي هُجرَّت وعائلتها من قريتها صرعة قضاء القدس تصف فيه القرية كما تتذكرها حين خرجت منها وهي صغيرة وثم بعد أن زارتها وهي كبيرة:

"بتذكر أيام صرعة زي ما أنا شايفتك هلقيت مع إني كنت صغيرة، بتذكر حياتنا لما كنا عايشين في الأرض، نحرث ونزرع ونقلع ونعيش من الأرض، كان عندنا جاج وغنم، كان عندنا أراضي

نزرعها ونعيش منها، التين من الأرض والزيتون والزيت من الأرض، والبندورة من الأرض، جميع الخضرة اللي الناس بشتروها هاي كنا ناكلها من الأرض، كل الناس في فلسطين في هذيك اللحظة كانوا عايشين من الأرض وعلى الزراعة، يأكلوا ويشربوا ويزرعوا، صيفي وشتوي، وعندهم مواشي وكان عندهم جمال وخيل وبقر وكل شيء كان موجود. الحياة الاجتماعية كانت ذهب، كانت الناس تتعاطف مع بعضها، وكانت قريبة على بعضها وتزور بعضها، كان في ساحات للبلد يجتمعوا الرجال فيها المغرب، وفي النهار في الأراضي وفي الليل يقعدوا في هالساحة، والستات في البيوت. بس كانوا لما بيجي الضيف طبعا يخلوا الستات يحملن الأكل ويطلعن يحملنه على الساحة يحترمن الضيوف اللي جايين. طبعا كنا نشتغل في الأرض، كنا نحصد وكنا نروح نغمر، يعني نلم الزرع ونعبي تبن ونعبي قمح. رحت على صرعه، وشو بدي أحس، إلي عم راح عليها على أساس زيارة يشوف الأرض والزيتون والبلد فقد الوعي وهو قاعد، فقد عقله. بلدنا عاليه على راس التلة فوق بتكشف ديرأبان واشوع وكل الساحل. لما شفتها: هي هي، بتشبه البلد اللي في خيالي يوم ما طلعنا، مش مغيرين فيها إشي ولا حاطين فيها إشي، بس ما فيها بيوت! هادينها. وما في محل البلد ولا حجر، الصبر موجود والشجر والزيتون والسناسل، عاملين فيها زي منتزه، حاطين فيها كراسي ومراجيح. بقينا نروح نسرق حبات زيتون، **بس عاليوم لو بخلونا نظل نروح ونسرق**، بقينا نروح ونجيب هلقيت ممنوع ما بنقدرش، بعد الجدار ممنوع إلا بتصريح والتصريح ليوم واحد موش أكثر."

تتكرر هذه الصورة الأقرب للمثالية والمليئة بمشاعر التوق والحنين لدى الرواة الأصغر سناً في مخيم اليرموك، التي يرويها الأبناء من ذاكرة الآباء، لكن بتفاصيل أقل من روايات الجيل الأكبر:

"كان أبوي دايما يقول لنا: صفد سبع حارات، وإحنا من حارة الصواوين، ذاكرته هي صفد. لذلك بالنسبة إلي صفد بتعنيلي بلدي، بحس بكونها أبي أكثر من كونها بلدي. كان يحكي عن سهولها، وعن جبالها، وعن مصيفها، كان يشبهها بمنطقة بلودان بسوريا، إنه هواها نقي، جغرافياً هي أعلى منطقة بفلسطين: أعلى بلدة في فلسطين. كان يحكيلنا عن خضرواتها، إحنا أهل صفد معروفين بنحب العكوب، هذا من زراعة البلاد في المناطق الجبلية، حتى أمثالهم من العكوب، بيقولوا العروس الحلوة بيختاروها مثل العكوبه اللي تحت الحجر، بيضاء وطرية. كان أبوي بيحكيلنا عن الجامع اللي كان بينزل يصلي فيه في حارة السوق، كان يقول لي كنا نروح نسهر بحيفا ونرجع على صفد، كاينه قريبة كثير" (من رواية ابتسام الصفدية، 52 سنة، مخيم اليرموك).

"كان في إلهن أراضي كتير وبلدهن كتير حلوة. أنا من ترشيحا، وترشيحا مشهورة بالتبغ. وبلد حلوة كتير وجميلة مشهورة بالمزروعات وخاصة التبغ. كان في إلهم جيران مسيحية وكانوا صحبة هم وإياهم. يعني في ألفة ووحدة حال. ما في تفرقة وعنصرية. يعني وعندهم أراضي وبساتين وعندهم حيوانات وكل شيء. وعايشين ومبسوطين. وجدي كان يحكيلنا أنه كان قبضاي. وكان يحكيلنا إنه كانوا عايشين مبسوطين ومكيفين" (من رواية ليلى ترشيحا، 56 سنة، مخيم اليرموك).

ب. صورة ماضي المقاومة الجميل

تسيطر في روايات هذا النمط مشاعر الشوق والحنين، ولا يقتصر الحنين على "فلسطين الجنة التي لا يمكن نسيانها"، حيث يعبر الرواة الأصغر سناً عن الحنين والتوق إلى لحظات المقاومة في الماضي. وعلى الرغم من اختلاف زمان ومكان المقاومة باختلاف المكان بين المخيمين، إلا أنه يوجد تشابه بين وصف الرواة في المخيمين لذكرياتهم من فترات المقاومة التي شاركوا فيها لتختلط فيها أحاسيس الأمل والمرارة والغضب والخوف والغبطة مع مشاهد المقاومة:

"كنت صف ثامن أيام انتفاضة الـ 1987، ومع أنها كانت الانتفاضة قاسية علينا، بس بعرفش إلها ذكريات كثيرة! أول إشي كانت أول وعينا، كنا نشيطات، نشارك في المسيرات والمظاهرات، بذكر مرة كنا مروحات من مظاهرة أو مسيرة وكان معي اثنتين من صاحباتي، مسكونا الجيش ومرقوا البنات اللي كانوا معاي وحشروني أنا لحالي في منطقة بين سيارتين. **وهلا لما نقعد مع بعضنا أنا وصاحباتي ونتذكر هديك الحادثة، نضحك كثيراً**. هدولاك الاثنتين هربوا، وأنا ظليت محشورة، أخذوني الجيش وفتشوا الشنطة وصاروا يسألوا أسئلة واستفسارات كثيرة، وشو يعني الواحدة بتخاف. **بس كانت هاي ذكرى**. أنا كنت منشطة لكثير من النشاطات والفعاليات، وكنت نشيطة في اتحاد الطلبة في المدرسة، فكنا نطلع من الصبح ونوزع نشرات، كنت أطلع من الساعة 6 وشوي وأمي تقول لي: وين رايحة؟ طالعة بدري!؟ كنت أخاف أحكي فأقول لها: علينا حصة اضافية، فكنا نوزع هالمنشورات في الصفوف ونلزق ونسوي. وندعو البنات للمظاهرات. **بتعرفي بتظلها ذكرى!** بعدين ما كنش الوضع بخوف زي الانتفاضة الجديدة، عن جد فرق شاسع، هديك ما كانوش يقتلوا هالقد، مع إنه كانوا يطخوا بس ما كانوا يقتلوا لهالدرجة هاي، مع إنه عدة مرات في شاب من قدورة مات قدامنا ومسكته حتى، ولا بنسى هالمنظر لما مسكته وهو مثلج تثليج. ولا بنسى كيف هربناه وتهربنا فيه، ما كانش سهل لما تمسكي الشهيد زي الأيام هاي؛ بطخوه وبرموه هالأيام، بس كان زمان صعب جداً: كيف تمسكيه وتهربيه، كان تهريب لأنه اليهود كانوا بيأخذوا الجثة. ولا بنسى أيام محمد البابا لما استشهد في الأمعري وكيف حملوه، أكم واحد بس اللي يروح معاه على الجنازة، وبكونوا حتى اليهود عارفين، وبكونوا يستنوا عند المقبرة، والله ما بنسى كيف تهريب يهربوه ويلفوه، وما تعرفي كيف انقبر الواحد، وكانوا يهربوه بأي طريقة، المهم يدفنوه. كان في منع تجول في الأمعري، وهربوه، كانوا كم شاب وبنت، كنا أيامها نشيطين كثير في المخيمات، **بس بتعرفي مع إني بكون ميتة خوف بس بظل أتذكر هاي الذكريات، بعرفش ليش بتظلها جواي، خاصة ذكريات هاي الانتفاضة، بتظلها موجودة جواي كثير، كل ما أتذكر أحداثها: يعني أشياء بتضحك وأشياء** (...تصمت، ولا تتم الجملة...). **وبتقولي: يا ريت لو إنها ترجع للوراء!** حتى بهديك الانتفاضة، تعرفت أنا على زوجي، في سنة التسعين، كنت توجيهي، ومن خلال الانتفاضة تعرفنا، كنا نعمل تدريس شعبي، هديك الفترة! كانوا ييجوا عنا اثنتين أجانب، وكنا نهرّب أطفال لندرسهم، ما هي كانت المدارس مسكرة أيام الانتفاضة، فكنا نجيب الأولاد اللي بيقدروا يطلعوا. واخترنا كم دار من دور الناس النشيطين اللي كانوا بيقبلوا لأنه مش كل الناس كانوا بيقبلوا. ونحط الأولاد فيهم، وكانوا يدرسوهم تدريس شعبي، فكنا نتهرب، صدقيني ولا بنسى كيف كنا نهرب لما اليهود مرات كانوا يعرفوا أو يهجموا على الناس فجأة. كنا نتهرب، من شقة لشقة، وكنا كمان نوزع على الناس تموين، كثير كنا نوزع مؤن، ييجوا يحطوه في دار ناس نشيطين، ونصير نوزع ولا بنسى صاحبتي وهي حاملة كراتين البيض على رأسها، كنا نطلع في الليل، ووقعوا الكراتين من فوق رأسها (تضحك)، يعني أحداث هلا صارت زي قصص. بس هلا بتحسي ما في هيك بهاي الانتفاضة، بتحسيها على الفاضي، بطلت كثير، بتحسي إنه ما ساويناش إشي، كنا نتوقع أيام الانتفاضة الأولى إنه يكون في نتيجة، إنه نحرر البلاد ونطلعهم على القليلة من البلاد اللي عنا، مش من الـ 48 وهديك البلاد، على القليلة نطلعهم من المناطق القريبة هون، بس بتحسي إنك عن جد في عندك دافع، حماس من قبل الشباب والبنات اللي معاك. بتحسي إنك بدك تعلمي الأولاد، لأنه المدارس مسكرة، بدك تعلميهم وبدناش نطلعهم أطفال جاهلين وغير متعلمين. فكنت تحسي عن جد في دافع وحابة تساوي شيء بس هلا الوقت بعرفش. يمكن لأنه ما في نتيجة: اللي قاوم واللي تصاوب واللي ماتوا قدامنا واللي تحبسوا. بالنهاية ما فش نتيجة مبينة، نفس ما احنا، صارت الدنيا مناصب وصار حتى اللي أجا من برا. صاروا ووصلوا وأنت اللي قاعدة محلك زي ما أنت، ما صرش ما تغيرش علينا ولا أشي" (من رواية هدى اللداوية، 37 سنة، مخيم قلنديا).

ويـووي الرواة فـي مخيـم اليرمـوك مشـاهد مقاومـة تختلـف فـي تفاصـيلها لاختلاف تفاصـيل المكـان والزمان والوسائل والمساحة المتاحة للمقاومة في حالة المخيمين هنا لكنها تتشابه في الأحاسيس التي تبثها حين يتذكرها الرواة اليوم. تصف أم سعد[183] مشاهد المعاناة التي عاشتها في مخيم نهر البارد وقصص النضال والصمود والمقاومة، وتترحم على أيام كانت فيها الرؤية أكثر وضوحاً، وكما في الروايـة السـابقة، يظهـر الصـوت النقـدي هنـا، حيـث تنظـر الراويـة إلـى الـوراء بعيـن نـاقدة، وتنتقد السلوكيات التي برأيها لم تكن بالمستوى النضالي المطلوب:

"فلسطين، كانت حلم لإلنا، هي الوطن والأم اللي كانت تحضن شعبها. فما بالك لما الشعب يتشرد من وطنه! قديش راح تكون المحبة مغروسة فينا. هسا بلبنان بقولوا بدهم يوطنوا الفلسطينية، أنا بتصـور إنـه يمكـن أغلبهـم مـا راح يرضـوا لأنـه مـا حـدا ببيع وطنـه. مجـرد إنهـم جربـوا الهجـرة وتشردوا وانهانت كرامتهم. يعني الواحد لما يرجع على وطنه بيعرف إنه كرامته رجعت له. أنا طموحي أرجع على الحولة، على المنطقة اللي أصولي فيها. احنا بالمخيمات بلبنان كنا عايشين نفس الوضع اللي عاشوه وقت الهجرة لأنه المخيمات هناك منطقة مغلقة، مو مثل هون، ما في احتكاك بيننا وبين اللبنانيين، خلص المخيم بعتبروه بؤر للمخربين. بس كان كمان يبرز فيها دور الرجولة بين الجيل الصغير، يعني كل طفل تحسيه إنه طفل، زلمة لأنه عم بعاني، الانسان من معاناته بتخلقي منه زلمة أو الفتاة واقع المعاناة بيخلق منها امرأة واعية ومثقفة. الانسان اللي بعاني بظل متمسك بأرضه وبوطنه أكثر من اللي ما بعاني. بعدين واحنا أطفال كانت الثورة لسه مش منطلقة وكانت الناس تعاني من الدرك اللبناني: إنه مثلاً ممنوع بعد الساعة ستة تطلعي من بيتك، وممنوع الواحد يحمل سكينة، يعني كانت البيوت قديمة سقفها زنكو، إذا كبيتي نقطة مي برا بيجوا الدرك وبسحبوا صاحب البيت على السجن ومعاناة وضرب واهانة للناس. ما هو كيف انطلقت الثورة؟ من المعاناة! اضطهاد بلبنان مش زي هون، هون بتلاقي الفلسطيني أفضل حالاً بس كمان هون الروح الثورية مزروعة في كل الناس بس المعاناة أحياناً بتولد منك أكثر. أنا كنت أعمل من خلال فصيل وكنت أدرس في الروضة وكنا نعلم الأولاد عن تاريخ فلسطين وليش تشردنا، إسا نحنا بالروضات بنعطي عن تاريخ فلسطين، بس بالمدارس ممنوع. هون[184] كل المناهج مغذية مزبوط عن فلسطين، بس بلبنان غير، مع إنه نحنا كنا باندفاع ذاتي، بهديك الأيام، مش داخل البرنامج التعليمي، الأستاذ لحاله إذا بده يعطي بيعطي خارج المنهاج. فكانوا الفلسطينية بلبنان كلها بتعاني. والاضطهاد والقهر اللي كان بقلب مخيماتنا هو اللي خلى الناس تنتفض وتنطلق وتشكل ثورة. يعني كان عندها الناس اندفاع أكثر من اسا، لسا في كثير اساءات بلبنان. **في بداية الثورة كانوا الفدائية بالجبال بس ينزلوا في الليل، ملثمين، كانوا كل الأولاد يركضوا وراءه: فدائي فدائي، كنا صغار وكان الفدائي رمز، والناس كانت تجمع تبرعات إلهم، ما كان زي اسا في موارد للفصائل. كانت الناس تعتمد على التبرعات بامكانياتهم، وكان عندهم هدف بهداك الوقت هو تحرير فلسطين: بحس لو ظلينا مصرين بهداك الوقت كان تحررت فلسطين.** بس صارت الناس تركض وراء المفاوضات ووراء الشغلات اللي ما بتعطي شي لشعبنا وصرنا نتنازل، تنازل وراء تنازل لحد ما صفينا ولا شي! بس بالأول كان طموح الناس تحرير فلسطين كلها، لا يقولوا الضفة ولا غزة ولا 48 كانوا يقولوا فلسطين كلها. وبتذكر أيام مشروع بريجينيف بالـ 70، انطرح للثورة الفلسطينية أكثر مما انطرح أيام أوسلو، أيام بريجينيف كان مطروح ترجع أراضي الـ 67 كلها والقدس تنقسم قسمين الشرقية والغربية وتصير عاصمتنا القدس وما رضيوا فيه. أجانا مشروع أوسلو ورضينا بولا شي وصرنا نتنازل، وصرنا بدنا سلطة، مش دولة، سلطة! زوجي كان أسير في الداخل، والأسرى كانوا حاطين المقاومة والثورة بالقمة. أجوا على الواقع وانصدموا، شافوا إنه في ناس عم تركض على المناصب وعلى الامتيازات أكثر مما إنها بدها تناضل مشان تحرير فلسطين. يعني زوجي ما كنا نشوفه لا هون ولا بلبنان، يمكن كل ثلاثة أيام كنت أشوفه يوم. **كان عندهم اندفاع بهديك الفترة، طالعين من الأسر وماخدين صورة إنه الثورة الفلسطينية ثورة بدها تحقق وتعمل شي لشعبها طلعوا وانصدموا وشافوا الواقع غير! حتى**

[183] قابلت أم سعد في مخيم اليرموك حيث تسكن منذ سنة 1989. أخبرتني أنها كانت في الأصل تعيش في مخيم نهر البارد في لبنان حيث تعرفت على زوجها الذي كان أسيراً في عسقلان لمدة 15 سنة خلال عملية تبادل أسرى.

[184] تقصد في سوريا.

بالأسر كانت عندهم روح المقاومة عالية، قال لي مرة أضربوا شهرين عن الطعام مشان يحققوا انجاز واحد، كانت الفرشة عندهم ارتفاعها سنتين (2 سم) قال لي: أضربنا شهرين بس مشان نحقق انجاز ويرفعولنا إياها كمان 2 سم وكمان الكتب ما كانت كلها تدخل، وزوجي كمان حرموه من التعليم، أخذ التوجيهي وهو بالسجن، كان بده يكفي دراسته الجامعية وما قبلوا لأنه كان محكوم 12 مؤبد. بس كان جوهم حلو وعلاقته مع زملائه الفلسطينية كانوا أكثر من أخوة، لحد الآن بحسهم أكثر من أخوة" (من رواية أم سعد حولية، 45 سنة، مخيم اليرموك).

ثانياً: حكاية الاقتلاع من البلاد ورحلة التهجير وأيام اللجوء الأولى

يصف رواة هذا النمط قصة تهجيرهم من البلاد ويروون تفاصيل المعاناة، وتتميز قصصهم بأسلوب الحكايات، خاصةً حين تكون الراوية امرأة، حيث تزخر الرواية بتفاصيل المشهد الماضي لتقدم وصفاً حياً لأحداث عاشها الرواة أو سمعوا عنها من الأهل. وسأورد هنا مقطعين من كل مخيم كنموذج على الرواية:

"بتذكر أيام الهجرة، صاروا اليهود يخلوا راعي الغنم يرعى ويطخوا عليه من المستعمرة، يعني يخوفوا في العالم تخويف، وكان بجنب صرعة في منطقة اسمها محطة عتوف، كنا نقلها كبانية عتوف، هاي هي اللي كانوا يطخوا منها. دخل طبعا الجيش بأمر من البريطانيين، وظلوا موجودين لحد ما إسرائيل جابت أسلحة وأمنت نفسها من ناحية جيش وذخيرة وصارت في فلسطين، عندها البريطانيين سلموا وانسحبوا. وكان في يهود ساكنين في فلسطين وصاروا بيجوا يفوتوا من بره، يفوتوهم في الليل صبايا وشباب، إحنا شو بعرفنا إنهم بيفوتوا؟ كانوا بيطخوا، صاروا إذا واحد بحرث يطخوا عليه، يروحن الدواب وهو يظل مرمي لحد ما يروحوا يجيبوه، واحد من بلدنا اسمه محمد عبد الجواد، كان قاعد بحرث، طخوا عليه روحن الدواب راحوا عليه لقوه مقتول، صارت الناس تخاف تتنقل من بلد لبلد على أساس ترجع. كان إذا حدا عنده قمح وتبن أو أموال أو بلاط بده يبلط داره يحطه في مغارة ويسكر عليه ويقول تنرجع، كله دشرناه ورانا ماحملناش اشي، على أساس بدنا نرجع، كل شيء ظل محله، ما حملنا اشي. طلعنا مشي، ما كان في تركات، بس أنا بقيت طفلة عمري 4 سنين[185] مشيت من صرعة لعند بيت أولا في الخليل مشي على رجلي وأنا حافية، حتى في شجرات قعدنا تحتهن ومسكت في التينة وصرت اتمرجح ووقعت، شايفه أثرها؟ هذي متذكرها، أسعفتني أمي، ما كان في إسعاف وسيارات إسعاف ولا شفنا حتى دولة تساعدنا، ناس تساعدنا وإحنا طالعين ما في! كنا ننام في الخلا والناس بقت بخير: البلد اللي نصلها تطعمنا وتسقينا، معهمش خبر إنا بدنا نطلع وما نرجعش، الناس كان عندهم كرم وفي فلسطين الكرم موجود ولحد الآن موجود. بس المشكلة وين إنه على محطة عتوف كان في مركز للشرطة للجيش البريطاني، أنا شايفه زي ما أنا شايفك هلقيت، الطيارة الإسرائيلية كانت تحوم وتضرب قنابل على العالم - بريطانيا هي اللي ذبحتنا وتركيا إلها يديه، تركيا هي اللي سلمتنا لبريطانيا- الطيارات صارت تضرب علينا على الأرض وإحنا شردنا، كانوا اثنين بيطخوا على الطيارة بالبارود، وشو البارود؟ خرطوش تبع الصيد، هذي بتضرب طياره؟ وبتنزل طياره؟ صارت مؤامرة عربية دولية علينا، تقولي العرب مالهمش يديه فيها لا، أكثر واحد كان اله يديه فيها همي الأردنيين تخاذلوا معهم. وصاروا الناس ينتقلوا من بلد لبلد ويرجعوا، يغيبوا 20 يوم ويرجعوا، البلد اللي أصحابها يرجعوا، يضربوا عليهم اليهود من الكبنيه (المستوطنة)، يضربوا عشوائيا للتخويف والناس تخاف، برضه الناس ما كانت تخاف صارت ناس ترجع، الله بعلم أجا واحد عربي ابن حرام عليهم قالهم هذول العرب بحافظوا على العرض أكثر من الأرض، صارت قصة دير ياسين، بعدها صار كل واحد عنده بنت لو أربع سنين يهرب فيها، أي واحد عنده بنت يهرب فيها، **ولا مشكلة أثرت على الفلسطينيين قد قصة دير ياسين، الإشاعات بتخوف وبرضه همي عجبوا**، 2 عاجزات طخوهن في مغارة، قتلوهن وما بدي أقولك شو ساووا فيهن، بقدرش، منهم لله- **اللي هجج الشعب الفلسطيني قصة دير ياسين آخر اشي:** أنا بشك ومتأكد مليون في المية إللي لفت انتباه اليهود لدير ياسين عربي ابن حرام! عربي ابن حرام قال لهم إذا ما دقيتوش في العرض ما بيطلعوش اللي يسمع قصة دير ياسين هان في القدس وانشالله يبقى في جهنم ما هاي ديرياسين هان وبيشرد اللي معاه بنت، اللي معاه ولد، اللي معاه قرد يحمله ويشرد، فضوا البلاد، شاطرين اليهود، كنا نايمين واحنا نايمين باقي الجيش يخش في الليل والقطار يناقللهم في

[185] المفروض حسب العمر الذي ذكرته الراوية، 67 سنة، أنها كانت بعمر 6 سنوات أيام التهجير.

السلاح. وما زلنا في المأساة، هاي الناس لا أشغال ولا أعمال هايها قاعدة. بعد الـ 48، **صارت الناس تتسلل**، تروح سرقة تسرق اللي إلها، يفوتوا على بيوتهم ياخدوا اللي إلهم، اللي يلاقوه اليهود ويحسوا فيه يقتلوه، واشي يسجنوه ويطلعوه، والله جوز بنت عم اللي أخذوه وعملوا فيه زي ما بيعملوا في تيس الغنم ليمنعوه يخلف وما بقدر اوضحلك أكثر من هيك، والله بعدها ما خلف، اللي يمسكوه يخربوا دياره بالطريقة هذي ويروح ما يحكي بالمرة، إذا مرأة حامل يبعطوها، إذا عجوز يقتلوها، إذا لاقوا واحد يعجبوا فيه. أبوي مرة حكالي انه مره كان 60 واحد من الثوار قتلوهم مرة وحدة ورموهم في باب الواد، الناس رحلت وطلعت في الأراضي وكاينين بريطانيا والأردن وأمريكا وتركيا ودول الغرب مخططين مع الأردن، الأردن إلها يديه في اللي صار فينا ولم يزل. إحنا اكبر مأساة من سنة الـ 48 لسنة الـ 67 كانت مجزرة دير ياسين، هي اللي خلت العالم تنهار وأطلعتهم، بس هينا هسا كل يوم بنعيش مأساة، كل يوم في نكبه، من 67 لليوم. امبارح في مخيمنا واحد على شعفاط طخوه رصاصتين، شو ساووا فيهم الطفل هذا؟ خليه يكون ضرب صرارة طخوه رصاصتين، ابن جارتنا لليوم الشظايا في بطنه" (من رواية الحاجة سارة، 67 سنة، مخيم قلنديا).

يبين المقطع السابق من رواية الحاجة سارة معاناة التهجير داخل فلسطين، حيث تركز الراوية على الممارسات الاستعمارية العنيفة لاسرائيل وقبلها بريطانيا ومن الملاحظ أن مجزرة ديرياسين تظهر كحدث محوري في الرواية. وبالمثل تذكر الروايتان التاليتان معاناة مشابهة خلال رحلة التهجير واللجوء خارج حدود فلسطين الانتدابية باتجاه لبنان وسوريا، بالتركيز على هموم اللاجئين اليومية في المكان الجديد الذي وجدوا أنفسهم فيه قسراً:

"أبي كان عنده بقر، وكل العالم طلعت منفضة إيديها ما معها شي، أبي كان عمره 14 سنة وما كان متعلم قبل ما طلع، تعلم بعد ما طلع. كان معود البقرات تبعه تتجه للشمال، عكس الناس الثانيين، كان معودها تطلع على لبنان يرعيها. أخذ بقراته فما كان عنده أي إشكال. العالم طلعوا ما عندهم شي، بس أبي أخد بقراته. وباعهم بلبنان. أما أهلي، من طرف أمي، طلعوا حفيانين، كانت ستي الله يرحمها طيبة لأبعد الحدود، طيبة لدرجة الهبل، يعني بصدقوا قالولهم اطلعوا، بكرة بتخلص الحرب وبترجعوا، طالعين حفيانين الأولاد. في إلهم صور وهم حفاة وشعرهم منكوش! أهل أبي طلعوا عن طريق لبنان هم أصلهم مغاربة أما أهل أمي صفدية قح. طلعوا عن طريق الجولان والدروز ساعدوهم ناس وسكنوهم ببايكة البقر، مع القراد والبراغيث وقالت أمي أنهم كانوا يتخانقوا على الخبز اليابس اللي يلاقوه في الطريق. وكانت أكلة طيبة كثير إذا لاقوا خبزة يابسة وأكلوها. وبعدين لما وصلوا لهون راحوا على عِربين وكانوا كويسين كثير معاهم بعربين. لهلا علاقتهم قوية مع بعض. أمي أول ما طلعوا من فلسطين وسكنوا بعربين كان عمرها ست سنين بعدين تعلمت الخياطة بالشام، وصارت خياطة لما صار عمرها شي 15 سنة. وأمي أول ما تجوزت كانت هي وأبي ساكنين بحارة اليهود. لهلا بتذكر هديك القعدات، ببيت شامي قديم وكل عيلة إلها غرفة. وكنت لما ييجي وقت الغداء كل واحدة تيجي عند البحرة وجايبة صحن من طبختها وقاعدين مع بعضهم. كانوا فقراء كثير ويشتغلوا الحارة كلها بلف الملبس. كانت تيجي سيارة ملبس كبيرة. ذكرياتي حلوة كثير بحارة اليهود. بحبها حتى ريحة البلاليع تبعها بحبها" (من رواية أسماء الصفدية، 46 سنة، مخيم اليرموك).

"بيت جدي ظللوا ساكنين بشارع الأمين[186] أخدوا غرفة هناك بحارة اليهود وصاروا يوسعوا شوي شوي وهناك استقروا بابا لما تزوج استأجر هون، هاي الأراضي كلها ما كانت موجودة، كانت بساتين وآخر موقف كان موقف السعادة، لأنه بابا مدرس طلع تدريسه بالمخيم (بمدرسة الوكالة) وماما كمان مدرسة فمشان هيك قرروا إنه أسهلهم لما يتزوجوا ياخدوا بيت بالمخيم. وجدي وستي لما كلياتنا طلعنا اشتروا قطعة أرض واختارتها تكون بالأخير محل ما في شجر زتون ظلت تدوّر على شجر زتون مشان قال تحط هيك صبة وتضل قاعدة برا. ولاقت بآخر المخيم في منطقة كبيرة فيها بس شجر زتون وستي زبطت 3 أو 4 شجرات هي ظلت تسقيها وتزرع حواليها. طبعا ظلت ستي تزرع، يعني بأي مكان كانت توصله كانت تزرع بأي مكان حوليها، يعني بالتنك تزرع

[186] شارع الأمين هو نفسه حارة اليهود المذكورة في الرواية السابقة، والواردة في معظم روايات مخيم اليرموك كمحطة أولى لسكن هؤلاء اللاجئين قبل مجيئهم للمخيم.

بصل، ما ترضى لحد ما يطلع البصل تاكل منه والبقدونس والنعنع وظلت تقول ريحة النعنع هون مو مثل ريحة النعنع هناك، هناك أزبط وأطيب! (مقطع من رواية سناء الحيفاوية، 40 سنة، مخيم اليرموك).

ثالثاً: صور من المقاومة

أهم ما يميز هذه الصور ضمن هذا النمط ارتباطها بشخص من الماضي، من الجيل الأول، قد يكون الأب أو الأم أو الجدة. فالرواية، خصوصاً عند الأكبر سناً، تتركب من خلال أجزاء من سير حياة هؤلاء الأشخاص من الجيل الأول. ويحلم الراوي هنا بفلسطين أيام زمان، من خلال معايشته لها في روايات الجدة والجد والأم والأب. وبهذا يتشابه هذا القسم من رواية الحالم بالماضي الجميل مع رواية المحبط، مع فارق واحد وهو أن الرواة هنا يتخذون موقفاً نقدياً من أحداث الماضي فتمتزج رواياتهم عن الأحداث التي ألمت بفلسطين بمشاعر الغضب والرفض لأداء الثورة الفلسطينية تاريخياً، ومواقف الحكومات العربية، وأداء الأحزاب الفلسطينية اليوم، ويكتسب الحدث موقفاً ايجابياً حين يرتبط بالمقاومة.

ومن الملاحظ أن المقاومة تتخذ موقعاً محورياً في روايات هذا النمط، كما في قصة الحاجة سارة التي تشدد على أن القضية لن تستمر بدون استمرار المقاومة، حيث تصف سياسات اسرائيل الاستعمارية وتنتقد مستوى الفعل العربي:

"لولا إحنا في الضفة وغزة بنقاوم، كان القضية الفلسطينية ماتت وما في قضية فلسطينية! لما كل واحد بده ينام ما في قضية فلسطينية، كل المقاومة واللي بيصير فينا هو لإحياء القضية الفلسطينية، بدنا نحييها، بدناش يصير فينا زي الأرمن، الأرمن راحوا ما في إلهم أرض ولا حدا بيجيب سيرتهم. عندي ولد لما كان عمره تسع سنين كنت أنا قاعدة على الماكينة بخيط وهو متقاتل مع أخوه على الخارطة، قمت بقولهم شو في، بيحكيلي يا أمي بده ياخذ الخارطة مني، قلت له طيب شو بدك تساوي فيها، قال لي _وحياة هذي النعمة[187]_ بدي اعرف لما أكبر وين بدي أروح أعمل العملية، على الخارطة، فقلت يا ويلك يا إسرائيل، مش ناسيينها أبدا، الجيل اللي بيجي بدون مبالغة بيجي لسه أنشط من الجيل اللي قبله. اللي بعمله هذا الجيل، الجيل الجاي مش راح يعجبهم اللي بيصير هسا، هو اللي بنزل على الموت بحزامه! ينسوا؟؟ الكل فلسطين فلسطين، ولا بنت ولا شب في العالم قاوم زي ما قاوم الشعب الفلسطيني. وضعنا بقي كما هو لأنه في هناك خيانة عربية دولية علينا، الأردن خايفه من الفلسطينيين، بيقولوا لو صارلهم دولة بيحتلوا الأردن، خذيها مني، وإسرائيل خايفه من الفلسطينيين بتسميهم الإرهابيين، بدهم يغطوا على القضية الفلسطينية وعلى حقوق الفلسطينيين كلها، وهذا مستحيل، انت بتنسي الحق؟ انت عليك بلوزه بقدر آخذها منك أنا؟ وأنا لو أخذتها ما بتنسيها؟ بس اعطتيني إياها بخاطرك وتكوني موافقة بمشي الحال هذا على مستوى بسيط جدا، فما رأيك في الأرض اللي أرواحنا فيها وعشنا عمرنا فيها؟ آبائنا وأجدادنا عاشوا فيها. اسرائيل جابت ناس من برة، جابت كل اليهود اللي برة وقعدتهم في أراضينا، وحسستهم بالأمان، وعملتلهم هذا السور[188] على أساس تثبتلهم إنه احنا دولة بنقدر نحميكم من هدول الجماعة اللي هم بسمونا نحنا ارهابيين، ما بسمونا إنه احنا بنطالب بحقوقنا، بسموا المقاومة الفلسطينية لما بنطالب بحقوقنا بسمونا بالارهابيين. بقولك طالما في حق وصاحبين حق بس هم بيعطوهم كل يوم في المدرسة وفي الجامعات إنه هذه أرض آبائنا وأجدادنا ونحنا حررناها. أما تقوليلي إنه أنا متفائل، لا، أنا متشائم، متشائم، المقاومة موجودة وبيجوز تكون اكثر من هيك مقاومة بس أنا والله بتأسف على كل نقطة دم طاحت على الأرض الفلسطينية والمؤامرات العربية وراها والمؤامرات الدولية وراها. يعني شعب فلسطين شعب ضعيف، يعني حجته هي هالمقاومة، فش إلا هالمقاومة، بنام الواحد وبيقوم على المقاومة. ودماء هالشهداء راحت خسارة لأنه فش فايدة

---

[187] توشر على قطعة خبز أمامها.

[188] دور الجدار المشهدي وأثره على الفلسطيني يرد في هذه الرواية وغيرها، فينظر إليه الرواة كاثبات على قدرة اسرائيل.

احنا عم بنضحي، وناس غيرنا بتحفرلنا في حفرة وبتدب فينا، هم عمال بحفرولنا في حفر الدول العربية مش بس الغرب. لازم يكون في تضحية أكثر من هيك بس عدونا صاحي، شوفي الجدار قديش كلفهم مشان يحموا شعبهم من اللي بقت تخش. بدنا حزب الله،ـ وين حزب الله؟ـ في الضفة الغربية في؟ خلينا على مستوى غزة، هاي غزة بتضرب عليهم في صواريخ وهم بيعملوا عليها حصار مزبوط؟ هلقيت إذا إجا واحد وقف على جبل الطويل، عند أم الشرايط وضرب على جبل الطويل على هاي المستعمرة صاروخ والله ـغير يبيدوا الضفة الغربية بأكملها.[189] وين رحنا؟ الشغلة بدها سياسة والحرب خدعة، أما هذا كله كلام فاضي، قول ضربوا صاروخ، قول ضربوا طلقة، قول ضربوا حجر، بتظل القضية حية، أما أكثر من هيك لا، أما تفاؤل ما فش تفاؤل أبداً. بدها قوة طبعاً" (من رواية الحاجة سارة الصرعاوية، 67 سنة، مخيم قلنديا).

وبالمثل تذكر أسماء، في مخيم اليرموك، الانتفاضة الأولى كنموذج للمقاومة الشعبية في الماضي بينما تنتقد سلوكيات المقاومة في لبنان والاقتتال الداخلي بين الفصائل اليوم، لكنها في النهاية متفائلة بالشعب الفلسطيني وبقدرته على النهوض والتغيير:

"كانت الانتفاضة الأولى مثل واحد كانت رقبته هيك طاعجة من التعب، كان منهك ومتعب، من الضرب يعني بحرب لبنان والقتل والضرب بس لا تنسي هم تجبروا. بتذكر كانوا نسوان الفدائية كأنهم ملوك! يقتلوا اللبنانية ويسرقوا محلاتهم ويتجبروا. نحنا بالحقيقة _بيناتنا هاي .. نحنا شعب جبار_ حتى على أنفسنا. يعني ما عناش حل وسط. يعني احنا جبارين على حالنا وعلى العدو، لما بلشوا يتخانقوا حماس وفتح كنت بتمنى تصير عملية مشان تتجه الأنظار إلها. مثل واحد يذكرهم تذكروا مش أنتم أعداء بعض، في إلكم عدو. فلما بتصير اسرائيل تقتلهم بقول يالله ها! احنا بنطبق المثل "أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب" فأنا لما بصير أتقاتل أنا وأخي بتمنى الغريب يبلش يتقاتل مع ابن عمي مشان يفكوا عن بعضهم ويركضوا كلياتهم وراء اسرائيل. يعني قد ما كان إذا كنت على خلاف مع أخي ما بتوصل لدرجة إني أؤذيه وأفجره يعني هم اخوة بتقاتلوا على كراسي؟ ما هو فش كراسي من الأصل؟ يعني أنتم كلياتكم مع بعضكم فش محل يعني مثل واحد أعطوه عظمة مشان يسكت شوي، تضحكوا علينا بشقفة عظمة. كان في عليها شوية لحمة وبلش كل واحد ياكل، ياكل *(كانت الراوية تتحدث هنا وهي تمثل طريقة الاكل)* ياكل لحد ما من كثر ما أكلوا من العظمة وصلوا لـ تمام *(تقصد أفواه)* بعضهم. وصاروا ياكلوا ببعضهم الأثنين وبالآخر من اللي أكلها؟ العالم، الشعب، وصلت إنه يستخدموا زيت القلي كنفط![190] [...] بالنسبة إلي اتفاقيات أوسلو بعتبرها مو من حياتي، يعني نقطة انحراف غلط، مثل واحد دار دورة غلط. وبعتبر إنه أحداث مخيم جنين هي اللي بتثبت لك إنه مش ممكن يقضوا على الشعب الفلسطيني، يعني لو حطوهم بقنينة وخنقوهم بغاز مسيل للدموع. بعدين انتخاب حماس أثبتوا إنه نحنا شعب ديمقراطي، الانتخابات كانت نزيهة وكويسة وأثبتوا إنه نحنا شعب بلبقله الحضارة، ولو بيعطوه قطعة أرض للشعب الفلسطيني وبخلوه منفتح على مصر فوراً بيصير، بخلق بنهض دغري، يعني كيف الشعب الياباني بده يثبت نفسه من القنبلة من العدم وصار فوق خلال فترة بسيطة 30 و 40 سنة نحنا أعطينا 30 – 40 سنة للشعب الفلسطيني مع علاقات مفتوحة مع الجوار وبيصير الشعب الفلسطيني شعب مميز." (من رواية أسماء الصفدية، 46 سنة، مخيم اليرموك).

رابعاً: قصص الهزائم والانتصارات

[189] لا يقتصر القمع على مشهدية الجدار وحدها وإنما يفعل العنف والضرب الاسرائيلي المستمر فعله في تكريس فكرة قوة المستعمِر، الذي لا يمكن مواجهته إلا بقوة مماثلة.

[190] في اشارة إلى الحصار المفروض على غزة منذ أواسط 2007.

تلخص سناء الحيفاوية قصص الهزائم والانتصارات في المقطع التالي، وتركز على قصص الانتصارات التي تحددها بمقاومة اسرائيل ورفض الاعتراف بها ونمو الروح الثورية بين اللاجئين كردود فعل طبيعية لوضع الاستلاب الذي ما زال الفلسطينيون يعيشونه يومياً:

"في مرحلة عشناها لما كنا بالجامعة قد ما كان في حالة ثورية لما كنا بدنا نحضر حفلة لفرقة العاشقين أو أية فرقة تيجي نحس حالنا بعدها هلا إذا بياخدونا نقاتل، نفسنا نفوت أو نعمل عملية. هاي كانت بأوجها في فترة الثمانينات بعد هيك ما عاد حدا يهتم. العالم نسيت فلسطين أو صارت تشتغل على فلسطين كتنظيمات عشان تأخذ مصاري. الانتفاضة هي اللي شعلت ورجعت حسست الشباب إنه في أمل، في هلا نظره، أنا شايفتها، إنه الشباب صار عندهم إيمان بالقضية. أنا بالنسبة إلي مو مع حدا معين، بس وجهة نظر حماس كثير عجبتني إنه: طبعاً ما بصير نعترف بوجود اسرائيل، وبنفس الوقت فتح تعبوا. أصلاً إذا اعترفنا بوجود اسرائيل معناها القدس راحت منا، معناه ما راح أرجع على الطيرة، معناه أراضي الـ 48 راحت علي بس يعني كيف بيعترفوا؟ بعدين باسم مين بدهم يعترفوا هم؟ يعني هي الرئاسة بدها تعترف باسم قسم؟ لا أعترف أنا بوجود اسرائيل، ما في كلمة اسرائيل، في كلمة ديانة يهودية في عندي يهودي أميركي بروح على أميركا في يهودي مصري بروح على مصر وبترجع فلسطين إلنا. في حالة وعي، أنا بهمني يكون دين؟ طبعاً لأنه هم حاملين عقيدة وعقيدتهم اللي مخليتهم ياخدوا أرضنا فإحنا عقيدتنا الأحق لأنه احنا ديننا الاسلام واللي هو الأسمى والأشمل واللي اجا للعالم كله وإذا كلنا تمسكنا فيه ربنا بوقف معنا. **وكثير حابة يفوتوا أولادي بتنظيم لسه لهلا ما طلع. يعني أحسهم زلم رجال هدفهم التزام ديني وطني، بدي إياهم يطلعوا يقولوا "فلسطين بدنا اياها كلها".** يعني هذا شعارهم وهاي ما يناقشوا غيرها. يعني هاي التنظيمات اللي بتحكي ما بتأخذ رأينا، يعني احنا الفلسطينية وما بعرف هدول من وين جايين؟ بتسمعي حديثهم بيحكوا حكي ما بنفهمه! متى ما صاروا يشرحوا ويحكوا جمل هيك مركبة بيأخدوها من الكتب بتعرفي إنهم فاشلين. يعني سمعت فكرة إنه في دفع كمان؟ يعني كلمة تعويضات، مين اللي اقترحها؟ طب يعطوا التعويضات لليهود، ينقلوهم، يعطوهم مقاطعة بأميركا كاملة، يعطوهم لندن، إيه لندن العاصمة، يعطوهم اياها أربحلهم.".

ويظهر صوت المعارضة، في رواية سناء، بوضوح أكبر مما كان في الأنماط السابقة، فالرواة ضمن هذا النمط يرفضون الاستسلام للواقع البائس والمستقبل المجهول ويعبرون عن هذا الرفض من خلال اللجوء إلى تشكيل ذاكرة تتمسك بالماضي الجميل: الحياة في فلسطين قبل الاقتلاع أو المشروع المقاوم من أجل انهاء حالة الاقتلاع. وينعكس هذا الرفض على المستوى الفردي من خلال انتقاد التغيير السياسي الذي برز إلى الوجود فجأة دون أن يأخذ اللاجئين وقضيتهم في الحسبان:

"هلا الشغلة الغريبة اللي بتفهميها إنه في البداية اسرائيل قبل ما تصير هاي الحروب نادوا وقالوا خدولكم قسم من الضفة. وأبو عمار، حكى مستحيل: خيانة خيانة! والسادات خائن وما بصير إلا نرجع وأرضنا كلها ترجعلنا، **كيف فجأة صار هيك؟ ما بعرف، كبرت سنتين أو أنا نمت سنتين وفقت لقيت بدي الضفة وغزة! وفجأة كل القوانين اللي كلنا بنسمعها! بتسمعي شعارات بترددها وما بتفهميها. فجأة تغيرت**، كنت تسمعي فلسطين من وين لوين، وما عاد سمعت، صاروا بخافوا يستعملوها، صاروا يقولوا الضفة، وصاروا يقولوا هلا أراضي الـ 48 وأراضي الـ 67. ما هذا تقسيم اسرائيلي؟! احنا ما دخلنا فيه يصطفلوا يعني شفت مجزرة جنين اللي صارت يعني وين العالم؟ وين اللي بالداخل؟ يعني شوفيهم كيف بتحاصروا، اطلعي كيف يعني بتتطلعي بنحرق دمك اللي برا، واللي برا عانوا أكثر. أنا أمنيتي **أكيد ترجع فلسطين كلها، وبداية الأحزاب هاي كلياتها تنحل، وأمنيتي تنعمل انتخابات مثل العالم والناس ولما تطلع هاي الانتخابات لصالح الشعب واحنا نوافق عليها، أميركا ما تتدخل وما يدخلوا العملاء الكثار، واحنا لازم نشارك بالانتخابات واحنا اللي تقلعنا قال ليش ما رجعتوا؟ ليش هم اللي إجوا بكيفهم؟ ما حدا لا بكيفه ظل ولا بكيفه طلع. بعدين أراضي الـ 67 شو أنانيين يعني إذا أخدوا قسم أو فاتوا يعني لما فات أبو عمار أنا حسيته شوي ثانية لو طول أو ربنا مد بعمره خلص أعلن دولة فلسطين أنا ما بتعبي عيني دولة فلسطين بحسها معتة على هاي المنطقة الصغيرة. كان أعلن دولة فلسطين ونسي القسم الثاني**

وهو عملياً تنازل عن القسم الثاني. أنا إذا بتسألي ابني علمته إياها والآنسة بتقول لي مشان الله الغي لي هاي الجملة بس تسألي ابني عن اسمه بقول لك: أنا اسمي الشهيد المهندس عبد الناصر. ليش: لأني أنا بدي أكون دِيّن، وبخاف رب العالمين، وبحب فلسطين وبدي أصير مهندس وبدي أستشهد ما كلنا ميتين! بموتتك لازم تكون شهيد بإذن رب العالمين بدك تموت ما مضطر تموت وتكون هامل بدك تصير مهندس وتصير شخصية كبيرة وإذا دعيت للجهاد لازم تلبيه اجباري يعني طب إذا احنا ما عملنا هيك مين بدو يعمل؟ **كل وحدة حاطتلي ولادها بحضنها وبتقول فلسطين بدنا إياها. كيف بدنا إياها طيب؟"**

ويرتفع الصوت النقدي عند الرواة الأكثر تسيساً، حيث تنتقد أم سعد سلوك التنظيمات والفصائل والتراجع الذي أصاب آلية عملها، وتنتقد بالأخص غياب التقييم الذاتي لدى هذه الفصائل والقيادات:

"صرت أحس الفصائل هلا في صراع على المصالح والكراسي، زمان كان دور الفصائل مختلف، وبرضه كان في عدة فصائل بس كان في تماسك أكثر، كان في اتحادات بتربط: الاتحاد النسائي، اتحاد العمال، اللجنة الشعبية للمخيم. كلها كانت تتشكل من الفصائل، يعني كنت تحسي إنه في مرجع للمرأة، مرجع للشباب، مرجع لشؤون المخيم، **بس حالياً لا كل فصيل بتحسيه فصيل لحال،** حتى منظمة التحرير بطلت تحسيها كقيادة بعد ما قدموا كل التنازلات وبعد ما تخلوا عن الكفاح المسلح، بالميثاق الوطني، يعني صرت تحسي إنه الفصائل شكلية. هلا في اندفاع عند الناس، لما جابوا الشهداء،[191] لا في دعوة من فصائل ولا في شي، بتحسي الناس لحالهم طلعوا، اندفاع ذاتي. اسا صارت الناس تشتاق لشي تطلع مشانه. قعدنا شي خمس ساعات نستنى، أنا يومها حسيت إنه الإنسان ما بضيع حقه، يعني شوفي في شهداء صارلهم 25 سنة بس بالنهاية رجعوا لأهاليهم. يعني كل شيء بنناضل لأجله وبنظل متمسكين فيه برجعلنا. بس بنتنازل وبنتخلى عنه بروح منا. وإذا بنظل بهذا الشكل ونفس القيادة! **نحنا ما في عنا تقييم ذاتي،** اسا شوفي اسرائيل: دغري قيموه لأولمرت وعم بحاسبوه لأنه قدم رشوة بس **احنا ما في عنا هاي الشغلة، احنا بيسرق وبينهب وبظل نفس الشي مسؤول ما في عنا تقييم ذاتي، لو كل واحد بقيم نفسه وبقول إنه أنا بطلت استاهل هذا المركز،** يعني لأني أخطأت أو غلطت ببطل عنا هيك. إلنا من الـ 65، لما انطلقت الثورة ولليوم ما بتحسي إنه تغيرت هاي الوجوه. نفسها، ما عملولنا أي انتصار وظلوا هم هم. المفروض كل مرحلة يصير عنا تغيير، حتى نشوف الناس اللي قصرت وين قصرت وننشط أكثر ونكفي. لا نحنا عم بنظل نفسنا نفسنا، يعني من حرب الـ 82 اللي صارت بالجنوب، نفسهم القيادات اللي هربوا من الجنوب وسلموها لاسرائيل، ثلاثة أيام ما صمد، والجنوب كان عنده أسلحة أكثر مما اسا في بغزة وبالضفة، ثلاثة أيام وانسحبوا كلهم، نفسهم اللي راحوا من هون على تونس، ومن تونس نفسهم رجعوا واستلموا المراكز يعني المفروض يكون في تقييم لمرحلة مضت ونشوف وين خللنا ووين قصرنا ونقيّم ونحسن. الإنسان مش غلط مشان وطنه ومشان ما نتنازل أكثر، إنه يتنازل عن كرسيه، لأنه هذا كرسي مش دايم، المفروض أحقق انجاز لشعبي! والجانب العربي والإسلامي كثير مقصرين بالنسبة لقضيتنا وما عندي أمل فيهم يعني القدس هي للإسلام كله مش لالنا لحالنا، مين اللي حررها وفتحها للقدس؟ عمر بن الخطاب، نحنا هاي راحت القدس منا شو عملنا؟ شو عمل الاسلام؟ يعني بالآخر حقنا أخذوه منا بالقوة ونحنا ما بنرجعه إلا بالقوة، يعني نقول بالمفاوضات والتنازلات ما بصير شي، إلا بالكفاح المسلح. ويعني دولتين داخل وطن واحد ما بصير! هاي قديش بتشكل غصة عند الإنسان إنك تشوفي عدوك قاعد ومرتاح ببيت أفضل من بيتك وبحياة أفضل من حياتك وأنت صاحبة الحق زي اللي عم بتستعطفيه. بس طول ما في طفل فلسطيني حامل حجر في أمل! يعني بتحسي الطفل متغرس بوطنه أكثر من الكبير، والطفل اللي هون من الصورة اللي بشوفها من الواقع الفلسطيني، طفل الحجارة، يعني إنه بده يعمل شي مشان يكسر هذا الحاجز، وبنتمنى من الدول العربية إنه تفتح الطريق وتفتح المجال لأنه كيف بده يستمر النضال إذا عم بحاولوا يقمعونا ومهمشينا [...] وكيف احنا متمسكين بهالفصائل وبهالثورة وما عم تنجزلنا شي؟ يعني بنتمنى يطلع طرف اللي ينجزلنا مثل ما أنجز حزب الله حتى نتمسك فيه ونمشي على خطاه".

[191] تقصد شهداء عملية الرضوان التي تبادل فيها حزب الله جثماني جنديين اسرائيليين مقابل عدد من الأسرى وجثامين لشهداء كانت تحتجزهم اسرائيل لديها في تموز 2008، وقد تكرر ذكر شهداء الرضوان في العديد من الروايات في مخيم اليرموك وتنوعت الآراء بين مؤيد ومعارض لهذه العملية. أنظر رواية رندة من النمط المأسور بالمشهد المحيط.

الرواية بين المخيمين

تنعكس في روايات هذا النمط آثار التغير الذي أصاب الوعي الفلسطيني الرسمي من ناحية الخطاب والممارسة السياسية، وانقلاب القيم والمعايير (بمفهوم اللامعيارية الدوركهايمي) التي كانت تشكل الذاكرة الجماعية الفلسطينية المتمحورة حول حادثة الاقتلاع في الماضي ومشروع المقاومة في الحاضر من أجل تحقيق التحرير والعودة في المستقبل. بعد أن تم اختزال هذه الذاكرة في الخطاب والممارسة السياسية الرسمية إلى مشروع دولة فلسطينية على أقل من 20% من فلسطين الطبيعية وتأجيل موضوع اللاجئين إلى أجل غير مسمى. وبهذا يقترب وضع الخطاب السائد في الساحة الفلسطينية هنا من حالة الأنومي أو اللامعيارية التي وصفها دركهايم. وعلى الرغم من أن الرواة في المكانين تعرضوا لنفس التجربة من الاقتلاع العنيف، إلا أن مكان اللجوء ومدى بعده أو قربه من البلد الأصلي يؤثر في شكل الصور التي يحملها اللاجئون عن بلادهم في المخيمين. فمن الملاحظ، في هذا النمط وغيره، أن صور القرية أو المدينة الأصلية في روايات مخيم اليرموك هي أكثر عمقاً وتفصيلاً من تلك التي تظهر في روايات مخيم قلنديا، وهذا الاختلاف يبدو أكثر وضوحاً بين رواة الجيلين الثاني والثالث، اللذين تركز عليهما الدراسة، بينما تتشابه روايات الجيل الأول للنكبة بغض النظر عن مكان اللجوء كما أظهرت العديد من الأبحاث التي أشرت إليها في الفصل الأول. قد يفسر هذا ازدياد عدد رواة هذا النمط في مخيم اليرموك عنه في مخيم قلنديا: 9 في اليرموك مقابل 2 في قلنديا. ولا يقتصر الاختلاف على عدد الرواة وإنما ينعكس في مضمون الروايات ليبدو وكأن الراوي/ة في مخيم اليرموك يشعر بغربة مضاعفة: أولاً بتأثير حادثة النفي القسري التي حولته/ا إلى لاجىء/ة، وثانياً لاستمرار حالة اللجوء وتغييب المشروع العام لمقاومتها وتغييرها، فيصنع اللاجىء هنا مشروعه الخاص لرفض الواقع المفروض عليه قسراً باستعادة الماضي وترسيخه في أذهان أبنائه أحياناً ويلجأ إلى نموذج المناضل والمقاوم الذي يتناغم مع الحركة الوطنية النضالية في الماضي. إلا أن تغييب هذا النموذج، في الفضاء الفلسطيني العام اليوم، عبر اختزال حاضنته بعد تمأسس الفصائل وتحولها إلى شعارات ترك اللاجئين في حالة انتظار. فماذا يعني أن تكون لاجئاً هُجّر من بلاده التي لا تبعد سوى مرمى حجر عن مخيم طال انتظارك فيه للخلاص وبدون مشروع لانهاء حالة اللجوء؟

ويمكن ايعاز جزء من الاختلاف بين مضامين الروايات في المخيمين إلى تنوع مصادر صورة البلاد في الماضي لدى لاجئي مخيم قلنديا لتعتمد على الأهل وزيارة المكان، يلعب الأهل الدور الأكبر في غرس صورة الماضي في أذهان الأبناء في مخيم اليرموك. يظهر هنا تأثير البعد الجغرافي في بناء صورة متخيلة مثالية لفلسطين الجنة.[192] ففي قلنديا، تظهر الصورة المفصلة للبلاد بشكل أوضح في رواية الحاجة سارة وهي تُعتبَر من الجيل الأول، في حين تركز الراوية الأصغر سناً في قلنديا على صورة ماضي المقاومة الجميل. أما في اليرموك، فمن الملاحظ أن الصور الجميلة للبلاد مختزنة في ذاكرة العديد من الرواة على اختلاف أجيالهم. ويظهر هذا الفرق بين المخيمين في روايات المبحوثين

[192] تتكرر هذه الصورة في كثير من الأبحاث التي تعتمد أسلوب التاريخ الشفوي، خاصة بين رواة الجيل الأول، والتي استعرضت نماذج منها في الفصل الأول من هذه الدراسة تحت عنوان فلسطين في الدراسات السابقة.

الأكبر سناً ضمن هذه العينة، حيث تقدم الحاجة سارة صورة أكثر واقعية لقريتها الأصلية صرعة من تلك التي يرسمها الراوي من مخيم اليرموك لصفورية التي تمثل جمال الطبيعة الخالي من أية شوائب لتبدو الحياة فيها مثالية، لا ينقصها شيء فالخير كثير والناس كانت ترتدي الحرير.[193]

وفيما عدا ذلك تتشابه مضامين وأشكال روايات هذا النمط بين المخيمين. حيث يشترك رواة هذا النمط في نظرتهم للمخيم، فيعبرون عن رضاهم عن الحياة فيه. فالمخيم في رواياتهم هو مكان مؤقت لحين العودة للوطن، وهو المكان الذي يسمح بنمو نَفَسْ الثورة بما يسهم في تشكيل الهوية الفلسطينية الجماعية:

> "أنا سعيد في المخيم، صحيح كان في فقر وبؤس بالمخيم في الستينات بس كنا مبسوطين يعني، كان الجو العام بهديك الفترة لاننا كنا قريبين من معسكر الأشبال، وكنا نشارك في كل حدث يخص القضية. يعني لأننا ساكنين جنب مقبرة الشهداء وكل يوم نشوف. وحتى الأناشيد الثورية كانت تُبَث كل يوم من المكروفونات نسمعها من المقبرة في متحف لجيش التحرير- كل يوم نسمعهم يحطوا مثلاً قرآن وأناشيد الثورة- هاي كلها في بداية السبعينات، قبل الـ 75، بس بظل إنه نعمر مخيمنا لأنه هون مؤقت ولو عمار جيد وممتاز بس مؤقت، حتى نرجع لفلسطين" (من رواية بكر معذري، 46 سنة، مخيم اليرموك).

> "في المخيم، هان بحس حالي إني عايشة في وطني، **هان لأني قريب من فلسطين[194] هان، قريب من بلدي.** طبعاً بعتبروها زي اهانة، حتى بنقلهم احنا يعني مخيم قلنديا أو أي مخيم أطلع شباب كويسين، ايش يعني ابن مخيم أو مش مخيم؟ أصلاً احنا اللي ثبتنا حقوق الناس في القضية، احنا اللي منقاتل اللاجئين، احنا اللاجئين اللي ثبتنا حقوق تاعين القرى اللي قاعدين بيبيعوا في أراضيهم لليهود بالخفية، احنا ما بعناش، احنا طلعنا جف (كف) أبيض" (من رواية الحاجة سارة، 67 سنة، مخيم قلنديا).

> **"أنا شرطي الأساسي أظلني بالمخيم، هلا أنا صاححلي لأني مقدمة على بيت،[195] بس هذا البيت حاطتته بالمستقبل للأولاد وقلت** له، لجوزي، أنا ما بترك المخيم. أنا هذا المخيم بكل وضعه اللي هون كثير حابة أعيش فيه، ما بقدر يعني هذا الهوا السخن وهاي العجقة يعني شعبك، وكثير بتتفاجأي لما بتتطلعي برا، مثل اللي تكوني لابسة هيك شيء وفجأة بتشلحي بتبردي، ما بعود حدا يتعامل معك، هون بتمشي بنت فلان من وين؟ من البلد الفلاني، بنعرف بعض، برا بتحسي حالك ضايعة بكفي يعرفوك فلسطينية، لكن الفلسطيني بحب يعرف أنت من وين من فلسطين وبتصيري تحكي له وتصيري تقولي له أمي من صفد أما السوري شو بدك تقولي له من وين أنت؟ فلسطينية وبتسكتي لأنه اللي بعده ما بيهمه، طب كيف بدك تعيشي مع ناس ما بهمهم؟" (سناء الحيفاوية، 40 سنة، مخيم اليرموك).

لاحظت خلال مقابلاتي مع الرواة ضمن هذا النمط تحديداً وفي بعض الأنماط الأخرى وبالأخص في مخيم اليرموك، أن الماضي الجميل لا يسكن خيال اللاجيء فقط وإنما يحيط به في زوايا المنزل من خلال صور أو مقتنيات تراثية يحتفظ بها الرواة في أماكن بارزة في غرفة استقبال الضيوف، أو على مدخل المنزل، وقد صورت بعضاً من هذه المقتنيات التي أرفقتها في الملحق رقم 1 في نهاية الدراسة. يروي عبد الوهاب الصفوري قصة دلة القهوة والصينية التي أحضرتها والدته بعد التهجير حين تسللت إلى منزلها في صفورية:

---

[193] أنظر إلى رواية عبد الوهاب الصفوري المرفقة في نهاية هذا النمط.

[194] يظهر هنا وكأن الراوية التي تسكن في مخيم قلنديا، لا تعتبر أنها في فلسطين، ففلسطين هي المكان الذي توجد فيه قريتها الأصلية صرعة، وليس مكان وجودها الحالي في المخيم.

[195] تقصد أنها تشترك في جمعية سكنية تسمح بشراء بيت بالتقسيط.

"في عنا دلة قهوة و صينية قهوة، قهوة مرة. هدول من فلسطين. لما طلعنا من فلسطين حتى إمي نسيت أخوي وفكرته مخدة فحملت المخدة وطلعت. كان أول يوم برمضان والناس قاعدة بتستنى الآذان. إجا الطيران يقصف لأنه بلدنا قاومت. فلما قاومت البلد ما قدرولها فضربوها بالطيران، صارت تنزل على الناس وكانت الناس عم تفطر ما كملت إفطارها حتى. إمي حملت المخدة وتركت أخوي الأكبر مني، كان نحيف. أنا حملتني أختي وركضت. ووصلت إمي شي 500 متر وبعدين انتبهت. رجعت أختي جابت أخوي وطلعت. وطلعوا الناس. هجت الناس. وطلعت على لبنان. وجينا إحنا على حماة قعدنا سنة. وسنة الـ 50 رجعنا على بيروت. وسنة الخمسين رجعت إمي على فلسطين. راحت على فلسطين وجابت الصينية ودلة القهوة. راحت تسلل، ماهو كان بالأول ممكن! اسرائيل ما كانت دولة موقفة كتير، وكانت الفرص أكثر."

"أنا في البيت مثلاً بحتفظ بخريطة فلسطين وتسجيلات وشغلات هيك، وبحكي لأولادي دائماً عن فلسطين، وبشارك في فعاليات ثقافية، شاركت في ذكرى النكبة بمعرضين للتوثيق: عندي شوية أوراق عن فلسطين، ايصالات ضرائب، كواشين، شهادة ميلاد جدي، جواز سفر للوالد، يعني أوراق بتخص أهل أمي وأهل أبوي." (من رواية بكر معذري، 46 سنة، مخيم اليرموك).

لكن أهم ما يرغب اللاجيء في الخارج باقتنائه من الداخل هو "التراب" وبالتحديد تراب قريته، ومن أمام بيته بالذات. وقد عبر لي عدد من الرواة في مخيم اليرموك عن شعور الألم الممزوج بالفرحة حين لامسوا لأول مرة حفنات تراب أحضرها أقرباء لهم جاؤوا من فلسطين المحتلة سنة 1948. ولم أستغرب حين افتتح عبد الوهاب الصفوري روايته بطلبه أن أحضر له بعض التراب في زيارتي القادمة:

"انت بصحلك تروحي على الجليل؟ الجليل من أجمل مناطق بلادنا. (الباحثة: لا والله،ـ لكن أستاذي، مشرف بحثي هذا من الجليل من عرابة البطوف) اه قبل ما أنسى. أنا بدي أوصيكي تجيبيلي تراب من صفورية ولو عن طريق أستاذك. (الباحثة: أنت شو بدك فيه التراب؟) آآآآآخ، شو بدي فيه؟ أنا بدي (يصمت). (الباحثة: لازم أجبلك شي ينزرع) فش عنا أرض نزرع (يصمت). هو اللي صار فينا ما صار بحدا ولا بشعب بالعالم. يعني إحنا ببلادنا كان عنا أرض وعنا شجر وعنا بقر وعنا خيل وعنا جمال وعنا زيتون وعنا وعنا وعنا".

نموذج من روايات النمط الحالم باستعادة الماضي الجميل

في ظل غياب مشروع سياسي يحقق اللاجئون من خلاله أملهم بالتخلص من حالة اللجوء واستعادة حقوقهم وكذلك في ظل غياب تاريخ رسمي يدون قصصهم، ما زالت الذاكرة المليئة بصور تعبر عن الماضي الجميل والمقاومة من أجل استعادته _التي يحرص اللاجئون ضمن هذا النمط_ على توريثها لأبنائهم لتصبح هذه الذاكرة هي السلاح الذي يواجهون به الواقع المستمر من الاستلاب والحرمان. هذا الجانب من رواية هذا النمط يجسد الدور المهم الذي تلعبه الرواية التي يقدمها الجيل القديم وتأثيرها بالطبع على الأجيال التي تنشأ في مخيمات اللجوء، والأهم ربما أن المخيم هو مكان يشكل هوية اللاجيء، ولكنه لا يحل محل الوطن المسلوب. أورد فيما يلي سردية عبد الوهاب الصفوري، 62 عاماً من مخيم اليرموك، والتي يروي فيها حكاية فلسطين بأسلوب يمزج بين الشعر والسرد فيصف الطبيعة بتفاصيلها المميزة، ومن ثم يقارن الصورة الجميلة للبلاد بمرارة الغربة واللجوء ويصف لحظات نجاح المقاومة وفشلها في استعادة الماضي الجميل وهو بالنسبة له يعني انتهاء لجوئه والعودة إلى بيته في وطنه.

صورة ماضي البلاد الجميل – الفردوس المفقود

حابب أقرألك عن صفورية، أوصفلك إياها[196] [...] شوفي أنا قاسي جدا إذا بشوف زلمة عم بندبح قدامي ولا كأنك عم تدبحي جاجة، بس أمام فلسطين ضعيف ببكي! هلأ كل جسمي اهتز. هاي في عندي هدول القصيدتين بتناسبوا مع موضوعك، طبعاً هذا خيال، لأني أنا طلعت من صفورية لا شفت صفورية ولا بعرفها يمكن شربت من ماءها ومشيت على ثراها وأكلت من غذاها واستنشقت هواها لمدة سنتين بس ما بعرف شي منها، ما بتذكر شي منها. بس هون أنا، في القصيدة، راح تشوفيني وكأني ابن صفورية وبعرف كل صفورية من خلال الكلمات والأشياء الموجودة:

كيف أرسم صورة لك في عقلي يا صفورية؟ كيف ضاعت شمسك العطشى لها أجفاني؟[197]
كيف أغفو وخيوط الحزن في أهدابي؟ كيف أشكو ولمن أشكو حياتي الآتية؟
كيف أنسى ماءك الرقراق في أنحائي؟ كيف أنسى القسطل[198] المعطاء والعيون الجارية؟
كيف برقوقي[199] وريحاني وأزهاري وكيف الساقية؟ كيف تفاحي ورماني وزيتوني وكيف الخابية؟[200]
كيف فيك التوت والجميز كيف أختى الغالية؟ كيف فيك الشوك والعليق والعكوب والسناريا؟[201]
كيف الصنوبر والخروب والبلوط كيف الطبيعة الراقية؟ كيف الينابيع الجميلة والأمطار كيف الدالية؟
هي هاي خيال، أنا بتخيل، ما أنا والدي كان عايش في صفورية، وهلا بصورلك الطفل الفلسطيني كيف كان عايش وكيف كان يلبس وكيف صار يلبس بعدها، انا لما طلعوا أهلي كنت ألبس شادر أهلي كانوا يقصوا من الخيمة ويعملولنا أواعي نلبسها قد ما كانوا فقراء. ما راحت أموالنا وأرزاقنا وراح كل شي!
كيف الزعارير الأباة[202] وكيف داري العالية؟ كيف ضاع الأهل والأحباب وكيف ماتت ذاتيَ؟
كيف موال الصبايا والأهازيج السعيدة صارت باكية؟ **كيف أطفال الخز المزخرف والحرير[203] صارت حافية؟**
كيف العباءة والقمباز وأثواب الفخار صارت بالية؟ كيف من عز ومجد إلى ذل وهون آلت حالي؟
كيف ألقوني وراء الخيم ظلما وداري صارت خاوية؟ كيف أحلامي تلاشت تحت نيران الغزاة الباغية؟
كيف ضاعت كيف ضعنا في البلاد النائية؟ كيف تاهت وتداعت أمنياتي وخطى أقدامي؟
كيف ضعت كيف مزقت ودمرت يا ربا أجدادي؟ لست أدري أأنا الجاني أم أنت الجانية؟
أم سوانا أحرق الحب والتحنانا في أوطاني؟ ما عدو صنعت يداه ما صنعت يداك يا بريطانيا.[204]
لست أدري أأنا التائه عنك أم أعدائي؟! قتلوا النور وأعموا مقلتي ومزقوا أحشائي.
حطموا الأطراف والهامات وهشموا عظاميَ. شرّدوا الشعب الذي ما ذل يوما مزقوا أوصالي.
ثم قالوا للدنى الصماء والعمياء عن حقوقنا أننا شعبٌ يحب القتل والارهاب والأنانيا.
ثم جاء الكاهن المر يصوغ لاسحق هانيا. أتلاشت بعدها الآمال وضاعت في الدجى أحلامي؟
لا وألف ألف لا ما هانت رباك يا صفورية. إن خبا نوري ستأتيك بالسما أبنائي.
أقسمت بالجبار يا ربا حبيبتي صفورية آتيك يوماً أملأ الدنيا عماليق القلوب القاسية.
وتعود تمرح أطفالي وأطياري في رباك الزاهية، وتعود للشعب الأبي حقوله وتنير عتمته سنا أقماري."

ثانياً: حكاية الاقتلاع من البلاد ورحلة التهجير وأيام اللجوء الأولى ولحظات المقاومة والقمع

لما طلعت من فلسطين كان عمري سنة ونصف أو سنتين، يعني أنا بقول لك من خلال ما كان يروي أبوي أو تروي إمي. يعني أنا بتخيل بلدنا صفورية من خلال كلام أهلي، إحنا طلعنا من فلسطين على لبنان بالشمال لأنه إحنا منطقتنا الناصرة لأنه صفورية شمال غرب الناصرة بتبعد حوالي 5 كم عن الناصرة فاتجهوا باتجاه جنوب

---

[196] بدا الراوي متأثراً بالحديث واغرورقت عينيه بالدموع أكثر من مرة.

[197] أثناء القائه القصيدة، كان الراوي يشرح معاني بعض المفردات والتعبيرات. أوردت الشرح في الهوامش كي لا يقطع انسياب القصيدة.

[198] يشرح "القسطل" هو نبع مياه في صفورية.

[199] هنا يسألني: عرفت البرقوق؟ أجبته: آه الخوخ، فصححني: لا شقائق النعمان، الورد، هذا بطلع من دم الشهداء، هذا كله بصفورية، بفلسطين بشكل عام، وخاصة الشمال.

[200] يسألني: عرفت الخابية؟ جرة كبيرة بحطوا فيها الزيت والقمح.

[201] "يتوقف الراوي ليسأل هنا: بتعرفي شو السنارية؟ أجيبه: لا، فيوضح: السنارية هاي ذاكرها نبتة مثل الشومر والزعتر والخبيزة والحميضة، يعني الفلسطيني بفلسطين حتى لو ما اشتغل بعيش من الأرض والفواكه في عندك الجميز والتين والبلوط والخروب والبطم والتوت يعني بياكل علت وخبيزة وزعتر، كل أنواع الخضراوات والخرفيش، أراضي خصبة، فلسطين يعني كلها دم، ما بتشوفي هذا البرتقان هذا الزغلولي بيطلع مثل نقاط الدم فيه قد ما ارتوت أرض فلسطين بالدماء".

[202] عيلتي كانوا مناضلين. يعني هذا الواقع، واسألي أهل صفورية عن دار زعرورة بقولولك.

[203] كانوا يلبسوا الحرير. ما القمباز كان حرير! وبعدين صرنا نلبس من البقجة عرفت البقجة؟ كانت الوكالة توزع ملابس مستعملة تيجي من أوروبا يوزعوا على الفقراء للاجئين ويوزعوها إذا شغلة منيحة تاخدها إذا مو منيحة تكبها، تيجي على رجلك تلبسها. إذا لا تليسها لغيرك، احنا عانينا كثير ليش عم بعانوا هلا اللي بالضفة وغزة عانينا كثير.

[204] يضيف: ما في استعمار أوسخ من الاستعمار البريطاني.

لبنان قعدوا ببنت جبيل كم يوم. بعدين إجت القطارات وشالوهن وظلوا ماشيين لحماة لنزلوهن ببلد اسمها التريمسة، بالتريمسة قعدوا كم شهر وراحو على حماة كملوا سنة ال 49. أنا أبوي الله يرحموا كان مجاهد من القساميين، وكان قائد فصيل بثورة الـ 36 وعمامي كمان، زمان كانو مناضلين [...] لما طلعنا طلع أبوي على بيروت. وكان أبوي منسجن عدة مرات من قبل الانجليز، انسجن بسجن عسقلان وبسجن عكا وبسجن اللد والرملة. وشارك بالثورة السورية الكبرى وحضر معركة يلدا ومعركة الشجرة كانت حاسمة بين الثوار الفلسطينيين كان أبوي وجماعته موجودين فيها و أبوي راح على العراق قاتل الانجليز وشارك بثورة رشيد عالي كيلاني بالعراق. لأنه كان يعتبرها بلد واحد. وطبعا هون شارك مع محمد الأشمر بثورة هون بالميدان كان فيها محمد الأشمر وحسن الخرّاط، وحضر معركة يلدا مع محمد الأشمر كانت معركة حاسمة وجمعتهم. لما طلعوا من فلسطين و إجوا راحوا على حماة أبوي كونه مناضل قديم وفي كتير حواليه جماعة، فضل إنه يرجع على لبنان لكونها أقرب، جنوب لبنان أقرب، رجعنا على بيروت سنة ال 50، وإحنا اللي أسسنا مخيم شاتيلا أبوي وعمامي هنيك شكل أبوي فصيل حوالي 100 أو 150 مقاتل كانوا يروحوا يقوموا بعمليات ضد إسرائيل ينسفوا جسور ويغتالوا ضباط كبار. وينسفوا باصات، يعني كمائن ودوريات. هذا الحكي بال 50-55 فشكلوا تنظيم صارت لبنان تحاربهن [...] لإنه لما إنسان كان يروح يقاتل إسرائيل وإسرائيل ما تقدر تمسكه وهو راجع يمسكه الدرك اللبناني يضربه ويهينه ويرفعوه فلقة ويحطوه بالسجن انا بتذكر سجنوا أبوي بسجن الرمل ببيروت هذا كانوا يعبوا فيه كتير فلسطينية والفلسطيني اللي بعلق كان ينطخ. [...] المهم صاروا يضغطوا عليهم بلبنان وجابونا على سوريا، فإجينا على مخيم اليرموك، وحارتنا القديمة وراء المخفر، بقولوا لها حارة الفدائية. إجو أبوي وجماعته كلهن من لبنان وإجو جماعة تانيين من حمص ومن حلب إجو وشكلوا الكتيبة 68 هاي كتيبة فدائية واستطلاع خارجي، فاتو على الناصرة مرة، جنب الناصرة، سموها مستونة تسيفوري. هديك اسمها صفورية، وهاي تسيفوري. الحكام العرب والاقطاعيين العرب هم سبب نكبتنا: دار تويني كان عندن أملاك بالجليل. هن باعوها، مو إحنا، ما باعنا أرضنا، الوطن ما بنباع. هدول من وين صارت ثروتهن؟ من الأراضي اللي باعوها بفلسطين كانت إقطاعات تركيا تعطيها لهاي العائلات. والمشكلة إنه الجيل الفلسطيني السابق كان بسيط زيادة عن اللزوم لدرجة الغباء يعني مجرد ما أجا أي إنسان عربي عليك دغري أخد جواز سفر أو صار فلسطيني. أنا كفلسطيني بتألم كتير لعدم وجود وطن، مع إنه إحنا هون نُعامل تقريبا مثلنا مثل ابن البلد. ما عدا شغلات بسيطة. بس بنعاني وهاي بتختلف من إنسان لإنسان! في لبنان، كانت الشرطة العسكرية والمخابرات كل يوم كل يوم يجوا علينا، اللبنانية. يطوقوا الحارة مشان يمسكوا أبوي. كان أبوي ما يكون موجود. مرة من المرات أنا كنت طفل صغير ونايم، فقرا كنا، كنت نايم على الأرض، واحد من الشرطة العسكرية ما عملّي هيك إلا زتني بالحيط. إمي كان في عندها خرز أحمر من نوع من الحجار الكريمة من لما خطبها أبوي قامتهن من الدرج وحطتهن في حرجها. قال مسكنا رصاص مسكنا رصاص، سبت عليه. قالتلن هذا عقد. فبخاصة اللبنانية عانينا كتير منهن. أما المعاناة اللي عم بنعانيها إحنا. يعني عدم وجود الوطن مشكلة. علما بإني بنيت نفسي بنفسي. أنا اشتغلت مدرّس، وخدمت عسكرية، وحضرت حرب تشرين وحضرت أحداث لبنان [...]

قصص الهزائم والانتصارات[205]

على فكرة أبوي لو بده يسرق كان أنا و أخوي هلأ أمراء وساكنين بقصور، لو بده **يسرق!** طبعا يعني إحنا كلنا مرينا بمرحلة من المراحل يعني ما نلاقي نتعشى.. لما صرنا شباب تعلمنا اشتغلت بالدولة وبعدين بالوكالة بعدين سافرت عالسعودية بنيت نفسي بنفسي. وأخوي نفس الشي أول ما تعين بالوكالة، لو بده يسرق [...] كل ثورة فيها المنيح وفيها العاطل. فيها حرامية، إجا احتال على أبوي قال له خللي الأموال معي انت بتضلك رايح جاي عمليات وكذا. إمي قرش ما تاخد. كان ما يرضى غير براتبه. وكان في وطنيين من لبنان. كانوا يجمعوا تبرعات حتى مسيحيين [...] في عائلات وطنية بلبنان ولهلأ في تجار وما تجار، كانوا يجمعولن ويقوموا بعمليات. كانوا يجمعوا مبالغ [...] فأبوي بناءً على ذلك قال لي لا تقربوا على ثورة ولا على شي هيك وصانا، فكان ينبهنا لا أحزاب لا ثورة. لإنه كان يشوف العالم تميل إلى التجارة مش إلى النضال لإنه المناضل كان يُهمل وكان يموت فقير وأبوي مات فقير، إمي هي اللي كانت تشتغل وتطعمنا، إمي اشتغلت بالمطعم تبع الوكالة، كانوا يطبخوا كل يوم بمرحلة مبكرة. كنا نروح الصبح نشرب حليب بالوكالة بالمطعط هون بالمخيم، يعني 90% من الناس يروحوا، الصبح حليب وكم من حبة زيت سمك، والظهر غدا، ونروح نتغدا بالوكالة، يعني أنا ولادي ما عاشوا اللي عشته أنا مرتي عاشته، نصف بالدور عشان ناخد كاسة حليب وبالمدرسة كانوا يعطونا الصبح كاسة حليب، حتى كان في عنا كاسة عسكرية، كاسة بتنطوى عسكرية هي. وإحنا ردينا عأبونا [...] بس انا ما بنكر إنه لازم يكون في ثورة. بس ليش؟ يعني هذا بستشهد ما بتيجوا بتقدموا مساعدات لأهله لمرته لولاده اللي بدهن يموتوا من الجوع، وكانوا إذا زعلوا من واحد [...] غلط أو صح كانوا يصفوه واللي كانوا يختلفوا معاه كانوا يقولوه راس مالك طلقة و صورة عالحيطان: الشهيد البطل. الناحية الثانية إنه كان في نعرات ابن الضفة طرف

[205] يسرد عبد الوهاب الصفوري ، حكاية فلسطين عبر سرده لسيرة أبيه النضالية والصعاب التي واجهها في بداية حياته في لبنان، ويوجه اللوم للحكام والاقطاعيين العرب على ضياع الوطن، وينتقد سلوكيات الثورة الفلسطينية فيما بعد.

وابن غزة طرف ومتل الشحم عالنار، وإذا دخل بيناتهن ابن ال 48 يتفقوا عليه. ما هي الثورة انطلقت من عنا على كتافنا إحنا، إحنا وقود الثورة، أولاد مخيمات سورية وأولاد مخيمات لبنان. وانطلقت من هون من سورية أول عمليات انطلقت من سورية، سورية اللي دعمتهن. الثورة الفلسطينية انطلقت من سورية. طبعا هاد الوضع، أنا عاشرت الثورة من بداياتها من دون مصالح، وشايف أنا إنه اللي قاد ثورة كان يقدم من جيبته للثورة مش يصرف من الثورة وعايش حياتي ملاصق لأبوي، صحيح كنت طفل صغير بس بفهم. هاي الأخطاء. ليش حزب الله انتصر؟ صحيح بقاتل على أرضه بس في عدة عوامل. هو عم بقاتل على أرضه إحنا ما كنا نقاتل على أرضنا ففي كتير ناس يقولولنا يا أخي دبحتونا وما بدنا وما بدنا. كمان هاي نقطة ضعف بالنسبة لثورتنا، بس في شغلات مهمة بالنسبة لحزب الله المقاتل عم بقاتل عن تدريب جيد وعقيدة دينية هاي موجودة عنده إحنا كانت ما موجودة. كان عنا عقيدة وطنية ما عقيدة دينية. في شغلات مهمة إنه هذا الشب المقاتل لما بروح يستشهد بعرف إنه مرته وولاده ما رح ينظلموا، راح تاخد راتب، ويفتخروا فيك يقولوا أنا ابني شهيد وأنا جوزي شهيد راح يتعلموا ولاده ويتخرجوا من الجامعات [...] يعني ما بضيعوا ولاده. بينما إحنا لأ، إحنا كان ييجي واحد من المسؤولين يسجل 500 مقاتل وهو عنده 50 مقاتل. يعطي رواتب للـ 50 والـ 450 يحطهن بجيبته. وإذا راتب المقاتل 10000 يعطيه 5000 ويقول له هذا هو راتبه. وهلأ بفلسطين هيك عم بصير [...] هاي قيادة؟ وهاي قيادة؟ إحنا شعب بلا قيادة وقالتها بريطانيا عنا، قالت هتلر كان يعاير أو يشجع أهل مقاطعة برا ألمانيا بس كلها ألمان كان يقول اتخذوا من الشعب الفلسطيني قدوة لكم إنهم يقاتلون بريطانيا العظمى والصهيونية العالمية.. وقالت بريطانيا إنه الشعب الفلسطيني شعب بطل بس بلا قيادة، إحنا لو عنا قيادة متل قيادة حسن نصرالله. بعدين الأنظمة العربية التعبانة هاي من نمرة اللي بسموه معسكر الاعتدال هي اللي ذبحتنا وهي اللي روحت فلسطين وهي اللي دمرت فلسطين. هنه اللي ضوعوها القضية الفلسطينية مش إحنا اللي ضوعناها. هل يُباع الوطن؟ أنا ببيعك هاي الكاسة بس ما ببيعك الوطن وإذا عدوي ما ببيعك الكاسة، كل شعب في خوَنة وفي وطنيين.

بريطانيا اللي لعبت دور. بريطانيا كانت مستعمرة دول الخليج كلهم والعراق الأردن وفلسطين ومصر والسودان. وبالمشرق العربي كانت فرنسا مستعمرة سوريا ولبنان والمغرب العربي كله وليبيا كانت مستعمريتها إيطاليا. بعدين **الإسرائيليين** الدين اللي جمعهن يعني الدين مش قومية يعني في يهودي ألماني ويهودي فرنسي ويهودي عربي ويهودي بولوني يهودي تشيكي يهودي أمريكي مثلا، الدين ليس قومية. فهن ما إلهم حق بفلسطين، ما كان في يهود عرب بصفد أوبطبريا أو بالجاعونة بنعتبره مواطن. اليهودي العربي بنعتبره مواطن بس لما بوقف ضدي أكيد بدي أكرهه. لأنه بوقف ضد ابن بلده. لإنه في يهودي عربي وفي يهودي أوروبي ومن كل دول العالم. متل ما في مسلم عربي ومسلم باكستاني وفي مسلم تركي وفي مسلم إيراني. يعني هل يحق ييجوا المسلمين من إيران يحتلوا مكة؟ لا، بتيجي بتحج وبتساوي مقدساتك وبتسحب حالك وبتمشي. وطنك هناك. والمسلم الإيراني ما إله حق يجي يقول لي بدي أحتل مكة ولا التركي ولا الماليزي ولا اللي بالصين بس إله حق يجي يحج يجي يقدس ويسحب حاله يروح. وبالنسبة للحلول كلها مؤقتة، وحل دولة لشعبين. أصلا إسرائيل ما بتقبل بدولة لشعبين. يعني وهذا أدنى المستحبات أو أقل شي ممكن يقبل فيه الشعب الفلسطيني، هلأ بالوضع الحالي بقبل. بس أنا لما برجع لوضعنا كفلسطينيين يعني قلتلك ليش الثورة فشلت.

الإنتفاضة شكل تاني هديك انتفاضة المرأة الفلسطينية وأنا بقدس المرأة الفلسطينية لإنها هي اللي بتنجب هاد البطل. الطفل هاد للي عم بقاتل. و ما دام في امرأة فلسطينية واحدة ستزول إسرائيل. حطيها بإعتبارك هاي... حتى لو ما ظل ولا رجل فلسطيني وتجوزت واحد من ألمانيا بده يطلع فلسطيني وبدها تزول إسرائيل. لذلك بقتلوا النسوان والبنات وبحطوا مواد لتعقم المرأة مشان ما تولد وما تحمل. يعني بحاربوا الشعب الفلسطيني بأساليب مختلفة بكل شي. قتلوا الشجر قتلوا البشر قتلوا الحجر قتلوا الطفل قتلوا المرأة، إلا الإرداة، الإرادة صعب تقتلها. ما شارون قال أنا بحسد محمود درويش على حبه لوطنه وأرضه. هو شاف فلسطين الله يرحمه. وأنا ولدت بصفورية صحيح، بس ما بعرف شي عن صفورية إلا من خلال ما كانوا يحكوا إمي وإخواتي الكبار وأبوي والختيارية وكذا. وإسرائيل ما بترضى بدولة واحدة لإنه نحنا بناكلها لإنه أنا وأولادي وأحفادي إحنا اللي برى متعطشين أكتر من اللي جوا لإنه المعاناة اللي عم بنعانيها بالتشرد بالفقر بالمعاناة بالظلم. الظلم صعب والإحساس بالظلم أصعب من الظلم نفسه. فأنا لما أنطرد من بلدي وبلد أبوي وبلد جدي وممنوع أفوتها كيف يعني؟ كيف يجيني واحد من الحبشة من أثيوبيا ولا من آخر العالم من أمريكا. هو مر مرور قبل 3000 سنة مش بلده هو مر فيها زي ما مر هلأ. إله حق هو يرجعلها بعد 3000 سنة وأنا ما إلي حق أرجعلها اللي ولدت فيها أنا؟ بلدي هاي. هذا صراع ممكن نرجع فلسطين بعد 1000، 2000، 3000 سنة.

العودة بالنسبة لهذا النمط تعني التخلص من صفة اللجوء بالعودة إلى البيت في البلاد

وأنا وقتها ما برجع إلا على صفورية. يعني أنا كل العالم إذا بقولوا لي (كل العالم) بنعطيك العالم كله ما عدا فلسطين ما راح أقبل إذا بقولوا لي بنعطيك فلسطين كلها ما عدا صفورية ما بقبل إذا بقولوا لي بنعطيك صفورية

كلها ما عدا حارة عيلتي ما بقبل، إذا بقولوا لي بنعطيك حارة العائلة كلها ما عدا بيت جدك وبيت أبوك ما بقبل ... يعني وين بدي أرجع أنا؟ على بيتي، لأني أنا إذا بدي أرجع على صفورية وحارة العائلة مو موجودة معناها أنا لاجيء بحارة عيلة ثانية، إذا أنا ما برجع بدي وطني، فهمتي شو معنى كلامي، هيك أنا، وكثير مثلي، مو أنا، بدنا وطننا. ما بدك ترجعني، ما بدي أرجع على الضفة أنا شو الي بالضفة؟ عشان يقول لي ابن بلدي، يعني اللبناني إذا قال لي لاجيء نص مصيبة، السوري ما بقول لي لاجيء بقول لي فلسطيني فلاسطيني (يلفظها هكذا) مثلاً. بس ابن بلدي يقول لي لاجيء! صعبة. أنا كفلسطيني الآن بعتبر سورية بلدي لأني ربيت فيها وتعلمت فيها، بعتبرها بلدي وعاملتني كويس. يعني هلأ إنسان علمني ورباني وثقفني ووو، وحضني بقدر ما استطاع. شي طبيعي بدي أقله شكراً. لإنه هي أحسن بلد عربي عاملت الفلسطينيين. بالأردن أخد جنسية، هلأ هون ما أخد جنسية بس عم بتعامل هون أحسن من الأردن. لإني قعدت مع فلسطينية الأردن وقعدت مع أردنيين. هون أنا بعتبر سورية وطنا لأنه أنا عندي قناعة إنه بلاد الشام بلد واحد سورية وفلسطين ولبنان. أنا منطلق إنه سورية الشمالية اللي هي سورية ولبنان السياسية وفلسطين والأردن هي سورية الجنوبية. ما هي فلسطين هي سورية الجنوبية قطعوا منها الأردن وسورية الشمالية قطعوا منها لبنان صاروا 4 دول اللي هن إقليمين. وطن واحد. كانوا بيجوا يقاتلوا معنا ونقاتل معهن. ما قلتلك أبوي قاتل هون بالثورة السورية الكبرى أبوي قاتل وحضر معركة يلدا. بس إزالة إسرائيل اليوم بدها مصر وبدها سورية وبدها إيران وبدها تركيا وبدها العرب يعني العرب والمسلمين بدهم يلعبوا دور. عرفتي كيف؟ بحب سورية إذا ما برجع عصفورية أنا ما بطلع من الشام. يعني من هون على صفورية، على صفورية أو على القبر.

المخيم

المخيم هو مجتمعي، أنا اشتريت بيت بصحنايا، اشتريته وكسيته قعد 20 سنة مسكّر بعدين صرت أقول لزوجتي خلينا نروح هناك نغير قلت أنا بيت العمر. كنا ساكنين بالحارة واشترينا هاد البيت بعدين. هداك أنا مشتريه من زمان ورحت سكنت فيه بعد ما زبطته وبيت يعني شوارع عريضة ومسطحات خضرا ورا البلد عالداير لف 3 برندات وعندي سيارة شريت سيارة لأروح وآجي على هون لإنه ما بتقدر تستغني عن المخيم أهلك وجماعتك وكذا فسكنا هنيك واستوحشنا. علما بإنه نسمة هوا حلوة وقعدات حلوة وهدوء. أنا بقول لمرتي شوفي الهدوء ما بتسمعي غير صوت العصافير، بتقول لي: قبر هاد. وما انسجمت، ولا الأولاد انسجموا وكل يوم بدهن يجوا مرتين تلاته. فرجعنا! هو ما بالضرورة يسكن الفلسطيني بالمخيم حتى يحافظ على هويته الفلسطينية، لأنه حتى لو كان ساكن بأبو رمانة ولا بالمالكي ولا وين ما كان. لو سكنتيه بقصر ما بنسى فلسطين ما بنسى بلده. هلأ لو بتيجي بنتي معها صغار وبتسأليهم من أي بلد؟ بتقلك أنا من الطيرة. قضا حيفا. وفي واحدة بتقول لك أنا من صفورية مثلا. ومن أي بلد من فلسطين وهم انولدوا هون. إذا أبوه وجده بعرفوش فلسطين يعني أنا ما شفت شي بفلسطين ولا وعيت عالدنيا بفلسطين. وأنا ما عندي تفريق. جاهل اللي بفرّق. إنه هذا من غزة ولا هذا من الضفة ولا هذا من بلد. بس إحنا أنا بحكي من ألمي إنه بحكوا والله لاجئ. شو لاجئ؟!والله أنا لو أروح زيارة ويقولولي لاجئ قسماً بالله لـ؟؟؟... في عنا جماعة بنعرفهم راحو لهنيك ورجعوا وعم بحكولنا شو بعانوا. وظلم ذوي القربى أشد مضاضة، بنيجي هلا للاختزال، السلطة الوطنية للأسف بالاعلام بالتربية بالثقافة بالمدارس للاسف اختزلت فلسطين بالضفة وغزة، لا يا عمي، قال بقولوا الشمال والجنوب: الشمال جنين والجنوب الخليل. [...] اختزلوا فلسطين حتى بالمدارس وبالكتب وحتى بالاعلام، غلط هاد!

دور الفاعل الاجتماعي

أنا بكتب شعر من الصف الثامن، يعني بطلع عندي شي 4 دواوين (على اعتبار الديوان شي 35 قصيدة) بكتب عن سوريا وفلسطين وعن العروبة أنا بحب الشام، قلت أكم بيت:

لا تلمني في هوى الشام فإني في هواها سأغني وأغني
إنها أرض آبائي وأجدادي وإني أنا منها وهي مني
قد حبوت فوق أرض الشام ولثمت الثرى عانقتها عانقتني بتأني
إن حب الشام يسري في عروقي نبضات ألهمتني أشعاري وفني

تساؤل النفس

قد سألت النفس يوماً أين أنت يا نفسي أجيبيني؟
أين أنت الآن من رياض الأمس وأين اليوم من زهر البساتين؟
أين الرفاق وأين الصبية انطلقت تجري وتقطف أزهار الرياحين
أين أترابي وأحبابي تركتهم وأين تنوي الرحيل عني يا منى عيني
وتسائلت أرضي بكل الحزن باكية أين تنوي الفراق عني يا فلسطيني؟
أين الحقول؟ وأين الماجدات وحبات السنابل؟ كم كانت تناديني

أين السفوح؟ وأين أصوات البلابل والأزهار؟ كم كانت تناجيني
أين الصخور وأين أشجار الصنوبر والبلوط؟ كم كانت تحاكيني
أين الخيول وأصوات الثغاء وأين الزيت يا جرات زيتي؟
أين الحواكير الخضر سابحة حول البساتين من خوخ ورمان؟
أين أنت يا ربى الأجداد غائبة وأين الدروب من ماءٍ ومن طين؟
أين التراب الذي ما زلت أعشقه عشقا يميتني ثم يحييني؟
أين العيون التي ما دمت أذكرها إن مت ظمآناً فهي ترويني؟
أين الرفات للأجداد طيبة أصنع من طينها الفخار والصيني؟
غصبوك مني ورانوا فوق صدرك غدرا كذئبانٍ وغربان
وراحوا يقتلون الحق بالباطل يذبحوني ويقتلعون بستاني
فلا قرت لهم عينٌ ولا هجعت جنوبك أيها الجاني
أواه يا نفسي كم كنت مخطئة عند الرحيل
بالله يا نفسي أجيبيني
أأعود ثانية للأرض منتقماً من كل غدّار من كل صهيوني؟

البيتين الأخيرين لو ماتوا ما كانش لازم يطلعوا بس الإعلام والجهل والدعاية الاسرائيلية كانوا إذا قتلوا 10 يقولوا قتلوا 1000،والجيوش العربية قالولهم اطلعوا...
بكتب كمان عطريقة الشعر الحر.. هلأ مثلا هاي اهداء لأبوي أنا كاتبه.. هو أبوي مرتبط كتير بفلسطين عاش من أجلها ومات من أجلها أبوي قاتل من عمر 16 و 17 سنة لحتى مات...
إلى روح أبي المجاهد الكبير
من وهب نفسه للنضال من سن العاشرة حتى السبعين
من أجل فلسطين كل فلسطين
مجاهداً حراً شريفاً تقياً نقياً
ليرى راية فلسطين خفاقة فوق كل مآذن الأرض المقدسة
إليك أيها الشيخ المجاهد أهدي كل كلمة صادقة ملتهبة من ديوان شعري الوطني البرقوقة الحمراء

وبرجع بقول لك: بالنسبة إلي كل العالم لا يعنيني إذا ما فيه فلسطين، يعني ما بساوي عندي شيء. وفلسطين لا تعنيني إذا ما فيها صفورية. وصفورية كلها لا تعنيني إذا ما فيها حارتنا، وحارة الزعارير ما بتعنيلي إذا ما فيها بيت جدي وأبوي، حتى لما أنا، بروح على صفورية وبسكن بحارة غير حارتي وبقولولي أنت لاجئ، أنا بدي أرضي. بمعنى أنا بدي حق العودة إلى أرضي ووطني. أرضي وحقلي وحاكورتي وبستاني وصبري وتيني وزيتوني وغنماتي وبقراتي والحصان تبعي والخيل.

ثانياً: النمط الحالم الباحث عن فلسطينه

صفات النمط ورواته

تقدم روايات هذا النمط صورة لفلسطين تضيق فيها مساحة الماضي، لتتسع المساحة التي يروي فيها الفاعلون الأحداث الحاضرة في حياتهم بوجهة نظر نقدية خاصة حينما يتحدثون عن الوضع الحالي، ويحتل المستقبل هنا حيزاً كبيراً من الرواية، لكنه يختلف عن المستقبل المأمول لدى نمط الحالمين الآخرين بانفتاحه على خيارات متعددة بتعدد اهتمامات الرواة أنفسهم. يندفع الرواة، الشباب هنا، محفزين برفضهم الشديد للوضع الحالي إلى البحث عن أساليب جديدة، بعيدة عن السياسة غالباً. وحين يقترب بعضهم من السياسة، يقترحون حلولاً تتجاوز الحلول المطروحة في الخطابات السائدة.

يشترك الرواة بكونهم من جيل الشباب 17–35 باستثناء أم نادر التي تبلغ 48 عاما، ويتنوعون من حيث اهتماماتهم ونشاطاتهم. وأغلب رواة هذا النمط يعيشون في مخيم اليرموك، ثمانية، مقابل ثلاثة رواة يعيشون في مخيم قلنديا. ومن الملاحظ أن أغلب المبحوثين في اليرموك ناشطون في العمل الاجتماعي أو/و الحزبي حيث ذكر أربعة منهم أنهم مؤيدون لليسار، غالباً للجبهة الشعبية، وأم نادر لفتح. أما رواة قلنديا فقد أجمعوا على انتقاد دور الأحزاب بشكل عام. وأجمع جميع الرواة الشباب، بلا استثناء، على نقد أوسلو والخط السياسي الذي أفضت إليه.

المحاور العامة في روايات النمط الباحث عن فلسطينه

أولاً: اعادة تركيب صورة فلسطين بأدوات ابداعية

تأخذ روايات هذا النمط في أغلبها شكل السيرة الذاتية. يسرد الرواة رواياتهم عن فلسطين من خلال سير حياتهم. ويبدو هذا أشد وضوحاً حينما يتحدثون عن المستقبل فيربطون الصورة التي يتوقعونها لفلسطين المستقبل بمخططات مستقبلهم الخاصة في مجالات ابداعية غالباً كالمسرح والفكر والذاكرة والتعليم والموسيقى والتراث أو مجالات عملهم في الاعلام أو الارشاد الاجتماعي على سبيل المثال. سأكتفي هنا بذكر الصفات العامة لروايات هذا النمط وايراد بعض المقتطفات منها ولن أتعمق في تفاصيل الروايات، على المنوال الذي قمت به في الأنماط السابقة، تجنباً للإطالة.

أ. رسم صورة فلسطين بكتابة روايتها مسرحياً

تتكون صورة فلسطين في رواية خالد الناصري، الرواية التي اخترت عرضها كاملة كنموذج على روايات هذا النمط، من قصص جده وقراءاته في المجال الأدبي والمسرح خصوصاً. وهو يعتبر أن الطريق إلى استعادة فلسطين يتطلب من الفلسطينيين طريقة تفكير جديدة وأدوات جديدة لأن المشروع يحتاج، برأيه، إلى جهد كبير ويجب أن تتم دراسته ومراجعته بشكل جدي، بدون اهمال البعد العربي للقضية. بينما ينتقد مشاريع التخريب للقضية من خلال المشاريع التي تطرحها المنظمات غير

الحكومية NGOs وفق أجنداتها الخاصة. وينتقد إيمان الفلسطينيين الأعمى بقياداتهم والذي باعتقاده هو السبب في استمرار الأزمة. ولخالد، كما لجميع رواة هذا النمط مشروع خاص يرتبط بالمشروع العام حيث يعمل على رواية قصة فلسطين من خلال نص ميلودراما مسرحي، يعكف على انجازه بالتعاون مع أصدقاء له.

ب. رسم صورة لفلسطين يتطلب ثورة فكرية

وتلتصق فلسطين في خيال فارس الطنطوري بالثورة، ثورة السلاح في الماضي وثورة الفكر اليوم والتي تستلزم القيام باعادة تحديد القضية من خلال نقد العوامل الخارجية والداخلية التي تؤثر في بقاء الحال على ما هو عليه:

> "[...] والجهل هو اللي سبب هذا الشي اللي احنا في، لو ما كان في جهل لو كان في وعي ولو كان في ثورة فكرية ما بقول ثورة سلاح. [....] شو ما كانت الثورة ثورة كلمة، ثورة حجر، ثورة سلاح بتكون ايجابية، المهم ثورة، بس بنفس الوقت يمكن أنا من الناس اللي تغيرت نظرتي للثورة أو للفكر الثوري، يعني من قبل ما كنا نفكر إنه بدنا فلسطين، بدنا إياها كاملة وشلون ما كان، بس إذا بتفكري بالمدى اللي صارت فيه الأحداث هلا بس كنا بلبنان وبالأردن، يعني آخر شي قلعونا عتونس، وتونس يمكن بعيدة عن فلسطين أبصر قديه، يعني بدو الواحد فترة ليفكر إنه يحمل سلاح وينزل، يعني ما في أرض حضنتنا وقدرنا نساوي منها شي، بدنا احنا قاعدة لنقدر نوقف فيها لنقدر نطلع ونساوي شي، في صار فترة احباط ... أوسلو احباط مو طبيعي كمان، احباط كامل. هلا عم بقلك تغيرت نظرتي للمفهوم الثوري، هلا المفهوم الثوري كان عنا سلاح، بس هلا صار في شي ثاني أكثر من حمل السلاح، هلا بفترة من الفترات أنا كنت بتنظيم اسمه الشعبية/ الحكيم. الحكيم بزمناته ساوى شغلة بس استقال، ساوى مركز للدراسات الفلسطينية، أنا مع هذا النوع من الثورة، ثورة تطبيق فكر، أنا كثير بنصدم بأشخاص أو شباب صغار بس تسأليهم عن فلسطين ما بيعرفوا شو فلسطين أو كثير بنصدم بأشخاص بيعرفوا شو هي فلسطين بس ما مستعدين يقولوا إنه احنا فلسطينية" (فارس الطنطوري، 33 سنة، مخيم اليرموك).

جـــ. صورة فلسطين تتشكل من ذاكرة الأجداد

وبالمثل يرى شريف الطنطوري أن "فلسطين الحلم أجمل من فلسطين الواقع"، وفلسطين التي يحاول استعادتها ليست جغرافية وإنما هي ذاكرة شفوية ورثها عن جدته:

> "أنو فلسطين؟ ما عاد يعرف الواحد أي فلسطين، أنا بظن إنه بالنسبة لجيلنا فلسطين هي مو جغرافيا! أنا بالنسبة إلي هذا الانتماء مو انتماء لجغرافيا، الانتماء هو انتماء ذاكرة، والذاكرة هي ذاكرة شفوية، ما عنا صور، عنا قصص وحكايات. ستي، هي اللي أعطتني الذاكرة الشفوية والقصص .. ومحمود درويش لأنه بحكي مثل ستي ومثل جدي: بحكي عن البابونج وعن النعناع وهذا كرس الذاكرة الشفوية" (من رواية شريف الطنطوري، 28 سنة، مخيم اليرموك).

د. رسم صورة لفلسطين من خلال اعادة النظر بالتجارب الحياتية للفلسطينيين والتفكير بشكل جديد

أما جنان برجية،[206] فتقوم ببناء روايتها عن فلسطين من تجارب حياتها وحياة من حولها والذين تتعامل معهم من خلال عملها كمرشدة اجتماعية. فترسم قصة قصيرة عن البلاد. وتسرد أحداث روايتها ضمن اطار عام يتشكل من الخوف والمعاناة والقهر والفقر بدءاً من أيام الإنجليز مروراً بالنكبة ومن ثم النكسة وصولاً إلى طفولتها زمن الانتفاضة حيث تصف الحياة تحت الاحتلال وما

[206] جنان برجية، 25 سنة، مخيم قلنديا.

يكتنفها من خوف وممنوعات لتعطي صورة مفصلة لمشاعر الطفل الذي ينشأ في ظل شروط استعماري، وحين تقرأ التاريخ الفلسطيني بمنظور اليوم تصفه بحروب الابادة. وتذكر أن القهر والاضطهاد ليس مصدره الاحتلال وحده، وإنما المحيط الذي لا يكف عن تذكيرهم بمأساتهم: المعلمات في المدرسة ونظرتهم الدونية إلى اللاجئين، ومحيط الجامعة.

"في فترة الانتفاضات، كنت أظللي مرتعبة صراحة، وكنت أظل خايفة، إنه اليهود، نكون نايمين بأمان الله ونسمع صوت انفجار (بف) وخبط عالأبواب أفكر حالي بحلم، أكون بحلم وأفكر إنه هذا الخبط من ضمن الحلم ... ياالله شو قلق بهديك الفترة، ومأثر علي الخوف، لهاي الأيام في عندي خوف مش رايح، ممكن تخلصت من الخوف من شوفة اليهود، بس من ناحية كيف إنه نكون بأمان وكيف إنه حدا ييجي يخرب عليك هذا الأمان، ويقتحموا البيت بساعات متأخرة 2، 3 بالليل ويبلشوا يفتشوا في الدار وينفلوا، يعني يقتحموا خصوصيتك، كنت وقتها بالابتدائي، وكان ممنوع نعبّر بالمدرسة، كان عنا بداخلنا أشياء، بس إنه نخاف نعبر إنه في هون جيش ودار وانه اقتحموا هاي الدار كان ممنوع نرسم علم فلسطين. **في ناس بطلعوا من الأهل انهزاميين، إنه طريقة التربية غلط، بس أنا بتصور إنه من المدرسة كمان،** لأنه كثير كانت اهانات تتوجهلنا، من المعلمات، إنه أنتم لاجئين، غالبية معلماتنا من المدينة المقدسة وكانوا من الطبقات المالكة حتى، بديش أذكر الأسماء لأنها أسماء لامعة بتضوي، ناس برجوازيين كانوا بهديك الفترة وهاي الفترة، كانوا كثير يعاملونا نحنا، بتذكر لما كبرت صرت أربط شو الاقطاعي/البرجوازي وشو البروليتاريا، عن جد ربطتها كثير إنه احنا كيف كاينين حثالة المجتمع وإنه هن اشي عظيم. كانوا يعايرونا في ولادهم، إنه ولادنا في الفرندز وفي الفرير وأبصر ايش؟ قبل ما يدخلوا البيت بكونوا حالين واجباتهم وأنتو بتيجونا دفاتركم عليها زيت وزعتر ومش عارفة ايش وكانوا يعايرونا بأهالينا إنه بلبسوا ثواب! وبتعرفي كنت أشوف الثوب عار! أشوف الأم لما تكون لابسة ثوب وأعتبره اشي عار، إنه هم كانوا يعايرونا فيه وإنه نحنا فلاحين. يعني زي أكنهن يهود، يعني اعتبرتهم وجهين لعملة واحدة: بسبب أفكارهم، مش اليهود هدفهم إنه يمحوا ثقافتنا وحضارتنا وفكرنا، وهن نفس الاشي إنه نستعر من الثوب ونستعر من الزيت والزعتر، هاي الاشي عيب يعني. أنا عندي حقد عليهم، أنا لما بشوفهم هلا، يعني هلا المفروض إني أروح أسلم عليهم، لأنه زي ما بحكوها أعطوني زي ما بقولوا: من علمني حرفاً، كنت له عبداً. أنا كنت يعني مش مستقرة بهديك الفترة ... فترة المدرسة ما كنتش فاهمة القضية بالزبط أنه أنا ليش هون، ما حدش فهمني، بس إنه احنا تهجرنا من البلاد وإنه أصلنا من البرج، بس لكبرت ميزت إنه لازم يكون لي أرض، لازم يكون لي بلد، يمكن لما طلعت من المخيم وصرت ناس من قرى اللي الهم بلاد، بدي أروح عالبلد، وعنا زتون: جد زتون، وهاي بعرفهاش كلها مع أني أنا بنت قرى والي بلد .... أنا بصراحة لما حدا بحكيلي من وين أنت؟ بحكيلهم أقيم مؤقتاً في مخيم قلنديا، مؤقتاً ... أنا بتمنى طبعاً أرجع لبلدي، بتمنى! أنا يعني بشغلي مثلاً بروح بزور كثير ستات في البيوت وبتقول الست: بكون بدرس أولادي وفاتحة التلفزيون ما بشوف حالي غير ضاربة ابني، بكون أجلي وأطبخ، والله بوقف كل شغلي وبقعد أتابع وأعيط، تشوفي الأحداث على التلفزيون شي بربك، بربّط من هون زي السوار ... أنا بفضل ما أتابع، بسمع شو صار، وشو استخدموا اليهود، يعني بحب أسمع ولا أني أشوف إنه يطولوا الأشلاء وهاي، كثير بتأثر فيي، يعني أنا بحكي للجميع يعني اسمعوا وتابعوا شو صار أحداث بس ما تتابعوا صور الأحداث بالدقة والتفاصيل لأنه خلص بتوقف حياتنا، بعدين اليهود سياستهم ممنهجة يعني، هدفهم إنه كل عشر سنين يقصفوا جيل، شوفي يعني أنا بالانتفاضة الأولى وصلت عمري عشر سنين و 12 سنة والأطفال كانوا بعمري صاروا بالانتفاضة الثانية عشرين، 22 سنة يعني وصلوا لهذا العمر من 2001 للـ 2005 وصلوا 21 ، 22 سنة يعني عملوا الانتفاضة الثانية، قتلوا هذا الجيل، ابادة، ابادة، يعني كل فترة بدهم يقولوا: نحن هنا، وهدفنا برضه إنه نبيد الشعب عشان نقيم وطننا، لأنه هم مآمنين بفكرتهم، طب ليش احنا ما نآمن بفكرتنا؟ ونعمل زي ما هم بيعملوا. الهم هم مشروع: اقامة وطن قومي في هاي البلد، واحنا نفس الاشي بدنا نصارحهم ونقاومهم عشان احنا نحقق هدفنا، ونستعيد أرضنا... يعني هيك وحدة بوحدة." (جنان برجية، 25 سنة، مخيم قلنديا).

ثم تحلول، في ختلم روايتها، اعلدة رسم الصورة الأكبر من خلال وضع مشووعين: مشووع صهيوني هدفه اقامة وطن قومي يضع الفلسطينيين في "صراع وجود وليس حدود" فبرأيها أنه حان الوقت "ليواجه الفلسطينيون هذا الصراع وأن الحل هو المقاومة الاسلامية وليس حل الدولتين، لتقول: الأمل بالله إذا مش أنا أولادي راح يرجعوا والمهم ترجع بلدي وكل البلاد، والحل هو صمودنا وقوتنا الفكرية وفهمنا الصحيح للقضية وتوحيد فكرنا بمشروع واحد هدفه استعادة الأرض".

و. رسم صورة فلسطين من خلال التراث

وتقوم أم نادر –أكبر الرواة عمراً ضمن هذا النمط وهي تعمل في مركز للتراث الفلسطيني والشباب– بخلق فلسطينها من خلال عملها بالتراث. بالنسبة لها ترسم صورة فلسطين من خلال اعادة خلق الماضي بالوسائل الممكنة:

"أنا عم بشبع هذا الاشي الموجود بداخلي، إنه بالرغم من كوني لاجئة وبعيدة عن أرض الوطن بس لا أنا عم بقدم شي لوطني، يعني بتعرفي اليهود مش بس سلبتنا الأرض، لا حاولت تسلب الهوية والتراث وصاروا بشركة العال يلبسوا الثوب الفلسطيني ويقولوا هذا زيهم، وفي فرق يهودية بتطلع على أوروبا وبتعرض الدبكة والدلعونة ويا ظريف الطول وبقولوا هذا إلنا! فالصراع مع اسرائيل مو صراع أرض فقط، هو صراع أرض وتاريخ وجذور وهوية. واحنا بمركز للتراث الفلسطيني هون، بتحسي حالك إنك جزء من هدول الناس، وبعيدة وعم بتشوفي هالمآسي ومو قادرة تقدمي شيء أو تعملي شيء، هلا بتصير ردة الفعل كيف بالنسبة إلك كفلسطينية ولاجئة إنه تتمسكي بكل شيء اسمه فلسطيني، بعاداتك وبتقاليدك، أنا لما انطرح علي إني أشتغل بهذا المركز، سعيت بكل جهدي إني أشتغل فيه، ما بتتخيلي قديش عم بتعب تأطور هذا المركز، لأنه أنا بعتبر إنه احنا كوننا لاجئين وخارج أرض الوطن لا قادرين نواجه عدو ولا نشارك بانتفاضة ولا شي، لكن في عنا نوع آخر من المقاومة والدفاع عن الوطن وهو الحفاظ على الهوية الفلسطينية والتمسك بالتراب ... يعني تخيلي وأنت بالشتات وبدك تتخلي عن كل هالأشياء معناتها بعد فترة راح يجيكي جيل ما بعرف شي عن قضيته ولا عن تراثه، ولا عن عاداته وتقاليده فبتحسي حالك إنك ملزمة كفلسطينية بشكل عام، وكمسؤولة مركز للتراث بشكل خاص، إنه تشتغلي في هذا الموضوع بكل قوتك حتى تحافظي عليه وتنشريه بين كل أبنائك. يعني هلا تطلعي أنت على مخيم اليرموك: أكم جيل انولد خارج الوطن؟ هلا صاروا أميات وأبيات يعني أنا وزوجي ولدنا خارج الوطن، بالشتات، هلا أولادنا، تخيلي أنت، لما كل مرة بده ينتسى شي، لما مع كل جيل بده ينمسح شي من تاريخنا، معناها نحنا بدنا نوصل لمرحلة تنولد عنا أجيال ما إلها علاقة بالماضي أو بالهوية بالمرة، فأنا بصراحة بعتبر إنه الدور اللي لازم يقوم فيه كل لاجيء بأي مكان بالعالم. [...] لما أسسنا الفرقة كان الهدف تكون الفرقة رديف للنادي لتحقيق أهدافه، هدول الشباب لما بمثلوا فلسطين بمهرجان أنت غذيت فيهم الروح وربطتيهم بشيء وطني، قصة تمثيل فلسطين، إضافة أنت عرضت أشياء مهم تعرضيها، احنا عمل مسرحي راقص، مرة عملنا لوحة العرس الفلسطيني، هلا عملنا راح يكون اسمه الوصية: بحكي عن اللاجيء الفلسطيني المصر على حق العودة [....] وكمان بنعلم التطريز الفلسطيني، وأنت بتعلمي التطريز الفلسطيني بتكوني عم تربطي الناس بالتراث، بجذورهم، لما تعلمي وحدات التطريز الفلسطيني، بتقولي هاي وحدة التطريز تبعة حيفا، وتبعة الخليل، وتبعة يافا، وبتقولي هذا زي القدس، زي رام الله، حتى وحدات التطريز مستقاة من البيئة وكل وحدة أو رسمة خاصة بمدينة ... احنا في الأساس التطريز عنا في القرى مش في المدن، فالقروية هاي اللي غالباً كانت زمان أمية، واشتغلت بالتطريز وطرزت فستانها اللي هي بدها تلبسه، كانت عم تشتغل شي لإلها، واستوحت هي هاي الوحدات والرسمات من وين؟ من الطبيعة. سعف النخل، شكل الوردة، شكل الطير، شكل الفراشة .. وكذا استوحتهم من طبيعتها. هلا وأنت عم بتعلمي هاي القصة بتكوني بشكل غير مباشر عرّفت البنت على هذا الموضوع، وبنفس الوقت عم بنأمن لهدول البنات فرص عمل من خلال التطريز، طيب اشتغلنا، وبنفس الوقت أنت عم بتبيعي المنتجات فبالتالي أنت عم بتروجي وعم بتسوقي وعم تنشري تراثك ... على المستوى الشخصي حلمنا إنه شغلنا يستمر ويستمر شغل البنات احنا مركزنا بشغل 200 بنت بالبيوت وهذا شغل مش سهل إنك تفتحي 200 بيت يعني احنا عنا

> خريجات جامعة ومعاهد فنية مش لاقين شغل وبنوفرلهم شغل [...] كلما استطعنا نروج المنتج تبعنا ونصدره ونبيعه طبعاً بستمر وبفيد البنات عنا بهذا الموضوع [...] ولما تلبس صبية بالعرس شالة أو ثوب فلسطيني أو بمناسبة فبتكوني عم تنشري هذا التراث." (أم نادر الغزاوية، 48 سنة، مخيم اليرموك).

تتحدث أم نادر عن توظيف التراث كنوع من مقاومة الضياع والذوبان، وكوسيلة للتمسك بالماضي وابراز هويته. فالثوب الفلاحي المطرز والذي مازالت له قيمة استعمالية إلى يومنا هذا يحمل دلالة التمسك بالماضي الجميل والعودة إليه. ويمكن قراءة ما تقوله أم نادر هنا، في احدى مستوياته، على أن العودة لاحياء التراث هو أسلوب لرفض الاقتلاع العنيف الذي تعرض له الفلسطينيين في العام 1948 كما تقول العالمة الأنثروبولوجية البريطانية شيلا ويبر: "يجب فهم هذه الظاهرة في إطار شعب ملاحق ممزق شاهد أرضه تقع تحت الاحتلال وتصادر، وقراه ومؤسساته تهدم، وناسه يشتتون. في ظروف كهذه يصبح التراث والثقافة فجأة ثميناً وتبذل جهود مكثفة من قبل المثقفين لحفظ ما يجري تعريفه كتراث قومي، كما حدث في الأراضي المحتلة" (عن كناعنة 2000: 37). وفي تاريخ القضية الطويل، اتخذت الحطة الفلسطينية وغصن الزيتون والمفتاح وخارطة فلسطين التي تزين أعناق النساء ومنازل اللاجئين إضافة إلى الدبكة والأغاني الشعبية التي مازال الفلسطينيون يعبرون عبرها عن فرحهم في مناسباتهم الخاصة والوطنية موقعاً مميزاً في حياة الفلسطينيين اليومية. لكن هناك في حديثها مستوى آخر، أرى أنه من المهم التوقف عنده وهو تحول التراث إلى بضاعة تدخل حيز التبادل وتخضع لمعايير الربح والخسارة فيتم توظيف التطريز الفلسطيني على سبيل المثال كعامل يرفع من قيمة بضاعة معينة أو ما يسمى بلغة التسويق تطوير المنتوج المطلوب في السوق من خلال اضافات ترفع سعره وبالتالي تزيد نسبة الأرباح التي تتحقق من بيعه بالمفهوم التقني للتسويق *product mix*. فكيف يمكن قراءة هذا التحول في الدور الذي يلعبه التراث بشكل عام والتطريز بشكل خاص؟ نقرأ هذا التحول في رواية أم نادر: فالثوب الذي تطرزه الفلاحة الفلسطينية "الأمية" بما يشبه رؤيتها للطبيعة من حولها ويؤدي الوظيفة المطلوبة حينها فتزين به جسدها وتستره من برد الشتاء وحر الصيف، يتحول اليوم إلى قميص أو جاكيت أو شال ترتديه المرأة الفلسطينية "العصرية" لأسباب عديدة أحدها قد يكون الرغبة بالتميز، خاصة أن أثمان هذه المطرزات التي أخذت شكلاً عصرياً ارتفعت إلى حد جعلت اقتناءها حكراً على الطبقة الميسورة وربما هذا يفسر حرص نساء هذه الطبقة على تخصيص ارتدائها للمناسبات المميزة.

ثانياً: نقد الماضي والحاضر والبحث عن مستقبل مختلف

ينتهي معظم الرواة هنا إلى نبذ السياسة بشكلها القديم والحالي والتي لم تُفضِ إلى شيء ايجابي، برأيهم. مما دفعهم للبحث عن وسائل جديدة لاسترجاع فلسطين أبرزها الاستثمار في التعليم والفكر والاعلام والموسيقى والمسرح لدى الشباب والتراث في حالة أم نادر، أكبر رواة هذا النمط سناً. يركز خالد على الحاجة إلى مشروع جديد في الخارج، في حيز الممكن، وهو برأيه الثقافة والاعلام،

ولا يكتفي بتقديم حلول كلامية وإنما يخبرني أنه شرع بالعمل على مشروعه الخاص وهو انجاز عمل ميلودرامي مسرحي شامل يحكي سيرة فلسطين والفلسطينيين.[207]

ومن المنطلق نفسه يركز إيهاب في قلنديا على التعليم كحل أساسي للخروج من المأزق الذي أصاب الفلسطيني وتركه في حالة من اليأس من العمل الحزبي والسياسي:

"تاريخياً كان أملنا بمنظمة التحرير الفلسطينية بشكل عام، بس بعد ما صار مؤتمر مدريد حطيت عليهم x بالنسبة إلي، وطلعت حركة حماس وطلعت (...)، بنتأمل بالحركة هاي وبعدين بنلاقي فشل، فصفى إلي كلاجيء فلسطيني، بطلت أؤمن في شيء اسمه حزب، بالمرة بصراحة! حتى أنا مش ملاقي سبيل أو مخرج من الشغلة هاي لأنه صرنا زي الروحانيين بنستنى من الله تيجي، أو بنظري طالما احنا عسكرياً مش راح نقدر. ولا حتى بالمفاوضات، احنا مش قد المفاوضات لأنه احنا فاشلين، بيجوز هم بتعمدوا لأنهم بدهم يظلوا على الكراسي فلازم يعملوا هالشغلات. بس أنا برأيي لازم كل واحد يتعلم، بأي حقل: تجارة، سياسية، اقتصاد، رياضيات أي أشي. احنا ما بدنا واحد بس يعرف يكتب ويقرأ بدنا يتعلم على الأقل يكون معه بكالوريوس، هالقيت الهدف الرئيسي مش نحرر، احنا طبعاً بدنا تتحرر البلد، بس شو هو السبيل للخروج من المأزق؟ إنه الكل يتعلم." (ايهاب الماعيني 26 سنة، مخيم قلنديا).

وتريد نبال أن توصل الصورة "المزبوطة" عن القضية، وتخبر العالم بحكاية فلسطين وما حل بها:

"أريد أن أخبر الجميع أننا لسنا شعب متخلف فهذه هي الفكرة التي يحملونها عنا يعني أكثر كلمة سمعتها من الأجانب قولهم إنه اليهود حين جاؤوا إلى فلسطين كانت البلاد فاضية ما فيهاش اشي، أي ليس فيها ناس، وأريد أن أخبر الجميع أنه كان فيها ناس وكانوا يزرعون ويشتغلون" (نبال الساريسية، 18 سنة، مخيم قلنديا).

بينما يتبنى شريف الطنطوري آراء ادوارد سعيد ومحمود درويش بضرورة أنسنة القضية وانشاء مؤسسات مجتمع مدني مدعومة من القائمين عليها بعيداً عن أموال الغرب المشبوهة:

"أول شي لازم يصير في مؤسسات مجتمع مدني، مدعومة من قبل الأشخاص القائمين عليها بعيداً عن أموال الغرب المشبوهة اللي بتخص أي حدا إله علاقة بغاية أو مصلحة أو ما إلى ذلك ويكون الهدف الأساسي هوإنه الواحد يطلع، (....) يعني أنا، إذا بدك، بتبنى آراء إدوارد سعيد ومحمود درويش: أنا مع أنسنة القضية الفلسطينية وينشغل على القضية الفلسطينية من شقها الانساني وإنه نطلع عاد من هذا الموضوع لأنه خلال مرحلة كبيرة لا العروبة دعمت القضية الفلسطينية؛ لا الشكل العربي، ولا الشكل الإسلامي دعموا القضية الفلسطينية. ويكون في مؤسسات مجتمع مدني هي اللي تتبنى الشكل الإنساني للقضية الفلسطينية ويكون كل واحد في مجال عمله يقدر يساهم بس ضمن شقها الإنساني، مش يعني الحكي اللي عم بصير، يعني بعيداً عن السياسية والأحزاب والفصائلية! يعني هذا اللي عم بصير في غزة [...]غياب الهدف الواضح، وغياب وجود فلسطين وإنه هاي دولة الضفة وغزة والباقي اسرائيل وقضية إنه يتعايشوا الشعبين، هذا ساوى شرخ: إنه راحت قصة وإجت قصة .." (شريف الطنطوري، 28 سنة، مخيم اليرموك).

يظهر جلياً هنا محاولة رواة هذا النمط البحث عن فلسطين خارج إطار البعد الواحد المتمثل بالكفاح المسلح أو المفاوضات. فيلجأ كل منهم إلى خلق صورة لفلسطين بمشروع خاص يتناسب مع مؤهلاته وامكانياته وطموحاته وأحياناً قليلة ارتباطاته الحزبية، في ظل غياب إطار عام يؤسس لمشروع يزيل الاستعمار وآثاره. قد تثير هذه الصور قراءات مختلفة وفقاً للعين التي ينظر بها القارىء: فإن اعتمد عيناً تشاؤمية، فقد لا يرى في هذه الصور إلا محاولات يائسة للهروب من دائرة الفعل الحقيقي الذي

[207] أنظر إلى المقطع الأخير من رواية خالد التي أوردتها كاملة في نهاية عرضي لهذا النمط.

يمكن أن يُحرز تغييراً على أرض الواقع وهو المقاومة. أما إذا نظر بعين تفاؤلية، فقد تبدو الصور التي يخلقها رواة هذا النمط لفلسطين كمحاولات أو رغبات أو أمنيات بتغيير الواقع البائس بالوسائل الممكنة والمقبولة اليوم إلى حين التمكن من تحقيق حلول أكثر جذرية.

الرواية بين المخيمين

كما يبدو من المقاطع التي عرضتها لروايات هذا النمط يشترك الرواة في المخيمين برفض الواقع الموجود وانتقاده ومحاولة الخروج منه بالبحث عن حلول من ضمن الخيارات المتوفرة أمامهم والتي كما ذكرت سابقاً يستمدونها من اهتماماتهم الخاصة. لكن نلاحظ وجود فروقات واضحة بين الرواة في المخيمين من حيث نظرتهم إلى المستقبل، خاصة حين يعلقون على الحلول السياسية المقترحة. فعلى سبيل المثال، حين تحدث رواة مخيم اليرموك، ضمن هذا النمط، عن فكرتهم للحل رفضوا فكرة دولة فلسطين إلى جانب دولة اسرائيل واختاروا حلول أخرى مثل حل الدولة العربية الديمقراطية أو الدولة الديمقراطية لشعبين أو تأجيل التفكير بدولة والعمل على بناء مجتمع مدني وأدسنة القضية، بينما لم يقترب رواة قلنديا من الحلول السياسية وركزوا على قراءة الوضع القائم ليتوصلوا إلى ضرورة التفكير بمشروع لاستعادة الوطن. وقد يرجع هذا إلى تأثير الخطاب المهيمن ضمن بعض الأحزاب اليسارية التي ينتمي إليها رواة هذا النمط (خاصةً بالنسبة لرواة مخيم اليرموك هنا). فضمن الواقع الموجود وفي ظل تراجع دور المقاومة والعمل السياسي من أجل تحرير الأرض والإنسان الفلسطينيين، يلجأ الرواة الشباب ضمن هذا النمط والذين ما زالت فلسطين تشكل مكوناً مهماً في هويتهم إلى ربط القضية بمشاريعهم الخاصة وإذا تطرقوا للبعد السياسي فهم يربطونه بحلول تتوافق مع الخطاب الإنساني الدولاني دون أن يناقشوا مدى قابلية تطبيق هذه الحلول وإنما يفضلون تركها للزمن. أورد فيما يلي الرواية الكاملة لخالد الناصري، 18 سنة، من مخيم اليرموك كمثال على روايات النمط الباحث عن فلسطينه.

نموذج من روايات النمط الحالم الباحث عن فلسطينه

حكاية البلاد من ذاكرة الأجداد

أنا من الناصرة، وبعرف عنها منيح بما أنه إلي علاقات مع القرايب وبتواصل معهم دائماً، نحنا تقريباً جزء صغير من العائلة اللي صفا هون، من "الحمولة" كما يقال بالناصرة، فقد هذا الاسم قدسيته أو تداوله في المخيمات بس بقول لك جدك من الحمولة بس هون من العائلة. أول شي جدي طلع من الناصرة كبير، توفى هون عمره شي 108 أو 110 وكان دايماً يحكيلنا عن الناصرة وكيف فاتوا اليهود على الناصرة، النبعة، النبعة أهم شي حتى أول مرة من شي شهرين شفت النبعة على التلفزيون كان في تظاهرة. طلع جدي وستي وكان معها المفتاح وذهباتها وصك ملكية كمان لساته مع ستي موجود وبيت الناصرة موجود، وفي كان النا دايماً أراضي كثيرة هناك ونحنا من أكبر عائلات الناصرة وأرضنا هلا مصادرة ومقام عليها مصنع، هذا شي بثير عندك الحقد. تعرفت أكثر عن طريق قرايبنا اللي بيجوا من الـ 48، حاولت اتحصل منهم على أشرطة فيديو للأعراس أشوف كيف بيصير العرس هناك، بفلسطين بشكل عام يعني ما بيعطوا بنت من العيلة لمدينة أو لقرية ثانية، بيجتمعوا كبار العيلة أنه هاي للعيلة إنه ما بيصير تطلع، *(س: بتحكي عن زمان ولا هلا؟)* لهلا، أنا استغربت هذا التصادم إنه كلهم قرايب، شي متناقض. والشغلة الثانية، وجه المقارنة بالمخيم في نفس هذا الموضوع، إنه نحنا هون صار في اختلاط كبير، أنا من الناصرة ممكن آخذ واحدة سورية أوممكن أردنية أو ممكن واحدة فلسطينية بس من بلد ثاني، يعني صار في اختلاط. وكمان كيف الجو العائلي هناك، كيف إنه

بفوت على أي بيت من الناصرة وكأنه بيت عمي أو بيتي هلا هون هذا شي نادر يصير، هون نادر ما نحافظ على تقاليدنا الفلسطينية، فغابت كثير أشياء عن بالنا. هلا هي أحياناً بنفكر إنه هاي أشياء صارت كثير كلاسيكية أو تقليدية وإنه احنا لازم نبتعد عنها، هاي شغلات كانت زمان قبل 100 سنة أو 50 سنة بس لا هلا في هاي شغلات بتعرفك على مدى الوعي. أنا ما بشوفها أشياء ايجابية بس بشوف قديش هني كانوا متوحدين بالعائلة بحس بالتكامل والتضامن اللي كان في العائلة ...

رحلة التهجير

الجزء اللي طلع من عيلتي هو جدي، لأنه جدي كان ملاحق من عناصر العصابات اليهودية لأنه بالناصرة معروفة القصة بالناصرة، حتى طالبت اسرائيل بجثته لما مات هون، لأنه كان يقتل اليهودي ويشوهه بالناصرة، كان عنده ماتور بالناصرة وكان يظللوا يدور في بالناصرة فلحقوه على الأردن على منطقة اسمها الطفيلة وبعدين اجا لهون على حوران جنوب سوريا وبعدين اجا على سوريا كان متجوز ستي وعندهم 3 أولاد كان عندهم واحد من الأولاد مولود بنفس العام بالـ 48 وعمره أشهر بس.

قصص الهزائم والانتصارات

بدي أرجع لقبل الـ 1948 لأنه في مؤثرات، في عنا بداية الحركة الصهيونية بالخارج بأوروبا ومؤتمر هرتزل، هدول أهم من الاحتلال البريطاني، لأن الاحتلال البريطاني لما بلش ما بلش على أساس إنه هو فايت ليعطي اليهود ووعد بلفور ما كان قبل. وعد بلفور بـ 1917 واتفاقية سايكس بيكو بـ 1916، يعني كان الاحتلال بعد بداية الحركة الصهيونية، بس أنا بشوف إنه الحركة الصهيونية هي اللي إلها الدور الأقوى بما إنه هي عرض عليها أكثر من بلد بالعالم إنه توخدوا بس هي أصرت على فلسطين: أول شي فلسطين كطبيعة ومطلة على البحر ومطلة على خليج مهم، جبالها والثروات فيها، ومنطقة سياحية مريعة ومكان مهم جداً للمسلمين أكثر شي صار مهم من هدول أكثر، أهم من الثروات وأهم من أي شي هو إنهم كانوا حابين تكون قاعدة استعمارية متقدمة في الوطن العربي، كونها تقريباً في قلب الوطن العربي بتربط بين شماله وجنوبه وما حبت بعدين بريطانيا تطلع وما تترك أثر وراها، ما تترك قاعدة استعمارية تمشي أمورها في المنطقة، وتفرض على باقي البلاد العربية بعد ما صار مشروع البلاد العربية والوحدة حبت إنه يكون في تأثير قوي، في مسيطر، في إيد استعمارية تمشي أمورهم، أنا هذا بحسوا السبب الأقوى لوجود اسرائيل في المنطقة .. واتفاقية سايكس بيكو كان الها تأثير، ووعد بلفور، الكتاب الأبيض والكتاب الأسود كمان كان إلها تأثير وقامت مظاهرات وثورة عز الدين أحيت شي جديد وعبد القادر الحسيني ومعركة الكرامة كمان أثرت وفي أشياء خارجية كمان أثرت بسوريا وبلبنان والأردن ومصر والاجتياح، الهدنة هاي كلها أشياء أثرت. من الكتب اللي أنا قرأتها عن فلسطين: في" أرض الميعاد"، لكاتب روسي، لأني قرأتها من شي 4 سنوات بحسها مهمة لأنها أرخت القضية من بداية الحركة الصهيونية واللي كتبها هو مؤرخ يهودي اكتشف لعبة الحركة الصهيونية إنهم هم اللي تمسكوا بالدين اليهودي ظاهراً على إنه هو الهوية الرسمية لكن الحركة الصهيونية كانت بعيدة عن الدين وكيف حاول يوعي الشعب اليهودي إنه مش هيك اليهود وعلى فكرة هو هاجر على فلسطين وانضحك عليه من قبل الحركة الصهيونية إنه هون بلدك، وكشف هاي اللعبة ورفض إنه يظل بفلسطين وحاول يوعي الشعب اليهودي إنه في على الأرض شعب اسمه الشعب الفلسطيني وما من حقهم يأخذوا أرضه فبعتبروا من نخبة اليهود الديمقراطيين الواعيين اللي قدروا يفكروا صح

بالنسبة إلي أي محطة من تاريخ القضية كان إلها تأثيرها الخاص وكاريزما خاصة بالتأثير. بس أهم شيء في القضية هي الثورات والانتفاضات، وأهم دليل، هاي أكبر دليل إنه احنا كنا في موقع الايجابية، والانتفاضة الأخيرة كان إلها تأثير قوي جداً على اللاجئين، انتفاضة الأقصى الأخيرة أعادت احياء جيل أنا هلا لو ما في انتفاضة يمكن ما عم بتشوفيني أنا عم بحكي هيك أبداً! قبل ما تكون الانتفاضة كان في كثير شباب ملتفتين لأشياء ما بنقدر نقول ثانوية لأنه هي أقل من إنه تكون ثانوية، أشياء تافهة. ما كانوا ملتفتين لأمور القضية، لأمور فلسطين، بعد ما صارت الانتفاضة أحيت هذا الجيل وخلته يعيد تفكيره ونسجت جيل جديد غير جيلنا كمان يتذكر ويشتغل. هاذي المحطة الأخيرة اللي كان إلها التأثير القوي أحياناً *(يقول مبتسماً:)* بفكر إنه احنا لازم نشكر شارون لأنه راح يزور المسجد لصارت الانتفاضة هاي لأنه كان الها تأثير ما كان فيه أي اهتمام من الشباب بهذا الموضوع، لما صارت الانتفاضة احنا أسبوعين ما داومنا بالمخيم لأنه تكسرت المقاعد، المدارس أبوابها تخلعت، *(س: يعني انتو الطلاب؟)* آه احنا الطلاب فتصوري إنه أسبوعين ما داومنا وكنا بفترة فحص فتصوري إنه أنا هذا بعتبره إنه انقاذ ...

بس كمان ما ننسى الأحداث السلبية، مثل أوسلو، أوسلو صحيح رجعت ناس على الداخل بس نحنا كمان كنا نقاوم من الخارج، وأكبر مثال وديع حداد. كان عم بناضل صحيح مو بالداخل بخطف تيارات وعمليات بس كان إلها تأثير أكبر من أي شي هلا.. أوسلو أعطت بعض الأشخاص نوع من حس القيادة وما كان لازم هذا

يصير، وكان في أشياء تتم تحت الطاولة وأوراق تتمرر من تحت الطاولة هذا شي ما حدا كان رضيان عنه لو كان ظاهر على السطح، لو كان من الأول كما يُعرف عنه إنه هيك أوسلو قبل ما يكون أوسلو هل كان الشعب الفلسطيني بيرضى فيه؟ ما كان رضي فيه أكيد. بعتبر كمان إنه أوسلو محطة كثير خلت الشعب الفلسطيني ينام، يغفى، يعني بعد أوسلو كثير ناس استقالت من المنظمات والأحزاب للقمة العيش، لقمة العيش بالنهاية أساسية، وكثير ناس كمان صابها احباط أكيد. ومؤخراً يعني حزب الله، قدم لنا نموذج ناجح من حيث القيادة والكوادر، وأعطوا مثال [...] بس هم استفادوا من أخطاءنا وكان في كثير أعلام وشخصيات فلسطينية بحزبهم، هم تدربوا بالنهاية عنا بأحزابنا بمنظماتنا واستفادوا. هم رفعوا معنوياتنا وممكن نحنا يكون إلنا الشرف يشاركنا بحلمنا إنه احنا بدنا نرَجِّع فلسطين بس أنا ضد مواقفهم في بعض الأحيان، أنا ضد مواقفهم بشدة وآخر موقف إنهم ينتشلوا جثث الشهداء الفلسطينية اللي طلعوا من المخيم ويرجعوهم أنا برأيي إنهم هدول راحوا ليستشهدوا ويندفنوا بفلسطين ولو ظلوا ببراد خليه يظل ببراد بس هو على أرضه! أنا فكرت إنه هدول لجأوا لجأتين يعني هلا هم عم بعانوا مأساة باستشهادهم، أكثر مننا، رجعوا، وراحوا على فلسطين استشهدوا، وردوا رجعوا لجأوا لجأة مرة ثانية، يعني هذا حرام، حرام كثير. كثير انزعجنا يعني اقتلع هاي الجثث من الأرض وبعتبر إنه روح قدسيتها، هي كانت بتمتلك قدسيتها على أرضها ما بتمتلك قدسيتها إنها تندفن بالمخيم، نحنا قدرنا نكرمهم على قد ما نستطيع طلعنا بمسيرة كبيرة وحاشدة يعني يمكن هاي المسيرة ما طلع مثلها بالثمانينات، قدرنا نكرمهم على قد ما بنقدر احنا مو موافقين أبداً إنهم يرجعوا على المخيم، هم كان لازم ظللوا بأرضهم وكان لازم يكون في قرار من المنظمات ومن منظمة التحرير بالتحديد إنه هدول الشهداء قايض يا أخي على شهدائك، لا خليها بأرضها ولو إنها ببراد بس هي بأرضها علماً إنه انقامت مقبرة كاملة انتُشِلَت عشان ترجع على المخيم، هم أكيد هاي المقبرة بدهم يقيموها ويستفيدوا منها يا راح يساووا مصنع أو مستوطنة ليش؟[208] لا خليهم بأرضهم، كان لازم منظمة التحرير توخد موقف وقرار توقف بوجه حسن نصر الله- بدنا أسرى نحنا محتاجين لهدول الأسرى بس نحنا بدنا نعطي كل انسان حقه يعني كلاجيء وفلسطيني.

البحث عن فلسطين خارج الحدود

أنا شخصياً ما عاد تهمني الحدود! أنا بدي فلسطين، ما عاد يهمني إنه أنا بطل على البحر المتوسط ولا على الأردن على سوريا أو على لبنان أنا ما عاد بدي هذا السؤال أنا بدي فلسطين، بكل المدن، مش الناصرة أنا لما أكون من فلسطين أنا من الناصرة ومن حيفا ومن عكا ومن غزة ومن بئر السبع. أنا فلسطيني بس أقول أنا فلسطيني معناها أنا من أي مكان من فلسطين، وأنا صحيح إلي هون، بسوريا، ذكرياتي، وجمعت هون ذكرياتي وفشلت ونجحت هون وأسست شي وفشلت بشي بس أنا إلي شي أهم هناك، إلي تاريخ، إلي هناك تاريخ بيمتد من آلاف السنين، ما بقدر أنا أمحيه ولو بدي أمحيه ما بسمح لنفسي. أنا بدي أرجع على فلسطين عشان أشوف كل فلسطين مو بس عشان أشوف الناصرة لأنه أنا بحن لفلسطين كلها.

مشاركة الراوي في دائرة الفعل – رسم صورة فلسطين من خلال أدوات جديدة أحدها المسرح

بشارك تقريباً بكل الفعاليات في المخيم وخارج المخيم، بس للأسف احنا بدنا نعيد التفكير وبدنا نعيد الصياغة والهيكلية لنبدأ بمشروع جديد بما أنه نحنا راحت أيام الثمانين وراحت أيام السبعين وهلا نحنا ما بنقدر هون يعني إني أحمل البندقية وأنزل على الجبهة ولا بقدر أطلع على لبنان أحمل سلاح، وأنزل على الجبهة هاي الأشياء كلها صارت غائب! **هلا في عنا كثير أشياء المسرح الفلسطيني لازم نعيد هيكلته، بالوطن العربي كله ما في مسرح، لازم نعيد خلق محمود درويش جديد، من خلال العمل الثقافي لأنه ما صفيلنا غير هدا الشي، وكمان أكيد الصحافة لازم يكون إلها دور فعال أقوى من أي جانب ثاني، احنا بدنا نحارب بعدة اتجاهات يعني فيك تقولي احنا بدنا نتقاسم الأدوار نحنا واللي بالداخل ... في ممدوح عدوان كتب عن حيونة الانسان كيف بتصير المجزرة هاي المجزرة بتم توزيع الأدوار نحنا هيك بدنا نساوي، بدنا نتقاسم الأدوار** ....

مشروعي أنا مسرح، أنا فتت بالجامعة تخصص صحافة لأني بحب الصحافة كرغبة بالكلية بس أنا بدي مسرح لأنه أنا عندي مشروع مسرح. المسرحيين اللي بيعجبوني 3: فايز قزق، وفلسطيني اسمه عبد الرحمن أبو القاسم فلسطيني كان ساكن بمخيم اليرموك مو دارس معه شهادة تاسع بس تصوري قديش الشخصية الفلسطينية اللي بتتعب على خالها قديش صار إلها تأثير من كبار المسرحيين في سوريا ومعه صف تاسع، لأنه مو نحنا اللي عم نعمل، في أشخاص كانوا متسلقين في الثورة، وصوليين، وهم الي عم بساووا هاي الأخطاء ونحنا مشكلتنا كشعب فلسطيني إنه آمنا بقياداتنا كثير، كثير آمنا فيها حتى أنهم خدعونا. وأنا قلت لك مشروعي شخصي ومرتبط بالقضية في عندي نص ميلودراما بس ما راح أشتغل فيه لبعد ست سنين، انا عرضته على طلاب متخرجين، أنا كتبته وجاهز بس عم بَنَزِّل عليه أفكار جديدة وما راح أوقف لأخلص دراستي يعني يمكن يكون مشروع تخريجي، ويمكن يكون مشروعي هذا للقضية لأنه اسمه حامل القضية واسم النص "أسى

[208] تكرر هذا الموقف الرافض من عملية الرضوان لدى أكثر من راو في مخيم اليرموك بغض النظر عن انتماءاتهم الحزبية، كما ورد في رواية رندة من النمط المأسور بالمشهد المحيط.

المصير" وحابب أدّخل فيه شي تاريخي مع شي حديث. وهو بيعرض القضية بشكل عام، عرضته حتى على طلاب علم اجتماع بدرسوا ماجستير وهم فلسطينيين وبالأخير لما قعدنا وتناقشنا كثير إنه هذا النص إذا قدرنا نشتغل عليه وما لحالي راح أشتغل عليه صحيح مشروعي بس ما لحالي راح أشتغل عليه عم بساعدوني كثير طلاب ماجستير بعلم الاجتماع قالوا لي إنه فينا نساوي انقلاب، ومجموعة من شباب المخيم اللي بعرفهم حتى مشروع دراستهم للدكتوراه والماجستير كمان إله علاقة بفلسطين يعني عم برتبط عنا المشروع الشخصي مع القضية.

المخيم

في نظرة سلبية لأهل المخيمات، وأنا بلوم فتح وحماس بهاي النظرة، لأنه احنا بعد الاقتتال اللي صار بيناتهم بغزة لما نلتقي بحدا بالجامعة تقوليلهم إنه أنا فلسطيني، كمان شوي مثلا آسف على هالتعبير إنه بدو يبزق عليك لأنه الغلط مو أنا اللي ارتكبته أنا هون، بحط اللوم على فتح وحماس إنه صار هذا الشي، ووصل إنه أستحقرهم وأبعدهم عن الشعب الفلسطيني، **بحياته ما كان هيك الشعب الفلسطيني. يعني صار في نظرة ثانية بعد هدي الأحداث ونحنا بدنا نصحح هذا الشي إنه كيف بدنا نصحح؟ بدنا نورجيهم أنه نحنا عنا كاتب مسرحي وعنا شاعر وعنا مؤرخ وعنا منظرين وعنا قادة وعنا كل هاي الأشياء**، وهم مو أفضل منا أنا بعتبر الشعب الفلسطيني بسوريا هو أسس كثير أشياء لسوريا ونحنا كنا متميزين أكثر من السوريين أنا هيك بنظر لشعبي الشعب الفلسطيني حتى إنه أنا بفكر تفكير قومي اشتراكي، بس اللي تعرض له شعبنا الفلسطيني ما تعرض له أي شعب في العالم لازم تكون طريقة تفكيرنا غير والأدوات اللي بنستخدمها غير المشروع اللي بدنا نحمله مشروع عظيم كثير لازم نعرف كيف نقوده ...

وفي النهاية أنا مو راضي عن حياتي بالمخيم صحيح إنه أنا هون الي زي السوري تماماً وما بختلف عنه غير إنه أنا ما بقدر أنتخب رئيس وما بهمني أنتخب ولا ما أنتخب. أنا لما أرجع على أرضي بنتخب بالنهاية بس ما قد ما ظليت هون يمكن إذا بدي أحن، أحن لمنطقتين إذا رجعت لفلسطين: للمخيم ولباب توما، بعتبر دمشق عظيمة، بحبها لدمشق وبحب سوريا وذكرياتي كلها هناك بس ما بقدر أغيّب فلسطين ما بسمح لنفسي أغيّب فلسطين وأقول ما بدي أرجع!

بما إني أنا قومي اشتراكي بعرّف على نفسي إني أنا عربي فلسطيني لاجيء وأنا حكيتها هاي الكلمة بمقابلة ساويتها بالتلفزيون العربي السوري، كان وقت القمة، وساووا مقابلة مع الشباب وأنا قلت لهم عربي فلسطيني لاجيء وتمسكت بكلمة لاجيء، لاجيء يعني إلي حق بدي أرجع. وبعدين البعد العربي هو ما أخد أهميته زي البعد الفلسطيني، ما كان إله دور لأنه قلت لك قبل شوي إنه في كثير شخصيات عربية شاركت بقتل القضية الفلسطينية وأنا بإحساسي بحس لهلا في كثير شخصيات ومهمة وبنعتبرها نحنا نظيفة عم بتشارك بقتل القضية الفلسطينية وعم تسمح لشغلات تصير ... بدي أعطيك مثال مثل منظمات الـ NGOs هاي المنظمات اللي هون واللي بالداخل عم تقتل شرعية منظمة التحرير، في الها بعد هدي كل تعاملاتها مع المخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية والمخابرات الأوروبية هدي كثير برتعب منها حتى لما أقابل أنا أشخاص أوروبيين من الـ NGOs بحاولوا يطرحوا أسئلة بتحول تفكيرك فكثير قلبي مرعوب من هاي وهذا الشي أكيد ما عم بتم بدون معرفة الكبار بالنهاية، وكمان عم بنكرمهم وبنعمل لهم معسكرات وبنتفاعل معهم بزيادة.

ثالثاً: النمط الحالم بالغد الأجمل

"في الـــ 67، كانوا الناس أوعى من الـــ 48، واليوم لو أجوا اليهود وساووا كمان مرة حرب، مش هاجروا في الـــ 48 من القرية؟ يعني 100% شردوا؟ وفي الـــ 67، نقول 10%، هالحين لو ساووا حرب، ولا واحد بيهرب. والله العظيم، هذا الولد ما بهرب (يؤشر على ولد أمامه)..."

(محمد العطابي، 44 سنة، مخيم قلنديا، كانون الأول 2008)

صفات النمط ورواته

يغلب في رواية هذا النمط، التاريخي على اليومي. ويقرأ أحداث الماضي والحاضر قراءة مقارنة وبالتوازي مع تجارب تاريخية مماثلة لشعوب تعرضت لاضطهاد واستيطان واحتلال عسكري ويخلص إلى حتمية التغيير باتجاه إنهاء الحالة الاستعمارية. تشترك الروايات هنا بكون اسرائيل تبرز كاستعمار، وجوده مؤقت على أرض فلسطين الأمر الذي لم يظهر بهذا الوضوح بين الأنماط الأخرى على مستوى المجموع وإن ظهر على مستوى بعض الروايات الفردية أحياناً. وأبرز ما يميز هؤلاء الرواة ربطهم لمشروعهم الخاص بالمشروع التحرري العام من خلال عملهم اليومي، واهتماماتهم ومشاركتهم الفعلية في النشاطات الثقافية والسياسية التي تسهم في تحقيق مشروع الوطن الخاص– العام. وتلعب التجربة الشخصية ومكونات الثقافة الخاصة للرواة دوراً يظهر تأثيره بوضوح على الرواية التي يصوغونها لفلسطين، لتسهم، إلى حد ما، في بناء رواية مختلفة لفلسطين بعيداً عن الرواية الكبيرة المهيمنة بغض النظر عن مصدرها ذاكرة الوالدين (تجربة محمد في زيارة بلده والأثر الذي نقشته في ذاكرته التي كانت أصلاً موروثة عن أبيه) أو الحزب السياسي الذي ينتمي له المبحوث (لينا: التغير في رؤيتها للقضية في ضوء تجاربها السياسية وقراءاتها).

تظهر "فلسطين الضائعة" بصور مختلفة في روايات هذا النمط لكنها تنتهي جميعاً إلى وجوب استعادتها وحتمية استرجاع الحق الضائع. ينطلق الرواة من كون صورة فلسطين المغتصبة هي صورة مؤقتة لا بد أن تتغير ولا بد أن ينقلع المغتصب آجلاً أم عاجلاً. وبرأيهم، لن يتحقق هذا بقدرة إلهية فقط وإنما لأن التجارب التاريخية لحالات استعمارية أخرى وحالات المقاومة الموجودة اليوم أثبتت هذا. يختلف الرواة كما هو ملاحظ في العمر والمستوى التعليمي والاهتمامات، ولكنهم يشتركون في تنوع مصادر ثقافاتهم: المدرسة، والكتب التاريخية، والتراث الديني والشعبي، والاطلاع على التطورات السياسية من مصادر متنوعة، إضافة إلى التجارب الخاصة لعدد منهم في العمل السياسي والتعرض للاعتقال. أربعة من رواة هذا النمط أمضوا فترة من شبابهم في السجون ثمناً لمواقفهم السياسية: أبو سامي في سجن الجفر الأردني، لينا في السجون السورية، محمد ومنير في السجون الاسرائيلية، وتذكر ريناد أيضاً في قصتها تعرض معظم الرجال في عائلتها للسجن في الأردن وسوريا.

يبتعد أفراد هذا النمط عن الصورة السائدة في الخطاب السلطوي المهيمن في البلدين بمسافات تختلف بين راوٍ وآخر. فيقدمون رواياتهم الخاصة لفلسطين والتي تظهر في كل منها أصوات مختلفة؛ فالصورة المتشكلة لدى هؤلاء الأفراد هي نتيجة للصراع بين الأصوات المختلفة: صوت الحزب، ورواية الأهل، والرواية التي تأتيهم من الاعلام، والتجارب التي عاشها آبائهم وتلك التي عاشوها هم ليخرجوا برواية مختلفة تتركب من كل هذه الأصوات.

ما يميز هذه الروايات عن غيرها هو التوازن والانسجام الذي يشعر به القارىء في سيرة الراوي/ة وموقفه/ا، مقارنة بالضياع والتردد الذي يظهر في روايات الأنماط الأخرى. لا أقصد هنا الانسجام بين الروايات وإنما الانسجام والتوازن داخل الرواية نفسها: يقرأ الراوي الصورة التي يختزنها للبلاد أيام زمان بطريقة تنسجم مع موقفه من الأحداث الحالية وتوقعاته المستقبلية وأحياناً مع تجاربه السياسية فيشعر القارىء أن كل رواية تقدم صورة مختلفة لفلسطين، لكن تشترك جميع روايات هذا النمط في النظرة المتفائلة للغد. وعلى الرغم من تشابه هذه الروايات في اجماعها على التفاؤل في أن استعادة الحق ضرورة حتمية، إلا أن أسلوب ومضمون الروايات تختلف باختلاف تجارب الرواة التي خلقت رؤى مختلفة نوعاً ما لفلسطين في أذهانهم تنعكس في طرق تعبيرهم المختلفة. تقدم كل رواية من الروايات الثمانية ضمن هذا النمط صورة لفلسطين الأحلام عبر قصص تختلف في تفصيلاتها، لكنها تشترك جميعاً في انسجام بنية ومضمون الرواية التي يسردها الراوي/ة لترسم صورة متفائلة بغد أفضل لفلسطين. وقد اختلف الرواة في تحديد ماهية الغد الأفضل الذي يتفاءلون بقدومه، ففي بعض الروايات كانت الفكرة أكثر وضوحاً، وكان من الممكن تتبع المصادر التي تغذي هذا التفاؤل عبر خط سير الرواية:على سبيل المثال، في رواية ريناد "عين على فلسطين" الغد الأفضل هو العودة، عودة الفلسطيني، حياً أو ميتاً، إلى أي شبر من أرض الوطن. بينما الغد الأفضل في رواية أبو سامي هو التحرير والعودة إلى يالو ويغذي هو وزوجته هذا التفاؤل بالمواظبة على زيارة يالو أسبوعياً (وهذا ممكن في حالتيهما كونهما يحملان هوية القدس). أما في رواية لينا "الباحثة عن الطريق إلى التحرير"، فإن الغد الأفضل هو وطن ينعم بالحرية والديمقراطية وفيه دستور يضمن حقوق الجميع ويلغي جميع أنواع الاضطهاد، وتغذي لينا تفاؤلها بتحقيق الحلم من خلال مشاركتها في العمل المنظم على الصعيدين الاجتماعي والسياسي. وبالنسبة لكريم الصرعاوي، الغد الأفضل هو التحرير والعودة إن لم تكن عودته هو، فهي عودة الأحفاد ويغذي تفاؤله بالعمل في مجال التعليم ومتابعته للأحداث كما تعكس قراءته المتفائلة لحرب تموز.

جاءت المصادفة الغريبة أذني بعد أن انتهيت من تنميط الروايات وتصنيف الرواة حسب الأنماط، اكتشفت أن عدد رواة هذا النمط في مخيم اليرموك يساوي عددهم في مخيم قلنديا: أربعة في الحالتين، وعدد النساء مساوٍ لعدد الرجال، لكن بالصدفة أيضاً، كان جل الرواة الذكور في هذا النمط من مخيم قلنديا أما الراويات النساء فكلهن من مخيم اليرموك.

حاولت أن أفهم سر كون النساء ضمن هذا النمط من مخيم اليرموك، وقد تكون هذه مصادفة أو قد لا تكون، فمن خلال تجربتي في المخيمين، لاحظت أن التطور الاجتماعي والثقافي للمخيمين ومحيطيهما أثر بشكل مختلف على حياة النساء في المخيمين، وبشكل خاص ضمن الجيل الثاني 35–45، الذي عاشر فترة نمو الثورة والعمل الفدائي في الأردن ولبنان. قد يكون جو مخيم اليرموك في تلك الفترة، لقربه من دمشق احدى المراكز الحضرية في العالم العربي أتاح للفتيات هناك مجالاً أكبر للمشاركة في الحياة العامة من خلال التنظم في المعسكرات الحزبية والفدائية والجامعة والفعاليات الأخرى، الأمر الذي كان طبيعياً خاصةً في فترة السبعينات والثمانينات، كما يتضح من تجارب الراويات في المخيمين، بينما احتجزت الممارسات الاستعمارية تطور المدينة في فلسطين وقمعت بشدة محاولات العمل الحزبي والفدائي داخل الأراضي المحتلة. بالتأكيد لا أهدف هنا لاطلاق تعميمات، كون هذا يحتاج لبحث آخر بعينة أكبر وأشمل بين فئة النساء تحديداً لقياس تجاربهن ومساهماتهن في الحياة السياسية، وقد يوصلني في حينها إلى نتائج مختلفة. فمحاولتي لتفسير تركز هذا النمط بين نساء اليرموك ورجال قلنديا على خلفية التطور الثقافي والاجتماعي والاقتصادي لبيئة المبحوثين، ستبقى قاصرة ما لم أجر بحثاً آخراً يجمع روايات الناشطين في الحياة العامة في المخيمين، للكشف عن نسبتهم بين كلا الجنسين في الفترات التاريخية المختلفة والنظر في الظروف التي أسهمت في تكوين شخصياتهم ورواياتهم، وهذا يحتاج إلى بحث آخر. لكني أود أن أورد هنا ملاحظة بشأن النساء الأربعة ضمن هذه الفئة لأنها تساعد في فهم رواياتهن على ضوء تجاربهن الشخصية المختلفة، فقد أمضيت فترة كافية معهن في أحاديث جانبية لأستنتج أنهن يمارسن حياواتهن بعيداً عن الشكل التقليدي السائد للنساء في أعمارهن: فهن، بحكم الظرف الاجتماعي والاقتصادي الذي يعشنه، يمضين أغلب أوقاتهن في العمل الاجتماعي والثقافي والسياسي في الفضاء العام، بعيداً عن روتين العمل المنزلي الذي يفرضه الدور التقليدي للزوجة والأم، إضافة إلى مشاركتهن بشكل أكبر في العمل الثقافي من خلال القراءة و/أو الكتابة أو العمل مع التنظيمات الفلسطينية في مجال التراث.

عرض روايات الحالمين بالغد الأجمل

خلافاً لبقية الأنماط التي ركبت رواية كل منها من مجموع الروايات الشخصية للأفراد الذين يشكلون بمجموعهم النمط، اخترت أن أورد روايات الأشخاص الذين يؤلفون نمط الحالم بالغد الأجمل كل على حدة، كون كل منها تشكل نموذجاً لرواية مختلفة من حيث اللغة والمضمون الذي تمتزج فيه ذاكرة الراوي بما تختزنه من معرفة تاريخية وسيرة تجاربه أو تجربة عائلته الاجتماعية والسياسية. وجدت في كل رواية من الروايات صوتاً مستقلاً وقصة خاصة أحببت أن أنقلها بعرض الروايات بشكل منفصل مع أني لا أعتقد أن الرواة الذين يجمعهم هذا النمط شواذ كأفراد، إنما يؤلفون برواياتهم الخاصة لفلسطين نمطاً مختلفاً عن الأنماط التي ظهرت لدى الفئات الأخرى. سأكتفي هنا بعرض تحليلي لروايتي محمد ولينا.

قصة فلسطين هي قصة أمي وصلاح الدين – رواية محمد العطابي–مخيم قلنديا

"أنا مرة طلبوني المخابرات في الانتفاضة الأولى وكنت مع ضابط مخابرات، قال لي يومها بدي أحكيلك كلمة: احنا كنا نراهن إنه أنتوا تنسوا البلاد، بس احنا مشكلتنا معكم عويصة، أنت بتحكي معي، أنت غير عن أبوك، وابنك غير عنك. بقول له: كيف؟ قال لي: أنتم فش شعب زيكم، روح، قوم، اطلع. فهم اللي كانوا يراهنوا إنه أنا أنسى بلدي، وإذا أبوي طلع في 5 دقايق أنا أطلع في دقيقتين، يعني أخاف منهم أكثر، وابني يخاف أكثر، فالزمن طلع ضد صالحهم، وهذا بده يخليهم يعطونا دولة. هذا كلامهم هم [...] هم كانوا يراهنوا على الزمن إنه يخللي الأجيال تنسى، بس الأجيال قاعدة بتزيد تجذر في الأرض!"

تتميز رواية محمد بتنوعها من حيث اللغة والمضامين. من حيث المضمون، يستند محمد في روايته إلى القصص التاريخية وقصص الحنين التي يمكن أن تصنف ضمن الأسلوب الرومانسي لتركيزها على وصف الطبيعة وجمال الماضي المفقود والتعبير عن مشاعر الحب والحنين والأسى والقهر خاصة في قصة أمه عن البلاد وقصته الخاصة في وصف تجربة زيارته لبيت عطاب **مع الابتعاد عن المضامين السياسة التي تكون المحور في قصص الرجال عادة.** وما يعطي هذه القصة نكهة خاصة هو التنوع في اللغة لتتناغم مع المضمون: يلجأ الراوي إلى لغة أقرب إلى الفصحى في وصفه لموقع البلاد وتحليله لأسباب الهزيمة، بينما يستخدم اللهجة الفلاحية بتعبيراتها المميزة حين يروي رواية أمه عن البلاد. وعلى الرغم من دمج الرواية لمشاعر ومضامين قد تبدو لأول وهلة متناقضة أو غير معتادة إذا ما قُرأت بطريقة ميكروية (micro) إلا أن اعادة قراءة الرواية من منظور ماكروي (macro) يكشف عن تناغم بين لحظات الخيبة والانكسار من جهة والأمل والانتصار من جهة أخرى لتوصل الرواية القارىء إلى النتيجة الطبيعية لنهاية أي ظلم أو اضطهاد للشعوب: *"الأمنية إنه تتحرر بلادنا ونرجعلها، ومش شرط لو تحررت فلسطين إنه كل واحد يرجع على بلده، هي ترجع فلسطين لأنها صفت رمز وقيمة مش موقع، أنا ممكن أسكن في يافا أو عكا أو الناصرة، وممكن أروح على بلدي أزور قبر جدي وجدتي، أزبطه"*. لأوضح ماذا أقصد بالتناقض والتناغم، أعطي مثالاً من رواية محمد عن فلسطين ما قبل النكبة حيث يبدأ بالحنين إلى الماضي الجميل الضائع في الجزء الذي يرويه عن أمه، ليتبعه وصف للمعاناة وصعوبة الحياة التي كان يعيشها أغلب الفلسطينيين قبل النكبة من خلال روايات أبيه وجزء من رواية أمه، ومن ثم يعود الحنين إلى الماضي الجميل ليغالبه مرة أخرى حين يصف لنا شعوره خلال زيارة يتيمة قام بها إلى بلد أبيه فيراها بصورة أجمل من تلك التي ورثها من ذاكرة أبيه. وبالمثل في روايته لتاريخ فلسطين فهو لا يهمل السبب الخارجي "بريطانيا"، لكنه يعزي أسباب الهزيمة إلى العامل الذاتي بالدرجة الأولى، قلة الوعي والجهل لدى آبائنا وأجدادنا، ليعود ويشدد على أهمية العامل الذاتي، تحديداً زيادة الوعي لدى الجيل الجديد من الفلسطينيين، في الانتصار على المشروع الاسرائيلي الذي يهدف إلى افراغ البلاد من أهلها، لكنه يعود ويؤكد أن أمنيته بالتحرير لن تتحقق بفضل هذا العامل الذاتي وحده:

"حتى لو احنا الشعب الفلسطيني بذلنا كل جهدنا مش بايدنا هذا، هاي قضية قومية، قضية فلسطين، مش قضية شخصية، أكثر غلط أخطأناه احنا لما قلنا احنا الممثل الشرعي والوحيد، شو الممثل الشرعي؟ أقولك: على مدى التاريخ، فلسطين أنوه اللي حررها؟ حررها مرة عمر بن الخطاب، وحررها مرة صلاح الدين، وقتيش مرة واحد فلسطيني حررها؟ بس بعدها القومي والديني، فلسطين قضية أمة مش قضيتنا، يعني فكرك لو اجينا فتح وحماس وجبهة اتحدنا فكرك اليهودي، أنوه يهود، ما خلف اليهود من حركات امبريالية، هم اليهود يعني ثابتين؟ ما ربنا قال: إلا بحبل من الله وحبل من الناس. اليهود أمريكا واليهود العالم، كل العالم الأوروبي معني بزرعها في قلب العالم الاسلامي لاضعافه، فاقتلاعه مش بإيدي ولا يمكن مهما كانت قوة الحركات، ولا الأمة العربية، فلسطين أكبر من أمة عربية ...".

أصل القضية كلها غيرة نساء

يقدم محمد بداية مختلفة لروايته لفلسطين، فهو يقول أن قصة فلسطين قديمة، هي قضية "من يوم ما الله خلقها" و"أصل القضية (...يقولها بضحكة...) غيرة نساء":

"صراع الحضارات على فلسطين قديم جداً، يمكن الواحد يكتب مقدمة، عن أصل العرب الكنعانيين اللي عاشوا في فلسطين، هذي بدها تبقى مقدمة أما أنا لو بدي أكتب عن فلسطين، فراح أبدأ لسه من قبل، فلسطين هي قصة من يوم ما ربنا خلقها، ارجعي لسيدنا ابراهيم بتلاقي قصة، صراع فلسطين من يوم ما سيدنا ابراهيم تزوج هاجر، بدأ الصراع بين سارة و هاجر هاي بداية الصراع، مش هي خلفت له؟ راح يرمي ستنا هاجر وابنها في مكة، ما هي غيرة كانت الغيرة أصلها، أنا مهما أقول أنا شب متدين، لكن أنا لما قريت التاريخ تبعنا، لاقيت أصلنا غيرة نساء، يعني الله بيجوز إله حكمة سبحانه وتعالى إنه تروح هاجر واسماعيل على مكة وتبقى ستنا سارة في فلسطين لكنها كانت غيرة، وتأسيس اليهود هان من هناك بدا، يعني عصر الإسرائيليين هان من هناك بدا، لما سارة رفضت إنه يكون إلها شريكة".

بقراءة هذه القصة رمزياً يبدو أن سارة تمثل الحركة والأيديولوجيا الصهيونية التي تريد دولة يهودية نقية، بغض النظر عن حدود استلهام الصهيونية للديانة اليهودية. فطالما أن سارة (النظام والناس) في إسرائيل لا يريدون حتى فلسطينيي 1948 بينهم، فهذا يعني تواصل الصراع. ومن هنا، يستدعي محمد، كراوية شخصية صلاح الدين، وكأنه يُحيل أمر مواصلة أو ممارسة النضال على الخارج.

قصة البلاد – صلاح الدين والأم

تتجذر قصة البلاد في خيال محمد من خلال قصة أبيه وأمه فالبلاد بالنسبة له هي بيت عطاب بلد أبيه وبيت محسير بلد أمه. ويلعب صلاح الدين، هنا أيضاً، دوراً في الرواية، فهو أساسي في وجود بيت عطاب وأهلها. وبالنسبة لمحمد، إذا أراد أن يكتب عن بيت عطاب، سيبدأ من عصر صلاح الدين "من وقت ما جذوري انوجدت" كما يقول:

"طبعا، بتذكر بيت عطاب جيداً ودخلتها، قريتنا من القرى الصغيرة في فلسطين، هذه القرى، أنا بعتقد حسب ما قالوا لي أبوي وجدي، أنه هذه القرى اللي عدد سكانها 300 نسمة أو أقل وقت الهجرة، هذي أصلها مش قرى فلسطينية، فمعظم هذه القرى أُسست بالأصل من المحاربين اللي أجوا مع صلاح الدين، أنا ما بحثت بالموضوع حقيقة! بس أنا بعتقد إنه من المحاربين المسلمين اللي أجوا مع صلاح الدين لما دخل منطقة بلاد الشام وحررها، فالقرى اللي عددها قليل حتى، بقولوا المحاربين إنه هذي أصلها مش قرى. حتى القرى بجوز تلاقي بير اماعين وساريس عدد سكانها في الهجرة كان فوق الألف، أما قريتنا العائلات اللي فيها بيجوز ثلاث عائلات، معدودين عالأصابع، بتلاقي لما في الهجرة كانوا 300، 350 نسمة يعني أرجعي للجد الأول بتلاقي مجرد ثلاث عائلات (ويسميهم). في بلد سكانها بس ثلاث عائلات؟ ولما بترجعي للجد الأول، يعني أنا

بقدر أسلسلك الثلاث حمايل الجد الأول، فيبدو تاريخهم مش هداك العمق، إنك تقولي من زمن الكنعانيين أو ...".

وتتشكل رواية فلسطين لدى محمد بشكل رئيسي من خلال قصص أمه عن البلاد، أمه التي ما زالت تعيش إلى اليوم في المخيم حلم الماضي الجميل في بيت محسير شكلاً وروحاً: فهي ما زالت ترتدي الثوب الفلسطيني حصراً كما نقل لي محمد في روايته: *"أمي لما بتشوف امرأة لابسة فستان أو زيك مثلاً بتزعل، بتقول مش احنا الفلسطينية، مش هذا هو شكلنا، يعني أمي بتعرف المرأة هي اللي بتلبس ثوب والخرقة والشملة هذي اللي بتربطها على النصف، وإذا هيك (يشير للباسي) خلص هي بتعتبر إنه هظول مش فلسطينية، يعني قاعدين بتخللوا عن التراث الفلسطيني.."* وما زالت والدته تنظر إلى الحياة من منظار البلاد، فهي تقيس جودة الطعام اليوم بمقارنته بطعام البلاد وتحاول أن تغير البيئة التي حولها لتشبه بيئة البلاد فتزرع حيث أمكن الزيتون، ومن الملاحظ أنه في الرواية التي ينقلها عن أمه يتحدث بلهجة فلاحية تختلف عن اللهجة التي يستخدمها في المقاطع الأخرى من الرواية والتي هي أقرب إلى اللغة العربية الفصحى:

"والدتي طلعت من بيت محسير وهي عمرها 13 سنة. بتحكي لي كيف كانت في بيت محسير تركب عالبغل وتروح تساعد والدها لأنها كانت هي الكبيرة، فهي اللي كانت رديف لأبوها في الفلاحة والحراثة، بتقول أني بقيت أروح عالبغل وأساعد أبوي، وتصف لي أرضهم يعني كاينة حوالي 30 أو 40 دونم زي الكف هيد يعني منبسطة (يمد كفه). بتقعد تفرق، لما تقعد توكل الخبزة بتقعد تفرق لي بين طعم رغيف الخبز هالحين وطعم رغيف الخبز على زمن البلاد. حتى لما بوزعوا في المؤن هان، بتيجي بتفتح رغيف الخبز، وبتعجنه، بتقول لي هذا الخبز مش قمح، هذا إذرة (ذرة) مخلوطة بقمح، هذا قمح سقي وهذا قمح أحمر، الفلاح الأصلي بعرف. هي بتقول لي، أنا لما كنت في البلد، كنت آجي مثلاً أطول البيضات من تحت الجاجات، وبقيت أحط في السكن تبع الطابون 5 أو 6 بيضات وأروح أجيب قمح أو اذرة، أجرشه على الطاحونة وأعجنه أنا وأخبزه على الطابون. اطّلعي (يقول لي): يعني تطول من الخابية، وتطحنه وتعجنه وتخبزه بسموه قراديش الذرة وتطول البيضات السخنات وتحطهن بزيت بلدي وأوكل قالت لي هذه الأكلة هالقيت أنا بتمناها، اللي مش موجودة اليوم، مش ممكن أساويها. فبتيجي على رغيف الطحين الأبيض اللي هي بتتهزأ عليه، طبعاً بتقول لي هذا للحمير وبتقارن بينه وبين القمح اللي كانت تزرعه وتحصده وتجرشه بايديها وتعجنه بايدها وتخبزه بالطابون. فهي بتتحسر، أمي بقول لك أنا لما بقعد معها بحس قديش هي بتتألم! مش بس هذي، أمي، ولا يمكن، يعني إذا إجا علينا ضيف، حتى لو كان أخوها، خالي، وأمي قاعدة في الصالون، مستحيل تطلع إذا لابسة دشداشة إلا تروح تلبس الثوب، بتعتبر إنه إذا طلعت أنت واستقبلت الضيف بهندام مش جيد يعني هذا احتقار للضيف، هذا في التراث. بدي أقلك شغلة، يعني أمي سكننا في غرفة لوحدها، وحطينالها واحدة من بناتنا نخدمها يعني، هي بتحب الاستقلالية، لو أنا جبتلها كل خبز السوق، إلا تخبز هي وتشوف العجينة. وبتعرفي شو عملت؟ حاطة قوار ورد عالشباك، طلبت شباك حمايات مبطنة لبرا، وكل يوم بتقوم تسقي زرعاتها، بتزرع نعناع، بتزرع زيتون وبتزرع، في القوارات، وكل ما كبرت الزتونة، بتشوف واحد عنده أرض بتقول له ازرعها وبتجيب كمان زتونه بتحطها بتزرع، ولا يمكن تتخلى عن اشي اسمه زرع..."

يشير هذا المقطع الطويل إلى الاغتراب، هنا الاغتراب عن الملكية وعن الإنتاج الزراعي الذي تتخيله الراوية كصورة وحتى كمحاولة تطبيق في نطاق قطعة الأرض الصغيرة عند البيت. وكأنها تستحضر الوطن في ما هو أكبر "قليلا" من الصورة، أي في حديقة المنزل. هذه النوستالجيا من الأم، هي توليد إصرار على العودة أو المقاومة لدى الأبناء، وإن لم يكن ذلك التوليد بالتلقين المباشر.

لكن رواية محمد لا تقتصر على التغزل بجمال الماضي من خلال حنين أمه للبلاد، فهو يتحدث أيضاً عن صعوبة الحياة في تلك الفترة، فلم يكن منتوج الأرض قادر على أن يعيشهم حياة مريحة، فيصف مشقة العمل في الأرض وصعوبة توفير الغذاء والتعليم للأبناء لدى الفقراء من خلال حديثه عن أسرة والده:

"بالنسبة للتعليم، كانت العلوم تقتصر على القراءة والكتابة والقرآن، بجوز ما كان الشيخ مؤهل، هو شخص واحد، فكان الولد يروح، يوخد في المُخلاة على ما يبدو، كانوا يفصلولهم مخلاة من قماش يحطها على كتفه، ويوخد اشي بيوخد بيض، واشي زيت، من الموجود في البيت، وهيك تعلموا. لكن مين كان يقبل على التعليم؟ الناس اللي كان وضعهم الاقتصادي جيد أو فوق الجيد، والناس اللي كان عندهم قدرة إنه يدفعوا للشيخ أو قدرة إنه يستغنوا عن هذا الولد ويروح يتعلم. يعني زي أنا والدي ما رحش، لأنه والدي كان كمية الأرض عندهم قليلة، وما بتكفي، لأنه منطقة بيت عطاب كانت أرض جبلية: هي أصلها كانت قلعة، قلعة رومانية وموجود فيها آثار رومانية، وكانت أرضهم قليلة، فكانوا يروحوا يعاونوا الناس في أراضيهم وفي النهاية واحد يعطيه قمح وهذا كيس ذرة ويحطوا مونة السنة في البيت. فكان التعليم يقتصر على الناس اللي وضعهم جيد أو أكثر من الجيد واللي عنده أولاد كثار: 5، 6 شباب فوق الـ 15، يودي الطفل الصغير، لكن اللي ما عندش، الطفل الصغير اللي 10 سنين أو 12 سنه بساعد وبجيب...".

تجربة زيارة مختلفة للبلاد

على غير العادة، في روايات الآخرين الذين زاروا بلادهم بعد النكسة أو خلال فترة الانتفاضة، حيث يتكلمون عن الفرق الشاسع بين صورة الماضي الجميل الذي وصفه الآباء والصورة المخيبة للأمل التي شاهدوها في زيارتهم: إما بسبب آثار الدمار أو لإقامة مستوطنة يهودية فوق القرية. أما محمد فزيارته للبلاد عكست الآية: فأحس بقيمتها التي تزيد بكثير عما كانت تساويه لدى أبيه الذي عاش حياة المعاناة والفقر في الماضي بسبب عدم امتلاكه ما يكفي لاعاشة عائلته من الأرض واضطراره لبيع قوة عمله للآخرين، لكن قيمة بيت عطاب لدى محمد تتجاوز الملكية الخاصة للأرض. قيمتها من قيمة قبور الأجداد التي يمكن أن يدنسها المستعمر، هي جذوره، التي قُطع منها ليتحول إلى لاجيء يعيش في حالة "الليمبو"، معلقاً بين السماء والأرض، شعور يخبرني أنني، لن أستطيع فهمه، كوني من صوريف ولي أرض فيها جذوري وامتدادي:

"بعد ما كبرت، رحت زرت البلاد، شفتها مختلفة عن وصف أبوي! دايماً المشاهدة بتختلف عن الوصف، يعني أنا لما كان والدي يقول لي إنه بلدنا صغيرة وفش فيها مساحة زراعية، أنا بصراحة بقيت أقول: إنه الحمد لله إنه احنا مش فيها لهلا! أنا بدي أساعد الناس ليعطوني؟ أنا مش باقي أملك إشي، ملكنا قليل! بس لما تروحي وتشوفي، بتعرفي؟ بتشوفي مواقع، هو بقول إنها بلد صغيرة، لما شفت فيها أماكن أثرية، بجوز أنا نظرتي بتختلف، بيجوز والدي لأنه عاش فيها أوبجوز لمستواه الثقافي هو بعتبر يعني أنه مالهاش قيمة: يعني طالما فش إلي أرض، يعني وشو البلد؟ بس أنا لما شفتها، أنا حسيت يعني أول اشي شفت المقبرة، طبعاً مدمرة، فكرت إنه هان جدي موجود وجد جدي، هذا قيمة بالنسبة إلى، أنا بالنسبة إلي عظام جدي مدنسة، يعني بجوز بكرة ييجي يهودي يبني دار ويجيب جرافة ويرميهم في الزبالة! هذا قيمة بالنسبة إلي. اللي ربطني في البلد لما دخلت، بتعرفي؟ يعني حسيت اشي في داخلي صحي، يعني أنا شميت (...) يعني جدي، أم أبوي هان وأبو أبوي هان وأبوه هان، يعني أنا أصلي، وجذوري هان، فأنا بصراحة لما بقيت أسمع من أبوي يعني أنا ماخد يعني شو البلد يعني؟ مالناش فيها (...) **وأنا في قلندیا بيجوز الوضع أحسن فيها من لو إني في البلد، شو يعني أشتغل أجير عند الناس مشان كيس قمح في السنة، بس لما دخلتها، بتعرفي بتملكك شعور، أنت بجوز مش لاجئة وما جربتيش هذا الاحساس؟** صوريف موجودة بتقدري تروحي وأرضكم موجودة وبيجوز أهلك وأعمامك موجودين، صدقيني الشعور هذا شعور الغربة (....) يعني شغلة بسيطة ما بتقدري أنا جدي بقيتش أزور قبره، عارف وين مقبور وأنا

بقدرش، مش بس بقدرش، بضمنش إنه بعد فترة لو رجعت البلاد ألاقي قبره موجود محله، ألاقي عظامه محله، فأنا حسيت بجمال البلد: منطقة جاية على رأس جبل، وفي نبعة صغيرة هيك جدول بمرق من نصف البلد، في أكم حصن روماني ومغارة وكذا بتدخلي فيها وبتلاقي المية نازلة من سقف المغارة ومتكلسة. ويعني إشي بجذب، ولما تقفي تطلعي حواليك على البلاد، أشجار زيتون وبلوط ورمان وخروب، تلقطي خروب عن الشجرة وتوكلي، والاسرائيليين بانيين قريب منها مستعمرة واليهود استفادوا أكثر من المناطق اللي فيها أراضي منبسطة، بس القرى اللي موجودة في مناطق جبلية، زي قريتنا (...) هادي اليهود ما استغلوها، اليهود استغلوا أكثر منطقة ساريس وبيت محسير اللي أراضيها منبسطة ...".

قصة التهجير- الاقتلاع ليتحول الفلسطيني من ملك في أرضه إلى شحاذ في المخيم

يصف الراوي هنا عنف الاقتلاع الذي أودى بحياة خالته، وعرضهم لجوع وفقر مدقع وأمراض وأوبئة وقهر وأدى إلى موت الكثيرين بالسكتة القلبية:

"تصف والدتي، كيف هاجرت هي وأهلها، وقعدوا يومين بدون طعام، وفي واحدة من خالاتي حاولت ترجع على البلد، كانت كبيرة في السن، في الـ 25، وهي راجعة تجيب شوية قمح تطعمي الأولاد، وأمي باقية في منطقة مشرفة على البيت، شافت خالتي متسللة وداخلة، وكيف لما وصلت عالبيت بتقول لي: شفتها لما طارت في الهواء وتقطعت (...) وبتحكي كيف لما طلعوا وراحوا عبلاد ثانية فباقيين يفركوا العدس وينقوا الحب من الزرع ويوكلوا (...) وسكنوا فترة في بيت خرابة! وبعدين توجهوا على قلنديا. ما كنتش بيوت، وزعت عليهم خيم، كانت الحمامات مشتركة بدون باب، يعني بيجي في زاوية U هيك بتدخل، يعني أنا لحقته هذا، بقي لحد بجوز السبعينات، لما هدوهن بيدخل الواحد على الحمام، وبيقضي حاجته وبيطلع، نفس الحمام، بدون سقف مدخله من هان للرجال ومن هان للنساء. يعني كانت شغلات حتى من ناحية انسانية مش موفرة. بتحكي أمي كيف كانت المياه شحيحة في المنطقة، والعناية الصحية شحيحة، حتى بتقول لي لما كانوا الأولاد يناموا مع أهلهم وأمهم، بتقول لي كان في عائلات بتشوفي هم كيف النمل اليوم؟ كيف بتمشي النملة؟ بيبقى القمل نازل من روس الولاد يحبي عليهم زي النمل. يعني شوفي أنت لما بتقعدي مع ختيارة وبتسمعي قديش كانت المعاناة، المعاناة أنت لما تشوفي على التلفزيون مش هذي المعاناة، المعاناة أقعدي مع انسان عاش الحدث، يعني أبوها مات جلطة، وأمها ماتت جلطة، أنت عارفة الانسان اللي كان يملك 40، 50 دونم لا يحتاج شيء، ويصفي شحاذ؟ بقول لك، الوصف .. مهما تحدثت عن الوضع ومهما كتبنا، مش زي ما تقعدي مع انسان عاشه، ولكل انسان قصة، ما تفكري أنه 1000 واحد هاجروا الهم نفس القصة، كل انسان إله قصة والمعاناة بتبرز من جانب ثاني. يعني والدتي، معاناة أبوها بقت أنه هي كانت الكبيرة، 14، 15 سنة لما هاجروا وهم أطفال تصوري وتعوق تنوا خلف، عمره صار في الستينات، بينتظر طفله هذا اللي عمره سنتين أو ثلاث سنين حتى يساعده. لما بدا فيه بصيص نور في حياته وأجوا الأولاد، باقين يموتوا أولاده في البداية فيلاقي حاله شحاذ بيشحذ عشان يطعم الأطفال هدول، لاقى حاله في بيت عور شحاذ بمعنى الكلمة، شحاذ، وهو كان القمح اللي يحصده، بتقول لي أمي أقسمت بالله أنه كانوا يحرثوا أراضي، قالت كان الموسم يروح واحنا مش لاحقين نحصد، من كثر الغلة(...) ويصفي شحاد يوقف مشان يعطوه الوكالة كيس طحين. يعني انسان بقول لك مات بحسرة، أقول لك: جيل اللي هاجروا في الـ 48 أنا بدي واحد يساوي احصائية، بتلاقي أكثر من 50% ماتوا جلطات وأمراض سببها الزعل ...".

مثلما حمل الماضي بأسباب للهزيمة فإن الحاضر يحمل بالأسباب التي ستلد النصر في المستقبل

يذكر محمد بريطانيا ووعدها الصادر عن بلفور، كسبب خارجي، للمأساة التي حلت بالفلسطينيين، لكنه يبحث أكثر في الأسباب الذاتية. وأولها خروج الأجداد والآباء في ذلك الوقت، الذي يبدو غير مستوعباً مقارنة بموقف الشباب اليوم، وثانيها ما يسميه هو قلة الوعي والجهل والخلافات والانقسام

الذي يجعل الأخ يقتل أخاه "مشان مترين أرض أو بلد تهجم على بلد مشان بنت والتحالف مع العدو الغلط، وقلة الدين". ويلجأ محمد في روايته إلى استخدام القصص المتناقلة عن الآباء والأجداد بما يشرح الفكرة التي يود تثبيتها في الرواية، كالقصص التي ينتقد من خلالها تعامل الفلسطينيين مع العثمانيين في فترة حكمهم والتي برأيه تظهر جهلهم وقلة وعيهم بالخطر الأسوأ الذي سيلحق بهم من تحالفهم مع بريطانيا ضد العثمانيين، فيورد مثلاً قصص تبين الحيل التي استخدمها الرجال للتهرب من التجنيد الالزامي:

"بريطانيا قعدت كذا سنة تهيىء الأرضية لليهود، بس دايماً الانسان يفحص نفسه، وهذا المفيد طبعاً! أول سبب بعزيه لنفسنا، لأجدادنا، بجوز أنا كان في عندي نوع من الوقاحة يعني، مرة جاوبت والدي يعني حكيت معه قلت له: أنا في مخيم قلنديا، لو اليهود أجوا هجموا عالمخيم وقتلوا 50 واحد وقالوا لي اطلع واهرب عالأردن بهربش، بقول له طخني، بقول له اقتلني، يعني أنا أقول لك بصراحة، بيجوز كنت قاسي في الحكم، طبعاً وأنا صغير ما بقيت أدرك بس لما كبرت احنا بجوز اشتركنا في الانتفاضة الأولى وكان النا شوية (.....) (يسكت هنا مطولاً، ويغير الموضوع)[209] فكنا نشوف الجندي بطخ علينا واحنا واقفين، الجندي كان ييجي ويقول ممنوع التجول ونطلع ونضرب عليه حجار، مش هيك؟ الشاب الفلسطيني مستعد هلا من كثر ما عليه ضغوطات، يمسك حزام ناسف ويروح يفجر حاله، مش قاعدة بتصير؟ طب أنت قاعد في بلدك وبتقول لي: إلك 50 دونم أرض وإلك أملاك وقبر أبوك موجود هان وشرفك وعرضك طب أجوا اليهود ليش هربت؟ معكش سلاح؟ طب خليك انقتل في بلدك أشرفلك، يعني أنا قلنديا مش بلدي، لكن أنا لو اليهودي خيرني بين أني أنطخ أنا وأولادي في داري أو أروح لاجيء في الأردن أشحد بروحش. يعني السبب أساساً فينا، في أبوتنا، هالحين ليش؟ **كمان هدا بتلاقى مليون سبب. هل هو قلة الوعي؟ هل هو الخلافات اللي كان الواحد مستعد يقتل أخوه مشان مترين أرض؟ هل كانت بلد تهجم على بلد يطخطخوا بعض علشان بنت؟ عشان واحد المختار بدوا يتجوز بنت فلان؟ هل هذا الجهل؟ كله أنا بعزيه لأنه نفسنا سبب أول والسبب لما أقول نفسنا ممكن أنا أؤلف كتاب عن هذا الموضوع، عن الجهل اللي كان عنا، عن العادات والتقاليد،** عن روس أجدادنا اليابسة اللي الواحد مخه شايفة كيف، عدم التعاون، على قلة الدين، الجهل في الدين برضه، طالما انسان متدين ما اني بفدي، في داري وأولادي ومرتي، ما أنا بموت خمسين موته ولا بفرط في قبر أبوي وبخليه وبشرد (....) والأمة العربية، جهل الأمة العربية، خليه يكون سبب ثاني، بديش أقول بريطانيا، لما الشريف حسين كان يراسل مكماهون ويتفق معه على ضرب تركيا، هذا مش سبب؟ طب مراسلات حسين – مكماهون كانت جارية والثورة العربية الكبرى سنة 1916 شغالة وهم بحاربوا في تركيا، وطلع وعد بلفور سنة 1917، طب كيف وأنت عارف أنه بلفور قاعد بيوعد في الشعب اليهودي بتسليمه فلسطين؟ وأنت بتحارب في تركيا اللي هي السلطان عبد الحميد رفض يساوم الحركة الصهيونية على تسليم فلسطين؟ (...) إذاً شو السبب؟ نفسنا احنا الجهل تبعنا، طب بلاش، تركيا مع كل مساوئها، يعني الدولة التركية كانت ظالمة، وأنا إذا بدك أعددلك مظالمها، بقعد من هان لأسبوع، لما كانوا ييجوا عالبلد يقولوا بدنا نوخد جيش للتطوع، شو كانوا يعملوا أجدادنا؟ بتعرفي؟ كان الواحد يحط أصبعه هيك ويجيب بلطة يقطم أصبعه اللي بطخ فيه بالبارودة، بيجوا بفحصوه أصبعه مقطوم بيخدش. وفي كان قانون عند تركيا إنه أي انسان متزوج مرة من خارج البلد بيخدوش عالجيش، لأنه يقولوا هاي مرته غريبة، لانه بقول لك هاي بتُمتَهن في البلد، فكانوا معظم البلاد إنه واحد من بيت عطاب يتزوج من بيت محسير مثلاً، وهاي كان إلها ايجابيات، إنه برضه الواحد حسن النسل[210]. فكان كثير ناس يروحوا يتزوجوا من برا بلادهم: يعني واحد من ساريس ييجي يتزوج من بيتين من هان أو من دير دبوان مثلاً طب هذا مش جهل برضه؟ بغض النظر عن مين هي الدولة؟ لما أنا بعرف وعد بلفور موجود، وفي دول بتهيىء في حالها حتى تستولي على أرضي، طب أنا(....) حتى أقلك؟! أنا إذا كانت أرضي بده يدافع عنها هتلر بروح

[209] كان من الواضح، خلال المقابلة، عدم رغبة الراوي بالحديث في السياسية الراهنة، فكان يفضل الحديث عن التاريخي، وحين يأخذه الحديث إلى الأحداث السياسية الأقرب مثل الانتفاضة أو تجربة التحقيق يحاول قفل الموضوع سريعاً ليعود إلى التاريخ الأبعد. أقرب تفسير لهذا، هو جو عدم الأمان السائد اليوم في الضفة الغربية والاعتقالات التي تقوم بها السلطة.

[210] من الواضح في هذه الرواية، وروايات فلسطين الأحلام بشكل عام تعدد المصادر التي يعتمد عليها الراوي ونمط التفكير المتعدد مقابل التفكير الخطي الذي كان يسود في الكثير من روايات فلسطين الواقع خاصة روايات النمط المأسور بالواقع المحيط والنمط الواقعي العقلاني. وبالنتيجة تبدو روايات فلسطين الأحلام أقرب إلى الحياة الواقعية بما هي متعددة الوجوه والإمكانات.

بتفق مع هتلر، لو أني انسان واعي، مش بتحالف مع الشيطان حتى أدافع عن حالي؟ بعد الـ 48 طبعاً صار في وعي، وفي دلائل، في الـ 48 لما اليهود دخلوا على القرى الفلسطينية، كانت القرية عن بكرة أبيها مهاجرة. معظم القرى طلعوا بدون ما يشوفوا اليهود، أنا بحكيلك عن بيت عطاب، طلعوا ما شافوش اليهود، سمعوا اليهود بطخوا وبقتلوا وهربوا، أكم واحد ظل في القرية؟ صفر، في بيت محسير، صفر. صارت حرب الـ 67، اليهود كانوا متعلمين أنه بدهم يفضوا الأراضي، وفي الـ 67 اليهود فظعوا أكثر وكانوا اجراميين أكثر، وكانت قوتهم أكثر، في دلائل أنه صار وعي، لما دخلوا ع مخيم قلنديا، كم واحد هاجر؟ نسبة اللي هاجروا قديش؟ 10%؟ ما أنا من قلنديا والدور اللي هاجروا كانوا فاضيات، وكنا نلعب فيهم، في كل حارة فيها 10 دور كانت تكون دار واحدة مهاجرة. بدليل أنه هينا احنا موجودين، في عقبة جبر كم واحد هاجر؟ هاي المخيم موجود. في الدهيشة؟ أكم واحد هاجر؟ أني قرية فضت؟ أنوا مخيم فضي؟ صح في ناس جنبنا هربوا (...) أنا أمي قالت لي: حملتكم، وفي هان زتونات، قالت: قعدت وقلت يقتلونا هان، مش مجبور كمان مرة أهاجر ويصير فينا زي ما صار في الـ 48، إذاً الناس كانوا أوعى ...".

إلى هنا تنتهي قصة محمد، وإذا حاولت أن أحدد مصادر التفاؤل عنده، أستطيع أن أجملها بتعلقه بالبلاد من خلال قصص أمه وزيارته اليتيمة إلى بيت عطاب، والمخزون الذي يحمله من معرفة دينية وتاريخية يحللها بما يوصله لحتمية التحرير إضافة إلى تجربته الشخصية في النضال والتي كان متحفظاً في الحديث عنها، ولكني استنتجتها مما سربه عن مشاركته في الانتفاضة وقصته مع الضابط الاسرائيلي في التحقيق. قد تكون هذه العوامل مجتمعة مفتاحاً لكشف سر الصوت المتفائل الذي يغلب على رواية محمد التي أوردت مقاطع مطولة منها.

الطريق إلى فلسطين – رواية لينا ترشيحا – مخيم اليرموك

"من يدري! قلبي مولع بالحزن! أم بالياسمين القادم الذي سيكون شرارة لتوقد من جديد ... !!"

(من رواية غير منشورة للينا ترشيحا، 46 سنة، مخيم اليرموك)

تطول رواية لينا لفلسطين بطول حياتها وتجاربها، هي التي ربطت حياتها الشخصية بالقضية، أو قد تكون القضية هي التي التصقت بها كما تقول في احدى جدالاتها مع والدتها التي كانت ترجوها لتبتعد عن العمل السياسي الذي أودى بها إلى السجن، فتدافع لينا عن قناعاتها:

"كل ما يصيبني هو من صرّتكم التي حملتموها عندما هُجّرتم، تلك الصورة لن تغيب عن ذهني، سأنتقم لمعاناتكم، ومأساتكم هي المسؤولة عن كل ما يحصل لي! ولن أتراجع مهما كان الثمن. سأقدم كل التضحية من أجلكم." (من رواية للينا ممنوعة من النشر، ص 47).

تتداخل القصة التي تسردها لينا لفلسطين مع قصتها الخاصة، بدأت القصة حين كانت صغيرة في مخيم اللجوء، من هناك دخلت فلسطين إلى حياتها. كل ما حولها يحفر فلسطين في جسدها وذاكرتها: المخيم بواقعه المختلف عن محيطه، وقصص جدتها عن ترشيحا، وحلم والدها بالعودة إليها، وألعاب الطفولة التي كبرت معها، لتتخذ أشكالاً جديدة منها المشاركة في حفلات المدرسة بالانشاد، وبالاجتهاد في الدراسة للوصول إلى مقاعد الجامعة وهناك فُرِضَ عليها الاختيار الصعب بين هدفي حياتها. هدفها الخاص لاستكمال متطلبات الدكتوراة من خلال عملها في التدريس في الجامعة وهدفها العام– الخاص لتحرير فلسطين من خلال نشاطها السياسي والتنظيمي. هي قصة إنسانة فلسطينية، كمعظم الفلسطينيات والفلسطينيين، الذين كان عليهم أن ينشأوا في مخيمات اللجوء في الخارج ليتشكل وعيهم من قصص سمعوها عن وعد بلفور والنكبة وجيوش الانقاذ والنكسة والثورة، فيلازمها هاجس اللجوء والبحث عن الوطن والحرية منذ طفولتها، وتمضي عمرها في العمل والبحث عن الطريق إلى فلسطين. كانت أحياناً تجد الأجوبة لدى الفصيل السياسي فتلتزم بالعمل من خلاله، ولكنها لا تتوقف عن التفكير والبحث، وحين تجد طريقاً آخراً يقنعها أكثر، لا تتردد في السير فيه، متحديةً الظروف الاجتماعية والشخصية. فهي التي ستصنع خياراتها مهما ارتفع الثمن الذي عليها دفعه في عالم يهيمن فيه الاستبداد الذكوري، فلا يُرحَم الرجل الذي يجرؤ على الخروج عن المألوف فما بالك بالمرأة؟ وكان الاعتقال وما حفرته تجربة التحقيق والتعذيب على جسدها وفي فكرها، يُضاف إليه موقف المجتمع المحيط والعائلة من المعتقل السياسي الذي يبدأ بالخوف والقلق على الابن/ة أولاً وعلى مصير العائلة ثانية وقد ينتهي بالنبذ والرفض خشية من التعرض لشبهة أمنية لا يُحمد عقباها.

سأكتفي هنا بعرض رواية لينا ولن أتطرق إلى تجربة السجن إلا في الحدود التي تتقاطع بها مع روايتها لفلسطين والتي جمعتها من مقابلة شخصية معها وأوراق سيرتها الذاتية التي لم تحصل بعد

على موافقة أمنية بنشرها. لذا قد تتنوع اللهجة في المقاطع التي أقتبسها بين الفصحى (من الرواية) والعامية (من المقابلة).

تبدأ لينا قصتها من طفولتها في المخيم، حين فتحت عينيها على واقع اللجوء لتتعرف من خلاله على تاريخها فكانت تعود إلى الماضي تارةً من خلال قصص جدتها، وتارةً أخرى عبر ألعاب الطفولة التي كان يرسم الخيال الطفولي سيناريوهاتها بحسب ما يصلهم من ألعاب الساسة والعسكريين الكبار:

الطفولة في المخيم – مرحلة السبعينات

> "لاجيء، لاجئون، لاجئة! كانت تلك أولى الحقائق التي كبرتُ عليها، استقر في أعماقي أحاديث الجدات والآباء. قصة جدتي كيف هاجرت هي وعائلتها مع الآلاف من العائلات، كيف قطعوا طرقات وعرة إلى أن وصلوا إلى قرية بنت جبيل اللبنانية حيث أقلتهم عربات شحن أحد القطارات إلى مصير مجهول وجغرافيا ضائعة، أبعدتهم عن أوطانهم وقراهم، كانوا مغادرين! عند كل توقف مغادرين! تغريبة استثنائية وجغرافيا عائمة على امتداد الكون كانت بانتظار هذا الشعب، وما زال إلى يومنا هذا تضيق به المدن والمنافي، قصص الجدات كانت لعبتنا المفضلة ونحن صغار، كنا نمثلها في زواريب المخيم. نمثل لعبة عرب ويهود! نلعب ببوارید من عصى خشبية في نهايتها مسمار ونعلق أغطية زجاجات الكازوز على أكمامنا، على غرار الرتب العسكرية لتمثيل ساحة المعركة، نرسم خريطة فلسطين على سواعدنا وكفوف أيدينا. كان محمد يأخذ دور الفدائي، وكنا نصطف معه على أننا يهود، وبكلمة واحدة منه كان يقولها لنا موتوا كنا ننبطح أرضاً ونتظاهر بالموت، ثم يأمرنا بالوقوف ويقول عيشوا، ونكرر هذا مئات المرات. وفيما بعد انهزمت البوارید كلها، عام 1967، أجهزت اسرائيل على ما تبقى من فلسطين. تكسرت بواريدنا الخشبية، حولنا لعبتنا إلى شعارات معدنية، علقناها على ملابسنا، كانت كليشهات اختلفت عن بعضها بزركشتها، رسمنا إشارة (V) بأصابعنا الغضة إشارة إلى النصر الذي لا بد أنه آتٍ! لم نبق صفاً كما كنا ونحن أطفال، أصبحنا صفوفاً متغايرين، متقابلين، اصطففنا حسب شكل الشعار وزركشته، أدرنا ظهورنا لبعضنا، وأدرت ظهري إلى محمد الذي كان قائد لعبتنا. ولم نعد نلتقي إلا بزفة شهيد، أو في زيارة مقبرة الشهداء في الأعياد."

وتتابع لينا سردها لمفكرة فلسطين التي تزخر بأحداث تناوبت أمواجها في التأثير على معنوياتهم مداً وجزراً:

> "[...] كل معركة عسكرية كانت تتلوها مشاريع تسوية، لم تكن هذه فرضية، بل واقعاً اتسم به تاريخ النضال الفلسطيني. انسحبت المقاومة من بيروت، لتصدأ البوارید، ومن ثم اغتيلت شخصيات عرفت بتاريخية دورها النضالي، تم اغتيال سعد صائل وأبو جهاد وأبو إياد وأبو الهول. أزيلت عقبات ليتسنى لمن بقي منهم التعامل مع مشروع التسوية والذي سمي في البداية "اعلان المبادىء" ليكون مشروع أوسلو مسك الختام، بعد أن سبقه كامب ديفيد المصري .. "

هكذا أمضت لينا طفولتها ونما لديها وعي بالنكبة وجيوش الانقاذ ووعد بلفور: *"عرفت معنى أن يصبح أهلي وأنا لاجئين، معنى أن تفقد بلدتك وأحلامك وتتجرد من أي ضمانة توفرها تلك الجنسية والمواطنة"*، ويبين المقطعان السابقان كيف ساهم واقع المخيم في تلك الفترة ومتابعة لينا للأحداث على الساحة الفلسطينية في بناء الصورة التي تحملها لفلسطين. وبقراءة معمقة أكثر للرواية، نجد رزمة معقدة من مظاهر الاغتراب التي تتجلى في انتزاع الجنسية والمواطنة والأرض والأحلام، ورفض لينا للاستسلام لحالة الاستلاب والعجز وبحثها الدؤوب عن مخرج من الاغتراب.

قصة ترشيحا: ماضي جدتي الجميل

تلعب الجدة هنا دوراً هاماً في ترسيخ صور الوطن في خيال الراوية. يبين المقطع التالي دور الجدة والأهل بشكل عام الذين عاصروا البلاد في نقل صورة فلسطين إلى ذاكرة الجيل الثاني، لتقدم وصفاً مفصلاً للحياة في البلاد، موقع القرية وطبيعتها، وطبيعة الحياة الاجتماعية: العمل، الدراسة، الزواج، العلاقة بين الديانات المختلفة. ويلاحظ الميل إلى المقارنة بين طبيعة الحياة في المحيط الجديد وتلك التي كانت سائدة في البلاد:

"ستي كانت مؤرخة إلي، أنا كأني بعرفها لترشيحا، عندي صورة منيحة عنها وكلها من حكي ستي وحتى المخيم، كيف إجوا زمان، وكيف حملوهم بعربات مواشي، لأنهم مشيوا لبنت جبيل وبعدين من بنت جبيل بعربات شحن. هلا هو اتفاق عربي كان أكيد يعني.[211] وكل العائلات انشطرت، (هنا تقرأ من روايتها المكتوبة)، "لم يعودوا يعرفون بعضهم إلا عندما جاء الصليب الأحمر ومن الاذاعة." ومن ستي عرفت كمان كيف كان المخيم زمان، بركسات وكيف كانوا يتحمموا يعني كانت حياتهم صراع من أجل البقاء. كانت ستي كمان تحكي لي عن ترشيحا، وين بيتهم هناك والجامع والمدرسة، بيت عربي. كانت البيوت كلها صف واحد، ما كانوا طوابق، ومن جوا قوس، وبقلب الغرف كان في عندن مدخنة مشان تخبز وكانوا حتى الغنمات معهم في البيت. ما كان في فاصل إلا أحياناً يحطوا أي حاجز، وكانوا يروحوا لعكا على الحمار، وكمان كان إلهم أراضي قريبة، كريات شمونة هي؟ كمان قريبة على ترشيحا، كان إلن أراضي وكان في يهود موجودين فيها، بس قبل ما يبدأ نزوح اليهود الكبير لفلسطين، العائلات اللي كانت موجودة، اليهود العرب كانوا مسالمين معهم ... وحتى بترشيحا نفسها كان في سكان مسيحيين عايشين معن، وكانوا يتشاركوا بالموسم، يعني مين عنده تيوتن هدول يساعدوهم، اليوم نقبع التوتن نأخذ معنا أم ميخائيل وأولادها وبطرس وكذا يروحوا يشتغلوا معهم، يعني ترشيحا هي بذهني قرية مثالية، أمي كانت تحكي لي إنه كان في ناس يبعثوا أولادهم يدرسوا في القدس وبحيفا، مثل أولاد الجشي، وفي بيت قدورة يعني، يعني كانت تذكرلي العائلات، وتذكرلي الزواج بالضيعة، مثلاً كيف كانوا، زواجهم بسيط كثير، هودج وكذا يعني والبنت يعني وقت ييجوا ياخدوها ما تعرف إنه عرسها اليوم، تبدليها يا أم محمد؟ في بساطة أكثر من اللازم يعني، بس ما كانوا مجتمع مادي، يعني أنا رحت على القرى السورية، في مادية، والزواج عندهم عبارة عن تجارة، بتتوزن البنت. أنا دَرَّسِت بقرى يعني مثلاً كانت تيجي بنت وتقول لي: بدي أبطل من المدرسة؟ أسألها: ليش بدك تبطلي من المدرسة؟ لأنه أبوي يريد يشتري بيك أب (السيارة اللي مثل التويوتا) يعني بده يشتري بيك أب بجوزها مشان ياخد حق البيك أب من الزوج. إذاً في تبادل، بياخد حق البيك أب وبيعطيه بنته. عرفت؟ يعني هي الحياة بسيطة والقرية بسيطة، والطبيعة (...) بتحكي عن جمال الطبيعة والخضار، حتى وقت اللي ستي كانت تأرجيني شجرة هون تقول لي أبداً أبداً مو كان هيك لون زرعنا، أنا كنت بمشي معاها، لأنها اشتغلت بالزراعة بالمخيم مع اللي عندهم أراضي وأنا كنت أروح كنت صغيرة وبحمل شو بيعطوها، كنت أقول لها: هيك فلسطين؟ تقول لي: لا ما هيك فلسطين، نحنا مو هذا اللون الأخضر، نحنا اللون الأخضر هو الأحلى، يعني تدور وين في اللون، مثلاً وين في ورقة خضراء بتشبه زرعاتها والشجر اللي عندها، البرتقان مثلاً، كمان في أسواق شعبية قريبة للمخيم، نروح لها مشي، أروح معاها، تشوف البرتقان، تقول لي مجانين هدول ما بيعرفوا أنه هذا البرتقان كنا نطعميه نحنا للدواب. يعني إنه البرتقان اللي عندن أطيب وأكبر وأول ما أوا يشتهوا البرتقان بس ما يشتروا لأنهم يفكروا أنه هذا للدواب. لأنها منطقة ساحلية، والخضروات كاملة كانت عندها، وتزرع هي كانت، وجدي كان مدرس القرآن للضيعة، وكل شي بترشيحا درس قرآن كان على ايد جدي، حتى أبوي طلع وأجا لهون ما بيعرف إلا القرآن والبلاغة والعروض لأنه كان يدرسن الاعراب والقرآن، مدرسة إله ويدرس فيها، وما كان إله علاقة بالزراعة ولا يهتم فيا، هي كانت سيدة أعمال أرضها وكانت إلها هي ملاكة منيحة، وكانت هي تشرف عالشغل وتشتغل يعني بنفس الوقت. شفت ترشيحا بعدين عن طريق الانترنت، شفت مناطق مسيحة، وأقول هو هذا اللي حكت لي عليه، أصفر ومسيح ومتروك يعني مغلق ومهمل، هلا الصورة بداية أنا ما كنت أتخيل أنه أشوف مثلاً أنه في بنايات بترشيحا، أو سكوير، تقاطع طرق يعني، ما كنت أتخيل أشوفها آخدة

[211] هذا الرأي حول مسؤولية العرب عن التهجير والذي تعزوه بعض المراجع إلى الرواية الصهيونية لنزوح اللاجئين (كناعنة، 2000: 10) يتكرر في كثير من الروايات ضمن الأنماط المختلفة. سأقدم تفاصيل أكثر حول عدد الرواة الذين تضمنوا هذا الرأي في رواياتهم في الفصل القادم، لفحص مدى انتشار الرواية الصهيونية وتأثيرها على اللاجئين من الأجيال المختلفة.

الشكل المدني، ليش؟ هذا أنا ما مستغربته يعني، لأنه دمشق وحلب، يعني صورها إذا بروح على المتحف وأشوف الصور بالخمسينات وبعدين بالستينات وبالألفينات .... في فرق".

هذا الماضي الجميل الذي ورثته لينا من ذاكرة جدتها والذي أمضت فترة طويلة من حياتها في البحث عن طريقة لاستعادته من خلال العمل السياسي ضمن صفوف فتح هو الذي دفعها إلى مراجعة نقدية للخط السياسي الفلسطيني بعد خروج المقاومة من بيروت:

"كان لعاب التسوية يسيل من البرامج المرحلية. ارتفع شعار الدولة المستقلة ودولة بالمنفى، وانقسم النضال والمناضلون، وتصدرت سياسة لعم! عناوين صحف المرحلة. تفتتت بنية المقاومة ومنيت بهزيمة عسكرية وسياسية بعد الاجتياح، هزيمة اليسار واليمين في آن معاً. الساحة الفلسطينية تعمّها الفوضى السياسية، كل فصيل فلسطيني بات فصيلين، انقسم فصيلي السياسي الذي التزمت معه إلى فصيلين تصارعا معاً في حرب ضارية [...] كثرت المحطات الفلسطينية، ولم يعكس الموقف السياسي الرسمي الفلسطيني حقيقة مواقف الشعب الفلسطيني، كان أداء الموقف الرسمي أقل كفاءة إذا قورن مع عدالة القضية، لذا كان لا بد من إعادة نقد التجربة بعد بيروت. فكانت حوارات مفتوحة مع ناشطين سياسيين من حزبيين وناشطين ومعارضين ومطلوبين، متابعتي لهذه النشاطات وقراءتي للمنشورات السرية زاد من حبي لقضيتي ولوطني وزادت الممنوعات حولي، فأصبحت واحدة من الملاحقات من قبل الأجهزة الأمنية:
ما أجمل ما كنا نحلم به ..
ما أجمل تلك الحياة التي كنا سنحملها للغد ...
ما أجمل الانسان حين يعيش بلا ظلم ولا اضطهاد ..
ما أجمل أن ترى وطنك محرراً من كل أنواع الاغتصاب ..
بيد أن هذا أزعج الآخرين ... أزعجهم حقاً .. " (من رواية لينا الممنوعة من النشر، 58-59)

الوجود بين الذاكرة والفعل السياسي

يغلب في رواية لينا السياسي على الاجتماعي، بعكس روايات النساء الأخريات اللواتي قابلتهن. لكن السياسي لديها لا يتشكل بتأثير واضح من مصدر معين سواء كان حزباً أو فصيلاً أو مؤرخاً أو اتجاهاً اعلامياً، فهي حين تسرد الأحداث التاريخية لا تركز على مضمون الأحداث بقدر تركيزها على الأبعاد التحليلية والمعاني التي تحملها هذه الأحداث وكم تبتعد أو تقترب من تحديد الطريق إلى فلسطين. فالمتابع لخطها السياسي، يلاحظ التغير الواضح ليس في هدفها وهو التحرير والتخلص من الاستعمار والاضطهاد وإنما في موقفها من الطريق الملائم لانجاز التحرير، هذا الموقف الذي لم يقتصر على الكلام فقط وإنما كانت تدعمه بالعمل السياسي والفعل النضالي من خلال انتمائها للأطر التي تتوافق مع تفكيرها وقناعاتها. هنا تقدم لينا نموذجاً لتجاوز الأسر الحزبي، فنلاحظ أن خياراتها ومواقفها من القضية تتجاوز طروحات الحركة التي اختارت أن تنتمي لها (فتح)، فهي تُبقي الأبواب مشرعة أمام خيارات تستمدها من مصادر أخرى، أهمها تقييمها لانجازات حزبها في ضوء قراءتها للتحولات في الواقع السياسي، كما يظهر من روايتها إضافة إلى تأثرها بقراءاتها لتجارب الشعوب الأخرى أو بالفكر اليساري والشعارات الحقوقية التي تنادي بالحرية والديمقراطية. وتبين روايتها كيفية تغير مسار تفكيرها وعملها لأجل القضية خلال مراحل حياتها المختلفة.

"في مرحلة الدراسة الثانوية مثلاً "كنت حاطة جدول زمني لحالي، فترة زمنية قصيرة لتحرير فلسطين، خاصة وقت تصير عملية مثل عملية دلال المغربي.."، وكذلك في المرحلة الجامعية "كان فعلاً موضوع فلسطين مو صعب بعد ما قرأت التجربة الفيتنامية"، وفي بدايات الاجتياح

الاسرائيلي للبنان، كانت ترى أن العمليات الفدائية ستقودها إلى فلسطين، "فعملت على تهيئة نفسها للالتحاق بمعسكر العمليات الفدائية، وكان ذلك الطموح على مقربة مني".

لكن حرب لبنان والطريقة التي انتهت بها *"باتفاق بانسحاب اسرائيل إلى حدود نهر الليطاني وخروج المقاومة والميليشيات"* والانقسام الذي ألم بالفصائل حينها، كل هذه العوامل شكلت لحظة انقلاب في حياتها وحياة الكثيرين من جيلها ممن ربطوا حياتهم بالمقاومة. كما يظهر في المقطع الذي اقتبسته من روايتها في الفقرة التي تصف رواة هذا النمط، ومازال تأثير أحداث حرب 1982 ماثلاً لليوم في روايتها. وتعتبر أن الأحداث المخيبة للآمال كمجيء أوسلو وخارطة الطريق هي تحصيل حاصل لحرب المخيمات في لبنان إلى درجة أنها ترفض احتساب هذه الأحداث في مفكرتها كما تقول:

"أوسلو كان كثير يوم أسود، ما كنت متوقعة أنه نحنا راح نوصل لهاي الحالة، إنه تصير مفاوضات (...) ولهلا أنا ما عندي قناعة أنه أوسلو هو ماشي على الأرض، يعني أوسلو ما ماشي عالأرض، وخارطة الطريق ما موجودة أبداً أبداً، [...] اسرائيل رافضتها وبعدين لنقول احنا رافضينها، أوسلو مالا موجودة عالأرض يعني، يعني نقول بعد كم سنة من أوسلو، من الـ 93 هلا احنا 2008، يعني شو حققنا من أوسلو؟ يعني وين هاي الدولة الفلسطينية اللي كانوا بدن يعلنوا عنها في الـ 2005؟ طيب حتى الاعلان؟ اعلان ما صار!؟ لأنه هذا مو شكل دولة يعني، **دولة لا معروف هي على السما ولا معروف هي على الأرض ولا معروف هي على كرسي، يعني إذا هن الأوروبيين والأمريكان أو العربان بفهموا الدولة يعني هي كرسي، خليني أشوف دولهم أنا**. بوافقوا هم على هيك نظام دولة؟ هاي أقل من (...) يعني أنت بيت مسؤولة عنه، هاي أقل بكثير (...) يعني ما كنت متوقعة إنه يحصل أوسلو! مع إنه اللي مهد الطريق لأوسلو هي الـ 82، يعني هي حرب المخيمات، مهدت وكان في اجماع اتفاق إنه يطلعوا من المخيم، يبعدوا البنادق أو الانسان الفلسطيني".

وتصل لينا اليوم إلى قناعة بأن الطريق إلى فلسطين لن يكون بالكفاح المسلح بشكله القديم، مع أنها مازالت تؤمن بأهمية القوة، ولا بالمفاوضات في لحظة ضعف وانقسام. فالوصول إلى فلسطين، برأيها، يتطلب النضوج الفكري والحزبي وهذا يحتاج إلى فضاء يوجد فيه حرية وديمقراطية: حرية التعبير والتفكير وامكانية التعبير عن الرأي بدون خوف. وانسجاماً مع هذه القناعات تختار لينا اليوم العمل المجتمعي قبل السياسي وتعبر عن هذا بموقفها النقدي من عمل الفصائل الفلسطينية التي *"اشتغلت عسكرة ونسيت المجتمع ومشاكله، والأهم أحافظ على المجتمع وهوية الفلسطينيين حتى لو كانوا خارج المخيم لبين ما يرجع الحق لأصحابه"* والذي برأيها سيتم بايجاد دولة واحدة لشعبين فيها، دستور يضمن حقوق الجميع. **حاولت أن أبرز باختصار ما قرأته من أفكار في رواية لينا الطويلة كنموذج يظهر الصراع الذي يدور بين فكر الفرد والأفكار المختلفة التي تتجاذبه بتأثير الخطابات الحزبية أو الفكرية والوقائع التي تحدث على الأرض، وهو ما تسميه لينا "بتجاوز الذات"**.

وفيما يلي مقتطفات من رواية لينا لفلسطين:

"بدايةً فلسطين الكنعانية مهمة إلي كثير لأنها تعطي الجذر الفلسطيني، وبتعطي الجذر العبري ... بعرف أنا تماماً تاريخ أريحا، لأنه كثير قياصرة ومحتلين كانوا ييجوا وينحرقوا بهاي الأرض، ودليل على ذلك ما قدروا يعملوا بأريحا مملكة ... أريحا كانت مقبرة لهم. إذاً أنا مع التاريخ الفلسطيني الكنعاني. والـ 36 مهمة لي، يعني كان احتلال انجليزي، والمنطقة كلها كانت محتلة، مثل سوريا ولبنان، بس ما عملت هذا الفصل. أنا بعتبر إنه فلسطين تاريخها كله تغير بالـ 48، اللي أكللي أنا حقي بالـ 48، مجيء اليهود الاسرائيليين، بناء الدولة العبرية. أنا في رواية فلسطين المهم

عندي تثبيت اللي صار في الـ 48، وخليها تكون سيرة ذاتية عن كل فلسطين، من المي للمي أنا مقتنعة إنه ما في بلد فيها عرق واحد، هاي الدولة اللي فيها عرق واحد هاي دول فاشية مالها حياة، ممكن هي بفترة راح تكون قوية، روما، ما كان في حدا أقوى من روما، بعدين سحبت حالها مثل أي عصفور خاسر. هلا كحدث سياسي الانتفاضات صارت حدث بس هدول كلها تحصيل حاصل لأوسلو ... يعني ما هي أساسية ببنية الشعب الفلسطيني، يعني ممكن لأنه شعر بضغوطات أو بخسارة أكثر وصارت هاي رداً على أوسلو، يعني الأساسي أوسلو. أوسلو هي محطة سلبية تماماً، أنا ما بشوفها ايجابية لأنها ما حققت شي للفلسطيني، ما حققت شي. يعني هذا التواجد الفلسطيني الموجود بغزة والضفة، ما زاد، بالعكس يعني أوسلو جابت لي جدار عازل، وراح تجيب لي دولة وحيدة القومية، اللي هاي ما بتخيلها بتعيش، حتى لو سلموا فيها الاسرائيليين أو يعني المنظرين الآخرين بتخيل ما ممكن تعيش هاي الدولة. في تجارب التاريخ في ألمانيا الشرقية والغربية، في سور الصين، اللي هو بالي، يعني ماله قيمته الاجتماعية لأنه حالياً عصر الاتصالات، يعني أنا بحكي معك وأنت في بيتك، الخبر من 400 كم بيصلك بعد دقيقة، يعني الجدران ما بتعمل شي. الحل دولة واحدة لشعبين ممكن (...) هلا المجتمعات الما متطورة: المجتمع الفلسطيني ما متطور، والمجتمع الاسرائيلي ما متطور لأنه ما زال في حالة حرب، يعني أنا هلا، ممكن أقول، إني تجاوزت حالي. وممكن أقول أنه هذا حركة سلام باسرائيل يهود، وتجاوزت حالي أنه ممكن أتحاور معهم، وممكن أعيش بينهم، أو إنه نعترف فيهم. بدون ما يضيعوا لي حقي، لأني أنا وقت اللي بكون عايشة بأرض وفي هونيك دستور دولي، هم لهلا ما في عندهم دستور بس إذا في دولة فيها دستور، بقدر أعيش فيها ما بيعنيني مين الرئيس بصراحة؟ **أنا بدي أعيش بالمكان اللي أنا مرتبطة فيه، مو لأني، أنا ما بعرفها فلسطين، بس كمان هذا الارتباط، هذا الارتباط الذاكرة (...) احنا ليش بنستهين بالذاكرة يعني؟ أنا وجودي جزء منه ذاكرة، وما بقدر أهمل موضوع الذاكرة أبداً اللي هي جزء من هوية كمان، يعني الذاكرة مو بس هي قطعة موجودة غير مرئية بالدماغ، هي جزء من الهوية. وأنا بشوف الهوية كثير موزعة، أنا ما برتبط بس مع الفلسطيني، أنا برتبط مع المسلم، برتبط مع العربي، برتبط مع ناطق اللغة الانجليزية، برتبط مع ناطق الفرنسية، لغتي أكثر من هيك، هي ما بس عنصرين، أنا مو بس أنثى وفلسطينية ومسلمة أنا هاي الهوية ما هي عندي، هويتي كثير متنوعة وواسعة! وأنا الحدود ما بعترف فيها، لأنه هاي بالأساس حدود سايكس بيكو، عرفت؟ بس أنا لهلا يعني ما محددلي شي، علي أمسك بقناعاتي الحالية مو معترفة بأي حدود لا بالحدود السورية ولا الحدود اللبنانية ولا بحدود العالم، أنا مع هذا المجتمع اللي بلا حدود، اللي بلا حدود، واللي بلا سلطات، بلا سلطات** وأنا كفلسطينية موقعي ضمن هذا المجتمع، أنا موقعي ضمن كل هذا المجتمع، بس علي إني أطالب بفلسطين، علي أطالب بفلسطين، أنا فلسطين الي ترشيحا، بالنسبة إلي ارتباطي النفسي العصبي ترشيحا، يعني إذا بدي أرجع ما بروح لغزة، ما بروح لو قالوا لي، أنا ما بتعنيني غزة، الشام بتعنيني أكثر من غزة، يعني علاقاتي فيها وكذا، يعني أنا بطالب بحدود فلسطين مو لقناعتي بالحدود، ولا بدي أرسم خريطة فلسطين، هاي الخريطة التقليدية، بس لأنه هاي لسه ما حدا اعترف فيها. لو في اعتراف فليكن الطوفان، ما بتعنيني عادي، يمكن أروح أعيش (...) بأصغر قرية بسوريا، أو يعني منقطة ما مثلاً. بس أنا مع هذا الحق لأنه الشعب الفلسطيني انظلم وما زال عم بيدفع ثمن هذا الظلم، وأنا كوني فلسطينية على الأقل أكون أنا من المطالبين ....".

مفارقة الهوية

كما ذكرت في تقديمي لهذا النمط، فإني وجدت أن نسبة التوتر في رواياته أقل من نسبته في روايات الأنماط الأخرى، هذا لا يمنع أن ألاحظ وجود نوع من التوتر في الهوية في وصف لينا في الجزء الأخير من الاقتباس السابق. يعيدني حديث لينا إلى التوتر الهوياتي في خطاب ما بعد الكولونيالية؛ إلى هجانة هومي بابا ومنفى ادوارد سعيد الذي كان يصف نفسه باصرار بالشخص المنتزع أو المنفي من بلاده، والذي لم يتجه لاختلاق واقع ثقافي فلسطيني، إنما أصر على أن كل الثقافات تتغير على الدوام، وأن كلاً من الثقافة والهوية هي في نفسها سيرورة. وفي كتابه "بعد السماء الأخيرة" يشرح

سعيد كيف يقوم ابعاد الآخرين بدور مركزي في تشكل الهوية كاشفاً النقاب عن شكوك الناس وجدالاتهم في التوصل إلى فهم لظروفهم:

"إننا شعب الرسائل والاشارات، شعب التلميحات والتعبير غير المباشر. إننا نبحث عن بعضنا البعض، ولكن لأن داخلنا هو دائماً محتل ومقتحم إلى حد ما من قبل الآخرين – إسرائيليين وعرب – فقد طورنا تكنيكاً في الكلام من خلال ما هو معطى لنا، نعبر عن الأشياء بغموض [...] غموض يحيرنا نحن أيضاً" (سعيد مأخوذ عن اقتباس من اشكروفت وأهلواليا، 2000: 183).

وبعكس الروايات الأخرى التي تشكل صورة فلسطين الأحلام، تركز لينا في روايتها، اليوم، على الطريق الذي سيحقق الحلم بالعودة أكثر من حديثها عن الحلم نفسه الذي كان يسيطر على تفكيرها منذ سنوات الطفولة، وتنتقد الحال الذي انتهت إليه السياسة الفلسطينية اليوم:

"الحلم بالعودة ما بغيب عن بالي، يعني أنا بالمرحلة الجامعية، كان فعلاً موضوع فلسطين مو صعب، بعد ما قرأت التجربة الفيتنامية، شفت إنه نحنا ما عنا هاي الصعوبة، نحنا ما عنا هاي الأدغال، وكنت أشعر أنه القضية الفلسطينية أكثر انتشاراً وأكثر عدلاً، شعوري لأنها قضيتي، ما ممكن آجي أقول أنه لا والله القضية الثانية هي أعدل، وكان في عندي بفترة البكالوريا كنت أشتغل أنه يعني حتى كنت أنا حاطة جدول زمني، لحالي حتى كنت حاطة فترة زمنية خاصة وقت تصير عملية، يعني مثلاً عملية دلال المغربي كثير أعطتني حلم حلو. كان جدولي الزمني لتحقيق الحلم قصير، طبعاً أنا بلش هذا الاحساس عندي من عمر أصغر يعني، من الابتدائي، من وقت المدرسة، مو بس هلا، بتذكر المعلمة كانت تقول أنه الجزائر بدها تتحرر بالستينات، ولبنان بالثمانينات، وأنا كنت حاطه إنه فلسطين بدها تتحرر بالتسعينات ماكسيموم! واجت أوسلو، يعني أوسلو كان كثير يوم أسود، ما كنت متوقعة أنه نحنا راح نوصل لهاي الحالة. بس حالياً أنا مو مع الكفاح المسلح، بشكله، رغم إني أنا بحيي دلال المغربي وكنت أحلم أعمل عملية مثلها، وكنت يعني بشتغل لهذا الموضوع، حالياً لا أعتقد إنه مجدي، بس مو معناتا ما أكون قوية، مو معناتا ما يكون عندي وسائل الدفاع، والمفاوضات حرام، حرام يصير مفاوضات وأنا بهذا الضعف، أنا مع تأجيل المفاوضات لزمن غير مسمى إذا بدنا نظل نحنا بموازين القوى هاي، نحنا ما بنمتلك موازين قوى. حالياً المجتمع الفلسطيني تراجع، إذا بدي أقارن المجتمع الفلسطيني من التسعينات للالفين في تراجع، من الناحية الفكرية. أنا موجودة خارج فلسطين، بس كنت بعرف المثل اللي إلي هاي صورة الشعب اللي جوا مثلاً، أنا وقت اللي بشوف مثلاً إنه ما في آخر بين بعضهم، ما في آخر يعني حماس ما بتشوف فتح وفتح ما بتشوف حماس، هذا تراجع، يعني (...) أنا ما بدي أقول المسؤولية على مين أقل أو أكثر، أنا بحمل المسؤولية للاثنين مع أني أنا أصولي فتح، بس أنا بحمل المسؤولية للطرفين، يعني ما في نضج سياسي، في أزمة قيادة، أزمة برنامج فلسطيني، وهذا البرنامج مو بس سياسي، حتى اجتماعي وثقافي. يعني بالساحة بس أنا بنبسط على محمود درويش، مع إنه الساحة لازم تعطي أكثر من محمود درويش. يعني في كثير ممكن تعطيه، لأنه نحنا يعني الشعب الفلسطيني بتعامل مع الثقافة كنسبة أعلى من غيره، والسبب هو الموضوع الوطني .."

ما قرأته في رواية لينا لفلسطين هي التحولات التي مرت بها القضية وبالأخص التحول في المسيرة النضالية للفلسطينيين والتي اختارت لينا أن تكون جزءاً منها، في مختلف المراحل. فتزامنت دورة حياتها مع دورة حياة القضية لتكون مسلسلاً من المعاناة والحرمان والتشرد والأمل بالتغيير والعمل لانجاز النصر وخيبة الأمل ومن ثم العمل من جديد، لتحقيق الأهداف المنشودة والتي اختزلتها لينا للمحقق في زنزانة السجن كما تقول في روايتها: *"لي هدفان بالحياة لا ثالث لهما! حلمي بالتحصيل العلمي العالي كما وعدت والدي، والعمل من أجل قضيتي وفلسطينيتي، حتى أنني لم أفكر بالزواج كمثل غيري من البنات!"* (من روايتها غير المنشورة، ص 103). قد تكون رواية لينا فريدة بين

الروايات الإحدى والثمانين التي جمعتها لبحثي من حيث مدى التشابه بين سيرة حياتها الشخصية وسيرة القضية الفلسطينية كما وصفت أعلاه، لكنها بالتأكيد ليست نموذجاً فريداً بين الفلسطينيين في أنحاء العالم الذين نشأوا على قصة وطن مستعمر وتأثروا بالأحداث من حولهم فاختاروا بوعي أن يكونوا جزءاً من هذه الأحداث وعينهم على الطريق التي ستعيد "فلسطين الحرة من جميع أشكال الاضطهاد"، كما تقول لينا، و"مش مهم الثمن الذي ندفعه طالما سيوصلنا إلى الحلم الجميل".

رابعاً: النمط الحالم الغاضب

"لماذا قدم شعبنا تضحيات كثيرة جداً لم تقدمها شعوب أخرى ولم يحصل على نتائج كالنتائج التي حصلتها بلدان أخرى أو حركات التحرر الأخرى؟ لماذا لم ينجز انتصارات حقيقية وملموسة على الأرض؟ "

(أبو نصر الصفوري، 65 سنة، مخيم اليرموك)

صفات النمط ورواته

نسمع صدى ما قاله أبو نصر في روايات المبحوثين الخمسة الذين يندرجون ضمن النمط الغاضب. وهذا النموذج هو الأقل شيوعاً بين الحالمين، خاصة في مخيم اليرموك: حيث يوجد راو واحد فقط مقابل أربعة في مخيم قلنديا، من ضمنهم امرأة واحدة. يظهر في روايات هذا النمط ما عاشه الراوي/ة من أحداث كما رآها ويراها اليوم بعين نقدية. ويتموضع الراوي في القصة ليأخذ دوراً فيها كفاعل أو متأثر مباشر بالأحداث التي يرويها بحكم نشاطه السياسي السابق و/أو الحالي، ليصل في نهاية روايته للبداية التي انطلق منها وهي وجوب القيام بعمل لتغيير الواقع. وهنا يختلف أيضاً التغيير المنشود باختلاف التجربة الشخصية والظروف التي تحيط بالرواي: فبينما ينطلق أحد الرواة من حلم كبير بنسف الواقع كله (أبو نصر الصفوري). يتنقل رواة آخرون بين أحلامهم المتغيرة حسب الواقع المفروض عليهم في المراحل المختلفة من تاريخ حياتهم، ويسيطر عليها في المرحلة الحالية الاحباط واليأس (مريم اللفتاوية، أبو نضال البرفيلي). ومع أنني انطلقت في التصنيف من مضمون الروايات ونبرة الصوت الغاضب التي يشترك جميع الرواة بها، إلا أنني لاحظت وجود تشابه كبير بين تجارب الفاعلين الاجتماعيين، ضمن هذا النمط، واختياراتهم في الحياة. ينحدر الرواة هنا من الجيلين الأول والثاني للنكبة، ويشتركون بنشاطهم النضالي الثوري والسياسي ضد الاحتلال. هذا النضال الذي بدأ في شبابهم ودفعوا حينها ثمنه سجناً وجراحاتٍ ما زالت آثارها محفورة على أجسادهم، ومازال كفاحهم في الحياة مستمراً من خلال رفضهم للانخراط في الواقع البائس حتى لو كان ذلك على حساب مصالحهم الخاصة. هناك تشابه بين روايات هذا النمط والنمط الواقعي السياسي من حيث اهتمامات الرواة السياسية لكن الاختلاف التي تنقل هذا النمط إلى زاوية الأحلام، هو الصوت النقدي الرافض بحدة للواقع الموجود حالياً. فالنموذجان ينطلقان من نقد الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي للفلسطينيين والذي أوصلهم إلى ما أوصلهم إليه، غير أن هذا النمط يتميز بأن أفراده لا يرون في الطروحات السياسية الواقعية الحالية ما يلبي طموحاتهم وإنما يظهر من خلال سردهم لرواية فلسطين كيف كانوا يعملون على تشكيل واقع جديد ويحلمون بالتغيير. وتختلف درجة إيمان الرواة بالتغيير حسب الظروف المادية المحيطة بهم والفرص المتاحة أمامهم للعمل. وعلى الرغم من التشابه بين أفراد هذا النمط في الموقف الناقد قولاً وفعلاً، إلا أنه توجد اختلافات بينهم في رؤيتهم إلى المستقبل. حيث تبدو نظرة الراوي في مخيم اليرموك أكثر تفاؤلاً بالنسبة للمستقبل من روايات مخيم قلنديا، على

الرغم من أنه يصعب اجراء مقارنة جدية بين روايات المخيمين هنا بسبب قلة رواة هذا النمط، خاصة أنه لا يوجد إلا راو واحد ضمنه من مخيم اليرموك.

وتجدر الاشارة إلى أن النقد المسيطر في روايات النمط الحالم الغاضب، هو نقد ذاتي يتركز بالدرجة الأولى حول العوامل الداخلية التي أدت إلى تراجع المسيرة الوطنية الفلسطينية وسلوك الأحزاب وقياداتها ومواقف الأنظمة العربية، وبدرجة أقل حول السياسات الاستعمارية الاسرائيلية المستمرة.

المحاور العامة لروايات النمط الحالم الغاضب

روايات ترسم صورة نقدية للواقع السياسي الذي أوصل فلسطين لما هي عليه اليوم

على الرغم من قلة عدد الرواة ضمن هذا النمط، إلا أن رواياتهم تقدم مادة جيدة تؤرخ للعمل السياسي والاجتماعي الفلسطيني نظراً لكون الرواة من النشطاء في أحد المجالين أو كليهما. سأكتفي هنا بتقديم نماذج قصيرة من أبرز المحطات في الروايات الطويلة نسبياً، وسأورد أجزاء كبيرة من رواية مريم اللفتاوية كنموذج على روايات النمط الحالم الغاضب.

أبرز ما يميز رواة هذا النمط ارتفاع حدة الصوت الغاضب في نقد مسيرة الثورة الفلسطينية ومشروع أوسلو وقياداته، وانتقاد الطريقة التي تمأسست بها الثورة الفلسطينية قبل تحقيق الأهداف المتواخاة منها أساساً. بالاضافة إلى انتقاد ثقافة الارتزاق والاتكالية، والتحولات السلبية التي أصابت مجتمع المخيم. وينعكس هذا التوجه النقدي في القول والفعل، حيث يظهر، في سرديات اللاجئين، الدور الذي يمكن أن يقوم به الفاعل الاجتماعي في تشكيل حياته والتأثير على حياة الآخرين بعيداً عن القيود التي تحدد له من قبل المسيطرين في كل مرحلة، كما يظهر في الروايتين التاليتين:

> "سلطة معاشات هاي، سلطة رتب ورواتب. واللي بيقول غير هيك والله يا عمي خليه يقتلني، بحكي غلط؟ أنا كل أصحابي للأسف (...) أنا الوحيد اللي ما دخلتش لا في جهاز ولا في وزارة. أنا اتفاق أوسلو قرأته كله صفحة صفحة وسطر سطر ما عجبنيش وأنا مش أحسن من غيري، يعني كان بامكاني أدخل في أي جهاز، في أي جهاز لأنه أصلاً عندي مؤهلات كثير، عندي رتبة تنظيمية، وعندي فترة اعتقال، وعندي رصيد وطني، زيي زي أي انسان مش أكثر ولا أقل، بس أنا ما عجبنيش الحكي هذا، يعني بصراحة .. والله أجو علي ناس عرضوا علي إنه ما تداومش في الجهاز يعني بس سجل، والله ما رضيت." (أبو نضال البرفيلي، 38 سنة، مخيم قلنديا).

> "يعني أنا من الناس اللي ما احتليت أي منصب بتاريخ حياتي ولا أُظهرت أو برزت بشعر إني دائماً محارب ووصلت مرتين أو ثلاثة لدرجة القتل مشان اللي بكتبه، مرة وقت الـ 82، عملت كتاب وهددوني إنه هذا الكتاب إذا بينشر (....) فوقفت عن نشر الكتاب بهداك الوقت. وفي كتاب ثاني نشرته عن أحداث الأردن، قعدت أشتغل عليه. طبعاً وقتها عملوا فيلم، وكانوا ناويين يعدموني فيه، وحكموا علي بالإعدام. فصيل معين (...) وبعدين ردوا حولوا لقيادة المنطقة تحكم بالموضوع، وبعدين شافوا إنه إله خلفيات ويمكن يجر عليهم مشاكل. إنه يا أخي هذا عيلته كذا ويمكن ينتقموا بعدين، أو عرفت كيف؟ بتشعري الواحد إنه دائماً عم بمشي مو بعكس التيار، عم بمشي وهو ماسك المجذاف أو دفة السفينة بالاتجاه المزبوط ودائماً في شي بيلطم فيك: رياح وعواصف واللي معك من جوا ومن برا، كله عم بيضرب فيك. للأسف هذا الواقع وهذه حقيقة الحياة، يعني اللي ماشي صحيح أو اللي بده يشتغل مزبوط دائماً بده يواجه مصاعب وصعوبات،

بس يعني عندي أنا ثقة إنه لا بد أنه الحق ينتصر مهما طال الزمن، أنا هلا كثير متفائل" (أبو نصر الصفوري، 65 سنة، مخيم اليرموك).

ومع أن النقد هو السمة السائدة في روايات معظم الأدماط، إلا أن الصوت النقدي مسموع في روايات النمط الغاضب بوضوح أكبر. كما أن رواة هذا النمط يستندون في نقدهم إلى أحداث وأمثلة تفسر رفضهم للواقع المفروض من قبل القوى المسيطرة والمهيمنة على الخطاب والفعل الفلسطيني/ العربي في المراحل التاريخية المختلفة. سأورد فيما يلي نماذج من الروايات النقدية لرواة هذا النمط.

أولاً: انتقاد غياب الوعي لدى الفلسطينيين واعتباره سبباً للجوء

يقدم أبو نصر الصفوري قراءة نقدية لما يسميه "غياب الوعي" وأحياناً "الغباء" في المجتمع الفلسطيني شعباً وقيادةً. يبدأ روايته بلوم الفلسطينيين على استسلامهم لمشاعر الجبن والخوف التي دفعتهم لترك أراضيهم بـــ "سهولة":[212]

"والله، هدول الكبارية اللي بحنوا لفلسطين، هذا الحنين الكذابي أنا ما كثير بصدق فيه! يعني هدول اللي بحنوا لفلسطين، لو بحنوا لفلسطين ما بيطلعوا منها، أو ما بنضحك عليهم لدرجة إنه يروحوا ويطلعوا منها، يعني لا ما بتطلع بهالكثافة، هلا طلعوا، أهل صفورية مثلاً، طلعوا وقعدوا بالزتون، طيب قصف قصفوا.. لهالدرجة الناس ضربوا مثل ما بقولوا "قزانين" مات فلان وفلان وفلان، يعني 3، 4 الناس دب فيهم الرعب وراحوا على البساتين قعدوا بالزتون، بالبساتين لثاني يوم، ثاني يوم إجت طيارة وطططت (يقلد صوت الطيارة) رشت، وهربت العالم، هوب مثل الغنم، ساقت وظلت ماشية (...) هيك اللي صار! ما بدنا نكذب على حالنا أو على الآخرين. (س: شو كان بيطلع بإيدهم إذا ما عندهم سلاح يقاوموا، وكان في مخطط تطهير عرقي أصلاً؟) يعني ما يهجوا، يظلوا قاعدين، ليش ما يظلوا قاعدين؟ يعني ليش؟ شو المانع إنه يظلوا مرتبطين بأرضهم؟ يعني ليش تحمل حالك وتظلك ماشي، ويييييين (يقولها بمط) تمشي، مشيوا لا يقل عن شي 40 كم لوصلوا لبنان، يعني كيف أنتم هالكبارية اللي بتعتبروا حالكم فهمانين، يعني كيف تنخدعوا هذه الخديعة رغم إنه كان في كثير ناس يحكولهم؟ كثير ناس كانوا يقولولهم أوعكم تطلعوا، وعصبة التحرر والشيوعيين... **يعني إنه الدودة، الدودة، ها، إذا بتسحبيها من الثقب تبعها، من الجحر تبعها، بتنقطع بين إيديكي وما بتطلع من الجحر تبعها، فكيف الفلسطيني هذا؟ يعني بكل بساطة انسحب وانزت برا؟ (...) ليش؟ في مؤامرة كبيرة الحقيقة كانت عم ترتب** [...] فالفكرة اللي أنا بدي أقولها إنه كان في مؤامرة لعملية الاخراج، عملية الخروج من فلسطين، والآن عم نكتشف إنه اللي ظلوا بفلسطين، هم أكبر شوكة بحلق اسرائيل. وممكن تأثر على اسرائيل أكثر ما يأثروا عليها كل اللي برا، لا الدول العربية ولا الشتات ولا النضال ولا المنظمات بتأثر عليها، قد ما بأثر عليها اللي ظلوا بالأرض المحتلة، لذلك كانت مؤامرة كبيرة جداً على كل من يدعو إلى البقاء بهداك الوقت. altransfer أنا بتقديري مو كلها كانت عمليات طرد، في عمليات كانت الناس مهيأة نفسياً لتطلع والناس مهيأة إنه ما تقبل تعيش مع اليهود، هلا صفورية مثلاً، قيادة الثورة، قيادة جيش الانقاذ كانت بصفورية. لأنه احنا بلدنا بصفورية آخر تل بالجليل هيك، بعدن منه بيجي هيك سهل البطوف وسهل مرج بن عامر، كلها أرض مكشوفة، فكانت قيادة الثورة فيها (أي في صفورية) والعالم اللي هاجرت من هون واللي هون وين تجمعت؟ بصفورية، لما قالوا سقطت صفورية، وأهل صفورية طلعت، ولما شافوا الناس إنه أهل صفورية طلعوا، كله كر وراها. [...] الصراع

---

[212] تكرر هذا الرأي أكثر من مرة في روايات اللاجئين خصوصاً في مخيم اليرموك، حيث يوجه الرواة لوماً قاسياً لخروج آبائهم من البلاد في ذلك الوقت مدفوعين بخدعة أو مؤامرة. أحد التفسيرات التي وجدتها من الكتب، كما أوردت سابقاً، هو التأثر بالرواية الصهيونية للتهجير، وقد يكون القهر والغضب عاملاً آخر في عدم تقبل الرواة لفكرة ترك فلسطين لليهود خاصة في حالة بقاء أقارب لهم في الأراضي المحتلة، كما يذكر هذا الراوي. والمشكلة في هذا النقد أنه يقلل إلى درجة كبيرة من عسف العدو. وبالطبع، فإن الكشف عن المذابح التي حصلت ضد الفلسطينيين والموجهة قصداً للطرد، قد حصل متأخراً. ولكن لا بد من تقعيد هذا النقد في سياقه الصحيح بمعنى أن من يوجهون النقد لا يربطونه بمسألة القوة والسيطرة وعلاقة المستعمِر الاستيطاني بالمستعمَر الفلسطيني. وهنا قد يخطر للقارىء سؤال، هل يمكننا الجزم بأنه لو قرر الفلسطينيون البقاء وعدم الهجرة، هل كان سيسمح لهم المستعمِر بذلك بما هو عدو استيطاني يستهدف الأرض كلياً؟

عمره أكثر من 2000 سنة، العرب كانوا مطمسين ومشغولين بقصص الجن، واليهود بهداك الوقت كانوا مفتحين .. وعارفين الدنيا وبشتغلوا، العرب وين؟ احنا الدولة العثمانية والسلطان، وهذا الحكي ما زال لطلعنا من فلسطين بالـ 48 (...) ارجعي كمان للـ 48، بتلاقي بعض الكتابات الانجليزية أو هذا، يعني كانوا يركزوا على مسألة الحمولة والعشائر، واثارة التناقضات، قيسية ويمنية وكل بلد عيلة فلان وعيلة فلان، يعني من زمان عم يشتغلوا على هالشي هذا! هذا الطابع العشائري، التعصب للحمولة، والتعصب للبلد أو للحزب أو للمنظمة، عم يطغى على الولاء لفلسطين و للوطن. لذلك امكانية إنه تربطيهم بشي اسمه وطن ويتخلوا عن عصبويتهم وذاتيتهم. أو هذا عم بكون عملية صعبة! بدليل إنه هديك أقوى، أقوى من الولاء لفلسطين، أنا للأسف الشديد هيك شايف، عم بكون الولاء لفلسطين أقل بكثير من الولاء للعشيرة أو للقبيلة أو للزعيم! عنا بموت من أجل الزعيم وما مستعد يموت من أجل فلسطين". (أبو نصر الصفوري، 65 سنة، مخيم اليرموك).

ثانياً: مرحلة الصحوة والمقاومة في المخيمات

تتركز اللحظات الايجابية في روايات هذا النمط حين يسرد الرواة لحظات الصمود والمقاومة للسياسات الاستعمارية الاسرائيلية. تتميز روايات الصمود هنا عن تلك التي يسردها النمط المحبط بأن الرواة أو المبحوثون هم أنفسهم لعبوا دوراً فاعلاً في المقاومة، كل من موقعه، وربما هذا ما رفع مستوى النقد هنا لتُحفَر قصص الصمود على خلفية المراجعة النقدية لتاريخ المقاومة الفلسطينية والعوامل التي أسهمت في إضعافها أو تضييع انجازاتها. يعبر أبو كفاح القبيبي الذي أمضى عدداً من سنوات عمره في السجن والاقامة الجبرية بسبب رفضه لهذه السياسات ومجابهته لها غير آبهٍ بالثمن الذي كان عليه أن يدفعه في كل مرة:

"كان في لحظات ايجابية في الفترة التي كانت فيها الثورة في الأردن وفي لبنان قوية، كان الوضع يختلف تماماً كانت اسرائيل تتخوف جداً، وكنا نتقاتل معهم بالأيدي ومرات نضرب جنودهم وما يتجرأوا يردوا زي هلا: إذا شافك من بعيد وشك فيك شك يطلق عليك النار (...) واسرائيل كانت تفاوض على أساس إنها مستعدة تنسحب حسب قرار 242 . في آخر مقابلة لحسين وعرفات لما أخذوا جائزة نوبل قال الحسين: احنا وقت مشروع روجرز خلينا عبد الناصر يجس نبض الشارع الفلسطيني ولما كل الشارع رفض وشفناه طلع مظاهرات ضد عبد الناصر اللي كانوا يألهوه. شفنا إنه فش امكانية إذا طبقنا قرار 242 بتروح منظمة التحرير وبروح الأردن وبروح عرفات، وظلينا نستنى للحظة المناسبة! هذا هو الواقع العربي السيء. حتى لما طلع عرفات من الأردن، كان على اتفاق مع الحسين! بامكان الناس ترجع للحقائق وتعرف شو هاي القيادات العربية المرتزقة. احنا كنا نشتغل ونناضل بس كان في خروقات للقيادة من الرأس من فوق! هي اللي قتلت جهود النضال وحرفت الثورة عن مسارها [...] وأنا كان في فترة فُرض علي فيها الاقامة الجبرية، سكنت هون وكنت أربي دجاج حتى أقدر أعيش، ما كنتش أرد عليهم، كنت أطلع: أثبت وجودي الصبح والعصر في الإدارة المدنية. مرات أروح على الخمسة يخلوني أستنى للساعة 11 بالليل شغلة اذلال! كنا خمسة شباب مُصِرّين نظل هان لنوخذ الهوية وظليت هيك 11 سنة منها سنة ونصف قضيتها محبوس إداري وطلعوني بسبب المرض: كان عندي مرض في رقبتي لما ضربوني الجيش كان عندي فقرتين مكسرات وعملت عملية ورفضت أطلع إلا تكون معي هويتي! وفي كتب معي من رابين قالولي اطلع على أي دولة لاجيء سياسي وخذ مرتك وأولادك، قلت له: أعطيني هويتي بطلع بتعالج وبرجع. فطالت القضية وتمددت أكثر من مرة وصرت شبه مقعد. وما طلعت إلا لما أخذت هويتي. كانوا ييجوا الجيش علينا، اقتحموا الدار بكلاب وجيش ودبابات، وجابوا معاهم ماكنات يفتشوا على أسلحة، طلعونا برا، وفاتوا على المخزن ولقوا الباب مسكر وفجروه والمخازن تسطحت وهيني رافع قضايا عليهم، والبيت تقريباً آيل للسقوط بسبب التفجير اللي عملوه وقتها [...]" (أبو كفاح القبيبي، 60 سنة، مخيم قلنديا).

ويصف الراوي الأصغر سناً ضمن هذا النمط مشاركته في الانتفاضة الأولى بحماس أكبر منتقداً الانتكاسة التي أصابت العمل الوطني:

"الانتفاضة الأولى كانت ممتازة جداً من الجوانب التنظيمية .. اللي جاب الثورة أو قيادة الثورة هان ابتداء من عند أبو عمار أو أبوعلي مصطفى أوعبد العزيز الرنتيسي. أو كل هذه القيادات، اللي جمعهم في فلسطين هان هي الانتفاضة الأولى، الانتفاضة الأولى هي انجاز بس بدون اتفاق أوسلو لأنه اتفاق أوسلو كان مخيب للآمال. لأنه أولاً ما نضحك على بعض بكل صراحة، ما فش وحدة وطنية وهذا اللي بنظل نعيط عليه وراح نظل نعيط عليه كمان 100 سنة، يكفي في الخارج كان في اشي اسمه منظمة التحرير شغالة، فعالة، يجتمعوا مع بعض، يطلعوا بقرار واحد. بالانتفاضة الأولى كل التنظيمات كانت تشتغل بالعمل الوطني وبالنهاية توقيع واحد "القيادة الوطنية الموحدة"، هذا أكبر انجاز على مستوى العالم، مش على مستوى ثورتنا، حتى بالثورة الفيتنامية ما صرش هالحكي، ولا في الجزائرية! بالإضافة احنا اليوم صارت حماس لحال، وفتح لحال، والشعبية بتخش واسطة والديمقراطية مش معجبها، يعني فش تماسك! وطبعاً هذا بنعوزه لأسباب كثيرة أولها إنه فش قائد حقيقي. كرئيس يعني، احنا بنضحك على بعض لما بنقول في رئيس، احنا ما في عنا رئيس، ما فش عنا دولة، وما فش عنا بنية تحتية، ولا اقتصاد ولا جيش ولا وزارة دفاع ولا اشي. حكم محلي، اتفاق أوسلو بحكي عن حكم محلي، حكم ذاتي، واحنا لسه ما حكمنا، فش عنا حكم ذاتي حتى لأنه ممكن أي جيب بأي لحظة، يدخل ويلف رام الله كلياتها ويطلع. يعني احنا من أساسيات الدولة أو من مقوماتها هو الأمن، احنا مفقود عنا حتى في بيوتنا، يعني أنا هسا لو أجوا الجيش خشوا علينا، ما فش عندي أمن في بيتي، ما بقدر أحميهم، فهمت كيف؟ اتفاق أوسلو كان هذا من ضمن أخطاء أبو عمار شخصياً، رغم إنه قائد وإله احترامه عند الجميع، لكن فش انسان إلا بغلط، لكن هذا خطأ فادح، بالرغم من إنه صلحه، في اتفاقية كامب ديفيد لما رفض يوقع وقبل الحصار، لكن اللي صار صار، خلص هيك على أرض الواقع عايشينه يعني! أنا شاركت في الانتفاضة الأولى ومارستها حتى لما طلعت من الـ 88 للـ 93 هي أفضل فترة أنا بشوفها من جانب الالتزام والانضباط والعلاقات الاجتماعية المميزة بين كل الناس بدون تمييز، ووين ما كان، مش بس بالمخيم، بس احنا كوننا بنعيش بالمخيم، يعني لما كنت أشرد من الجيش في أية زقة أو أي طريق، أي بيت أفوت فيه وأهل البيت يحمونا، يعني أقعد هان، حتى بين بناتهم يعني وأهلاً وسهلاً ويخبونا. اليوم إذا بمرق، حتى لو إني كنت ملتزم وهادىء في الشارع، إذا بفتح الباب وبقول السلام عليكم، يمكن يوخدوا فيها اشي ثاني! بس الترابط الاجتماعي بالانتفاضة الأولى كان ممتاز جداً. والالتزام والانضباط كثير خاصة بالنسبة للصبايا أو للبنات، ما كنش في المواد هاي: المشروبات الكحولية، فش محلات تفتح للساعة 10 بالليل، الجيش نفسه كان يحسب حساب إنه في أي طريق كان يمشيها ممكن تطلع له مجموعة من هان، مجموعة من هون، بالاضافة إلى أنه الوسيلة اللي كانوا يستعملوها الشباب بالانتفاضة الأولى الحجر أوأكثر اشي المولوتوف، لقيت صدى اعلامي في العالم، يعني أنا بضرب حجر بردوا علي بالمدفع: ففي فارق كبير. بس الانتفاضة هاي جابتلنا دمار لأنه غير إنه فيها سلاح وما سلاح، في مصالح مادية من تحت الطاولة بتمشي على حساب فلان وعلان. لأنه كل واحد، بروح بضرب حجر بشكل بديهي وعفوي، وما بعرف غير إنه في احتلال وبديش إياه، بتتفاجئي إنه في فلان بيجي يوخذ من وراءها مليون وعلى حسابه وعلى اسمه، فهي صفت الانتفاضة كلها مصالح شخصية أو حصص/ تقسيم حصص، وهذا اشي احنا بنعيشه لهذه اللحظة يعني." (أبو نضال البرفيلي، 38 سنة، مخيم قلنديا).

وتذكر مريم اللفتاوية نمو بذور الوعي وبدايات المقاومة الشعبية وتقسيم العمل النضالي المبني على أساس العطاء من كل حسب استطاعته وبدون انتظار مقابل، وتقارن روح العطاء في الماضي بانتشار العلاقات الأقرب إلى المصلحية والأنانية اليوم في روايتها المطولة والتي أوردت أجزاء كبيرة منها في نهاية هذا النمط.

ثالثاً: مرحلة الاحباط واليأس من التضحيات العبثية وغياب النقد والنقد الذاتي

في رواياتهم النقدية، حدد رواة هذا النمط العديد من العوامل التي تسببت في نشر جو الاحباط واليأس. وبينما تتوجه أصابع النقد، في رواية مخيم اليرموك، صوب سلوك الحركات النضالية الفلسطينية منذ مرحلة نشوئها إلى اليوم، ينصب النقد في الداخل على صورة أوسلو ومهندسيه وقياداته مقابل صورة النضال ومواجهة الاستعمار التي كانت سائدة قبل أوسلو. هناك العديد من الأسباب التي أدت إلى بث مشاعر الغضب واليأس في نفوس الرواة منها يأس الناس من التضحيات العبثية، كما يظهر في المقاطع التالية:

"الناس أولها اندفعت اندفاع عاطفي وبدون تفكير أو وعي، يعني كان الاستعداد للتضحية والموت هائل جداً بس بالأخير استنتجت إنه يا إما ماتت مجاناً أو بمعارك عبثية أو بمعارك مع الاخوان ومع الأصدقاء ومع الحلفاء أو مع الدول العربية: يعني شوفي بالأردن راح لا يقل عن خمسين أو ستين ألف، بلبنان راح لا يقل عن العدد نفسه، كله بصراعات مع اللبنانيين وصراعات مع أنفسهم، بالأردن صراعات وبسوريا صراعات، واللي راحوا بالمواجهة الحقيقية مع اسرائيل، قديش؟ وبالتالي شعروا الناس إنه نتيجة هذا النضال ما حصلنا شيء! فأصيبت الناس باحباط ويأس فما عاد عندها استعداد للتضحية، ولا عندها استعداد تشارك بأي نشاط حتى المسيرة ما عاد عندها استعداد الناس!" (من رواية أبو نصر الصفوري، 65 سنة، مخيم اليرموك)

"بعد أيلول الأسود، حين تشتت الفلسطينيون في سوريا ولبنان، صار شوي يخف عنا الأمل في إنا نجد القائد المخلص الأمين. صرنا نسمع عن الفدائيين الفلسطينيين يخوضون معارك في لبنان أو اشتباكات مع العرب ومع المسلمين ومع أهلنا. فصار عنا شيء من عدم الثقة ومن عدم الإيمان بإنه احنا ليش بنقاتل بعضنا؟ في بلدنا اغتُصبت وفي عدو المفروض إنه نعد العدة لتحرير البلد ومش نقاتل بعض أو نقاتل المسلمين أو جيراننا العرب! يعني هاي مأساة الصحيح" (أبو الخير اليافاوي، 56 سنة، مخيم قلنديا).

كذلك يرتفع الصوت النقدي في التعليق على سلوكيات الأحزاب والقيادات التي ابتعدت عن النضال لتميل أكثر تجاه الاستهلاك المادي وليس النضالي، وغياب النقد والنقد الذاتي ضمن الحركات والأحزاب:

"إن المجتمع الفلسطيني ككل سواء كانت من أصول برجوازية أو اقطاعية أو عمال أو فلاحين، كلياتها إلها مصلحة في التحرير، إلها مصلحة إنه يكون إلها وطن لأنها عايشة بدون وطن، يعني أُخرجت من وطنها وأصبحت بلا وطن وبلا هوية فكلياتها عندها هذا التوق إنه يكون إلها وطن وإلها هوية. فكلياتها كانت طبقات الحقيقة ثورية وعندها استعداد تقدم من أجل الوصول للوطن! ولما قدمت وما لاقت شيء، فصار التوجه إنه صار كل واحد يدور على حياته محل ما هو موجود، صارت التجارة وبيوت وطوابق ومحلات تجارية بمخيم اليرموك، أغلى من الشام، وأنا بتقديري الناس صارت أميل إلى أنها فقدت صفتها كلاجئين وأصبحوا بالفعل يعني في بعضهم إلهم مصالح في سوريا أكثر من مصلحتهم. يعني إذا جابولهم فلسطين على طبق من ذهب أو على فضة، وهم مرتاحين، أهلاً وسهلاً، كثير من البرجوازيين هيك، بس إنه يقدموا ويضحوا ويناضلوا وينسجنوا، ضمن هاي الظروف اللي عم بحكيلك إياها، الظروف الأمنية وظروف هيمنة التنظيمات اللي الناس فقدت ثقتها فيها، إنه حدا يرجع يشتغل! يتلاحق أمنياً وينسجن أو يروح يعمل عملية أو يقعد يبلش يشكل تشكيل جديد، ما حدا مستعد .." (أبو نصر الصفوري، 65 سنة، مخيم اليرموك).

"لما أجت السلطة على هون، وشفناهم على حقيقتهم عنا هون بأريحا وغزة أولاً، فهذا خلانا نفقد الثقة كلياً بالسلطة وبالثورة وبالقائمين على الثورة. وأنا متأسف أقول إنه العميل صار عقيد، يتحكم في الشارع وفي الناس وصار الشريف ما حاد يتطلع عليه، النظيف موجود، ولا تقنطوا من رحمة الله، النظيف موجود لكن للأسف ممنوع يبين وممنوع يحكي وممنوع يعمل: ممنوعات كثيرة من قبل ناسه، قبل ما تكون من قبل الاسرائيليين! فنسبة الاحباط صارت تفوق الـ 100%، وصار الجاهل هو اللي ماسك الشارع الفلسطيني" (أبوالخير اليافاوي، 56 سنة، مخيم قلنديا).

ولَّدَ هذا الوضع خيبة أمل من القيادات التي لم تُقَدر التضحيات التي قُدمَت والنضالات التي خاضها الشعب، وبالعكس استثمرت هذه التضحيات للاغتناء وزاد وضع اللاجئين سوءاً، يصف أبو نضال البرفيلي، الراوي الأصغر عمراً ضمن هذه الفئة والذي قدم نفسه أنه فتحاوي، خيبة أمله من مستوى القيادة الفلسطينية وارتباطاتها بمشاريع التسوية المشروطة بالتمويل الخارجي والتي، برأيه، لن تحقق إلا مزيد من تعميق الفجوة الاقتصادية بين الفلسطينيين:

"زي ما قال تشي جيفارا: "الثورة يبدأها مغامر، ويخوض غمارها ثائر، ويقطف ثمارها جبان" وهذا اشي بنعيشه بشكل واضح! هلا قطفوا الثمار وخلصوا، هلقيت روحي على أي وزير [...] أنا برفض، لو القرار كان بإيدي أنا واللي زيي، بنرفض نهائي إنه يخشوا فلسطين هذول، حتى لو كانت جنسيتهم فلسطينية. لأنهم مخلصين زي محمد البرادعي، هو أمريكي أصلاً، أماً عن أب. هو قرار أمريكي اسرائيلي بريطاني بتنفيذ فلسطيني. يعني بشتغلوا على سياسية التجويع للشعب الفلسطيني، زي الأردن وسوريا ولبنان ومصر، يعني بدهم يعطوا الموظف 2000 شيكل بس عشان يفكر في طبيخاته وأكلاته، إذا صار يوخذ 4000 بصير متريح وإذا تريح بصير يفكر في شغلات ممنوع يفكر فيها. وهذا الحكي صار خط أحمر عند الدول العربية كلياتها، وهذا طبعاً في الشعوب العربية كلياتها، احنا في عنا طبقتين: ما بنعيش أكثر من طبقتين، يا بتكون كادح، يا برجوازي، ما في واحد وسط! وكل دولة تطلعي على مصر والأردن وسوريا ولبنان وعلى السعودية حتى وعلى الامارات، بتلاقي عندك مكة كويسة، بتلاقي في النجف كحيانين! واحنا نفس الشي، يعني ثلاث أرباع الشعب الفلسطيني في مخيمات، كلياتها زي ما أنت شايفة، ملزقة في بعض، والمدن مفخخين، والقرى كلهم مسافرين على أميركا وبروحوا بشتغلوا في المحرمات وبيجوا ..." (أبو نضال البرفيلي، 38 سنة، مخيم قلنديا).

ثم يعود، لينتقد جميع الفصائل كون كل واحد منها يعمل لمصلحته الخاصة وليس لمصلحة الهم الوطني، ولتعزيز نقده يلجأ إلى مقارنة وضع الفلسطينيين في هذا المجال بوضع الإسرائيليين، والملفت للنظر أنه ينتقد الفصيل الذي ينتمي إليه بشكل خاص على اعتبار أن أهم مبدأ في النظام الداخلي لفتح هو النقد والنقد الذاتي:

"صعب تلاقي تظاهرة أومسيرة مشتركة بين الفصائل طالعة: ضد الجدار مثلاً، تضامن مع غزة مش راح تلاقيه هالحكي، أو مسيرة بتدعي للوحدة، من كافة الفصائل يطلعوا فيها مع بعض، مش راح تلاقي هالحكي! الجميع بيشتغل على حزبه أو على فكرته هو الخاصة، أنا شخصياً، كابن فتح، مش معجبني التنظيمات حالياً! ولا الأقاليم، وفشل فتح لحتى الآن خمس سنين بعدوا *(يعدون)* للمؤتمر الحركي العام ومش قادرين يعقدوه، لأنها توزيع حصص. ما بدهم فلان وعلان وبدهمش يجددوا، التجديد دائماً كويس بساوي حيوية وبساوي ثقة في الشارع، ما بدهم يجددوا، احنا زهقناهم [...] بالنهاية منين بجيبوهم مش عارف أنا؟! خليها تيجي ناس عمرهم 40، 45 سنة عندهم خبرة وعندهم رصيد وطني ويشتغلوا، خليهم يزبطوا، زي التنظيمات. إذا بنعرف واحد من خمس سنين، خلص حط سوبر غلو وقعد، هذا الحكي مرفوض! ما في جيل وراء جيل، السجون ملانة لسه، بروحوا وبرجعوا الشباب، لازم تظل أنت قاعد على الكرسي؟ قول يا عمي يعطيك العافية وتعال اقعد محلي! مع العلم أن، أهم مبدأ في النظام الداخلي لفتح بيقول: الرجل المناسب في المكان المناسب، أهم مبدأ، وبيجي بعده مباشرة النقد والنقد الذاتي. هلا أنا بقدر أقول للرئيس، أنت حرامي؟ دخيل الله ولا بقدر أقول له: أنت بتنفعش رئيس؟ بزبطش أعطيني رجل مناسب في كل السلطة من أعلى الهرم لقاعدته، واحد منهم في مكانه الصح؟ بالإضافة لسه، بتعرفي احنا المهزلة اللي صارت؟ كانوا ينزلوا الشاب 31 يوم على أريحا ويعطوه الكلاشن، الكلاشن أفضل سلاح خفيف في العالم، احنا بثلاثين يوم كانوا يحملوه للشباب ونصفهم طخطخوا بعض وهم يعبوا بالأقسام بس! هذي مهزلة، كان يموت الواحد في لبنان وفي تونس تيحمله! سنتين، ثلاثة زي ما كانوا يخرفونا الأكبر منا أو اللي عاشوا الفترة هديك، احنا بـ 30 يوم بتحمل الواحد كلاشن، مصيبة! وما يعرفش يعبي الأقسام ولا يأمنه، طب هذا بدل على إيش؟ في خلل، في خلل من الأساس من الاتفاق نفسه. في خلل، أو اسرائيل معنية في هذا الحكي لأنه السلاح مش

موجه ضدها. فخلص، مادام السلاح مش موجه ضدي *(يقصد اسرائيل)* فاشتغلوا في بعض، يعني يوم مشكلة حماس وفتح، اسرائيل جابوهم هان. أنا شفت برامجهم على التلفزيون، اشي مهزلة، يعني أنا والله العظيم صرت أعيط، صرت أعيط لحالي (...) بيضحكوا تاعين العمل والليكود هم عندهم الديمقراطية أساس، احنا بنشتغل على الديمقراطية، وهي مش عنا، والديمقراطية بعيدة عنا، واحنا بعيدين عنها ألف سنة، الديمقراطية بتعني حرية الرأي والتعبير (...) يعني حزب الليكود والعمل بتقاتلوا، بتقاتلوا، وفي الآخر خلص اللي بيطلع على الحكومة بيستلمها، وهداك بسانده مش بيشتغل ضده واحنا بالعكس، والجيش طبعاً محيد. الجيش لخدمة الوطن عندهم. واحنا طلع عنا مما يسمى بالجيش، طلع منه 26 ألف تنفيذية، هذا خطأ مين؟ التنفيذية هم يهود؟ ما هم ابن عمي وأخوي وصاحبي؟ بس هذا خطأ فتح، ما أشركتش ولا واحد في السلطة. بكل جيوش العالم، بتلاقي في واحد مؤيد للحزب العام، والحزب الثاني والثالث والرابع، إلا فتح ما بدها، كل عناصرها منها، وهذا أكبر خطأ طبعاً وانكسر ذانها في الانتخابات منه، يوم لقي 26 ألف عسكري في غزة كلها لحماس، طبعاً هذا بنعيزه لأسباب ثانية كثير: منها قلة المعاش، الرشاوي، السرقات، كل هذي الشغلات، والظروف الاجتماعية طبعاً ..."

يلاحظ هنا تكرار الموقف النقدي للقيادة الفلسطينية، فالراوي، وهو ينتمي لفتح أساساً، يقدم قراءة نقدية لطريقة إدارة فتح لشؤون الحركة والسلطة وشؤون الحياة في الضفة وغزة بشكل عام.

وعلى الرغم من أن الروايات تتناول مراحل مختلفة من مسيرة الحياة السياسية في فلسطين إلا أن الصوت النقدي الغاضب يُسمع في جميع المراحل. ويمكن ارجاع هذا، حسب قراءتي للروايات والواقع الفلسطيني منذ سنة 2000 على الأقل بعد اندلاع الانتفاضة الثانية، إلى أن مأسسة الحركة الوطنية الفلسطينية وتخليها عن أسلوب الكفاح المسلح باتجاه المفاوضات وبناء الدولة الفلسطينية مقابل الاعتراف باسرائيل حدث في وقت لم يطرأ فيه تغير كبير على الوضع الاستعماري الذي كان قائماً قبل الاعتراف المتبادل بين اسرائيل ومنظمة التحرير. بل أن الممارسات الاستعمارية خلال هذه الفترة كبرت وازدادت عنفاً يوماً بعد يوم، ولم يعد العنف يتوقف على مضمون الممارسات الاستعمارية (الاستيطان، ومصادرة الأراضي، ومنع الحركة، والاعتقالات المستمرة، والعمليات العسكرية وآخرها الحرب على غزة)، ولكنها لمواكبة عصر الصورة بدأت تتخذ طابعاً مشهدياً لا يمكن أن يغيب إلا عمن غيب عقله وعطل نظره: فالعنف الاستعماري موجود في كل مكان متحجراً أمام الفلسطينيين يحاربهم بنفس المادة التي قاوموه بها في الانتفاضة الأولى، الحجر الصغير الذي كان يواجه الدبابات والمدرعات الفولاذية، استخدمه المستعمِر بعد أن سلح الحجر بالحديد وأقام منه جداراً لا تمنعه صلابة مادته من التلوي كثعبان في كل مكان، ورفع منه أبراج مراقبة لتتحول المساحة الصغيرة المتبقية من البلاد إلى سجن كبير تفصلها طرقات التفافية مرصعة بمكعبات رُسِمَ عليها نقاطاً لتتخذ شكل أحجار النرد فتشعر أحياناً أنك تسير على رقعة لعبة الريسك التي يتنازع اللاعبين فيها على الفوز بالرقعة الأكبر من الأرض وأنت صاحب الأرض ممنوع عليك اللعب، وممنوع حتى من أن تمسك بالحجر إذا أردت أن تعيش. يصف أبو نضال كيف تحول الفلسطيني من ثائر يقبض بيده على حجر إلى مواطن يحلم بأن يستطيع فقط المحافظة على حياته وحياة أولاده في هذه الدولة السجن:

"كنا نحكي بالصدفة في موضوع أول امبارح، يعني حكينا لو أجا هسا خبر عاجل: إنه في عنا 100 شهيد في غزة، شو ردة فعل الأجهزة الأمنية إذا الشارع الفلسطيني مثلاً طلع مظاهرات؟

هسا احنا كنا قاعدين مع عساكر، وهلا الناس في رام الله بسمعوا عن غزة زي ما بسمعوا عن أميركا وعن أيطاليا وعن فرنسا وعن أوروبا، فش شعور بالوحدة أو بالوطنية! نضحك على بعض لليش؟ احنا بنستنى 7 الشهر بس نوقف على البنك مشان نوخذ المعاش، هيك، هي أصلاً سلطة معاشات هاي، سلطة رتب ورواتب. واللي بيقول غير هيك والله يا عمي خليه يقتلني، بحكي غلط؟ أخوي إله 8 سنين بالسجن، ولا أخذنا شيكل واحد من السلطة كمساعدة ولا من أي مؤسسة، ما فش حدا سائل، لأنه مافش عندي واسطة... وفي ناس عنا صار عندهم ملايين، قضوا سنتين، ثلاثة سجن، وعندهم بجوز 400 أو 500 ألف دولار، كلها شغلة واسطات، ما في عدل! [...] وبعدين شو ساوالنا الجهاز الأمني؟ بدي أعرف. مع العلم إنه كل أصحابي العزيزين جداً موظفين فيه. ممكن تكون حركات التحرر اليسارية هي أفضل من هذا الجانب الوطني، بس هدول رافضين الاتفاق وما مشوش، بالاضافة إلى أنه حماس والجهاد برضه ساهموا في المقاومة وخربوا شوي في الطريق على فتح يعني لو ظلت فتح لحالها أبصر شو صار؟ كان بيجوز بعنا بيوتنا ورحنا على الجفر، (يضحك) والله أنا سمعت إنه ببنولنا في دولة كاملة في الأردن في الأزرق."

ولا يقتصر الصوت النقدي على الداخل، فبالمثل يرسم الراوي في مخيم اليرموك صورة فلسطين اليوم بتسليط الضوء على تدهور الثورة الفلسطينية متهماً إياها بالابتعاد عن النضال والتبرجز قبل تحقيق الانجازات على أرض الواقع:

"أنا بشوف إنه جزء من الفلسطينيين أصبحت مصالحم مرتبطة (...) يعني في جزء منهم، اللي بفلسطين صاروا مرتبطين بالرأسمال اليهودي، يعني اللي صاروا يجيبوا اسمنت، وهالشغلات هاي، وفي جزء من الفلسطينيين مرتبطين وأصلاً نشأوا من خلال الكويت والأنظمة العربية هاي الرجعية، يعني السعودية والكويت كانت وراء نشأة كثير من البرجوازيات الفلسطينية سواء بسورية أو بلبنان أو بالأرض المحتلة، يعني أنا باعتقادي مو عبث، يعني كانوا يشجعوا نشوء برجوازيات فلسطينية وتجار، لما السعودية أو الكويت بتعطي للفلسطينية وبتمدلهم، هاي عملية الافساد بطريقة مهذبة أو بطريقة شرعية. احنا بنفكرها هيك، إنه والله فلان راح على السعودية وزبطت أموره، لا أنا بتقديري في مخطط ومنهج عم يُشتَغل عليه منذ البداية لافساد الفلسطينيين من الداخل، و هاي مسألة عم تنحكى عن الثورة الفلسطينية، هيك انحكى عليها: يمكن أكثر ثورة تبرجزت وكتت عليها أموال هي الثورة الفلسطينية، خاصة أيام لبنان، أيام لبنان صاروا، يعني تصوري مثلاً فلان يتزوج ملكة جمال العالم، شو اسمه هذا حسن سلامة؟ وكانوا راتعين الشباب كلهم يعني: مصاري وبذخ وسفريات ببولونيا وبلغاريا ورومانيا و... عرفت كيف؟ هذا أنا بتقديري مو عن عبث، لما تقول السعودية دفعت 7.6 مليار دولار، هاي دفعتها للفلسطينية خلال وجودهم بلبنان من عام السبعين بعد ما طلعوا من الأردن لعام الـ 82 بعد ما طلعوا من بيروت (...) يعني هاي لإيش المصاري؟ اندفعت مشان التحرير هاي؟ مشان يشتروا أسلحة؟ ولا للأكل والشرب والبذخ والسفريات؟ خربوا الناس من الداخل يعني اسرائيل لما أجت بالـ 82، أجت لأنه الناس مخربة، ما حدا قاتل! يعني ليش حزب الله استطاع إنه يَهزم؟ بينما احنا أصحاب القضية نفسها دغري. بالـ 82 لما دخلت اسرائيل خلال ست ساعات كانت موجودة على حدود بيروت؟ طبعاً في مناطق مستعصية بالشقيف وهون وهون، هاي مسألة أخرى! بس أما ليش قدرت تدخل بسهولة؟ لأنه ناس منزوعة بالأساس، خُرِبَت الناس خلال هاي السنوات، وأنا باعتقادي أموال السعودية لعبت دور كبير في تخريب الثورة، وفي تخريب الناس. هذا لازم نقر فيه، إنه احنا ناسنا تخربت. كمان في الداخل، خربت عن طريق الأموال. يعني اللي أجو من برا وحاملين إرث إنه هم مناضلين وثوريين وكذا. وهم أساساً بهالقعدة اللي قعدوها بتونس وكذا، أُفسدوا إلى أقصى الدرجات! قعدوا كذا سنة من الـ 82 للـ 93 هالعشر سنين أُفسدوا فيها: كانوا بس دايرين يعني عالموبقات وعالحشيش، وعالسكر وعلى كل الأمور السيئة. وجايين بس إنه بدهم يستلموا سلطة، لذلك أنا بتعتبرهم منتهيين هدول، هدول يعني تحولوا إلى مرتزقة، مرتزقة بكل معنى الكلمة، وإن كان اسمه فلسطيني، هذا بس مرتزق [...] أنا بعرفهم هدول في منهم أقاربي [...] كذب ما في نضال وثورة، شو كانوا يعملوا ببيروت؟ زعبرة وبلطجة عالعالم، احنا هذه حقيقة لازم نعترف فيها. يعني هاي عم بقول لك الصورة اللي كثيرين ما بحكولك إياها، يعني اسألي اللبنانية بحكولك. كانوا يوخدوا خاوات ويتحكموا بالعالم ويسيئوا للعباد، وإنه والله ثورة وفدائي، أي فدائي؟ فدائي بلبنان؟ مين اللي عمل عمليات؟ بعدين اللي كانوا يعملوا عمليات، خلينا نحكيها بصراحة، كانوا يستغلوا الشباب البسطاء. بتزاعل هو وأهله مباشرة بروح يهرب على لبنان، شاب فشل بالمدرسة،

أستاذ ضربه، زعل من أستاذ أو من أهله. راح على لبنان. هذا لما يشوفوا إنه هذا الولد هربان من أهله وهربان من المدرسة وما في شغل ... إلخ دغري حشيش وأفيون ومخدرات إلخ ويوخدوه يروحوا يزتوه ويعملوا عملية فيه. هذا الواقع، احنا ما بدنا نكذب على حالنا. اللي بقول لك غير هيك هذا بتقديري بزاود وبكذب.. ولا احنا ليش هيك واقعنا؟ ولا ليش وصلنا لهذا الواقع؟ لأنه هيك احنا، هاي الحقيقة اللي الكل بحاول يهرب منها، أنا بتقديري صورة فلسطين، صفت ما بدنا نقول مثل الحلم، بس فيها كثير من المزاودة لأنها مرتبطة، كيف بدي أحكيلك؟ خلينا نقولها بطريقة مهذبة شوي. يعني فلسطين صفت بالنسبة إلهم ما بدي أقول مثل الجنة الموعودة يعني الجنة اللي ما إلها وجود! يعني بحلموا بالجنة اللي ما إلها وجود! وفيها نوع من المزاودة والكذب. أنا هذا تقديري، يعني الارتباط بفلسطين، وبنموت مشان فلسطين، وبنحتفظ بالمفتاح، وبنحتفظ بما بعرف بشو وكذا إلخ. كله بيحتفظ بهيك، عبارة عن شي فاضي وعبارة عن عمليات بروزة [...]." (أبو نصر الصفوري، 65 سنة، مخيم اليرموك).

رابعاً: مرحلة الصمود والاستمرار في المواجهة

ما يميز رواة الذمط الغاضب رفضهم للسياسات الاستعمارية وكل ما يساعد على تطبيقها. وهم يعبرون عن هذا الرفض بشكل عملي من خلال زرع روح التحدي في الأجيال الحاضرة بتشجيع أبنائهم على المشاركة في الفعاليات السياسية العامة:

"وهذا الحكي نحنا بنعطيه للأولاد: يعني أنا إذا شفت في مظاهرة مثلاً لحدث، مثلاً ذكرى حرق الأقصى أو ذكرى مذبحة الحرم الابراهيمي أو النفق أو كل هالمجازر اللي صارت أنا بقول له اطلع، ما بخليه قاعد في الدار، روح شارك أصحابك أو جيلك عشان تعرف ليش أنت عايش." (أبو نضال البرفيلي، 38 سنة، مخيم قلنديا).

كما أنهم، حين يسمح المجال، يتخذون خطوات عملية ومدروسة، منطلقين من دراسة نقدية لتجربة المقاومة الفلسطينية، بهدف بناء رؤية مختلفة تجاه حل القضية بما يضمن استرجاع الحق وانهاء حالة الاقتلاع:

"هلا احنا مشكلين تجمع، وأنا أحد المشرفين عليه، يسعى إلى اعادة احياء فكرة تحرير فلسطين بالكامل من خلال دراسة الماضي الفلسطيني واعادة دراسة تجربة المقاومة الفلسطينية. وتفعيل النضال الثوري من جديد لأنه بتقديرنا إنه طالما في ناس استوعبوا نصف اللاجئين. ونصفهم توطنوا ونصفهم سافروا للدنمارك والسويد وانغسلت أدمغتهم بده يظل 50% خلينا نقول 10% منهم بدهم راح يظلوا فعالين. إلا ما يظل مقهور وما مرتاح، أصبح في أساس لوجود بؤرة ثورية، والله احنا بعدنا في البدايات وما بخفيكي وبصعوبة بالغة، أنا مثلاً من الناس اللي عم ببحث، كل شهر عنا موضوع، امبارح كان عنا موضوع عن الوحدة الوطنية الفلسطينية، بنبعث لـ 35 واحد، ياللي هن في المجال الثقافي والسياسي وأغلبهم رؤساء تحرير مجلات وصحف فلسطينية أو الناشطين سياسياً، للأسف الشديد بنبعث لـ 35، ما بيجي منهم إلا 10 أو 12: بنعمل على احياء فكر ثقافي وبلورة رؤية صحيحة للواقع الفلسطيني لكل القضايا: قضايا الوحدة الوطنية، قضايا المنظمات غير الحكومية، مثلاً قضية الدولة الواحدة أو الدولة الديمقراطية العلمانية ... إلخ. كل مرة في عنا موضوع معين معالج وعم بنكوّن رؤية معينة، طبعاً الرؤى ما عم بتكوّن الحقيقة متكاملة! يعني إنه في رؤية واضحة ومتفق عليها بس على الأقل في معالجة، فاللي بقرأ اللي كتب تحت هذا الموضوع يجد أنه في رؤى إلى حد ما وطنية خارج هالسرب السائد، يعني خارج ما تقوله المنظمات والتنظيمات أو حماس أو غيره وغيراته، يعني في توجه ثقافي مستقل. احنا برؤيتنا إنه فلسطين لا بد أن تعود من البحر إلى النهر. ولا يمكن التنازل عن ذرة تراب واحدة حتى بما فيها الأملاك اللي حصلوا عليها اليهود من عام 1918 إلى عام 1948 هاي ملكيتها غير شرعية. أنت بتعرفي اليهود امتلكوا 6.7% و 90% من الدراسات بتأكد على إنه هاي أملاك غير شرعية، قدروا حصلوا عليها عن طريق الغش أو الرشوة أو الابتزاز أو باستغلال الظروف. وهاي بتُعتبر كلها بيوعات غير شرعية، فاحنا بنعتبر إنه اليهود ملكيتهم بفلسطين أقل من 0.5% لذلك احنا بنعتبر إنه اليهود ما إلهم أي ملكية، من الناحية القانونية. حتى من ضمن القانون الرأسمالي، إنه الملكية الخاصة مقدسة، بتعرفي من حقوق الانسان بالثورة البرجوازية الفرنسية

اللي أكدوا عليها حق الملكية، حق الملكية مقدس، ليش مقدس للأوروبي؟ وما مقدس للفلسطيني؟ وبالتالي إنه كل أراضينا اللي استلبت هاي حق طبيعي إنه ترجع للفلسطيني صاحب الأرض الأصلي، وبالتالي احنا من حقنا إنه نسترجع كل ذرة تراب راحت من أراضينا. هذا الموضوع بعدنا ما ناقشناه، بس هلا احنا عم بنحدد الأسس، إنه احنا شي أساسي إنه فلسطين من البحر للنهر دولة عربية ويجب أن تعود عربية وشعبها، احنا من أصول كنعانية وأثبتت الدراسات الأنثروبولوجية والدراسات الجينية على إنه احنا أبناء الكنعانيين، ياللي هم حتى بالتوراة تبعهم بقولوا إنه لما جينا كانوا في الكنعانيين والآموريين وكذا، يعني عشر قبائل تقريباً، أصبح احنا من أبناء هدلاك الجيل اللي هني أجوه فيما بعد، يعني احنا أسبق واحنا أحق، يعني حتى إذا جينا نسلم بالرواية التوراتية، فاحنا أحق لأنه احنا بالفعل أحفاد وأبناء الكنعانيين والآموريين واليابوسيين القدامى ... فاحنا من الناحية الوراثية ومن الناحية الجينية وحسب الدراسات اللي أجرت مقارنات بين الهياكل العظمية للأجداد تبعنا وجينات الموجودين حالياً إنه احنا أحفادهم لهدلاك القبائل، أصبح احنا أهل هاي البلد واحنا أحق فيها من غيرنا! اليهود اللي أجو لاحقاً فيما بعد واللي أجو ردوا من جديد حالياً، يعني أكذوبة إنه هاي الأرض إلهم، لا احنا أحق منهم وأسبق منهم. فاحنا هاي الأرض حقنا الطبيعي فيها، وكل ما استملك من أيام وعد بلفور وفيما بعد، كله هذا غير شرعي ويجب أن يعود، ويجب أن تعود فلسطين عربية، هاي احنا وجهة نظرنا. وهذا الأساس، المنطلق الأساسي." (أبو نصر الصفوري، 65 سنة، مخيم اليرموك).

نموذج من روايات النمط الحالم الغاضب

تقدم رواية مريم اللفتاوية وثيقة تاريخية توثق للحياة الاجتماعية في فلسطين بدءاً بالنكبة التي هجرت مريم وعائلتها من لفتا مروراً بالنكسة والعديد من الأحداث التي ترسم مريم صورة مفصلة لها وللحياة في فلسطين خاصة في الفترة بين 67–87 بأسلوب قصصي كعادة الراويات النساء عادةً. حيث تقدم روايتها مادة غنية عن سياسات اسرائيل وطرق تعزيز روح الصمود والمقاومة في فترة الاحتلال العسكري للضفة الغربية وغزة. ومريم، التي تبلغ اليوم 76 عاماً، كانت وما تزال ناشطة في العمل الإجتماعي، وتعرضت للاعتقال ومُنعت من السفر خارج البلاد لأكثر من 12 عاماً بسبب نشاطاتها، وهذا رفع مستوى الغضب والنقد والاحباط وخيبة الأمل أيضاً في الرواية التي سأوردها هنا كمثال على روايات النمط الحالم الغاضب.

حكاية النكبة

احنا كنا صبايا شي 15 سنة، لما هاجرنا سنة 1948 طبعاً احنا فكرنا طالعين لنشم الهوا، الكل فرحان بدو يطلع يعني، فهاجرنا احنا من لفتا ورحنا عالطور وسكننا في الطور فترة وبعدين صار الضرب على هداسا واشي ونزلنا على القدس وسكنا في القدس فترة ولما اجا الجيش العراقي والدول العربية وصارت القدس كلها محشورة بالجيش اجا الصليب الأحمر ونقلنا على راس بيت جالا شايفة هاي معاناة اللاجئين. إذا بدك، لأنه كيف كمان اللاجيء وصل سوريا؟ كيف وصل لبنان؟ كيف وصل مصر؟ **ما كنش الوعي زي اليوم من ناحية ثقافة** هينا ما احنا بلدنا قريبة من القدس، يعني جزء من القدس، لما كنا نروح مدارس كنا نروح على القدس. كنا ندفع قرش اجار السيارة لأنه كثير كانت قريبة. مرات نطلع مشي إذا صبايا مع بعض نطلع مشي من القدس على لفتا. الهجرة بدأت على أساس وعد بلفور وصار فيها مظاهرات، اللي حصل في الـ 48 معكوس على وعد بلفور واليهود صارت تقتل الانجليز هيك بعرف، بس ما منعرف السبب ليش صاروا يقتلوا الانجليز هم مثلاً في المطاعم في البارات وفي الأوتيلات! كان ما تشوفي إلا هالإنجليزي أو في الشارع مطخوخ ومرمي على الأرض من العصابات الهاجاناه كانوا يقولوا، يعني كنا نسمع من الكبار نحنا، إنه الهاجاناه هيها قتلت الضابط الفلاني هي كانت ضد البريطانيين 100% وبعدين ما نشوف إلا صار منع تجول، الانجليز يفرضوه علينا، ما هم نحنا مثلاً لفتا بدك تقولي في محني يهودا وشارع يافا وهدا كله يهود تقريباً ونحنا في النص ساكنين شايفة وين؟ كانوا اليهود موجودين العادة، ويسكنوا عنا ونلعب مع بعض يعني العادة في تعايش. ما كنا نعرف إنه هذا اليهودي عدوك ولا مش عدوك ولا عمره حدا حكى، لا يعني مثلاً أنا بعرف في ناس جنب بيتنا كانوا مأجرين

دارهم لأكراد عندهم أوضتين وليوان مأجرين جزء لليهود وهاي تولد وهديك تولد وعايشين مع بعض ما كان ولا اشي. **عن غفلة احنا شفنا الدنيا تشقلبت**[213] شايفة وين؟ والعادة انت تروحي وتمرقي عندهم وهم ييجوا ويشتروا أغراض ما كان في أي أشي ولا نحس احنا، ما عمرنا حسينا إنه هدول أعداءنا ولا أخدوا أرضنا ما عمرنا حسينا فكان في تعايش العادة يعني وزيارات وهدايا. عن غفلة ما شفنا احنا إلا صار هذا القتل والضرب عالانجليز أول وبعدين صارت الهاجاناه تقتل الناس اللي قاعدة على القهوة إللي هم الفلسطينيين يبقوا شباب أو زلام كبار قاعدين على القهوة اللي على خط يافا – تل أبيب – والقدس، وكان هذا الشارع الرئيسي من القدس ليافا وللساحل من عنا من بلدنا أجوا رشوا 9 على القهوة، قتلوهم، شايفة كيف؟ تسعة لفاتوة وبعدين صارت الناس تخاف وترحل لأنه أنت بينهم وصار تهديد نسمع المختار يقول اجانا تهديد ايش بدنا نعمل؟ ايش بدنا نسوي؟ ما حدا كان عارف إنه هدول كانوا يخزنوا أسلحة عندهم، ويتدربوا، ففي عنا نحنا البلد القديمة، نقلنا على هديك الشقة، شوي أبعد من اليهود، بيجي وراك بيت اكسا، وبتيجي وراك بيت حنينا وشعفاط وهدول القرى العربية فرحنا هناك سكنا احنا نقلنا ومبسوطين إنه احنا عم نتنقل من محل لمحل، أبوي وأمي كانوا يخافوا لأنهم حضروا ثورة الـ 36 وكيف راحوا عالمالحة وكيف رجعوا بس احنا ما كنا عارفين ايش اللي صاير احنا بدنا نرحل يعني نغير، طبعاً قتلوا كمان اثنين لما كانوا الناس بدها تنزح من البلد قتلوا كمان شبين فصار في رعب عند الناس ففي ناس طلعت وراحت على بيت جالا وبيت لحم وفي ناس اتجهت على رام الله وطبعاً فضيت البلد. طبعاً في ثوار لاقيناهم في الطرق، مثلاً احنا طلعنا من بلدنا لبيت حنينا مشي بهالوديان هناك حسينا إنه صرنا نبكي، إنه احنا كيف عمالنا نمشي بها الشوك وصغار، احنا حسينا إنه انخلعنا. وما معانا ولا اشي من أغراضنا، قالوا يومين ثلاثة وراح تنحل فحسينا إنه احنا انخلعنا من هاي الأرض، وصلنا بيت حنينا، فاستقبلونا والله، طبعاً ما كنتش بيت حنينا هالقد، كانت قرية صغيرة، اللي كان تحت الخابية وفيها قطين والعدس وهاي، وحطونا في هالدار الواسعة، وصرنا نطول قطين وناكل من الموجود وبعدها نقلنا على الطور ومن الطور رحنا على القدس ومن القدس رحنا على راس بيت جالا، هناك أنت لاجئة، طالعة مشتتة، طبعاً بعدين نزلنا على أريحا لأنهم صاروا يرحلوا الناس خايفين من الهجوم بالطيارات، ورجعنا على القدس ومنها على قلنديا في الـ 53، وسكننا احنا في المخيم، فترة. وبعدين طلعنا وسكننا في الشقة الثانية، تركنا المخيم بس ظلت العلاقات مع بعض.

الحياة في المخيم في بداية نشأته

كانت الحياة وقتها في المخيم مأساة، كان كل واحد من بلد، وكانت خيم، كانت لما تشتي الدنيا أو تتلج، احنا ما لحقناش لأنه اللي بنالنا البيت بناه مرتب، وما سكناش خيمة، كانت بيوت من الوكالة صغيرة بس أنت كنت تزيدي عليها المطبخ وتساوي حمام برا. أبوي كان متوفي، بس احنا بعنا الذهبات وبدينا نتصرف فيها، وقتها كان لما تتلج، طبعاً المدارس كانت هون عبارة عن خيم، مدارس الأولاد والبنات بدوها بالخيم، الوكالة، احنا كنا ساكنين في القدس بس نيجي على كفر عقب، إلنا أرض فيها، نيجي نلقط تين فنمرق، إلنا أهل كانوا ساكنين هون، نيجي نشوفهم، محل الجمعية كان في خيم للمدرسة، وهون كانت كسارة لليهود، ومحل زي الترين، بدا المخيم باشراف الصليب الأحمر أول، وبعدين أجت الأنروا وكانت هاي الكسارة يستعملوها للحليب، مشان يوزعوا للناس حليب أو شي، طبعاً بعدين بنوا المدارس تحت بدل الخيم. لما كانت تتلج الدنيا والخيم تنهد على الناس كانوا يروحوا يقعدوا في المدارس. يعني فيك تقولي كل 10 قرى يقعدوا في بيت واحد، في أوضة واحدة عبين ما يدبروهم وبعدين بنولهم الاسكان: غرفة أو غرفتين حسب العيلة والناس بدت تشتغل وتصلح، وهاي صارت كلها عمارات بعد الـ 67 لأنه قبل كانت الناس كلها متأملة إنها ترجع.

انتقاد غياب الوعي لدى الفلسطينيين واعتباره سبباً للجوء[214]

قبل الـ 67 الكل كان متأمل إنه يرجع، يعني حجر على حجر ما كانوا يحطوا، خلص هاي بيت الوكالة أنا منه طالع على بلدي. وهيك كان لما ييجوا صحفيين أو أي ناس يقولوا احنا بدنا نرجع على بلدنا. هذا مؤقت هون. بعد الـ 67 الناس، بعد ما زاروا بلادهم، رجعوا وخلص لاقوا ما فيهاش فايدة، ما فش، يعني بنضحك على بعض، شو نرجع على الـ 48؟ بس يخلونا هون، ما هيك صارت الناس تقول، خلونا هون، هذا بعد الـ 67. في الـ 67، احنا كنا ساكنين جهة المطار وكان المطار شغال، وكانت الطيارات تنزل هون على مطار قلنديا، كان هذا مطار قلنديا هو المعبر الوحيد اللي كان هون وكانوا يسافروا منه على الكويت والسعودية، هذا الحكي قبل

[213] ورد الوصف نفسه في قصة عيسى الزيناتي، 62 سنة، من مخيم اليرموك (نمط الواقعي السياسي) عن طبيعة الحياة في فلسطين قبل سنة 1948 والتعايش الذي كان يسود حينها.

[214] تصف مريم اللفتاوية ردة فعل الفلسطينيين سنة 1967 حين احتل الجيش الاسرائيلي الضفة الغربية في هذا المقطع من الرواية المليء بالتفاصيل الحية التي تسردها الراوية بأسلوب قصصي تصف عبره لحظة الاقتحام وهروب أهالي مخيم قلنديا للمغر والهضاب القريبة.

الـ 67. وفي الـ 67، احنا بيتنا كان في هاي الجهة، سمعنا إنه في جيش شفناه في المطار وقالوا هذا الجيش العراقي، شوفي قديش الناس كانوا مش واعيين، قالوا هذا الجيش العراقي، مرقوا وأطلقوا الرصاص علينا، ودخل علينا على البيت الرصاص، كانت بنت أخوي نايمة في التخت ودخل من القزاز وبعدين إجو هالناس، بتعرفي في شرطة في الأردن كانوا يشتغلوا، وقالوا اطلعوا روحوا على الشقة الثانية لأنه هدول يهود ومش عراقيين، وصاروا الناس تزقفلهم على بنا هدول عراقيين وهم كانوا يهود! تصوري يعني! [...] كنا والله بدنا نفطر، نحنا وزميلاتنا، كنت أنا أشتغل في الأنروا، احنا كنا قاعدين في الـ 67، وبيقولوا اليهود هجمت على القدس، الناس اللي في القدس اجت والأخبار تقول هجموا على القدس، الكل صار يروح على داره ويستنظر، ولما شفنا احنا اليهود وأجوا الشرطة اللي كانوا مع الأردنيين ويقولوا ابعدوا شوي من هون، نزلنا على المخيم تحت، قعدنا في المخيم، وبعدين قالوا لا انزلوا شوي لتحت على بنا نبعد عن الخبط والضرب، وهو لا في ضرب ولا اشي، كله فقيع! لاقينا هالجيش الأردني كله شارد في هالواد، شلحوا أواعيهم ورموا بواريدهم، (...) كانوا يقتلوهم، الناس نزلت في هالواد، كل المخيم، أنا ذهلت، يا جماعة وين رايحيين احنا؟ قال: بدنا نشرد على عمان، أني عمان هادي، تشردوا على عمان؟ طب ليش؟ لسه ما دخلوا المخيم اليهود. يعني على الحفة، لهون وصلوا الشارع. طب ليش؟ قال زي ديرياسين هلا بصير فينا. بتعرفي، هداك بقول هلا بيعتدوا على بناته، بتعرفي كيف بتصير البلبلة، والله واحنا نزلنا زينا زي هالناس لعند حزما، لتحت، مشي بالواد، احنا كنا 4 خوات وأخ 5 ومرت أخوي 6 وبناته 8 ووالدتي كانت متزوجة غير أبوي، فنزلنا على الواد ولما وصلنا هناك كانت صيف الدنيا، الناس حاصدة القمح، وفي مغارة مرتبينها صحاب الأرض، فأنا قلت لهم، احنا وجيراننا طبعاً، قلت لهم: من هون احنا منتقلش ولا نقلة، خلص بنطلع بنقعد هون في المغارة، عالية كثير المغارة وبنشوف شو بيصير تحتنا، أما نوصل عمان أو أريحا ولا يمكن!أنا صاحبة القرار، وكان معانا زلمة كبير، جارنا قال آه، هو وعيلته وبناته قعدنا في هالمغارة، فش أكل، ما معنا أكل ونحنا عنا طفلتين صغار، نزلنا على المخيم، بتعرفي بيصير الواحد لو مش خايف بيصير خايف، فقعدنا في هالجبل شوي، صاروا الناس من رام الله- من بيت حنينا ينزلوا على هالواد من القرى كلها، الكل شارد في هالواد، وبتعرفي النمل، زي النمل، كيف النهر، هيك الناس بيموجوا موج، وطبعاً في اشي نزل أريحا، وفي اشي انقتل عالجسر، لأنه الطيارات صارت تطلع، كان في قصف طيارات، احنا طبعاً ظلينا قاعدين هديك الليلة في المغارة، وبالصدفة لقينا اللي كانوا يحصدوا تاركين مية، شربنا، طبعاً راق شوية الجو، وفي جارنا هذا زلمة كبير، قلنا له، ايش رأيك نطلع نجيب أكل؟ من الدار ونطل على البيت. راقت، خلص احتلوا هون، طلعت أنا واياه لاقينا البيوت مفتحة كلها، مكسرين البواب وداخلين مفتشين، إذا في مصاري وذهب واشي ماخدينه، أخدنا حرامات وأكل. (س: يعني أنتم لما رحلتوا للمرة الثانية، بعد 48، برضه طلعتوا وما أخدتوش شي معكم؟) لا، وين دقائق؟ الشغلة صارت دقائق، ابعد شوي عن محل الشارع، عن المطار، عن كذا، ابعد للمخيم شوي تحت، وصار أهل المخيم كله رايح. (س: يعني مثل ما صار في الـ 48؟) آه بتشبه، بالزبط، ما أنت طلعت من محل لمحل، وبعدين صفيت بريت البلد كلها. والناس هيك صفت، هلا مخيمات النازحين كيف صفت هيك كلها، ما هم طلعوا خلص راحوا. رجعنا، بقلك أخدنا اللي أخدناه ومش معلق في عينه ايش ظل الواحد وراه وبعد يومين رجعنا، ما هي راقت خلص، احتلوا وراقت، وصارت باصارت اليهود تطلع ع رام الله ويشتروا أغراض بدقيقة، والناس طبعاً ما كان في مقاومة، أمر واقع، خلص هيك صار أمر واقع، يعني الناس، زي كابوس، ما كانوا صاحيين، بالعكس، الناس حتى فضيت للنهب، يعني اليهود ينهبوا من جهة، والناس اللي رجعت من هالوديان صاروا ينهبوا، يعني انتهب مركز الطحين، بس ما نقول من الأهالي، نقول من اليهود، بس هو كذب، الأهالي، ولازم الواحد يحكي الحقيقة مشان يكون وعي عند الناس، إنه ما بيصرش هاي الشغلات، (س: هاي بتصير في حالات الحروب، لما الناس تجوع؟) ولا جعانين ولا حدا جاع أبو ثلاثة أيام كانوا ماخدين كل البيوت اللي هان، مش بيقولوا حرب الستة؟ ما هي حرب الستة أيام كانوا ماخدين كووول (تشدد) الدنيا. فالناس لما راحت على عمان صحصحت إنه ايش اللي صار فينا، رجعوا على المدارس، صارت الناس تتسلل وترجع عالشريعة، اشي ينقتل على الشريعة، بتعرفي كيف لأنه احتلال، اشي يموت جلطة، اشي يموت تعب، وايش اللي صار بعدها يا ستي! بعدها صار في اغاثة في عمان، توزيع حرامات عالناس، وفي المدارس حطوهم، أو في الجوامع، فصارت الدعاية هون، إنه بوزعوا الدخان وبوزعوا التفاحة هالقدة (أي كبيرة) بوزعوا مصاري، ما هو اذا بدك تحكي لازم تحكي حقائق!!

ثانياً: مرحلة الصحوة والمقاومة في المخيمات

بدينا نفهم إنه هلا في احتلال، والاحتلال هذا يعني إنه راح يكون في مقاومة، والمقاومة راح يكون في معتقلين وشهداء، وبدينا نهيىء حالنا. يعني احنا كنا بنفهمش بهاي الشغلات، ما عمره مر علينا أو اجا حدا يقول: بدو يصير واحد، اثنين، ما هي على غفلة صارت الشغلة، فالناس صارت تاخد هالتركات وتركوا بيوتهم

وعفشهم وكل اشي ويرحلوا على عمان، وقفنا أنا وكم شب وطنيين وكويسين: يا عمي ما ترحلوا، ما خلص انتهى كل اشي، ما فش شي، ليش ترحلوا؟ لا بدنا نرحل، لا مش عارف ايش، لا بكرة بيجوا بدبحونا، لا بكرة بسووا فينا زي ديرياسين، يا عمي خلص انتهت الشغلة، وهاي احنا قاعدين هون، مش راح يعملوا فيكم ولا اشي، أمام العالم مش راح يعملوا ولا اشي، من زمان شكل، وهلا شكل ثاني. والله نصف العالم رحلت بعد الستة أيام، وفي من القرى دشروا وطنهم، دشروا أرضهم، دشروا بيوتهم، والكل رحل، لأنه كان في رعب، ما كان في توعية، خلص الناس حطت في عقلها اعتداء على النساء، وكل واحد بده يأخد بنته وبدو يشردها! بدك تقولي في الـ 67، بدأوا الناس يتطبعوا، إنه كل موظف يروح على وظيفته وياخد معاشه من اليهود اللي استلموا المستشفيات والمدارس واستلموا الادارة واستلموا كل اشي، فالناس بدت تشتغل، ما قعدوا، ما فصلوهم من الشغل، وما فش لسه مقاومة، لما منظمة التحرير بنت حالها [....] لما بدأوا من بره، أبو عمار وأبو جهاد وهدول أطلقوا الرصاصة الأولى لفتح وبدت الثورة من هون، وبدت الناس تعرف إنه راح يصير ثورة، مش راح تظل الدنيا هيك زي ما هي، فصار اتصال بين الداخل والخارج، يعني غزة مثلاً كلها رحلت، على عمان هلا عندك مخيم غزة. ليش؟ من الرعب. يعني أنا مثلاً مرة شفت عند بيت لحم سيارات، طب وين رايحين؟ على غزة، طيب ليش على غزة؟ قال لا غزة أبعد، يعني الناس كانت ضايعة، هذا في الـ 48، في الـ 67 بالعكس، صاروا اللي في غزة ييجوا لهون، صاروا يطلعوا من غزة وييجوا لهون، لأنه غزة أكلتها، فبدا يصير تنظيمات، في السبعينات بدت. [...] فصرت تسيسي، **يعني احنا مثلاً ساوينا من الجمعيات اتحاد مرأة، سري، شايفة انت كيف؟** كنا نشتغل سري، أنه مثلاً احنا بدنا نبدي نشتغل، احنا مارسناها وعشناها بالتفاصيل، **وهون صحينا، أنه هاي ثاني نكبة للـ 48، فإيش علينا نحنا نعمل كفتيات مثلاً أو شباب، فكان انسجام مع الشباب،** كانوا شباب كويسين، مش زي اليوم، أولاً تركني عليهم سياسياً، مش مع مين ما كان، يعني كان في مثلاً شخص مسؤول في مركز الشباب، تأمنيله، يعني احنا في تنسيق مع بعض، يعني إذا احنا عنا مشكلة نقول لهم اياها للشباب يساعدونا، واذا عندهم مشكلة نساعدهم، فكان في، بس تعرفي مع مين بتشتغلي، مش مع مين ما كان، ما بتقدري تأمني في وقت احتلال لمين ما كان، واحنا وضعنا حساس كفتيات، فبدينا نشتغل، طبعاً في سميحة خليل، إذا سمعت عن انعاش الأسرة، هي هاي تأسست جمعيتها في الـ 65 يعني بعدنا بكثير، بس كانت ست نشيطة كثير ووطنية، فهي كانت واعية لهيك شغلات، وكانت هي عضو في منظمة التحرير، لما بدأوا منظمة التحرير قبل الـ 67 ما هو كان عنا مقرات في القدس لمنظمة التحرير، وكان عنا اجتماعات وكذا بس احنا كنا صغار ما بنحضرها بس كنا نسمع ايش اللي بيصير فيها، فصار في عندك أنت، قفزة إنه أنا علي اشي لازم أشتغله، يعني بكرة بيصير اعتقالات، وبكرة راح يصير شغلات ثانية، [...] فإحنا بالنسبة لإلنا بدينا نسوي مجموعات صغيرة، نحضر، مثلاً، لو صار في حرب، لو صار أي إشي أيش نعمل؟ كفتيات، طبعاً في الـ 72 طلعنا برة على عمان، أو في الـ 70 فالتقينا مع ناس، اللي هون، بدأوا يطلعوا الناس اللي كانوا يعرفوا إنه هدول إلهم علاقة مع منظمة التحرير، الاسرائيليين، ما هو مكشوف كان، بدأوا يبعدوهم على الأردن، ففي كان دكتور اسمه نبيه معمر كان يشتغل في الهوسبيس في القدس في البلد القديمة، طبيب جراح هو أصلاً أردني، واحنا عنا كان في بنت، قبل الـ 67، كانت مريضة عندها داء الكلب، فكانت تتعالج، عملوا لها عملية في المطلع على حساب الأنروا الوكالة وسكروها ما عملوا لها أي شي، لأنه قال ما عندهمش الأدوات اللي هي تعمل جراحة الكبد هاي، وبدهم يودوها على لبنان، فاندلينا على دكتور تاع التخدير فقال إلكم الدكتور معمر، رحنا زرناه للدكتور معمر وأخدنا له صور والبنت إنه فحصها وشاف وقال: أنا متكل على الله وع هدول (في اشارة إلى يديه) أنا مستعد أسوي لها العملية. بس قال حطوها عندي أبو شهر تغذية (قد يكون المقصود: كمية تكفي أبو شهر من الغذاء) وكان لي أخت تدرس في القبطية في القدس، كل يوم تاخدلها قزازة حليب وقزازة جزر وتاخدلها كبدة، وتنزللها إياه وهي رايحة على المدرسة، وبعدين عمل لها العملية ونجحت، دبرنالها دم من هون من مدرسة قلنديا الصناعية، راحوا الشباب أعطوا، **يعني كان في الناس لو قلت له أعطيني عينيك يعطيك بعد الاحتلال، صارت الناس واعية، صار عندها روح العطاء بتقدريش تتصوري قديش، اشي بالهبل، ما كنوش الناس صاحية، شافوا حالهم تحت احتلال اسرائيلي ثاني،** [...] صرنا نعرف ايش اللي لازم ينشغل، وبدأ في اعتقالات ونسف بيوت وبدت الشغلة تصير إنه على كل واحد عليه اشي يشتغل، ولا حدا يقول له إنه تعال اشتغل هاي الشغلة، هو لحاله، صارت الستات تعمل مجموعات، نجتمع مع بعض، ايش لازم احنا نعمل، علينا نعمل نحمي نسوان المعتقلين هدول لانه كانوا ياحدوهم المخابرات ويجيبوهم ما فش توعية. لو قال لها أي إشي، صاروا يخافوا من الاسقاط، حرب، حرب، **احنا في حالة حرب، فصرنا نشتغل جرازي للمعتقلين، نلم مصاري مثلاً، ننزل على التجار، نلم فلوس، نشتري أواعي تحاته،** أواعي كذا الدعم كله كان محلي، ما كان في اتصال مادي مع المنظمة بتاتاً، مصاري، أصلاً هم من وين إلهم، لما أنت كنت تشوفيهم في الأغوار يادوبك على علبة سردين أبو عمار كان يفطر أو يتغدى من وين؟ بالبدايات، الناس انتبهت وين يصير فينا، برضه نظل دايرين على الدول العربية وهون وهون، **انخلعنا من بلادنا لأنه ما كنش عنا وعي، لو صمدنا، اللي صمد في يافا، ظل في يافا،**[215] فصار الناس عندهم وجهة نظر، إنه ليش نرحل نحنا، لا بدنا

[215] مرة أخرى التركيز على البقاء في الأرض.

نقاوم، فصار في مقاومة. **ما عمرك تقولي لحدا بدي منك كذا ويقول لك لا، ما عمرك!** لو نزلت على التاجر، وقلت له والله في عندي عيلة مستورة أو عندي عيل بدي أشتريلهم طحين، مثلاً صاحباتي كانوا يشتغلوا في الأنروا، في الشؤون الاجتماعية، قديش الواحدة تقدر تعطي لهدول العيل طحين، ورز، وسكر! تلم تعمل، سيارات الوكالة توصل وين ما بدك، صار في مشردين في الجبال، نشتغل لهم طواقي، نشتغل لهم جرازي لفحات، لليوم في عندي منهم بقايا، ياخدوه هم بسيارات الأنروا، يروحوا يوزعوه، **صار في مقاومة، من هون بدت المقاومة**، شباب، هون كان الشارع الرئيسي يمرقوا منه اليهود، كانوا الشباب يطلعوا، أولاد صغار، يطلعوا على الشجر، يضربوا، وفي الكبار مثلاً، صار في تنظيمات وفيها سلاح ما سلاح، يعني تيجي أنت مثلاً وتدفني هالسلاح تحت شجرة، عبنا حدا ييجي بعدين ياخده مشان المقاومة، وأولاد بيلعبوا، يلاقوا هالقنابل وهالشغلات وينزلوا على هالواد يتدربوا عليهم، وييجوا يضربوا باصات اليهود وهي مارقة، حرق عجال، يعني ثورة العادة، حرب، بس مش بالسلاح وجه لوجه، فبدت من هون، وطبعاً صارت المنظمة تغذي هون أكثر، أنت مثلاً تشوفي عندك مركز شباب، تنزليهم يلعبوا رياضة في أي بلد، ينظموهم، يرجعوا، يعني صار في مقاومة العادة! هذا كله كان قبل الانتفاضة، سيارة محني يهودا اللي تفجرت وراح فيها كذا واحد، البسكليت، **وكان عمليات كبيرة تصير، مقاومة العادة، وبنات كانوا ينضموا، ويشتغلوا، وبدون أي راتب، وبدون أي تسمية،**[216] **وبدون أي إشي، يعني كنت تحسي إنه إيش كله سري كان، ما كان معلن يعني**، إلا إذا في عملاء، إنه اليهود اشتغلت عليهم، أو ما يتحملوش التعذيب ويعترفوا، ليش أنت بدك تكوني صاحية مع مين بدك تشتغلي، يعني مش كل واحد بتحمل التعذيب، انسجنا احنا وتعذبنا. أنا انسجنت، بس مش أنا اللي كنت مطلوبة، كانت زميلتي، وكان إلها أخ مريض وتوفى، وأمها بدها تطلع على الكويت عبنا إنه ابنها توفى، وبتعرفي كأم وإشي، كان فترة عيد الكبير أظن، واعتقلت هي عن الجسر وأمها كانت معها وأنا كنت معها، فمقدرتش أنا، لو أنا طلعت كان ما اعتقلتش، بس لاقينا اسمها على الجسر عند الاسرائيلية، أنا طبعاً لما سألت عنها وأنه أمها مريضة سألوا: مين أنت؟ صاحبتها، فاعتقلوني، واعتقلوا الأم، شوفي هم لا، ما هو صارت قصة إنه كشفتنا قبل، بعد الـ 67 يعني بدك تقولي في السبعينات، أجت مرت موشي ديان عنا، هاي راحيل، كانت هي مسؤولة عن لباس الجيش الاسرائيلي، شركة ماسكيت، هاي للجيش الاسرائيلي كانت وهي كانت مسؤولة عن تمويلها، فلما احتلوا وشافوا من الجمعيات النشطة في البلد، فإجت زارتنا هون، استقبلناها، واحدة جاية بدها تزور الجمعية، وما قالولنا إنها مرت موشي ديان والعربي اللي كان معاها ما قال لنا إنها مرته! ما كان عادي، بس كان بيعتمد إنه أنت كيف طريقتك، يعني أنت كيف بدك تتعاملي، بدك تتحملي المسؤولية، تتعاملي، هل أنت راح تتمشي معهم ولا ما بتمشيش، هذا بتوقف على الإنسان يعني كيف هو، طبعاً اجت واجا معاها ضابط كبير كبير، حراسة طبعاً، وما سلم علينا، وحطولنا مسجل، فأنا لما بدوا يحكي قلت لهم: ممكن نسكر المسجل، قال: ليش؟، قلت له: لا بتسكر المسجل إذا احنا بدنا نحكي، يعني احنا ما بدنا اشي يتسجل، ومش خايفين ايش بدنا نحكي بس سكر المسجل، لأنه أنت ما بتآمن بالسلام لأنك ما سلمت علينا، كان في غرفة مهلهلة صغيرة بالكسارة وهيك قاعدين احنا، بتذكر كيف قعدنا يعني، طبعاً العربي اللي معهم هيك برجف قاعد، هو كان مسؤول عن التعاونيات، خائف، وعارف احنا مين يعني، فبدت هي تحكي، أنه احنا عنا شركة ماسكيت وبتعمل البدلات للجيش والقمصان، وأنا بقدر أجيب باصات، وكل يوم البنات ييجوا على ماسكيت ويشتغلوا، طبعاً هل هو صح؟ هل هو كذب؟ هل هو كيف المدخل؟ ما بتعرفي، هاي مرت قائد كبير، موشي دايان مسؤول الجيش كله شايفة كيف؟ [...] فلما خلصت حديثها، قلنا لها: احنا، يعني أنت كثير بتحسبي سهل إنه هدول البنات اللي بيجوا هون بيجوا بوصل وبنسلمهم لأهاليهم بوصل، احنا ما بنمونش عليهم لا نوديهم على تل أبيب ولا نوديهم على أي محل، من الباب وبره احنا ما بنمون عليهم، يعني بتيجي عنا ممنوع تطلع من الباب وبره، ما بنمون احنا، وبعدين احنا في وضع احتلال، نشتغل للجيش اللي بحاربنا وبيقتلنا وبيقتل أولادنا لا، مرفوض هذا، حكينا لها بالعربي الصريح، طبعاً في مؤسسات ثانية راحت زارت ماسكيت، احنا لا ما بنزورها[217]، في ناس بتخاف، ما بتقدري أنت كل واحد ييجي يحكي مثلاً، بعدها حطوا علينا نقطة سوداء، بس زميلتي كانت معترفة عليها واحدة كانت مسجونة، واعترفت عليها (واعتقلوني أسبوع وهي 3 أشهر) أنا أخدوني لأني صاحبتها، وحسّبوا في عندي اشي، واخدوا أمها على نابلس وبعدين رجعوها طبعاً على البيت، وصار تحقيق معي: ايش علاقتنا احنا مع بعض؟ طبعاً احنا بنشتغل مع بعض مع النساء الفقيرات المهمشات وصاحبتي بتشتغل مع الشؤون الاجتماعية. [...] أخدوني بنفس اليوم عالمحكمة فحكيت للحاكم، وقلت له: أنا طالعة، أخوي جاي من الكويت، وأنا طالعة أشوف أخوي، على أساس إنه بدنا نلتقي في العيد في عمان، وهلا أهلي في البيت بحسبوني في عمان، وأخدوني عن الجسر وأنا ما عليش أي إشي، هل أنت لو أنا ألاقي ختيارة اسرائيلية واقعة أقيمها بحبسوني؟ **هيك قلت للقاضي: إذا أنا ساعدت ختيارة يهودية بتحبسوني، فأنا ساعدت ست ختيارة اعتقلوا بنتها، أنا ساعدتها، وأنا هون موجودة لأني ساعدت الست هاي، فش عندي اشي ثاني، ولا أنا انمضى تصريحي وكل اشي.** وعيدت في المسكوبية العيد الكبير عيدناه في المسكوبية، تعاملت بعدين

[216] تتشابه الرواية هنا مع وصف عبد الوهاب الصفوري لعمليات المقاومة التي كان يقوم بها المجاهدون قبل مأسسة المقاومة.

[217] يبرز هنا دور الفرد وموقفه وثباته على الموقف، مهما كان الموقف السائد، فكل جهد مقاوم يغير وهو فعل يؤثر في المستعمِر.

بعد التحقيق، وطبعاً جابوا الصور وتفوا على أبو عمار، قال لي: شوفي هالوجه قديش بشع؟ قلت له: ما هو شامير أبشع كثير من أبو عمار وبرضه أنت هيكم يعني (...) وبعدين بدو يصير سلام هيه السادات أجا وبدو يصير سلام وليش كل هالشغلات هاي وبعدين أنا وياك ومين ما كان كله مترين في متر اللي راح ننام فيهم ما كنا عايشين مع بعض مناح وكذا ومن هذا الحكي، ما أنت حسب التحقيق، أنا طبعاً لا انضربت ولا انحطيت في محل شبحوني بس مرقوني من قدام الناس المشبوحة في ناس تبقى معلقة، وخصوصي، بتعرفيش يعني وبعدين قالوا لي بتقدري تاخدي من شنتايتك بشكير وغيار، قلت لهم: ما بدي ولا اشي. بعدها طلعت أنا بعد أسبوع، وتمت صديقتي 3 أشهر، وطلعت ما ثبت عليها أي اشي. فبدينا نشتغل مزيد من الشغل، وبدت علاقتنا مع المنظمة، طبعاً أنه نوصل غزة لأنها مرت موشي ديان أخدت كل مطرزات غزة، كانوا يشغلوا النساء بقرشين ونصف مصري على الطبة هاي، احنا عطينا نصف دينار [...]".

ثالثاً: مرحلة الاحباط واليأس

في الأول كانت القضية أهم من المصاري، مثلاً لما كان يصير منع تجول لما انقتل أبو جهاد وأبو إياد ولا اشي ويصير بالثلاثة أشهر منع تجول وما يقدروا يطلعوا الناس ولا اشي وتيجي الوكالة كمركز احنا هون أنا قريبة أجي أفتح يجيبولنا الخبز نيجي نقول تعالي يا أم فلان تقول: والله أنا عجنت أما جارتي هديك والله ماعندها طحين. هلا لو بيحملوه بكبوه في الزبالة بتحس أنه هذا كأنه لإلها جاي خصوصي. *(س: طب ليش بتفكري ها التغير؟)* أنا بقول لك ليش، مع الأسف الشديد يعني إذا بيحكيه الانسان يعني، وهو كله حزن، بعد ما أجوا العائدين من برة واستلموا الوظائف والبيوت وصاروا الناس تشوف السيارات، العيلة عندها سيارتين وثلاث سيارات، ساكنين في فيلا، المعاشات، الوظائف، فاهمة علي، انقلبت الصورة، أنا باقية أناضل لهدول الناس؟ بينما هم حابينهم بس ما كان في انصاف في الوظائف وما كان في احساس بالناس اللي تحت الاحتلال، هم اللي قاوموا وصارت الانتفاضة، كانوا يطلعوا الشباب من سن 15 لسن 65 يقعدوا هون من المغرب لثاني يوم الصبح يعملوا على أواعيهم، ما يخليهم الجندي يروحوا كذا، إذا صارت عملية، إذا انضرب حجر على سيارة، إذا صار أي إشي ييجوا يقيموا كل الناس من فراشها، وغير التفتيش وغير الازعاج مرات يحطوهم من هون على الشارع، ومرات هون، وإذا قاله بدي أروح اعمل، يقوله على أواعيك، ويعملوا على أواعيهم ما يقدر، هذا أبسط إشي، وغير الشهداء، وغير يعني هلا قلنديا في حوالي 17 شهيد، في اخوة 2 وكلهم شباب وكلهم انطخوا هون، يعني لما كانوا يعملوا مظاهرات ولما كانوا يضربوا حجار، شباب صغار، أولاد، يعني هدول اللي ضربوا قنابل.

انتقاد اتفاقات أوسلو ودخول المنظمة إلى الأراضي المحتلة

كانت غلط غلط، غلط كبير، كثير غلط، يعني كانوا هم ما درسوها مزبوط، يعني أنا مثلاً طلعت قبل ما أجوا انسمحلي أطلع بعد حرب الكويت، رحت قابلت الحاكم العسكري وقلت له: إذا علي إشي احبسوني، تفضل شو أنا علي؟ قال: بتتصلي في المنظمة ومش عارف ايش وكذا وكذا. قلت له: هل ثابت إني أنا اتصلت في المنظمة أو أي إشي؟ اثنين بحب أقلك شغلة ما هلا في فاكسات والكل بودي على الفاكسات، هل أنت عمرك مسكتلي اشي رايح على الفاكس أو مع المنظمة أو كذا، ما هو خليك أنت تكون حقاني يعني، 12 سنة ايش مسكت علي أنا؟ قال: أنت بتبيعي تطريز للمنظمة. قلت له: تعال اشتري، أنت اجيت تشتري وأنا منعت عنك إنك تشتري، تفضل تعال اشتري، بعدين أنا شو عرفني إنه للمنظمة، إذا اجا حد شرى أنا شو بعرفني، وبعدين ليش أنا أمانع إذا جاي حدا يشتري بمصاريه، ليش أمانع؟ منظمة أو غير منظمة، طب ما انتم منظمات ولو اجيتوا عندي ليش ما أبيعكم؟[218] بعدين سمحلي إنه أطلع، طلعت أنا فترتها وكان المجيء بدو ييجي لهون، وكان أبو عمار ساقطة في الطيارة وأنا شفته، وحكيت له، وقلت له: أخ أبو عمار قال أنتم بدكم تيجوا على البلد أهلاً وسهلاً، بس انتم ما بتعرفوا شو في في البلد، انتم مش راح تقدروا لليهود، أنت لو قبلت مع السادات كثير أحسن ما هلا أنت تيجي تاخد. (لأنه أنا طلعت على مصر من طريق سينا، وشفت قديش المصريين كانوا اليهود محتلين أراضي اللي رجعها السادات للاسماعيلية، القناة كلها كانت مع اليهود)، ليش طيب يا أخ أبو عمار مستعجل أنت؟ ليش ما أخدت مع السادات؟ قال: دا أنت متشائمة. قلت له: أنا مش متشائمة أنا مخلصة وأنا بحكيلك حقائق، قلت له: أنت مش راح تقدر على اليهود. لأنه كان مش مزبوط جايين على ايش ريحا فين وغزة فين؟ وبعدين احنا كنا نجتمع مع بعض ونحلل طب هلا ليش مش وقته؟ يعني الجينة ما فيها أخذ فش فيها أخذ. رام الله فين؟ وغزة فين؟ ما أخدوها متكاملة، لو أخدوها لسه متكاملة؟ المعابر، السماء، البحر إلهم، إيش ظل؟ يعني

---

[218] هنا وفي المقطع الذي ترفض فيه الراوية التعامل مع شركات الملابس الاسرائيلية ضمنياً دون أن تصرح برفضها هذا أمام ممثلي الاستعمار، تظهر مقاومة اللاجئين للسيطرة الاستعمارية بالرفض أو بالحيلة وهي احدى أشكال المقاومة التي ينتجها الخاضعون جماعات وأفراد موجودون داخل أنظمة السيطرة للرد على القمع والاستلاب التي تتعرض له من قبل البنية المسيطرة ويسميها جيمس سكوت "المقاومة بالحيلة"، كما ورد في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

أجوا يخنقوا حالهم هون ويخنقوا الناس معاهم وريحوا الاحتلال هم. ومش أنا لحالي اللي كنت أقول هيك، احنا كنا نجتمع بحدود 30 مؤسسة ونحلل: ايش الفايدة من هلا؟ أنا طلعت وحكيت معه وقال لي: دا أنت متشائمة وبتعرفي هيك وطلع خلقه، طبعاً أنا ما بيقدرش لا يسبني ولا اشي لأني عمري ما فتحت ايدي وأخدت أي أشي، فهم بسبوا اللي كانوا ياخدوا منهم ما كانش يخليلهم ستر مغطى، بس الناس اللي ما مدت ايدها لليوم احنا اصبعنا في عينيهم كلهم، فلس ما أخدنا منهم، فلس أحمر، سوى حق تطريزنا، زي التاجر اللي ببيع. وكان النا عليهم 25 ألف دولار ما أعطونا اياهم وصاروا يساومونا عليهم في عمان زي كأنك بتبيعي صحارة بندورة، حطيناها في الميزانية.

صورة فلسطين الجغرافيا

فلسطين فش الها حدود، وينها؟ بالعكس راحت كل فلسطين، يعني اللي كان معنا، إذا كان معانا، خليني، أنا بعرفش بالأرقام، أحكي بالزبط، خليني أقول كان معانا 90% في الضفة الغربية، هلا ما صفاش عنا 30% بعد ما اجت السلطة، ما في معانا واللي بقول غير هيك كذاب، الانتفاضة الثانية ودتنا للهلاك، لأنه ما صار فيها مقاومة، مش زي الهاي (تقصد الانتفاضة الأولى) أولاً لا صارت الانتفاضة الأولى كان في احتلال وهو مسؤول عنك، وكان يخاف اشي من العالم إنه يبطش، ويعمل وكذا واشي، بس الها كان فعالية، اشتغلوا الشباب، واشتغلوا النساء، اشتغل الكل في الانتفاضة الأولى، وتحملوا وكانوا ماسكين البلد من الانحلال، كل بلد بتحتلها العدو بيعمل انحلال فيها، احنا كان عنا كله مضبوط، صدقيني إنه كان مضبوط أحسن من اليوم، وبقولها على العلن مش خايفة أنا، لا كان في شرطة ولا كان في كذا، بس كانت الناس تحترم بعض وتحافظ على بعض، كنت تنامي وبابك مفتوح عليك، رغم الاحتلال، رغم إنه كان يداهم، رغم الكذا ما كان في رعب عنا هلا أنا بنام وأنا مرعوبة، بتعرفيش الحرامي من وين بنزل عليك، يكسرلك، أو المخدرات، أو الأرض عم تسحل، والقدس خلصت ونحنا متمسكين، بدنا القدس القدس القدس، طب ما هي القدس صرلها 40 سنة بتسحل قاعدة، هلا، بس هلا، طب ما هي كل اللي كانوا ساكنين في القدس أعطوا الدور لليهود وطلعوا، أخدوا الفلوس وبنوا خارج البلد، وين كنتوا انتم؟ وين كانوا؟ وايش أحافظ على ايش؟ حافظت والجدار أخذ كل الأراضي؟ **الجدار أخذ كل الأراضي، طب من بنى الجدار؟ من جاب اسمنت الجدار؟ احنا؟ من هم؟ وين كان كله هذا وين؟ طب ما هو هلا احنا اللي عمالنا بنحكي بنحكي على قديش؟ بنحكي على 25%، شو النا وين ضل؟ أنت لما بدك تروحي ع بيت لحم، بتروحي على الالتفافي هذا، بتبقي معلقة فوق، بتقولي هلا أنا بهوى تحت الأرض، ايش ما حطولنا بنقبل، ايش ما حطولنا بنقبل، حطولنا الحواجز قبلنا، حطولنا الجدار قبلنا، قامولنا الشوارع الالتفافية قبلنا.** ايش احنا عاملين؟ قولي لي؟ ايش عاملين؟ ويا ريت انشالله نحافظ على ايش؟ كل الشباب هلا عم بتهاجر، وينها؟ ايش بتشتغل؟ ولا اشي، عم بيعملوا كرتونات، مؤسسات كرتونة ما فش الها جذور، (س: ولا سابقاً) ولا سابقاً وكانت تدش عليهم الأموال، ايش فكرك يعني؟

الطموحات

ولا إشي، إيش هو؟ إيش يعني هلا؟ إيش في طموحات؟ انشالله بصير إلنا دولة، وبصير إلنا معابر، وبتكون على أحسن حال .. بس أنا لما بدي أشوف مثلاً غزة، حجاج انمنعوا يروحوا يحجوا .. مسلمين، واللي حاكمين مسلمين وبشوف ايش بيعملوا أكثر من اليهود، ايش أمنياتي بدها تكون؟

المخيم

إيش بده يصير فيه؟ انشالله يأخذوه [...] كان المخيم هون أشرف مخيم في العالم، صدقيني كان أشرف من القدس وأشرف من رام الله وأشرف من نابلس: مقاومة وثوار وناس شرفاء، هلا ناس بروحوا على جبع بيقتلوا شبين بصفوهم مشان ماكينة قمار. وبعدين لأنه انحكموا بحرقوا البلد وبخلعوا الشجر! الشارع هذا كلف ملايين الملايين. انحط فيه أضواء وشجر! ولليوم الشحبار في دارنا، قد ما تنظفي، الشحبار ملأ الدنيا، مش هذا خطر على حياة الأطفال والناس اللي معهم أمراض؟ ليش؟ كلهم موجودين في السلطة وكلهم أولاد تنظيم! بصير هذا الإشي؟ ما بصير! كانت قلنديا أشرف المخيمات [...] ليش نقتل بعض؟ ما في تبرير! أنا بتعرفي: بطلت أقول قلنديا، ولا بدي أقول من قلنديا، بينما أنا رحت أميركا وكل الحكي كان عن مخيم قلنديا، أنا تربيت معاهم، بعرف كل بيت مين فيه، وبعرفهم كلهم، وكيف تربينا مع بعض وبنعرف بعض. [...] كانت المخيمات، بس هلا بعد ما انبنت هالطوابق، بدنا يرجعوا وين يرجعوا؟ ولا راح يجيبوا واحد من برا ويدخل على أراضي الـ 48، إذا بظللوا جماعة الـ 48 انصلي لله، أنا هيك احساسي: انصلي لله إذا اليهود خلتهم بيناتهم، لأنه هدول شرفاء، الشهادة لله، اللي قعدوا في الظلم هذا كل هالسنين، 61 سنة هدول، مش قليلة، وما كانوا ماخذين حقوقهم 100% شايفة كيف؟ يعني هم حافظوا، بنبقى احنا مجانين إذا بنقول إنه راح نرجع. بس يجيبوا لنا النازحين، يرجعوا على بلدهم، اللي إلهم قرى، بكون مكسب، هلا اللي رجعوا مع أبو عمار هدول مكسب، بس وين رجعوا؟ على قديش؟ على هالقدة (تشير إلى الصغر) صارت رام الله والبيرة كلها حجار! وبعدين

الأراضي كلها تحت إيد اليهود وفي أراضي ممنوع أنت توصليها. لا لبيتونيا ولا للبيرة، هون كلها يهود. عندك هون مستعمرة قد البلد أخذت من البيرة ومن كفر عقب ونزلت على حزما وعلى جبع، كله مستعمرات! ولسه مستعمرة جبع قد البلد أخذت وهلا الجدار لسه لافف وماخذ كل الأراضي، وعمالهم بيفتحوا لنا زروبة صغيرة هيك! واحنا عم نقبل بكل شيء، عم نقبل مغلوبين على أرضنا يعني. والله أقول لك: أنا متفائلة إنه في إشي منيح لا، ولا متفائلة في الموجودين حتى، ولا شايفة وزاراتنا على مستوى! مع الأسف يعني ..

(س: خبرتك في العمل الاجتماعي وأساليب مختلفة ... ما بتحسي إنه ممكن نبدأ نشتغل زي ما اشتغلتم أنتم زمان؟)

والله هاي بده يكون يعني عجائب الأمور! زي ما بيقولوا إذا من عند الله بنزل اشي بيعمل هيك شغلات آه!

الملامح العامة لصورة فلسطين الأحلام

تقدم الروايات المشكلة لصورة فلسطين الأحلام صوراً أكثر تنوعاً لفلسطين من الصور في النموذج الأول. والسبب أن الرواة يشكلون صور فلسطين في رواياتهم كما يحلمون برؤيتها. فالحلم هنا يتنوع بين الأمنية والرغبة والمشروع، بحسب دور الفاعل الاجتماعي الذي يسرد الرواية. ويرتفع مستوى إدراك الراوي/ة لاغترابه/ا، ووعيه لضرورة مقاومته. فالصورة هنا متعددة الأبعاد تتداخل فيها ذاكرة الجغرافيا والتاريخ، ولا تقتصر على البعد المكاني فقط. حيث يتم بناء الصورة من روايات تمزج الأحداث الواقعية بالخيال بما يسمح بتجاوز الواقع المتناقض ويحقق بعض التوافق بين ذاكرة الماضي وأحلام وأماني اليوم وإمكانيات تحققها في الغد. فالرواة هنا ليسوا راضين عن الأمر الواقع، لذا يحاولون تغييره كل بطريقته ولكن أهم ما يميز الصورة التي يرويها الرواة لفلسطين الأحلام هي صورة نقدية، ويتم توجيه النقد بشكل أساسي إلى العوامل الذاتية في الماضي والحاضر والتي، برأي الرواة، عرقلت مشروع استعادة الوطن. دور الراوي هنا أكثر ايجابية، فهو يتخذ دور الفاعل، وليس مدفوعاً بتأثير الانتماء الحزبي وحده وإنما يُضاف إليه الفكر والممارسة والتحليل للواقع وتجربته الشخصية، وغالباً تتشكل روايته من تصارع هذه التأثيرات جميعها. يردون الهزيمة إلى عاملين متزامنين: التراجع السياسي الفلسطيني روايات الغاضب والحالم بالغد الأجمل بالترادف مع قوة المشروع الاستعماري.

جدول يبين عدد الروايات ضمن الأنماط الأربعة التي تتركب منها صورة فلسطين الأحلام

أنماط الروايات التي تشكل صورة فلسطين الأحلام	مخيم اليرموك	مخيم قلنديا	المجموع
النمط الحالم باستعادة الماضي الجميل	9	2	11
النمط الباحث عن فلسطينيه	8	3	11
النمط الحالم بالغد الأجمل	4	4	8
النمط الغاضب النقدي	1	4	5
مجموع رواة صورة فلسطين الأحلام	22	13	35

وتتشكل **صور فلسطين الأحلام من روايات تتوزع على أربعة أنماط:**

حيث تتوزع النسبة الأكبر من الرواة بين نمطي "الحالم باستعادة الماضي الجميل" و"النمط الباحث عن فلسطينه".

- تسود في روايات النمط الحالم باستعادة الماضي الجميل نوعان لصورة الماضي الجميل، الصورة الأولى التي يشكلها الجيل الأكبر تعبر عن جمال القرية أو المدينة الأصلية مقارنة ببشاعة فترة التهجير واللجوء، بينما تعبر الصورة الثانية عن جمال فترة الثورة والمقاومة وما كانت تعد به اللاجئين حينها مقارنة بفترة التسوية التي أُخرجوا فيها من الصورة اليوم.

- ويندفع الرواة الشباب ضمن النمط الحالم الباحث عن فلسطينه مدفوعين برفضهم للوضع الحالي إلى البحث عن أساليب جديدة، بعيدة عن السياسة غالباً، من أجل بناء صورة فلسطين من خلال المسرح والفكر والتراث والتعليم.
- وتقدم رواية النمط الحالم بالغد الأجمل صورة لفلسطين الماضي والحاضر بما ينسجم مع حلم الراوي بغد أجمل من الحاضر البائس. ويختلف الغد الأجمل باختلاف تجارب الراوي الحياتية وانتماءاته السياسية وقراءاته والتداخل بين هذه العوامل.
- ويقدم رواة النمط الحالم الغاضب رواية غنية يروي فيها المبحوثون ما عاشوه من تجارب غنية لتشكل رواياتهم وثيقة تاريخية تؤرخ للأحداث السياسية والحياة الاجتماعية في ظل الاحتلال وظروف الشتات الناجمة عن الشرط الاستعماري المستمر. ويقوم الرواة بمراجعة نقدية للأحداث والفاعلين الاجتماعيين فيها.

أبعاد صورة فلسطين الأحلام

البعد الجغرافي: تكتسب فلسطين أهميتها كوجود مادي وجغرافي وبالأخص بين الرواة الموجودين في مخيم اليرموك، كما في نمط الحالم بالماضي الجميل. يقدم رواة هذا النمط صورة مفصلة لفلسطين، فيصفون الطبيعة بمكوناتها لتتطبع القرية أو المدينة الأصلية في ذهنهم كلوحة مثالية من لوحات سيزان ويعبرون عنها بلغة تعبيرية تفيض بمشاعر التوق والحنين للعودة إلى القرية أو المدينة التي هُجِّرَ منها أهاليهم قبل واحد وستين عاماً. وتكتسب الأرض هنا والتراب أهمية كبيرة في حياة الرواة، ليس لقيمتها المادية وإنما للمعنى الرمزي الذي تمثله في مخزون ذاكرة الراوي. لتشكل العودة الحلم المنشود الذي يتحول اللاجئون لأجله إلى شهداء كما يظهر في عدد من روايات فلسطين الأحلام.

يختلف موقع **المخيم** المادي والرمزي في روايات فلسطين الأحلام عنه في روايات فلسطين الواقع. فالمخيم هنا، خاصةً بالنسبة لرواة مخيم اليرموك ولبعض رواة قلنديا أيضاً، يشكل مكاناً مؤقتاً لحين العودة إلى الوطن، وهو المكان الذي يسمح بنمو نفس الثورة لذا يبذيه الرواة بما يعزز الاحساس الوطني لديهم ولدى الأجيال القادمة فيهتمون بمنحه قيمة من خلال إضافة مقتنيات تراثية تبقي ذاكرة البلاد حية وتغذي مشاعر الانتماء والحنين لدى الأجيال القادمة.[219]

لا تقتصر قيمة فلسطين على البعد المادي، أي فلسطين كموقع وأرض وتراب فقط،[220] وإنما تكتسب في روايات هذا النمط أيضاً أهمية رمزية: دينية،[221] وتاريخية، وسياسية، وتراثية.[222]

---

[219] انظر روايات الحالم بالماضي الجميل ورواية محمد العطابي من النمط الحالم بالغد الأجمل.

[220] كما في رواية محمد العطابي ضمن النمط الحالم بالغد الأجمل: "قيمة بيت عطاب لدى محمد تتجاوز الملكية الخاصة للأرض. قيمتها من قيمة قبور الأجداد التي يمكن أن يدنسها المستعمِر، هي جذوره، التي تم فصله عنها ليتحول إلى لاجيء يعيش في حالة limbo "الليمبو"، معلقاً بين السماء والأرض، شعور يخبرني أنني، لن أستطيع فهمه، كوني من صوريف ولي أرض فيها جذوري وامتدادي".

[221] كما في روايات: عبد الوهاب الصفوري (الحالم باستعادة الماضي الجميل)، ومحمد العطابي (الحالم بالغد الأجمل)، وأم نادر الغزاوية (الحالم الباحث عن فلسطينه) على سبيل المثال.

[222] لا يكتفي الرواة هنا بالاشارة إلى التراث كأدوات وإنما ينعكس في لغة ومضامين رواياتهم: أنظر رواية عبد الوهاب الصفوري ضمن نمط الحالم باستعادة الماضي الجميل ورواية محمد العطابي ضمن نمط الحالم بالغد الأجمل حيث يحافظ التراث على قيمته

يغلب في روايات فلسطين الأحلام الجانب التاريخي على اليومي، حيث يقرأ الرواة أحداث الماضي والحاضر قراءة نقدية ومقارنة مستندين على مخزون من الذاكرة المتقاطعة مع الوعي الفكري والتنظيمي/ الحزبي تضعهم في حالة من الصراع لإعادة صياغة الرواية التاريخية التي ورثوها عن آبائهم في ضوء تجاربهم السياسية والنضالية أحياناً وخياراتهم الحياتية أحياناً أخرى

أهم ما يميز مضمون الروايات التي تبني صورة فلسطين الأحلام هو الغضب والنقد المزدوج

حيث يتخذ **الفاعل الاجتماعي** دور الصمود بالمقاومة السلبية أي عدم التقاطع مع مشروعي السيطرة الاقتلاعية والهيمنة المساوِمة، وهو موقف ضد محاولات السلطات المسيطرة التي تعمل على دمج اللاجىء في مشروع التسوية. يمكن قراءة هذا الموقف من كونه يمثل موقفاً نموذجياً لتحويل الوطن إلى وطن/ذاكرة، دون الخضوع للسيطرة ولا الاندماج في إجماع الهيمنة. كما يمكن قراءة هذا على أرضية مقاومة الاغتراب، أي استيعابه ومن ثم مقاومته. وفي الغالب ينظر رواة هذا النمط نظرة نقدية للمشهد الفلسطيني في ضوء تجاربهم النضالية الشخصية ومعرفتهم التاريخية بالواقع وانفتاحهم على خيارات متعددة. فالراوي هنا ليس أسير خطاب معين أو مصلحة معينة! إنما بعكس النمط المأسور بالمشهد المحيط، ينتقد الرواة، ضمن نمطي الحالم بالغد الأجمل والحالم الغاضب، الواقع السياسي الفلسطيني الحالي وقبل ذلك ينتقدون أداء الأحزاب التي ينتمون إليها لعدم مساهمتها في التأثير على هذا الواقع أو تغييره.

الإستعمالية، من خلال المفردات التي يحرص الراويان على استخدامهما، وكذلك من رواية محمد العطابي لأمه وتمسكها بالثوب الفلاحي لباساً، وزراعتها لشجر الزيتون في الأصص في منزلها في المخيم والذي هو عبارة عن غرفة.

خلاصة واستنتاجات

"أحلامنا هي أحلام مؤجلة وشكل الواقع القميء، ما بيسمحلك تحكي بأريحية، إذا بتحكي بأريحية بتضحكوا عليك العالم، يعني هيك صرت تحسي، إنه أنا بدي أرجع على فلسطين وحق العودة والشجرة وبدنا نقعد تحت الشجرة وننزرع: إيه أنو شجرة وأنو تراب؟ ... يعني بتطلعلك القضايا الواقعية على الأرض: صراع فلسطيني–فلسطيني، وعدو إسرائيلي ما برحم، ووضع إنساني مخيف جداً، يعني دولة عربية مسكرة معابرها، أنو شجرة؟ وأنو أحلام جميلة؟ يعني حتى فلسطين الدولة ومابعد الدولة هي أمر غيبي وأمر ضبابي .. أمر غير مفهوم .. يعني مالها بهالجمالية .. لهيك صار الواحد يحكي إنه أخي بهاي الفترة ما بدنا شي، بدنا تظل فلسطين بس حلم، فقط حلم لأنه الواقع راح يكون قميء جداً، يعني راح يكون سيء، وأثبتت أحداث غزة إنه الواقع سيء، يعني من يحاصر الفلسطينيين هم المصريين: العرب عم بحاصروا فلسطين، يعني الفلسطينية عم بقتتلوا في الشوارع، يعني 24 واحد، ولا مرة إسرائيل قتلت 24 فلسطيني بيوم واحد ... شارون بالفعل حكاها لما بنطلع ست أشهر عالبحر ولما بنرجع وما منلاقي ولا فلسطيني يعني مزبوط كلامه، كلام أنبياء ماشاالله، يعني ما بعرف هذا الطريق القذر اللي ودونا فيه، والأمور المحزنة جداً يعني مشان هيك: فلسطين الحلم أجمل من فلسطين الواقع ربما!" [223]

يلخص هذا المقتطف لأحد الرواة الذين قابلتهم خلال دراستي بعض ملامح صورة فلسطين التي بنتها الاثنتين وثمانين رواية التي جمعتها في مقابلات معمقة مع عدد من اللاجئين في مخيمي اليرموك وقلنديا. وهدفت هذه الدراسة للتوصل إلى بعض معالم صورة فلسطين من خلال الروايات التي سردها جزء من الفلسطينيين الذين يشكلون الوجود الفلسطيني ومع ذلك يُمنَعُون من التدخل في صناعته إلا ضمن الحدود التي تعيد إنتاج علاقات السيطرة الاستعمارية القائمة. إن وجود روايات متنوعة ومختلفة في المضمون والشكل لفلسطين، كما ظهر في الفصلين الثالث والرابع من هذه الدراسة، يعكس تنوع الفاعلين الاجتماعيين وأدوارهم أولاً والوضع المعقد للحالة التي يعيشها المجتمع الفلسطيني في ظروف الاضطهاد والاستلاب والاقتلاع المستمرة نتيجة تضافر عدة عوامل ثانياً. أبرز هذه العوامل، كما يظهر في روايات اللاجئين الذين قابلتهم هي السيطرة الاستعمارية المباشرة؛[224] والهيمنة التي يفرضها عدة أطراف: السلطة الحاكمة، والأحزاب السياسية، أو المؤسسات الأخرى: العائلة، الجهة المشغلة أو المانحة للفلسطيني..إلخ؛ إضافة إلى ظروف اللجوء المادية والنفسية؛ والمؤثرات الإعلامية والفكرية والسياسية التي تتعدد منابعها في زمن العولمة. ويظهر تأثير جميع هذه العوامل بدرجات متفاوتة في الروايات التي جمعها هذا البحث.

---

[223] من رواية شريف الطنطوري، 28 عاماً، مخيم اليرموك، آب 2008.

[224] كما في النمط المحبط الذي يشكل عدد رواته الأغلبية 24 راو من أصل 82 من مجموعة الرواة الذين قابلتهم.

حاولت في هذه الدراسة تطويع أدوات البحث التي أمتلكها من أجل جمع صور فلسطين في تجَمُعين صغيرين للفلسطينيين أحدهما خارج حدود السيطرة الاستعمارية المباشرة لإسرائيل والآخر داخلها: مخيم اليرموك ومخيم قلنديا. ولأني باحثة صغيرة بأدواتي ومعرفتي فقد أعطيت المجال للرواة الذين يعايشون الحدث لسرد رواياتهم عن فلسطين بأدنى درجات التدخل مني، باستخدام المقابلات المعمقة وبمساعدة تقنيات منهجية النظرية المتجذرة grounded theory.[225] لقد أدركت منذ البداية أن "فلسطين" يصعب حصرها في صورة أو مجموعة صور، لكني لغرض البحث، وبعد مراجعتي لعدد من الأدبيات والدراسات النظرية والإمبريقية القريبة من موضوع دراستي الحالية، قررت تحديد الأطر التي ستشكل صورة فلسطين في هذا البحث ضمن المحاور الخمسة التالية التي ركزت حولها أسئلتي المفتوحة في المقابلات: 1) البعد المكاني الجغرافي الذي يحدده الرواة لفلسطين، 2) الشكل المادي الذي تتجلى به الصورة في حياة اللاجئين بشكل عام ومحيط المخيم بشكل خاص، 3) القيم والمعاني التي يسبغها اللاجئون على الوجود الفلسطيني، 4) البعد الزماني التاريخي الذي يتجلى في الأحداث الماضية التي يرويها اللاجئون في سردياتهم حول فلسطين والمعاني التي يعطونها لتلك الأحداث اليوم ورؤيتهم للمستقبل، 5) دور الفلسطيني، اللاجىء تحديداً هنا، في المشاركة في صناعة الحدث وكتابته من خلال الرواية التي جمعتها.

وبقراءة تحليلية مقارنة للمادة التي حصلت عليها من مقابلاتي مع المبحوثين ومشاهداتي في المخيم، تشكلت صور لفلسطين اليوم بنتها روايات وأصوات متعددة. فالوضع الذي يعيشه اللاجئون هو وضع كولونيالي/ استعماري بامتياز يتضمن الاستلاب والطرد والسيطرة. إضافة إلى الفروقات الناتجة عن تمليز الرواة في العمر، والجنس، والموقع الطبقي الذي يتحدد بشروط إعادة إنتاجهم لذواتهم وخياراتهم الحياتية: التعليم وفرص العمل المتوفرة للاجئ ولعائلته، وهذه جميعها تحدد بالتالي الصور والمعاني التي يركبها الرواة لفلسطين اليوم في ظل الصراع الثقافي/ الإيديولوجي بين إيديولوجيا الطبقات المسيطرة في المكانين وخيارات أو اختيارات الأفراد التماهي معها أو مقاومتها إما بالتسلح بإيديولوجيات أخرى أو بقراءة جديدة للوضع الفلسطيني ولخياراتهم فيه.[226]

يشكل اللاجئون في المكانين صوراً مختلفة لفلسطين كنت قد جمعتها في الفصلين الثالث والرابع ضمن عنوانين: صورة فلسطين الواقع وصورة فلسطين الأحلام وفقاً لدرجة اقتراب أو ابتعاد الصور التي يرسمها الرواة من صورة فلسطين "المسموح بوجودها" اليوم بتأثير العوامل التي ذكرتها أعلاه. فالعامل الرئيس في تشكيل الصورة هنا هو اللاجىء الفلسطيني في لحظة فعل الرواية، وهذه اللحظة هي الأخرى مكبلة بتأثير العوامل نفسها، يُضاف إليها ظروف الباحثة والبحث والتي شرحت بعضاً منها في الفصل الأول.

---

[225] شرحت منهجية البحث وظروفه مطولاً في الفصل الأول.

[226] يظهر تأثير البعد الطبقي واضحاً بمقارنة روايات كل من النمط الواقعي السياسي والنمط المحبط.

تعكس الصورتان اللتان رسمتهما الروايات المختلفة للاجئين الذين قابلتهم في مخيمي اليرموك وقلنديا غياب سردية وطنية موحدة بين الفلسطينيين، ويمكن إيعاز ذلك إلى التشتت الجغرافي للفلسطينيين كشعب وقيادات وغياب أجهزة الهندسة الاجتماعية التي تسهم في نمو مقومات الهوية الموحدة: النظام التعليمي، والأحزاب والحركات السياسية لتُنْتِج صورة لفلسطين تخدم غاياتها العملية كما يوضح هوبسباوم: "سواء كانت الهوية القومية أو الوطنية *تقاليد* مخترعة، فهي موضوعة في خدمة "غاية عملية" تهدف إلى صناعة مجتمع ودولة يرتبطان ببعضهما بشكل متزايد" (Hobsbawm, 1983: 13-14). والصورة الأبرز في الحالة الفلسطينية اليوم للناظر إليها من على السطح السياسي هي الانقسام بالنسبة إلى مشروع بناء الدولة في الداخل والخارج على السواء، لكن هناك صور أعمق يراها فقط من ينغمس بين الناس الذين مازالوا يصارعون للحفاظ على إنسانيتهم وسط شوط استعماري كولونيالي ما زال مستمراً منذ سايكس بيكو. حاولت هذه الدراسة تجميع أجزاء صورة فلسطين بالولوج في أعماق الذاكرات الفردية لمجموعة من اللاجئين الذين رَوَوا كلٌ على حدة حكايته عن فلسطين. هي بالتأكيد محاولة بسيطة على قدر ميزانيتي ووقتي الذي لم يسمح لي بمقابلة أشخاص أكثر ولا بالغوص في الروايات بعمق أكبر كما خططت. وبالتأكيد لن أدعي أن هذه الروايات تمثل كل أنماط الروايات الفلسطينية الموجودة اليوم، سيما أني لم أقابل إلا عينة محدودة من لاجئي مخيمي اليرموك وقلنديا، فما زالت هناك الكثير من الروايات في أعماق أخرى من المجتمع الفلسطيني الممزق بين: الجزء المغتصب سنة 1948، والجزء المغتصب سنة 1967، والجوار العربي، والمنفى البعيد والتي لن تتشكل صور فلسطين إلا بسماعها، وليس كما صُرِّحَ مؤخراً من قبل أحد المعتلين للسطح السياسي الفلسطيني: "من لم يُغَبِر حذاءه بتراب الوطن، ليس مسموحاً له أن يحكي عن الوطن".

يظهر الانقسام في السردية بين صورتين لفلسطين: فلسطين "المتخيلة" أو فلسطين الأحلام وفلسطين "المسموح بوجودها اليوم"/ فلسطين الواقع حسب "المعايير والاتفاقيات الدولية"، وقد عرضت ملامح هاتين الصورتين في الفصلين الثالث والرابع حيث حاولت تقديم "قراءة سوسيولوجية" لسرديات الرواة الذين قابلتهم لسيرة فلسطين كما يرونها أو كما يرغبون برؤيتها. وتبين أن الرواة يبنون سردياتهم لفلسطين من عدة مصادر: فتأتي تجاربهم ومشاهداتهم في الحياة بالدرجة الأولى، تليها ذاكراتهم و/أو الذاكرة التي ورثوها عن الآباء، بينما يظهر في بعض الروايات تأثير الانتماء الحزبي و/أو الديني والخطاب الإعلامي والذي يتدخل أيضاً في اضفاء أبعاد رمزية ومادية لصورة فلسطين، كما يظهر في الأنماط المختلفة المعروضة في الفصلين الثالث والرابع. بالنتيجة ترسم الروايات لوحات حية ومفصلة للحياة في فلسطين بأبعادها التاريخية والجغرافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية كما يعبر عنها فلسطينيون عاشوا وما زالوا يعيشون تجارب التهجير واللجوء في مخيمي اليرموك وقلنديا.

ومن حيث المضمون، تغطي الروايات _التي صنفتها ضمن ثمانية أنماط لتشكل صورتين لفلسطين: الواقع والأحلام_ عدة محاور، لعل أكثرها بروزاً: الحياة في فلسطين قبل سنة 1948، والمسيرة السياسية الفلسطينية في الماضي واليوم معنونة بما قبل أوسلو وبعده، والرؤية المستقبلية والحياة في المخيم. ويتميز كل نمط من أنماط الروايات المذكورة في الفصلين الثالث والرابع بسيادة أسلوب معين وأحياناً موضوع معين لتقدم الدراسة روايات متنوعة لفلسطين تتراوح في مضامينها بين الاجتماعي، والتاريخي، والأدبي، والسياسي. وتختلف مضامين أجزاء الروايات وأشكالها بين الأنماط المختلفة، ليبدو وكأن الراوي إذ يستذكر الماضي الذي ورثه غالباً عن أبيه وأمه فإنه يحاول إعادة تشكيله بعيون الحاضر متأثراً بتجاربه الحياتية وانتماءاته السياسية وقراءاته ومشاهداته للأحداث سواء بشكل مباشر (قلنديا) أو غير مباشر عن طريق المحطات الفضائية والانترنت (اليرموك وقلنديا).[227] وقد قدمت أبرز ملامح الصورتين اللتين شكلتهما روايات اللاجئين لفلسطين باختصار في نهاية الفصلين الثالث والرابع.

بعض الاستنتاجات من مقارنة روايات الأنماط المختلفة

الحدث الرئيسي في روايات المبحوثين

تظل النكبة المكان المشترك للذاكرة في ذهن اللاجئين أو الراوة الذين قابلتهم. فقد ظهرت في معظم الروايات كلحظة الاقتلاع العنيف من المكان، والمقصود بالمكان هو "البلاد" أو "الأوض" التي انتُزِعَت من اللاجئين لتصبح بلاداً لآخرين إلا أن الرواية تتشكل من أصوات متعددة بتعدد تجارب رواتها في الزمان والمكان: الزمان الذي يفصل بينهم وبين لحظة الاقتلاع، والمكان الذي يشغلونه في المساحة الممتدة بين الواقع الاستعماري الإقتلاعي والخطاب الدولاني الحقوقي والشعاراتي الذي يغزو الفضاء العام. يعكس اختلاف التجارب بين الرواة، اختلافاً في الصور التي يحملونها لفلسطين في رواياتهم. ليشكل مجموعة منهم صور واقعية لفلسطين بما تثيره من ردود فعل تزرع في النفس الإحباط، أو الرغبة في الهروب من آثار الاقتلاع المستمرة بتقبل الفاعل الاجتماعي/ الراوي–ة لمبررات حزبية أو فكرية مؤطرة بالواقعية السياسية، أو الانسحاب من الواقع للانغماس في صراع البقاء.[228] وعلى هامش صورة الواقع المسيطرة على المشهد يقف بعض الرواة الذين يحاولون استقراء صورة مختلفة عن الصورة الواقعية التي فرضها الشرط الاستعماري الخارجي تساعدهم عدة عوامل منها ذاكرة الآباء، ونشاطهم السياسي واهتمامهم بالقضية الجمعية لتنعكس في مشاريعهم الشخصية فتثير لدى الفاعل الاجتماعي هنا مواقف مختلفة منها الرغبة باستعادة ماضي البلاد الجميل

---

[227] تتفق هذه النتيجة مع ما أوردته في الفصل الثاني وبالتحديد حول فكرة هالبواتش في كتابه On Collective Memory من أن "الأفكار والاهتمامات والطموحات التي يحملها الأفراد في الحاضر تؤثر في تشكيلهم لرؤى مختلفة للماضي. (Halbwachs, 1992: 183).

[228] تلخص ردود الفعل هذه الأنماط الأربعة التي ترسم صورة فلسطين الواقع وهي الغالبة في البحث، وتتوزع بالشكل التالي: النمط المحبط بين الرفض للواقع والتكيف معه (24)، والنمط المأسور بالمشهد الواقعي (12)، والنمط الواقعي السياسي (4)، والنمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي (7).

أو الغضب ورفض التخلي عن الحلم والابتعاد عن الوسائل التي تؤجل تحويل الحلم إلى واقع، أو الرغبة التي يرافقها العمل و/ أو الإرادة من أجل خلق إمكانيات وجود فلسطيني جديد.[229]

ويُلاحَظ أن نكبة 1948 تحولت في بعض الروايات إلى مكان للذاكرة بمفهوم بيير نورا، خاصة بين الرواة الأصغر سناً، حيث اتخذت في رواياتهم صيغة شعار ومناسبة يتم إحياؤها، من خلال عمل مُمَأسس. ليطل حدث آخر هو اتفاقيات أوسلو التي يمكن أن توصف كلحظة توتر في الروايات على اعتبار أن أوسلو، شكل لحظة التجسيد المادي للشرخ في صورة فلسطين –بين الواقع والأحلام– كما تتجلى على أرض الواقع وفي الخطاب الفلسطيني الرسمي متمثلاً بانتقال مركز ثقل المنظمة من الخارج إلى الداخل والتغير الذي تطلبه هذا الانتقال في المشروع الفلسطيني من مشروع تحرير إلى مشروع تدويل. إلى جانب النكبة، تظهر اتفاقيات أوسلو كحدث رئيسي في روايات جميع الأنماط، باستثناء النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي، وقدم أغلب الرواة، باستثناء جزء من رواة النمط المأسور بالمشهد المحيط، قراءة نقدية لمشروع أوسلو. وهنا، تُعتبر القراءة النقدية شكلاً من أشكال الخروج على الإجماع الذي تتطلبه الهيمنة من قبل النخبة السياسية التي تقود الفلسطينيين عامة وليس اللاجئين منهم خاصة.

العوامل المؤثرة في بناء صورة فلسطين

يشير تنوع الصور التي يحملها الرواة لفلسطين على تعدد المصادر التي يستقي منها الرواة قصصهم، وقد حاولت في تحليلي لروايات الأنماط المختلفة تحديد المصادر التي يظهر تأثيرها على روايات كل نمط، سأورد هنا باختصار العوامل الرئيسية التي برز تأثيرها على روايات المبحوثين في هذه الدراسة مع التأكيد أن التأثير هنا لا يتم بشكل خطي وإنما تتداخل تأثيرات العوامل المذكورة (مكان اللجوء، الجيل، المؤسسات الاجتماعية) مع تجارب الراوي الحياتية لتؤثر على مضمون ذاكرته وشكلها وقوتها.

أولاً: تأثير مكان اللجوء

تبينَ أنه لا توجد علاقة مباشرة للانقسام في الصورة/ السردية بمكان اللجوء. فكما هو ملاحظ في الفصلين الثالث والرابع، يُسهم المخيمان –اليرموك وقلنديا– برسم الصورتين، وإن اختلفت نسبة إسهام كل مخيم في رسم صورة الأحلام بالذات: حيث يرتفع عدد الحالمين في مخيم اليرموك عنه في قلنديا، ولكن بالمقابل يوجد تقارب بين عدد الروايات التي تبني صورة الأحلام وتلك التي تبني صورة الواقع في مخيم اليرموك. بينما تبني معظم روايات مخيم قلنديا صورة الواقع. وبما أن البحث هنا لم يهتم بمسح المجتمع كمياً، فلا يمكن الوصول إلى تعميم مطلق حول أسباب هذه الفروقات.

[229] تلخص ردود الفعل هذه الأنماط الأربعة التي ترسم صورة فلسطين الأحلام: النمط الحالم باستعادة الماضي الجميل (11)، والنمط الغاضب النقدي (5)، والنمط الباحث عن فلسطينه (10)، والنمط الحالم بالغد الأجمل (8).

يمكن، على سبيل المثال، أن نحاول قراءة الاختلاف في رسم صورة الأحلام بالذات بتأثير المكان بين المخيمين أولاً وداخل كل مخيم ثانياً، ضمن حدود البحث الحالي، بالرجوع إلى القراءات التحليلية للأنماط التي شكلت كل صورة. ويلاحظ غلبة رواة قلنديا ضمن ثلاثة أنماط: المحبط والواقعي السياسي والحالم الغاضب. بينما يشكل رواة اليرموك أغلبية ضمن روايات الأنماط الثلاثة التالية: المأسور بالمشهد المحيط، والحالم باستعادة الماضي الجميل، والحالم الباحث عن فلسطينه. ويتساوى عدد الرواة تقريباً في النمطين المسحوب من التاريخي إلى اليومي والحالم بالغد الأجمل.

الروايات السائدة في مخيم قلنديا

رسم أغلب الرواة في قلنديا صورة فلسطين الواقع [24 راوية وراو] مقابل [15 راو وراوية] رسموا صورة فلسطين الأحلام. وبالنظر إلى أنماط الرواة الذين شكلوا صورة الواقع في مخيم قلنديا، يظهر جلياً سيادة نمط "المحبط بين الرفض للواقع والتكيف معه" بواقع 17 راو وراوية مقابل 4 من الرواة (كلهن إناث) مسحوبات من التاريخي إلى اليومي، و 3 رواة ذكور من الواقعي السياسي، و 4 مأسورين بالمشهد المحيط. فإذا نظرنا إلى العوامل المشكلة لصورة كل نمط، يبدو أن **المؤثر الأكبر في بناء الروايات في قلنديا، هو تجربة الحياة في شرط استعماري** والتي أنتجت إنسانية مغتربة بدرجات تتراوح بين الاغتراب الوجودي كما في النمط المحبط حيث يبلغ الإحساس بالعجز أمام وحشية التجربة الاستعمارية أقصاه ليترك للرواة مجالاً صغيراً يحورون من خلاله جزءاً من إنسانيتهم: إما رفض الواقع المفروض كلياً (أبو مالك الصرعاوي، وأم فراس علارية). أو الانتقال المتردد بين رفضه وقبوله (أبو فادي البرفيلي)، أو إعادة تملك التاريخ من أجل جغرافية الممكن (الحالمين).

الروايات السائدة في مخيم اليرموك

يتساوى عدد الرواة الذين رسموا صورة فلسطين الواقع مع من رسموا صورة فلسطين الأحلام. وبالنظر إلى أنماط الرواة الذين يشكلون صور فلسطين في مخيم اليرموك، يظهر أن معظم الرواة يتجمعون في النمط المأسور بالمشهد المحيط 10 والنمط الحالم باستعادة الماضي الجميل 9 والنمط الباحث عن فلسطنيه 8. ويبدو منطقياً أن تلعب الأحزاب والمؤثرات الإعلامية دوراً أكبر في تشكيل صورة فلسطين في حالة الانقطاع المادي المباشر عن فلسطين الجغرافيا، لكن هذا لا يعني أن الرواة منقطعون عن فلسطين التاريخ، فعلى العكس يسهم الابتعاد المكاني في التعويل بشكل أكبر على العامل التاريخي من خلال الذاكرة التي يورثها الجيل الأكبر للأصغر. كما يؤثر الحرمان من الانتماء للوطن الأصل كمكان وجنسية والوضع الخاص الذي يتمتع به اللاجئون الفلسطينيون في سوريا بحصولهم على الحقوق المدنية الكاملة أسوة بالمواطنين السوريين حافزاً للبحث عن طرق انتماء جديدة عبر عنها رواة النمط الباحث عن فلسطينه من خلال إدخال فلسطين كمكون ضمن مشاريع حياتهم الشخصية، ليتم بناء فلسطين من خلال التعليم، والمسرح، والتراث، والموسيقى.

الاختلاف في مضامين الروايات بين المخيمين

وبالرجوع إلى تحليل روايات كل نمط يمكن أن نستخلص أن التجربة الحياتية التي تسيطر عليها الحالة الاستعمارية ما زالت تلعب الدور الرئيسي في بناء روايات اللاجئين في حالة قلنديا. لذا تتركب أجزاء صورة فلسطين في روايات قلنديا من قصص طويلة تصف الاضطهاد الذي تفرضه السلطات المختلفة التي تناوبت في حكم أو إدارة شؤون البلاد تقابلها قصص أقصر تصف المقاومة. بينما يبني اللاجئون في سوريا رواياتهم عن فلسطين بتأثير عوامل متداخلة: المعاناة المستمرة الناجمة عن اللجوء والتشتت والتي تظهر بشكل مختلف بين الأنماط المختلفة لكنها تتكثف لدى النمط المحبط والعامل الثاني المؤثر هو الهيمنة الحزبية، كما يظهر في أجزاء من روايات المأسورين بالمشهد المحيط والعامل الثالث هو الصراع الذي يعيشه الأشخاص بين الهيمنة الأيديولوجية المركبة (من الخطابات السائدة سياسية و/أو فكرية أو/و حزبية) وتجاربهم الحياتية والظروف الناشئة عن الحالة الاستعمارية العامة وظروف اللجوء في سوريا التي ساهم توجهها القومي بمنح اللاجئين الفلسطينيين حقوقاً أكبر من تلك التي منحتهم إياها دولاً أخرى مما شجع الرواة على تجاوز الشرط الواقعي المسموح به للوجود الفلسطيني كما ظهر لدى بعض الباحثين عن فلسطينهم والحالمين بالغد الأجمل والحالم الغاضب والراوي الواقعي السياسي اليتيم.

ومع أن الروايات التي تتشكل في المخيمين تتوزع على الأنماط، إلا أنها تختلف من حيث المضامين. نلاحظ أن صورة فلسطين الواقع تتشكل من النمطين المحبط والواقعي السياسي في قلنديا بعكس اليرموك حيث يرسم صورة الواقع النمط المأسور بالمشهد الواقعي وبدرجة أقل المحبط. وبالمثل تختلف مضامين صورة فلسطين الأحلام بين المخيمين كما يوجد اختلاف في مضامين الروايات نفسها: أورد هنا الاختلاف في قصة البلاد والهجرة، على سبيل المثال:

ترد "قصة البلاد والهجرة" بتفاصيل أكبر لدى الجيل الموجود في مخيمات الخارج مع الأخذ بعين الاعتبار أنه توجد اختلافات في القصة بين الأجيال في المخيم الواحد. لكن بشكل عام، ذاكرة اللاجئين في مخيم اليرموك كانت تزخر بتفاصيل أكثر حول القرية وحياة أجدادهم فيها وقصص المقاومة والمجازر ورحلة التهجير الطويلة وتشتت العائلة وتنقلها في أكثر من مكان... بينما نجد في فهرس ذاكرة اللاجئين في قلنديا وصف بسيط لقصة القرية والحياة البسيطة فيها التي تعتمد على الزراعة لتحتل قصص المواجهة المباشرة مع الاحتلال في الفترات المختلفة والأحداث الراهنة الجزء الأكبر من صفحات الذاكرة: الانتفاضة الأولى والثانية. في روايات قلنديا تحديداً، كثيراً ما يختلط وصف الحياة الفلاحية المسترجعة من ذاكرة الآباء بالملامح التي اختزنها الراوي/ة من زيارته لقريته المهدمة لتختلط مشاعر الحنين بمشاعر الصدمة والحسرة واليأس من استعادة الماضي. وهذا ما يفسر ازدياد عدد الواقعيين في قلنديا على عددهم في اليرموك، ويمكن قراءة هذه النتيجة بوضوح بمقارنة مضامين قصص البلاد والهجرة بين روايات الصورتين، ويلاحظ هذا بشكل خاص ضمن نمط الحالم بالماضي الجميل والذي يظهر بصورة أكبر بين رواة مخيم اليرموك.

ولا يقتصر تأثير الاختلاف في مكان اللجوء على صورة البلاد والتهجير الواردة في الروايات، وإنما تختلف الروايات في عرضها للأحداث السياسية والتاريخية وقصص الهزائم والانتصارات بما يعكس اختلاف طبيعة الحياة والتجارب التي واجهها الطرفان خلال الواحد والستين سنة الماضية من اللجوء. تتشابه معاناة اللجوء لكن يشعر القارىء أن ظروف اللجوء داخل فلسطين كانت أكثر قسوة مقارنة بظروف اللجوء في سوريا.

ثانياً: تأثير العمر أو جيل الراوي

تتشكل رواية الجيل الأول بشكل رئيسي من الصور الذهنية التي يحملونها عن تفاصيل الحياة في البلاد ومعاناة التهجير واللجوء فيما بعد، وبشكل ثانوي من قصص الكبار وتجاربهم الشخصية في المشاركة في المقاومة أو التعرض للاضطهاد وقراءاتهم. وتتكون قصص الجيل الثاني بشكل رئيسي من خلال مشاركته المباشرة في الحدث: المقاومة في الأردن وبيروت والقمع وخيبة الأمل والقصص التي يحرص الأهل على نقلها إليهم، لتجيب على أسئلة الطفولة حول المخيم أو تحقيق الأمل بالمقاومة والعودة إلى فلسطين من خلال أبنائهم ومن ثم يضاف لها قراءات الراوي/ة وتتبعه/ا لوسائل الإعلام. بينما تتكون روايات الجيل الثالث، بشكل أساسي، من خلال الخطاب الإعلامي يرافقه الخطاب الحزبي وصدى الأحداث الراهنة مثل عملية الرضوان وإعادة جثامين اللاجئين الشهداء، والتي تشكل أحد الأحداث الرئيسية في روايات مخيم اليرموك، كما يذكر رواة النمط المأسور بالمشهد المحيط؛ وقد تكرر أثر الأحداث في الداخل على نمو الروح الوطنية في الخارج كما ذكر الرواة في مخيم اليرموك: "حين يغيب الحدث السياسي أو يبتعد تخف الذاكرة ويتناقص مستوى الحس الوطني". وقد يرجع هذا إلى انتقال قواعد المنظمة إلى الداخل، الأمر الذي ضيق الأطر السياسية التي كان اللاجئون يشاركون من خلالها في العمل السياسي العام، لتختزل مشاركتهم إلى حالة الانفعال مع الأحداث التي تأتيهم عبر شاشات الحداثة: وهذه سرعان ما يخبو صداها، لتتوجه اهتمامات الشباب إلى مواضيع أخرى تغرقهم بها الشاشة. لا يقتصر تأثير هذا على كيفية بناء اللاجئين في الخارج لصورة فلسطين وإنما يلعب دوراً في خلق اهتمامات مختلفة لدى الجيل الشاب، وقد يفسر هذا غلبة اليومي على التاريخي في رواياتهم.

بمقاربة ما ذكرته أعلاه لروايات الأنماط التي برزت في هذه الدراسة، يظهر تأثير متغير العمر بقراءة مضمون الروايات. فالرواة الأصغر سناً وهم من الجيل الثالث غالباً، يرسمون صورة فلسطين متأثرين بالخطاب الحزبي و/ أو الإعلامي المهيمن[230] أو بتداخل تأثيرات ظروف المجتمع الأبوي والمعاناة اليومية لتشد الرواة،[231] خاصةً الفتيات منهم، إلى اليومي وتبعدهم عن التاريخي. لهذا يركز مضمون رواياتهم على الحاضر واليومي وتأتي قصص الماضي مختزلة وقصيرة عند الرواة

[230] كما يظهر في روايات نمطي "المأسور بالمشهد المحيط" و "الحالم الباحث عن فلسطينه".
[231] كما يظهر في روايات النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي.

الأصغر سناً في قلنديا تحديداً، بينما يقدم رواة مخيم اليرموك قصصاً تزخر ببعض التفاصيل نقلاً عن الجد أو الجدة، يظهر هذا الفرق بوضوح في روايات النمط المأسور بالمشهد المحيط.

أما الرواة الأكبر سناً، من الجيلين الأول والثاني، فيتبين من مضامين رواياتهم أنهم يعتمدون على مخزون الذاكرة بالإضافة إلى تجارب حياتهم وحياة أهلهم، بينما يظهر تأثير الخطاب الحزبي والإعلامي والفكري بدرجة أقل في رواياتهم. وكما تبدى من الروايات المجموعة في هذه الدراسة، فإن انتساب الرواة الأكبر سناً لأحزاب معينة لم يمنعهم من تقديم قراءة نقدية للواقع السياسي الفلسطيني اليوم ولموقف الحزب الذي ينتمون إليه أيضاً، يقدم رواة النمط الحالم الغاضب أمثلة على هذا النقد المزدوج.

ثالثاً: تأثير جنس الراوي

يظهر من مضمون الروايات وجود اختلاف في نسبة مشاركة المرأة في النضال الوطني. لقد عبرت المرأة عن رؤيتها للقضايا التي عولجت في المقابلات، ولم يبدُ من خلال ذلك استقطاباً متقابلا للرجال أو للنساء كل لوحده من قضايا معنية، فيلاحظ غياب الصوت النسائي في بعض الأنماط: الواقعي السياسي، أو خفوته في روايات أنماط أخرى مثل نمط المأسور بالمشهد المحيط. لكن الواقع اليومي للنضال الفلسطيني تضمن في الحقيقة اختزالاً لدور المرأة،[232] مما أضاف إليها اغتراباً لم يفرضه على الرجل، أي سيطرة الرجل الذكورية. الاختلاف الرئيسي هو في روايات الجيل الأول. حيث تبدو روايات النساء من الجيل الأول غنية أكثر بوصف المشاعر والأحاسيس، وصور المعاناة أثناء الهجرة، ويسيطر فيها الحدث الاجتماعي، أكثر من السياسي، بينما يغلب السياسي على الاجتماعي في روايات أغلب الرواة الذكور. ويمكن رد هذا الاختلاف إلى مدى مشاركة المرأة في صناعة الحدث.[233]

رابعاً: دور المؤسسات الاجتماعية الأخرى

هناك تداخل بين تأثير المؤسسات الاجتماعية المختلفة على بناء وتشكيل ذاكرة اللاجئين عن البلاد في الماضي ورؤيتهم للحاضر والمستقبل، فالمؤسسة سواء كانت العائلة أو المدرسة أو المؤسسة الدينية أو الحزبية أو السلطة المتنفذة (سلطة الاحتلال، سلطة الحكم الذاتي، سلطة المجتمع المضيف)، جميعها، في الأساس، قوة اجتماعية لها مصالحها المادية وهي تمارس تأثيرها، طبقا للظروف، من ممارسة القوة والسيطرة والهيمنة، بدرجات مختلفة بين هذه الحدود الثلاثة. وبهذا تعمق اغتراب اللاجيء ليغرق في صراع بين المأمول والممكن تتجاذبه مشاعر العجز والإحباط والرفض والمقاومة للقيود التي تفرضها هذه المؤسسات على حياته اليوم. وليس غريباً أن تكون أعلى أصوات الرفض موجهة لقوى الداخل: قيادة وأحزاب، خاصة بعد التحول الذي طرأ على القيادة الفلسطينية من قيادة

---

[232] حاولت البحث في بعض أسباب هذا الفرق في تحليلي لروايات النساء ضمن النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي.

[233] راجع قصص الحاجة مريم ضمن نمط الحالم باستعادة الماضي الجميل، ورواية مريم اللفتاوية ضمن نمط الحالم الغاضب.

برجوازية صغيرة ترفع راية الثورة والكفاح المسلح تحت شعار التحرير وعودة اللاجئين إلى مؤسسات بيروقراطية وجودها مرهون بخدمتها لمشروع التسوية السياسية في ظل استمرار الشرط الاستعماري بإجراءاته القمعية المتصاعدة وتغييب أي استراتيجيات لمواجهة هذه الإجراءات. أضاف هذا العامل إلى الاغترابات المتنوعة التي يعيشها اللاجئون اغتراب داخلي ذاتي بين اللاجىء وبين القيادة التي غدت سلطة. وهنا تتقاطع أطروحتي غرامشي وألتوسير كل من مدخله، بمعنى حدود تأثير الهيمنة عند غرامشي، وحدود تأثير أجهزة المجتمع القمعية والأيديولوجية في هندسة المجتمع حيث أن المواطن أو اللاجىء كان يتصرف تماما كما تريده القيادة، متصوراً أنه هو الذي أراد ذلك. هذا إلى أن جاءت الصدمة من العدو في لحظات متتالية شدد فيها من قبضة سيطرته كما في الانتفاضة الثانية والحصار على مقر السلطة الفلسطينية وحرب تموز والحرب على غزة. وهنا يكون القلق الذي نراه في الروايات: مع أوسلو وضدها، مع حق العودة ومع اليأس من تحقيقه، مع الانتماء العربي ونقدا مراً للعرب، مع دولة واحدة، ومع دولتين، مع تدبير الحياة اليومية وتحصيل مرتبة علمية عالية، ومع الرغبة في عمل استشهادي. هذه الحالة القلقة هي التي تضع اللاجىء في حالة البحث عن طرق لتجاوز اغترابه، ليصل اللاجىء إلى مرحلة استدعاء العديد من مقومات الاستمرار، البقاء وإبقاء القضية حية. وشأن مختلف المجتمعات في عصر العولمة، يتأثر الفلسطيني بأفكار وآراء متنوعة تأتيه من الفضائيات وشبكة الانترنت، لتنمي قدرته على النقد. هذا يقلل من فرص قدرة القيادة على الهيمنة، وبالتالي تصبح القيادة، سواء كانت الحزب أو السلطة الحاكمة محط نقد. والعامل الآخر الذي يظهر تأثيره في معظم روايات اللاجئين هو التجربة الحياتية وتأثير الأحداث والمتغيرات السياسية اليومية على الرواية. لذا تنتج الرواية عن الصراع بين هذه العوامل المختلفة في ذهن اللاجىء وهذا يجعل التوصل إلى استنتاج نهائي أو اعتماد نظرية نهائية لقراءة الصورة/ الصور من خلال الروايات، بمعنى أن تغير ما أو حدث ما يقود إلى تغيرات في الرؤية والمواقف.

ويبلغ الشرخ مداه الأقصى في التناقض بين المحرض الأساسي للذاكرة: حدث الاقتلاع الذي عمل على نفي الوجود الفلسطيني بشراً وجغرافية؛ وبين المشروع الوطني الفلسطيني محور الرواية الرسمية السائدة: الدولة التي تتطلب إقامتها الاعتراف بوجود من ألغى وجود الفلسطينيين أساساً في أرضهم، كأساس لإقامة علاقات طبيعية معه. لتتحول إسرائيل في ذاكرة اللاجئين إلى قوة لا يمكن مقاومتها إلا "بيد إلهية" أو بقدوم "قائد تاريخي"، فتستمر قوة اسرائيل وتتجسد في استمرار حالة اللجوء والاقتلاع والبقاء في المخيم قرب "الدولة" في أجزاء من الضفة الغربية وقطاع غزة والتي تتطلب مفاوضة اسرائيل لتسيير شؤون الحياة اليومية. إلا أن الحديث المعمق مع اللاجئين أوضح أن صورة إسرائيل كعدو لم تتغير إلى صورة الدولة الجارة ويمكن تفسير هذا بممارسات إسرائيل اليومية التي تجدد صورتها كمستعمر:

القمع المستمر للفلسطينيين: تصفيات جسدية، اعتقالات لا تستثني أحداً حتى رئيس الدولة المفترضة الذي وقع اتفاقية سلام مع "دولة اسرائيل"، حروب إبادة مستمرة حرب تموز، حرب غزة الأخيرة،

مصـادرة أراضـي وهـدم منـازل واعتـداء علـى مقدسـات، إضـافة إلـى أن لقـاء الفلسـطيني الشـعبي بالإسرائيلي هو تكريس للحالة الاستعمارية، فهو إما يلتقي بجندي يقمعه على الحاجز أو الحدود والمعابر أو بمستوطن يحتل قمة الهضبة المجاورة لبيته ويتمتع بما يُحرم منه هو: المياه والطريق والمساحة وحرية الحركة في بلاده والتواصل المادي مع أجزاء كبيرة من مجتمعه. هذه الممارسات الاستعمارية في الحاضر يُضاف إليها ذاكرة الماضي الأليمة بتجربة الاقتلاع والتي هي نفسها مازالت حية في حياة اللاجئين بدرجات مختلفة هي المحرض الأول لرفض الواقع السياسي الحالي واتخاذ موقف نقدي منه والحلم بتغييره (الحالم بالغد الأجمل) أو قلبه (الحالم الغاضب).

أما باقي الأحداث التاريخية فمن الملاحظ أنها تتواجد أو تغيب في روايات الفلسطينيين حسب مصادر هذه الروايات. وتأتي أكثر الروايات تفصيلاً حين تكون مستقاة من بيئة البيت والحزب، يليها المعايشة والتجربة الشخصية، خصوصاً لدى الرواة الأصغر عمراً. ويلعب الإعلام دوراً مؤثراً في بناء صورة لدى اللاجئين وتختلف الصورة التي تنطبع في ذهن اللاجئ باختلاف ثقافته وتجربته.

تفيد قراءة الروايات في شأن الانتماء إلى الوطن، أن مصادر أو منابع الانتماء إلى الوطن متشعبة. كما أن توفرها لا يتسنى لكل شخص بنفس النسبة والعدد. يمكن للوعي الوطني أن يلعب دوراً حاسماً في الانتماء. وهو ما نجده واضحاً لدى المثقف من الرواة الذي ينتمي بقناعة وتحليل عقلاني. ويمكن أن تلعب الأسرة دورها في تعميق الانتماء. كما أن الوعي يقود إلى تعميق الانتماء بدخول المتعلم أو المثقف في حزب أو مؤسسة اجتماعية نقابية ...الخ. فالفاعلون الاجتماعيون، الرواة هنا، تجمعهم تجربة الاقتلاع من الوطن بفعل استعماري مستمر منذ أكثر من ستين عاماً يترافق مع نمو مشاعر الاغتراب والعجز والخوف والأمل والغضب والرفض. والراوي بصفته جزء من الرواية التي يرويها يأخذ أدواراً مختلفة باختلاف الظرف والمكان والزمان؛ فنجده بدور الضحية، والمناضل والمحلل السياسي والاجتماعي والمشارك في صناعة الخطاب الرسمي والباحث عن خطاب جديد ولا ننسى أن الراوي هنا هو نفسه الإنسان الذي تعرض أهله لتجربة الاقتلاع من الأرض والتشرد في مخيمات اللجوء ليصارع من أجل البقاء في المحيط الجديد. هذا الصراع اتخذ أشكالاً متنوعة يحددها الوعي بالحالة الاستعمارية والخيار الذي يتخذه الفرد الفاعل، في ظل غياب إستراتيجية جماعية، للتعامل مع هذه الورطة. والمستوى الأول الذي أسهمت تجربة الاقتلاع في صناعته هو الذاكرة التي حملها الرواة عن الوطن وتجربة الاقتلاع والتهجير كما وَرَّثها الآباء للأبناء والبنات المولودين "غرباء في أرض غريبة"،[234] فكانت قصتهم عن البلاد وسيلة لرفض حدث النفي المادي من الوطن بفعل استعماري خارجي من خلال تثبيت الوطن في ذاكرة الأجيال، ليمتد الصراع اليوم باتجاه اقتلاع الوطن من الذاكرة أو اختزاله إلى دولة مشرذمة بتضافر الفعل الاستعماري الخارجي ومصالح المراكز الفلسطينية المتنفذة.

---

[234] جملة مستعارة من حجر الورد لحسين البرغوثي.

صورة فلسطين 2008- رواية نقدية

إذا حاولت استخلاص الملامح العامة المشكلة لصورة فلسطين في روايات اللاجئين التي جمعتها هذه الدراسة، يبدو واضحاً أن الرفض والغضب سمتان تصبغان معظم الروايات وإن اختلفت شدة الرفض وحدة الغضب بين الأنماط المختلفة. الرواية هي رواية للاغتراب الفلسطيني، اغتراب مادي عن الأرض، واستلاب انساني، وضياع، وتشتت. والصوت الغالب هو الصوت النقدي الموجه في الغالب للسياسة الفلسطينية بممثليها قيادة وأحزاب أكثر مما هو موجه للاستعمار الكولونيالي وأدواته. فالتفكير النقدي هنا موجه للواقع الحاضر الرديء والذي لا يعد بامكانية للتغيير الايجابي في المستقبل بما يضع حداً لحالة الاقتلاع التي ألمت بهؤلاء اللاجئين في الماضي. والصورة التي يقدمها اللاجئون اليوم لفلسطين بجانبها النقدي قد لا تبدو تاريخاً بالمنظور الرسمي النخبوي للتاريخ لكنها تعبر عن الضمير التاريخي للشعب الذي عايش اللحظات التاريخية وما زال يعيش نتائجها ويحق له اليوم المساهمة في صنع اللحظة التاريخية القادمة وليس فقط في كتابتها. تختلف نبرة النقد في الروايات، كما ظهر في الأنماط الثمانية: اليأس، الخوف، الاحباط، الاستسلام، الغضب، الأمل، الضحك، البكاء، السخرية لتنقل صورة درامية عن الواقع السياسي والاجتماعي من منظور مجموعة من اللاجئين الفلسطينيين في الداخل والخارج. الدلالة الأكبر التي يمكن استخلاصها من الصوت النقدي المسيطر على أغلب الروايات بمختلف أشكاله هي رفض الواقع الحاضر والتوق لتغييره. قدم بعض الرواة قراءة تحليلية للوضع العلم الذي يرفضونه وينتقدونه بتقديم الأسباب والمبررات التي أوصلت الفلسطينيين قيادة وشعباً إلى الوضع الحالي، وهم من الذشيطين في الفضاء العام: سياسياً و/ أو اجتماعياً. بينما اتخذ النقد لدى فئة أخرى طابعاً وصفياً أكثر منه تحليلياً، لينطلقوا من قصصهم الخاصة فيصفون احباطهم وغضبهم من الوضع، الأمر الذي أفرز حالات مختلفة من المقاومة بالحفاظ على الذاكرة الجماعية، خصوصاً أن اللجوء لعب تاريخياً مكوناً رئيسياً في الذاكرة الجماعية.

ينطلق الرواة الذين رسموا الروايات الأكثر نقدية في تشكيل صورة فلسطين من واقع فلسطين اليوم والذي يجمعون على وصفه بالسيء، وبالقاء نظرة شمولية على الصور المتشكلة يمكن وسم الصور التي تشكلها الروايات الشعبية بأنها صورة نقدية تُشَرِّح الوضع الماضي والحالي بمعايير تختلف باختلاف دور الراوي/ة ومشاركته في الأحداث التي تشكل روايته ودرجة وعيه السياسي؛ في بعض الروايات، يبدو النقد أقرب إلى التذمر والشكوى التي تعكس مشاعر اليأس والحزن المسيطرة على الراوي كما في روايات النمط المحبط، بينما يرتفع صوت النقد ليتحول إلى قراءة تحليلية لأحداث أو شخصيات معينة أو للوضع ككل لتبدو أقرب إلى مراجعة نقدية للمسيرة الفلسطينية بأبعادها التاريخي والسياسي والاجتماعي، وتبرز أعلى الأصوات الناقدة ضمن فئة الأشخاص الذشيطين في الحياة السياسية العامة وبخاصة أولئك الذين شاركوا في العمل السياسي والعسكري والاجتماعي، ويتوزع هؤلاء الأشخاص على الأنماط المختلفة.[235] ويتركز الصوت النقدي بالدرجة الأولى حول العوامل

[235] يبرز الصوت النقدي بالتحديد في الروايات التالية: رواة صورة الواقع: الواقعي السياسي، الحالم الغاضب، الحالم بالغد الأجمل ويسمع أحياناً في الأنماط الأخرى لكن بدرجة أقل.

الذاتية: الحركة الوطنية الفلسطينية، أوسلو، وممارسات السلطة الفلسطينية. ويمكن ايعاز هذا، اعتماداً على الروايات، إلى الوضع الرديء السائد وقت اجراء المقابلات بسبب المشاكل الداخلية بين فتح وحملس و سيادة حالة من الضياع و الأنومي_اللامعيارية وانعدام الرؤية الواضحة المبنية على مشروع يسير نحو انهاء حالة الاقتلاع المستمرة منذ واحد وستين عاماً وما يرافقها من ظلم واضطهاد، وتختلف رؤية اللاجئين للمخرج من هذه الحالة باختلاف أصولهم السياسية والفكرية كما اتضح من الأنماط المختلفة،[236] وبالنتيجة لا يمكن تحديد عامل واحد يشكل صورة فلسطين لدى اللاجئين في المكانين، فهي لا تتشكل بالحنين والتوق إلى الوطن الضائع فقط؛ ولا بالتوق إلى الاحساس بالأمان والحصول على حقوق المواطنة كما استنتجت بيتيت في بحثها في المخيمات اللبنانية (Peteet, 1995: 215)؛ ولا بالتوق إلى استعادة مقومات الهوية التي فقدوها والتخلص من وصمة لاجيء (Chatty and Hundt, 2005). لهذا ليس من الغريب أن يوجه اللاجئون نقدهم إلى اتفاقية أوسلو والسياسات التي تبعتها كونها كرست حالة اللامعيارية إضافة إلى أنها لم تأخذ اللاجئين بعين الاعتبار.

[236] يرتفع منسوب النقد بين الرواة الأكثر اهتماماً بالسياسة ليتحول الجزء الأكبر من الرواية إلى قراءة نقدية في الواقع الفلسطيني على امتداد مراحله.

الملحق 1

الصور التي تقف على الجانب الأيمن مأخوذة في مخيم قلنديا، والأخرى على الجانب الأيسر من مخيم اليرموك

إحدى حارات مخيم قلنديا

حارة الصفافرة – مخيم اليرموك

شارع في مخيم قلنديا

الشارع الرئيسي في مخيم اليرموك

كتابات على الجدران في مخيم قلنديا

بوسترات على الجدران في مخيم اليرموك

الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين
٤٣ ... شهيداً على طريق العودة والاستقلال
منزل الشهيدين
سامر سامي الكسبة
استشهد بتاريخ ٢٥ـ١ـ٢٠٠٢م
ياسر سامي الكسبة
استشهد بتاريخ ١٦ـ١٢ـ٢٠٠١م
شارع ٣٠
مخيم اليرموك
PALESTINE
بو الدرداء

بسم الله الرحمن الرحيم
هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون
مرقد المرحوم الحاج
محمد سليم السعدي
مولده ١٩٠٨ صفوريه
توفي ٢٢ رجب ١٤٠٧
و ٢٢ آذار ١٩٨٧
شهيد إنتفاضة الأقصى
محمود مصطفى محمود إمطير
من بئر معين
استشهد بتاريخ ٢٠٠١/٩/٢٦م
عن عمر يناهز ٢٧ عام
إنا لله وإنا إليه راجعون
بسم الله الفاتحة الرحمن الرحيم
هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون
مرقد المرحوم عطا احمد الصفدي الحاج
مولد حيفا ١٩٢٥
توفي ٢٧ رجب ١٤٢٦ الموافق ٣١ آب ٢٠٠٥
الفاتحة
الى روح الحاجة
عايشه حسين أبو العيش
زوجة الحاج
احمد مطر
من بيت محسير
توفيت بتاريخ ٢-٢-١٩٩٣
الفاتحة
ضرع المرحومة
ليلى شحادة حسين
علبان من اشوع
توفيت في
١٢/٢/١٩٩٣م
الموافق : ١٤١٣هـ
عن عمر يناهز ٣٥ عاما
كل نفس ذائقة الموت
الفاتحة
ضرع الشهيد الفقيد القائد
حسين محمد علي قبلاوي
ابو تحسي
عضو اللجنة المركزية
مولود رشعين ١٩٦٥ من صفورية الجليل
استشهد بتاريخ ٢٢ رجب ١٤٢٧
الموافق ١٥/٨/٢٠٠٦
في لبنان

حاولت هذه الدراسة بناء صورة لفلسطين من مجموع روايات بعض اللاجئين في مخيمي اليرموك وقلنديا. فكانت سيرة فلسطين مع استعمار انتزع الأرض من سكانها واقتلع السكان من أرضهم ليبقى مصيرهم معلقاً بين الخيام والأحلام. كتب هذه السيرة المُقتلَعُون الذين سُمُّوا "اللاجئين" وسُمِيَ مكانهم الجديد "المخيم". واحد وستون سنة مرت، وما زالوا في المخيم: منهم من اختار البقاء في المخيم، ومنهم من بقي مجبراً لانعدام الخيارات الأخرى، فالحياة تستمر وهم مستمرون من خلال البنات والأبناء الذين خرجوا من رحم أمهات انتُزِعْن من رحم البلاد: أجيال وراء أجيال يكبرون بين الخيام التي كبرت بدورها لتتحول إلى بيوت من الاسمنت والحجر تضيق ببشر تتسع أحلامهم وأمنياتهم في بعض الأحيان وتتقلص في أحيان أخرى أمام ضربات الواقع.

هناك صور أخرى للحفاظ على الذاكرة لم تتناولها روايات اللاجئين الذين قابلتهم، لكني لاحظتها في زياراتي لمقابر من غيبهم الموت في ثلاثة مخيمات هي برج البراجنة في بيروت وقلنديا في رام الله واليرموك في دمشق. في كل مرة كنت أدخل فيها إلى المقبرة، كان ينتابني نفس الشعور: الهدوء والترتيب المتناقض مع ضوضاء وفوضى المحيط. لكن سرعان ما كنت أكتشف أن المقبرة التي تسمى مقبرة الشهداء تحكي جزءاً من الحكاية: شواهد القبور للاجئين من الأجيال الثلاثة استشهدوا أو ماتوا ميتة ربهم كلها منقوشة باسم البلد أو القرية الأصل في فلسطين لترسم خارطة فلسطين الطبيعية والتي يمكن قراءتها كتعبير جمعي لرفض النسيان. وهنا أستذكر قراءة فيصل دراج لنظرية فالتر بينيامين في التاريخ: "إذا كان في استذكار الماضي المغلوب ما يثير الأسى، فإن في وحدة الأحياء والأموات ما يثير الأمل" (دراج، 2006: 161).

الملحق 2

قائـــــــمة الـــــرواة[237]

صورة فلسطين الواقع

أولاً: النمط المحبط بين الرفض للواقع والتكيف معه

مجموع الرواة: 24 | قلنديا: 17، اليرموك: 7 | الذكور: 13، الإناث: 11

1. الحج محمد الماعيني، 80 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: بير اماعين "حالياً، (كما قال) اسم قريتنا موداعيم"، له 13 بنت وولدين – بنتين توفوا وبقي 11 بنت وولدين، كلهم متزوجون ويعشن حواليه ما عدا بنت في نيويورك وبنتين في أمريكا الجنوبية
2. أبو مالك الصرعاوي، 61 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: صرعة قضاء القدس، خريج دبلوم هندسة، ويعمل موظفاً، متزوج ولديه عدد من الأبناء والبنات ..
3. جميلة الساريسية، 51 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: ساريس، خريجة معهد تربية، تعمل في التدريس، متزوجة وأم لأربعة أطفال
4. الحاج أبو غسان العرتوفي، 65 سنة، مخيم قلنديا، عرتوف، تعلم للصف السادس واشتغل عامل عند اليهود بالزراعة، متزوج وأب لأربعة أولاد وابنتين
5. أبو أمين القبيبي، 56 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: قبيبة بني عواد، يحمل شهادة دبلوم صناعي من معهد قلنديا وعمل في مجال النقل الخارجي، متزوج وأب لستة شباب وأربع بنات
6. أبو سالم البرجي، 65 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: البرج قضاء الد، درس للصف السادس ويمتهن مهنة الحلاقة، متزوج وأب لثمانية من الأبناء والبنات
7. أسماء القبيبية، 52 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: قبيبة بني عواد، درست للأول الاعدادي وتدير مشغلها الخاص، غير متزوجة
8. أم عمرو الشوعانية، 49 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: اشوع، درست للصف التوجيهي، وكانت ربة منزل إلى أن توفي زوجها فاضطرت أن تبحث عن عمل لإعالة أولادها الستة واشتغلت آذنة في احدى مدارس قلنديا

---

[237] ملاحظة: جميع الأسماء المستخدمة هنا غير حقيقية، استجابة لرغبة أغلب المبحوثين بعدم ذكر أسمائهم الأصلية

9. أم فواس علارية، 56 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: علار، خريجة دبلوم من كلية الطيرة، تعمل في مجال التدريس وهي أم لستة أولاد وثلاث بنات
10. أم راجي القبيبية، 61 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: قبيبة بني عواد، متعلمة للصف الرابع وهي ربة منزل أم لخمس بنات وخمسة أولاد
11. مريم الماعينية، سارة، 50 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: بير إماعين، درست للصف الثالث الاعدادي هي ربة منزل وأم لأربع أولاد وثلاث بنات
12. أبو فادي البرفيلي، 47 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: برفيليا، درس للصف الثالث الاعدادي، وقضى فترة من حياته في سجون العدو حينها كان نشيطاً في أحد الأحزاب اليسارية، وعمل في تصليح المنافع والبناء، متزوج وأب لثلاث بنات وولدين
13. عماد الصرعاوي، 38 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: صرعة، خريج جامعي ويعمل موظفاً حكومياً، متزوج
14. ابراهيم اللفتاوي، 38 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: لفتا، خريج جامعي ويعمل في مؤسسة أهلية، متزوج وله ثلاثة أولاد
15. تغريد البرفيلية، 29 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: برفيليا، درست للثالث الاعدادي، متزوجة وأم لثلاثة أولاد
16. أميرة الماعينية، 25 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: بير إماعين، خريجة معهد الوكالة وتعمل في التدريس، متزوجة وأم لولدين
17. أم سامي الماعينية، 62 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: بير إماعين التي هُجرت منها في صغرها إلى يالو. عاشت مع زوجها بين يالو وحارة اليهود في القدس حيث كان يعمل لتتعرض في الـ 67 إلى تهجير آخر من يالو ومن حارة اليهود معاً إلى مخيم قلنديا، لم تلتحق بالمدرسة، متزوجة ولها ست بنات وعشرة أولاد
18. أبو حسين الصفدي، 50 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: القلعة قضاء صفد وبالتحديد من حارة الجورة، دارس للصف التاسع ويعمل في احدى مؤسسات الهلال الأحمر الفلسطيني، مطلق وأب لولدين
19. نوح الخصاصي 55 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: الخصاص، قضاء صفد، متعلم حتى الصف السابع، يعمل في الهلال الأحمر الفلسطيني (عامل)، متزوج وأب لخمسة أطفال
20. أبو عالم الزيناتي 63 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: أم الزينات، أنهى المرحلة الثانوية والتحق بكلية الآداب في جامعة دمشق لكنه لم يتم دراسته، عمل موظفاً في هيئة حكومية وهو نشيط في اللجان المسؤولة عن شؤون اللاجئين الفلسطينيين، متزوج وأب لسبعة أبناء وبنات
21. باسم الاجزمي 41 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: اجزم قضاء حيفا، يحمل شهادة دبلوم صحي ويعمل فني تخدير في أكثر من مستشفى، متزوج وأب لولد وابنتين

22. نغم الصفورية، 35 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفورية، تحمل شهادة البكالوريوس في الهندسة المدنية وتعمل في مجالها بوظيفة حكومية "موظفة بالدولة"، متزوجة وأم لثلاثة أطفال
23. أبو كريم السمخي، 57 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: سمخ قضاء طبريا، أكمل تعليمه للبكالوريا "خدمت فترة بالهلال وكان لدي نشاط سياسي لكن هلا موظف دولة"، متزوج وله ابن وابنتان
24. ناريمان معذري، 46 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: معذر قضاء طبريا، تحمل شهادة دبلوم صحي وتعمل في مجالها

ثانياً: النمط المأسور بالمشهد المحيط

مجموع الرواة: 12 | قلنديا: 2، اليرموك: 10 | الذكور: 8، الإناث: 4

1. شذا الإجزمية، 22 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: إجزم قضاء حيفا، طالبة في كلية الطب
2. عمر الصفدي، 27 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفد، يحمل شهادة بكالوريوس في تكنولوجيا المعلومات يعمل موظفاً في تخصصه
3. رامي التلحمي، 23 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: بيت لحم، طالب جامعي
4. نزار الصفدي، 21 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: المفتخرة، قضاء صفد، طالب جامعي
5. أبو فارس، 42 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: طبريا، دارس للمرحلة الابتدائية ويعمل بالشغل الحر، متزوج ولديه 4 شباب
6. ناصر الغزالي، 46 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: خريج معهد صحي ويحضر لنيل شهادة بكالوريوس في الاعلام، يعمل فني أشعة، متزوج
7. سميرة الإجزمية، 41 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: إجزم، درست التمريض وتعمل في مجالها في مستشفى حكومي
8. فادي الحيفاوي، 40 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: طيرة حيفا، دارس للصف التاسع وموظف، متزوج ولديه ستة أطفال
9. علي الكرملي، 50 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: طيرة الكرمل، يحمل شهادة البكالوريوس في الطب ولديه عيادة خاصة، متزوج ولديه 5 أولاد
10. رندة الصفدية، 34 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: دلاته قضاء صفد، درست التمريض وتعمل ممرضة في أكثر من مستشفى، تعيش مع ولديها
11. سمر الساريسية، 20 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: ساريس، طالبة تدرس لنيل درجة البكالوريوس في الاقتصاد
12. جمال الصرعاوي، 39 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: صرعة، يحمل شهادة بكالوريوس ويعمل في التدريس

ثالثاً: النمط المسحوب من التاريخي إلى اليومي

مجموع الرواة: 7 | قلنديا: 4، اليرموك: 3 | الذكور: 1، الإناث: 6

1. رجاء الصفورية، 30 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفورية، تحمل شهادة بكالوريوس وتعمل مرشدة اجتماعية
2. آمال سمخية، 24 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: سمخ قضاء طبريا، خريجة جامعة دمشق بكالوريوس في الأدب الانجليزي وتعمل في شركة للاتصالات، متزوجة حديثاً
3. سامر الجاعوني، 29 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: الجاعونة، خريج معهد فندقي سياحي وملتحق بدراسة الترجمة في التعليم المفتوح ويعمل في مجال الفندقة
4. أم مالك اللداوية، 32 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: اللد، متعلمة للصف العاشر، وهي ربة منزل وأم لخمسة أطفال
5. نسرين الجبرينية، 33 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: بيت جبرين، متعلمة للتوجيهي، وهي ربة منزل وأم لثلاثة أولاد
6. نور القبيبية، 19 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: قبيبة بني عواد، درست حتى التوجيهي، متزوجة ولديها ابنة
7. رؤى عرتوفية، 18 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: عرتوف، طالبة سنة أولى في جامعة بيرزيت

رابعاً: النمط الواقعي السياسي

مجموع الرواة: 4 | قلنديا: 3، اليرموك: 1 | ذكور: 4، إناث: 0

1. عيسى الزيناتي، 62 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: أم الزينات قضاء حيفا، يحمل شهادة الدكتوراة في الفلسفة ويعمل أستاذاً في جامعة دمشق، وهو متزوج ولديه ولدين وبنت

2. عمر البرجي، 55 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: البرج بين مدينتي اللد والرملة. يحمل أكثر من شهادة علمية، وقد اهتم بمجالات معرفية مختلفة وقام بدراسة بعضها أكاديمياً: تاريخ وعلوم سياسية، وصحافة وإعلام وتربية وعلم نفس، وهندسة إلكترونية وقانون دولي، لكنه لم يتمكن من إتمامها جميعاً نتيجة الاعتقال والقيود التي فُرضت على سفره، حين كان يدرس بنظام الانتساب ومنعته سلطات الاحتلال الاسرائيلي من السفر. ويعمل الآن في مجال الكتابة الإعلامية، متزوج ويعيش مع أسرته في مخيم قلنديا

3. يوسف الصرعاوي، 51 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: صرعة، متخرج من معهد قلنديا كمساعد مهندس، ويدير عمله الخاص في مجال التجارة، متزوج ولديه 8 أولاد

4. ناصر الصرعاوي، 46 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: صرعة، خريج معهد، ومسؤول عن إحدى الهيئات التي تعنى بخدمات اللاجئين، متزوج ولديه 4 أولاد

صورة فلسطين الأحلام

أولاً: النمط الحالم باستعادة الماضي الجميل

مجموع الرواة: 11 | قلنديا: 2، اليرموك: 9 | ذكور: 4، إناث: 7

1. عبد الوهاب الصفوري، 62 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفوريا، يحمل شهادة بكالوريوس وعمل في مجال التعليم وهو الآن متقاعد، متزوج وأب لخمس بنات وولدين
2. سهام الطبري، 47 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: "أبوي من طبريا وأمي من صفد بس نفس النكبة وهم من نفس العائلة هناك صلة قرابة لكن جزء كان في صفد وجزء في طبريا، تحمل شهادة بكالوريوس وتعمل في مجال التعليم، متزوجة وأم لصبيين
3. ليلى ترشيحية، 56 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: ترشيحا، تحمل شهادة بكالوريوس وعملت في مجال التعليم وهي الآن متقاعدة، متزوجة وأم لولدين و 5 بنات
4. أم سعد حولية، 45 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: الحولة قضاء صفد، دارسة لمرحلة البكالوريا عملت فترة في التدريس والآن ترعى أولادها بعد وفاة زوجها، لديها ثلاث بنات وصبي
5. سناء الحيفاوية، 40 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: "الأصل من طيرة حيفا وأمي من صفد"، تحمل شهادة بكالوريوس وتعمل في مجال التعليم
6. أسماء الصفدية، 46 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: "ديشوم شمال صفد على الحدود اللبنانية، لما ضربها حزب الله سموها ديشون". تحمل شهادة البكالوريوس في الهندسة وتعمل في وظيفة دولة، متزوجة وأم لثلاث بنات وصبيين
7. ابتسام الصفدية، 52 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفد، محامية، ومتزوجة تعيش حالياً مع زوجها
8. أبو محمد الصفدي، 47 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفد، درس للصف التاسع، ويعمل سائق سيارة أجرة، متزوج وأب لولدين وثلاث بنات
9. بكر معذري، 46 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: معذر قضاء طبريا، خريج معهد صحي ويعمل موظفاً في وزارة الصحة
10. الحاجة سارة، 67 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: صوعة، حين سألتها عن الدراسة أجابتني: "تخرجت من بريطانيا، من أكسفورد بتعرفيها وين؟، ثم ضحكت، وقالت: ولا قريت (قرأت) بالمرة، أنا مش دارسة، تعلمت من الحياة"، متزوجة ولها ست بنات وأربعة أولاد وابنتين توفيتا.

11. هدى اللداوية، 37 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: اللد، تحمل شهادة بكالوريوس وتعمل في مجال التعليم، متزوجة وأم لأربعة أبناء.

ثانياً: النمط الحالم الباحث عن فلسطينيه

مجموع الرواة: 11 | قلنديا: 3، اليرموك: 8 | ذكور: 7، إناث: 4

1. شريف الطنطوري، 28 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: الطنطورة قضاء حيفا، يحمل شهادة بكالوريوس في الكمبيوتر ويعمل في مجاله
2. رامي الجاعوني، 17 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: الجاعونة/ قضاء صفد، طالب جامعي سنة أولى
3. منى الصفورية، 35 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفورية، تحمل شهادة بكالوريوس وتعمل في مجال التعليم
4. خالد الناصوي، 18 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: الناصوة، طالب جامعي في الاعلام والمسرح
5. فارس الطنطوري، 33 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: الطنطورة قضاء حيفا، أنهى شهادة دبلوم بعد التوجيهي ويعمل في شركة للاتصالات، متزوج وأب لطفل واحد
6. رامي الصفوري، 28 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفورية، خريج معهد هندسة ديكور كما يدرس الموسيقى والمسرح، ويعمل في مجال هندسة الديكور
7. عمر الصفدي، 30 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفد وعلى الهوية طبريا، أدب انجليزي ويعمل في صناعة الأفلام في احدى الفضائيات
8. أم نادر الغزاوية، 48 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: غزة، خريجة بكالوريوس وتعمل في مؤسسة تعنى بالتراث الفلسطيني والشباب، متزوجة وأم لخمسة أبناء
9. نبال الساريسية، 18 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: ساريس، طالبة جامعية في قسم الآداب
10. جنان برجية، 25 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: البرج من قضاء اللد والرملة، خريجة بكالوريوس وتعمل في مجال الخدمة الاجتماعية في الأنروا
11. ايهاب الماعيني 26 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: بير إماعين، قضاء الرملة، خريج بكالوريوس ويحضر للماجستير، يعمل موظفاً في الأنروا، متزوج حديثاً

ثالثاً: النمط الحالم بالغد الأجمل

مجموع الرواة: 8 | قلنديا: 4، اليرموك: 4 | ذكور: 4، إناث: 4

1. ريناد الحطينية، 48 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: حطين، شمال غرب بحيرة طبريا، تحمل شهادة بكالوريوس في الكيمياء وتعمل في التطريز، غير متزوجة.
2. وداد الصفورية، 37 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفورية، تحمل شهادة بكالوريا أدبي، وتعمل في مركز ثقافي للأطفال، غير متزوجة.
3. لينا ترشيحي، 46 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: ترشيحا، تحمل شهادة جامعية عليا في الكيمياء وتعمل موظفة في احدى المنظمات الخدماتية الفلسطينية في المخيم، غير متزوجة.
4. سوسن الصفورية، 37 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفورية، تحمل شهادة جامعية في الأدب الإنجليزي والمسرح وتعمل في المجال الصحفي والكتابة، متزوجة وتعيش مع زوجها.
5. أبو سامي يالو، 71 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: يالو، درس للتوجيهي وعمل في الأساس مدرساً ومن بعدها في السياحة، متزوج وله ست بنات وعشرة أولاد، شاركت في المقابلة زوجته أم سامي، 62 سنة (أجابت على جميع الأسئلة تقريباً وبتوسع فاحتسبت مقابلتها التي كانت تفاصيلها أقرب إلى النمط الحالم بالماضي الجميل).
6. منير الساريسي، 43 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: ساريس، يحمل شهادة الماجستير في العلوم السياسية ويعمل في مجال التعليم، متزوج وله اثنين من الأبناء وبنت.
7. كريم الصرعاوي، 51 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: صرعة، يحمل شهادة بكالوريوس ودبلوم عالي ويعمل في مجال التعليم، متزوج وله تسعة أولاد.
8. محمد العطابي، 44 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: بيت عطاب، يحمل شهادة بكالوريوس ويعمل في مجال التعليم.

رابعاً: النمط الحالم الغاضب

مجموع الرواة: 5 | قلنديا: 4، اليرموك: 1 | ذكور: 4، إناث: 1

1. أبو نصر الصفوري، 65 سنة، مخيم اليرموك، البلد الأصلي: صفورية، يحمل شهادة البكالوريوس في العلوم الطبيعية وعمل في التدريس، وهو الآن متقاعد ومتفرغ للكتابة والقراءة. شارك بالعمل العسكري في شبابه وهو نشيط سياسياً منذ صغره
2. مريم اللفتاوية، 76 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: لفتا، أتمت دراستها للصف الثالث الاعدادي، تعمل في جمعية نسوية. وهي من الناشطات في العمل الاجتماعي والسياسي، تعرضت للاعتقال ومنعت من السفر لأكثر من اثني عشر عاماً
3. أبو كفاح القبيبي، 60 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: قبيبة بني عواد، وصل للمرحلة الثانوية، وعمل في مهن مختلفة، أمضى عدة سنوات من حياته في السجون الإسرائيلية والإقامة الجبرية
4. أبو الخير اليافاوي، 56 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: الخيرية، يحمل شهادة دبلوم مهني ويعمل موظفاً في الأنروا، شارك في العمل النضالي في شبابه وتعرض للاعتقال
5. أبو ذضال البرفيلي، 38 سنة، مخيم قلنديا، البلد الأصلي: برفيليا، تعلم للصف العاشر ثم سُجن لنشاطه الميداني والسياسي ولم يتح له المجال للدراسة بعد خروجه من السجن، يعمل حالياً في مجال المطاعم

المـــــــراجع

أشقر، أحمد. (2009). "نحو هوية عربية شاملة، بديلة للهوية الفلسطينية". الهوية الفلسطينية إلى أين؟ شريف كناعنة (محرر). ط 1. البيرة: جمعية انعاش الأسرة.

ألتوسير، لويس. (1981). "الأيديولوجيا وأجهزة الدولة الأيديولوجية: ملاحظات تمهيدية لدراسة". دراسات لا إنسانوية. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

أندرسن، بندكت. (1999). الجماعات المتخيلة. ترجمة محمد الاشرقاوي، ط 2. مصر: المجلس الأعلى للثقافة.

بابه، إيلان. (2007). التطهير العرقي في فلسطين. أحمد خليفة (مترجماً)، ط 1. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

باومغرتن، هيلغى. (2006). من التحرير إلى الدولة: تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية منذ 1948-1988. محمد أبو زيد (مترجماً). رام الله: مواطن.

بشارة، عزمي. (1997). "في الذاكرة والتاريخ". الكرمل، العدد 50: 45-51.

بركات، حليم. (2006). الاغتراب في الثقافة العربية: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

بورديو، بيير. (1994). العنف الرمزي. ترجمة نظير جاهل. بيروت: المركز الثقافي العربي.

بورديو، بيير. (2004). التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول. دمشق: دار كنعان.

تراكي، ليزا. (1990). "قبل الطوفان: تطور الوعي السياسي في المناطق المحتلة تمهيداً للانتفاضة 1967 – 1987".

_____. (2008). الحياة تحت الاحتلال في الضفة والقطاع: الحراك الاجتماعي والكفاح من أجل البقاء. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

تماري، سليم. (1996). مستقبل اللاجئين الفلسطينيين. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

الجابري، محمد. (1997). حفريات في الذاكرة من بعيد. بيروت: مركز دراسات الوحدة.

جرار، ناجح. (1994). اللاجئون الفلسطينيون: مدخل للمراجعة واستقراء للمستقبل. القدس: الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية PASSIA.

الحسيني، مازن. (2001). قراءة في فكر غرامشي السياسي: الثورة، السلطة، التحالفات. القدس: دار التنوير للنشر والترجمة والتوزيع.

حميد، رشيد. (محرراً). (1975). مقررات المجلس الوطني الفلسطيني: 1964–1974، مؤتمر، سلسلة كتب فلسطينية. بيروت: مركز الأبحاث الفلسطيني.

الحوت، شفيق. (2007). بين الوطن والمنفى: من يافا بدأ المشوار. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.

دراج، فيصل. (1996). بؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية. بيروت: دار الآداب.

_____. (2002). ذاكرة المغلوبين: الهزيمة والصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني. بيروت: المركز الثقافي العربي.

_____. (2008). قضايا فلسطينية: السياسة والثقافة والهوية. الطبعة الأولى. رام الله: المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم في منظمة التحرير الفلسطينية.

درويش، محمود. (2007). حيرة العائد. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.

دريدا، جاك وآخرون. (2005). المصالحة والتسامح وسياسات الذاكرة. الدار البيضاء: دار بوبقال للنشر.

زئيف، إيلان غور. (2006). جدلية الوطن والمنفى: التربية الإسرائيلية والتربية على المنفوية في عهد ما بعد الحداثة. رام الله: مدار.

رفيدي، وسام. (2009). "الهوية الوطنية الفلسطينية بعد أوسلو: إشكالية التفكيك برسم الذظام!". الهوية الفلسطينية إلى أين؟ شريف كناعنة (محرر). ط 1. البيرة: جمعية انعاش الأسرة.

زكريا، خضر. (1998). نظريات سوسيولوجية. ط 1. سورية: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع.

سوحان، باسم. (2005). تحولات الأسوة الفلسطينية في الشتات: دراسة سوسيولوجية مقارنة. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

سعد، أحمد. (1985). التطور الاقتصادي في فلسطين. الطبعة الأولى. حيفا: دار الاتحاد للطباعة والنشر.

السعيداني، منير. (2005). مقدمات في علم اجتماع الهوية. صفاقس: دار نهى.

سعيد، ادوارد. (1998). الثقافة والامبريالية. ترجمة كمال أبو ديب، ط 2. بيروت: دار الآداب.

_____. (2002). "التلفيق، الذاكرة والمكان". ترجمة رشا عبد القادر. الكرمل، العدد 70–71: 92–108

سكوت، جيمس. (1995). المقاومة بالحيلة: كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم. ترجمة: ابراهيم العريس ومخايل خوري. ط 1. بيروت: دار الساقي.

سمارة، عادل. (2000). اللاجئون الفلسطينيون بين: حق العودة واستدخال الهزيمة. رام الله: مؤسسة فلسطين للنشر.

_____. (2008). الاقتصاد السياسي للصهيونية: "المعجزة" والوظيفية. رام الله: مركز المشرق العامل للدراسات الثقافية والتنموية.

_____. (2009). "الفلسطيني بين الاغتراب والأنومي". نشرة كنعان الالكترونية. السنة التاسعة، العدد 1854. الرابط الالكتروني http://kanaanonline.org/ebulletin-ar/?p=924

سميث، جيوفري وكينتين هور. (1991). غرامشي: دفاتر السجن. ترجمة: فاضل جتكر. دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر.

شبيب، سميح. (2001). الصحافة الفلسطينية المقروءة في الشتات 1965–1994. رام الله: مواطن.

_____ . (2006). معنى النكبة 1948. رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات والنشر والإعلام.

الشيخ، عبد الرحيم (محرراً). (2008). المنهاج الفلسطيني: إشكالات الهوية والمواطنة. رام الله: مواطن.

صايغ، روزماري. (1995). الفلسطينيون في لبنان: الوضع العام والمشهد من عين الحلوة. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

الصباغ، زهير. (2005). "التطهير العرقي الصهيوني في فترة ما قبل حرب 1948". التراث والمجتمع. العدد 41: 7 – 30.

الصلح، كاميليا وثريا التركي. (محررتان). (1993). مقدمة في وطني أبحث: المرأة العربية في ميدان البحوث الاجتماعية. القاهرة: مركز دراسات الوحدة العربية. ص 26–29

العالم، محمود أمين. (1992). "التاريخ والنظرية". قضايا فكرية، الكتاب 11/12: 9–17. القاهرة: دار قضايا فكرية.

عبد الجواد، صالح. (1994). قرية قاقون. بيرزيت: مركز الوثائق والأبحاث في جامعة بيرزيت. مأخوذ عن كتاب النكبة Nakba بالانجليزية، أحمد سعدي وليلى أبو لغد (محرران).

العظم، صادق جلال. (1992). ذهنية التحريم. لندن: رياض الريس.

علان، ربيحة. (2007). من القرية إلى المخيم: دور المرأة الفلسطينية الريفية اللاجئة في الحفاظ على العائلة 1948–1962. الطبعة الأولى. البيرة: جمعية إنعاش الأسرة.

عمراني، عبد المجيد. (1996). جان بول سارتر والثورة الجزائرية. الجزائر: مكتبة مدبولي.

عمرو، تيسير. (2007). قرية بيت جبرين في الذاكرة الجماعية. رسالة ماجستير قدمت في جامعة بيرزيت.

فانون، فرانز. (1972). معذبو الأرض. بيروت: دار القلم.

_____. (2004). العام الخامس للثورة الجزائرية. ترجمة: ذوقان قرقوط، ط 1. بيروت: دار الفارابي.

_____. (2007). لأجل الثورة الإفريقية. ترجمة: ماري طوق وديالا طوق، ط 1. بيروت: دار الفارابي.

القزق، سليم. (1989). هذه قضيتك يا ولدي. عمان: دار الجليل للنشر.

القلقيلي، عبد الفتاح. (2004). الأرض في ذاكرة الفلسطينيين اعتماداً على التاريخ الشفوي في مخيم جنين. رام الله: شمل.

كناعنة، شريف وآخرون. (1985). قرية عين حوض. سلسلة القرى الفلسطينية المدمرة. بيرزيت: مركز جامعة بيرزيت للأبحاث.

_____ . (2000). الشتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير؟. رام الله: شمل.

_____ . (2000). من نسي قديمه ... تاه! دراسات في التراث الشعبي والهوية الفلسطينية. عكا: مؤسسة الأسوار.

كناعنة، شويف ونبيل علقم. (2008). ليش الشتوح طلق عزيزة؟! دراسة في النكت السياسية والأساطير والإشاعات. رام الله: حقوق النشر للكاتبين.

لومبا، آنيا. (2007). في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية. ترجمة محمد عبد الغني غنوم. ط 1. سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

ماركس، كارل و فريدريك أنجلز. (1976). الأيديولوجية الألمانية. ترجمة فؤاد أيوب. سوريا: دار دمشق.

ماركوز، هربرت. (2007). الحب والحضارة. ترجمة مطاع الصفدي، ط 2. بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع.

المالكي، مجدي. (2004). "كلمة الافتتاح". التاريخ الاجتماعي الفلسطيني: بين غابة الأرشيف وأشجار الحكايات. ط 1. بيرزيت: جامعة بيرزيت.

المالكي، مجدي وياسر شلبي وحسن لدادوة. (2004). المجتمع الفلسطيني في مواجهة الاحتلال: سوسيولوجيا التكيف المقاوم خلال انتفاضة الأقصى. ط 1. رام الله: مواطن.

محمد، زكريا. (2002). في قضايا الثقافة الفلسطينية. رام الله: مواطن.

مسلم، سامي. (2004). النص والواقع: قراءات في المشهد الثقافي الفلسطيني. عمان: دار الكرمل.

معلوف، أمين. (2004). الهويات القاتلة. بيروت: دار الفارابي.

الموعد، حمد. (2002). مخيم اليرموك: مقاربة في سوسيولوجيا المخيم الفلسطيني. دمشق: دار الشجرة. ماركوز، هربرت. (2007). الحب والحضارة. بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع.

ميعاري، لينا. (2005). أدوار النساء الفلسطينيات الريفيات ببعديها الاقتصادي والثقافي بين الأعوام 1930–1960: قرية البروة نموذجاً. رسالة ماجستير. جامعة بيرزيت.

ميمي، ألبير. (1980). صورة المستعمِر والمستعمَر. ترجمة جيروم شاهين. بيروت: دار الحقيقة للطباعة والنشر.

الناشف، اسماعيل. (2003). في اللاتحول في الخطاب الثقافي الفلسطيني. أبحاث ومداخلات: مجموعة مؤلفين. رام الله: مركز منيف البرغوثي الثقافي.

_____. (2005). فك الصهيونية: الفضاء والإيديولوجيا في المدينة الإسرائيلية. تعقيب: عبد الرحيم الشيخ. بيرزيت: منشورات معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية.

_____. (2006). فتح الإبستيم. مجلة مدى آخر. العدد 2: 21–56.

ناصر، رندة. (2002). البحث العلمي: نظرة نقدية للنظرية والممارسة. جامعة بيرزيت.

ناطور، سلمان. (2006). ذاكرة. بيت لحم: بديل.

هلال، جميل. (2002). تكوين النخبة الفلسطينية منذ نشوء الحركة الوطنية الفلسطينية إلى ما بعد قيام السلطة الوطنية. رام الله: مواطن.

_____. (2006). الطبقة الوسطى الفلسطينية: بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة. رام الله: مواطن.

يانج، روبرت. (2003). أساطير بيضاء. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

يحيى، عادل. (2006). قصة مخيم: الجلزون. البيرة: المؤسسة الفلسطينية للتبادل الثقافي.

_____ . (2008). قصة مخيمين: العروب والعين. البيرة: المؤسسة الفلسطينية للتبادل الثقافي.

References cited

Abu Sitta, Salman. (2001). "The Right of Return: Sacred, Legal, and Possible". Palestinian Refugees: The Right of Return. Naseer Aruri, (editor). London: Pluto.

Althusser, Louis. (1971). Lenin and Philosophy and Other Essays. Translated by Ben Brewster. London: Monthly Review Press. www.marx2mao.com/Other/LPOE70ii.html

Anderson, Benedict. (1991). Imagined Communities. London: Verso.

Appadurai, Arjun. (1991). "Global ethnoscapes: notes and queries for a transnational anthropology". Recapturing Anthropology. Fox, R. G. (ed.). Santa Fe: School of American Press.

Appadurai, Arjun. (1993). "The Production of Locality", paper presented at Association of Social Anthropologists, Oxford: IV Decennial Conference.

Badil. (2003). "Survey of Palestinian Refugees and Internally Displaced Persons 2002". Bethlehem: Badil.

Bagchi, Amiya Kumar. (1982). The Political Economy of Underdevelopment. Cambridge: Cambridge University Press.

Barseghyan, Kristine. (2004). "Nationalism, Society and Culture in post-Ottoman South East Europe". Conference papers. Oxford: Universithy of Oxford.

Bhabha, Homi. (editor). (1990). Nation and Narration. UK: Routledge.

Booth, James. (1999). "Communities of Memory: On Identity, Memory, and Debt". The American Political Science Review. Vol. 93, No. 2: 249-263.

Bowker, Robert. (2003). Palestinian Refugees: mythology, identity, and the search for peace. UK: Lynne Rienner Publishers.

Brun, Cathrine. (2001). "Reterritorializing the Relationship between People and Place in Refugee Studies". Geografiska Annaler. Vol. 83, No. 1: 15-25.

Césaire, Aimé. (1972). "From Discourse on Colonialism". Colonial Discourse and Post-Colonial Theory. Patrick Williams and Laura Chrisman. (editors). New York: Columbia University Press.

Chatty, Dawn and Gillian Lewando Hundt, (editors). (2005). Children of Palestine: Experiencing Forced Migration in the Middle East. Oxford: Berghahn Books.

Charmaz, Kathy. (2006). Constructing Grounded Theory: A Practical Guide Through Qualitative Analysis. London: SAGE Publications.

Clifford, James. (1986). On Ethnographic Allegory. Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography. James Clifford and George Marcus, (eds). Berkeley: University of California Press.

Curtis, Andy. (2005). "Nationalism in the Diaspora: a study of the Kurdish movement". Conference Paper. Universiteit Utrecht.

Emerson, Rupert. (1969). "The Problem of Identity, Selfhood, and Image in the New Nations: The Situation in Africa". Contemporary Politics. Vol. 1, No. 3: 297-312.

Gieryn, Thomas. (2000). "A Space for Place in Sociology". Annual Reviews. Vol. 26: 463-496.

Gottschalk, Peter. (2000). Beyond Hindu and Muslim: Multiple Identity in Narratives from Village India. Oxford: Oxford University Press.

Gupta, Akhil and James Ferguson. (1992). "Beyond 'Culture': Space, and the Politics of Difference". Cultural Anthropology. Vol. 7, No. 1: 6-23.

Halbwachs, Maurice. (1992). On Collective Memory. Chicago: The University of Chicago Press.

Hammer, Juliane. (2005). Palestinians Born in Exile: Diaspora and the Search for a Homeland. Egypt: The American University Press in Cairo.

Hilal, Jamil. (2004). "Research methodology: the relevance of qualitative versus quantitative research in meeting the challenges facing social sciences in the Middle East". Paper presented at a Workshop on Social Sciences in the Arab World, Turkey and Iran: Determinants, Status, Potentials. Tunis.

Hobsbawm, Eric. (1983). "Introduction: Inventing Traditions". The Invention of Tradition. Cambridge: Cambridge University Press.

Jarrar, Najeh. (2002). Palestinian Refugee Camps in the West Bank: attitudes towards repatriation and integration. Ramallah: SHAML.

Jayyusi, Lena. (2007). “Iterability, Cumulativity, and Presence: The relational figures of Palestinian memory”. Ahmad Sa’di and Lila Abu-Lughod (editors). New York: Columbia University Press.

Kanaana, Sharif. (1994). Folk Heritage of Palestine. Taybeh: Research Centre for Arab Heritage.

Kanaana, Sharif. (2005). Struggling for Survival: Essays in Palestinian Folklore and Folklife. Al-Bireh: Society of Ina’ash El-Usra.

Klaus, Dorothee. (2003). Palestinian Refugees in Lebanon-where to belong? Berlin: Klaus Schwarz Verlag.

Malkki, Liisa. (1992). “National Geographic: The Rooting of Peoples and the Territorialization of National Identity among Scholars and Refugees”. Cultural Anthropology. Vol. 7, No. 1: 24-44.

_____ . (1995). “Refugees and Exile: From ‘Refugee Studies’ to the National Order of Things”. Annual Review of Anthropology. Vol. 24: 495 – 523.

_____ . (1996). “Speechless Emissaries: Refugees, Humanitarianism, and Dehistoricization”. Cultural Anthropology. Vol. 11, No. 3: 377-404.
“ ”.
Mawed, Hamad Said. (2000). “The Palestinian Refugees in Syria: Their Past, Present, and Future”. Paper prepared for the Expert and Advisory Services Fund – International Development Research Centre. From www.badil.org/e-library/e-library.htm.

Misztal, Barbara. (2003). “Durkheim on Collective Memory”. Journal of Classical Sociology. Vol. 3, No. 2: 123-143.

Nakhleh, Khalil. (1975). “Cultural Determinants of Palestinian Collective Identity”. New Outlook. 18 (November): 31-40.

Nora, Pierre. (1989). “Between Memory and History: Les Lieux de Mémoire”. Representations, No. 26: 7-24.

Olick, Jeffrey and Joyce Robbins. (1998). “Social Memory Studies: From ‘Collective Memory’ to the Historical Sociology of Mnemonic Practices”. Annual Review of Sociology. Vol. 24: 105-140.

Peteet, Julie. (2005). Landscape of Hope and Despair: Palestinian Refugee Camps. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Said, Edward. (1979). “Zionism from the Standpoint of its Victims”. Social Text 1:7-85. As quoted from Beyond Culture by Akhil Gupta and James Ferguson 1992. p.9

Said, Edward. (2000). “Invention, Memory, and Place”. Critical Inquiry. Vol. .26, No. 2: 175-192

Sallach, David. (1974). “Class Domination and Ideological Hegemony”. The Sociological Quarterly. Vol. 15, No. 1: 38-50.

Sayigh, Rosemary. (1979). Palestinians: From Peasants to Revolutionaries. London: Zed press.

_____ . (1998). “Palestinian Camp Women as Tellers of History”. Journal of Palestine Studies. Vol. 27, No. 2, (Winter 1998): 42-58.

_____ . (2004). “Survivors of the 1948 Expulsions: A Second Call for a ‘Race Against Time’”, Between the Archival Forest and the Anecdotal Trees: A Multidisciplinary Approach to Palestinian Social History, Conference at Birzeit University.

Schwartz, Barry. (1996). “Memory as a Cultural System: Abraham Lincoln in World War II”. American Sociological Review. Vol. 61, No. 5: 908-927.

_____. (1997). “Collective Memory and History: How Abraham Lincoln Became a Symbol of Racial Equality”. The Sociological Quarterly. Vol. 38, No. 3: 469-496.

_____. (1998). “Postmodernity and Historical Reputation: Abraham Lincoln in Late Twentieth-Century American Memory”. Social Forces. Vol. 77, No. 1: 63-103.

Shloch, Alexander. (1982). “The Economic Development in Palestine”. Journal of Palestine Studies. Vol. 10, No. 3: 35-58.

Shulz, Helena. (2003). The Palestinian Diaspora: Formation of identities and politics of homeland. London: Routledge.

Slyomovics, Susan. (1998). The Object of Memory: Arab and Jew Narrate the Palestinian Village. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Soja EW. (1996). Thirdspace: Journeys to Los Angeles and Other Real-and-Imagined Places. Cambridge, MA: Blackwell. Quoted in "A Space for Place" article mentioned Gieryn..

Stevens, Richard. (1971). "Zionism as a Phase of Western Imperialism". Transformation of Palestine. Ibrahim Abu-Lughod (editor). Evanston: Northwestern University Press.

Strauss, Anselm and Juliet Corbin. (1998). Basics of Qualitative Research: Techniques and Procedures for Developing Grounded Theory. California: SAGE Publications.

Taraki, Lisa. (2004). "The Palestinian City Reborn: the Middle Class as Historical Agent". Between the Archival Forest and the Anecdotal Trees: A Multidisciplinary Approach to Palestinian Social History. Conference papers. Birzeit: Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies.

Tuan, Y. F. (1980). "Rootedness versus sense of place". Landscape, 25: 3-8.

Williams, Patrick and Laura Chrisman. (1994). Colonial Discourse and Post-Colonial Theory. New York: Columbia University Press. This reference contains many articles and parts of works I cited in my research:
Amilcar Cabral: 'National Liberation and Culture'.
Gayatri Chakravorty Spivak: 'Can the Subaltern Speak?'
Aime Cesaire: 'From Discourse on Colonialism'
Chandra Talpade Mohanty: 'Under Western Eyes: Feminist Scholarship and Colonial Discourse'.
Sara Suleri: 'Woman Skin Deep: Feminism and the Postcolonial Condition'
Arjun Appadurai: 'Disjuncture and Difference in the Global Cultural Economy'
Stuart Hall: 'Cultural Identity and Diaspora'